A-PDF Image To PDF Demo. Purchase from www.A-PDF.com to remove the watermark

جامعة دمشق
كلية الآداب والعلوم الانسانية
قسم التاريخ

الآثار الاجتماعية والاقتصادية للحملات العسكرية المغولية على بلاد الشام (١٢٥٠ - ١٤٠٠) م

رسالة لنيل درجة الدكتوراه في تاريخ العرب والاسلام

إعداد
إكتمال إسماعيل

بإشراف الأستاذ الدكتور
سهيل زكار

دمشق
١٤١٤ هـ - ١٩٩٤ م

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الإهداء

إلى الفرع الأصيل الذي أنبتته دوحة السيد

الرئيس حافظ الأسد .

إلى القيثارة التي رحلت ولم تعزف أعذب

ألحانها بعد .

إلى الروح التي فاضت بالحب فأضحت منهلاً

للباحثين عن القيم النبيلة .

" إلى روح الشهيد باسل الأسد "

اكتمال .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

كلمة شكر

إلى عائلتي وأصدقائي وكل من ساهم في انجاز هذا العمل وأخص بالذكر الأستاذ الدكتور سهيل زطار الذي لولاه لما خرجت هذه الرسالة إلى النور .

الكتمال

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ـــ×ـــ(المحتــــــــــــوى)ـــ×ـــ

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

و - انتشار ظاهرة الحشيشة .

٣ - الاثر على الناحية الدينية

١ - على المسلمين .

٢ - على اهل الذمة .

٣ - الزهد والتصوف .

آ - نشأة الزهد وتطوره .

ب - قيام الاربطة والزوايا ودورها والحياة داخلها .

جـ - طرق التصوف والآثار الناجمة عن انتشارها .

د - كثرة المساجد والمدارس والزوايا .

٤ - ادعاء الكرامات وظهور البدع .

٥ - هدم المنشآت الدينية .

- الفصل الثاني -

(آثار الحملات العسكرية المغولية على الارياف)

آ - الآثار على القرى .

١ - قتل السكان وتشريدهم ونهبهم .

٢ - النزاع بين اليمنية والقيسية .

٣ - الهجرة من الريف الى المدن .

٤ - معاقبة أهل الجبال .

ب - الآثار على الزراعة .

١ - أهم المزروعات في بلاد الشام واثر الهجوم المغولي عليها .

٢ - آثار الحملات على الأوضاع الزراعية .

- الفصل الثالث -

(الآثار على البادية والقبائل غير العربية)

آ - الاثار على القبائل البدوية .

١ - المهام الموكولة للبدو

- رصد العدو المغولي والاغارة عليه ومساعدة السلطات داخليا

٢ - اثر الهجوم المغولي على الاوضاع التجارية البدوية .

٣ - استغلال قدوم المغول وفساد البدو بالمنطقة .

ب - التركمان .

١ - نتائج الهجوم المغولي على أعمال التركمان .

٢ - نتائج الهجوم المغولي في ازدياد الصراع البدوي التركماني .

٣ - نتائج هجوم تيمورلنك في ازدياد أطماع التركمان .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- الفصل الرابع -

(آثار الحملات المغولية على الوضع المالي من جانب الدخل والنفقات)

١- دخل الدولة

آ- الاقطاع

ب- الضرائب والمكوس

-١- الضرائب الطارئة (المستحدثة)

-٢- الضرائب الثابتة.

جـ- المصادرات

-١- مصادرات من قبل قواد المغول

-٢- مصادرات من قبل السلطات.

د- النظام النقدي

-١- العوامل السياسية المؤثرة على القيمة الشرائية (الاسعار)

-٢- العوامل الاقتصادية المؤثرة على القيمة الشرائية.

هـ- الأوقاف.

و- الرشوة.

٢- نفقات الدولة

آ- نفقات الدولة على المعالم الحضارية التي خربها المغول.

ب- نفقات الدولة على التجنيد العام والحملات العسكرية.

- الفصل الخامس -

١- آثار الحملات العسكرية المغولية على الصناعة.

٢- آثار الحملات العسكرية المغولية على التجارة الداخلية والخارجية.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

-« مقدمـــــــــة »-

×××××××××××××

ان في دراسة التاريخ العبرة ، وان في دراستنا لأخبار المغول لعبرة أيضا فالجيوش المدججة بالسلاح والعتاد لم تكن العامل المهم في انتصار المغول واجتياحهم للعواصم والمـــدن الاسلامية الواحدة تلو الآخرى وانما كانت الاوضاع السياسية المضطربة للدول الاسلامية مـــن الاسباب الهامة لانتصارات المغول .

لقد انتصر المغول على العرب وعلى المسلمين وأذاقوهم الذل والهوان والويلات عندما كانـــت الأمة الاسلامية شيعا وأحزابا ، في كل مدينة حاكم يسيطر عليها ويسعى لتحقيق أطماعه وتثبيت حكمه عن طريق التناحر والصراع مع بقية منافسيه متناسيا بذلك واجبه المقدس في حماية بلاده والتعاون مع اخوته واصدقائه لدرء خطر العدو المغير .

تقدم المغول باتجاه الشرق العربي الاسلامي بعد أن قضوا على بقايا الدولة الخوارزميـــة التي كانت تسيطر على المناطق المجاورة لهم ، وأحرقوا مراكز الحضارة الاسلامية ، وخربوا مراكـز العلم والأدب وقتلوا الآلاف من الأنفس البريئة بما فيهم الأطفال والشيوخ ، وذبحوا العلمـــاء والفقهاء ، وتجمع المصادر التاريخية العربية الاسلامية وغير الاسلامية على هول الفظائــــع والجرائم التي ارتكبها المغول بحق العالم الاسلامي ، ولو لم ترد أخبار هذه الحملات علــى ألسنة المؤرخين الثقات الذين عاصروا تلك الحوادث ورأوها بالعين المجردة لما أمكـــن تصديقها نتيجة للوحشية التي أبدوها تجاه معظم السكان .

وبعد القضاء على بقايا الدولة الخوارزمية توجه المغول للقضاء على الخلافة العباسية ، وقـــد استطاعوا تحقيق ذلك حيث قتلوا المستعصم بالله وأفراد أسرته ، وبذلك قضي على خلافـــة دامت أكثر من خمسة قرون كانت خلالها صاحبة الحول والطول والنفوذ الروحي والادبـــي ، على الرغم من انحسار ظلها السياسي قبل مجيء المغول الى المشرق العربي .

توجه المغول بعد احتلال العراق الى الشام وزرعوا الخراب والدمار في كل الأماكن التي مروا بها ناهيك عن القتل والتشريد لسكان تلك الأماكن ، مما أدى الى نتائج اجتماعية واقتصاديـــة هامة انعكست بشكل سلبي على المجتمع العربي الاسلامي .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لقد وضع المغول نصب أعينهم احتلال الشام والعبور منها الى مصر والقضاء على دولة المماليك ، غيرأن ذلك لم يتسن لهم فقد واجه المغول جيشا موحدا قويا بقيادة حكيمة شجاعة مصممة على الدفاع عن دينها وأرضها وتراثها ،وانهزم المغول أمام القوة الاسلامية الموحدة بقيادة المظفر قطز في موقعة عين جالوت التي شكلت نقطة هامة في التاريخ العربي الاسلامي ، فقد أوقفت الهجوم المغولي مؤقتا وحولت تياره من مد الى جزر ، ولقنت الأعداء درسا بأن الثبات والعزيمة وقوة الايمان أهم وأقوى وأرسخ من السلاح والعتاد .

كما أثبتت الامة الاسلامية مجددا أنها قادرة دائما على الصمود والاتحاد أمام أي خطر يهدد كيانها وبقاءها .

ولا بد أن يتساءل كل باحث يخوض غمار البحث العلمي عن الدوافع التي حدت بالمغول الى القدوم لبلاد الشام ، وماهي الأسباب التي أعاقت بقاءهم بالمنطقة ؟

في الحقيقة كانت الدوافع المغولية في السيطرة على بلاد الشام متعددة وكان أهمها الدوافع الاقتصادية وخاصة التجارية منها . حيث هدفوا الى السيطرة على البحر الابيض المتوسط الذى يربط المنطقة بأوربا . ومايؤيد قولنا بأن الدوافع كانت اقتصادية ماأقدم عليه القائد المغولي تيمورلنك من أسره للصناع والتجار وأصحاب المهن والحرف سواء العلمية أوالادبية أو الصناعية .

بعد الانتصار العربي في عين جالوت شهد المجتمع العربي الاسلامي هزائم كثيرة على يد المغول وكانت أسبابها هي تمزق الصف العربي الاسلامي ، فقد نشأت الصراعات بين أفراد المماليك والسلاطين في مصر ، كما أدت السياسة المملوكية الخاطئة المتمثلة بالتصفيات الجسدية للأمراء أحيانا ، وبالنفي والابعاد الى مناطق نائية أحيانا أخرى الى قيام حركات الشغب والتمرد في بلاد الشام ، ولجوء بعض الامراء الى العدو المغولي والاستنجاد به ، فرحب بهم وأقطعهم اقطاعات كبيرة بهدف الاستفادة من المعلومات العسكرية والسياسية الخاصة بالجيش المملوكي والتي عادت بالفائدة على العدو المغولي .

ومن الجدير بالذكر أن السلاطين المماليك لم يكونوا قادرين على تكوين وحدة اجتماعية فيها أدنى توائم . وعاشوا بمثابة طبقة مستبدة . وقد شهدت فترة حكمهم نزاعا بين المماليك

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لقد انطلقت للعمل في معظم مواضيع الاطروحة على توضيح العادات والتقاليد الاجتماعية والقوانين الاقتصادية للمجتمع المدروس في بلاد الشام، ثم تبيان أثر تلك الحملات على القوانين والتقاليد .

وكان المنهج المتبع أيضا أثناء الدراسة توضيح تلك الآثار بالترتيب الزمني بدءا من حملة هولاكو على بلاد الشام وانتهاء بحملة تيمورلنك . ولم يكن اهتمامي منصبا اطلاقا على دراسة التاريخ السياسي كونه غطي بعدد من الدراسات الحديثة ، وانما تركز على دراسة خلفيات الحوادث الناجمة عن تلك الحملات والغوص في أعماق تلك الحوادث لاستخلاص بعض الآثار الاجتماعية والاقتصادية .

صفوة القول بأن الأزمات الحادة التي عانتها السلطة كانت نتيجة للتدهور الاقتصادي والاجتماعي ، والسلطنة انهارت اقتصاديا واجتماعيا قبل أن تنهار سياسيا فمثلا عند العودة لكتاب المقريزي (اغاثة الأمة) يلاحظ الباحث أن المؤلف عزا سبب خلل نظم الدولة الاقتصادية الى التضخم النقدي و أوضاع الجند وغيرذلك .

وأخيرا لعل من أصعب الأمور على الباحث أن يحاول شق طريقه للمرة الأولى ثم ان يخطو عليه بخطو ثابتة وصحيحة . لكنني استطعت ذلك بفضل توجيهات وارشادات الدكتور المشرف الاستاذ سهيل زكار الذى منحني الاهتمام العلمي ، وذلل الصعاب أمامي ، وجعل مكتبته الخاصة تحت تصرفي أنهل منها ما أريد حتى خرج البحث بهذه الصورة الى النور .

جاءت رسالتي من خمسة فصول رئيسة مع مدخل وخاتمة درست في المدخل أوضاع بلاد الشام سياسيا واداريا وعسكريا ، وماكان يجرى فيها من ظروف واحداث مختلفة ، وعرفت بموقعة عين جالوت سنة ٦٥٨هـ/١٢٥٩م وأهميتها في وقف المد المغولي نحو مصر ، وتحول تياره الى جزر ، وأهمية الموقعة في اختبار قدرات المماليك العسكرية التي اثبتت تفوقها في القتال . وأبرزت موقعة حمص سنة ٦٨٠هـ/١٢٨١م وأسباب انتصار المسلمين فيها ، ووقعة الخازندار سنة ٦٩٩هـ/١٢٩٩م . واخفاق الجيش العربي الاسلامي في التصدي للقوات المغولية ماكان له أكبر الأثر في استمرار تقدم هذه الجيوش الجرارة نحو حمص ثم دمشق وارتكاب الفظائع والأهوال في المدينة وضواحيها من قتل وسلب وتدمير لكافة المنشآت ، ثم بحثت في وقعة شقحب سنة

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٧٠٢هـ/١٣٠٢م وانتصار المسلمين فيها ساكان له عظيم الأثر بتوقف الهجمات المغولية على بلاد الشام لفترة طويلة، ثم جعلت الحديث بعدها عن تدهور أوضاع السلطنة المملوكية، تبعها قدوم تيمورلنك الى بلاد الشام، وما أحدثته غزوته من دمار كامل لمعظم المنشآت الدينية، وركزت البحث على تصفية الوجود الصليبي وارتباط مصالحهم مع مصالح المغول، كما تناولت بالبحث العلاقات المملوكية الأرمنية وبحثت الأسباب التي أرغمت المماليك على تقليل نفوذ الأرمن ثم القضاء على عرش أرمينية نهائيا وأخيرا أبرزت الوضع الاداري بما يفيد البحث وبشكل موجز وسريع.

وحمل الفصل الأول عنوان آثار الحملات العسكرية المغولية على المدن. فدرست قتل السكان من قبل المغول ونهبهم وتشريدهم، وحدوث تحركات سكانية اما من بلاد الشام لمصر، أو من المدن الى الأرياف، وأوليت الاهتمام لدراسة الهجرة المغولية الى البلاد وبينت على أن بلاد الشام كانت في بعض الأحيان منطقة عبور للوافدين المغول، وأحيانا أخرى كانت منطقة لاستقرارهم مايعني نقلهم لبعض العادات والتقاليد المغولية، الى جانب الأفكار الاجتماعية والدينية، وتلقي بلاد الشام لعدد كبير من المهاجرين من العراق والجزيرة اثر اجتياح المغول لأراضيهم. وكشفت تأثر الناحية الدينية بالغزو المغولي، فقد شهدت العلاقات الاجتماعية لأهل الذمة تغيرا ملحوظا عند دخول المغول لدمشق في حملة هولاكو، فقد استطالوا على المسلمين. اضافة الى ازدياد الوعي الديني والسياسي وكثرة انتشار الأربطة والزوايا والاعتقاد بالغيبيات. وأثر الغزو بشكل مباشر في ازدياد شرب الخمر والحشيش وانتشار البغاء واللواطة وانعدام الاستقرار الاجتماعي الذي كان يتمتع به المجتمع العربي. ولم أغفل الحديث عن دور التنظيمات الشعبية كالزعر والحرافيش في تبني مصالح الرعية والدفاع عنها، والوقوف بجانبها أثناء حصول الهجوم المغولي.

أما الفصل الثاني الذي حمل عنوان «آثار الحملات العسكرية المغولية على الأرياف» فقد تناول موضوعات متعددة أهمها قتل سكان الأرياف من قبل جنود العدو المغولي، وتدمير أراضيهم الزراعية بما فيها أقنية الري ووسائله، وهجرة سكان الأرياف الى المدن، ازدياد النزاع بين القيسية واليمنية نتيجة اضطراب الظروف الأمنية التي أدت الى الفوضى وعدم الاستقرار. وسميت دائما

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الى ضرب الأمثلة بمايفطي بلاد الشام. ودرست اهتمام السلطات بمعاقبة سكان جبال كسروان والمناطق المحيطة بهم نتيجة للدور السلبي الذي مارسوه تجاه السلطات من جهة او سلبهم للجند المملوكي الهارب من المعارك مع المغول، أو المتوجه الى قتال المغول من جهة أخرى. وأفردت الحديث عن تأثر الزراعة والأراضي الزراعية بالهجوم وكيف سببت هذه الهجمات خرابا لأكثر الأراضي الزراعية الاقطاعية.

وحاولت في الفصل الثالث والمخصص للحديث عن « آثار الحملات المغولية على البادية والقبائل غيرالعربية » رسم صورة متكاملة عن أوضاع البدو والذين كانوا أوفر حظا من سكان المدن ومن الفلاحين، حيث لم تتعرض مناطقهم بشكل مباشر للتخريب، ونجوا من القتل والهلاك الذي تعرض له معظم سكان البلاد أثناء حصول الهجوم. ومن المرجح، أن البدو عمدوا الى تنشيط تجارة - التهريب عبر البادية، حيث أمدوا الاطراف المتصارعة المملوكية والمغولية بالسلاح والعتاد الضروري، وساعدهم على عملهم غياب رقابة السلطات، واتساع حدود البادية وهذا هو السبب الأقوى للثراء الذي تمتع به البدو، وطرحت عدة تساؤلات عن أسباب هذا الثراء، وقد تمت معالجتها أثناء الكتابة.

وكان التركمان هم الطرف الآخر المخصص للبحث في هذا الفصل، فقد بحثت القبائل التركمانية الموجودة داخل بلاد الشام والموجودة في المناطق المحيطة بها، وتأرجح مواقفها مابين مؤيد للسلطات ومساند لها أثناء وقعة حمص والخازندار، ومابين معارض لها بعد حصول غزوة تيمورلنك، حيث بدأت ببث الرعب والفساد في المناطق الشمالية كحلب، والشرقية لبلاد الشام، وتحدثت عن قدوم تحركات تركمانية جديدة أثناء حملة تيمورلنك. وهذا ماكان له أثركبير على الناحية الاجتماعية لبلاد الشام.

وأفردت الفصل الرابع للحديث عن «آثار الحملات المغولية على الوضع المالي من جانب الدخل والنفقات». فتناولت أولا الحديث عن الاقطاع والآثار التي احدثتها الهجمات في تبدل وتغيير بعض أسس الاقطاع كديوان الجيش، وميزت بين توزيع الاقطاعات لأسباب حربية، وتوزيعها لأسباب مالية اقتصادية، واعادة روك الأراضي من جديد نتيجة للتدميروالتخريب. وبينت آثار الغزو في استحداث ضرائب جديدة والتي أطلق عليها بعض المؤرخين الضرائب

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- المصـــادر (دراسة وتعريف) -

استأثر العصر المملوكي بالعديد من الكتابات والمؤلفات التاريخية وتميز بكثرة المؤرخين وغزارة انتاجهم ذلك أن هذا العصرشهد أحداثا جسيمة تمثلت في الصراع العربي الفرنجي ، والصراع العربي المغولي ، مما أضفى أهمية خاصة على الحقبة الزمنية المدروسة من التاريخ الاسلامـــي .
وعلى الرغم من الأهمية البالغة لعصرسلاطين المماليك البحرية بوجه عام (٦٤٨هـ-٧٨٤هـ / ١٢٥٠م- ١٣٨٢م) وعصرالسلطان محمد بن قلاوون بوجه خاص(٦٩٣-٧٤١هـ/١٢٩٣-١٣٤١م) فان هذا العصرلم يبحث بحثا علميا في الشرق الاسلامي وخصوصا فيما يتعلق بتأثيرات الحملات العسكرية المغولية على بلاد الشام لا سيما مانجم عنها من آثار اقتصادية واجتماعية . ان أغلب المؤرخين عمدوا الى تجميع العديد من المعلومات المتعلقة بالفترة المملوكية وصياغتها وتفسيرها في مؤلف عام دون الاهتمام بتحليل المصادر الاساسية التي استقوا منها تلك الحقائق التاريخية المقدمة لنا في مؤلفاتهم.(١)

وتنقسم مصادرنا الى نوعين :

- نوع كان المؤلف فيه شاهد عيان للأحداث التي دونها ،أو وصلت اليه أخبارها عن طريق الرواية المباشرة .

- ونوع آخر عمد فيه المؤرخ الى نقل وتوضيح رواية مؤلف سابق عليه أو حتى على ايجازها واختصارها .
ويجب التنويه بأنه في الحالة الأولى يعتبر عمل المؤرخ ذا أهمية كبرى بالنسبة للباحث، بينمـــا تحتم علينا طرق البحث العلمي والامانة العلمية أن ننظر في الحالة الثانية فيما اذا كان عمـــل المؤرخ وصل الينا كاملا ، وندقق ونمحص الاخبار التي نقلها ونحللها ونتبين فيما اذا كان قـــد داخلها أي تشويش.

وقد وضعت نصب عيني منذ بدء دراسة المصادر المتعلقة بموضوع الاطروحة استنباطات الحوادث التاريخية لا سيما أن معظم المصادر التي بحثت بها كانت اخبارية ولم تهتم الا بالنواحي السياسية المملوكية ، وعانيت منذ البداية من صعوبة الموضوع ولكن بالبحث والمثابرة و الجهد استطعـــت الالمام بالخطوط العريضة للموضوع حتى تمكنت من صياغة فصول هذه الرسالة .

---

(١) - أحمد (أحمد عبد الرزاق) : دراسات في المصادر المملوكية المبكرة ، شارع الليث - الزيتون ، ١٩٧٤م ، ص ٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

(التحفة الملوكية في الدولة التركية) وينتهي عام ٧١١هـ/١٣١١م . ولا شك أن المؤلف أولى الأحداث التاريخية في كتابه هذا عناية خاصة ، وأسهب في تفاصيل بعضها الآخر .

ويثني الباحثون على أسلوبه الجميل الفصيح الموشى بالسجع والمحسنات اللفظية رغم أنه يؤكد على ولعه بالتأريخ فيقول في مقدمة التحفة :

((انني صرفت الهمة الى تدوين التواريخ والسير وتلخيص مافيهما من خبر مختبر ، وايداعها صدور الطروس لتكون عبرة لمن اعتبر)) (١) .

ويسير في كتابه حسب التسلسل الزمني ، ولكن دون أن يذكر في نهاية كل سنة أسماء من توفى بها من مشاهير الأعيان .

واعتمد ايضا في توثيق حوادثه حتى سنة ٦٨٥هـ على المعلومات الواردة في كتب من سبقه من المؤرخين ، بينما اعتمد من سنة ٦٨٥هـ وحتى ٧١١هـ على مشاهداته الشخصية بفضل المناصب التي تقلدها .

ويمكن القول أمدنا هذا الكتاب بمعلومات قيمة عن المعارك العسكرية ضد المغول سيما وأنه وصفها وصفا دقيقا باعتبار مؤلفه قد خاض المعارك الى جانب الجيش المملوكي ، وقد استثمرت مواده بشكل تام في المدخل السياسي وفي الفصل الاجتماعي خاصة بالنسبة للمهاجرين الى مصر أثناء هجوم غازان على بلاد الشام سنة ٦٩٩هـ .

وتميز عصر الناصر محمد بن قلاوون بتشجيعه للحركة العلمية التي عرفت درجة من العطاء تمثلت بانتاج وفير في شتى العلوم . وكان للاستقرار السياسي الذى شهدته بلاد الشام ومصر منذ اعتلاء الناصر العرش للمرة الثالثة والدور الذى قامت به المؤسسات الثقافية من مدارس وجوامع وخانقاوات وبيمارستانات أثر كبير في ظهور عدد كبير من المؤرخين البارزين الذين يعدون أعلاما في الثقافة الاسلامية ، من بين هؤلاء نذكر قطب الدين موسى بن أحمد بن قطب الدين اليونيني البعلبكي (ت ٧٢٦هـ/١٣٢٦م) . قدم لنا قطب الدين معلومات اخبارية هامة عن الاحداث السياسية في العصر المملوكي . فقد اختصر (مرآة الزمان في تاريخ الاعيان) لسبط ابن الجوزي المتوفي سنة ٦٥٤هـ/١٢٥٦م الى النصف وذيل عليها ذيلا في أربع مجلدات عرف باسم (ذيل مرآة الزمان) .

---

(١) - ينظر بيبرس المنصوري : التحفة الملوكية في الدولة التركية ، الدار المصرية اللبنانية ، الطبعة الاولى ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م ، ص٢٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

تبدأ حوادثه في السنة نفسها التي توفي فيها سبط ابن الجوزي وتستمر الاجزاء التي وصلت الينا حتى سنة ٧١١هـ/١٣١٢م.

ويؤكد بعض الباحثين بأن اليونيني قد اعتمد كليا على تاريخ الجزري المعروف باسم (جواهر السلوك في الخلفاء والملوك من جهة) ، وبالذات فيما يتعلق منها بحوادث سنة ٦٩٤هـ/١٢٦٤م لكنه عمد الى تغيير بعض العبارات والالفاظ ، ومن جهة أخرى فقد اعتمد على تاريخ البرزالي في كتابه المقتفى .

واتبع اليونيني في منهجه التأريخ الحولي ، وعمد الى معالجة موضوعاته في شيء من التفصيل، وانفرد في بعض الاحيان بذكر موضوعات جديدة أهمها تكوين المماليك لجيش مدني للدفاع عن دمشق بعد نجاحهم في استردادها سنة ٦٩٩هـ/١٢٩٩م . وعلى الرغم من تداخل معلومات اليونيني وتشويشها الا أنني استفدت منها بشكل كبير في المدخل السياسي ، وبعض القوانين الاقتصادية في بلاد الشام في عصر الظاهر بيبرس سيما حول قطيعة البساتين ، وتراجم بعض الشخصيات الدينية وانتشرت الفوائد منه في أماكن متعددة من الأطروحة .

وبالرغم من خضوع بلاد الشام جميعها لسيطرة المماليك ، الا أن حماه بقيت تحكم من قبل الايوبيين لفترة طويلة ، وان عدت تحت السيطرة المملوكية ومن أبرز الذين حكموها أبو الفداء عماد الدين اسماعيل (ت ٧٣٢هـ) الذى يعد أحد أئمة المؤرخين في عصر المماليك الذين استطاعوا أن يصوروا لنا الاحداث السياسية في الشام ومصر بل وفي الأقاليم المنعزلة .

وتعود براعته في ميدان الكتابة الى ثقافته العالية ووضعه السياسي ، فقد كان أحد ملوك الأسرة الأيوبية الحاكمة التي استعادت مجدها على يدى السلطان الناصر محمد ، وقد تولى أبو الفداء ملك حماه سنة ٧١٢هـ/١٣١٢م ، ثم عين سلطانا لمملكة حماه سنة ٧٢٠هـ/١٣٢٠م .

وساهم أبو الفداء في الحملات العسكرية المملوكية ضد الصليبيين والروم والمغول في بلاد الشام .

وصفوة القول استطاع ابو الفداء أن يسجل لنا أحداث عصره في سن مبكرة ، ومرجع هذا يعود الى تمرسه على أيدى كبار المؤرخين ، والى خبرته الشخصية وثقافته ، وكانت أهم مؤلفاته التي استفدت منها :(المختصر في أخبار البشر) وهو كتاب تاريخي شامل ، وله كتاب آخر ((تقويم البلدان)) سيرد وصفه بين المصادر الجغرافية .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وعلى الرغم من اطلاع أبي الفداء على القضايا السياسية المتعلقة بالدولة المملوكية الا أن مؤلفه المختصر جاء خاليا من تفاصيل هذه المسائل السياسية ، ومع هذا يعد أكثر كتب تاريخ هذه الفترة أصالة وأقدرها على تفسير الاحداث التاريخية بالأدلة والبراهين . وحرص أبو الفداء على تجنب الاقتباس من المصادر الأخرى المعاصرة ، وعلى ترتيب مادته بطريقة علمية منظمة ، هذا فضلا عن الاضافات الجديدة التي لم ترد في أي من المصادر الأخرى .

لقد استفدت من تاريخ أبي الفداء في الفصل السياسي لا سيما ما يتعلق بالحروب الصليبية فقد انفرد تقريبا بما ذكره عن تهديم قلاوون لطرابلس والخوف والذعر الذي أصاب الفرنجة من جراء ذلك . وجاء الوصف على لسانه كونه مشاركا في الحملة ، اضافة الى ذكره للحملات العسكرية المملوكية ضد الأرمن ، كما استفدت منه بما أورده من معلومات اجتماعية حول قتل سكان حلب على يد هولاكو والفظائع التي ارتكبها المغول بحلب ، غير أن استفادتي من كتابه كانت قليلة جداً بما يخص الفصل الاقتصادي وفيما يتعلق بالاقطاع .

* ويحتوي كتاب (الدر الفاخر في سيرة الملك الناصر) للمؤرخ سيف الدين أبي بكر بن ايبك الدواداري ((لا تعرف له ولادة ويعتقد أن وفاته كانت سنة ٧٣٢هـ)) على معلومات هامة جدا على الصعيد الاجتماعية والاقتصادية والسياسية بالنسبة للهجوم المغولي على بلاد الشام ، خاصة بصدد حملات غازان وما أحدثته من آثار تدميرية على البلاد ، وهروب قراسنقر المنصوري الى بلاد المغول ، واعتماد المغول عليه بشكل كبير في تدريب الجيش المغولي ، ويكاد ابن الدواداري أن ينفرد بهذه المعلومات عن غيره من المصادر الأخرى .

وجاء اعتمادي على كتابه الدر الفاخر وهو الجزء التاسع من كتاب كنز الدرر وجامع الغرر ، يشتمل هذا على سلطنة الناصر محمد من سنة ٦٩٨هـ/١٢٩٨م الى سنة ٧٣٦هـ/١٣٣٦م ، وتتشابه موضوعات هذا الكتاب من حيث الجوهر مع مؤلفي بيبرس الدوادار زبدة الفكرة ، والتحفة الملوكية مع بعض الاختلافات التي تتمثل في بعض الاستطرادات .

ولا تقل مكانة شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي المتوفي (٧٤٨هـ/١٣٤٨م) عمن سبقه من المؤرخين ، وهو أحد الذين تولوا الزعامة في ميدان التأليف في التاريخ المملوكي المبكر . تؤكد الدراسات بأن الذهبي استفاد من مؤلفات المؤرخين الذين سبقوه امثال الجزري واليونيني . وأهم مؤلفاته المستفاد منها في مجال البحث (دول الاسلام) . (العبر في خبر من غبر) .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فكتابه دول الاسلام عبارة عن موجز للتاريخ الاسلامي اذ يبدأ منذ عصر الرسول ويمتد حتى يصل الى أحداث سنة ٧٤٤هـ/١٣٤٤م.

والمتأمل لكتاب دول الاسلام يلاحظ محاولة المؤلف تلخيص كتابه تاريخ الاسلام، وبالتالي لم يضف الا القليل النادر الى معلومات تابعد عصر السلطان محمد بن قلاوون، وهكذا فان مواده الاجتماعية والاقتصادية كانت شحيحة جدا، ومع ذلك لم أوفرها وحاولت الافادة منها.

أما كتابه الثاني «العبر» فقد تألف من خمسة أجزاء، ولم أتمكن من الافادة منه بشكل كبير واقتصرت هذه الافادة على بعض تراجم شخصياته التي احتلت مكانة سياسية وادارية ودينية فمعلوماته مقتصرة ومقتضبة.

ويعد زين الدين عمر بن الوردي (ت ٧٤٩هـ/١٣٤٩م) من بين المؤرخين العرب الثقات. نشأ بحلب وتولى عدة مناصب هامة منها قضاء منبج وقد وضع تاريخا عرف باسم « تتمة المختصر في أخبار البشر» قصد به أن يكون تتمة لتاريخ ابي الفداء المعروف باسم المختصر. فلم يضيف ابن الوردي الى كتابه الا موضوعا واحدا جديدا كان أبو الفداء قد أغفله وهو اسلام غازان، وتدل تراجم الوفيات على عنايته بالموضوعات الدينية. ولا يغيب عن الذهن أن ابن الوردي نهج منهجا حوليا، وقد استفاض في ذكر بعض الحوادث الهامة، واختصر في بعضها الآخر.

كانت استفادتي من هذا الكتاب في الفصل الاجتماعي والسياسي لا سيما بصدد هجمات المغول على مدن الشام والمناطق التي خربوها، وقد كانت هذه الفائدة قليلة في فصل البادية والفصل الاقتصادي. ومع هذا يعد أحد المصادر الهامة الاخبارية المعاصرة لحكم الناصر محمد بن قلاوون.

وتناولت بالدراسة كتاب الامام أبي محمد عبد الله بن أسعد اليافعي المكي المتوفي سنة ٧٦٨هـ/١٣٦٦م وعنوانه ((مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان)) يبدو الكتاب فقيرا ومختصرا في مادته التاريخية، في الوقت الذي يذخر فيه بتراجم الوفيات حيث ينهج المؤرخ به النهج الحولي، فهو يذكر أحداث السنوات ثم يتبعها بذكر الوفيات. والاستفادة منه كانت محدودة واقتصرت على الفصل السياسي وبعض الحوادث في الفصل الاجتماعي.

وقدم عماد الدين اسماعيل القرشي المعروف بابن كثير (ت ٧٧٤هـ) موادا تاريخية هامة ضمنها في كتابه الشهير (البداية والنهاية) كان ابن كثير شامي المولد والمنشأ، وكان من اتباع تقي الدين بن تيمية، تولى التدريس بعدة مدارس. وألف كتبا متعددة في التاريخ والتفسير.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وبالرغم من أن ابن كثير قد عاصر قسما من أحداث الحملات العسكرية المغولية على بلاد الشام الا أنه كان ناقلا لمعظم مواده عمن سبقه من المؤرخين أمثال البرزالي من كتابه المقتفى على تاريخ ابي شامة .

وتظهر دراسة البداية لابن كثير بأنه اعتمد على تنسيق وترتيب فقرات المقتفى ثم قدمها على أنها عملا من صنعه ، وعمد الى سد ثغرات المقتفى ببعض النصوص التي أخذها من تاريخ الجزري (حوادث الزمان) ولعل خير مثال على ذلك اشاراته الى الحريق الذي تعرضت له بوابات السجن سنة ٦٩٩هـ/١٢٩٩م على أيدي جماعة من المسجونين الهاربين ، والى دور ابن تيمية في الكلام مع غازان ، ومباحثاته مع أرجواش ، وعبث الحرافشة في المدينة خاصة وهذه أخبار هامة لأن أغلب المصادر المعاصرة للحوادث لم تتعرض لها .

لقد اتبع ابن كثير التسلسل الزمني للحوادث سنة بسنة دون ذكر أي عناوين فرعية لها وأتبع كل سنة بذكر وفيات الشخصيات الهامة فقط . ومواد ابن كثير غنية جدا لكن يعوزها التحليل والتقصي والاستنتاج وامكن الاستفادة منها بعد تحليلها لكن بعض المواد لديه أتت مختصرة ، وكان أسلوبه قريبا الى العامية منه الى الفصحى ، ولم يخف ابن كثير في كتابه هجومه على بعض المخالفين للشريعة الاسلامية ، أو بعض الخارجين عن طاعة السلاطين المماليك من الامراء ، وانصبت اهتمامات ابن كثير في نبع أساسي هو معالجة مصلحة بلاد الشام . ويتضمن كتابه مدى اعجابه باستاذه ابن تيمية لنجاحه في استمالة قلوب الدمشقيين حوله .

خلاصة القول ان مواد ابن كثير على الرغم مما وصفت آنفا لم أستغن عنها نظرا لغزارتها وأهميتها . وقد توزعت على فصول الاطروحة لا سيما السياسي والاجتماعي لأنها كانت أقل منها في الاقتصادي .

وقياسا للمؤرخين البارزين في الشام نبغ في مصر مؤرخون بارزون ايضا منهم الحسن بن حبيب المتوفي سنة (٧٧٩هـ/١٣٧٧م) .

نشأ الحسن بن حبيب في بيئة علمية بحتة ، فقد تنقل والده طلبا للعلم بين دمشق ومصر وحلب وسمع من مشاهير عصره واتاح هذا المناخ للحسن بن عمران حضور مجالس العلم في بلاد الشام منذ طفولته ، وهذا يقود الى القول بأن الحسن بن حبيب وان كان مصري المولد فانه شامي الثقافة .

ألف عدة كتب هامة لكن الاستفادة في مجال البحث تجلى من كتابه ((تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه)) وقد تألف من جزئين ، أوقف فيه المؤلف الحوادث التاريخية على ذكر أحوال المماليك

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

من سنة ٦٧٨هـ/١٢٧٦م وحتى سنة ٧٤١هـ/١٣٤٠م واتبع ابن حبيب فيه المنهج الحولي مع ذكر الوفيات في نهاية كل سنة وقد جمع ابن حبيب في تاريخه أحداثا سياسية واجتماعية وادارية وقضائية. وعليه جاءت استفادتي في الاحداث السياسية وبعض الادارية والاجتماعية لكن لم أفد منه في الأحداث الاقتصادية، ثم ان الاحداث الاجتماعية والسياسية لديه ليست جديدة بل أوردها موءرخون آخرون .

ويجب ألا نغفل ذكر المؤرخ محمد بن محمد بن صصرى (لم تعرف له وفاة) وكتابه ((الدرة المضيئة في الدولة الظاهرية)) . تناول كتاب ابن صصرى فترة تاريخية هامة تمتد من سنة ٧٦١هـ وحتى سنة ٧٩٩هـ/١٣٩٦م ويلاحظ من خلال استعراض الكتاب أنه استخدم التاريخ لأهداف دينية بأسلوبه الموشى بالآيات والأحاديث المقتبسة، وعمد الى عرض الحوادث التاريخية المجردة باطار فكاهي فكان يذكر الحادثة ثم يستشهد بحادثة مماثلة جرت في عصور قبلها مثلا في العصر الاموي، غير أن اسلوبه في التاريخ ماثل بقية المؤرخين الحوليين، فقد كان يذكر أحداث السنة بعناوين واضحة يشير الى ماسيتحدث عنه .

وقد واجهت بعض الصعوبات أثناء قراءة الكتاب بسبب رداءة أسلوب المؤرخ ، وقرب لغته الى العامية ، وعدم ترابط الجمل اللغوية مع بعضها بعضا ، ومع كل هذا فقد أمكن الاستفادة منه خاصة في النواحي الاقتصادية، لاسيما في جداول الاسعار والأزمات الاقتصادية مثل حادثة النشو ومقتله، وفي بحث التجارة، كما أنه انفرد بذكر معلومة اجتماعية لم يذكرها أحد من المؤرخين وهي قدوم السلطان أحمد بن اويس الى دمشق مع مجموعة من جنده وتناولهم الحشيشة على مرأى ومسمع من الناس، واستفدت منه في فصل البادية ، ولكن الاستفادة منه لم تكن تماثل الاستفادة من المقريزى او العيني .

ويعد ناصر الدين بن عبد الرحيم بن علي بن الفرات المصرى الحنفي المذهب (ت ٨٠٧هـ) من أبرز المؤرخين المصريين في العصر المملوكي ، وهو صاحب التاريخ المعروف باسم ((تاريخ الدول والملوك)) ،

ويحوى الكتاب مواد تاريخية هامة وغنية تتعلق بالمماليك لاسيما البحرية منهم ، فمن خلال الكتاب يكشف لنا ابن الفرات عن مدى اهتمامه بالاحداث السياسية والادارية والاقتصادية المتعلقة ببلاد الشام ومصر، على حين نجد أنه لم يعر القضايا الخارجية كل الاهتمام، ولكن لم تكن الاستفادة منه كبيرة بالنسبة للاطروحة ، وانما كانت قليلة جدا بسبب عدم وجود مادة اجتماعية

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أو اقتصادية كافية تتعلق بالهجوم المغولي على بلاد الشام وبالتالي يمكن القول بأنه يشكل مصدرا مملوكيا هاما ، بينما لم يأت بأي فائدة بالنسبة للاطروحة ولم أعثر بين ثناياه الا على بعض المعلومات المتعلقة بالبدو وأخبار اجتماعية بشأن الهجرة المغولية وحوادث متفرقة وردت عند مؤرخين آخرين بينما كانت الفائدة معدومة بالنسبة للاقتصادي .

وكان عبد الرحمن بن محمد بن خلدون (ت ٨٠٨هـ/١٤٠٦م) من المؤرخين العرب الذين أمضوا شطرا من حياتهم متنقلين بين مصر والشام . ويعرف ابن خلدون بأنه مؤسس علم الاجتماع من خلال المقدمة التي كتبها لتاريخه (العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر) .

تعتبر المقدمة من اهم الكتب العلمية على الاطلاق بفضل ما جاء فيها ، وقد أفدت منها فيما يتعلق بالخلل الذي يطرأ على نظم الدولة ويضطرها لفرض الجبايات. ولا بد أن نشير الى أن ابن خلدون ذكر في المقدمة تعريف التاريخ فقال : ((فن التاريخ من الفنون التي يتداولها الامم والاجيال ، وتشد اليه الركائب والرحال ، وتسمو الى معرفته السوقة والاغفال ، وتتنافس فيه الملوك والاقيال ، ويتساوى في فهمه العلماء والجهال ، اذ هو في ظاهره لا يزيد على اخبار عن الأيام والدول ، والسوابق من القرون الاول ، تنمى فيها الاقوال ، وتضرب فيها الامثال . . . وفي باطنه نظر وتحقيق ، وتعليل للكائنات ومباديها دقيق ، وعلم بكيفيات الوقائع وأسبابها عميق)) (١) .

وهنا يجب أن يطرح سؤال هام وهو هل جاء كتاب العبر مطابقا للنظرية التي طرحها ابن خلدون في المقدمة ؟ .

ان المستعرض لتاريخ ابن خلدون يلاحظ أن المؤرخ لم يختلف نهجه عما سبقه من أسلافه ، فضلا عن اعتماده على المصادر المعاصرة لبعض الفترات وتلخيصها وصياغتها بما يتواءم مع اسلوب العبر ، لكن يجب أن يذكر أن ابن خلدون دون كتابه بعد أن طاف في البلاد الاسلامية والاندلس .

فخلاصة القول ان ابن خلدون ناقض في كتابه العبر نظريته عن علم التاريخ في المقدمة ، وبالتالي لم يكن الكتاب بمستوى المقدمة ، فضلا عن اسهابه بذكر تفاصيل قيام دولة المماليك الثانية تحت حكم الجراكسة ، واقتصرت استفادتي منه في الفصل السياسي والبادية أثناء الكلام عن المواطن الاساسية للقبائل البدوية فقط .

---

(١) - ينظر مقدمة ابن خلدون ، بيروت ، دار العودة ، ١٩٨١م ، ص ٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

واطلعت على كتاب آخر له يدعى((التعريف بابن خلدون ورحلته شرقا وغربا))والكتاب عبارة عن فصول تتعلق بموضوعات تاريخية متعددة أهمها بالنسبة لي لقاء ابن خلدون بتيمورلنك عند حصار دمشق باعتباره كان احد أعضاء الوفد المفاوض، وبالتالي اعتبر المؤرخ الوحيد الذى نقل ما دار بين احد أعضاء الوفد وبين تيمورلنك حول دمشق ،وهو المؤرخ الوحيد الذى ذكر أنه كان في نية تيمورلنك العبور الى مصر عند ما طلب منه وصف شمال افريقية ،ومع أن ابن خلدون قدم معلومات وافية بهذا الصدد الا أنه كان مقصرا في جوانب أخرى اجتماعية واقتصادية فلم يذكر حالة دمشق وأوضاعها الاجتماعية والاقتصادية ،ولم يصف هجوم تيمورلنك عليها وما خلفه من أضرار مادية جسيمة .

والجدير بالذكر أن المؤرخ علاء الدين أبي الحسن بن خطيب الناصرية (ت ٨٤٣هـ/١٤٣٩م)لا يقل أهمية عمن سبق من المؤرخين الشاميين ،وأحب التنويه بأن كتاب ابن خطيب الناصرية عبارة عن مخطوط مؤلف من جزئين استعرته من مكتبة الدكتور سهيل زكار وهو نسخة مصورة . واسم المخطوط ((الدر المنتخب في تكملة تاريخ مملكة حلب)).لقد عانيت كثيرا حتى استطعت قراءة المخطوط سيما وأن الكلمات غير منقطة في بعض الأحيان وصغيرة . والمخطوط عبارة عن تراجم شخصيات سياسية وادارية هامة ،وقد استفدت من المخطوط في الحصول على بعض المعلومات الاجتماعية بصدد النزوح من المدن ،والهجرة الى مصر ،اضافة الى بعض الأشعار التي تتعلق بالهجوم ،وبعض المعلومات السياسية المقتضبة .

وتأثر المقريزى أحمد بن علي المصرى المولد الشامي النشأة (ت ٨٤٥هـ/١٤٤٢م) بعدة مؤرخين منهم ابن خلدون . ويعد من أبرز مؤرخي مصر ،تولى عدة مناصب سياسية هامة منها ديوان الانشاء بالقلعة ،ثم قاضيا عند قاضي قضاة الشافعية ،فإماماً لجامع الحاكم ،ومدرسا للحديث بالمدرسة المؤيدية وبعد انتقاله لدمشق عمل ناظرا على أوقاف القلانسية والمارستان النورى ، والتدريس بالمدرستين الأشرفية والاقبالية.صنف المقريزى كتبا هامة في التاريخ العام ،وفي التراجم وفي النقود ،وفي معالجة بعض المعضلات الاقتصادية وأهم هذه الكتب.

- السلوك لمعرفة دول الملوك .
- المقفى الكبيـر .
- البيان والاعراب فيمن نزل أرض مصر من الاعراب.
- شذور العقود في ذكر النقود .
- اغاثة الأمة بكشف الغمة .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يضاهي السلوك كتب التاريخ الاسلامي التي صنفت من قبل ،وقد أراد أن يتم به سلسلة مؤلفاته في التاريخ المصرى الاسلامي من الفتح العربي الى زمنه ،فأضحى الكتاب أساسا للتأريخ لمصر الايوبيين والمماليك .

اعتمد المقريزى على عدة مؤرخين في كتابه السلوك منهم ابن الفرات والبرزالي والنويرى ،وبيبرس الدوادار. وقد أورد معلومات هامة ومفصلة حول دخول المغول الى بلاد الشام عند هجوم هولاكو وغازان وتيمورلنك ،مع النتائج ،ويصح القول بأنه تفرد ببعض المعلومات التفصيلية التي لم يقدمها غيره من المؤرخين ،فمثلا وردت في سنة ٨٣٤هـ واقعة تدل على انتشار الدراهم اللفكية في مصر ،وهذا يدل على أن المغول أثناء هجوم تيمورلنك على بلاد الشام قد جلبوها معهم .كما انفرد المقريزى دون غيره بتسجيل ارتفاع قيمة الدرهم خلال سنة ٦٩٤هـ/ ١٢٩٤م ،وركز على مقدمات احتلال المغول لمدينة دمشق سنة ٦٩٩هـ/ ١٢٩٩م ونتائج هذا الاحتلال دون الاهتمام بالاحتلال نفسه ،ثم تضمنت سنة ٦٩٩هـ/ ١٢٩٩م معلومات جديدة لم ترد عند غيره من المؤرخين ، وهو الوحيد الذى أشار الى استيلاء المغول على رأس الدربند وهو أحد المواقع الارمينية .(١)

ويخالف المقريزى من سبقه من المؤرخين الحوليين في ترتيب مادته التاريخية .وتفصيل ذلك أن المقريزى دون أحداث كل عام في فصل مستقل تحت عنوان باسم ذاك العام وختم الحوادث بذكر الوفيات والترجمة لأصحابها باختصار. ثم جعل للسنة التالية عنوانا جديدا ،وكثيراً ما بدأ سنواته بذكر الوظائف الكبرى ومتوليها ،هذا اذا جاء بدء السنة موافقا لتسلم سلطان جديد الحكم الذى يتبعه تغيير وتبديل من الموظفين .

والجدير بالذكر أنني استفدت كثيرا من كتاب السلوك بجميع جوانب الاطروحة ،ولم أستطع الاستغناء عنه في أى مكان منها على الرغم من أن بعض مواده وجدتها عند النويرى في كتابه ((نهاية الأرب في فنون الأدب)) .ويدل هذا على أن السلوك يحوى مادة اخبارية واجتماعية واقتصادية هامة جدا أمكن توظيفها بشكل مناسب ضمن الاطروحة لكن بعد جهد وعمل مضن كون هذه الأخبار تخص المماليك أحيانا .

ويضاهي المقريزى مؤرخ مصر العظيم مؤرخ نبغ في بلاد الشام ويدعى ابن قاضي شهبة أبو بكر أحمد الأسدى الدمشقي (ت ٨٥١هـ/١٤٤٨م) كتب كتابا أراده أن يكون ذيلا لكتاب البداية

---

(١) - ينظر المقريزى : السلوك ، ج ٢ ،ص ١٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والنهاية لابن كثير. واعتمد على من تقدمه من مؤرخي الشام مثل الذهبي والبرزالي وغيرهم ثم اختصر الكتاب، لكنه لم ينشر منه الا الجزء الثالث محققا تحت عنوان: «تاريخ ابن قاضي شهبة». يبدأ الكتاب المحقق سنة ٧٨١هـ وينتهي بسنة ٨٠٠هـ ويقدم مواد غنية جدا تتعلق بتاريخ بلاد الشام ومصر، وقد خص بلاد الشام بمساحة أوسع، أمكن الاستفادة منه في جميع البحوث الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، وخصوصا الادارية فيما يتعلق بالنيابات والوظائف الادارية، الى جانب تفرده بمعلومات هامة عن التركمان المقيمين داخل حدود بلاد الشام.

ولم يكن أبو الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢هـ/ ١٤٤٩م) وهو عسقلاني الاصل مصري المولد بأقل اهمية ممن سبق ذكرهم، فقد ألف عدة كتب في التاريخ العام وفي التراجم حوت حوادث الزمان منذ سنة ثلاث وسبعين وسبعمائه حتى وفاته. واهم كتبه التاريخية على الاطلاق: «انباء الغمر بأنباء العمر» وهو يقع في تسعة أجزاء، حوت حوادث كل سنة والاوضاع السياسية ثم أتبعها بوفيات الأعيان مستوعبا رواة الحديث. وغالبا ما أورد فيه مشاهداته. لكن الكتاب لم يعط لهجوم تيمورلنك على البلاد أهمية خاصة وانما استعرض حوادثها بشكل عام ويماثل ما ورد عند ابن تغرى بردى بل ان الاخير تفوق معلوماته معلومات العسقلاني. ومع ذلك أمكن الاعتماد عليه كثيرا بصدد تلك الحملة العسكرية ماتبعها من آثار اقتصادية خاصة المالية منها.

وكان من المؤرخين المعاصرين للمقريزى والمنافسين له محمد بن أحمد بن موسى بدر الدين العيني ولد سنة ٧٦٢هـ/ ١٣٦٢م في عينتاب وتوفي سنة ٨٥٥هـ/ ١٤٥١م. اختير لوظيفة الحسبة في القاهرة سنة ٨٠٢هـ/ ١٣٩٩م بدلا من المقريزى فظل الأخير ناقما عليه طوال حياته. تولى وظائف متعددة. وكان لاتقانه اللغة التركية أثر كبير في تقريبه من السلاطين المماليك وخاصة الاشرف برسباى. ولهذه الاسباب مجتمعة حصلت جفوة بينه وبين المقريزى وابن حجر العسقلاني.

خلف لنا العيني مؤلفا ضخما أسماه «عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان» وأهميته للبحث توازى أهمية السلوك بل وتفوقه أحيانا بما يحتويه من معلومات هامة، ولعل أهميتها أن العيني يشير بصراحة الى المصادر التي اعتمد عليها ونقل عنها. ومن أهم تلك المصادر التي اعتمد عليها ابن كثير، بيبرس الدوادار واليوسفي والنويرى والشجاعي والمقتفى للبرزالي، وثمة مصدر آخر اعتمد عليه العيني بشكل مؤكد وهو ذيل مرآة الزمان لليونيني.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أرخ عقد الجمان للأحداث التي عصفت ببلاد الشام منذ قدوم هولاكو وحتى مغادرة غازان لبلاد الشام ولم يكن العيني ناقلا للأحداث بل ناقدا ، وتجلت الاستفادة من الكتاب بشكل كبير ، فقد أمكن العثور على مادة سياسية واجتماعية هامة أمكن توظيفها بعد تحليلها في الفصل الاجتماعي ، اضافة الى تقديمه مادة اقتصادية هامة لكنها لم تناسب أبدا حجم المادة الاجتماعية .

وينتمي جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن تغري بردي الأتابكي (٨١٣-٨٧٤هـ/١٤١٠-١٤٦٩م) الى جيل المؤرخين كالمقريزي وابن حجر العسقلاني والعيني . وجمال الدين مصري المولد والنشأة . أخذ عن مشايخ كثر مختلف علوم عصره بمصر والشام والحجاز ، ولازم المقريزي والعيني ونهج منهجهما ، واتبع اسلوبهما ونمطهما في التحصيل والكتابة .

ينتمي جمال الدين الى طبقتين هما طبقة المعممين من أهل القلم ، وطبقة أهل السيف . واستطاع ابن تغري بردي كتابة مؤلفات عظيمة في التاريخ والتراجم أشهرها على الاطلاق « النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة » و « المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي » .

ويعتبر كتاب النجوم موسوعة تاريخية هامة ، وأهميته تأتي من كون مؤلفه يؤرخ بشكل موسع للعصر المملوكي ، معتمدا أسلوب الحوليات . ويبدو أنه انتهج منهجا مخالفا لما سبقه من المؤرخين أمثال المقريزي اذ جعل كل عصر من عصور السلاطين والملوك فصلا قائما بذاته ، وذكر السنين وحوادثها تباعا من غير أن يجعل لها عناوين مستقلة ، حتى اذا توفي السلطان أتى على أخباره مرة أخرى في ترجمة منفصلة وشرح أخلاقه وعوامل نجاحه أوفشله ، ثم أعقب ذلك كله بترتيب سنوات العهد ترتيبا عدديا ، وذكر وفيات كل منها في فصل واحد .

تأتي أهمية الكتاب بالنسبة للاطروحة كونه سجل احداث هجوم هولاكو وغازان وتيمورلنك بالتفصيل ، وبهذا أطلعنا على الجو العام الذي عاشته البلاد ، وما لحقها من اضطراب وفوضى وأضرار مادية وبشرية جسيمة ، وبالتالي أمكن الاستفادة من مواده في جميع فصول الاطروحة خاصة السياسية والاجتماعية منها .

وأحب التنويه الى فضل محمد بن محمد بن الشحنة الحلبي (ت ٨٩٠هـ) في سد بعض الثغرات في مواد الاطروحة وخاصة الاقتصادية منها ، وفيما يتعلق بتدمير المنشآت الدينية في مدينة حلب . وكان ابن الشحنة قد استفاد من علاء الدين بن الناصرية كونه صهره ، كما استفاد من ابن حجر العسقلاني وغيره . وقد صنف مؤلفات عديدة تفيد النواحي الفقهية . كما ألف كتابا في التاريخ

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

حملة تيمورلنك على بلاد الشام ، واستعرضت استعراض الحملات المملوكية ضد الدويلات التركمانية واستفدت منها فيما يخص التركمان بالذات. وأمدنا محمد بن أحمد بن اياس ت(٩٢٨هـ/١٥٢١م) بمعلومات تاريخية هامة وغنية متضمنة في كتابه « بدائع الزهور في وقائع الدهور » . وابن اياس مصري المولد والمنشأ ، ولد سنة ٨٥٢هـ/١٤٤٨م بالقاهرة ، أي قبل وفاة ابن تغرى بردى ، مع أن كليهما ينحدر من أسرة مملوكية وان برز ابن اياس أكثر عراقة من ابن تغرى بردى ، فهو يشير الى أن جد والده الأمير عز الدين أزدمر العمرى الناصرى من مماليك الناصر محمد بن قلاوون ، تسلم مناصب متعددة . كما أن جده الأمير اياس الفخرى الظاهرى كان أحد مماليك الظاهر برقوق ، ترقى في المناصب حتى تسلم وظيفة الدوادارية أيام الناصر فرج . وبالتالي يتضح أن ابن اياس نشأ في وسط مملوكي بحت باعتباره أحد أولاد الناس.

ويعتبر كتاب بدائع الزهور أحد المصادر الهامة لعصر المماليك الجراكسة وأوائل العصر العثماني وهو يقع في أحد عشر جزءًا . يتناول حقبة زمنية تمتد من بدء التاريخ حتى سنة ٩٢٨هـ/١٥٢١م وهي سنة وفاته .

جمع ابن اياس بين اسلوبي المقريزى وابن تغرى بردى في تقسيمه لكتابه بدائع الزهور ، اذ قسمه الى عهود مستقلة وأشار الى السنين بعناوين واضحة ، لكنه شذ عنهما بعدم ترتيبه الوفيات ترتيبا تاريخيا منفصلا مثل اسلوب ابن تغرى بردى ، ولم يكتبها في نهاية السنين كما فعل المقريزى ، بل أشار اليها بايجاز.

وهناك مآخذ عديدة على ابن اياس منها عدم توخي الدقة أثناء نقله عمن سبقه من المؤرخين ، كما أن تعليلاته لبعض القضايا تبدو ممسوخة بعض الشيء ، فمثلا يذكر في احداث سنة ٦٩٩هـ/١٢٩٩م أسماء علماء دمشق الذين توجهوا لمقابلة غازان مع عدم الاهتمام بدخول المغول الى دمشق وما أحدثوه من خراب ودمار وأضرار مادية وبشرية ، كما ذكر مقدار النفقة على الجند المصرى قبل توجههم نحو الشام ولم ترد هذه المعلومات الا عند العيني في عقد الجمان .

ومن المؤكد ان الاستفادة من هذا الكتاب كانت متعددة ، فقد أفرد بعض المعلومات التي تخص الطرق التي سلكها المهاجرون الى مصر عن طريق البر والبحر ، كما أمكن منه الاستفادة في الفصل الاجتماعي فيما يتعلق بالقتل والأسر والتعذيب ، والناحية الدينية أيضا .

يمتاز العصر المملوكي ايضا بعدد كبير من كتب السير . ولعل الدوافع للتوجه لكتابة السير ما امتاز به العصر من أعمال بطولية كانت تتطلب تأريخ ذلك فتمجد شخصية البطل وتسلط الأضواء عليها لتندرج ضمن اخباره وأخبار الفترة التي يعيشها الكاتب وكان التأليف في السير يقوى تبعا لاهمية

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الشخصية المؤرخ لها، ولقوة الكاتب، ومدى ايمانه بالموضوع الذي يعالجه، أو يضعف لضعف في هذه النواحي.

والملفت للنظر أن العصر المملوكي امتاز بحظ وفير من كتابة السير أهمها على الاطلاق السيرة التي كتبها عزالدين محمد بن علي بن ابراهيم بن شداد (ت ٦٨٤هـ/١٦٨٥م) « تاريخ الملك الظاهر » يعتبر ابن شداد مؤرخا وجغرافيا ولد بحلب وعاش فيها حتى كان الهجوم المغولي للمدينة سنة ٦٥٨هـ/١٢٥٩م فهاجر الى مصر، وانخرط في خدمة الظاهر بيبرس.

يتناول تاريخ الظاهر بيبرس سيرة السلطان بيبرس البندقداري، ولم تصلنا كاملة وانما بين أيدينا الجزء الثاني الحاوي لأخبار سنوات ٦٧٠-٦٧٦هـ/١٢٧٢م-١٢٧٨م.

قسم ابن شداد السيرة (الكتاب الموجود بين أيدينا) الى ثمانية وعشرين فصلا، اتبعها بلائحة تذكر خصال السلطان وانجازاته وأوصافه الحسنى. وراعى اتباع المنهج الحولي حسب السنين وكذلك حسب الموضوعات والأحداث، ويوفي تأريخه يذكر الحادثة مع الشهر واليوم الذي حدثت فيه معتمدا هذا النمط حتى وفاة السلطان سنة ٦٧٦هـ. وقد اعتمد في أسلوبه الكتابي على السجع الذي كان يأتي أحيانا سهلا وطبيعيا. وتناول في مؤلفه سياسة بيبرس الداخلية، وكيف وطد حكمه، والغاء بعض الضرائب التي امتعض منها الرعية. أما على الصعيد الخارجي فقد ذكر استيلائه على معاقل الاسماعيلية، ومعاقبته للنوبيين، وتوجيهه الحملات العسكرية ضد الأرمن مع ذكر مواجهة المغول وخاصة في الابلستين.

اقتصرت الاستفادة من الكتاب على المدخل السياسي لأنها تخص الظاهر بيبرس فقط، مع معلومات بسيطة توزعت على معظم الفصول، فقد ذكر مثلا مقدار الاقطاعات التي أعطيت لأمراء البدو.

وكان ابن عبد الظاهر (محي الدين أبي الفضل ت ٦٩٢هـ/١٢٩٢م) من أهم المؤرخين المصريين الذين اعتمدت عليهم في البحث. وكان كاتبا في ديوان الانشاء بالقاهرة عند ما تولى الظاهر بيبرس عرش السلطنة، وقد اشترك في موقعة عين جالوت الى جانب المظفر قطز، واستمر ابن عبد الظاهر في مركزه بديوان الانشاء طوال فترة حكم بيبرس وأثناء حكم ابنيه، وجزء من فترة حياة قلاوون وابنه الأشرف خليل.

دون ابن عبد الظاهر عدة سير أهمها « الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر » كتبها للظاهر بيبرس، وسيرة « تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور » كتبها لناصر قلاوون، والكتاب

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الثالث أو السيرة الاخيرة « الالطاف الخفية في السيرة الشريفة السلطانية الملكية الأشرفية » كتبها للأشرف خليل .

وماد فع المؤلف الى تدوين سيرة الظاهر العصر الذي عاش فيه الظاهر، حيث اشتد النزاع بين المسلمين والفرنجة ، وبين المسلمين والمغول ، لا سيما أن الظاهر بيبرس كان أول شخصية مملوكية هامة أرست قواعد السلطة اثر الانتصار العظيم في عين جالوت، وأول شخصية مملوكية خطط لاسترداد المعاقل العربية الاسلامية من يد الصليبيين ونجح في ذلك ، وحول الخوف من الفرنجة في المنطقة من قبل العرب الى ذعر بالنسبة للصليبيين عند ما أخذت جيوشه تجتاح تلك المعاقل والمدن . وبالتالي وضع اللبنة الأولى لاستئناف حروب الاسترداد التي أكملها من بعده المنصور قلاوون ثم ابنه الأشرف خليل. وألقت سيرة الظاهر في الروض ضوءا ساطعا على عصر بيبرس، ولولا هذه السيرة مع سيرة ابن شداد ومختصرشافع بن علي «حسن المناقب السرية المنتزعة من السيرة الظاهرية » لأصبحت المعلومات عن بيبرس مقتضبة جدا . وأضفى ابن عبد الظاهر في عمله بديوان الانشاء الثقة على كتاباته ، فقد جعله على اتصال دائم مع بيبرس، وازداد تقربه منه حتى خصه ببعض الامور المهمة .

كان منهج ابن عبد الظاهر يسير وفق طريقة حولية فقد جعل الحوادث مرتبة حسب السنوات، فكان يضع كل سنة وتحتها عناوين فرعية تشير الى طبيعة الحوادث، وظل معتمدا هذا النمط حتى وفاة الظاهر بيبرس سنة ٦٧٦هـ . وفي بعض الأحيان لم يغفل ابن عبد الظاهر ذكر اليوم والشهر واحيانا الوقت من النهار .

وتقسم المصادر التي اعتمدها ابن عبد الظاهر في سيرته الى قسمين : مصادر شفهية ، اعتمدت على عدة أشخاص بارزين أيام السلطان ، ومصادر كتابية ، فقد اعتمد على معلومات البلاذري في كتابه (فتوح البلدان) وعلى غيره . واعتمد ابن عبد الظاهر اسلوب السجع، وقد أبدى بعض الباحثين التذمر من اسلوبه فذكروا أن جمله في بعض الاحيان غير مترابطة ، اضافة الى عدم اتقانه لاستعمال الضمائر وحروف الجر .

ولكن مهما كانت الآراء فان معظم معلوماته أتت على نحو كبير من الاهمية ، وقد استفدت منها في جميع فصول الاطروحة ، في المدخل السياسي وخاصة ما يتعلق بالصليبيين وأقل منها في الاجتماعي والاقتصادي بما يتعلق بالاقطاع والاوقاف والضرائب المستحدثة والثابتة .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وفي الجانب الآخر مثل كتاب تشريف الأيام حياة المنصور قلاوون ، والكتاب يبدأ بسنة ٦٨٠هـ الى وفاة قلاوون ، غير ان محقق الكتاب استعان في تمهيد الحوادث التي سبقت ٦٨٠هـ من ابن الفرات وذلك من سنة ٦٧٨هـ .

وكان منهج ابن عبد الظاهر في التشريف يماثل الروض ، حيث أرخ بالسنوات ، ووضع تحت كل سنة عناوين صغيرة تشير الى الموضوع الذي سيتحدث عنه وكانت مدى الاستفادة منه تتمثل في بعض المعاهدات المعقودة بين المماليك والصليبيين ، اضافة الى معلومات سياسية أخرى .

أما قطعة الكتاب الثالث (الألطاف الخفية) فان الافادة منها كانت ضعيفة جداً وتكاد تكون محصورة باستخدامها مرة أو مرتين في المدخل السياسي .

ولم يقتصر تدوين السير على ابن عبد الظاهر بل اقتحم هذا الميدان موسى بن محمد بن يحيى اليوسفي المصري . ولد اليوسفي بالقاهرة سنة ٦٧٦هـ/١٢٧٧م ، وتوفي بها سنة ٧٥٩هـ/١٣٥٨م تولى مناصب هامة منها مقدم الحلقة المنصورة في الجيش المملوكي المقيم بالقاهرة ، شارك في معارك المسلمين ضد المغول ومنها موقعة الخزندار سنة ٦٩٩هـ/١٣٠٠م ضد التتار وهي معركة انتهت بهزيمة المماليك ودخول المغول لدمشق ، كذلك شارك في غزو بلاد الارمن مابين سنة ٧٢٧هـ/١٣٢٧م حيث قدم لنا معلومات فريدة عنها .

ألف اليوسفي عددا من الكتب استخدمنا منها في الاطروحة كتاب ((نزهة الناظر في سيرة الملك الناصر)) وهو مصنف في التاريخ يبدأ بأيام المنصور قلاوون وينتهي الى سنة ٧٥٥هـ ويقع في خمسة عشر جزءاً فقد معظمها ، ولم يصل الينا سوى الجزء الذي نحن بصدد دراسته .

انتهج اليوسفي في كتابه طريقة الحوليات في اطار وحدة موضوع متمثلة بالسيرة السلطانية ، وكان السلطان موضوع تاريخه والحوادث مرتبة على السنين ، بحيث يتعرض لسنة بعد أخرى مبتدئا بسنة ٧٣٣هـ شارحا أهم أحداثها ، ومايكون قد تم فيها وتغيير في بعض مناصب الدولة الكبرى كالنيابة والوزارة ، ثم يختتمها بذكر تراجم أعيان من توفي فيها .

اعتمد اليوسفي في كتابه تاريخه على المشاهدة والملاحظة فهو يؤرخ لفترة عايش معظم أحداثها ، ويعتمد أيضا على الرواية الشفوية من أصدقائه ومعارفه وماسمعه . وهناك مآخذ عديدة على اليوسفي منها أنه جزأ الحادثة التاريخية التي لا تنتهي عند سنة واحدة ، بل تمتد وتتواصل الى عدد من السنين تقيدا منه بالمنهج الحولي فتأتي الحادثة بذلك مقسمة مجزأة ، مثال ذلك ماأورده

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

اليوسفي من أخبار المغول مبعثرة سنة ٧٣٤هـ و٧٣٦هـ و٧٣٧هـ ، وأخبار التجريدة الى بـلاد الأرمن امتدت مابين سنة٧٣٧هـ و ٧٣٨هـ . وقياسا لمعظم المؤرخين فقد ركز اليوسفي علـى الحدث دون الاعتناء بالتحليل والتفسير مع أنه كان يحاول أحيانا استقصاء الأسباب وتحـرى الحقائق . وأمكن التقاط اشارات هامة توزعت على فصول الرسالة وخاصة فيمايخص قسم البدو ، والأرمن ، وأوضاع التجار في أرمينية .

وانعكس الهجوم المغولي على بلاد الشام بشكل مباشر على هجرة بعض المؤرخين أمثال أحمد بن محمد بن ابراهيم بن أبي نصر محمد بن عربشاه الدمشقي الاصل (ت ٨٥٤هـ) ولد بدمشق سنة ٧٩١هـ ، ونشأ بها وتضاربت روايات المصادر حول خروج ابن عربشاه من دمشق فاحداها ذكرت أنه عندما هاجم تيمورلنك بلاد الشام هاجر ابن عربشاه مع اخوته وامهم وابن اخته الى سمرقند ثم ذهب بمفرده الى بلاد الخطا ، وأقام ببلاد ماوراء النهر وتلقى العلوم من الاستاذين محمد الجرجاني ، وابن الجزرى نزيلا سمرقند . بينماذكرت أخرى أنه أسر مع أهله ونقل الى سمرقند وعلى أية حال عاد ابن عربشاه الى حلب سنة ٨٢٤هـ وانتقل منها الى دمشق واستقر فيها سنة ٨٢٥هـ . وكان طبيعيا أن يؤلف كتابا يعد أهم المؤلفات العربية يتناول سيرة وحياة القائد المغولي تيمورلنك ، وهو بعنوان ((عجائب المقدور في نوائب تيمور)) .

يحتوى الكتاب على معلومات غنية وثمينة بالنسبة لهجوم تيمورلنك على بلاد الشام أمكن الافادة منه في الفصل الاجتماعي والاقتصادى وأخص الاقتصادى أكثر من الاجتماعي . فهو يعرض لنا بأسلوب أدبي يعتمد فيه السجع أعمال المغول الهمجية ، ولا يتوانى عن نعتهم بألفاظ قاسية وربما مرد ذلك الى المعاناة التي عاناها مع أسرته خارج بلاده . فهو يذكر لنا عن طريق نهبهم للبيوت ، وتعذيب السكان ، وقتل الأطفال ، وينفرد بحوادث لم يذكرها غيره في هذا المجال ، كما أنه عدد لنا مهن الأسرى الذين اقتادهم تيمورلنك الى سمرقند .

لقد وظفت معلوماته بشكل كامل في ثنايا الاطروحة لما لها من فائدة كبيرة ، ولما تبديه من همجية المغول وبربريتهم التي لا مثيل لها ، والتي نجم عنها بشكل مباشر اغتيال الحضارة العربيـة الاسلامية في المنطقة .

ويمكن لنا في هذا المقام أن نتحدث عن الموسوعات التاريخية التي مثل تيارها خير تمثيل أحمد بن عبد الوهاب النويرى (ت ٧٣٢هـ / ١٣٣٢م) أحد الموسوعيين البارزين الذين قدموا لنا معلومات

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

اخبارية هامة عن الهجوم المغولي لبلاد الشام في مؤلفه الضخم المعروف باسم ((نهاية الارب في فنون الادب)) وهو أشبه بدائرة معارف واسعة تحتوي على جميع أنواع المعرفة اللازمة لطبقة الكتاب وتعتبر معلوماته موثوقة باعتباره شغل وظائف عديدة في الجهاز الاداري المملوكي منها ناظر لأملاك السلطان محمد سنة ٧٠١هـ/١٣٠١م، وناظر ديوانه الخاص ووظائف أخرى متعددة. ويتضح من نصوص نهاية الارب أنه نقل عن بيبرس الدوادار مع اجراء بعض التغييرات الطفيفة. والواضح ان النويري لم يستعن فقط بمؤلفات بيبرس الدوادار، وانما استعان بمؤلفات معاصريه من أمثال ابن الدواداري والمؤلف المجهول لا سيما فيما يتعلق باحتلال المغول لدمشق سنة (٦٩٩هـ/١٢٩٩م). فهو يضمن تاريخه بعض المعلومات القليلة بصدد محاولة ابن تيمية استمالة أهل جبل الصالحية لجانبه الأمر الذي يشير بأنه ولابد قد استعان بمصدر ثالث لعله المصدر الذي أخذ عنه ثلاثتهم.

ويعتبر كتاب نهاية الأرب من أشهر الموسوعات التاريخية العلمية فهو يشتمل على ثلاثة وثلاثين جزءاً طبع منها واحد وثلاثون، يضم الجزآن الاخيران أحداث العصر المملوكي بدءاً بسنة ٦٥٨هـ واستفدت من هذا الكتاب أيما فائدة حتى أنني وجدت أهميته تفوق السلوك أحيانا، ولا يخفى أن المقريزي قد نقل عنه، لذلك فقد وجدت فيه مادة غزيرة وغنية ولكنها اخبارية وبعد تحليل الصور كاملة أمكن الاستفادة منه في جميع فصول الاطروحة السياسي وخاصة الاجتياح المغولي لبلاد الشام، وهروب الأمراء والمماليك ولجوئهم الى المغول مثل قبجق، قراسنقر المنصوري، الى جانب الفصل الاجتماعي المتمثل في الهجرة من بلاد الشام لمصر، قدوم الوافدية من المغول الى مصر، أحوال هؤلاء المهاجرين، عبث المراغشة في البلاد أثناء الاجتياح المغولي، الحديث عن أوضاع الفلاحين، وبالنسبة للاقتصادي كانت له فائدة لكنها أقل من الاجتماعي فقد اعتمدت عليه في فقرة الاقطاع والاوقاف والرشوة والضرائب المستحدثة والطارئة.

ويعد كتاب ((مسالك الأبصار في ممالك الامصار)) لشهاب الدين أبي العباس أحمد بن يحيى ابن فضل الله العمري (ت ٧٤٩هـ/١٣٤٩م) من أشهر الكتب العلمية التاريخية الموسوعية. والتي استفدت منها بشكل كبير في البحث نظرا لكون مادة العمري موثقة بنتيجة المناصب السياسية التي شغلها مثل كتابة السر بالشام في عهد الناصر محمد وقراءة الرسائل وغير ذلك من مناصب رفيعة

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يعد كتاب مسالك الأبصار دائرة معارف واسعة ضمنها شيئا من التاريخ الذى يبدأ من عصر الهجرة ويمتد حتى سنة (٧٤٣هـ/١٣٤٢م) ،غيرأن الكتاب غيرمت اول طباعيا وما بين أيدينا أقسام يسيرة منه منها مايتعلق بقسم القبائل البدوية الموجودة في بلاد الشام ودورها السياسي .
وقد استفدت من كتاب القبائل فائدة كبيرة وتجلت استفادته في فصل البادية. حيث ذكر العمرى بالتفصيل أسماء القبائل البدوية المنتشرة في بلاد الشام ، وأعمالها .

واعتمد شهاب الدين أحمد بن علي القلقشندى (ت ٨٢١هـ/١٤١٨م) على كتب العمرى في موسوعته الشهيرة « صبح الأعشى في صناعة الانشا » فهو فَصَّل مااختصره العمرى في كتاب «التعريف بالمصطلح الشريف» وقدم لنا معلومات جغرافية وادارية هامة في موسوعته لم نستطع الاستغناء عنها نهائيا . كما أن القلقشندى قام بنقل مواد العمرى المتعلقة بالقبائل العربية أودعها في كتاب « قلائد الجمان في التعريف بقبائل عرب الزمان » ومعلوماته ستمت معلومات العمرى ، فقد اتبع القلقشندى في كتابه القلائد خطة منهجية بدأها بالحديث عن أصل كل قبيلة بدوية منذ نشوئها حتى عصره وماتفرع عنها وأماكن استيطانها ، واستفدت منه كثيرا في فصل البادية .

ويشد انتباه الباحث التاريخي التطور الذى شهده العصر المملوكي وخاصة التأليف في الميدان الادارى ، وتنبثق عن كتب الادارة فوائد هامة كونها تبرز العلاقة المتبادلة بين الشعب والسلطة ، وقد برزت في العصر المملوكي كتب ادارية هامة عكست صورة الأوضاع الادارية للمجتمع فكان لهذه الكتب أيما فائدة في ايضاح المثالب والمحاسن للادارة المملوكية . ومن خيرة الكتب المتداولة والتي استخدمتها خلال البحث التعريف بالمصطلح الشريف لشهاب الدين العمرى يحوى الكتاب معلومات ادارية هامة جدا تتعلق بالهيكل السياسي والادارى للدولة وقد أمكن الاستفادة من معلوماته في الوضع الادارى لنيابات بلاد الشام (حدودها وظائفها ، طرق البريد) الى جانب ماورد عن الوصايا المتعلقة بأهل الذمة ، ويعد الكتاب أقدم الكتب في ميدانه .

ومن الكتب الادارية الاخرى التي أغنت البحث كتاب « زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك » لغرس الدين خليل بن شاهين الظاهرى (ت ٨٧٣هـ/١٤٦٨م) . الذى يحوى مادة ادارية هامة ، فقد قسم الكتاب الى أبواب ولكل باب عنوان فيمايخص الوضع الادارى وقد تكلم المؤلف بشكل مسهب عن نيابات بلاد الشام وأوضاعها الادارية ولكنها لم تكن بمستوى ماأورده (العمري) في التعريف أو القلقشندى في موسوعته ، ومع ذلك أمكن الاستفادة من معلوماته بما يخص الوضع الادارى .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وهناك صنف آخر من الكتب التي اعتمدت عليها وهي كتب فقهية دينية . ولئن قدم المؤرخون في هذه الفترة مادة تاريخية هامة الا أنهم لم يكونوا على دراية كاملة بقضايا المجتمع وخاصة الدينية ، فقد اكتفى المؤرخون بذكر القضاة وقضاة القضاة وبعض أعمالهم ، بينما تصدى الفقهاء لتدوين مثل هذه الأعمال وأنتجوا مجموعة من الكتب اتسمت بالطابع الديني وأخص بالذكر كتاب (عوارف المعارف) للسهروردي الذي عالج مواضيع هامة مثل التصوف الاسلامي ، فأغنى السهروردي البحث بمادته الهامة حول شروط ساكن الرباط وغير ذلك من الشروط التي تخص المريدين .

ويضاف الى كتب السهروردي كتاب آخر أكثر أهمية وقضاياه أشمل عمومية وهو كتاب (فتاوى السبكي) للعالم تاج الدين السبكي (ت ٧٧١هـ/ ١٣٧٠م) . والكتاب عبارة عن قضايا هامة تخص مجموعة من أفراد المجتمع طرحوها على ابن السبكي للافتاء فيها ، فأصدر ابن السبكي هذه الفتاوى وجمعها في كتاب . والفتاوى تشمل مواضيع عامة منها دينية ومنها اجتماعية . وقد أمكن الاستفادة من بعض الصور الاجتماعية التي تعكس جوانب هامة في المجتمع ، وأمكن تحليلها والاستفادة منها في القضايا الاجتماعية مثل الفتوة ، والقضايا الدينية وما يتعلق باهل الذمة ، اضافة الى أنني استفدت منها في فقرة الرشوة في الفصل الاقتصادي .

يضاف الى مجموعة الكتب الفقهية الواردة فيما مضى كتاب (البحر المورود في الوصايا والعهود) للشعراني ، وقد استثمرت مواده التي تخص التصوف بالذات ، ومن المفيد القول بأن المواد الموجودة في الكتاب لم أعثر عليها في أي كتاب آخر سوى أن زكي مبارك نقل عنه معلومات وظفها لدراسة المجتمع المصري الذي كان يشابه المجتمع الشامي آنذاك ، وبذلك امكن الاستفادة من كليهما .

وظهرت بعض الكتب التخصصية في الناحية الدينية ككتاب (اكرام من يعيش بتحريم الخمر والحشيش) للفقيه أحمد بن عماد بن محمد بن يوسف الاقفهسي الذي ولد سنة (٧٥٠هـ/ ١٣٤٩م) في بهنسا بمصر وتوفي بها سنة ٨٠٨هـ . تلقى العلم عن عدد كبير من الشيوخ أمثال الاسنوي والبلقيني والباجي . يتناول كتابه المذكور قضية الخمر والحشيش ، فقد ناقش في كتابه أسماء الخمر وأحكام متعاطيها وأنواعها ولا أبالغ أن أقول أنني استفدت منه كثيرا في فقرة الخمر والحشيش وأهل الذمة أيضا . فقد عرضت قضية تناول الخمور وبيعها بين أفراد المجتمع ثم أوردت أقوال الاقفهسي التي أخذها عن علماء وفقهاء غيره وناقشها فمثلا يقول في احدى القضايا قال القرافي ، أو قال ابن البيطار ، وأمكن توظيف مادته في الفصل الاجتماعي .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولعل تفرد دمشق بعدد كبير من المدارس الفقهية والزوايا والأربطة بين المدن الأخرى سواء في بلاد الشام أو خارجها دفع الكثير من العلماء والمؤرخين لتدوين انشاء هذه المؤسسات الثقافية ، وكان من بينهم عبد القادر محمد النعيمي الدمشقي ولد سنة ٨٤٥هـ وت سنة ٩٢٧هـ/ ١٥٢٠) كان النعيمي محدثا ، محققا ، لقب شيخ الاسلام ، ألف كتب كثيرة منها (دور القرآن في دمشق) والكتاب عبارة عن ذكر لدور القرآن التي أنشئت في دمشق مع ذكر مؤسسها ، محدثيها ، خرابها على يد المغول ان حصل ذلك ، وأمكن الاستفادة منها بما يخص الناحية الدينية والاجتماعية بما فيها سبب اقبال السلاطين والامراء على انشاء مثل تلك الدور . ولما لم تكن عدد دور القرآن في دمشق مساوية لعدد المدارس فانه صنف لها كتاب يحمل عنوان (الدارس في تاريخ المدارس) ، يتناول الكتاب المدارس الفقهية بالتفصيل موقعها ، منشأها ، المدرسين بها ، المعيدين ، ويذكر أحيانا خرابها واندثارها نتيجة الهجوم المغولي عليها ، وقد أمكن الاستفادة من المواد التي عرضها النعيمي في الأوقاف ، والطرق التي كفلت العيش الدائم للطلبة الى جانب الافادة منها في الفصل الاقتصادي بما يخص الانفاق على المعاهد الثقافية وبنائها مرة أخرى بعد خرابها علي يد المد والمغولي .

وأرى الزاماعلي أن أذكر صنف آخر من الكتب ساهم في تقديم مادة اخبارية واجتماعية هامة سدت جوانب النقص في معلومات الاطروحة وهي كتب التراجم . ومن أهم هذه الكتب (الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة) لابن حجر العسقلاني ، فهو كتاب شامل لأعيان العصر من علماء وفقهاء وتجار وقادة سياسيين . ينهج ابن حجر في تأريخه الترتيب الابجدي فهو يبدأ ترجمة شخصياته بالحروف الابجدية ، وقد أمكن الاستفادة منه كثيرا في الفصل الاجتماعي خاصة أسماء الذين هاجروا من بلاد الشام الى مصر اثر كل هجوم مغولي ، كذلك من نزح من المدن والارياف وأغنى جوانب الاطروحة في ذكر أسماء من عذب على يد العد والمغولي ، وأساليب التعذيب ، وأسماء من فقد أهلة وماله الى جانب الأسرى ، كما أفدت منه في الوضع الاداري .

وأهمية (المقفى الكبير) للمقريزي تفوق أهمية الدرر الكامنة نتيجة لوفرة المعلومات الاخبارية عن الشخصيات المترجم لها ، فقد اعتمد المقريزي على دراسة كل شخصيه ، مولدها ، منشئها أعمالها فمثلا أثناء الحديث عن ابن تيمية ذكروا بالتفصيل عن المقابلة التي تمت بينه وبين غازان وقد استفدت من هذه المناقشة في المدخل السياسي ، كما كانت الافادة من معلوماته في الفصل الاجتماعي بما يتعلق بأسماء الشخصيات التي هاجرت الى مصر أو التي تولت مناصب سياسية وادارية هامة .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويعتبر كتاب ابن تغرى بردى ((المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي)) من كتب التراجم الهامة في العصر المملوكي . يقع الكتاب في ستة أجزاء جمع فيه المؤلف ثلاثة آلاف ترجمة لمشاهير العلماء والأمراء والسلاطين الذين عاشوا في مصر والشام في دولة سلاطين المماليك الأولى والثانية ، بالاضافة الى من عاصرهم من مشاهير المشرق والمغرب من المسلمين وغير المسلمين . ويستهل ابن تغرى بردى كتابه بترجمة المعز ايبك ، ويتبع الترتيب الأبجدى لأسماء المشاهير الذين توفوا بين منتصف القرن السابع والقرن التاسع الهجرى . ولا شك أن الفائدة التاريخية كبيرة بالنسبة لهذه التراجم ، بينما لم تكن بالمستوى المطلوب فيما يخص الناحية الاجتماعية والاقتصادية . وقد ذكرت الفائدة في أماكن متفرقة من الاطروحة .

وكان الحافظ شمس الدين أبو الخير محمد بن عبد الرحمن السخاوى بارعا في مجال التدوين التاريخي فترك لنا مؤلفات عديدة تتسم بالفائدة والضخامة أشهرها كتابه التراجم المسمى (الضوء اللامع لأهل القرن التاسع) . ويتضح من عنوان الكتاب أنه يختص بتراجم القرن التاسع الهجرى ، ومن المعروف أن السخاوى اتصف بثقافته العالية نتيجة لتلقيه العلوم المتعددة الجوانب رحلاته الى بلاد الشام وخصوصا حلب ودمشق وبيت المقدس .

ومؤلفه الضوء اللامع عبارة عن ترجمة لشخصيات أدبية ، علمية ، فقهية ، سياسية .

ولم يقف السخاوى عند جنسية هؤلاء بل أورد سيرتهم سواء كانوا من الروم أو من الهند أو من المشرق أو المغرب . والكتاب عبارة عن اثني عشر جزءا كانت الاستفادة منه تخص الاشخاص الذين هاجروا لمصر عند هجوم تيمورلنك على بلاد الشام أو الذين فقدوا ثرواتهم ، أو الذين عذبوا من قبل العدو المغولي .

والجدير بالذكر أنني استعرضت محتويات كتاب البدر ((الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع)) . للعلامة محمد بن علي الشوكاني (ت ١٢٥٠ هـ) ، وهو كتاب تراجم لأشهر الاعلام في مصر واليمن والشام ، لكنه يركز على اليمن أكثر من البلدان الأخرى . سار الشوكاني في التراجم حسب التسلسل الأبجدى ، ويتجلى بوضوح من خلال الكتاب أنه نقل عن ابن حجر العسقلاني الدرر الكامنة ، وكانت الاستفادة منه ضئيلة جدا واقتصرت على أماكن متفرقة في الفصل الاجتماعي .

ومثلما نشط العلماء العرب في مجال التاريخ ، نشطوا في مجال الجغرافية والرحلات ولكن بشكل أقل وهم ليسوا بعدد المؤرخين ، واستأثرت بلاد الشام باهتمامات هؤلاء الرحالة حتى أنه لم

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يبق رحالة الا ودخل بلاد الشام واطلع على معالمها الثقافية والحضارية، ومن أشهر الرحالة في فترة البحث أبي عبد الله بن محمد العبدري الحيحي .

قام العبدري برحلته وهو لا يزال في مقتبل العمر، كان خروجه من حاحه سنة ٦٨٨هـ/١٢٨٩م، فسار الى تونس، طرابلس، ثم الى مصر برا ومنها الى بلاد الشام فمر بأطراف البلاد الجنوبية (فلسطين) ثم عاد ثانية الى بلاده. أودع العبدري في مؤلفه مشاهداته الشخصية، فكان يصف المحلات والمدن التي يمر بها ويذكر أحوال أهلها، وقد ركز أثناء وصفه للمحلات على العلم والحركة العلمية. واذا كان العبدري قد أسهب في الكلام عن المحلات أثناء توجهه الى شمال افريقية وبلاد الشام، فانه اختصر الكلام في وصف القرى والمدن التي مر عليها، أثناء رجوعه. كانت الفائدة من رحلة العبدري قليلة جدا واقتصرت على معلومات ضئيلة تتعلق بنيابة غزة وحدودها الادارية ومع ذلك وظفتها بمكانها المناسب.

والواقع أنه زار بلاد الشام في العصر المملوكي رحالة عربي آخر هو ابن بطوطة محمد بن ابراهيم اللواتي (ت ٧٧٩هـ/١٣٧٧م) الذي أودع مشاهداته في كتاب هام استعرض فيه ذكر المدن والقرى التي مر بها في مصر وسورية وجزيرة العرب وافريقية الشرقية وآسيا الصغرى وغيرها من البلدان الاخرى، خاصة أن رحلته استغرقت زهاء تسع وعشرين سنة. ولا شك أن معلوماته كانت أكثر فائدة من العبدري، فابن بطوطة اعتمد في وصف المدن على أهم معالمها الحضارية ومزروعاتها الشهيرة، وحكامها السياسيين، فرحلة ابن بطوطة تقدم فائدة كبيرة للباحث في الحياة الاقتصادية والاجتماعية، بينما لم تقدم الفائدة المرجوة منها للرسالة، فاقتصرت الاستفادة على بعض المعلومات الواردة عن الزوايا والأربطة المنتشرة في بلاد الشام، اضافة الى الاستفادة منها في بعض المعلومات الواردة عن زراعات وصناعات مدن الشام.

ويصنف كتاب شيخ الربوة محمد بن ابي طالب الأنصاري الدمشقي (ت ٧٢٧هـ/١٣٢٧م) بين الكتب الجغرافية الهامة التي أمكن الاستفادة منها في البحث وعنوانه (نخبة الدهر في عجائب البر والبحر) فهو يتضمن معلومات دقيقة ومفصلة عن نيابات بلاد الشام، وقد أفدت من معلوماته عن المناطق التي نزلها التركمان في سورية، اضافة الى أسماء قرى دمشق مثل داريا والمزة والتي وظفتها خير توظيف في فصل الأرياف، وبهذا يمكن القول أنه كتاب جغرافي هام أمكن الاستفادة منه في أماكن متفرقة.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويعد كتاب تقويم البلدان لأبي الفداء من الكتب الجغرافية الهامة، لما يحويه من معلومات مفصلة حول بلاد الشام، لكن هذه المعلومات قديمة استقاها من مصادر مبكرة، لذلك لم أتمكن من الاعتماد عليه بشكل كبير وذلك لانعدام الفائدة من المواد الجغرافية التي قدمها، وأمكن الاستفادة فقط حول تعريف بعض المناطق .

ويمكن ان نتحدث أيضا عن مجموعة من الكتب ذات هوية خاصة منها كتاب (معيد النعم ومبيد النقم) لتاج الدين السبكي وقد أمكن العثور على معلومات ذات مضامين اجتماعية أمكن الاستفادة منها في الحديث عن وضع الفلاح وعن الاقطاع أيضا .

ولكن المعلومات ذات المضامين الاقتصادية تمثلت في كتابه ((اغاثة الأمة بكشف الغمة)) للمقريزي فهو يعالج اسباب الأزمات الاقتصادية التي تعرضت لها الدولة المملوكية التي كان من أهمها الخلل النقدي الذي أدى الى التضخم وغيره من المواضيع التي أمكن الاحاطة بها في الفصل الاقتصادي .

ويماثل كتاب محمد بن محمد بن خليل الأسدي :(التيسير والاعتبار والتحرير والاختبار فيما يجب من حسن التدبير والتصرف والاختيار) كتاب اغاثة الأمة للمقريزي في موضوعاته ولكنه يفوقه أهمية في المعالجة . فالكتاب يبحث في الوضع الاقتصادي الفاسد، وكثرة الضرائب والمكوس، وفساد العملة والمكاييل والاحتكار والتحجير على الفلال وعلى كثير من التجارات، وفساد الادارة الحكومية، ويلاحظ أن الأسدي حث الادارة المملوكية على الاهتمام بالاصلاح، والغاء الضرائب المالية التي تثقل كاهل الرعية، وتوفير سبل الحياة الرغيدة . وأمكن استثمار المعلومات المتعلقة بالخلل الذي يطرأ على الهيكل الاقتصادي والمتعلقة بكثرة الجبايات، اضافة الى غش العملة وتزييفها، الى جانب المعلومات الاجتماعية المتعلقة بالفلاحين وخاصة التي تتحدث عن قيس ويمن .

ومن الممكن أن نضيف الى قائمة المصادر أسماء بعض المراجع المستفاد منها في البحث وأهمها ((النظام النقدي المملوكي)) للباحث حمود النجيدي الذي تمتع بخبرة ومقدرة على الاستنتاج والتحليل في كتابه الذي استفدت منه فيما يتعلق بالأسعار والتضخم النقدي. كما استفدت من كتاب عبد الله الغامدي (جهاد المماليك ضد المغول والصليبيين في النصف الثاني من القرن السابع الهجري) والذي ضم عددا كبيرا من الموضوعات التي تتعلق بالمدخل السياسي، من نشأة دولة المماليك، ودك معاقل الصليبيين، والعلاقات بين الأرمن والمماليك ويبدأ الكتاب من استلام الظاهر بيبرس الحكم وحتى الاشرف خليل بن قلاوون .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وكان لكتابات الشيخ احمد دهمان أهمية كبرى باعتباره عكس فيها صورة الأوضاع السياسية والاجتماعية الواردة في المصادر الأساسية وقد اتبع نظام المؤرخين الحوليين في كتابه (ولاة دمشق في عصر المماليك) هذا وعدت أيضا الى مراجع أخرى اهتمت بالتنظيمات الشعبية مثل كتاب (حكايات الشطار والعيارين في التراث العربي)، (الفتوة الاسلامية) لعبد اللطيف فهمي ومراجع أخرى .

كما استفدت من كتب السيد الباز العريني (المماليك والمغول)، وكتب أحمد عبد الرزاق أحمد، وفايد عاشور، وأحمد مختار العبادي، وانطون ضومط، وغيره آخرون . وأثبت أسماء المصادر والمراجع فيمابعد .

وأخيرا يجب أن أذكر أنه على الرغم من كثرة المصادر، وغناها بالمواد الاخبارية نجد أن ماحوته بموضوع الرسالة قليل جدا، لذلك وجدت صعوبة كبيرة في تجبير هذه الحوادث لصالح الموضوع، وكان للدكتور المشرف فضل كبير في تدريبي على استخلاص الحوادث وتحليلها لصالح الرسالة لأن الفصل بين نظم وقوانين العصر المملوكي وما استجد من قوانين جديدة على البلاد صعب جدا. وأخيرا أرجو أن أكون قد وفقت في اعطاء صورة واضحة عن الآثار الاجتماعية والاقتصادية التي نجمت عن الحملات العسكرية المغولية على بلاد الشام .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

سقطت مدينة بغداد بيد هولاكو سنة ٦٥٦هـ / ١٢٥٨م وقتل المغول الخليفة العباسي المستعصم بالله،[١] وسفكوا الدماء حتى جرت في الطرقات، وأحصي عدد القتلى وشل نحو المليوني قتيل وفي هذا بعض المبالغة، كما خربوا الآثار الدينية وهدموا البيوت، بعدها أمر هولاكو بالتوقف عن هذه الأعمال.[٢]

اهتز العالم الاسلامي لهذه المأساة المروعة التي حلت بالخلافة العباسية، وترتب على سقوطها سقوط المدن الاسلامية الاخرى مثل الكوفة، واسط، الموصل التي دخل صاحبها بدر الدين لؤلؤ في طاعة المغول، كما استولوا على حران.[٣] وتوجهوا نحو ميافارقين التي توجه صاحبها الكامل ابن الشهاب غازي بن العادل الى الناصر يوسف صاحب حلب يطلب منه موازرته على المغول، غير انه خذله واستخف برأيه، وصرفه بالأمان،[٤] وذهب الى ابعد من ذلك حيث بعث بولده العزيز محملا بالهدايا والتحف الى هولاكو.

وهنا تبرز مسألة هامة وهي سبب رفض الناصر نجدة الملك الكامل بن الشهاب غازي بن العادل وتأييده للمغول رغم انه اكثر الأمراء الأيوبيين قوة واقتدارا ؟

---

(١)-المستعصم بالله: احمد بن أبي جعفر، ولد سنة تسع وسبعمائة بويع له بالخلافة سنة أربعين وستمائة، ولما نزل المغول بغداد سنة ست وخمسين وستمائة قاتل عن بغداد.

انظر-ابن الكازروني (ظهيرالدين علي بن محمد): المختصر في تاريخ بغداد، بغداد، مطبعة الحكومة، ١٣٩٠هـ/١٩٧٠م، ص ٢٦٦-٢٧٢.

(٢)-ابن الكازروني: المصدر نفسه، ص ٢٦٦-٢٧٢.

-ابن خلدون (عبدالرحمن): التعريف بابن خلدون ورحلته، غربا وشرقا، القاهرة، مطبعة لجنة التأليف، ١٣٧٠هـ/١٩٥١م ص٣١٧-المقريزي (تقي الدين أحمد): السلوك لمعرفة دول الملوك، القاهرة، مطبعة لجنة التأليف، ١٩٥٧م، ج ١، ق٢ص٤٠٢-العيني (بدر الدين محمود): عقد الجمان في تاريخ اهل الزمان، القاهرة الهيئة العامه للكتاب، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م ج ١ص١٦٧-١٧٣ -حمدي: المرجع نفسه، ص ١٤٣-١٤٤- عدوان (أحمد محمد): المماليك وعلاقاتهم الخارجية، ٦٤٨-٧٨٣هـ/١٢٥١-١٣٨١م، السعودية، دار الصحراء، الطبعة الاولى، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م، ص ٤١.

MUIR(SIR WILLIAM):THE CALIPHATE RISE,DELINEAND FALL,BEIRUT, 1963,P595.

(٣)-المقريزي: المصدر نفسه، ج ١، ق٢، ص٤٠٩-العيني: المصدر نفسه، ج ١ص١٨٢-عدوان: المرجع نفسه، ص٤١ -الصياد: المرجع نفسه، ص١٩٤-١٩٥-سبانو (أحمد غسان): مملكة حماه الايوبية، دمشق، دار قتيبة، ١٩٨٤م ص ٨٤

(٤)-ابن العبري (غريغوريوس): تاريخ مختصر الدول، بيروت، المطبعة الكاثوليكية، ١٨٩٠م، ص ٤٨٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ان موقف الناصر نابع من مصلحته الشخصية ، فالأمراء الأيوبيون يناصبونه العداء ، والمماليك انتصروا على قواته أكثر من مرة ،لذلك رأى في المغول حليفا قويا لمساعدته على فرض سلطانه على بلاد الشام ، ومن ثم انتزاع مصر من يد المماليك .

عند وصول العزيز الى معسكر هولاكو سلمه ما معه من الهدايا التي تعبر عن الولاء له وطلب منه على لسان والده مساعدتهم في استعادة الاراضي المصرية من أيدي المماليك ، وعلل سبب عدم قدوم والده بأنه لا يستطيع ترك البلاد للأعداء ، فأظهر هولاكو قبول العذر ظاهرا ،[1] لكنه اعتبر عدم قدوم الناصر بنفسه اهانة له فحمل ابنه رسالة ذكّره فيها بما أنزله ببغداد من صنوف العذاب وقد جاء فيها « يعلم السلطان الملك الناصر طال بقاؤه أنا لما توجهنا الى العراق وخرج الينا جنودهم ، فقتلناهم بسيف الله ، ثم خرج الينا رؤساء البلد ومقدموها ، فكان قصارى كلامهم سببا لهلاك نفوس تستحق الاهلاك ، وأما ما كان من صاحب البلدة فانه خرج الى خدمتنا ودخل تحت عبوديتنا فسألناه عن أشياء كذبنا فيها ، فاستحق الاعدام ، وكان كذبه ظاهرا ، (ووجدوا ما عملوا حاضرا) ،[2] أجب ملك البسيطة ولا تقولن : قلاعي المانعات ، ورجالي المقاتلات ، وقد بلغنا أن شذرة من العسكر التجأت اليك هاربة والى جنابك لائذة .

أين المفر ولا مفر لهارب ولنا البسيطان الثرى والماء .

فساعة وقوفك على كتابنا تجعل قلاع الشام سماءها أرضاً او طولها عرضاً والسلام » .[3]

---

(١) : ابن العميد (المكين بن جرجس) : أخبار الايوبيين ، بور سعيد الظاهر ، مكتبة الثقافة الدينية ، ص ٤٦ - ابن العبري : المصدر نفسه ، ص ٢٧٨ - ابن الوردي (زين الدين عمر) : تتمة المختصر في اخبار البشر المعروف بتاريخ ابن الوردي ، بيروت ، دار المعرفة ، الطبعة الاولى ، ١٣٨٩ هـ / ١٩٧٠ م ، ج ٢ ، ص ٢٨٧ - ابن كثير : المصدر نفسه ، ج ١٣ ، ص ٢١٥ - المقريزي : المصدر نفسه ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤١٠ - ٤١١ - ابن تغري بردي (جمال الدين أبي المحاسن) : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، طبعة مصورة عن دار الكتب ، وزارة الثقافة والارشاد القومي المصرية ، ج ٧ ، ص ٥٦ - العبادي : المرجع نفسه ، ص ١٥١ - عاشور (فايد حماد) : العلاقات السياسية بين المماليك والمغول في الدولة المملوكية الاولى مصر ، دار المعارف ، ١٩٧٥ م ، ص ٣٦ .

(٢) - سورة الكهف ، آية ٤٩ .

(٣) - انظر نص الرسالة في المقريزي : المصدر نفسه ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤١٥ - السيوطي (جلال الدين عبد الرحمن) : تاريخ الخلفاء ، القاهرة ، الطبعة الثالثة ، ١٣٨٣ هـ / ١٩٦٤ م ، ص ٤٧٣ - ٤٧٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أزعجت هذه التهديدات الناصر يوسف الذي ما لبث أن أرسل الصاحب كمال الدين بن العديم الى المماليك في مصر للاستنجاد بهم ضد هولاكو الذي بات هجومه مؤكدا على بلاد الشام.(١)

غير أن الهجوم المغولي سبق رد المماليك المصريين، وبدأ الهجوم أولا على ميافارقين، واشتركت معهم فرق أرمنية ومسيحية شرقية فحاصروها، واستمر الحصار مدة عامين أظهر خلاله المدافعون عن المدينة ضروبا من الشجاعة المنقطعة النظير، ونظراً لطول فترة الحصار نفدت الاقوات منها، وعم القحط والوباء مما اضطر السكان الى التسليم، وقبض المغول على حاكمها الاشرف وقطعوا رأسه سنة ٦٥٧هـ/١٢٥٨م.(٢)

ثم سار هولاكو سنة ٦٥٨هـ/١٢٥٩م نحو بلاد الشام فعبر الفرات، وسار بجموعه الى حلب التي كانت مفتاح بلاد الشام الشمالية، وكان يحكمها المعظم توران شاه، فبدأ حصارها، وأرسل الى واليها يطلب منه تسليم المدينة كما طلب منه أن يجعل فيها شحنة للمغول، غير أن توران شاه رفض طلب هولاكو وأجابه ليس لكم عندنا الا السيف. أما الناصر صاحب دمشق فبدلا من أن ينضم بقواته الى توران شاه ويشكلوا سدا منيعا يدرؤون به الخطر المغولي آثر الهروب الى دمشق.(٣)

وهجم المغول على حلب بعد أن حاصروها شهرا كاملا استسلمت بعده، ثم ملكوها بمنشور أمان، غير أنهم غدروا بأهلها، وقتلوا الكثير من سكانها وعلمائها، وصادروا الأموال وخاصة الموجودة في قلعة حلب حيث النفائس والكنوز، وصادروا الحيوانات وأحرقوا المنشآت والمعاهد الدينية كجامع حلب والأربطة والزوايا والأضرحة.

---

(١) - ابن الوردي: المصدر نفسه، ج٢، ص٢٠٩ - المقريزي: المصدر نفسه، ج١، ق٢، ص٤١٥-٤١٦ - العيني: المصدر نفسه، ج١، ص٢١٨ - السيوطي: المصدر نفسه، ص٤٧٥ - الصياد: المرجع نفسه، ص١٩٧ - عودات (أحمد) - بيضون (جميل) شحادة (الناطور): تاريخ المغول والمماليك من القرن السابع الهجرى حتى القرن الثالث عشر الميلادى، أربد، دار الكندى، ١٩٩٠م، ص٨٦-٨٨.

(٢) - أبو شامة (شهاب الدين أبي محمد عبد الرحمن): تراجم رجال القرنين السادس والسابع المعروف بالذيل على الروضتين، بيروت، دار الجيل، الطبعة الثانية، ١٩٧٤م، ص٢٠١ - الهمذاني (رشيد الدين): جامع التواريخ، ترجمة محمد صادق نشأت وآخرون، الجمهورية المتحدة، وزارة الثقافة، ١٩٦٠، ج٢، ق١، ص٣١٩-٣٢٢ - ابو الفداء (عماد الدين اسماعيل): المختصر في أخبار البشر، المطبعة الحسينية المصرية، الطبعة الاولى، ١٣٢٥هـ، ج٣، ص٢٠٢ - ابن كثير: المصدر نفسه، ج١٣، ص٢١٥ - ابن تغرى بردى: المصدر نفسه، ج٧، ص٩١ - الصياد: المرجع نفسه، ص١٩٥.

(٣) - أبو الفداء: المصدر نفسه، ج٣، ص٢٠٠-٢٠١ - ابن الوردي: المصدر نفسه، ج٢، ص٢٩١-٢٩٢ - ابن كثير: المصدر نفسه، ج١٣، ص٢١٨ - ابن تغري بردي: النجوم، ج٧، ص٧٥-٧٦ - كرد علي (محمد): خطط الشام، بيروت، دار العلم، ١٩٦٩م، ج٢، ص١٠٥ - دهمان (محمد): ولاة دمشق في عهد المماليك، دمشق، دار الفكر، الطبعة الثانية ١٤٠١هـ/١٩٨١م، ص٤٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وظل المغول يستبيحون المدينة سبعة ايام امتلأت خلالها الطرقات بالقتلى ، ولم ينج من السكان الا من دخل دار شهاب الدين عمرون وغيره ، وكنيسة اليهود ، والخانقاه الموجود فيها زين الدين الصوفي وقد سلم في هذه الاماكن من القتل مايزيد عن خمسين ألف نفس. (١)
وهنا يجب طرح تساؤل وهو لماذا سلمت هذه الاماكن من التدمير ، وسلم الذين أووا اليهـا من القتل ؟ . وهذا السؤال لم أجد الاجابة عليه سوى أن الاماكن الدينية لو كانـت تحظى بمكانة مقدسة لدى هولاكو لما أقدم على تدميرها واحراقها ، وان ترك هذه الأماكن بالذات ربط يعود الى مكانة أصحابها بالذات ، ويرجح أنهم ساعدوه في إخضاع المدينة.
لقد عزا بعض الباحثين سقوط حلب خلال مدة قصيرة قياسا مع ميافارقين التي أبدت مقاومة عنيفة الى اسباب متعددة منها موقف الناصر المتخاذل وهروبه وتركه عبء الدفاع علـى توارنشاه ، ومنها اقدام ابن العبري رئيس أساقفة حلب على تقديم فروض الطاعة لهولاكو (٢)
أثرت هذه الغزوة كثيرا على الوضع السكاني للمدينة ، فقد قتل بعضهم ، وهاجر بعضهم الآخر ، وعذب آخرون ، وأدى عدم الاستقرار السياسي والأمني الى تخلخل الوضع الديمغرافي للمدينة والى تأثر المهن كالصناعة والزراعة والتجارة نتيجة لفقدان الأيدي العاملة.
ونتيجة لهذه الانتصارات السريعة فقد سارع الأمراء الآخرون بتقديم فروض الطاعة للمغول ، فكان ممن جاء الى هولاكو عند أسوار حلب الأشرف موسى صاحب تل باشر الذي كافأه فيما بعد ورد اليه امارة حمص ، كما قدم فروض الطاعة الملك السعيد بن العزيز بن العـادل صاحب الصبيبة. واذا كان هؤلاء قد أبدوا الخضوع في الظاهر فان صاحب الكرك المغيث عمر راسل المغول في الباطن ، ذلك أنهم بعثوا له يلتمسون طاعته ، فأجاب بجـواب ظاهره الطاعة وباطنه المراوغة بانتظار ماتجري به المقادير. (٣)

---

(١) - أبوالفداء : المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ٢٠١ - ابن الوردي : المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٢٩٢ - ٢٩٤ - ابن كثير : المصدر نفسه ، ج ١٣ ، ص ٢١٨ - المقريزي : المصدر نفسه ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤٢٢ - العيني : المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ٣٢١ - ابن تغري بردي : النجوم ، ج ٧ ، ص ٧٦ - دهمان : المرجع نفسه ص ٤٩ .
(٢) - الصياد : المرجع نفسه ، ص ١٩٧ .
(٣) - اليونيني (قطب الدين) : ذيل مرآة الزمان ، حيدر آباد الدكن ، مطبعة دائـرة المعارف العثمانية ، الطبعة الأولى ، ١٣٨٠هـ/ ١٩٦٠م ، ج ٢ ، ص ٣٥٨ - أبوالفداء : المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ٢٠٠ - ٢٠٢ - (٢١١) - ابن الوردي : المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٢٩٤ - ٢٩٦ - ابن تغري بردي : النجوم ، ج ٧ ، ص ٧٦ - ٧٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أثار سقوط حلب خوف بقية المدن السورية الاخرى ، وقد تحقق ما كانوا يخشون منه ، فبعد استيلائهم على حلب قاموا بالاعتداء على مدينة حارم حيث استولوا على قلعتها وقتلوا أهلها، كما استولوا على اعزاز. بعد ذلك سار المغول باتجاه حماه ، وكان أعيان المدينة قد حملوا مفاتيحها لهولاكو عندما علموا باحتلال حلب ، فأمنهم وأرسل اليهم شحنة أعجميا ذكر أنه من ذرية خالد بن الوليد اسمه خسروشاه تسلم المدينة ، وكان بقلعة حماه مجاهد الدين قايماز أمير جندار فسلم القلعة اليه ودخل في طاعة المغول .[1]

لقد خضعت معظم مناطق الشام لسيطرة المغول بشكل مباشر وغير مباشر حيث حكمت من قبل حكام موالين لهم ، ولم يبق أمامهم غير دمشق التي اعتصم بها الناصر يوسف وقرر مع أهلها عدم تسليم المدينة الى هولاكو ، غير أن رحيل الناصر مع قواته عنها أدى الى اضطراب الحالة الأمنية في المدينة فعمت الفوضى ، وأضحت المدينة بلا قوة عسكرية تحميها فلم تستطع بعدها المقاومة ، لذلك عمد زين الدين الحافظي[2] تسليمها لفخرالدين المزدغاني وابن صاحب أرزن ، فدخلها المغول دون اراقة دماء . عندئذ كتب هولاكو أمانا لأهل دمشق قرىء بالميدان الأخضر ، لكن الخوف ظل يراود الناس من هؤلاء الغزاة ، فعلى الرغم من استسلام دمشق فان القلعة بقيادة متوليها بدرالدين قراجا امتنعت عن التسليم ، مما اضطر المغول الى رميها بالمنجنيقات حيث تداعى قسم كبير منها ، ثم دخلوها وقتلوا متوليها وحاميتها .[3]

ويبرز السؤال الأهم لماذا استسلمت دمشق ولم تقاوم نهائيا ؟ .

---

(١)- أبو الفداء : المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ٢٠١ - الذهبي (شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان) : دول الاسلام ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٤م ، ج ٢ ، ص ١٦٢ .
- ابن الوردي : المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٢٩٣
- ابن كثير : المصدر نفسه ، ج ١٣ ، ص ٢١٨-٢١٩ - العيني : المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ٢٣١-٢٣٢
- سبانو : المرجع نفسه ، ص ٨٥ .

(٢)- زين الدين الحافظي : سليمان بن عامر العقرباني ، كان طبيبا في دمشق ، فلما قدم المغول مع هولاكو آذى المسلمين في المدينة ، ودلهم على عوراتهم ، وبعد ذا استقدمه هولاكو واتهمه بالخيانة في الأموال التي ندبه لاستخراجها فأمر بقتله مع اخوته واولاده وكانوا نحو الخمسين فلم ينج منهم الا ولده مجيرالدين محمد . انظر النويري (شهاب الدين أحمد) : نهاية الأرب في فنون الأدب ، تحقيق محمد عبدالهادي شعيره ، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م ، ج ٣٠ ، ص ١٠٩ -
- ابن كثير : المصدر نفسه ، ج ١٣ ، ص ٢٤٤ .

(٣)- الهمذاني : المصدر نفسه ، ج ٢ ، ق ١ ، ص ٣٠٧-٣٠٨ - أبو الفداء : المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ٢٠١ - المقريزي : المصدر نفسه ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤٢٦ - ابن تغرى بردى : النجوم ، ج ٧ ، ص ٧٦ - الصياد : المرجع نفسه ، ص ١٩٨ - عودات : المرجع نفسه ، ص ٨٧-٨٨ .
- دهمان : ولاة ، ص ٥١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يمكن أن يكون للدور الذي قام به زين الدين الحافظي أثر في الاستسلام ، فمن المرجح أنه أجرى اتصالات مع المغول لتسليم دمشق بحجة الحفاظ عليها من التدمير والتخريب، ومنعا من قتل سكانها على قاعدة ما جرت به العادة في المدن التي يدخلها المغول . كما يمكن القول بأن الحافظي لم يلق آراء معارضة من الأعيان والرعية لتسليم المدينة، لاسيما بعد أن أصبح هؤلاء لا حول لهم ولا قوة اثر خروج المدافعين عنها . فقد اتفقت الآراء على عدم قدرة دمشق على مجابهة جيوش هولاكو الجرارة. بالطبع كان هذا الاحتلال لمدينة دمشق أخف وطأة من الاحتلالات اللاحقة للمغول ، فقد اقتصر على جباية الاموال القليلة منها ، والسيطرة على بعض الكتب ونقلها للمجمع العلمي في مراغة ، اضافة الى قتل بعض السكان (1)

واختلفت المصادر حول خط سير الناصر يوسف الأيوبي ، فبعضها ذكرت أنه سار نحو وادي موسى ، وذكرت مصادر أخرى أنه توجه الى بركة زيزا ، (2) غير أن اثنين من رجاله أعلموا بخبره القائد المغولي كتبغا نوين فقبض عليه وحمله الى هولاكو حيث قتله اثر خسارة المغول في عين جالوت.

واصل المغول زحفهم حتى المناطق الجنوبية من دمشق فهاجموا غزة والخليل ونابلس واقتتلوا مع الأمير مجير الدين بن أبي زكريا ، وعلي بن شجاع ، فقتلوا الاميرين مع مجموعة من السكان (3)

من الملاحظ أن المغول لم يحاولوا احتلال بيت المقدس قبل موقعة عين جالوت وبعدها بالرغم من أنها لم تكن أحسن حالا آنذاك من غيرها ، وتعددت الآراء حول عدم احتلالها على الرغم من تعرض سكانها للقتل أسوة بسكان المدن الشامية الأخرى ، فالرأي الأول ينطلق من خوف المغول من استثارة حماس المسلمين واستفزازهم بالاعتداء على أولى القبلتين وثالث الحرمين الشريفين المسجد الاقصى الذي لن يؤدي اعتداء المغول عليه الى غضب المسلمين بالشام فحسب بل سيتعدى ذلك الى كافة أنحاء العالم الاسلامي ، وبالفعل

---

(1) - ابن العميد : المصدر نفسه ، ص 15 - ابن الوردي : المصدر نفسه ، ج 2 ، ص 296 .

(2) - بركة زيزا . من قرى البلقاء كبيرة يطؤها الحاج ويقام لهم بها سوق وفيها بركة عظيمة. انظر الحموي (ياقوت) : معجم البلدان ، بيروت ، دار صادر ، ج 3 ، ص 163 .

(3) - ابن الوردي : المصدر نفسه ، ج 2 ، ص 293 - ابن تغري بردي : النجوم ، ج 7 ، ص 77 - ابن الطباخ (محمد راغب) : اعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء ، حلب ، دار القلم ، 1408 هـ 1988 م ، ج 2 ، ص 234 - عطا الله (محمود علي) : نيابة غزة في العهد المملوكي ، بيروت ، دار الآفاق ، الطبعة الأولى ، 1406 هـ / 1986 م ، ص 207 .
- الصياد : المرجع نفسه ، ص 198 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فخوفهم من تضامن المسلمين عامة ضدهم هو الذي منعهم، اضافة الى أنهم حرصوا على عدم المواجهة مع الصليبيين والحفاظ على وضعهم الراهن، حيث التزم هؤلاء الحياد ابان الصراع المغولي الاسلامي، فجيش المغول ضم بين أفراده عددا من المسيحيين الشرقيين مع الأرمن وغيرهم، بينما كان الصليبيون يرغبون في أن تبقى الهيمنة في كنائس القدس (١) للكنيسة الغربية في روما خاصة أن المصادر زودتنا بمعلومات مفادها أن هولاكو كان عليه بعد تسلم بيت المقدس أن يسلمها الى حليفه ملك أرمينية هيثوم الأول (٢)

والرأي الثاني ربط عدم قدوم المغول لبيت المقدس بالخطوط الدفاعية التي أقامها سلاطين المماليك على الحدود الشرقية وشحنوها بالرجال والعتاد، اضافة الى الخطوط الدفاعية الممتدة من الشوبك والكرك جنوبا الى اعالي العاصي شمالا، هذه التحصينات منعت المغول من التفكير باحتلال المناطق الجنوبية. (٣)

لم يكن ذلك السبب الوحيد الذي منع المغول من مهاجمة بيت المقدس، لكن التحالف الذي تم بين المماليك وبين مغول القبيلة الذهبية الذين يعتنقون الاسلام ويكنون لهولاكو مشاعر الحقد والكراهية، ووصول مساعدات رمزية منهم الى المماليك اشتركت في الحرب ضد هولاكو من الاسباب الاخرى لعدم تقدمهم، واذا صح هذا فمعناه حصول المماليك على بعض المعلومات العسكرية عن فنون القتال لدى المغول، وبالتالي وقوع مغول هولاكو بين فكي كماشة مغول القبيلة الذهبية، والمماليك (٤). اضافة الى أن المغول لم يكن هدفهم القدس بالذات وانما هدفهم الوصول الى غزة والقاهرة، واذا ما سقطت القاهرة فحتما ستسقط القدس، ومايؤكد ذلك أن غاية الحملة الصليبية الثالثة عدم مهاجمة مواقع في فلسطين بل في مصر، واذا سقطت هذه المواقع في مصر فان القدس ستسقط.

---

(١)- كنيسة القيامة: أشهر الكنائس المسيحية بنتها هيلانة أم الامبراطور قسطنطين عاهل الامبراطورية الرومانية الشرقية ومؤسس مدينة القسطنطينية، وهو أول امبراطور تنصر وامر بنشر الديانة المسيحية وجعلها دين الحكومة الرسمي، وكان الفراغ من بنائها سنة ٣٣٥م، وأصبحت من ذلك التاريخ حجا للمسلمين، هدمها الفرس اثناء غاراتهم على سورية وفلسطين سنة ٦١٤هـ، ولما جاء الفتح الاسلامي سنة ٦٣٧م دخلها عمر وزار كنيسة القيامة فلما أدركته الصلاة خرج منها وصلى أمامها ولم يصل في القيامة خشية أن يدعيها المسلمون ويحولوها الى مسجد. انظر ابن تغرى بردى: النجوم، ج٧ص٢٦٦ حاشية المحقق رقم ١

(٢)- الغامدى (عبد السعيد): جهاد المماليك ضد المغول والصليبيين من النصف الثاني من القرن السابع الهجري، السعودية، جامعة أم القرى مركز البحوث العلمية واحياء التراث الاسلامي، سنة ١٤١٠هـ ص ٩٨-٩٩.

(٣)- غوانمة (يوسف درويش): تاريخ نيابة بيت المقدس في العصر المملوكي، عمان، دار الحياة، ١٩٨٢ ص ١٨.

(٤)- زكار: المرجع نفسه، ص ٥٤٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

كما يمكن القول بأن هولاكو علم مسبقا بطاقات الجيش المملوكي وقدراته القتالية العالية، واحتلال القدس خطورة على الحكم المملوكي الحديث التأسيس لذلك فان السلاطين سيزجون بكافة الامكانات العسكرية في القتال، وبالتالي يمكن هزيمة المغول حيث لا طاقة لهم بقتال هذا الجيش.

عين جالوت: بعد استسلام دمشق للمغول، خاف المماليك في مصر لاسيما أن دولتهم ماتزال في نشأتها الأولى، كما خافوا أن يعبر هؤلاء باتجاه مصر سيما أنه لم تبق مدينة باستثناء بيت المقدس والمناطق الجنوبية الا ووقعت تحت سيطرتهم، لذلك بادروا الى الوقوف في وجه الأعداء خاصة بعد أن بعث هولاكو سنة ٦٥٨هـ/١٢٥٩م رسالة قاسية الى قطز تهدده فيها وتوعده، وطلب منه الطاعة،(١) ورد عليه قطز بقتل رسله وتصميمه على لقاء جنوده بعد أن قرر ذلك مع أمرائه، وواجه في هذا السبيل بعض المصاعب الداخلية لكنه استطاع تذليلها، عندئذ أمر بجمع الجيوش، وحث الناس على الخروج للجهاد في سبيل الله، وقد استطاع قطز جمع عدد هائل من عساكر مصر والشام كما ضم اليه البدو والتركمان.(٢)

تقدمت طلائع جيش قطز بقيادة بيبرس البندقداري نحو غزة، فاصطدمت هذه العساكر بطلائع المغول بقيادة بايدر فكان لهذا الصدام أهمية كبرى من حيث اختبار لقدرات العدو وخططه العسكرية، زد على ذلك أن هذا الصدام بث الروح المعنوية العالية لدى العساكر العربية الاسلامية الى جانب أنه موه وغطى تحركات الجيش الاسلامي بقيادة قطز.

سلك الجيش الاسلامي الطريق الساحلي، وعرج نحو عكا لاستطلاع موقف الفرنجة فيها، فقد كان هؤلاء في وضع محرج، فالخلافات الداخلية على أشدها بين طوائفهم، لذلك لم يكن أمامهم سوى اطلاع المماليك على موقفهم المحايد من الصراع المغولي العربي الاسلامي.

ومما ساعد العرب المسلمون في هذه الأثناء مغادرة هولاكو لبلاد الشام، فقد وردته أنباء تفيد بوفاة أخيه منكوقان، وكان يطمح في أن يجري اختياره خليفة له، وتنازع أخويه الآخرين الى جانب تهديد حدود دولته من قبل ابن عمه بركة خان الذي يحكم القبجاق.

---

(١)- ينظر نص الرسالة في المقريزي: السلوك، ج١، ق٢، ص٤٢٧-٤٢٨- ابن اياس (محمد بن أحمد): بدائع الزهور في وقائع الدهور، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة الثانية ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م، ج١، ق٢، ص٣٠٤- القرماني (أحمد): أخبار الدول وآثار الأول، ليس له طبعة، ص١٩٨- الصياد: المرجع نفسه ص٢٠٢- عودات: المرجع نفسه، ص٨٨.

(٢)- المقريزي: السلوك، ج١، ق٢، ص٤٢٩- دهمان: ولاة، ص٣٥- زكار: المرجع نفسه، ص١٤٥- الغامدي: المرجع نفسه، ص١٢٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وبناء على الحاح المسيحيين وفي مقدمتهم هيثوم ملك أرمينيةوافق هولاكو على أن يترك قائده كتبغا نوين (كيتوبوقا) وتحت امرته مجموعة من الفرسان يكملون مهمته،[1] وكان كتبغا نوين يدرك المصلحة الحقيقية من قيام حلف صليبي مغولي لذلك أحسن النوايا تجاههم وقربهم، بينما عاداه فرنجة عكا وذلك بسبب تهديد مصالحهم التجارية اذا ما استطاع المغول السيطرة على بلاد الشام.

لقد أثار اخفاق بايدر عند اصطدامه بجيش بيبرس حفيظة كتبغا نوين، وتقدم للانتقام واثقا من نفسه بجيش يزيد على ثلاثين الف فارس، فلما وصل الى نهر الاردن حدثت اتصالات سرية بين بعض المسلمين في جيشه وبين المماليك أخبروهم فيها بأنهم مستعدون للتخلي عن المغول أثناء القتال.

قرر المسلمون أن يكون اللقاء في عين جالوت، والتقى الفريقان في هذا الموقع واعتمد المسلمون في المعركة خططا حربية مغايرة لما كانوا يتبعونه مع الفرنج، تجلت في الالتحام القريب لاحتواء الهجوم المغولي، بينما كان فرسان المغول خائفا فأضر الالتحام بهم، ودامت هذه الاشتباكات عدة أيام انتهت بتطويق الهجوم واحتوائه وقتل القائد كتبغا نوين وعدد كبير من قادة العدو، وبمقتل كتبغا نوين انهارت الجموع المغولية واضطرت للانسحاب من بلاد الشام،[2] بعد تقهقر الاعداء في عين جالوت هربوا نحو شمال بلاد الشام فوحدوا صفوفهم استعدادا لمواجهة الظاهر بيبرس الذي تبعهم فهاجمهم وكسرهم، وغنم منهم أموالا كثيرة.[3]

ويبرز سؤال مهم وهو لماذا بدل المماليك أساليب القتال، هل كان لهم عيون داخل قيادة الجيش المغولي؟

بالطبع لا بد أن تكون معلومات تفصيلية وصلتهم تفيد بأساليب القتال المغولية وبناء عليه اعتمد المماليك أساليب جديدة تحتوي هجومهم وقتالهم.

---

(١) - الصياد: المرجع نفسه، ص ١٢٠
(٢) - ابن العميد: المصدر نفسه، ص ٣٥ - المنصوري (بيبرس): التحفة الملوكية في الدولة التركية، الدار المصرية اللبنانية، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م، ص ٤٣ - ٤٤ - اليونيني: المصدر نفسه، ج ١ ص ٣٦٠ - ابن الوردي: المصدر نفسه، ج ٢، ص ٩٧ - المقريزي: المصدر نفسه، ج ١، ق ٢، ص ٤٣٠ - ٤٣١ - ابن تغري بردي: النجوم، ج ٧، ص ٧٨ - ٧٩ - السيوطي: تاريخ الخلفاء، ص ٤٧٥. - ابن اياس: المصدر نفسه، ج ١، ق ١، ص ٣٠٦ - حمدي: المرجع نفسه، ص ١٥٠ - الصياد: المرجع نفسه، ص ٢٠٤ - ٢٠٥ - زكار: المرجع نفسه، ص ١٤٥ - ٢٤٥ - بدر (مصطفى): مغول ايران بين المسيحية والاسلام، مصر، مطبعة الاعتماد، ص ٧٧.
(٣) - ابن عبد الظاهر (محي الدين): الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر، الرياض، الطبعة الأولى، ١٣٩٦هـ/١٩٧٦م، ص ٦٥ - المنصوري: التحفة، ص ٤٤ - ابن تغري بردي: النجوم، ج ٧، ص ٨٢

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

كانت معركة عين جالوت نقطة تحول كبرى في التاريخ الاسلامي ، فقد أوقفت الغزو المغولي وحولت تياره من مد الى جزر ، وحررت بلاد الشام ، وحفظت لمصر مركز الزعامة ، وكانت تجربة حربية خطيرة بين اسلوبين وفنين من فنون الحرب في تلك العصور ، وأثبتت هذه المعركة دحض المقولة بأن المغول لا يهزمون فلمرة الأولى في التاريخ يهزم جيش المغول هزيمة منكرة ، كما أثبتت هذه المعركة أن القوة الاسلامية تحولت من الدفاع الى الهجوم ، كما أرست قواعد السلطة في مصر والشام للمماليك ، وهيأت الفرصة لبناء هيكل الدولة المملوكية ، وكان من تولى هذه المهمة الظاهر بيبرس الذي اغتال قطز بعد المعركة ، اضافة الى أنها كانت نهاية الدولة الأيوبية.(1)

نتيجة لانتصار المسلمين في المعركة أقدم المظفر قطز على معاقبة الأمراء والأكابر المتآمرين مع المغول كالسعيد حسن بن العزيز الذى قاتل مع الأعداء ، فضرب عنقه ، ومحمد بن يوسف الكنجي وابن الماسكيني وابن النغيل(2)

ونتيجة المعركة استعاد المسلمون في دمشق مكانتهم وكرامتهم بعد أن استطال عليهم المسيحيون المتعاونون مع المغول اثر دخول جيوش المغول الى المدينة ، وعادت الأمور الى الهدوء والاستقرار الأمني ، وأصبح قطز سيد الشام ، وملك البلاد من الفرات الى مصر ما عدا امارة الكرك التي كانت في يد المغيث عمر ، كما وزع الاقطاعات ، واستناب على دمشق الأمير علم الدين سنجر الحلبي ، ونصب المظفر علاء الدين علي بن بدر الدين لؤلؤ صاحب سنجار نائبا على حلب ، وأقر المنصور على حماه وبارين ، ورتب شمس الدين آقوش البرلي العزيزي أميرا على الساحل وغزة.(3)

أثرت غزوة هولاكو بشكل سلبي على مجتمع بلاد الشام أجمع ، سواء على الصعد الاجتماعية أو الاقتصادية ، فعلى الصعيد الاجتماعي أدت الى الهجرات السكانية الى خارج البلاد كمصر مثلا ، وأصبحت بلاد الشام مكانا طبيعيا للنازحين من العراق ، كما أدت الى نزوح وتحركات سكانية من

---

(1) - ابن العميد : المصدر نفسه ، ص٣٥ - الذهبي : دول ، ج٢ ، ص١٦٣ - الصياد : المرجع نفسه ، ص٢٠٨ - حمادة (محمد ماهر) : دراسة وثقية للتاريخ الاسلامي ومصادره ، بيروت ، مؤسسة الرسالة ، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م ، ص٣٣٨ - ٣٣٩ - الغامدي : المرجع نفسه ، ص١٣٣ - دهمان : ولاة ، ص٥٥ - زعرور : المرجع نفسه ، ص٤٧ .

(2) - أبو شامة : تراجم ، ص٢٠٧ - اليونيني : المصدر نفسه ، ج١ ، ص٣٦١ - أبو الفداء : المختصر ، ج٣ ، ص٢٠٥ - ابن كثير : المصدر نفسه ، ج١٣ ، ص٢٢١ - ٢٢٥ - العيني : المصدر نفسه : ج١ ص٢٥٠ - ابن تغري بردي : النجوم ، ج٧ ، ص٨٠ - ٨١ - ابن تغري بردي : المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي ، الهيئة العامة المصرية للكتاب ، له طبعات متعددة ١٩٨٤ ، ١٩٨٦ ، ١٩٨٨ / ١٤١٠هـ ١٩٩٠م ص٩٠ - ٩١ - عاشور : العلاقات ، ص٧٥ .

(3) - ابوشامة : تراجم ، ص٢١٠ - ابن عبد الظاهر : الروض ، ص٦٦ - أبو الفداء : المختصر ، ج٣ ، ص٢٠٥ - ٢٠٦ - الذهبي : دول ، ج٢ ، ص١٦٣ - ابن الوردي : المصدر نفسه ، ج٢ ، ص٢٩٩ - ٣٠٠ - ابن كثير : المصدر نفسه ، ج١٣ ، ص٢١٢ - العيني : المصدر نفسه ، ج١ ، ص٢٢٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يتسن لهم ذلك فرحلوا عنها الى أفامية حيث حاصرهم جيش اسلامي واضطرهم للرحيل الى حلب ، فسارع بيبرس بارسال جيش كبيرا وكل اليه مهمة طرد المغول من الشام ، فلما سمع هؤلاء بقدوم الجيش هربوا واتجهوا نحو شرق بلاد الشام.(١)

وهنا يجب طرح تساؤل هام وهو مادام العرب المسلمون قد انتصروا في عين جالوت على جموع المغول فلماذا لم يهاجموهم في مكان اقامتهم في العراق ،أوفي أي منطقة قريبة من حدود بلاد الشام الشمالية؟

من المفترض أن يقوم بيبرس بعد عين جالوت بهجوم واسع شامل على الأراضي التي تخضع للمغول والتي يقيمون بها كالعراق ،لكن عدم استقرار الاوضاع السياسية الداخلية منعته من تحقيق ذلك ،فدمشق خرجت عن طاعته عندما أعلن سنجرالحلبي استقلاله بالسلطنة فيها ،كما أن الكرك والشوبك لم تكن قد عادتا بعد الى الحماية المملوكية ،الى جانب الخوف من العدو الصليبي المتمركز بداخل المدن القريبة من مصر.

رأى الظاهر بيبرس الذى كان قائدا حربيا وسياسيا بارعا أن الظروف تقتضي بتثبيت حكمه عن طريق احياء الخلافة العباسية التي سقطت أمام جموع المغول وهمجيتهم سنة ٦٥٦هـ/١٢٥٨م والجدير بالذكر أن بيبرس لم يكن أول من فكر في احياء الخلافة العباسية ،لكنه هو الذى نجح في تحقيق هذا المشروع وابرازه الى حيز الوجود بنقله الى القاهرة. فبعد سقوط بغداد وقتل الخليفة العباسي المستعصم بالله هرب الأمير أحمد العباسي أحد أفراد العائلة المالكة الى بلاد الشام ،والتجأ الى عرب آل فضل وظل في حمايتهم حتى اجتاح المغول الشام فرحل الى مصر طلبا للأمان ،اضافة الى تحقيق الخطة التي وضعها نصب عينيه وهي استرجاع العراق من يد المغول بدعم مملوكي .

عندئذ ارتأى بيبرس أن حكمه يحتاج لصفة شرعية ، وذلك لا يتحقق الا بمبايعة الأمير بالخلافة ، فأقدم على مبايعته ولقبه بالمستنصر بالله وأكرمه مع بقية أفراد البيت العباسي ، لكنه بعد فترة وجيزة بدأ الظاهر بيبرس يحث الخليفة على مقاتلة المغول ، وتعددت آراء المؤرخين في الأسباب التي دعت لذلك ،والنتيجة كانت سير الخليفة لملاقاتهم بدعم من بيبرس ماديا

---

(١) ابن عبدالظاهر :المصدر نفسه ،ص١٩٦ -اليونيني :المصدر نفسه ،ج١ ،ص٤٣٤-٤٣٥ -أبو الفداء : المصدر نفسه ،ج٣ ،ص٢٠٩ -الذهبي :دول ،ج٢ ،ص١٦٤-١٦٥ -ابن الوردى : المصدر نفسه ،ج٢ ،ص٢٠٢ -ابن كثير :المصدر نفسه ،ج١٣ ،ص٢٢٣ -المقريزى :السلوك ،ج١ ،ق٢ ص٤٤٢ -ابن تغري بردي :النجوم ،ج٧ ،ص١٠٦-١٠٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وعسكريا ،حتى أن بعض عساكر الشام انضمت اليه الى جانب قوات من البدو والتركمان ،وأسفرت المعركة بين الطرفين عن هزيمته وقتله ،وبذلك قضي على الآمال باسترجاع العراق من أيدي المغول .(١)

ظل بيبرس يجاهد الأعداء حتى توفي سنة ٦٧٦هـ/١٢٧٧م بعد أن وضع الاسس الصحيحة لمن أتى بعده من السلاطين ،غير أن وفاته المبكرة بعد اعتلائه عرش السلطنة ضيع كل آماله وجهوده في تأمين الأستقرار السياسي لبلاد الشام ومصر على حد سواء. وخلفه على العرش ابنه السعيد بركة ،ثم سلامش التي لم تجر في أيامهم وقائع مع المغول حتى أتى السلطان قلاوون الذي جرت في أيامه معركة كبيرة في حمص اسفرت عن نتائج هامة.(٢)

موقعة حمص:

حدث انشقاق في بلاد الشام تمثل بعصيان سنقر الاشقر على السلطات المملوكية ورغبته الاستقلال بالمناطق التي يحكمها في البلاد ،لكن السلطات المملوكية منعته وحاولت قتله مرارا ولاحقته واصطدمت قواته مع جيش السلطان قلاوون فهزمت قواته ،وانسحب الاميرسنقر على اثرها من غزة الى الرحبة وراسل المغول بمساعدة أمير آل فضل مهنا بن عيسى ، ثم غادرها الى صهيون وتحصن بها .

استغل المغول الانشقاق بين الأمير سنقر والسلطان المملوكي ،وبغية تحقيق مآربهم والانتقام لهزيمة جيوشهم أمام المماليك في معركة الابلستين سنة ٦٧٥هـ/١٢٧٦م قرروا مهاجمة بلاد الشام وتقدمت جيوشهم سنة ٦٧٩هـ/١٢٨٠م وتوزعت لثلاث فرق ، فرقة جاءت من جهة الشرق ،وثانية من بلاد سلاجقة الروم ،وثالثة ضمت معظم عساكر صحبة منكوتمر بن هولاكو .(٣)

---

(١)-ابوشامة : المصدر نفسه ،ص٢١٣-الخالدي (ابراهيم بن عبد الرحمن بن القيسراني) :النور اللائح والدر الصادح في اصطفاء مولانا السلطان الملك الصالح ،لبنان ،الطبعة الأولى ،١٤٠٢هـ /١٩٨٢م ،ص٦٥-٩٥-المقريزي : السلوك ،ج ١ ،ق ٢ ،ص٤٦٧-٤٧٧-العيني : المصدر نفسه ، ج ١ ص٢٣٢-السيوطي :تاريخ الخلفاء ،ص٤٨١-ابن اياس:المصدر نفسه ،ج ١ ،ق ١ ،ص٣١٢-٣١٨ -العبادي :المرجع نفسه ،ص١٨٠ ،١٨٤ ،١٨٦ ،١٨٧-عدوان :المرجع نفسه ،ص ٥٢ - -بروكلمان (كارول) :تاريخ الشعوب الاسلامية ،بيروت ،دار العلم ،الطبعة الثالثة ج ٢ ،ص٢٤٢- ٢٤٥ .

MUIR:OP,CIT,P599

(٢)-الخالدي :المصدر نفسه ،ص٩٥-٩٦-العليمي (مجير الدين) : الانس الجليل بتاريخ القدس والخليل ،بيروت ،دار الجيل ،١٩٧٣م ،ج ٢ ،ص٨٨-بروكلمان :المرجع نفسه ،ج ٢ ،ص ٢٤٥ .

(٣)-المنصوري :التحفة ،ص٩٩-ابن الوردي :المصدر نفسه ،ج ٢ ،ص٣٢٦-المقريزي :السلوك ، ج ١ ،ق٢ ،ص٦٨١-العيني : المصدر نفسه ،ص٢٧١-ابن تغري بردي :النجوم ،ج ٧ ،ص ٢٩٧ -الغامدي :المرجع نفسه ،ص ٣٤-٣٢-بدر : مغول ايران ،ص ٧٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وطبيعي أن يعم الرعب كافة المناطق ، نزح معظم السكان خوفا من أعمال القتل والتشريد ، فلم يبق في المدن والريف الا من عجز عن الحركة في هذه الأثناء بدأ الأمراء في تجميع قواهم ضد العدو المتقدم وراسلوا الاميرسنقر الأشقر وطلبوا منه الامتثال لطاعة السلطان وخوض المعركة معهم ضد المغول فقبل ذلك بعد اتفاق سنة ٦٨٠هـ/ ١٢٨١م يقوم بموجبه الأمير سنقربتسليم شيزر لنواب السلطان قلاوون ، وأن يتم ما بيده من البلاد وهي صهيون ، بلاطنس، برزية ، اللاذقية ، بينما يعوضه ، السلطان عنها الشغروبكاس وأفامية وكفرطاب وانطاكية ، ووافق السلطان على منحه لقب الامرة ، وأن يخاطب المقرالعالي المولوى السيدى العادلي الشمسي.(١)

في هذه الاثناء دخل المغول حلب وأحرقوا الجوامع والمساجد والمدارس وقتلوا الكثيرمن بقوا في المدينة . وفي أثناء ذلك علموا باتفاق جميع الاطراف على قتالهم فغادروا حلب بعد أخذهم الكثيرمن الغنائم حتى قيل أن الأرمن أخذوا المنبرمعهم ، وتوجه المغول جنوبا نحو بقية المدن السورية .

في نفس الوقت استغل الفرنجة الموجودون في المرقب الفوضى الحاصلة في المنطقة وقاموا بأعمال فساد مما اضطرنائب حصن الأكراد سيف الدين بلبان الطباخي الى قتالهم لكنه لم يستطع هزيمتهم بل كانت النتيجة عكسية.(٢)

كما أن السلطان المملوكي توصل الى عقد هدنة مع الفرنج لمدة عشر سنوات.(٣)

تابع المغول تقدمهم فوصلوا حماه ففعلوا فيها كما فعلوا بحلب من الدمار والقتل وأحرق الغزاة بستان الملك المنصورصاحب حماه وجوسقه ، وتابع الجيش المغولي زحفه بقضه وقضيضه

---

(١) - ابن العبري : المصدر نفسه ، ص٥٠٤ - ابن عبد الظاهر (محي الدين) : تشريف الايام والعصور في سيرة الملك المنصور ، مصر، وزارة الثقافة ، الشركة العربية المتحدة للطباعة ، الطبعة الأولى ، ١٩٦١م ، ص٨٧ - ابو الفداء : المصدر نفسه ، ج٤ ، ص١٤ - ابن الوردي : المصدر نفسه ، ج٢ ، ص٢٢٦ - ٣ - ابن كثير : المصدر نفسه ، ج١٣ ، ص٢٩٤ - ٢٩٥ - المقريزي : السلوك ج١ ، ق٣ ص٦٨٧ - ٦٨٨ - ابن تغرى : النجوم ، ج٧ ، ص٣٠١ - ٣٠٢ .

(٢) - ابن عبد الظاهر : تشريف ، ص٨٠ مقدمة المحقق - أبو الفداء : المصدر نفسه ، ج٤ ، ص١٤ - النويري : نهاية الارب ، ج٣ ، ص٣١ - الذهبي : دول ، ج٢ ، ص١٨١ - ابن الوردي : المصدر نفسه ، ج٢ ، ص٢٢٦ - ٣ - المقريزي : السلوك ، ج١ ، ق٣ ، ص٦٨٢ - ٦٨٤ - ابن تغري بردي : النجوم ، ج٧ ص٢٩٨ - ٢٩٩ - الغامدي : المرجع نفسه ، ص٢٣٥ .

(٣) - ابن عبد الظاهر : تشريف ، ص٨٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

عن طريق وادي العاصي ، فوصل حمص استعدادا لملاقاة الجيش العربي الاسلامي بقيادة السلطان قلاوون . وقد قدر عدد جيش المسلمين بنصف عدد جيش المغول ، اختلفت المصادر في حجمه فبعضها ذكرت انه بلغ مائة الف مقاتل ، واخرى ثمانين الف شكل المغول منهم خمسون الفا والباقي من أجناس مختلفة كرج ، أرمن ، عجم . وكان الملتقى بين الطرفين فيما بين مشهد خالد بن الوليد الى الرستن والعاصي ، فحلت الهزيمة بالمغول ، فولوا مدبرين منهزمين بعد أن قتل منهم عدد كبير ، وكان هذا أمرا طبيعيا بالنسبة للمسلمين الذين اتحدوا جميعهم ضد الغزاة ، ففي الاتحاد قوة . ذلك أن جيش المسلمين ضم جميع الطوائف البدوية ، التركمانية ، الكردية ، اضافة الى جيش مصر والشام .

تأثرت مدينة حمص بالقتال الدائر على أرضها ، فقد أدى ذلك الى الاضرار بالمحاصيل الزراعية ، ناهيك عن تعرض جميع من كان خارج أسوارها الى القتل من قبل المغول ، فقد قتل المغول جميع من حظي به من العوام والسوقة والغلمان والمقاتلين بظاهرها .(١)

تفرق المغول المنهزمون من أرض المعركة باتجاهين ، الأول جهة سلمية حيث هلك الكثير منهم في الطريق الى سلمية ، والثاني اتجاه الفرات حيث أرسلت السلطات من أضرم النار بالازوار ،(٢) فاحترقت طائفة كبيرة منهم ، وتابع من تبقى منهم الى بغداد ليلتحق أباقا خان (أبغا) الذى علم بانهزام أتباعه وهو يحاصر الرحبة ، فقفل عائدا الى بغداد ، وكان ممن نجا أخوه منكوتمر الذى استاء منه أباقا خان (ابغا) لعجزه عن هزيمة العرب المسلمين ، واتجه قسم صغير من المغول المنهزمون الى البيرة فقاتلهم اهلها ومنعوهم من احتلالها .(٣)

وهكذا تمكن العرب المسلمون اثر هذه المعركة من هزيمة أباقا خان ثلاث مرات ، في البيرة ، ابلستين ، حمص ، وبذلك استقرت الحدود الفاصلة بين المغول والمماليك نهائيا بين بلاد الشام والعراق .(٤)

---

(١) - ابن العبري : المصدر نفسه ، ص٥٠٤ - ٥٠٥ - المنصوري : التحفة ، ص٩٩ - ١٠١ - النويري : المصدر نفسه ، ج ٣١ ، ص٣٢٣ - ٣٢٧ - أبوالفداء : المصدر نفسه ، ج ٤ ، ص١٤ - ١٥ - الذهبي : المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص١٨٢ - ١٨٣ - ابن الوردي : تتمة المختصر ، ج ٢ ، ص٣٢٢ - ٣٢٦ - ابن كثير : المصدر نفسه ، ج ١٣ ، ص٢٩٥ - ٢٩٦ - المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ق ٣ ، ص٦٩٣ - ٦٩٥ - العيني : المصدر نفسه ، ج ٢ ص٢٧١ - ٢٧٦ - ابن تغري بردي : النجوم ، ج ٧ ، ص٣٠٣ - ٣٠٥ - السيوطي : المصدر نفسه ، ص٤٨١ - فهمي (عبدالسلام) : تاريخ الدولة المغولية في ايران ، مصر ، مطبعة دار المعارف ، ١٩٨١م ، ص١٦٣ - ١٦٤ .

(٢) - الزور : الاجمة ذات الماء والحلفاء : انظر النويري : المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص٣٦٦ حاشية المحقق رقم ٢

(٣) - أبوالفداء : المصدر نفسه ، ج ٤ ، ص١٥ - النويري : المصدر نفسه ، ج ٣١ ، ص٣٦٦ - ابن الفرات (ناصر الدين محمد) : تاريخ ابن الفرات ، بيروت ، جامعة بيروت الاميركية ، المطبعة الاميركانية ، ١٩٤٢م ، ج ٧ ص٢٢١ - ٢٢٢ - المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ق ٣ ، ص٦٩٨ - ٦٩٩ - فهمي : المرجع نفسه ، ص ١٦٤ .

(٤) - فهمي : المرجع نفسه ، ص ١٦٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

انتهى الأمر بين المماليك والمغول لتوقيع هدنة لمدة سبعة عشر عاما [1]، ولم يمض على عقد الهدنة فترة قصيرة حتى تولى العرش المغولي السلطان أحمد تكودار الذى اعتنق الاسلام وجنح الى مهادنة العرب المسلمين في بلاد الشام، وبادل سيف الدين قلاوون رسائل المودة أظهر فيها رغبته في أن يظل في سلام ومودة مع جيرانه المسلمين.[2]

وقد اهتم الباحثون بالعلاقات المملوكية المغولية ومنهم عبد الله الغامدي الذى أكد بأن المكاتبات التي تبودلت بين الطرفين كانت من الممكن أن توقف العداء بين الدولتين ليتحقق للاسلام وللمسلمين فترة من التقدم والانتشار والوقوف في وجه الأعداء فيما لو استمر الايلخان أحمد تكودار فترة طويلة، غير أن مقتله سنة ٦٨٣هـ/١٢٨٤ من قبل أرغون قضت على تلك الامال حيث أقدم السلطان أرغون على اضطهاد المسلمين وصرفهم عن المناصب التي كانوا يشغلونها[3]. ويرأي ان النتائج المحتملة (المتوقعة) لبقاء أحمد تكودار على قيد الحياة، وعلاقته مع المشرق العربي فيها احتمالان :

١- أدت السياسة الداخلية والخارجية لهذا الحاكم والمتمثلة بتعاطفه مع المسلمين واحلال القرآن الكريم محل احكام الياسا والعرف القبلي ومهادنة المماليك كل هذا أدى الى تأليب الأمراء المغول ونقمتهم عليه وبالتالي قتله.

٢- ان احمد تكودار كان سينهج على نهج اسلافه عندما غزوا بلاد الشام بعد أن يتبع سياسة المهادنة مع المماليك في مصر لتثبيت حكمه وبعدها يذهب لغزو بلاد الشام .

كان حقد أرغون على المسلمين والهزائم المتكررة التي مني بها المغول في بلاد الشام سببا للتحالف مع القوى المعادية للمسلمين في ذلك الوقت والمتمثلة بالصليبيين الذين كانوا يدينون بالمسيحية، فتعاطف معهم وأرسل سفارات الى المقر البابوي في سنة ٦٨٤هـ/١٢٨٥م و ٦٨٦هـ/١٢٨٧م و٦٨٨هـ/١٢٨٩م و ٦٨٩هـ/١٢٩٠م يقترح فيها القيام بحملة مشتركة مع المقر البابوي ضد المماليك، ويقوم الغرب فيها بغزو مصر بينما تغزو جيوشه بلاد الشام ،

---

(١) - ينظر نص الهدنة بين قلاوون وأحمد تكودار عند ابن العبري، ص٥٠٦ - ابن عبد الظاهر: تشريف ص٦-١٦ - أبو الفداء: المصدر نفسه، ج٤، ص١٦ - المقريزي: السلوك، ج١، ق٣، ص٧٠٧-٧٠٨.

(٢) - ابن عبد الظاهر: تشريف، ص٤٤ - النويري: المصدر نفسه، ج٣١، ص٩٠ - ابن الفرات: المصدر نفسه، ج٧، ص٢٤٨ - ٢٤٩ - بدر: المرجع نفسه، ص٧٩ - ٨١.

(٣) - ابن العبري: المصدر نفسه، ص٥١٨ - ابن الفرات: المصدر نفسه، ج٨، ص٨٣ - الغامدي: المرجع نفسه، ص٢٥١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

واذا ما أمده ملك فرنسا فيليب بقوات اضافية فانه سوف يمنحهم القدس، لكن هذه السفارات لم تثمر عن تعاون فعال، ولم يجد أرغون استجابة من الغرب سواء من البابا أو من غيره من الملوك ولم يتعد الاهتمام بخطاباته أكثر من قراءتها.(1)

وهكذا لم يقع في عهد أرغون أي قتال مع المماليك، ولم يتحقق أي تحالف مغولي مع الغرب وربما يعود ذلك الى انصراف غرب أوربا الى المخاصمات والعداوات بالاضافة لانشغال المغول بالاضطرابات الداخلية الحادة.

وهذا يعني بأن العرب المسلمين بلغوا درجة عالية من القوة جعلت المغول يوجهون أنظارهم الى الغرب الاوربي لكسبه لجانبهم من أجل توجيه ضربة موجعة للمسلمين.

بيد أن أرغون لم يستمر لفترة طويلة في الحكم اذ تسلم بعده كيخاتو، بايدو، ثم غازان، في حين كانت بلاد الشام تنعم بشيء من الاستقرار والهدوء، وبتسلم غازان عرش المغول بدأ يفكر في غزو المنطقة خاصة بعد أن وصلته أنباء تفيد أن حالة من الضعف وعدم الاستقرار تسود المنطقة بسبب النزاع على العرش في مصر بين كل من كتبغا ولاجين والناصر محمد بن قلاوون.

كما أن هناك عوامل أخرى ساعدته على مهاجمة البلاد منها تحريض الناصر محمد أمراء المسلمين على طرد المغول من ايران والعراق، ومهاجمة الجيش الاسلامي لأرمينية التي كانت موالية للمغول والاعتداء على أراضيها يعني الاعتداء على الأراضي المغولية. اضافة الى استقبال السلطان المملوكي كتبغا عصاة المغول الذين فروا من وجه غازان بعد انتصاره على بايدو واعتناقه الاسلام، فقد هاجر عدد كبير منهم عرفوا بالاويراتية. كل هذه العوامل كانت مشجعة على ازدياد هوة الخلاف بين المغول والمماليك.(2)

ويمكن أن يضاف عامل آخر للعوامل الواردة فيما مضى وهو هدف المغول بالوصول الى البحر الأبيض المتوسط، ذلك أن المغول ومنذ قيام دولتهم شجعوا على التجارة وأمنوا الطرق التجارية، فازدهرت هذه الطرق، وتحولت معظم التجارات الى المناطق التي حكموها، فاستطاعوا السيطرة على معظم الممرات والمضائق والمدن التجارية باستثناء بلاد الشام التي تطل على البحر المتوسط والتي تشكل محطة تجارية هامة ترتبط مع الغرب الأوربي، من هذا المنطلق يمكن القول بأن أهمية بلاد الشام التجارية دفعت المغول باستمرار للهجوم على بلاد الشام.

---

(1)- فهمي : المرجع نفسه، ص ١٧٧ - ١٨١.

(2)- النويري : نهاية الارب، ج ٣١، ص ٢٩٦ - ابن الوردى : تتمة المختصر، ج ٢، ص ٣٤٤.
- ابن الفرات، تاريخ، ج ٨، ص ٢٠٣ - ابن خطيب الناصرية : الدر المنتخب، ج ٢ ورقة ٣٤ -
- المقريزى : السلوك، ج ١، ق ٣، ص ١٢٠ - فهمي : المرجع نفسه، ص ١٩٨-١٩٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لقد صمم غازان على الخروج الى المماليك ولما ن هرب سيف الدين قبجق نائب السلطان في دمشق مع جماعة من الامراء والتجأوا الى محمود غازان حتى تشجع وبدأ يفكر في امتلاك البـــــلاد وتحقيق أطماع المغول ومواصلة السير الى مصر.

موقعة الخازندار

أدرك غازان أوضاع البلاد السيئة بسبب النزاعات على السلطة، وأن الخلافات بينهم وصلت الى طريق مسدود بحيث لا تمكنهم من لم شملهم والوقوف في وجه العدو، ولذلك قرر التوجه بحملة كبيرة الى بلاد الشام، ولكي يصبغ حملته بصبغة الشرعية استفتى رجال الدين فأجمعوا على الغزو.

ولما وصل الى مسامع الناصر محمد خبر الحملة المغولية جهز جيشا لصدهم، وقاد الناصـــر الجيش واتجه به من القاهرة الى عسقلان سنة ٦٩٨هـ /١٢٩٨م، وما ان وصلت اليــــه الأخبار بكثرة عدد جنود العدو وامكاناته العالية وعدده الوفيرة حتى وقع الرعب في قلوب الجند خاصة عندما رأوا أنواعا من الجراد محلقة في الجو تشاءموا، فاعتبروها نذيرا بالهزيمة.

في هذا الوقت كانت جحافل الغزاة قد اجتاحت حلب وحماه، فسبب هذا الاجتياح الكثيـــر من التخريب والتدمير، فنزح أهل القرى والمدن طلبا للأمان، وارتفعت الأسعار بشكل مذهل، فأدى ذلك بالنهاية الى توقف الحياة العامة في المدن المذكورة.

بعدها سار جيش العدو نحو حمص بانتظار المسلمين، فلما وصلوا التقى الفريقان في مجمـع المروج -يعرف بوادي الخازندار- وكان جيش المسلمين يقارب عشرين ألف فارس يسانـــده البدو والتركمان، بينما كان جيش المغول خمسة أضعافهم. لم تسفر المعركة في البداية عن نتيجة بسبب اخفاق الخطة التي اعتمدها العرب المسلمون والتي هدفت الى جر العـــدو الى المعركة أولا ثم استنزاف قدراته، لكن غازان استغل تفكك المسلمين وهاجمهم، فشـــرع المسلمون في الهزيمة، وأخذ الأمراء السلطان وساروا على درب بعلبك والبقاع بعد أن تركوا جميع الأثقال ملقاة على الأرض، وعبر بعض العسكر دمشق، واستشهد في المصاف

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

عدد كبير من الأمراء منهم نائب طرابلس، نائب قلعة المرقب وآخرون [(1)].

غنم العدو اثر المعركة الكثير من العدد والأثقال والأموال التي كانت ملقاة على الأرض، والتي كلفت السلطات والرعية الكثير من الاموال والضرائب لا متلاكها ويمكن أن يكون لخسارة المسلمين في المعركة وافتقادهم السلاح والأموال أثر كبير في تقدم الغزاة نحو بقية مدن الشام واحتلالها .

لم يبق أمام الغزاة من عائق ،بل أصبح الطريق مفتوحا أمامهم فساروا باتجاه حمص ودخلوها لوجود الخزائن السلطانية وأثقال العسكر فيها ،وقد استولوا عليها من غير قتال من قبل متوليها محمد بن الصارم ،ثم سار العدو باتجاه دمشق . وهنا يطرح لماذا اتجهت الحملات العسكرية المغولية دائما باتجاه دمشق سيما أنها كلها توقفت فيها ولم تتجاوزها ؟ .

من الممكن أن يكون هدف الحملات العسكرية المغولية تجاريا ،فدمشق شكلت عقدة مواصلات تجارية هامة، فقد كانت محطة للتجارة البرية مع آسيا الصغرى والعراق ومصر، كما أنها كانت محطة للتجارة البحرية حيث أوصلت البضائع التجارية الى البحر الابيض المتوسط ،فالتجارة الآتية من الشرق الى البحر المتوسط تمر عبرها ،والتجارة الآتية من آسيا الصغرى والمناطق المحيطة بها تمر عبرها الى مصر مما يعني أنها عقدة تجارية استراتيجية هامة ،ولما كان هدف المغول الوصول الى البحر المتوسط للسيطرة عليه تجاريا فحتما كان اخضاع دمشق هاما أيضا .

عند سماع أهل دمشق نبأ توجه غازان اليها وقع الخوف والرعب في نفوس أبنائها حيث ترك

---

(1) أبوالفداء : المصدر نفسه ،ج ٤ ،ص٤٢-٤٣-النويرى : المصدر نفسه ،ج ٣١ ،ص٣٨٤-٣٧٨ الذهبي : دول ،ج ٢ ،ص٢٠٢ -ابن الوردي :المصدر نفسه ،ج ٢ ،ص٣٥٣-ابن كثير :المصدر نفسه ،ج ١٤ ،ص ٦-٧ .-ابن خلدون (عبد الرحمن) :العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر ،دار الكتاب اللبناني ،ج ٥ ،ق ٤ ، ص٨٨٩-المقريزى : السلوك ،ج ١ ،ق ٣ ،ص٨٨٦-٨٨٨-العيني : المصدر نفسه ،ج ٤ ،ص١٦-١٧-ابن تغرى بردى :النجوم ،ج ٢ ،ص١٢١-١٨١-ابن اياس :المصدر نفسه ،ج ١ ،ق ١ ، ص ٤٠٣-ابن الطباخ :المصدر نفسه ،ج ٢ ،ص٢٨٢-دهمان ،ولاة ،ص٨٨-٨٩-عطاالله : نيابة غزة ص١١٢ -منقريوس (رزق الله) : تاريخ دول الاسلام ، مصر ،مطبعة الهلال ،١٣٢٥هـ/ ١٩٠٧م ،ج ٢ ،ص٢٨٧-فهمي : المرجع نفسه ،ص٢٠١-٢٠٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

قسم منهم حوانيتهم وأموالهم واعتصموا بالقرى والجبال ، كما سار آخرون باتجاه مصر، مما أفسح مجالا للصوص بالفساد بالمدينة، ولم تتفق ما تبقى من أهل مدينة دمشق على ارسال وفد يضم كبار فقهائها وعلمائها لطلب الأمان من غازان واشترك في هذا الوفد الكثير من العلماء والفقهاء أمثال بدر الدين بن جماعة، تقي الدين بن تيمية، نجم الدين بن صصرى، القاضي عز الدين بن الزكي، الشيخ وجيه الدين بن المنجا، الشيخ عز الدين بن القلانسي وابن عمه شرف الدين، الشيخ محمد بن قوام النابلسي، جلال الدين أخو القاضي القزويني [1].

اجتمع الوفد بغازان بالنبك، وقدموا له طعاما على سبيل الهدية فاعتذر عن قبوله، ولما طلبوا الأمان اخبرهم بأنه أرسله مع الشريف القمي فعادوا الى مدينتهم واجتمعوا بالمسجد الاموي، وتلا عليهم أمير مغولي اسمه اسماعيل صورة الأمان في سنة ٦٩٩ هـ [2].

اطمأنت نفوس الناس بعد قراءة الأمان، ودخل المغول دمشق بهدوء، لكن قلعتها بقيت خارج سيطرتهم ففوض غازان الأمير قبجق نائب دمشق الهارب ورفقته عدد من الأمراء التفاوض مع أرجواش المنصوري لتسليمها، وحدث حوار عنيف بين الوفد وبين أرجواش، وقالوا له: « دم المسلمين في عنقك اذا لم تسلمها » فأجابهم « دم المسلمين في أعناقكم أنتم الذين خرجتم من دمشق وتوجهتم الى غازان وحسنتم له المجيء الى دمشق وغيرها » [3].

ورفض تسليم القلعة لقصاد غازان.

قرر المغول بعد هذا الرفض الاستيلاء على القلعة عن طريق حصارها وقذفها بالمنجنيق، فرأوا خير مكان لنصب المنجنيق سطح الجامع الاموي، فشرعوا بالعمل وعندما لم يبق الا تركيبه استطاع رجال أرجواش من تحطيم أدواته وأخفق العدو في نصبه، عندئذ بدأ أرجواش بهدم البيوت بجانب القلعة خوفا من اختباء العدو فيها فهدم من باب النصر لباب الفرج [4].

---

(١) - النويري: المصدر نفسه، ج ٣١، ص ٣٨٦ - ٣٨٨ - المقريزي: المصدر نفسه، ج ١، ق ٣، ص ٨٨٨ - ٨٨٩ - المقفى الكبير، بيروت، دار الغرب الاسلامي، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م ج ٧، ص ١٧٠ - ١٧١ - دهمان: ولاة، ص ٩٠ - ٩٢.

(٢) - المقريزي: السلوك، ج ١، ق ٣، ص ٨٨٩ - ٨٩٠ - العيني: المصدر نفسه، ج ٤، ص ٣٢ - ابن تغري بردي: النجوم، ج ٨، ص ٢٢٤ وينظر صورة الأمان عند النويري: المصدر نفسه، ج ٣١، ص ٢٨٩ - ٢٩٢ - المقريزي: السلوك، ج ١، ق ٣، ص ١٠١١ - ١٠١٢ - ومختصرا عند العيني: عقد الجمان، ج ٤، ص ٤٠ - دهمان: ولاة، ص ٩٣ - ٩٥.

(٣) - ابن ايبك الدواداري: كنز الدرر وجامع الغرر ٩ وهو الدر الفاخر في سيرة الملك الناصر، القاهرة، ١٣٧٩هـ/ ١٩٦٠م ص ٢٤ - ابن تغري بردي: النجوم، ص ١٢٥.

(٤) - النويري: المصدر نفسه، ج ٣١، ص ٣٩٥ - ٣٩٧ - ابن كثير: المصدر نفسه، ج ١٤، ص ٩ - المقريزي: السلوك، ج ١، ق ٣ ص ٨٩٣ - العيني: المصدر نفسه، ج ٤، ص ٤١ - ٤٤ - دهمان: ولاة ص ١٠٢ - ١٠٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولا يعلم مصير من تهدمت بيوتهم ، وهل ساعدتهم السلطات أم لم تساعدهم ؟ . ولا ندري لماذا لم تحصن السلطات أسوار مدينة دمشق واكتفت بتحصين قلعتها ؟ .

في هذه الأثناء قلد قبجق بلاد الشام كلها وهي دمشق ، حماه ، حمص ، حلب ، اضافة الى ولاية الخطباء والقضاة وغيرهم ، وبدأ العدو بقتل السكان وتدمير المنشآت في جبل الصالحية بعد أن طلبوا الأموال ، فلم ترض هذه الأعمال الفقهاء والعلماء وخصوصا ابن تيمية الذى توجه الى غازان المقيم بمرج راهط ليشكو له ماجرى من المغول بعد أمانه ، فلم يتمكن من لقائه بعد مجالس اللهو والسكر التي كان يحضرها ، لكنه عاد اليه ثانية واجتمع له مع وفد العلماء وما قاله له : « أنت تزعم أنك مسلم ، ومعك قاض وامام وشيخ ومؤذنون على مابلغنا فغزوتنا . وأبوك وجدك كانا كافرين ، وماعملا الذى عملت عاهدا ، فوفيا ، وأنت عاهدت فغدرت ، وقلت فما وفيت » . [١]

ثم قدم غازان طعاما للعلماء فأكلوا الا ابن تيمية رفض الطعام فطلب غازان منه الدعاء فقال : « اللهم ان كنت تعلم أنه قاتل لتكون كلمة الله هي العليا وجهادا في سبيلك فأيده وانصره . وان كان للملك والدينار والتكاثر ، فافعل به واصنع » . [٢]

لم يجد ماطلبه الفقهاء نفعا فقد اقتحم جنود العدو أقسام المدينة ومعاهدها الدينية والعلمية ، وعاثوا فيها الفساد ، وهتكوا أعراض الناس ، وفرضوا الأموال على فئات الناس كالعلماء والجنود والفلاحين والتجار والعمال وغيرهم ، وعذبوهم بكافة الاساليب المتبعة لتحصيلها ماعدا الرشوة التي حصلوا عليها .

ولم تطل مدة مكوث غازان في دمشق فقد غادرها مضطرا بعد علمه أن مغول التركستان الجغتائيين هجموا على حدود بلاده الشرقية من ناحية خراسان وعاثوا الفساد في مملكته منتهزين وجوده في بلاد الشام وخلوا البلاد من المدافعين عنها ، واصطحب غازان معه في طريق العودة ثلاثة من أعيان دمشق وهم بدر الدين محمد بن فضل الله ، وعلاء الدين بن شرف الدين محمد بن القلانسي ، شرف الدين سعيد بن محمد بن سعيد بن الأثير .

---

(١) - النويري : المصدر نفسه ، ج ٣١ ، ص ٣٩٤ - ٣٩٥ - ابن كثير : المصدر نفسه ، ج ١٤ ، ص ٨ - المقريزي : المقفى ، ج ١ ، ص ٤٥٧ - السلوك ، ج ١ ، ق ٣ ، ص ٨٩١ - ٨٩٢ - العيني : المصدر نفسه ، ج ٤ ، ص ٣٩٧ - ٣٩٨ .

(٢) - المقريزي : المقفى ، ج ١ ، ص ٤٥٧ - العيني : المصدر نفسه ، ج ٤ ، ص ٣٢ - ٣٨ - دهمان : ولاة ، ص ٩٧ - ١٠١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولم ندري ماسر اصطحاب غازان لهؤلاء الاعيان .

وخلف غازان نائبه قطلوشاه في ادارة البلاد ، كما كتب عهدا للأمير قبجق بنيابة الشام ، والأمير بكتمر السلاح دار بنيابة حلب وحماه وحمص ، والأمير الالبكي بنيابة صفد والساحل وطرابلس. أراد الأمير قبجق أن يظهر بمظهر المدافع عن البلاد ، وتحقق له ذلك عند ما استطاع اقناع قطلوشاه بترك البلاد بعد أن كانت قواته تغير على مدن الشام وتنهب وتقتل ، ولكن هذا الانسحاب كان مشروطا بدفع كمية من الأموال ، فقبل قطلوشاه ورحل ، عندها عاد الأمان لدمشق ففتحت الاسواق وأبواب المدينة. (١)

بعد رحيل جميع قواد المغول بقي الأمير قبجق وحيدا في السلطة ، فخاف من المصير المجهول الذى ينتظره ، فاتفق مع المماليك ، ورحب السلطان بذلك وعفا عنه وأنعم عليه بالشوبك وعين مكانه بدمشق جمال الدين آقوش الأفرم .

ومنذ ذلك الحين كان الشغل الشاغل لجميع أفراد المجتمع من سياسيين وقضاة وعلماء وعامة تحصين دفاعات المدينة وتقويتها اضافة الى بث الروح الوطنية والقتالية في النفوس. ولم تأل السلطات جاهدة في عقوبة من ساند الغزاة سواء كانوا من الأكابر أو الأعيان أو عامة الناس . لاسيما أن هؤلاء استغلوا الاضطراب الأمني في المدينة ونهبوا بيوت الأكابر والأثرياء ، كما اتبعوا أساليب متنوعة لتعذيب السكان عند جباية الأموال ، وقد تنوعت عقوبتهم ، ونراها مفصلة عند النويرى حيث قال :

« فكحل الحاج مندوه ، وسمر الشريف القمي ، وابن العوني البرددار (٢) وابن خطلبشا المرى وحطهم على الجمال ، ثم اطلق ابن العوني بعد ثلاثة أيام ، وشنق كاتب مسطبة

---

(١) - النويرى : المصدر نفسه ، ج ٣١ ، ص ٣٩٧ - ٣٩٨ - المقريزى : المصدر نفسه ، ج ١ ، ق ٣ ، ص ٨٩٤ - ٨٩٦ - العيني : المصدر نفسه ، ج ٤ ، ص ٤٥ - ٤٦ - دهمان : المرجع نفسه ، ص ١٠٧ - ١٠٨ - فهمي : المرجع نفسه ، ص ٢٠٤ - ٢٠٥ .

(٢) - البرددار : وهو الذى يكون في خدمة مباشرى الديوان في الجملة ، متحدثا على أعوانه المتصرفين فيه - دهمان (محمد أحمد) : معجم الالفاظ التاريخية في العصر المملوكي ، بيروت ، دار الفكر المعاصر ، الطبعة الأولى ، ١٤١٠ هـ / ١٩٩٠ م ، ص ٣٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الولاية بدمشق ، وابراهيم مؤذن بيت لهيا ، ورجلا من اليهود ، وقطع لسان ابن طاعن ، وقطع يد ورجل أحد من أمرهم قبجق ، فمات بعد ثلاثة أيام ، وكحل الشجاع همام ، فمات بعد ليلة » . (١)

بالنتيجة كانت الخلافات القائمة في البلاد والمتمثلة في الصراع على السلطة أحد الأسباب التي شجعت غازان على غزو بلاد الشام ، اضافة الى أن الأمراء المنشقين أطلعوه على مواطن الضعف والوهن الذي حل بالدولة . وكان انشقاق الأمير قبجق وخيانته لبلاده من أسباب اضطراب الأمور .

وعلى العموم فان ما أصاب البلاد من جراء غزوة غازان كان عظيما ، اذ قدر عدد القتلى بالآلاف ، اضافة الى الخسائر المادية الناتجة عن جمع الأموال ، والخسائر التي لحقت بالأراضي الزراعية نتيجة اتلاف المحاصيل أثناء حصول المعارك العسكرية ، الى جانب فقدان اليد المنتجة في الزراعة وهم الفلاحين سواء بهجرتهم من مناطقهم او ارهاقهم بالضرائب والمغارم ، كل ذلك ترك الرعية في فقر مدقع .

كان لهذه الغزوات أثر كبير في الابداع الفكري العربي ، فالوفرة الديمغرافية تؤدي الى ظهور الابداع الفني والعلمي والثقافي ، وعلى العكس كلما قل عدد السكان كلما قل عدد المبدعين والمخططين والسياسيين البارعين ، وهذا يعني بالنهاية انحطاط المجتمع .

كما سببت غزوة غازان دمارا وخرابا لاكثر المعالم الحضارية والعمرانية ، والى انتهاك حرمات الأماكن المقدسة كالجامع الأموي ، وتشجيع الفساد بحيث تناول المغول بداخله الخمر والحشيش ، فلماذا سمح لهم غازان بذلك ما دام مسلما ؟ .

شكك بعض المؤرخين في اسلام غازان ، واعتبروا اسلامه مظهرا دعائيا فقط ، بعد أن أثبتوا بأنه خرق قوانين الشريعة الاسلامية عندما ضم نساء أبيه الى نسائه ما عدا أمه . (٢)

---

(١) - النويري : المصدر نفسه ، ج ٣١ ، ص ٤٠٧ - ابن كثير : المصدر نفسه ، ج ١٤ ، ص ١٢
- المقريزي : السلوك ج ١ ، ق ٣ ، ص ٨٩٩ - ٩٠٠ - ٩٠٢ - العيني : المصدر نفسه ، ج ٤ ، ص ٧٩ - ٨٠
(٢) - ابن حجر العسقلاني : الدرر ، ج ٣ ، ص ٢١٣ - فهمي : المرجع نفسه ، ص ١٩٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

كان وقع غزوة غازان هائلا على جميع فئات المجتمع في دمشق التي رأت في اتفاقها وتعاونها مخرجا للأزمة، فحصل تنسيق بين الهيئات الدينية والسياسية، وبدأت هذه الهيئات بتحريض الرعية على عدم النزوح عند قدوم العدو، وانفاق الأموال من أجل الذود عن المدينة، كما حرضتهم على القتال. وكان على رأس السلطات الدينية ابن تيمية الذى كان يعقد مجالسه في الجامع الأموي، وظلت هذه الهيئات تواظب عملها حتى استطاعت تسكين جأش الناس وروعهم.(1)

في خضم هذه الظروف وجد غازان نفسه في موقف محرج بعد خروجه من بلاد الشام، فقد كان عليه أن يعيد البلاد الى قبضته كي يعيد للدولة المغولية هيبتها واحترامها، فجهز جيشا سار به عبر الفرات، واتجه به نحو انطاكية سنة ٧٠٠هـ/ ١٣٠٠م ووصلت الأنباء للسلطات بأن الجيش المغولي يتقدم فذهب ابن تيمية الى نائب دمشق وحثه على الصبر وقتال الأعداء، كما توجه الى السلطان في مصر يستنهضه ويقوى عزيمته حتى وافق على ارسال قسم من الجيش لبلاد الشام شرطا أن يلحق به السلطان، فوصل الجيش المصري للبلاد بينما كان جيش العدو قد وصل الى حماه وشيزر، وقام بأعمال السلب والنهب والفساد، فأخذ للتركمان وأهل البلاد مواشي كثيرة، كما أسر عددا كبيرا من سكان المنطقة حتى بيع الواحد منهم بعشرة دراهم، غير أن سوء الأوضاع الجوية من قسوة البرد والأمطار والثلوج حالت دون تقدم غازان نحو دمشق فعاد أدراجه نحو بلاده.

وكان غازان يأمل في مساعدة جيرانه وملوك أوربا في انتزاع بلاد الشام من المماليك، فراسل كلا من ملكي انكلترا وفرنسا بشأن ذلك لكنه لم يلق التأييد لعاملين أساسيين وهما: اسلام مغول فارس، وانشغال الدول الأوربية بمشاكلها الخاصة وانصرافهم الى المخاصمات والعداوات، وفتور الروح الصليبية لديهم.(2) عندئذ عول على مهادنة المماليك فأرسل الى الناصر محمد سنة ٧٠٠هـ/ ١٣٠٠م حملها الوفد مؤلف من عشرين رجلا أنزلوا بقلعة دمشق وعلى رأس هذا الوفد الأمير ناصر الدين علي خواجا، والقاضي كمال الدين موسى بن يونس قاضي الموصل، وقد سلم هؤلاء الكتاب للناصر محمد، وقد عاب فيها غازان على الناصر محمد مهاجمة بلاد الروم دون سبب، وأنذره بالقتال اذا

---

(1) - ابن كثير: المصدر نفسه، ج ١٤، ص١٤ - دهمان: ولاة، ص ١١٥.
(2) - فهمي: المرجع نفسه، ص ٢١٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لم يرتد عن أفعاله، وطلب منه أن يعد له الهدايا والتحف، واذا كانت رسالة غازان تحمل المهادنة فانها ضمت بين طياتها التهديد والوعيد، وكان اسلوب الرسالة حاسما، وكأنها صادرة من حاكم الى من هو دونه قوة وقدرة، كما أنها شملت بعض الآيات القرآنية والمواعظ الاسلامية.(١)

وقعة شقحب (مرج الصفر)

ـ عندما اخفقت المحاولات لتحسين العلاقات بين الطرفين استعد الفريقان للقتال، وتحرك المغول بجيوشهم الجرارة حتى نزلوا على ضفاف الفرات، ولما وصل غازان الى الرحبة لاطفه نائبها علم الدين سنجر الغتمي ووعده بأنه سيبقى معه، وحسّن له القصد نحو المدن الكبار. وعمد غازان الى محاولة خداع مع جميع نواب الشام، فأخبر نائب حلب بأنه قدم البلاد من أجل المراعي لأن بلادهم قد أمحلت، وبعث لنائب دمشق جمال الدين آقوش الأفرم كتابا يرغبه في طاعته.(٢) لكن خداعه سرعان ما انكشف حيث تقدم قائده قطلوشاه نحو الفرات، وعبر مع طائفة من جنده وأغاروا على القريتين فنهبوا أموال التركمان ومواشيهم، ونسائهم، وأطفالهم، ولما علمت العساكر الاسلامية بهذه الغارة سارعت الى قتالهم فردتهم على أعقابهم وكسرتهم واسترجعت منهم الأسرى والأموال، لكن المعركة أسفرت عن استشهاد عدد من الجنود والامراء المسلمين منهم الأمير أنص، ناصر الدين الباشقردي الناصري ونحو ستة وخمسين من الجند والأمراء، وجرح نحو ثمانين منهم.

كان هذا الهجوم خدعة من قبل العدو لتفريق جيش المسلمين وتشتيته حتى تسنح له الفرصة لاخضاع بلاد الشام. الا أن الأمراء سرعان ما تنبهوا لهذا الخطر ففوتوا على العدو خطته، وسارعوا بالالتحاق ببقية الجيوش التي بدأت تتجمع نواحي مدينة دمشق. بعد أن أطمأن غازان على وضع جيشه عبر الفرات وتوجه الى كربلاء، ثم عانة، وبعدها الى أردبيل وأقام ينتظر النتيجة التي جاءت مخيبة للآمال.

بعدها توجه العدو المغولي بقيادة قطلوشاه نحو حمص وبعلبك وعاثوا في أراضيها الفساد، ثم تقدموا نحو دمشق حيث كانت تخيم على المدينة أجواء من الفوضى العارمة

---

(١) ـ ينظر نص الرسالة عند القلقشندي : صبح الأعشى، ج ٨، ص ٦٩ - ٧١.
ـ فهمي : المرجع نفسه، ص ٢٠٧.

(٢) ـ ينظر النص مختصرا في السلوك، ج ١، ق ٣، ص ٩٢٤ - ٢٧ - ١٠٢٧، وكاملا عند العيني : المصدر نفسه، ج ٤، ص ٢١٠ - ٢١٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

التي استغلها اللصوص والحرافيش للقيام بأعمال تخريبية، ورافق هذه الأجواء ارتباك اقتصادي تمثل في ارتفاع الأسعار، احتكار التجار للمؤن الغذائية مما أدى الى انخفاض القيمة الشرائية النقدية وظهور الكساد في الأسواق وشبح المجاعات، الى جانب ترك الناس لأعمالهم. الا أن السلطة ونتيجة لما ذكر سابقا فانها أجمعت على القتال ، فأجتمعت العساكر المصرية والشامية المتواجدة في بلاد الشام بقيادة بيبرس الجاشنكير وساروا الى مرج الزنبقية ظاهر دمشق منتظرين وصول السلطان مع العساكر المصرية، ولما اقترب منهم المغول ساروا الى مرج الصفر وألقوا الرحال هناك.(١)

توجه السلطان المملوكي من مصر على رأس جيش كبير وضم الى جيشه عربان نابلس والشام وطرابلس فبلغ مجموع ما اجتمع معه مائتي ألف مقاتل ،وتقدم حتى وصل دمشق، والتقي ابن تيمية الذى حثه على الجهاد فأثرت كلماته عنده فما كان من السلطان الا أن سار حتى وصل قرب الكسوة ويصف المقريزى تقدم القوات:

((ومشى السلطان والخليفة بجانبه، ومعهما القراء يتلون القرآن ويحثون على الجهاد ، ويشوقون الى الجنة، وصار السلطان يقف ويقول الخليفة: يامجاهدون لا تنظروا لسلطانكم قاتلوا عن حريمكم وعلى دين نبيكم صلى الله عليه وسلم)).(٢)

وفي الثاني من شهر رمضان سنة ٧٠٢هـ/١٣٠٢م التقى المغول والمماليك عند مرج الصفر في معركة حسمت الصراع بينهم لفترة طويلة، اذ تبع هذه المعركة سنوات طويلة لم يهاجم فيها المغول بلاد الشام حتى غزوة تيمورلنك ،وانتهت المعركة بهزيمة المغول هزيمة نكراء. فقد هلك معظم جيشهم، ومن لم يمت بالسيف مات من شدة الظمأ. وفر قائد المغول قطلوشاه نحو الفرات وتبعه من نجي من الهلاك، فغرق بعضهم في نهر الفرات، ومات آخرون من الجوع، ومن ظل سار بجانب الفرات فتخطفه البدو. وقتل

---

(١)- المنصوري: التحفة، ص١٦٣-١٦٧- أبوالفداء: المصدر نفسه، ج٤، ص٤٨-١- ابن كثير: المصدر نفسه، ج١٤، ص٢٣-٢٤- الصفدي (صلاح الدين خليل بن ايبك): الوافي بالوفيات، ليس له تاريخ طبعه، ج٤، ص٣٦٠- المقريزي: السلوك، ج١، ق٣، ص٩٣٠-٩٣٢- المقفى، ج٧، ص١٨٠- العيني: المصدر نفسه، ج٤، ص٢٢٠-٢٢٣- دهمان: المرجع نفسه، ص١٣٨- فهمي: المرجع نفسه، ص٢٠٩.

(٢)- ابن كثير: المصدر نفسه، ج١٤، ص٢٥-٢٧- المقريزى: السلوك، ج١، ق٢، ص٩٣٣- العيني: المصدر نفسه، ج٤، ص٢٢٣-٢٢٤- ابن اياس: المصدر نفسه، ج١، ق١، ص١٣٤- دهمان: ولاة، ص١٣٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

عدد قليل من جيش المسلمين فكرمتهم السلطات وبنت لهم القبب مكان دفنهم (1).

أظهرت هذه المعركة التفوق العسكري والتنظيم في صفوف المقاتلين المماليك، ومن المحتمل أن المماليك استفادوا من المعلومات العسكرية المقدمة لهم من قبل الأمراء الفارين الى بلاد المغول كالأمير قبجق ورفاقه الذين أطلعوه على جميع طرق وفنون القتال المغولية، وعلموا مكامن الضعف والقوة وزودوها للسلطات (2).

أصيب غازان بخيبة أمل كبيرة نتيجة لما حل بجنده من النكبات، حيث خسر قسما من جيشه ولم يعد منه سوى الثلث، وزاد غضبه اثر وصول رسالة من الناصر محمد يوبخه فيها، ويحقر من شأنه، ويطلب منه الرحيل عن العراق، ويلومه على غدره، ويذكره بأن الكرسي لا يحيق الا بأهله.

بعدها عقد غازان مجلس الأمراء لمحاكمة قواد الجيش المنهزمين، فحكم المجلس على قائدين منهم بالاعدام، بينما ضرب القائدان جوبان وقطلوشاه ضربا مبرحا لأن غازان حمله مسؤولية الهزيمة.

عاد غازان الى بلاده في وضع محزن بالوقت الذي عاد فيه الناصر الى القاهرة في موكب حافل، حيث استقبلته الرعية، وكان يحيط به حراسه ويتبعهم ألف وستمائة من أسرى المغول مكبلين بالسلاسل والأغلال، بينما رفع ألف رأس من رؤوس القتلى المغول على أسنة الرماح تعلوها طبول الحرب المغولية الممزقة.

---

(1)- ابن تيمية (أحمد): الرسالة القبرصية، علق عليها علاء الدين دمج، بيروت، دار ابن حزم، الطبعة الأولى، 1408هـ/1987م، ص42- أبو الفداء: المصدر نفسه، ج4، ص48-49- الذهبي دول، ج2، ص209- ابن الوردي: المصدر نفسه، ج2 ص322- الصفدي: الوافي، ج4، ص361-362- ابن كثير: المصدر نفسه، ج14 ص25-26- ابن حبيب (الحسن بن عمر): تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه، مصر، مطبعة دار الكتب، 1976م ج1، ص245-249- ابن خلدون العبر، ج5، ص897-889- المقريزي: السلوك، ج1، ق3، ص937- العيني: المصدر نفسه ج4، ص235-244- ابن اياس: المصدر نفسه، ج1، ق1، ص413-414- عدوار: المماليك، ص30- بدر: مغول ايران، ص111-117.

(2)- ينظر لاحقا حركات التمرد والعصيان وارتباطها بالمغول.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

واذا كانت القاهرة قد احتفلت كثيرا بهذا النصر وكانت بعيدة عن مكان المعركة فكيف هي حالة دمشق التي جرت المعركة على مقربة من أرضها والتي شاركت فيها عساكرها فلابد من ابتهاجها أكثر.(1)

كانت الكارثة التي حلت على المغول في مرج الصفر سببا لاعتلال صحة غازان ووفاته، فخلفه على العرش أخوه محمد خدابنده أولجاتيو (٧٠٥-٧١٦هـ/١٣٠٥-١٣١٦م) الذى بدأ حكمه بالتودد الى الناصر محمد، على أن اولجاتيو لم يكن مخلصا في تودده للناصر، فعلاقاته مع المماليك تأثرت كثيرا باعتناقه للمذهب الشيعي، كما أنه فكر مجددا بغزو بلاد الشام بعد أن أطلعه الأمير قراسنقر وجمال الدين آقوش الأفرم على حالة البلاد، لذلك حسّن علاقاته مع الدول الأوربية وراسل كلا من البابا كلمنت الخامس، وادوارد الثاني ملك انكلترا، وفيليب الجميل ملك فرنسا لعقد تحالف مغولي مسيحي وذلك بهدف اخضاع بلاد الشام ومصر وانزال العقاب بالمماليك.

ونتيجة لحقد خدابنده على المماليك المدافعين عن المذهب السني والعوامل المذكورة فيما مضى سير حملة سنة ٧١٢هـ/١٣١٢م وصلت الى الرحبة واصطدمت بقلعتها التي تعد أولى القلاع المملوكية على الحدود الشامية، ولكن خدابنده أخفق في اخضاع هذه القلعة بعد حصار دام عشرين يوما، وقتال عظيم من قبل سكانها ونائبها الأمير بدر الدين موسى الازدكشي، فعاد الى بلاده يجر اذيال الفشل بعد فناء جيشه وتمخض عن قدوم الغزاة للبلاد نزوح معظم سكان المدن وغلاء الأسعار.(2)

بعد هزيمة خدابنده ساد المنطقة استقرار أمني وسياسي، وكان ذلك حافزا للأمراء والنواب باعادة اعمار ما تهدم، والنهوض الاقتصادي بالبلاد، وتتالى على حكم البلاد أمراء أقوياء أحبوا الاصلاح فشرعوا في اعادة بناء الهيكل الاجتماعي والاقتصادي، وربما تكون

---

(1)-ابن ايبك الدواداري: المصدر نفسه، ص٨٢-٨٨-الصفدي: الوافي، ج٤، ص٣٦١.
-المقريزي: السلوك، ج١، ق٣، ص٩٣٧-٩٣٨-العيني: المصدر نفسه، ج٤، ص٢٨٢-٨٣ ٣١٦-٣١٧-كرد علي: المرجع نفسه، ص١٣٨-١٣٩-عدوان: المرجع نفسه، ص١٣٢ -حمادة: المرجع نفسه، ص٣٥٠-فهمي: المرجع نفسه، ص٢١١.

(2)-ابن ايبك الدواداري: المصدر نفسه: ص١٧٩-٢٤٥-٢٥٢-٢٥٣-ابن كثير: المصدر نفسه، ج١٤، ص٦٦-٦٧-العيني: المصدر نفسه، ج٤، ص٢٤٧-٢٥١-ابن تغرى بردى: النجوم، ج٨، ص١٦٤-عدوان: المرجع نفسه، ١٢٧-١٢٨-عدوان: المرجع نفسه، ص٢١٨-٢١٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الحروب الطاحنة التي قامت بين المغول أنفسهم قد ساعدتهم على اكمال الاعمار باعتبارها كفت أنظارهم عن المنطقة، وباعتبارها خففت عنها العبء العسكري الذي كانت تتحمله الرعية نتيجة للغزوات المستمرة. ومما يؤكد استقرار المنطقة تفكير الناصر محمد بضم ممتلكات الدولة الايلخانية الى مملكته وذلك بعد أنباء الاضطرابات التي وصلت مسامعه عقب موت السلطان المغولي أبي سعيد، فقد قدمت اليه بعثات من شيخ حسن بزرك ومحمد خان سنة ٧٣٨هـ/ ١٣٣٧م تطلب مساعدته فأرسل الناصر بعض قواته الى حدود بلاد المغول، ومكثت هذه القوات تنتظر ما تتمخض عنه المعارك بين الاطراف المتنازعة، لكنها لم تتدخل نتيجة للمشاكل الكثيرة. (١)

---

(١)- فهمي: المرجع نفسه، ص ٢٤٠ - ٢٤١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- تدهور اوضاع السلطنة ونهاية حكم الترك وبداية حكم الجراكسة :

- توفي الناصر محمد بن قلاوون واستلم أولاده الثمانية من بعده الحكم من سنة (٧٤١-٧٥٥هـ/ ١٣٤٠-١٣٥٤م) وقد تميزت هذه المرحلة بازدياد نفوذ الأمراء وتسلطهم على السلاطين الضعفاء الذين اما تولوا السلطة وهم صغار أو نتيجة اهمالهم لواجباتهم، ونأخذ مثلا على ذلك الأمير قوصون كبير الأمراء الذي عزل أولاد الناصر بعد مضي ثلاثة أشهر على حكمه، فتولى الأمر بعدهم، أخوه كجك وعمره حينئذ سبع سنوات هذا الوضع للأمراء دفعهم الى الثراء الفاحش فسارعوا الى شراء المماليك وظلموا الرعية مما أدى الى مشاكل اقتصادية وعسكرية، وتدهور الوضعان المالي والاقتصادي، وازدادت المساوئ الادارية، وازداد الصراع السياسي بين المماليك الجركس والترك على السلطة. وفي آخر هذه الفترة تعاظم أمر الأتابك يلبغا العمري الذى قتله السلطان حسن، ولم تطل مدة السلطان حسن حتى قتل لينتهي بذلك عصر أولاد الناصر محمد ليبدأ عصر أحفاده[1] الذى لم يكن بأفضل من عصر الأولاد، فقد ازداد نفوذ مماليك الجركس، حيث قام الأمير يلبغا اليحياوى باتهام السلطان صلاح الدين بن حاجي باختلال عقله فعزله وولى آخر مكانه.

وصل نفوذ المماليك الجركس الى أوجه عند بروز برقوق كشخصية سياسية بارعة، حيث ساعده في تنفيذ مهامه صهره الأمير طشتمر الدوادارى الذى عين نائبا لدمشق سنة ٧٧٥هـ/١٣٧٣م، وبعد أن ثبت برقوق حكمه تخلص من نفوذ الأمراء الكبار فانفرد بالحكم.[2]

بتسلم برقوق الحكم بدأ عصر المماليك البرجية فسمى نفسه الظاهر وبايعه الخليفة والأمراء.

بقي الوضع مستقرا حتى ثار على برقوق نائب حلب يلبغا الناصري، ونائب ملطية منطاش، وانضم اليهم بعض نواب بلاد الشام عام ٧٩١هـ/١٣٨٨م، وقد تمكن المتمردون من اخضاع دمشق لسيطرتهم، ثم زحفوا باتجاه القاهرة، فهرب برقوق من القلعة واختفى مدة قصيرة انتهت بالقبض عليه ونفيه الى الكرك.

---

(١) - ابن كثير: المصدر نفسه، ج ١٤، ص ١٩٢، ٢٠٩-٢١٨، ٢٢١، ٢٢٤، ٢٢٥ - ابن تغرى بردى: النجوم، ج ١٠، ص ٤، ١٢، ١٣، ١٤، ١٥، ٢١، ٧٨، ٢٥٤ - العليمي: الانس الجليل، ج ٢، ص ٩٢-٩٤ - عودات: المرجع نفسه، ص ١١٢-١١٥.

(٢) - ابن كثير: المصدر نفسه، ج ١٤، ص ٣٠٢ - المقريزى: السلوك، ج ٣، ق ١، ص ٢٨١-٢٨٢ - ابن تغري بردي: النجوم، ج ١١، ص ٢٤ - ابن اياس: بدائع الزهور: ج ١، ق ٢، ص ٢٤١-٢٤٣ - دهمان: ولاة، ص ٢٣٥ - عودات: المرجع نفسه، ص ١١٥-١١٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

عندئذ تحركت الأطماع السياسية لبقية النواب في المنطقة فأثاروا الفتن وقادوا حركة التمردات ، ومن بين المدن التي شهدت هذه التمردات ، طرابلس ، حماه ، دمشق ، وغيرها من المدن الأخرى . استطاع برقوق بعد فترة وجيزة التخلص من سجنه في الكرك وتوجه نحو دمشق ، فانقسم نواب مدن الشام مابين مؤيد له ومابين معارض وجرى قتال بين الجيش الذى انضم للسلطات وبين المتمردين ، انعكست آثاره الحاده على نيابة دمشق ، لأن الصراع جرى على أرض المدينة مما سبب ذلك خراب اقتصادي واجتماعي تمثل في قتل بعض السكان ، ومصادرة أموال الأثرياء ، وحصول ارتفاع في أسعار المواد الغذائية نتيجة للاحتكارات .

استطاع برقوق في النهاية من قتل يلبغا الناصري ، والقضاء على منطاش ،(١) لكنه لم يعمر طويلا فقد توفي سنة ٨٠٠هـ/١٣٩٨م ، فتولى بعده ابنه الناصر فرج وكان عمره آنذاك ثلاثة عشر عاما .

وفي بداية حكمه اجتاح تيمورلنك بلاد الشام سنة ٨٠٣هـ / ١٤٠٠م ، ولم يستطع الناصر مواجهته بسبب الظروف السياسية السيئة ، كما أن تيمورلنك لم يمكن الناصر فرج من الاتصال بالدول المجاورة وعلى الاخص الدولة العثمانية ، وعدم استفادة الناصر فرج من قوات أحمد بن أويس وقرا يوسف التركماني بسبب العداء معهم ، بالاضافة لخطأ ارتكبه السلطان فرج وهو عدم توقيع تحالف مع السلطان العثماني بايزيد للوقوف في وجه الخطر المغولي ، والذى طلبه السلطان العثماني بنفسه ، لكن الناصر رفض بسبب استيلاء الجيوش العثمانية على ملطية سنة ٨٠١هـ/١٣٩٨م . حيث أن بايزيد كانت تنقصه العساكر ذات الخبرة والدراية الحربية التي كان يمكن ايجادها في المماليك .

وقد بين أهمية ذلك التحالف لو تم المؤرخ ابن تغري بردي فقال :

((لهذا قلت ان المصلحة كانت تقتضي الصلح مع أبي يزيد بن عثمان المذكور ، فانه كان يصير للعساكر المصرية من يدبرها ، ويصير لابن عثمان المذكور عساكر مصر مع عساكره عونا ، فكان تيمورلنك لا يقوى على مدافعتهم ، فان كلا من العسكرين كان يقوى دفعه لولا ما ذكرناه ، فما شاء الله كان)) .(٢)

---

(١) - المقريزي : السلوك ، ج ٣ ، ق٢ ، ص٥٨٠ - ٥٩٠ - ٦٠٧ - ٦٨٨ - ٦٦٩ - ٧٠٤ - ٧٨٢ - ٧٨٥
- ابن تغري بردي : النجوم ، ج ١١ ، ص٢٢١ - ٢٢٢ . ابن صصرى (محمد بن محمد) : الدرة المضيئة في الدولة الظاهرية ، كاليفورنيا ، بركلي ، ١٩٦٣م ، ص١٨ ، ٢٠ ، ٢٥ ، ١١٠ -
- الصيرفي (علي بن داوود) : نزهة النفوس والأبدان في تواريخ الزمان ، مصر ، مطبعة دار الكتب ، ١٩٧٠م ، ج ١ ، ص٣٠٩ - ٣٢٨ . - ابن اياس : المصدر نفسه ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٣٩٧ - ٤٠٥ - ٤٤٤ .

(٢) - ابن تغري بردي : النجوم ، ج ١٢ ، ص ٢١٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وكيفما كان الأمر فقد تقدم تيمورلنك للبلاد وعجز الناصر فرج من رده ، فما كان منه الا أن انسحب من المعركة وغادر بلاد الشام باتجاه مصر خوفا من خلعه من الحكم ، وبذلك ترك البلاد لقمة سائغة لتيمورلنك يفعل بها ما فعله في المناطق التي استولى عليها من قتل السكان ونهبهم والتمثيل بجثثهم وأساليب همجية أخرى.(١)

وبحكم الناصر فرج نكون قد رسمنا صورة لأوضاع السلطنة عموما وأوضاع بلاد الشام ضمنها قبل قدوم حملة تيمورلنك للمنطقة.

- أعمال تيمورلنك ونشاطاته العسكرية في بلاد الشام :

ما كاد الظاهر برقوق يبدأ برسم السياسيات الاقتصادية والعسكرية التي تدفع البلاد قدما الى الامام الا وظهر تيمورلنك من الشرق بجيوش جرارة لا قبل لمالكي زمام الامر بدفعهما ، فاحتل شيراز وتبريز أثناء مسيره للعراق ، وتابع زحفه فوصل بغداد وقتل الكثير من سكانها ، ونهب أموالها وأموال نائبها لكنما نزله في مكان يليق به ، ثم أعلم الظاهر برقوق بالأمر.(٢) بعث تيمورلنك قسطا من جيشه الى الرها حيث تمكن الجيش العربي الاسلامي من هزيمة جنوده.(٣) وفي هذه الأثناء بعث تيمورلنك كتاب تهديد للسلطان المملوكي برقوق يطالبه فيها بالخضوع المطلق لملك الملوك ، والا فمصيره الهلاك وكان ما جاء في الكتاب :

((ومن أعجب العجائب تهديد الرتوت بالتوت ، والسباع بالضباع ، والكماة بالكراع ، نحن خيولنا برقية ، وسهامنا عربية ، وسيوفنا يمانية ، ولبوسنا مصرية ، وأكفنا شديدة المضارب ، وصفتنا مذكورة في المشارق والمغارب ، ان قتلناكم فنعم البضاعة ، وان قتل منا أحد فبينه وبين الجنة ساعة ، (ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون . فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون) ...(٤)

---

(١) - المقريزي : شذور العقود في ذكر النقود ، النجف ، المطبعة الحيدرية ، الطبعة الخامسة ، ١٣٨٧هـ/١٩٦٧م ، ص٢٤٧-٢٤٨ . - المقريزي : السلوك ، ج ٣ ، ق ٣ ، ص١٠٣٩-١٠٤٢ - ابن تغري بردي : المصدر نفسه ، ج ١٢ ، ص١٦٨-٢٢٠-٢٣٧ - ابن اياس : المصدر نفسه ، ج ١ ، ق ٢ ص٥٣٦ - دهمان : ولاة ، ص٢٧ - عودات : المرجع نفسه ، ص ١٢٠ .

(٢) - ابن خلدون : التعريف بابن خلدون ، ص٣٦٤ - العسقلاني (ابن حجر) : انباء الغمر بأبناء العمر ، بيروت ، وزارة المعارف ، الطبعة الثانية ، ١٩٨٦م ، ج ٣ ، ص١٥٠-١٥١ - ابن صصرى : المصدر نفسه ، ص١٠٤ - الشوكاني : البدر الطالع ، ج ١ ، ص٢٠٤ - فياض (محمد) : تيمورلنك ، مصر ، مطبعة المعارف ، ص٩٥ - الحلبي (أكرم) : تيمورلنك وحكايته مع دمشق ، دمشق ، دار المأمون ، الطبعة الرابعة ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م ص١٠٢ .

(٣) - ابن تغري بردي : النجوم ، ج ١٢ ، ص٤٨-٤٩ - عبد السيد (حكيم أمين) : قيام دولة المماليك الثانية ، القاهرة ، دار الكتاب العربي ، ١٣٨٦هـ/١٩٦٧م ص١٢٦ .

(٤) - سورة آل عمران : الآيتان ، ١٦٨-١٦٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

. .الظ رالغا رمن الزوايا ، وطول البلايا ، واعلموا أن هجوم المنية ، عند نا غاية الأمنية ، ان عشنا عشنا سعداء ، وان قتلنا قتلنا شهداء (ألا ان حزب الله هم الغالبون)(١) أبعد امير المؤمنين ، وخليفة رب العالمين ، تطلبون منا طاعة لا سمع لكم ولا طاعة ، وطلبتم أن نوضح لكم أمرنا ، قبل ان ينكشف الغطاء)(٢).

بعد ها قفل تيمورلنك عائدا الى بلاده ليدافع عنها نتيجة مهاجمتها من طقتمش خان ملك القبجاق وما ورها .(٣)

استغل السلطان برقوق انسحاب تيمورلنك للمنطقة فجهز السلطان أحمد وبعثه الى بغداد وأعطاه الخيل والقماش ، فعاد وجلس على سرير ملكه ، وسار برقوق الى حلب وأقام بها استعدادا للمعارك المقبلة وأخذ يتلقى الهدايا من نواب القلاع.(٤)

لم تتح الظروف لبرقوق اتمام مهمته اذ توفي وخلفه ابنه السلطان فرج ، ولما سمع تيمورلنك بوفاته عاد سريعا ونزل بخراسان ، ثم قدم تبريز واستناب عليها ابنه ميران شاه وأكمل طريقه الى بغداد ففتحها وفرسلطانها أحمد بن أويس والتجأ الى قرا يوسف التركماني ثم خرجا الى بلاد الروم.(٥)

قرر تيمورلنك التوجه نحو بلاد الشام ، أما أسباب توجهه فهي الثأر لقتل رسله بالرحبة سنة ٧٩٥هـ/١٣٩٣م ، وايواء المماليك السلطان أحمد بن اويس الجلايرى ، وأسر قريبه اطلمش ، وتحالف المماليك مع عدوه التقليدي طقتمش خان ملك القبجاق.(٦) والمؤكد أن هجومه للبلاد كان بدافع اقتصادي بدليل توقفه عند دمشق ، وأسره للصناع والتجار . وانتقاما لقتل رسله

---

(١)- سورة المائدة ، الآية ٥٦ .

(٢)- ابن تغري بردي : النجوم ، ج ١٢ ، ص ٥١ - ٥٢ .

(٣)- ابن خلدون : التعريف ، ص ٣٦٤ - ابن خطيب الناصرية (علاء الدين أبي الحسن) : الدر المنتخب في تكملة تاريخ مملكة حلب ، صورة مصورة موجودة بمكتبة الدكتور سهيل زكار عبارة عن جزئين الأول ٦٧٦ ورقة ، والثاني ٤٤٠ ورقة ج ١ ورقة ٣٥٠ - ابن قاضي شهبة (تقي الدين أحمد) : تاريخ ابن قاضي شهبة ، دمشق ، ١٩٧٧م ، ج ١ ، ق ٣ ، ص ٥١٣ - ابن تغري بردي : المنهل ، ج ٤ ، ص ١١٤ .

(٤)- ابن صصرى : المصدر نفسه ، ص ١٥٩ - ابن خلدون : التعريف ، ص ٣٦٥ .

(٥)- ابن خطيب الناصرية : المصدر نفسه ، ج ١ ، ورقة ٣٥١ - المقريزي : السلوك ، ج ٣ ، ق ٣ ، ص ١٠٢١ - ابن تغري بردي : المنهل ، ج ٤ ، ص ١١٧ - ابن الطباخ : اعلام النبلاء ، ج ٢ ، ص ٣٩٩ .

(٦)- الحلبي : المرجع نفسه ، ص ١١٩ - عبد السيد : المرجع نفسه ، ص ١٢٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الذي بعثه للقاهرة سنة ٧٩٨هـ/١٣٩٥م، حيث سلمه السلطان للأمير علاء الدين الطبلاوي وفرض عليه اقامة جبرية ثم حبسه الظاهر بقلعة الجبل، لكن سودون نائب الشام قتله فاعتبر تيمورلنك قتل الرسول حجة لمهاجمة بلاد الشام.(١)

أمر السلطان فرج بن برقوق نواب الشام بالتوجه الى حلب ليقرروا ما سيقدمون عليه بشأن تيمورلنك.

ضم جيش تيمورلنك قوميات مختلفة، بينما كان تعداد الجيش العربي المسلم ضخما ضم أحسن المحاربين وزود بأسلحة كافية لصد أي هجوم، لكن فقدان التعاون بين الأمراء أضاع الكثير من الفرص لكسب المعركة فقد جمع المؤيد شيخ نائب طرابلس نواب الشام، وعرض عليهم خطورة الموقف وقوة تيمورلنك ودهائه، وأشار عليهم باغلاق المدينة والخروج الى ظاهرها للقاء العدو، لكن خطته لم تحظ بالقبول، وبينما أخذ النواب في الاعداد لمواجهة تيمورلنك استولى هو على قرية حيلان، والتقت طلائع جيشه مع المسلمين، وكانت موقعة هائلة بين الفريقين مال النصر في البداية للمسلمين، ثم مالت الكفة لجنود تيمورلنك الذين لاحقوا عسكر المسلمين فهربوا باتجاه المدينة ودخلوها من باب انطاكية أحد أبواب حلب وخرجوا منها الى جهة دمشق.(٢)

دخل تيمورلنك مدينة حلب وخربت جيوشه معالم المدينة العمرانية والثقافية والدينية والاقتصادية، فقد نقبوا القلعة وخربوها وصرفوا المياه عنها، كما قتلوا عددا لا يحصى من الناس بلغ الآلاف عدا من هلك تحت حوافر الخيل حتى قيل صارت الجثث طول قامة، كما انتهكوا حرمة الجوامع فاعتدوا فيها على النساء وأخذوا الكثيرات سبايا، واستولى مع جنوده على أموال المدينة من الجواهر والأشياء النفيسة والقيمة حيث وزعها على أمرائه واستمر السبي والنهب في المدينة مدة شهر نستطيع القول أنه خلال هذه الفترة أضحت المدينة خرابا لكثرة الدمار فيها، فتكون حلب قد تعرضت في هذه الغزوة لأبشع أساليب الانتقام من قبل المغول.

---

(١) -ابن تغري بردي: المنهل، ج٤، ص١١٨ - حمادة: دراسة وثقية، ص٣٥٥- ٣٥٦ -
-العلبي: المرجع نفسه، ص١٢٦.
PRAW DIN (MICHAEL): THE MONGAL EMPIRE, LONDON, 1939, P491.
- تزوكات تيموري: تحرير أبو طالب حسيني تربتي بفارسي، طهران، ميدان بهارستان ١٣٤٢هـ/ ص١٤٥.
(٤) -العسقلاني: انباء، ج٤، ص١٩٤- ١٩٧ - ابن تغري بري: المنهل، ج٤، ص١١٩ - الصيرفي: المصدر نفسه، ج٢، ص٧٥، - ابن اياس: بداية، ج١، ق٢، ص٥٩٦- ٥٩٧ - منقريوس: تاريخ دول، ج٢، ص٢٩٧- ٢٩٤ - عبد السيد: المرجع نفسه، ص١٢٣- ١٢٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ونستطيع التأكيد بأن آثار هذه الحملة كانت أشد وطأة من مثيلاتها في عهد هولاكو وغازان ، حيث اقتسمت أراضي حلب ونهبت من قبل التركمان المحيطين بها الى جانب البدو. أما مصير الأمراء الذين حوصروا بالقلعة فان تيمورلنك أعطاهم الأمان فنزلوا اليه ،عندئذ غدر بهم وقيد الجميع ماعدا الأمير دمرداش فانه خلع عليه وأكرمه ،وأخذ تيمورلنك يلومهم ويوبخهم وخاصة سودون نائب الشام لقتله رسوله ،وأكثر له من الوعيد.(١)

بعد سقوط مدينة حلب سقطت كل من مدينتي حمص وحماه في يد ميران شاه بن تيمورلنك ، وقد أذاق اهل حماه أنواعا من العذاب ماثلت زميلاتها حلب ودمشق فيما بعد ،كما نهب جنوده خارج المدينة ،وأسر الرجال وسبى الأطفال ،وذلك جميع ما خرج عن سور المدينة ، كما قتل الكثير من سكانها ،وأشعل النار في أرجاء المدينة.(٢)

كل هذا التخريب والتدمير من قبل تيمورلنك لمدن الشام ولم يخرج السلطان المملوكي بمصر الا بتاريخ الاربعاء الثاني والعشرين من شهر ربيع الاول سنة ٨٠٣هـ/ ١٤٠٠م. فتوجه الى غزة وأطلق ثلاثة معتقلين وهم أمير السلاح تغري بردي اليحياوي ،وصاحب الديار المصرية تمربغا المنجكي ،وآقبغا الجمالي الأطروش،نائب حلب ،ولم تذكر المصادر التاريخية عن سبب اعتقال هؤلاء الأمراء،ولم تفد بمعلومات عن سبب اطلاقهم بينما اكتفت بالاشارة الى أنه عينهم نوابا ،فتولى تغري بردي نيابة دمشق ،وآقبغا الجمالي نيابة طرابلس،والمنجكي نيابة صفد والأمير طولو نيابة غزة ،ثم رحل الى دمشق ودخلها واستقر بها ،بينما ظل تيمورلنك معسكرا بقواته تحت جبل الثلج (٣) تلتقي طلائع عسكره مع طلائع قوات المسلمين.(٤)

---

(١) - ابن تغري بردي : المنهل ،ج ٤ ،ص ١٠٢ - النجوم ،ج ١٢ ،ص ٢٢٣ - ٢٢٤ - الصيرفي :المصدر نفسه ،ج ٢ ،ص ٧٦ - ابن اياس: المصدر نفسه ،ج ١ ،ق ٢ ،ص ٥٩٨ - العلبي :تيمورلنك ،ص ١٣٢ - زكار :المرجع نفسه ،ص ٥٧٨.
PRAW DIN: OP, CIT, P491

(٢) - ابن تغري بردي :النجوم ،ج ١٢ ،ص ٢٢٥ - ٢٢٦ - ابن اياس :المصدر نفسه ،ج ١ ،ق ٢ ،ص ٦٠٠ - عبد السيد :المرجع نفسه ص ١٣٦.

(٣) - جبل الثلج وجبل لبنان وجبل اللكام : هذه الجبال متصلة ببعضها فكونت جبلا ممتدا من الجنوب الى الشمال ،فالطرف الجنوبي لهذا الجبل بالقرب من صفد ،وهو يمتد الى الشمال ويتجاوز دمشق ،ويسمى اذا صار في شماليها جبال شنير ،وجانبه المطل على دمشق قاسيون ،و يمر غربي بعلبك ،ويسمى الجبل المقابل لبعلبك جبل لبنان . انظر ابن تغري بردي :النجوم ،ج ١٢ ، ص ٢٣٢ - حاشية المحقق رقم / ٢ /.

(٤) - المقريزي :السلوك ،ج ٣ ،ق ٣ ،ص ١٠٤١ - العسقلاني :انباء ،ج ٤ ،ص ١٩٩ - الصيرفي :المصدر نفسه ،ج ٢ ،ص ٨٠ - ٨٢ - العلبي : المرجع نفسه ،ص ١٤١ - ١٥٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وتشاور الأمراء مع الناصر فرج بن برقوق ، وأبدى معظمهم مساوىء التقدم للهجوم بسبب خسائر الجيش الاسلامي وما لحق الناس من الضرر ، والقوات الباقية معدة للدفاع فقط ، وأشار تغري بردي على السلطان بقبول الصلح مع تيمورلنك بسبب ما عليه العسكر من اختلاف الكلمة ، فبعث السلطان فرج الى تيمورلنك بموافقته على الصلح مع الاعتذار عن الهجوم الذي قام به بعض الأمراء تجاه جيش المغول .

أما أسباب قبول السلطان فرج للصلح فهي انخفاض الروح المعنوية لأمرائه وجيشه بالاضافة الى عودة قسم من جيشه الى مصر ليسلطنوا الامير لاجين الجركسي ، فأقدم على هذا الصلح وقفل عائدا الى مصر مع قسم من قواته حيث لاقوا المشقة والعذاب.(١)

أما العساكر التي بقيت في دمشق فانها على الرغم من فقدان سلطانها وهروب أمرائها فأنها أغلقت أبواب دمشق وركبت أسوارها ، ونادت بالجهاد وتهيأ أهل دمشق لذلك ، لكن تيمورلنك زحف على المدينة ، فقاتله أهل دمشق من أعلى السور ، وأسروا عددا من جنده فلجأ الى خديعتهم وطلب الصلح معهم ، ونجح اذ اقتنع أهل دمشق بكلامه وأرسلوا اليه وفدا مؤلفا من قاضي القضاة تقي الدين ابراهيم بن محمد بن مفلح ومجموعة من القضاة كان منهم ابن خلدون ، وقد استطاع تيمورلنك اقناع ابن مفلح بضرورة فتح أبواب دمشق ، حيث نمقله في الكلام وقال له :

« هذه بلدة الأنبياء والصحابة ، وقد أعتقتها لرسول الله صلى الله عليه وسلم صدقة عني وعن أولادي ، ولولا حنقي من سودون نائب دمشق عند قتله لرسولي ما أتيتها ، وقد صار سودون المذكور في قبضتي وفي أسري ، وقد كان الغرض من مجيئي الى هنا ، ولم يبق لي الآن غرض الا العودة ، ولكن لابد من أخذ عادتي من التقدمة من الطقزات » .(٢)

استطاع ابن مفلح التأثير على الناس واقناعهم بضرورة الصلح ، فأخرج الطقزات الى تيمورلنك واتجه مع الوفد الى معسكره ، فرحب بهم وبينهم في عدة وظائف للمرحلة القادمة تراوحت ما بين قضاة القضاة ، والوزير ، ومستخرج الأموال ونحو ذلك ، شرد هم الى دمشق ومعهم كتاب الأمان ، فقرأ بالجامع الأموي ، عندئذ فتح أحد أبواب دمشق وهو الباب الصغير فدخل جنود

---

(١) - العسقلاني : انباء ، ج ٤ ، ص ٢٠٠ - ابن تغري بردي : المنهل ، ج ٤ ، ص ١٢٢ - النجوم ، ج ١٢ ص ٤٦ - الصيرفي : المصدر نفسه ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٨٥ - عطاالله : نيابة غزة ، ص ٢١٣ - العلبي : المرجع نفسه ، ص ٥٦ .

(٢) - الطقزات : هي باللغة التركية التسعة والمقصود هنا أن يخرجوا لتيمورلنك من كل نوع من أنواع المأكول والمشروب والهدايا تسعة . انظر ابن تغري بردي : النجوم ، ج ١٢ ، ص ٢٣٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

تيمورلنك منه ، ولما استقروا في المدينة انتقموا منها أبشع انتقام ، فقد فرض تيمورلنك على أهل دمشق كمية كبيرة من الأموال جبيت عدة مرات رافقها أساليب وألوان متعددة من التعذيب والاهانة والضرب والعصر والحرق بالنار ، كما صادر جنوده الحيوانات والاسلحة ، وهتكوا الاعراض وهدموا المنشآت الدينية وأحرقوها كالجامع الأموي مما أدى الى تعطيل الصلوات ، كما هدموا قلعة دمشق واستمر جنوده في تعذيب المدينة تسعة عشر يوما . بعدها قبض تيمورلنك على ابن مفلح وألزمه مع عدة أمراء أن يكتبوا له خطط دمشق فقسمها بين أمرائه ، هذا كله أدى لغلاء الأسعار وفقدان بعض المواد الغذائية الذي أدى بدوره الى حدوث المجاعة ، وأدت هذه الغزوة الى آثار اجتماعية واقتصادية كثيرة درست خلال البحث.(١)

ومع ان غايات الهجوم اقتصادية بدليل أسره الصناع والتجار وأصحاب المهن في دمشق ، لكن كان في ذهنه عدم التوقف عند دمشق بالذات بل بالعبور الى شمال افريقيا وخصوصا مصر بدليل طلبه من ابن خلدون كتابا يصف فيه شمال افريقية ، ويورد ابن خلدون ذلك بالتفصيل عندما كان يتحاور مع تيمورلنك فسأله عن مدن المغرب فأخذ يجيبه ثم قال له :

« لا يقنعني هذا ، وأحب أن تكتب لي بلاد المغرب كلها ، أقاصيها وأدانيها ، وجباله وأنهاره ، وقراه ، وأمصاره ، حتى كأني أشاهده . فقلت ليحصل ذلك . . وكتبت له بعد انصرافي من المجلس لما طلب من ذلك ، وأوعبت الغرض فيه في مختصر وجيز يكون قدر اثنتي عشرة من الكراريس المنصفة القطع » .(٢)

وفي طريق العودة مر الى حلب ودخلها وفعل بها ما قدر ثانيا ، ثم سار منها حتى نزل على الرها ، ماردين ، فلما وصل اليها نازلها عسكره ، واستنزلوا صاحبها الظاهر مجد الدين عيسى اذ تحصن بقلعتها ، وظلوا يحاصرون المدينة عشرين يوما ، فلما يئسوا من الاستيلاء عليها ، رحلوا عنها وغطوا آبارها وخربوها .

---

(١) - ابن خلدون : التعريف ، ص٣٦٦-٣٦٨ - العسقلاني : انباء ، ج٤ ، ص٢٠٧-٢٠٩ - ابن تغري بردي : المنهل ، ج٤ ، ص١٢٣-١٢٤ - النجوم ، ج١٢ ، ص٢٣٨-٢٣٩-٢٤٠-٢٤٥ - ابن اياس : بدائع ، ج١ ، ق٢ ، ص٦٠١ - الصيرفي : نزهة ، ج٢ ، ص٨٥ - ابن العماد الحنبلي (عبد الحي) : شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، نسخة مصورة عن نسخة المصنف المحفوظة في دار الكتب المصرية ، القاهرة ١٣٥٠هـ ، ج٧ ، ص١٣٨-١٤٠ - منقريوس : تاريخ دول الاسلام ، ج٢ ، ص٢٩٥ - فياض : تيمورلنك ، ص١٠٣ - عبد السيد : المرجع نفسه ، ص١٣٨-١٤٠ - الطبي : المرجع نفسه ، ص١٦٢ .

PRAW DIN: OP, CIT, P491-492

(٢) - ابن خلدون : التعريف ، ص٣٧٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بعدها سار تيمورلنك الى بغداد وحاصروها مدة شهرين، ثم أخذها عنوة، وخربها، وقد ذكر ذلك في كتابه تزوكات تيموري حيث قال :

((وقد وجدت أنه من المستحسن أن أذهب بنفسي لاخضاع المدينة وقلعة بغداد لذلك رجعت من طريق تبريز بسرعة الى بغداد وحاصرت المدينة وقد دام الحصار شهرين وبعض الأيام. وبعدها أخضعت المدينة والقلعة)).(١)

بعد تدميره لبغداد سار تيمورلنك باتجاه قراباغ، ثم كتب الى أبي يزيد بن عثمان(٢) صاحب الروم أن يخرج قرايوسف وأحمد بن أويس من ممالك الروم، غير أن أبا يزيد رد عليه ردا خشنا مما دفع تيمورلنك الى الاغارة عليه وأخذه أسيرا، فمما قاله تيمورلنك في ذلك.

((أصبح من واجبي أن أقضي على قرايوسف وايقاظ قيصر من نسيانه)).(٣)

أما سليمان بن أبي يزيد فانه دخل مدينة بورصة(٤) وأخذ أموالها، ثم سار الى استنبول حيث صالح أهلها، وعاثت عساكر تيمورلنك في البلاد، وأحرقوا مدينة بورصة وأخذوا مواستة أشهر ينهبون ويفسدون.(٥)

طبعت حملة تيمورلنك بلاد الشام بطابع الدمار والخراب، فقد تأثر المجتمع على كافة الصعد الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، وذلك باختلال التوزع الديمغرافي للسكان ببلاد الشام، واختفاء الكثير من الصناعات التي اشتهرت بها المنطقة، واتلاف أكثر المحاصيل الزراعية، وزيادة البطالة بين أفراد المجتمع، وازدياد الادعاءات والشعوذات بين أفراد المجتمع والى مضار اجتماعية أخرى كزيادة انتشار شرب الخمر والحشيش وغيره من المضار التي ظل السكان يرزحون تحت وطأة ثقلها حتى سيطر العثمانيون على المنطقة، ويعتبر الغزو التيموري فترة انتقال بين

---

(١) - تزوكات تيموري : المصدر نفسه، ص١٠٥ - ابن تغري بردي : النجوم، ج١٢، ص٢٦٥.

(٢) - يقول ابن تغري بردي في المنهل، ج٣، ص٥١٠ أن صواب الاسم بايزيد.

(٣) - تزوكات تيموري : المصدر نفسه ص١٥٣.

(٤) - بورصة : وتعرف برصا أو برسا : مدينة عظيمة في الاناضول : انظر ابن تغري بردي : النجوم، ج١٢ ص٢٢٧ حاشية رقم (٥).

(٥) - ابن خطيب الناصرية : الدر المنتخب، ج١ ورقة ٥٤-٣ - المقريزي : السلوك، ج٣، ق٣، ص١٠٩١ - العسقلاني : انباء، ج٥، ص٥٥ - ابن تغري بردي : المنهل، ج٤، ص١٢٦-١٢٨ - النجوم، ج١٢، ص٢٦٧-٢٦٩ - الصيرفي : المصدر نفسه، ج٢، ص١٥٠-١٥٢ - ابن العماد الحنبلي : شذرات، ج٧، ص٦٥ - فياض : المرجع نفسه، ص١٠٤-١٠٦ - عبد السيد : المرجع نفسه، ص١٤٢-١٤٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

عهدين ،عهد القوة ،وعهد الضعف في دولة المماليك ذلك أن عصر المماليك البحرية ، وبداية عصر البرجية اتسم بالقوة ، اذ حرر المماليك المناطق التي سيطر عليها الفرنج تحريرا كاملا ،ثم انهم قضوا على تحركات الأرمن ونشاطاتهم وضموا دولتهم الى أراضي بلاد الشام ،اضافة الى ازدهار الزراعة والصناعة والتجارة بشكل عام ،غير أنه وبعد الغزو التيموري انهار المجتمع اجتماعيا واقتصاديا ،لكثرة الفساد والرشاوى وشرب الخمر ،اضافة الى الاضطرابات السياسية وكثرة الصراعات على السلطة ،كل ذلك كان له آثار على الضعف العام للمجتمع.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ثانيا : - حركات التمرد والعصيان وارتباطها بالمغول وأثرها على الوضع السياسي :

- دفعت النزاعات المحلية بين أمراء بلاد الشام الى استنجاد بعضهم بالعدو المغولي لتقوية مكانته وتعزيزها كما تعرض الحكم المملوكي في بلاد الشام لهزات عنيفة تمثلت في حركات الشغب والتمرد من قبل بعض الامراء والمناهضين للسلطة، حيث حاولوا الانفصال عن السلطة المملوكية والاستقلال بمناطقهم مما دفعها الى قتالهم .

نتيجة هذا القتال فر قسم من الامراء الى بلاد المغول المعادية للمماليك احتجاجا على السلطات المملوكية التي عادت فيما بعد الى استمالتهم لجانبها . ويتساءل المرء لماذا فر هؤلاء الامراء الى المغول ولم يذهبوا الى دولة أرمينية وكلاهما معاد للسلطة المملوكية ، ولماذا استقبلهم المغول أعداء البلاد ، ولماذا أعادتهم السلطات فيما بعد ؟ كان هدف المغول من ايواء الامراء الفارين اليهم هو الاستفادة من المعلومات الجغرافية والسياسية والعسكرية والاطلاع على طرق القتال عند المماليك التي كان يجهلها المغول ، ومعرفة مكامن الضعف في الدولة المملوكية والاستفادة من نفوذ هؤلاء الامراء عند مهاجمتهم بلاد الشام ، بالاضافة الى اضعاف الروح المعنوية لدى المماليك وارباكهم . كما حمى المغول أمراء البدو الذين التجأوا اليهم لأغراض تجارية الى جانب الاستفادة من قدراتهم العسكرية .

ولم يكن الامراء الهاربين مصدر المعلومات الوحيد للعدو المغولي ، فقد كان المغول يطلقون الجواسيس في بلاد الشام ليتصيدوا الأخبار عن حالة الجيش وتحصين المدن ويزودون سلطاتهم بهذه المعلومات . أما السلطات المملوكية فانها عملت على ارضائهم كي تجرد المغول من قوة هؤلاء الامراء ولترفع الروح المعنوية لدى جيشها .

أما سبب عدم لجوء هؤلاء الى دولة أرمينية رغم عداوتها للمماليك فهو أن امكانات أرمينية العسكرية لم تكن بمستوى المغول ، فهي غير قادرة على حماية الفارين بالاضافة لتعرضها خلال فترة البحث لهجمات عسكرية من قبل المماليك .

كانت أولى حركات التمرد في المنطقة ضد السلطات المملوكية هي :

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

١ - حركة سنقر الأشقر :

كان سنقر الأشقر نائبا لدمشق وكان يرى حقه بالسلطنة بعد الظاهر بيبرس، فعارض استئثار قلاوون بالسلطنة بالقاهرة، ولم يحلف له يمين الولاء، ولم يرض بخلع سلامش وسلطنة قلاوون، اضافة الى قيامه سنة ٦٧٨هـ/ ١٢٨٠م باعلان نفسه سلطانا بدمشق واتخذ لقب الكامل. سعى الأشقر الى تثبيت سلطانه في بلاد الشام فأرسل عساكره الى غزة لمنع القوات المصرية من الزحف الى الشام لكن خانته معظم عساكره، اذ انضموا الى العسكر المصري، واستطاع المصريون هزيمته ففر الى الرحبة وكاتب مباشرة السلطان المغولي أبغا وشرح له الاختلاف الواقع بين العساكر الاسلامية وحثه على قصد البلاد بجيوشه، ووعده بالانحياز اليه لمساعدته، كما راسله أمير البدو عيسى بن مهنا بمثل ذلك.(١)

ولكن لماذا كاتب سنقر الأشقر المغول ودعاهم للقدوم الى المنطقة ؟ .

ان الأشقر أراد ان يقضي على السلطان المملوكي قلاوون وجيشه لتثبيت نفسه سلطانا، ولكنه جهل بأن المغول لو قدموا المنطقة وتغلبوا على العساكر الاسلامية فانهم لن يبقوه ولن يحققوا مطامعه، وسوف يلقى المصير المحتوم للخونة وهو القتل.

وبناء على طلب سنقر الاشقر، واضافة الى الالمام بظروف الخلاف بين المماليك من قبل المغول قدم هؤلاء الى المنطقة سنة ٦٨٠هـ/ ١٢٨١م فتنبه السلطان قلاوون الى خطر قدومهم وانحياز الامراء الهاربين الى جانبهم فبادر مباشرة الى عقد الصلح مع الاشقر وأخذ منه تعهدا بعدم الانضمام اليهم، فوفى للسلطان بوعده وحضر مع السلطان في موقعة حمص. وبعد ذلك عمدت السلطات بالتدريج الى تجريده من صلاحياته السياسية والادارية شيئا فشيئا.(٢)

---

(١) - اليونيني : ذيل مرآة، ج ٤، ص ٤٠ - ٤١ - أبو الفداء : المختصر، ج ٤، ص ١٣ - ١٤ - النويري : نهاية الأرب، ج ٣١، ص ١٤ - ١٥ - ١٩ - الذهبي : دول، ج ٢، ص ١٧٩ - ١٨١ - ابن الوردي : تتمة المختصر، ج ٢، ص ٣٢٥ - ابن حبيب : تذكرة، ج ١، ص ٥٧ - العيني : المصدر نفسه ج ٢، ص ٢٢٣ - ابن اياس : المصدر نفسه، ج ١، ق ١، ص ٣٥٠ - زكار : المرجع نفسه، ص ٥٧٥ - دهمان : ولاة، ص ٦٦ - ٦٩ .

(٢) - أبو الفداء : المصدر نفسه، ج ٤، ص ١٤ - ١٥ - النويري : المصدر نفسه، ج ٣١، ص ٢٣ - الذهبي : دول، ج ٢، ص ١٨٢ - ١٨٣ - ابن الوردي : المصدر نفسه، ج ٢، ص ٣٢٦ - ٣٢٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والجماعة الذين معه . فتحقق مطالبه بدخل الامراء الى الموصل ، ثم توجهوا نحو بغداد ، وبعدها الى غازان حيث كان يقيم بأرض السيب من أعمال واسط فأكرمهم وأحسن اليهم.(١)

ومن الطبيعي أن يستقبلهم غازان ويحيطهم بالرعاية والاحسان ليصل بواسطتهم الى معرفة معلومات عسكرية وسياسية جديدة تفيده في تحقيق انتصارات جديدة على المماليك ، ليكسب دولته نصرا جديدا ويكسب بالتالي ثقة وولاء كافة أفراد المغول . وقد ساعدت غازان الظروف السياسية التي ألمت بالمماليك اثر مقتل السلطان لاجين وعودة الناصر محمد الى الحكم ، فبعد المعلومات التي وصلته عن ذلك ، مع الحض المستمر لقدومه للمنطقة من قبل الهاربين قدم الى بلاد الشام سنة ٦٩٩هـ/١٢٩٩م بجموع عظيمة من قوميات مختلفة كرج ، أرمن وغيرهم ، وجلب معه هؤلاء الامراء وذلك للتخطيط ولمساعدته ضد اخوانهم ، والتقى الجميع في مجمع المروج ، لكن الهزيمة في البداية حلت بغازان نتيجة ارتفاع الروح المعنوية في بداية المعركة للعساكر المسلمة ، حيث أن الأرض أرضهم ، والذى يقاتل من أجل أرضه يختلف عن الذى يقاتل من أجل الاستيلاء على الأرض. كما حظي المسلمون بدعم الرعية لهم من العامة والفقهاء والعلماء ، اضافة الى انضمام البدو والتركمان لهم ، بالاضافة لامتلاك المماليك طاقات حربية هائلة وخطط جديدة يجهلها المغول ساعدتهم على النصر في بداية المعركة. وكاد غازان أن يترك أرض المعركة لكن قبجق منعه ، وحثه على القتال ، ومناه بالظفر وقد برر قبجق فعلته فيما بعد بأن كان قصده القبض على غازان عند استمرار الهزيمة بجيوشه.(٢)

كافأ غازان قبجق فعينه نائبا على دمشق ، وفي مرسوم التولية نعته بألفاظ طنانة وهي لا تقال الا لمن قدّم للمغول خدمات عظيمة ففي مضمون الفرمان مايلي :

« فرأينا أن الجناب العالي الأوحدي المؤيدي العضدي النصيري العالمي العادلي الذخري الكفيلي الممهدى المشيدى المجاهدى المشيرى الأثيرى العلامي النظامي السيفي سيف الدين ملك الامراء في العالمين ظهير الملوك والسلاطين قبجق ، وهو

---

(١) - النويري : المصدر نفسه ، ج ٣١ ، ص ٣٥٥-٣٥٦ .

(٢) - النويري : المصدر نفسه ، ج ٣١ ، ص ٣٨٥ - ابن خلدون : العبر ، ج ٥ ، ص ١١٦١ .
- المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ق ٣ ، ص ٨٨٧ - ابن اياس : المصدر نفسه ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٤٠٢

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المخصوص بهذه الأوصاف الجميلة ، والمحتوى لهذه السمات الجليلة ، فانه أذ خرته المهاجرة الى أبوابنا ، ووصله القصد الى ركابنا فرعيناله هذه الحرمة ، وقابلناه بهذه النعمة ، ورأينا أنه لهذا المنصب حفيظ مكين ، وخاطبنا لسان الاختيار أن نعم (من استأجرت القوى الأمين)،[(١)] وعلمنا أنه يبلغ الغرض من صون الرعايا ويقوم مقامنا في ساير القضايا ، فلذلك رسمنا أن نفوض اليه نيابة السلطنة الشريفة بالممالك الشامية والحلبية والحموية والحمصية ، وشيزر وبغراس وانطاكية. . نيابة تامة كاملة شاملة ، يؤتمر فيها بأمره ، ويطاع فيها نهيه ، ولا يخرج أحد عن حكمه ، له الامر التام ، والحكم العام ، وحسن التدبير ، وجميل التأثير بالاحسان لأهل البلاد ، واستجلاب الولاء والوداد ، ومؤمن مرتبطين الآمال ناظرا ، الى من دخل تحت الطاعة والامتنان) .

ثم أمر غازان في هذا النص الامراء ، والنواب طاعة قبجق طاعة عمياء ، وهذا دليل على مدى ماقدمه لهم من خدمات ، ولولا قبجق وقيادته لجيش الاعداء وحثه غازان على متابعة القتال لما حقق الاعداء ذلك النصر في موقعة حمص ، ولولاه لما استطاعت جيوش العدو من اجتياح بلاد الشام وخضوعها لهم ، فاذا ماقد مبعض المؤرخين تبريرا لقبجق بأنه قصد من وراء تثبيت غازان في أرض المعركة هزيمته ، فان الدلائل تشير الى النتيجة العكسية لعمله وفيما يلي أوامر غازان للأمراء .

((. . . وسبيل الأمراء والمقدمين . . أن يطيعونه سرا وجهرا ، ولا يعصون له أمرا ، وأن أمرهم اليه وقربهم لديه ، مما يحصل لهم به رضاه عنهم وقربه منهم ، وليلزموا عنده من الأدب والخدمة مايجب ، وليكونوا معه في الطاعة والموافقة على المصالح كما يجب)).[(٢)]

ولشدة اخلاص الأمراء الهاربين لغازان فانه عينهم نوابا على مدن الشام بعد رحيله عنها ، فالأمير سيف الدين قبجق عينه على دمشق ، وبكتمر السلاح دار على حلب وحمص ، والأمير فارس الدين البكي على صفد والسواحل . بعدها طلب قبجق أعيان البلد وحلفهم على اخلاصهم لغازان ، ولكن موقفه هذا لم يدم طويلا اذ استشعر الخوف من المصير المحتوم له فبادر الى طلب العفو من السلطات ، وشارك في الحملات العسكرية ضد أرمينية وبقيت

---

(١)- سورة القصص ، الآية ٢٦ .

(٢)- ابن ايبك الدواداري : الدر الفاخر ، ص ٢٥ - ٢٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

علاقاته جيدة مع السلطات، وكفر عن سيئاته الماضية في وقعة شقحب حين قام بأعمال حربية ضد المغول. (١)

انتهت هذه الحركة بمصير محزن على بلاد الشام ، لكن حركة أخرى مالبثت أن قامت بعد أن تزعمها قرا سنقر المنصوري وآقوش الأفرم وأمراء البدو وذلك احتجاجا لأساليب السلطات في معاملتهم.

٣- حركة قرا سنقر المنصوري :

لم يطل الوقت كثيرا بعد التجاء قبجق الى العدو المغولي حتى انضم اليه مجموعة من المماليك كان أهمهم على الاطلاق قرا سنقر المنصوري، جمال الدين الأفرم نائب دمشق، أمير البدو مهنا بن عيسى ثم ابنه سليمان.

وكان سبب هروبهم الخوف من التصفيات الجسدية التي بدأها الناصر محمد ضد الذين عارضوه في عودته الى الحكم . كان قرا سنقر قد عين بعد خلع الأفرم سنة٩ ٧٠هـ/١٣٠٩م وأقام سنة يشهد كل يوم مصرع واحد من زملائه، حيث نكل الناصر ببعضهم، وقتل بعضهم الآخر، عندئذ شعر قراسنقر أن الخطر يقترب منه فطلب من الناصر نقله من نيابة دمشق لحلب، وهدف من وراء ذلك بعده عن سطوة السلطان وشره ، فلبي طلبه، بعدها سافر الى حلب وأقام علاقات جيدة مع العدو، وأفضى الى الاميرمهنا بن عيسى بسره وخوفه من بطش السلطان به . وبقيت الأمور على حالها من الخوف والرهبة حتى أراد قرا سنقر الحج ، فطلب من السلطان الاذن، فأذن له وسافرمع مجموعة من الامراء، لكن خوف السلطان منه بقي موجودا فكتب الى نواب الشام بعدم تمكينه من دخولها اذا رجع ، فعلم قرا سنقروهو في الطريق بنية السلطان تجاهه، فما كان منه الا أن التجأ الى مهنا بن عيسى مستجيرا ، وانضم اليه جمال الدين آقوش الأفرم، وبدر الدين الزردكاش من دمشق والتحق الجميع بالمغول. (٢)

---

(١)- ابن ايبك الدواداري : المصدر نفسه، ص ٣٥- ٣٦ - النويري : المصدر نفسه، ج ٣١، ص ٣٩٤ - ابن كثير : المصدر نفسه، ج ١٤، ص ١٠ - ابن خلدون : العبر، ج ٥، ق ٤، ص ١١٦١ - المقريزي : السلوك، ج ١، ق ٣، ص ٨٩١ - دهمان : ولاة، ص ٨٤- ٨٦ .

(٢)- المنصوري : التحفة، ص ٢٢٥ - أبوالفداء : المصدر نفسه، ج ٤، ص ٦٣- ٦٦ - ابن ايبك الدواداري : المصدر نفسه، ص ٢١٨ - ٢٢٣ - الصفدي : (صلاح الدين خليل) : تحفة ذوي الالباب منشورات دمشق، وزارة الثقافة ١٩٩٢م، ج ٢، ص ٢٢٠ - ابن كثير : المصدر نفسه، ج ١٤، ص ٦٣ - دهمان : ولاة، ص ١٤٦- ١٤٧، ١٥١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولما علم السلطان المغولي خدابنده بقدومهم سير رسولا يحمل كتابا مضمونه :
("أنكم عديتم بلادي ، ودستم أرضي ، وطلبتم بابي ، فأهلا بكم وسهلا ، وقد سيرت اليكم نسخة الايمان مائة يمين ، وأنا اعطيك بغداد ، والأمير جمال الدين سنجار وديار بكر ومهما طلبتم عندي") (١).

ويلاحظ من هذا النص مدى التشجيع الذي حظي به هؤلاء من قبل خدابنده ، فقد أراد المغول الاستفادة من الأسرار العسكرية عن دولتهم في هذا الوقت وذلك لكي يحقق خدابنده لشعبه انتصارا في عهده يخلد ذكره كأسلافه من جنكزخان وهولاكو وغازان ، اضافة الى الاستفادة منهم في حروبهم فيما بينهم وهذا ما أوردته المصادر بشأن ذلك .

ذلك ان خدابنده فوض لقراسنقر جميع أمور المملكة يفعل بها مايشاء ويراه مناسبا ، وذلك لتشجيعه على البقاء ، وللوصول الى معرفة الاسرار القتالية المملوكية ، كما أنه أقطعه مراغه وأقطع الأفرم همذان ، والزردكاش نهاوند .

بدأ قرا سنقر بالتخطيط والتنظيم فاستخرج الأموال العظيمة من جميع أقاليم المملكة ، كما رتب المسالك ، وأقطع الامراء المغول الاقطاعات الكافية ، ورتب لهم الاستادارية من مماليكه ، وأقطع البلاد الخراب للتركمان والأكراد وألزمهم بالاستقرار وممارسة الزراعة وتربية المواشي . كما أنه قاد عساكر خدابنده سنة ٧١٢هـ/١٣١٢م في حروبه ضد طقطاي - مغول الشمال - وأسفرت نتائج الحروب عن انتصار خدابنده بسبب الخطة القتالية التي وضعها قرا سنقر والتي اعتمد فيها على التنسيق حيث عين عشرة مقدمين قوامين بعد اعطائهم العتاد الجيد وتزويدهم بالخيول ، وأشرك مماليكه البالغ عددهم مائتي مملوك في الحرب ، وأعطى الزراقين منهم آلات النفط ، ووضع خمس مائة منهم في مقدمة الجيش ، وهذا ماكان جديدا على المغول الذين يجهلون استخدام النفط في الحروب ، ورتب ثلاث مائة جمل كوشات على البخاتي فانتصر خدابنده بفضل ذلك (٢).

واذا ماكان قراسنقرا قد أفاد المغول في المجال العسكري ، فان الأفرم التزم الهدوء ، لكن الاثنين قويا عزم خدابنده على الدخول للشام وضمناله أخذها خاصة بعد الأنباء الواصلة الى قراسنقر ومفادها بأن العساكر الاسلامية متفرقة يربعون الخيول والسلطان في الصعيد ليس عنده

(١) - ابن ايبك الدواداري : المصدر نفسه ، ص ٢٢٩ .

(٢) - ابن ايبك الدواداري : المصدر نفسه ، ص ٢٣٤ - ٢٣٥ - ٢٤٥ - ٢٥٠ ، ٢٥٣ ، ٢٦٧ ، ٢٦٩ ، ٢٧٣ ، ٢٧٦ - المقريزي : السلوك ، ج ٢ ، ق ١ ، ص ١١٥ - فهمي : المرجع نفسه ، ص ٢١٩ - دهمان : المرجع نفسه ، ص ١٤٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

جموع ، فما كان من خدابنده الا أن أشار على الأمراء بالتوجه نحو بلاد الشام والنزول على الرحبة سيما وأن نائبها بدر الدين بن اركي قد يسلمها لهم ، لان الافرم هو الذي سعى للمذكور في نيابة الرحبة وأخذ له امرة الطبلخاناه ، لكن ابن ايبك الدواداري أورد بأن الافرم ندم على ما اقترفه ، وأظهر ندمه حين وجه كلاما لقراسنقر مضمونه :

« يا مير جمال الدين ، ترى نحن في اليقظة ، أو في الاحلام ، قد عدنا في جيوش الكفر بعد جيوش الاسلام ، وماكفانا حتى نكون السبب في تجهيز أمة الكفر الى أمة النبي صلى الله عليه وسلم ، قال وبكيا جميعا » .(١)

وفي ذلك دلالة على أن بعض الأمراء لم يقدموا على الخيانة لولا التصفيات الجسدية التي كانوا يتعرضون لها .

على كل حال فان المغول توجهوا نحو الرحبة التي تشكل قلعتها احدى القلاع المملوكية الهامة في البلاد والتي كانت احدى نقاط الارتكاز في الدفاع عن البلاد ، لكن هذه الجيوش لم تستطع دخولها رغم محاصرتها عشرين يوما . وعندما أخفقت في احتلالها ، وعلمت بأن الجيوش المملوكية متوجهة نحوها عادت هذه الجيوش على اعقابها .(٢)

لم يستطع خدابنده أن يحقق مكتسبات عسكرية لدولته أثناء حكمه ، اذ أخفق حتى في حملته التي توجهت الى الرحبة .

وكما استطاع المغول ايواء معظم الامراء الهاربين من البلاد فانهم آووا أمراء البدو الذين يشكلوا قوة عسكرية لا يستهان بها في فترة البحث ، كما كان لامراء البدو نفوذ وسطوة في البلاد ، اذ أن السلطات كانت تحابيهم خوفا مما كانوا يسببونه من اضطرابات أمنية تكون سندا آخر لسيطرة العدو على المنطقة . ومن أهم أمراء البدو الذين احتموا بالمغول نور الدين زامل بن علي الذي توجه الى بلادهم سنة ٦٦٢هـ/١٢٦٤م بسبب النزاعات بينه وبين عيسى بن مهنا ، ومنحه هولاكو اقطاعا بالعراق ، لكنه لم يلبث أن عاد الى الشام وراسل السلطان في طلب العفو فلم يجبه وأرسل اليه من أمسكه واعتقله .(٣)

---

(١) - ابن ايبك الدواداري : المصدر نفسه ، ص ٢٥٣ .

(٢) - ابن كثير : المصدر نفسه ، ج ١٤ ، ص ١٦ .

(٣) - العيني : المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ٤٠٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أما أطول مدة قضاها أمير من البدو في بلاد المغول هو مهنا بن عيسى ، وقد طلب منه السلطان المغولي أبو سعيد أكثر من مرة التعاون معه ضد السلطان المملوكي ، وكان أبو سعيد يقدره ويرضيه . وقد أورد اليوسفي كيفية دخول مهنا واستقبال أبي سعيد له ، فعندما دخل سأله عن سبب خروجه عن طاعة السلطان المملوكي فقال : ((نحن ناس عرب ، وعلينا طاعة مفروضة للملوك ، ورأينا من سلطاننا أمر فخشينا عاقبته ، فخرجنا عن طاعته ، فسير يقول : ((اخرج من بلادي ، فخرجت من بلاده الى بلادك ، ونزحت من طاعته ، فان قبلتنا أقمنا ، وان كنت تكره جوارنا رحلنا عنك ، فالبر للبدوى متسع)) . فقال له أبو سعيد ((البلاد بلادكم ، وحلت بكم البركة)) .(1)

غير أن مهنا لم يتفق مع المغول ولم يتنازل عن شيء ولم يشجعهم على قدوم البلاد بل عاد الى أهله والى طاعة السلطان .(2)

على كل حال سببت هذه التمردات اضرارا اقتصادية واجتماعية للمجتمع الشامي حيث سببت الانقسام في الصف العربي الاسلامي وخفض الروح المعنوية لدى الجيش وعامة الشعب وجلبت المغول الى البلاد ، فدمروا القرى والمدن ، تبع ذلك ارهاق الخزينة العامة بكثرة الانفاق سواء على الجند بشراء العتاد والاسلحة ، أو بترميم المنشآت التي تعرضت للتخريب على أيدى المغول . وأدت من ناحية أخرى الى افشاء معلومات عسكرية لم يعرفها العدو من قبل مما سهل الوضع للغزاة باعادة النظر في التخطيط للعمليات الحربية القادمة سواء في المنطقة العربية أم خارجها ، وهذا ما لوحظ فيما بعد أثناء الاجتياح التيموري سواء للعراق أو لبلاد الشام أو للمناطق المجاورة لبلاد المغول .

---

(1) - اليوسفي (موسى بن محمد) : نزهة الناظر في سيرة الملك الناصر ، بيروت ، عالم الكتب ، الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م .

(2) - اليوسفي : المصدر نفسه ، ص١٩٨ - ٢١١ .
- ابن حبيب : المصدر نفسه ، ج٢ ، ص٧٥ .
- المقريزي : السلوك ، ج٢ ، ق١ ، ص١٢٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ثالثا : **أثر الحملات المغولية على العلاقات الارمنية المملوكية :**

ان فقدان المرتكزات الاساسية لبقاء أية دولة يعني انهيارها وتلاشيها وهذا ماحصل لدولة أرمينية الصغرى في العصر المملوكي .

ولا بد قبل الحديث عن مجريات الأحداث بين المماليك والارمن والمغول من طرح الاسئلة التقليدية التي تتبادر الى ذهن كل باحث في مجال التاريخ ، وهي : من هم الارمن الذيـــن ارتبطوا بالمغول والمماليك ؟ اين استوطن هؤلاء ؟ ولماذا تعاونوا مع المغول ضد مسلمي بلاد الشام ؟ وما الروابط التي ربطتهم بالمغول ؟

وللجواب عن الاسئلة المتقدمة نتوصل الى الحقيقة التاريخية التي مفادها أن الارمن شعـــب مسيحي أقام على أراضي كيليكية ، والتي عرفت باسم أرمينية الصغرى ، وهي تختلف عن أرمينية الكبرى التي عرفها الكثير من الجغرافيين وذكروا بأنها منطقة يحيط بها من الغرب حدود بلاد الروم وشيء من الجزيرة ، ومن الجنوب بعض حدود الجزيرة وحدود العراق ، ومن الشرق بلاد الجبل والديلم الى بحر الخزر ، وكانت تحتوي على مدن كثيرة كسيواس ، وأرزن وخلاط وخرت برت. (١)

وكيليكية أرض عربية اسلامية كانت تابعة لبلاد الشام ، ونتيجة لتحول الطرق التجارية عـــن أرمينية الكبرى ، الى جانب ضغط مانجم عن هجرات التركمان وأنشطة المغول وسواهم ، هاجر الأرمن وبأعداد كبيرة الى كيليكية واستقروا في المنطقة الممتدة من الرها شرقا الى أذنة غربا. ونتيجة للأوضاع الشاذة الناجمة عن الحروب الصليبية ، واحتلال الصليبيين لانطاكية ، تمكن الارمن من تأسيس دولة سميت أرمينية الصغرى ، واتخذوا مدينة سيس عاصمة لهم. (٢)

فهل تحولت كيليكية شعبا ولغة الى أرض أرمينية ؟ .

لقد بقيت كيليكية أرضا عربية اسلامية بالرغم من سلخها عن وطنها الام سورية ويمكن القول بأن الحكم السياسي فيها أصبح أرمنيا .

---

(١) - ابن حوقل (أبي القاسم بن حوقل النصيبي) : صورة الارض ، بيروت ، دار الحياة ، ١٩٧٩م ص٢٩٤ - ابن شيخ الربوة (أبي طالب الانصاري الدمشقي) : نخبة الدهر في عجائب البر والبحر ، بغداد ، مكتبة المثنى ص٨٩-١٩٠ - القلقشندي (أبي العباس أحمد) : صبح الأعشى في صناعة الانشا ، القاهرة ، المطبعة الاميرية ، ١٣٩٢هـ/١٩١٤م ، ج٤ ، ص٣٥٣-٣٥٦ .

(٢) - العبادي : قيام دولة المماليك ، ص٢٢٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

على دولة المماليك الناشئة والقوية والتي وقفت سدا منيعا في وجه مطامعهم العدوانية ، وثانيا في الروابط الدينية حيث اعتنقت بعض النساء المغوليات المسيحية كزوجة هولاكو. مما كان له أثر في هذا التقارب . غيرأن الهدف الأساسي من هذا التحالف كان سياسيا تجاريا أكثرمنه دينيا ، فقد هدف الفرنج الى استعادة الأراضي التي استردها الأيوبيون منهم ، بينما هدف الأرمن الى حماية أرمينية من سلاجقة الروم بالشمال ودولة المماليك بالجنوب الى جانب المحافظة على المكانة التجارية التي حظيت بها أرمينية ، لأنها شكلت عقدة مواصلات هامة بعد ظهور المغول ، فقد كانت طرق التجارة تعبرها الى جميع الاتجاهات بين الشرق الاقصى وآسيا الوسطى والاراضي القوقازية وبخاصة عبر الطرق الشمالية ، كما أن طريقا آخر يمرمنها الى الدول المجاورة وأضحى ميناء اياس بعد سيطرة المماليك على مرافئ بلاد الشام ملتقى التجار القادمين من البندقية ، وجنوى ، وطشقند ، وروسيا ، وبيزنطة . وبالتالي فقد كانت أرمينية ممرا لعبور تجارة الرقيق الابيض التركي والقوقازي الى بلاد الشام ومصر أيضا . وقد ساهم عامل آخر في ازدهار أرمينية التجاري وهو اتصالها بمدينتي البندقية وجنوى فكانت أسواقها تغص ببضائع هاتين المدينتين ، وتجلت استفادتها في جباية الرسوم المقررة على هذه البضائع - تجارة الترانزيت - فاكتسبت أرمينية بهذه العوامل أهمية تجارية بحكم موقعها الجغرافي الممتاز ، وربما يكون هذا سببا من الأسباب التي دفعت السلطات المملوكية الى ارسال الحملات العسكرية ضدها وذلك بسبب تحول طرق التجارة اليها .(1)

وباعتبار أن المصالح المشتركة جمعت بين الأطراف المذكورة فيما مضى لذلك اشترك هيثوم ملك الأرمن مع كونت انطاكية الصليبي بوهيمند السادس في هجوم هولاكو على حلب سنة ٦٥٨هـ/١٢٥٩م ، فحاز كل منهما على قسم من الغنائم التي حصل عليها المغول عند نهبهم للمدينة ، فقد اعطى هولاكو هيثوم جزءًا من الانفال ، وأعاد اليه الأقاليم والقصور التي استولى عليها مسلمو حلب ، كما استطاع استرداد ما انتزعه منه سلاجقة آسيا الصغرى من اراضي كيليكية ، بينما رد هولاكو الى بوهيمند ما سبق أن استولى عليه صلاح الدين

---

(1) - الترك : صفحات ، ص١٤٩-١٥٠ - المدور : الارمن ، ص٢٨١-٢٨٢ - الصياد : المغول في التاريخ ، ص١٩٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الايوبي من حصون كانت تابعة لانطاكية ومنها اللاذقية.(١)

ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، بل شارك الأرمن الى جانب المغول في موقعة عين جالوت سنة ٦٥٨هـ/١٢٥٩م ، كما أنهم سهلوا انسحاب المغول وحموهم من التعرض للموت ، فانسحب المغول شمالا باتجاه كيليكية هاربين.(٢)

ولما لم تجد محاولاتهم الحربية مع المغول في السيطرة على بلاد الشام عسكريا ، لجؤوا الى اتباع سياسة اقتصادية جديدة في حرب المماليك تقتضي بالضغط عليهم عن طريق فرض الحصار ومنع استخراج الأخشاب والحديد من الأناضول وتصديرها الى مصر لبناء السفن.(٣)

أمام هذه القرائن والمعطيات الجديدة رسم السلطان المملوكي الظاهر بيبرس سياسته الحربية التي تمكن دولته من الوقوف في وجه الأرمن وأعوانهم المغول ، وقرر معاقبة أرمينية وانطاكية عسكريا لمساعدتهما العدو المغولي ضد المسلمين ، فأرسل فرقة من جيشه سنة ٦٦٢هـ/١٢٦٤م هاجمت أرمينية واستطاعت قتل الكثير من الأرمن ، فسارع هؤلاء واستنجدوا بالمغول فأنجدوهم بقوة بلغت سبعمائة فارس كانت موجودة في بلاد الروم واستطاعت هذه القوات الضغط على القوة الاسلامية التي غادرت المنطقة ، ثم هاجم هؤلاء حدود بلاد الشام الشمالية ، وعندما وصلوا الى حارم قفلوا راجعين بسبب الظروف المناخية الصعبة بعد أن هلك منهم الكثير.

ضايق هذا الامر ملكهم هيثوم فأراد الانتقام ، وجرت معركة بين الطرفين في انطاكية أسفرت عن انتصار المسلمين على الأرمن.(٤)

بعدها لم يأمن السلاطين المماليك جانب الأرمن فاستغلوا فرصة غياب هيثوم الاول في تبريز وأرسلوا حملة سنة ٦٦٤هـ/١٢٦٥م بقيادة المنصور الثاني الذي هاجم المصيصة وأذنة وطرسوس ، والمنصور الثاني صاحب حماه الذي استولى على سيس عاصمة دولة أرمينية وخربها ودمر كنيستها ومقابر ملوك أرمينية السابقين ، اضافة الى الاستيلاء على قلعة

---

(١) العريني (السيد الباز) : المغول ، بيروت ، دار النهضة ، ١٩٨١ ، ص٢٤٥م - الصياد : المغول ، ص١٩٧م - الترك : المرجع نفسه ، ص١٥٢ - رنسيمان (ستيفن) : تاريخ الحروب الصليبية ، بيروت ، الطبعة الثانية ، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م ، ج٣ ، ص٥٢٦.

(٢) - الصياد : المغول ، ص٢٠.

(٣) - سعد (فهمي عبد الرزاق) : العامة في بغداد في القرنين الثالث والرابع الهجريين ، بيروت ، الأهلية ، ١٩٨٣ ، ص١٥٧ - ١٥٨ - العريني : المغول ، ص٢٨٣.

(٤) - ابن عبد الظاهر : الروض الزاهر ، ص١٩١ - ١٩٦ - المقريزي : السلوك ، ج١ ، ق٢ ، ص٥١٠ - ٥١٣ - العيني : المصدر نفسه ، ج١ ، ص٣٨٤ - زقلمة (أنور) : المماليك في مصر ، القاهرة مطبعة المجلة الجديدة ، ليس له تاريخ طبعة ، ص٦٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بعدهذه الاتفاقية قام الظاهربيبرس بالاستيلاء على انطاكية ، فانقطعت بذلك صلة الأرمن مع الصليبيين في كل من طرابلس وعكا ، وفقد هؤلاء الأمل بامكان قيام تحالف مغولي صليبي أرمني مشترك ضد المسلمين المماليك.(١)

وهكذا فان ما آلت اليه الظروف الحربية في المنطقة دفعت الأرمن الى التشبث بعلاقاتهم مع المغول بوصفهم القوة الوحيدة القادرة على حمايتهم من المماليك ، فقبل أن يتنازل هيثوم لابنه ليفون عن العرش اصطحبه سنة ٦٦٧هـ/١٢٦٨م الى بلاط المغول لاطلاع السلطان المغولي على مدى قدرة وصلاحية ولده لولاية العرش.(٢) وقد أيقن ليفون بعد استلامه الحكم بأن بلاده خاضعة لا محالة لسيطرة المماليك ، فبدأ يوجه النداءات للغرب الأوروبي والمغول لمواجهة الخطر الاسلامي بعقد التحالفات والاتفاقيات. ولم تلق هذه النداءات استجابة الا من جانب المغول حيث أبرم اتفاقا سنة ٦٧٢هـ/١٢٧٣م مع ابغا ايلخان المغول .

ولما علمت السلطات المملوكية بهذا الاتفاق لم ترد عليه مباشرة بسبب الاوضاع الداخلية المضطربة في أرمينية ، ذلك أن الكثيرمن النبلاء الأرمن كانوا يودون الخضوع لسلطات بلاد الشام بينما كان ملكهم يعارضهم في ذلك .

اعتبرهذا العمل نقضا للعهد المبرم بين المماليك والأرمن ، واستوجب ذلك مهاجمة أرمينية من قبل الظاهر بيبرس الذى خرج بنفسه على رأس حملة عسكرية الى دمشق سنة ٦٧٣هـ/١٢٧٤م ثم توجه الى حماة ، وهنا عهد بقيادة الحملة الى المنصور سيف الدين قلاوون الألفي ، وبيليك الخازندار ، وقد اصطحبت الحملة معها المراكب المجهزة مسبقا محملة على ظهور البغال ليتم جمعها في أرمينية لاستخدامها في عبور الأنهار .

عبرت القوات الاسلامية الى أرمينية فخربت المدن وسلبتها ، وأحرقت المصيصة من الجانبين وسلبت مدينة سيس ، وهدمت القصر الملكي فيها ، وكنيسة القديسة صوفيا ، ونهبت مدينتي اياس وطرسوس.

نجم عن الحملة نتائج كثيرة أهمها هجرة الكثيرمن الارمن الى أماكن متفرقة ، وقتل بعض السكان ، فضلا عمن لقي حتفه غريقا أو حريقا ، عدا عن الأسرى الذين وقعوا بقبضة المسلمين ،

(١) - الغامدى : المرجع نفسه ، ص ٢٠٣ .
(٢) - الغامدى : المرجع نفسه ، ص ٢٠٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فقد قيل انه سيق بعضهم الى مصر، والباقي ربما وزعوا في أماكن متفرقة.(1)

لم يسارع المغول لمساعدة حلفائهم الأرمن بسبب الصراعات الداخلية بين مغول الشمال ومغول فارس، فضلا عن خوفهم من الهزيمة أمام المماليك الذين لم يمهلوا أمرهم حيث أرسل الظاهر بيبرس كلا من أمير العرب عيسى بن مهنا، وحسام الدين العينتابي الى البيرة لمناوشة المغول واشغالهم عن تقديم أية مساعدة لأرمينية الصغرى، كما وقف الصليبيون موقف الحياد بسبب حالة الضعف والتفكك التي سيطرت على معظم مناطق وجودهم بسبب الضربات الموجعة التي سددها لهم المماليك، وانقطاع المساعدات عنهم من الغرب الأوروبي.(2)

شجعت الأحداث التي حدثت بالدولة المملوكية اثر وفاة الظاهر بيبرس، ونشوب الخلافات بين الأمراء والمماليك على السلطة في مصر، وتمرد سنقر الاشقر في الشام واعلان نفسه سلطانا كلا من المغول والأرمن على الهجوم على بلاد الشام والنيل من المماليك، فزحفوا بجيش قارب عدده أربعين ألف جندي واصطدموا مع جيش العرب المسلمين في موقعة حمص سنة ٦٨٠هـ/١٢٨١م، فتمخضت الموقعة عن هزيمة الحلف الأرمني المغولي،(3) فقد هرب المغول عبر الفرات بعد أن قتل الكثير منهم، بينما انسحب ملك الأرمن ليفون الى بلاده، فاعترضه التركمان والاكراد مع جيشه في الطريق وقتلوهم عن آخرهم، ولم ينج من القتل والأسر الا أقل من عشرين شخصا.(4)

وانتقاما لاشتراك الأرمن في معركة حمص رد المسلمون عليهم بهجوم سنة ٦٨٢هـ/١٢٨٣م ترأسه نائب حلب فقتلوا كثيرا من سكان اياس، وأحرقوا برجا من أبراج الثينات، اضافة الى أحد أسوارها، فطلب الأرمن الصلح وتقرر أن يدفعوا سبعة عشر ألف درهم، لكن هذا

---

(1) - ابن شداد (عز الدين محمد) : تاريخ الملك الظاهر، بيروت، ١٩٨١م، ص١٠٦-١٠٧ - ابن عبد الظاهر: الروض، ص٤٣١-٤٣٥ - المنصوري: التحفة، ص٨٠-٨١ - اليونيني: المصدر نفسه، ج٣، ص٨٨ - النويري: المصدر نفسه، ج٣٠، ص٣٣٧-٣٥٠ - ابن كثير: المصدر نفسه، ج١٣، ص٢٦٨ - المقريزي: السلوك، ج١، ق٢، ص٦١٧ - العيني: المصدر نفسه، ج٢، ص١٥٦-١٥٧ - ابن تغري بردي: المنهل، ج٣، ص٤٥٩ - عدوان: المرجع نفسه، ص٩٦ - الترك: المرجع نفسه، ص١٥٤ - زقلمة: المرجع نفسه، ص٦٣ - الغامدي: المرجع نفسه، ص٢٠٢-٢٠٦.

(2) - ابن عبد الظاهر: الروض، ص٤٣٣ - الغامدي: المرجع نفسه، ص٢٠٦.

(3) - أبو الفداء: المصدر نفسه، ج٤، ص١٥-١٦ - ابن كثير: المصدر نفسه، ج١٣، ص٢٩٥-٢٩٦ - المدور: المرجع نفسه، ص٢٣٧ - شبولر (برتولد) : العالم الاسلامي في العصر المغولي، دمشق، دار حسان للطباعة، الطبعة الأولى، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م، ص١٥٤ - الترك: المرجع نفسه، ص١٥٤ - رنسيمان: المرجع نفسه، ج٣، ص٦٦١-٦٦٢.

(4) - المقريزي: السلوك، ج١، ق٣، ص٦٨٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الصلح نقض لأن سكان احدى القلاع الأرمينية والمعروفة بقلعة التيني (١) قطعوا الطريق على القوافل التجارية المتوجهة الى بلاد الشام الى جانب استنجادهم بالمغول الذين سارعوا واصطدموا مع المسلمين الذين أحرقوا القلعة، ولم يتمكن الأرمن بعد هذا التاريخ من الاقامة بها . (٢)

تمكنت السلطات المملوكية اثر هذه المعركة من تجميد قوة أرمينية ومنعها من الاشتراك مع المغول في معارك حربية ضد المسلمين في بلاد الشام، وابعادها موقتا عن مسرح القتال، لذلك بادرت الى عقد هدنة سنة ٦٨٤هـ/ ١٢٨٥م عند حصار المماليك لطرابلس بقيادة المنصور قلاوون باعتباره سلطان بلاد الشام مدتها عشر سنوات وعشرة أشهر توجب عليهم بموجبها دفع جزية تقدر بمليون درهم، وفك أسر جميع التجار المعتقلين .

وقد أقدم الأرمن على هذه الخطوة بعد هزيمة المغول في موقعة حمص هزيمة منكرة، ويقينهم بأن المغول أصبحوا عاجزين عن تقديم المعونة لهم ومساعدتهم عند حصول أي هجوم عليهم اضافة الى عدم تمكن الصليبيين من تقديم المساعدة بهم بسبب حروبهم مع المماليك . وهذه مقتطفات من نص المعاهدة يقول فيها ليفون بن هيثوم :

((انني من وقتي هذا وساعتي هذه قد أخلصت نيتي، واصطفيت طويتي في الطاعة، وفي الوفاء لمولانا السلطان الملك المنصور سيف الدنيا والدين سلطان الاسلام والمسلمين . . . . ولولده المولى السلطان الصالح . . . . وولده الاشرف صلاح الدنيا والدين خليل ناصر المؤمنين)) .

وقد تعهد صاحب أرمينية أن يقدم لصاحب مصر ((وعلى أن الملك ليون الملك هيثوم يقوم لمولانا السلطان الملك المنصور ولولده وولي عهده السلطان الملك الصالح علاء الدنيا والدين وولده السلطان الملك الاشرف في كل سنة من استقبال تاريخ هذه الهدنة والى انقضاء مدتها على حكم القطيعة المستقرة عن نفسه وعن رعيته وعن بلاده بما يأتي ذكره ونقد سنة معجلة، وهو من الفضة الطلفم التكفورية (٣) خمسمائة ألف درهم وزناً

(١) - قلعة التيني : لم أجد لها تعريفا في المعاجم لكنني عثرت على تعريف لمدينة تينات وأظن ان القلعة بها، فالتينات فرضة على بحر الشام قرب المصيصة، تجهز فيها المراكب بالخشب الى الديار المصرية، ينظر الحموي : معجم البلدان، ج ٢، ص ٦٨ .

(٢) - ابن عبد الظاهر : تشريف، ص ٣٠ - ٣١ - ٦٧ - النويري : نهاية الارب، ج ٣١، ص ٣٨ - ٣٩ - العيني : المصدر نفسه، ج ٢، ص ٣٠٩ .

(٣) - الطلفم التكفورية : أي ملكية ضرب من النقود . ينظر ابن عبد الظاهر : تشريف الأيام، حاشية المحقق، رقم (١) ص ٩٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

نصفها : مائتا ألف درهم ، وخمسون ألف درهم . ومن الخيل الجياد والبغال الجياد خمسون رأسا . ومن التطابيق الحديد الجياد عشرة آلاف تطبيقة بمساميرها محمولة الى أي جهة رسم له بحملها اليها من البلاد السلطانية . وليستقر حمل ذلك في كل سنة من مملكته ، وتكون السنة الاولى معجلة ، ويستقر حمل هذه الجملة المعنية في كل سنة الى انقضاء هذه الهدنة المباركة » . (١)

رضخ الأرمن للأمر الواقع ونفذوا بنود الاتفاقية ، فقد كانوا يؤدون الجزية للسلطات المملوكية باستمرار عدا بعض السنوات التي أعفاهم منها السلاطين بسبب عوامل طبيعية أو سياسية .

الا ان التوتر ساد العلاقات من جديد ، فتوجه الجيش العربي الاسلامي سنة ٦٩١هـ/١٢٩١م الى قلعة الروم مقر الجثالقة (٢) الأرمن في نواحي حلب للاستيلاء عليها ، فحاصرتها العساكر الاسلامية مدة اختلفت المصادر في تقديرها ، فبعضها أورد بأن الحصار استمر ثلاثة وثلاثين يوما ، وأخرى ثلاثة أشهر ، وكان يتولى الدفاع عنها ريمون خال الملك هيثوم بن ليون ، وأسفر الحصار عن سقوط المدينة بيد المسلمين ، وأسر عدد كبير من سكانها بينهم البطريرك استبانوس . (٣)

تفجر الصراع من جديد بين المماليك والأرمن بعد اعتداء الأرمن سنة ٦٩٢هـ/١٢٩٢م على قافلة من التجار المسلمين فقررت السلطات المملوكية ارسال قوة عسكرية لقتالهم ، عند سماعهم بهذه الأنباء سارعوا الى السلطان وطلبوا الأمان فمنحهم اياه مقابل تسليمهم قلعة تل حمدون وبهسنا . (٤)

---

(١) - ابن عبد الظاهر : تشريف ، ص٩٤ - عدوان : المماليك وعلاقاتهم الخارجية ، ص٩٦ .

(٢) - الجاثليق : أحد الرؤساء الدينيين للنصارى ، كان ينتخب من بين عدة مرشحين ويشارك في الانتخاب رؤساء الوحدات الدينية في الاقاليم انظر عمرو بن متى : أخبار فطاركة كرسي المشرق ، روما ، ١٨٩٦م ، ص ٧٤ - ٧٥ .

(٣) - اليافعي (عبد الله بن أسعد بن علي بن سليمان اليافعي اليمني) : مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة مايعتبر من حوادث الزمان ، بيروت ، مؤسسة الاعلمي ، الطبعة الثانية ، ١٣٩٠هـ/١٩٧٠م ، ج ٤ ، ص ٢١٨ - ابن الجزري (محمد بن ابراهيم بن أبي بكر) : المختار من تاريخ ابن الجزري المسمى حوادث الزمان وأبنائه ووفيات الأكابر من أبنائه ، بيروت ، دار الكتاب العربي ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨ ، ص٣٥٢ - ابن حبيب : تذكرة ، ج ١ ، ص١٤٩ - ابن تغري بردي : المنهل ، ج ٥ ، ص٢٧٢ - ٢٧٤ - ابن اياس : المصدر نفسه ، ج ١ ، ق ١ ، ص٣٧٠ - الترك : المرجع نفسه ، ص١٥٥ - ١٥٦ - المنذور : المرجع نفسه ص ٢٣٨ .

(٤) - ابن كثير : البداية ، ج ١٣ ، ص٣٣٢ ، ابن حبيب : المصدر نفسه ، ج ١ ، ص١٦٠ ، المقريزي : المقفى ، ج ١٣ ، ص٧٩٨ - العيني : عقد ج ٣ ، ص١٥١ - ابن اياس : المصدر نفسه ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٣٧١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

عاد الهدوء يسود أرمينية بعد الأمان الممنوح لها، فعمل ملكها جاهدا على تقوية وضع دولته بالتحالف مع أصدقائه المغول خاصة أنه تولى العرش المغولي شخصية سياسية وعسكرية عبقرية وهو غازان، فتوصل معه الى توقيع اتفاقية تعهد غازان بموجبها السماح للنصارى بممارسة شعائرهم الدينية، اضافة الى اشادة الكنائس في مدنه، والتعاون بين البلدين في مختلف المجالات. وهذه الاتفاقية تناقض ماجاء به المؤرخون عن اسلام غازان من جهة، وتؤكد بأن اسلامه كان مظهرا دعائيا اقتضته الظروف السياسية الداخلية والخارجية المسيطرة على الساحة الدولية، ومن جهة أخرى يمكن اعتبار هذه الاتفاقية حنكة سياسية وبراعة دبلوماسية أقدم عليها غازان لكسب ود وعطف المسيحيين الارمن والاوربيين كافة، وهذا ما ظهر من خلال اتصالاته مع ملوك أوربا المساعدته عسكريا ضد المماليك، لكنه أخفق بكسب تأييد أوربا لخططه ونجح بالنسبة للأرمن.

والجدير بالذكر أن الأرمن حافظوا على صداقة المغول رغم فوارق الدين، لكن هذه الصداقة جلبت لهم الكثير من المتاعب، فقد انقلبت عليهم من نعمة الى نقمة، اذ ذهبوا ضحيتها بسبب غزوات المماليك المتكررة.

على كل حال فقد كان لزاما على الأرمن تقديم المساعدة للمغول عسكريا عند هجومهم على بلاد الشام وهذا ماحصل سنة ٦٩٩هـ/١٢٩٩م، حيث اشترك الأرمن الى جانب جحافل المغول في معركة حمص، ثم رافقوا الجيش المغولي عند دخوله لدمشق، وانتقم هؤلاء من المسلمين أبشع انتقام فقد خربوا الجوامع وخاصة جامع التوبة في العقيبة، وذلك ردا على تخريب المسلمين لكنائسهم وقصورهم، كما استغلوا الظروف الحربية المضطربة واستردوا عدة قلاع استراتيجية هامة كان المماليك قد انتزعوها منهم وهي تل حمدون (١)، حموص (٢)، كويره، سرفندكار (٣)، النقير (٤).

---

(١) - تل حمدون : قلعة ببلاد الارمن كانت حصينة قبل تخريبها من قبل المسلمين، وبينها وبين اياس مرحلة، وبينها وبين سيس مرحلتين : انظر القلقشندي : صبح الأعشى، ج ٤، ص ٣٦.

(٢) - حميميص: قلعة خراب صغيرة بالقرب من نهر جيحان، انظر القلقشندي : المصدر نفسه، ج ٤ ص ١٣٧.

(٣) - سرفندكار : قلعة من بلاد الارمن، وهي بالقرب من جيحان، انظر القلقشندي : المصدر نفسه، ج ٤، ص ١٣٤.

(٤) - النويري : المصدر نفسه، ج ٣١، ص ٣٩٧ - ابن الوردي : المصدر نفسه، ج ٢، ص ٣٥٥.
- ابن كثير : المصدر نفسه، ج ١٤، ص ٨ - المقريزي : السلوك، ج ١، ق ٣، ص ٩٠٢.
- العيني : المصدر نفسه، ج ٤، ص ٤٨ - المدور : المرجع نفسه، ص ٢٣٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

شجعت هذه الأعمال ازدياد هوة الصراع بين السلطات في بلاد الشام والأرمن ، لذا عمدت هذه السلطات الى الانتقام منهم بعد استقرار الأمن بتخريب المدن الارمينية ، فقد أرسلت عدة حملات مابين سنتي (٧٠١ - ٧٠٣هـ / ١٣٠١م - ١٣٠٣م) أغارت على سيس وماجاورها الى الدربند ، وحاصرت تل حمدون وفتحته بعد أن أعطت الأمان لأهله . ولم يستطع المغول مساعدة الأرمن بسبب الهزائم المتلاحقة التي تعرضت لها جيوشهم في بلاد الشام سنة ٧٠٠هـ - ٧٠٢هـ / ١٣٠٠-١٣٠٢م في وقعة شقحب ، ولم ينسى السلاطين عقوبة ملك الأرمن الذى اشترك الى جانب المغول في هذه الموقعة فاضطرموا للجوء الى الموصل .

ونتج عن هذه الحملات اعادة الجزية المترتبة على الأرمن .(١)

ارتمى ملوك الأرمن بين أحضان السلطات المملوكية ليقينهم بعدم قدرتهم على مواجهة المماليك عسكريا ، وتعهدوا بدفع الجزية ، واستعدادهم للقصاص اذا ماتخلفوا عن أدائها .

ونتيجة لنقض الشروط المذكورة أغارت القوات العربية الاسلامية على أراضي أرمينية سنة ٧٠٥هـ / ١٣٠٥م ، كما أغارت مرة أخرى سنة ٧١٤هـ / ١٣١٤م عندما امتنعت عن الدفع ، ولاقت المصيرنفسه الذي لاقته فيما مضى .(٢)

بعد ذلك توقفت العمليات العسكرية ضد أرمينية ، ففي سنة ٧٢٠هـ / ١٣٢٠م اجتاحت القوات المملوكية سيس وطرسوس فيئس ملك الأرمن من مواجهة المماليك .

وضعت السلطات المملوكية في حسبانها اعادة الانتعاش التجاري لبلاد الشام كالسابق لأن التجار المسلمين كانوا قد فقدوا قسما من أموالهم نتيجة تحول طرق التجارة عنها الى أرمينية الصغرى ، فوجهت حملة ضد مدينة اياس سنة ٧٢٢هـ / ١٣٢٢م استطاعت نهب المدينة واحراقها وهرب سكانها بأولادهم وبما استطاعوا حمله من أموالهم ، وعاد الجيش العربي الاسلامي محملا بالغنائم .

---

(١) - ابن ايبك الدواداري : المصدر نفسه ، ص١١١-١١٢ - ابن الوردي : تتمة ، ج ٢ ، ص٣٥٧ - ابن حبيب : المصدر نفسه ، ج ١ ، ص٢٥٧ - الترك : صفحات ، ص١٥٨ .

(٢) - ابن ايبك الدواداري : الدرر ، ص٢٣١-٢٣٢ - الذهبي الحافظ : ذيول العبر ، تحقيق محمد رشاد عبد المطلب ، الكويت ، وزارة الاعلام ، طبعة ثانية مصورة ، ١٩٨٦م ، ص٢٩ - ٧٦ .
- العيني : المصدر نفسه ، ج ٤ ، ص٣٨١ .

(٣) - ابن خطيب الناصرية : المصدر نفسه ، ج ١ ، ورقة ٢٦٤ - الذهبي : دول ، ج ٢ ، ص٢٢٩ .
- ابن الوردي : تتمة ، ج ٢ ، ص٢٨٩ - اليوسفي : المصدر نفسه ، ص ٣٩٥ - ٤٠٩ .
- ابن حبيب : المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص١٢٤ - ابن تغرى بردى : المنهل ، ج ٣ ، ص٥٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

في خضم تلك الأوضاع المضطربة تدخل البابا لمصلحة الملك ليفون ، فأوصى ملك فرنسا فيليب الخامس بالعطف على أرمينية الصغرى ، كما أوصى به خان المغول الذى لبى رغبته وأنجده بقوة حربية قوامها عشرون ألف محارب من رجاله . أمام هذه الأوضاع اضطر الناصر محمد الى توقيع معاهدة صلح مع ملك الأرمن يدفع بموجبها سنويا خمسين ألف فلورين عدا نصف مايتحصل من الضرائب الجمركية وما تدفعه مدينة اياس من التجارة البحرية ، ونصف ما يتحصل من ثمن الملح مقابل تعهد الناصر باعادة بناء اياس على نفقته .(١)

امتنعت أرمينية الصغرى سنة ٧٢٣-٧٢٤هـ/١٣٢٤-١٣٢٥م عن دفع الجزية المفروضة عليها رغم هذه الاتفاقية المعقودة ، نقضت الصلح ، عندئذ أرسلت السلطات المملوكية حملة بقيادة نائب حلب فسار الى عاصمتها وقد بثت عساكره الرعب والفزع والقتل فيها ، واصطحب منها ثلاثمائة أسير ، فحزن أهل اياس لمصير اخوانهم وما حل بهم ، لذلك انتقموا من مجموعة من التجار المسلمين الموجودين لديهم في خان ، حيث أحرقوهم ، فهلك منهم نحو ألفي نفر ، ولم ينج منهم الا القليل .(٢)

وبينما كان الأرمن يعيدون الاستقرار الأمني لمدنهم توجهت اليهم سنة ٧٣٧هـ/١٣٣٦م قوة اسلامية كبيرة اجتمعت من كافة مدن الشام ومصر ، فحاصرت هذه القوة مدينة اياس ثلاثة أيام ، ولما علم سكانها ماسيلحق بهم من الهزيمة طلبوا الأمان ، فاستجابت السلطات المملوكية لذلك شرط أن يخلوا القلاع الواقعة شرقي نهر جيهان ، فاستجابوا وطلبوا مهلة يأخذون بموجبها مالهم فيها ويسلموها ، فتسلم المسلمون اياس وسرفندكار والهارونية ونجيمة التي خربوها ، ولم يبقوا الا ميناء اياس لأغراض تجارية .(٣)

والسؤال الذى يطرح نفسه الآن وهو لماذا كل هذه الحملات ضد أرمينية الصغرى ؟ هل لمجرد انضمامها الى جانب المغول أثناء هجومهم على مناطق الشام ؟ أم هناك أهداف أخرى أرادت السلطات تحقيقها عن طريق هذه الحملات ؟ .

---

(١) - عدوان : المماليك ، ص١٦٦ - الترك : صفحات ، ص١٦٠ .

(٢) - ابن خطيب الناصرية : المصدر نفسه ، ج١ ورقة ٢٦٥ - ابن الوردى : المصدر نفسه ، ج٢ ، ص٤٣٩ - ابن حبيب : المصدر نفسه ، ج٢ ، ص٢٥٩ - ابن تغرى بردى : المنهل ، ج٣ ، ص٥٥ - ابن اياس : المصدر نفسه ، ج١ ، ق١ ، ص٤٧٧ - ابن الطباخ : المصدر نفسه ، ج٢ ، ص٤١٣ - عدوان : المماليك ، ص١٦٦ .

(٣) - الشجاعي : (شمس الدين) : تاريخ الملك الناصر محمد بن قلاوون الصالحي وأولاده ، القاهرة ، مطبعة عيسى البابي الحلبي سنة ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م ، ص٤-٨ - الذهبي : ذيول العبر ، ص١٩٤ - ابن حبيب : المصدر نفسه ، ج٢ ، ص٢٧٨ - ٢٧٩ - ابن الطباخ : المصدر نفسه ، ج٢ ، ص٣١٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

من المرجح أن السلطات المملوكية أرسلت هذه الحملات الى أرمينية لتحقيق عدة أهداف :

الهدف الأول : اقتصادي يتشعب الى عدة جوانب ، الجانب الأول : احراز الغنائم التي تشكل ركيزة أساسية في سد نفقات ومصروفات الجيش من الجند والأمراء الذين يتقاضون رواتب لا تكفي مصروفاتهم .

كما سمحت السلطات المملوكية للأمراء أحيانا بالهجوم على أرمينية لاحراز الغنائم وذلك لارضائهم وضمان وقوفهم لجانبها أثناء الغزو المغولي للمنطقة . مثال ذلك ما قام به تنكز (نائب دمشق) الذي أقدم منذ توليه السلطة على اعادة الاستقرار السياسي والاجتماعي والأمني واقامة المدارس والجوامع والخانقاوات ، وقد هاجم ملطية سنة ٧١٥هـ/١٣١٢م وفتحها بالأمان وخربها ، كما فتح قلعة درندة عنوة وقتل الأرمن الموجودين فيها وخربها . فهدف تنكز من وراء الحملة احراز الغنائم لانفاقها على مشاريع مدينة دمشق .(١)

أما الجانب الثاني فهو جانب تجاري حيث تراجعت التجارة كثيرا بسبب ظهور المغول ، وتسهيل السلطات المملوكية عبور تجارة الرقيق الابيض عبر هذه المناطق الى بلاد الشام ومصر ، ولكي تستعيد موانئ الشام أهميتها أرسلت السلطات المملوكية الحملات المتكررة على اياس سنة ٧٢٢هـ/١٣٢٢م وسنة ٧٣٧هـ/١٣٣٦م ورغم تخريبها لاياس الا أنها أبقت على الميناء لأغراض تجارية .

الهدف الثاني : سياسي يتشعب الى عدة أمور :

أولا : معاقبة الأرمن على وقوفهم الى جانب المغول وتطاولهم على المسلمين في بعض المدن أثناء الهجوم المغولي على بلاد الشام ، فضلا عن رفع الروح المعنوية للجيش وارضاء الامراء بقيادتهم للحملات العسكرية ، فقد سمحت السلطات المملوكية لقرطاي نائب حلب بالهجوم على أرمينية الصغرى سنة ٧٢٠هـ/١٣٢٠م بسبب استيلاء الأرمن على قلاع هامة واستراتيجية منها اياس ، كوره ، سرفندكار . وقد انضم لحملته قرابة ألف فارس من دمشق ، وأمراء الطبلخاناه من حماه ، اضافة الى عسكر حلب بصحبة نائبها الطنبغا ، وقد حاصرت هذه الجيوش قلعة سيس وخربوا المنطقة وأتلفوا الزروع واستاقوا المواشي ، وعادوا محملين بالغنائم .(٢)

---

(١) - ابن ايبك الدواداري : الدر ، ص ٢٨٤ - ٢٨٥ - الشجاعي : الملك الناصر ، ص ٣٧ - المقريزي المقفى ، ج ٢ ، ص ٦٠٩ - الحسيني : ذيول العبر ، ص ٢١ - ابن حبيب : تذكرة ، ج ٢ ، ص ٦٥ - ٦٨ - ابن اياس : بدائع ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٤٤٦ .

(٢) - ابو الفداء : المصدر نفسه ، ج ٤ ، ص ٨٨ - ابن الوردي : تتمة المختصر ، ج ٢ ، ص ٣٨٤ - ابن حبيب : تذكرة ، ج ٢ ، ص ١٠٦ - ١٠٧ - ابن الطباخ : اعلام النبلاء ، ج ٢ ، ص ٣٠٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ثانيا : محاولة السلطات المملوكية اشغال عامة الشعب عن الاطلاع على مظاهر الفساد في النظم الادارية والعسكرية .

وربما هدف السلاطين الى اعادة كيليكية الى البوتقة الاسلامية بعد سلخها فترة طويلة عن وطنها الأم سورية وبالتالي ظهورهم كمدافع وحامي لحقوق العرب المسلمين .

بعد الاخفاق الذريع الذي مني به الأرمن في مواجهة المسلمين وجهوا أنظارهم الى الغرب الأوروبي علهم يلقون المساعدة والتأييد ، فاستجاب بعض ملوك أوروبا لعقد اتفاقات معهم ، فتعهدت كل من فرنسا والبابا بمساعدتهم ضد المسلمين ، لكن هذا لم يرق للعرب المسلمين الذين أدركوا بأن هذه الاتفاقيات سوف تخل بالوضع الأمني للمنطقة وتغيير موازين القوى ، لاسيما وأن الاوروبيين ما فتئوا يفكرون في استعادة نفوذهم في الشرق ، ولذلك أرغمت السلطات المملوكية أرمينية على عقد اتفاقية تعهدت بموجبها عدم مساعدة أية دولة أوروبية ضد بلاد الشام ومصر ، ومواظبتها على دفع الجزية السنوية ، وظلت محافظة على هذا الاتفاق حتى اقتيد ملكها ليو السادس أسيرا الى القاهرة .(١)

ظلت السلطات المملوكية تكيل الهجمات لأرمينية حتى استطاعت تقليم أظافرها والاجهاز عليها واعادتها الى نفوذ حكمها سنة ٧٧٧هـ/ ١٣٧٥م ففي هذا التاريخ توجهت حملة مملوكية مؤلفة من خمسة عشر ألف محارب الى سيس انضمت الى القوات المصرية المحاصرة للمدينة ، ووجد الملك الأرمني ليفون بأن المقاومة ستكون عقيمة ، فأخلى المدينة بعد أن أحرقها واعتصم بالقلعة التي حوصرت من قبل جيوش المسلمين ، واستمر الحصار حتى استطاع المسلمون دخول القلعة ، عندئذ أدرك ليفون خطورة الموقف لاسيما أن المجاعة قد أطلت بشبحها المخيف من جراء الحصار الطويل ، فأرسل يفاوض القواد المسلمين حتى أعطوه الأمان ، فاستسلم الملك ليفون للأمر الواقع ، واقتيد مع عائلته أسيرا الى حلب دون أن يمسه أي سوء ، ومن حلب رحل الى مصر ، ولم يسمح له بالذهاب الى أوروبا خوفا من أن يدعوا الى حملة صليبية جديدة .

---

(١) - ابن خطيب الناصرية : المصدر نفسه ، ج ١ ، ورقة ٢٦٥ - ابن حبيب : المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٢٦٥ - ٢٦٧ - ابن تغري بردي : المنهل ، ج ٣ ، ص ٥ - ابن اياس : المصدر نفسه ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٢٧٣ - عدوان : المرجع نفسه ، ص ١٦٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وبالرغم من الوساطات التي بذلت من قبل البابا وملك فرنسا وملوك آخرين لاطلاق سراحه ، فانها لم تثمر عن نتيجة حتى وصل أحد الرهبان الفرنسيسكان والمدعو حنا دارديل الذى اجتمع بالملك ليغون وعرفه رغبته في الذهاب لأوروبا، فعاد الراهب لأوربا وجمع له أموالا افتداه بها ،عندئذ سمح له بمغادرة مصر ، فرحل عنها سنة ٧٨٤هـ/ ١٣٨٢م بعد سبع سنوات من الأسر. بعد أن شغر عرش أرمينية الصغرى أصبح تعيين النواب من قبل السلاطين ، ودليل ذلك أنه في سنة ٧٨٤هـ/ ١٣٨٢م حضر رسول من سيس يخبر بأن الأرمن فوضوا أمرهم الى سلطان مصر ليختار النائب عليهم فانتقى برقوق أحد أسارى الأرمن الذين يقطنون منطقة الكوم ظاهر القاهرة فأخذوه وملكوه عليهم.(١)

وطبيعي أن ينبثق عن عودة كيليكية الى بلاد الشام من جديد عدة نتائج أهمها الهجرة الى الخارج ،وقد اتخذت الهجرة طرقا متعددة ،فقد توجه بعضهم الى مناطق روسية الجنوبية ، ويمم بعضهم وجهه شطر الغرب ،وتوجه أكثرهم نحو بولونية ويقدر عددهم بنحو أربعين ألفا وتضاربت آراء المؤرخين حول بدء الهجرة ، فبعضهم ذكر أنه بدأت منذ منتصف القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي اثرغزوة المغول ثم غزوات المماليك التي اقتادت الألوف من أبنائها أسرى وزعوا على البلاد الشامية ،وأماكن أخرى متفرقة لم تأت المصادر على ذكرها ، وربما سكن هؤلاء حلب ودمشق ،واحتلت حلب المركز الأول بعدد الأرمن تلتها دمشق ، بينما ذكر بعضهم الآخر أنه عندما غزا المماليك أرمينية سنة ٦٦٥هـ/ ١٢٦٦م أمروا بترحيل عدد كبير من الأسرى الموجودين لديهم ولم تذكر المصادر التاريخية عن أوضاع هؤلاء الأسرى وهل نقلوا الى بلاد الشام أو مصر ، أو أنهم عادوا الى بلادهم من جراء مفاوضات بين ملكهم والسلطات المملوكية. ولا نستطيع التأكيد كما أكد باحثون آخرون بأن الأرمن الموجودين حاليا في سورية ولبنان تعود أصولهم الى تلك الفترة.(٢)

---

(١) - المقريزي : المصدر نفسه ،ج ٣ ،ق ١ ،ص٤٣٧- العسقلاني : انباء ،ج ٢ ،ص ٩٠-
- ابن اياس: المصدر نفسه ،ج ١ ،ق ٢ ،ص٣٠٧- الدور : المرجع نفسه ،ص ٢٤٧ -
- الترك : صفحات ،ص ١٦٧ .

(٢) - ابن عبد الظاهر : الروض، ص ٢٦٩- ٢٧٠- الترك : المرجع نفسه ،ص ٢١٢- ٢١٤-
- الدور : المرجع نفسه ،ص ٥١٨- ٥١٩- ٥٤٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ظلت أرمينية تحت نفوذ السلطات المملوكية حتى اجتاحها تيمورلنك سنة ٧٨٩هـ/١٣٨٧م، فقد تدفقت في ظل هذه الغزوة موجات من قبائل المغول التي زرعت الخراب والدمار، فقد كانت تحرق القرى والمدن وتذبح السكان، وظلت أحوالها مضطربة ومتأرجحة حتى استطاع تيمورلنك الانتصار على العثمانيين سنة ٨٠٥هـ/١٤٠٢م وخرب معظم أرمينية فضاعت من أيدي المماليك ووقعت تحت رحمة القبائل التركمانية المعروفة بقبائل الشاة السوداء، والشاة البيضاء قراقونيلو وآق قونيلو. (١)

وأخيرا يمكن القول أن الأرمن لم يكونوا على دراية كاملة بالظروف السياسية والاجتماعية المحيطة بالدول المجاورة، همهم المصالح الذاتية، لذا فقد اعتمدوا على المغول اعتمادا كبيرا وتناسوا أن الدولة المغولية حديثة النشوء، وأن الصراع على السلطة لم يحسم فيها بشكل نهائي، ولو هادنت أرمينية الصغرى العرب ووقفت موقفا محايدا تجاه الصليبيين والمغول لاستفادت كثيرا ولم تصل الى هذه النهاية، الا أن أرمينية راهنت على أمل أن يبقى المغول بالمنطقة فخسرت الرهان، وفقدت كيانها السياسي نتيجة الخطأ في حساباتها السياسية.

(١) - ابن خلدون: التعريف، ص٣٦٦ - المقريزي: السلوك، ج٣، ق٣، ص١٠٢٧ -
- العسقلاني: انباء، ج٥، ص٥٥ - ٥٨ - الصيرفي: نزهة النفوس، ج٢، ق٧١ -
- الترك: المرجع نفسه، ص١٧٢ - ١٧٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أما موقف بارونات عكا العدائي من المغول فقد كان اما نابعا من مكروذكاء لتدمير المماليك من قبل المغول ، أو أنهم كانوا يعيشون منطقة السياسة المحلية ويدركون مصالحهم وخاصة البيوتات التجارية على أساس السياسة المحلية ، وبربط أدركوا أن عدم مجابهة المماليك أفضل من التعاون مع المغول . وقد أبدى هؤلاء حسن نيتهم عندما أرسل المظفر قطز يطلب منهم السماح للجيوش الاسلامية باجتياز بلادهم ، وبشراء ماتحتاجه الجيوش من المؤونة فأبدوا استعدادهم في أول الأمر لمعاونة قطز ، لكن مقدم طائفة الرهبان التيتون (انو سانجرهاوسن) أنذرهم بأن المسلمين سينقلبون ضدهم اذا ما انتصروا على المغول . فطلب منهم قطز أن يقفوا موقف الحياد .(١)

أصيب الفرنجة بخيبة أمل كبيرة بعد انتصار المسلمين في عين جالوت وبات لديهم قناعة بأن يومهم آت لا محالة ، خاصة أن ظروفهم الداخلية والخارجية مضطربة وسيئة ، فالامدادات البشرية والمادية التي كانت تصلهم من الغرب الأوربي تضاءلت ، كما أن الحماسة الصليبية في الغرب قد انطفأت جذوتها ، وهنا بدأ الصليبيون في البحث عن بديل آخر للغرب الأوربي ، فوجدوه في الجانب المغولي ، وطمعوا في أحد أمرين اما في الحصول على المعونة منهم أثناء هجوم المسلمين عليهم ، أو اشغالهم بصراع مستمر مع المسلمين ، لذلك بادر الفرنجة الى مكاتبة المغول وايصال أخبار المنطقة لهم ، فعندما جرد الظاهر بيبرس سنة ٦٥٩هـ/ ١٢٦٠م جيوشه لترحيل المغول عن حلب سارع الصليبيون باخبار المغول بالأمر عندما وصلت الجيوش الى غزة .(٢)

ومهما يكن من أمر فإن الظاهر بيبرس رأى أنه لابد من تطويق الصليبيين واحكام القبضة عليهم لأنه علم بأن لا قدرة لدولته الناشئة في خوض الحروب على جبهتين متباعدتين ، لذا عقد العزم على التحالف وخطب ود أعداء الصليبيين في المنطقة اضافة الى المغول الذين ربما سيكونون سندا لهم ، فوجد ضالته في بركة خان(٣) ، زعيم مغول القبجاق الذي اشتهر بعدائه لمغول فارس ،

---

(١) - أبوشامة : تراجم ، ص٢٠٧ - المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ق ٣ ، ص٤٠٣ - الغامدي : المرجع نفسه ص١٠٨

(٢) - ابن كثير : المصدر نفسه ج ١٣ ، ص ٢٢١ - ابن تغري بردي : النجوم ، ج ٧ ، ص١٠٩ - الغامدي : المرجع نفسه ، ص ١٥٦ - ١٥٧ .

(٣) - بركة خان : ابن عم هولاكو ، كان يحب العلماء والصالحين ، وقد كسره ولاكو ، وكان يناصح الملك المظفر ويعظمه ، قام بعده في الملك منكوتمر بن طغان بن بابو بن تولي بن جنكيز خان ، توفي سنة ٦٦٥هـ . انظر ابن كثير : المصدر نفسه ، ج ١٣ ، ص ٢٤٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وزعيمهم هولاكو، لذلك اوفد بيبرس سنة ٦٥٩هـ/ ١٢٦٠م الى بركة باغرائه بقتال هولاكو،[١] فرد عليه برسالة مضمونها :

((قد علمت محبتي للاسلام، و علمت ما فعل هولاكو بالمسلمين ، فاركب أنت من ناحية حتى آتيه أنا من ناحية حتى نصطلمه أونخرجه من البلاد وأعطيك جميع ما كان بيده من البلاد)).[٢]

نجحت هذه المراسلات في تحقيق هدف الظاهر بيبرس المنشود وهو اشغال هولاكو عن التحالف مع الصليبيين ، فقد هاجمه بركة واشتبك معه في معارك حربية ضارية ، كما التمس بركة من بيبرس مراسلة سلطان سلاجقة الروم عز الدين كيكاوس لطلب المساعدة على هولاكو.[٣]

وكان الامبراطور البيزنطي ميخائيل باليولوخس الثامن هو الحليف الآخر الذي اتفق معه الظاهر بيبرس ضد الصليبيين ، وبالمقابل فان ميخائيل كان حريصا على محالفة بيبرس لأنه كان يتعرض باستمرار لهجمات بركة خان ، وبصداقته مع بيبرس يستطيع ايقاف الهجمات ضده ، لذلك عرض عليه مساعدته فأرسل سنة ٦٦٠هـ/ ١٢٦١م رسالة يقول فيها :

((أنه متى احتاجت سلطنة الملك الظاهر الى مساعدة ، ساعدت بكل ما تقدر عليه سلطنتي عليه)).[٤]

ونتيجة لبراعة بيبرس السياسية والحربية فانه استطاع تطويق الصليبيين اكثر عندما أبرم اتفاقيات مع ملك قشتالة الفونسو العاشر الذي أرسل الى الظاهر بيبرس هدية ثمينة عبارة عن خيول عربية أصيلة سنة ٦٥٩هـ/ ١٢٦١م ، واتفاقية مع ملك صقلية مانفرد بن فردريك الثاني هوهنشاوفن ، ومع صاحب مرسيلية.[٥]

ويجدر بنا طرح تساؤل هام عن سبب حرص أمراء وملوك الغرب على مصادقة بيبرس الذي عرف بعدائه لاخوانهم الصليبيين في بلاد الشام ؟ .

---

(١) - ابن عبد الظاهر : الروض ، ص ٨٨ - ٨٩ ، المقريزي : المصدر نفسه ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤٦٥ - الرمزي : م . م : تلفيق الأخبار وتلقيح الآثار في وقائع قزان وبلغار وملوك التتار ، المطبعة الكريمية ببلدة قازان ، رتنبورغ ، ج ١ ، ص ٤٣١ .

(٢) - اليونيني : المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ١٩٥ - ابن كثير : المصدر نفسه ، ج ١٣ ، ص ٢٣٨ .

(٣) - ابن عبد الظاهر : الروض ، ص ١٧١ - ابن كثير : المصدر نفسه ، ج ١٣ ، ص ٢٣٩ - الغامدي : المرجع نفسه ، ص ١٥٨ .

(٤) - ابن عبد الظاهر : الروض ، ص ٨٨ .

(٥) - ابن عبد الظاهر : المصدر نفسه ، ص ٢٠١ - الغامدي : المرجع نفسه ، ص ١٦٠ - ١٦١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقد برهن بيبرس خلال حروبه على عبقرية عسكرية متميزة جعلت خصومه الصليبيين يرهبون جانبه ، وتتناسب مع محصلات حروب التحرير . ومايدل على حنكة بيبرس ومقدرته السياسية أنه لم يكن ينازع قوى الصليبيين جميعها في المنطقة وانما كان يحارب احدى هذه القوى ويهادن أخرى وذلك لكي لا تقف جميعها ضده وتشكل عليه عبئا عسكريا .

لا شك أن ما أنجزه بيبرس عسكريا كان عظيما وكبيرا وهو يساوي ما أنجزه من قبله صلاح الدين ونورالدين الأيوبي وعظمته تنبع من شخصيته المتزنة ومخططه الواضح ، فقد عرف امكانات المسلمين وقدراتهم العسكرية والقتالية وعلى أساسها رسم سياسته الواضحة فقد اطلع على أخطاء الماضي واقتبس منها دروس المستقبل ، فطموحه واصراره هو الذى دفع الى تحقيق هذه الانتصارات العظيمة والتي كانت اللبنة الأولى في طرد الصليبيين من المنطقة .

ويمكن التساؤل هنا هل كانت حروب التحرير من أجل طرد الصليبيين فقط رغم أنهم وقفوا موقف الحياد ، أو كان هناك أسباب أخرى لذلك ؟ .

ان الدوافع الحقيقية وراء هذه الحروب كانت تجارية ، فالصليبيون كانوا يمتلكون المراكز التجارية الواقعة على البحر الأبيض المتوسط ، وهذه المراكز أمنت لهم الاتصال مع اخوانهم في أوربا لتصريف منتجاتهم ، ولجلب البضائع أيضا الى مراكز تواجدهم ، كما أن المغول سيطروا على تجارة المشرق وحولوها الى بلادهم ولذلك لم يجد المماليك بدا من استعادة المناطق الواقعة تحت سيطرة الصليبيين حتى يسيطروا على المراكز التجارية .

تابع قلاوون وأبناؤه تصفية الصليبيين نهائيا من البلاد ، فحرص المنصور قلاوون منذ بداية حكمه أن يسير على الخط نفسه الذى سار عليه بيبرس في تطويق بقايا الصليبيين عن طريق تقوية أواصر الصداقة مع مغول القفجاق والدولة البيزنطية والغرب الأوربي . فقد أرسل الى مغول القفجاق بأنه باق على الود والصداقة ، وتعاهد الطرفان على الاستمرار في عداء مغول فارس ، كما صادق الامبراطور البيزنطي ميخائيل باليولوخس وولده اندرونيكس الثاني (٦٨١هـ - ٧٢٩ / ١٢٨٢-١٣٢٨م) ولا حكام الطوق بقوة على الصليبيين أقام علاقات ود وصداقة مع ملك قشتالة ، وأمير أرغونه وصقلية ، اضافة الى الجمهوريات الايطالية التي كانت تربطها ببلاد الشام ومصر علاقات تجارية ، فقد كانت هذه البلاد تزخر بمواد التجارة القادمة اليها من تلك الجمهوريات . كما أقام قلاوون علاقات مع ملك فرنسا وامبراطور النمسا وبذلك قضى على آمال الصليبيين في الحصول على أية مساعدة خارجية.(١)

---

(١) - ابن عبد الظاهر : تشريف الأيام ، ص٥٤ - ١٥٦ - مقدمة المحقق ، ص٥٠ - ٥١ - ٥٢ .
- الغامدي : المصدر نفسه ، ص٢٥٣ - ٢٥٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بعدها التفت قلاوون الى دك معاقل وحصون الصليبيين في البلاد ، وقد استطاع تحرير معظم المدن من سيطرتهم.(١)

وكما ظهر قلاوون بطلا في تاريخ الحروب الصليبية وحرر طرابلس نهائيا من أيديهم ظهر ابنه الاشرف خليل بطلا على مسرح الأحداث كأبيه وحرر عكا (٢) ، رغم أن مساعدات خارجية وصلتها من ملك قبرص هنري الثاني الذى وصل الى عكا على رأس مائتين من الفرسان وخمسمائة من المشاة وقدر كبير من المؤن والامدادات. ولم تجد محاولته في انقاذ ما تبقى من تحصينات المدينة ، فحاول التفاهم سلميا مع الاشرف ووعده بخروجهم جميعا من عكا ومعهم أموالهم اذا هم استسلموا ، لكن الملك هنرى لم يملك حق التفاوض باسم أهل عكا جميعا ، كما أنه اختلف مع بعض زعماء عكا حول قبول ما شرطه السلطان عليهم.(٣) وهكذا سقطت عكا بيد المسلمين بعد بقائها أكثر من مائة عام بيد الصليبيين منذ استعادتها من صلاح الدين الايوبي سنة ٥٨٧هـ/ ١١٩١م الذى كان قد استردها منهم سنة ٥٨٣هـ/ ١١٨٧م (٤) وهكذا وبانتهاء القرن السابع الهجرى / الثالث عشر الميلادى طويت ملحمة الحروب الصليبية التي تعد أعظم ملاحم التاريخ وأطولها ، فقد استمرت وقائعها تقارب القرنين من الزمن ، واشتركت فيها أوربا كلها بشعوبها وطاقاتها ، وتحققت من خلالها آمال السلاطين المماليك الذين حملوا لواء التحرير الاسلامي ضد الصليبيين في تحرير المدن العربية الاسلامية في بلاد الشام كلها وبانتهاء الوجود الصليبي يكون قد انتهى فصل من الصراع العربي الاسلامي

---

(١) - للمزيد من التفاصيل ينظر: ابن خلكان (أحمد بن محمد) : وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، مصر ، مطبعة السعادة ، الطبعة الأولى ، ١٣٦٧هـ/١٩٤٨م ، ج ٢ ، ص ٨٨ - المنصوري : التحفة ، ص ١٢٠ - أبوالفداء : المصدر نفسه ، ج ١٤ ، ص ٢٣ - ٢٤ - النويري : المصدر نفسه ، ج ٣٠ ، ص ٣٠٤ - ٣٠٥ ، ج ٣١ ، ص ٤٧ - ٤٨ - ابن الوردي : تتمة المختصر ، ج ٢ ص ٣٣٥ - اليافعي : مرآة ، ج ٤ ، ص ٢٠٧ - ابن كثير : المصدر نفسه ، ج ١٣ ، ص ٣١٢ - ابن حبيب : تذكرة ، ج ١ ، ص ١٢٢ - ابن خلدون : العبر ، ج ٥ ، ص ٨٦٤ - ٨٦٥ - المقريزى : السلوك ، ج ١ ، ق ٣ ، ص ٧٤٧ - العيني : المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٣٨٠ - السيوطي : المصدر نفسه ، ص ٤٨٢ - ابن اياس: بدائع ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٣٥٩ - العليمي : المصدر نفسه ج ٢ ، ص ٨٨ - سالم - طرابلس ، ص ٢٦٥ - ٢٩٦ - ٢٨٩ - ٢٩٠ - الزين (سميح وجيه) : تاريخ طرابلس قديما وحديثا ، بيروت ، دار الاندلس ، الطبعة الأولى ، ١٣٨٩هـ/١٩٦٩م ص ١٣٥ - ١٤٥ .

(٢) - ينظر المنصوري : المصدر نفسه ، ص ١٢٦ - ١٢٧ - النويرى : المصدر نفسه ، ج ٣٠ ، ص ١٩٦ - ١٩٩ - أبوالفداء : المصدر نفسه ، ج ٤ ، ص ٢٤ - ٢٥ - الذهبي : دول ، ج ٢ ، ص ١٨٩ - ١٩٠ - اليافعي : المصدر نفسه ، ج ٤ ، ص ٢٠٩ - ابن كثير : المصدر نفسه ، ج ١٣ ، ص ٣٢٠ - ٣٢١ - ابن حبيب : تذكره ، ج ١ ص ١٣٧ - ابن خلدون : العبر ، ج ٥ ، ص ٨٦٩ - المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ق ٣ ، ص ٧٦٣ - ٧٦٥ - ابن تغرى بردى : المنهل ج ٥ ، ص ٢٧٣ - ابن اياس : المصدر نفسه ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٣٦٨ - زكار : المرجع نفسه ، ص ٥٥٤ - ٥٥٦ - عودات : المرجع نفسه ، ص ١٠٨ - ١٠٩ .

(٣) - الغامدي : المرجع نفسه ، ص ٢٧٩ - ٢٨٠ .

(٤) - النويري : المصدر نفسه ، ج ٣١ ، ص ١٩٩ - ابن تغري بردي : النجوم ، ج ٦ ، ص ١١٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الصليبي ، ولوقائع الحروب الصليبية دروس وعبرونتائج خطيرة على المشرق على كافة الصعيد الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ، ولا شك أن العبرتتمثل في أن العرب المسلمين تحل بهم الهزيمة عندما تكون صفوفهم مبعثرة ، وعلى العكس فهم يحققون الانتصارات عندما تكون صفوفهم موحدة وهذا مالوحظ أثناء الحروب مع الصليبيين .(١)

---

(١) - زكار: المرجع نفسه ، ص ٥٥٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

نيابة دمشق :

تعتبر نيابة دمشق أهم نيابة على الاطلاق ،وهي كبرى نيابات الشام ،حتى أن القلقشندي أطلق عليها اسم نيابة الشام أو مملكة الشام ،ووصفها بأنها أجل نيابات المملكة الشامية وأرفعها رتبة.(١)

ظلت نيابة دمشق في فترة البحث رديفة للقاهرة، وعدت نيابتها من أكبر الوظائف في السلطنة المملوكية بعد الاتابكية الكبرى ،وكانت نيابة دمشق مركزا رئيسيا للحكم المملوكي ، وخطا من خطوط الدفاع ضد الهجمات المغولية المتكررة على البلاد من الشرق كونها تمتلك قوة عسكرية كبيرة تساعد المماليك في حروبهم الخارجية ،لذلك كانت محور اهتمام السلاطين ، فأنشأوا فيها المعاهد والمؤسسات العلمية والدينية التي تفوق الحد بكثرتها.(٢) لقد ضمت دمشق مختلف الوظائف الديوانية، ووظائف أرباب الاقلام والوظائف الدينية ، وأرباب السيوف (الوظائف العسكرية) ،وكان نظام الحكم صورة مصغرة لنظام السلطنة بالديار المصرية.

وعدت الوظائف العسكرية أهم الوظائف في الجهاز الاداري ،وكانت حكرا على المماليك فقط بحكم نشأتهم العسكرية ،لذلك لم يتواجد بالبلاد جيش محلي بالمعنى الصحيح يدافع عنها اذا ما اقتضت الضرورة، وهذا ما انعكس بشكل كبير على البلاد عند قدوم الغزاة المغول لأن كثيرا من المماليك كانوا يتركون ساحات القتال عند اشتداده.

ومارس رجال الجيش الشؤون الادارية والمالية والزراعية مستعينين في ذلك بأرباب الوظائف الديوانية ،بينما تركوا لاهل البلاد ميدان العلم والثقافة وشؤون القضاء لضعفهم من هذه الناحية. وكانت أهم وظيفة فيها نيابة السلطنة، ويطلق على متوليها النائب أو كافل السلطنة.(٣)

---

(١) -القلقشندي : المصدر نفسه ،ج ٤ ،ص ١٨٠ - ١٨٤ .
(٢) -القلقشندي : المصدر نفسه ،ج ٤ ،ص ٩٢ - ٩٣ .
(٣) -العمري :التعريف ، ص٨٦ -اليوسفي : نزهة الناظر ،ص٦٢ -السبكي (تاج الدين): معيد النعم ومبيد النقم ،دار الحداثة ،الطبعة الأولى ،١٩٨٣ ،ص٢١ -القلقشندي : المصدر نفسه ،ج ٤ ،ص١٨٤ -دهمان : معجم الالفاظ التاريخية في العصر المملوكي ، ص ١٤٩ -ولاة ،ص ٢٣ - ٢٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومن أهم الوظائف العسكرية في نيابة دمشق نيابة القلعة، الحجوبية، شد المهمات، نقابة النقباء، الخزندارية، شد الاوقاف، ولاية الزكاة والدواوين العشرو المواريث، شد الدواوين، وكانت وظيفة المشد تعنى باستخراج اموال للسلطان على من يعسر استخلاصه منه، وكانت الدواوين ترجع أمورها للسلطان، أما اذا كانت دواوين للأمراء فمرجوع أمورها الى مخدومه. (١)

وشابهت الوظائف الديوانية الموجودة في دمشق بقية النيابات، فقد ضمت الوزارة، كتابة السر، نظر البيمارستان، والأسواق، نظر السلاح، نظر ديوان الاسرى، وديوان البريد. (٢)

وساهم الغزو المغولي لبلاد الشام وما تبعه من اضطرابات أمنية في تطوير أنظمة البريد وذلك لكشف أخبار الاعداء مع ايصال المعلومات على جناح السرعة، فالمماليك اعتمدوا ثلاثة أنظمة للبريد وهي المناور، الحمام، البريد العادي. ويرجع الفضل في تنظيم البريد في العصر المملوكي الى الظاهر بيبرس سنة ٦٦٩هـ/ ١٢٧٠م الذى أراد الالمام بأوضاع الاعداء من مغول وفرنج. (٣) وكان الصنف الثالث بدمشق من الوظائف هي الدينية والتي كانت تتضمن القضاء والحسبة ومناصب أخرى. وشهدت ساحة القضاء بعض التغييرات، حيث ضمت دمشق أربعة قضاة بدلا من قاض واحد، وكانت رتبة قاضي قضاة الشافعية هي الاجل رتبة، يليه الحنفي، فالمالكي، فالحنبلي. وقد ذكر أحد المؤرخين أنه وجد قضاء للاقليمين في فترة من الفترات وهو جلال الدين محمد بن عبد الرحمن القزويني (ت ٧٣٩ هـ / ١٣٣٨م). (٤)

---

(٣) - أبوشامة: تراجم، ص٢٣٠ - ابن عبد الظاهر: تشريف، ص٦٠ - العمري: المصدر نفسه، ص١٤٨ - الحسيني: ذيول العبر، ص٣٢٨ - ١٨٦ - ١٨٧ - المقريزي: السلوك، ج٢، ق٣، ص٣٢٤ - العسقلاني: انباء، ج٢، ص٤٠ - الدرر، ج١، ص١٧٩ - ابن تغري بردي: المنهل، ج٣، ص٤٢٠ - دهمان: ولاة، ص٢٥ - معجم، ص١٤٧.

(٢) - النويري: المصدر نفسه، ج٣١، ص١٢ - الذهبي: ذيول، ص١٩١ - السبكي (تاج الدين): طبقات الشافعية، المطبعة الحسينية المصرية، الطبعة الاولى، ج٥، ص٣١ - الدمشقي: الوفيات ج١، ص٣٩٠ - القلقشندي: المصدر نفسه، ج٤، ص١٨٨ - ١٩٢ - ابن تغري بردي: النجوم، ج٩، ص٢٩٨ - ٣٢١ - ج١٠، ص١٠٨ - الظاهري: المصدر نفسه، ص١٣١ - السخاوي (شمس الدين محمد) الضوء اللامع لاهل القرن التاسع، بيروت، مكتبة الحياة، ص٦٨ - ابن اياس: بدائع، ج١، ق١، ص٣٤٩ - دهمان: ولاة ص٢٨ - ٣٢.

(٣) - العمري: التعريف، ص١٨٩ - ٢٠١ - عطا الله: نيابة غزة، ص١٠٦.

(٤) - للمزيد من التفاصيل حول القضايا الدينية ينظر: ابن بسام المحتسب (محمد): نهاية الرتبة في طلب الحسبة، تحقيق حسام الدين السامرائي، بغداد، مطبعة المعارف، ١٩٦٨، ص١٠، ص١٦ - ١٧ - ٢٠ - أبوشامه: المصدر نفسه، ص٢٢٦ - الشجاعي: تاريخ الناصر: ص٢٦١ - الذهبي: الذيول ص٢٠٥ - السبكي: معيد، ص٦٥ - الدمشقي: الوفيات، ج١، ص٢٤٣ - القلقشندي: صبح الأعشى، ج٤، ص١٩٢ - المقريزي: السلوك، ج١، ق٢، ص٥٤٢ - ج٢، ق٣، ص٦٥٣ - الظاهري: المصدر نفسه، ص٩٢ - ابن اياس: المصدر نفسه، ج١، ق١، ص٥٨٨ - النعيمي (عبد القادر): الدارس في تاريخ المدارس، طبعتان، الاولى، مطبعه الترقي، ١٩٤٨، الثانيه، مكتبة الثقافه الدينيه، ١٩٨٨م، ج١ ص٢٠٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويجدر القول بأن النشاطات الوظيفية توزعت على عدة منشآت حكومية أولها القلعة ، ثم القصر الأبلق ، دار السعادة ، دار العدل .

فالقصر الأبلق كان معدا لقواد الجيش الذين يمرون على دمشق بجيوشهم ، أما دار العدل فكانت مركزا للحكومة ، وقد أضيف الى دار السعادة وكان يجلس فيها النائب وأركان السلطة لبحث الشؤون المعقدة وادارة البلاد .(١)

نيابة حلب :

تلي نيابة دمشق في الأهمية نيابة حلب ، فهي توأمها ، وحاضرة بلاد الشام الشمالية ، ومنافسة دمشق للسيطرة على بلاد الشام . فقد تمتعت بموقع جغرافي ممتاز على الاطراف الشمالية لبلاد الشام ، وبالتالي شكلت عقدة مواصلات برية وتجارية ، كما كانت ممرا للجيوش الغربية المتوجهة اما الى سيس حيث مواطن الأرمن ، أو الى بلاد الروم لملاقاة المغول هناك ، وكانت حلقة الوصل بين عدة جهات شمالية وجنوبية .

ولم يكسبها موقعها أهمية في العصر المملوكي فقط ، بل اكتسبت هذه الاهمية منذ العصور السابقة ، حيث كانت حاضرة الدولة الحمدانية ، والحصن الذى شنت منه القوات الاسلامية الغارات ضد البيزنطيين ، وقد استمرت في المحافظة على دورها الحربي حتى أيام المماليك ، وكانت تضاهي بغداد والموصل في العظم .(٢)

ولكن لماذا لم تحتل حلب المرتبة الأولى قبل دمشق رغم أنها كانت الخط الأول لخطر المغول ؟ .

احتلت دمشق المرتبة الأولى باعتبارها مركزا حصينا وقويا ضد المغول ، وباعتبار أن المماليك يعتمدون على موارد النيابة المالية وغيرها بسبب قربها من مصر مركز الادارة المملوكية ، ونتيجة للاطماع المغولية في السيطرة عليها تجاريا بعد أن فقدت حلب في فترة البحث أهميتها التجارية ، لأن حلب كانت مزدهرة جدا عندما كان عمقها الاقتصادى سيس مرتبطة بها ، غير أن استقلال سيس عن حلب أثر على عمق حلب ومكانتها ، فقلل ذلك من أهميتها تجاريا مما جعل دمشق تتبوأ المركز الاول .

---

(١) الظاهري : المصدر نفسه ، ص١١ - دهمان : معجم ، ص٧٢ - ولاة ، ص٣٤-٣٨ - ٤٠ - ٤٤ - زعرور : المرجع نفسه ، ص ١٠٥ .

(٢) - ابن شيخ الربوة : المصدر نفسه ، ص ٢٠٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

شجعهم على اعتبارها نيابة. يضاف الى ذلك الدور الذى شغله حكامها في مساعدة المغول عند دخولهم البلاد .

ولم تظهر كنيابة مستقلة لها هيكلها الاداري الا بعد تحريرها من يد الصليبيين زمن حكم السلطان قلاوون سنة ٦٨٨هـ/١٢٨٩م (١).

واحتلت المرتبة الثالثة من حيث الأهمية بعد دمشق وحلب (٢)، وقد اختلفت روايات الجغرافيين والمؤرخين حول تحديد النيابة، فقد تراوحت هذه الحدود بين الاتساع والضيق وذلك تبعا للظروف السياسية التي عاشتها المدينة، وتبعا لقوة نائبها أوضعفه وتبعا لنائب دمشق ومدى ارتباطها نائبها بالسلطة المركزية في القاهرة (٣).

وامتلكت طرابلس مثل بقية النيابات فروع الادارتين العسكرية والمدنية، وكان أعلى رتبة فيها النائب الذى يعين من قبل السلطة، وأول نائب فيها سيف الدين بلبان الطباخي (١٢٩٠-١٢٩١م/ ٦٨٩-٦٩٠هـ) (٤).

<u>نيابة الكرك :</u>

استولى الظاهر بيبرس على الكرك، والشوبك سنة ٦٦١هـ/١٢٦٣م، فأزال الحكم الأيوبي منهما وأسس فيها نيابة مستقلة لها وظائفها الادارية الخاصة بها .

وكانت نيابة الكرك أقل النيابات أهمية في مجرى الامور السياسية والعسكرية والفكرية والاقتصادية، فقد كانت تعيش على هامش الحياة في ذلك العصر، ولم تكن مركزا لسلطة سياسية أو عسكرية، بل كانت منفى للأمراء والسلاطين وكانت مركزا للسجون. ويرجع عدم بروز الكرك في هذه الفترة الى عدة عوامل طبيعية وسياسية وحضارية، فالطبيعة الجغرافية للمنطقة شبه الصحراوية، وعدم توفر الأنهار والينابيع لم تشجع السكان على تركيز اهتمامهم على الزراعة بل تركتهم معولا على الدولة بتأمين موارد هم عن طريق الهبات والعطايا، او عن طريق السلب والنهب.

---

(١) ابن عبدالظاهر: الروض، ص١٦١-١٦٢-١٦٣- عاشور: المرجع نفسه، ص٣٠٥ .
(٢) - القلقشندي: المصدر نفسه، ج٤، ص٢١٧- سالم: طرابلس الشام، ص٣٠٣ .
(٣) - ينظر عن الاعمال الادارية ابن شيخ الربوة: المصدر نفسه، ص٢٠٨- العمري: مسالك، ص٣٢ - القلقشندي: المصدر نفسه، ج٤، ص١٤٤-١٤٩- الظاهري: المصدر نفسه، ص٤٨ .
(٤) - القلقشندي: المصدر نفسه، ج٤، ص٢٢٤- سالم: المرجع نفسه، ص٣٠١- الزين: المرجع نفسه، ص١٤٩

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

كما أن عدم تجانس طبيعة السكان وأديانهم المختلفة أثرت عليها ، فالكرك ضمت العديد من الاجناس كالحضر الذين أكثريتهم من اليهود والمسيحيين ، والبدو الذين تألف منهم معظم سكان المنطقة ، وهناك فئة ثالثة هي المماليك المسيطرة على السلطة ، ولم تتفاعل هذه الفئات مع بعضها البعض لتكوين مجتمع اقتصادي حضاري متميز.(١)

ودفع الغزو المغولي المدمر السلطات المملوكية للاعتماد على قلعة الكرك لتخزين الاسلحة والمؤن والحواصل ، اضافة الى تخزين أموال الامراء وثرواتهم ، وأول من جعل الكرك مخزناً للغلال الظاهر بيبرس ، فقد ذكر ابن شيخ الربوة أن حصن الكرك خزانة الاتراك ومعاقلهم. وقد استخدمت أراضي الكرك أيضا كمراع لمواشي وخيول المماليك ، وشكلت عقدة مواصلات هامة بين مصر والشام ، وكانت أقرب للشام منها لمصر ، فلك أن بلاد الشام شهدت معارك ضارية على أراضيها مع المغول ، ولم تستخدم الغلال لوقت الحرب فقط بل عند حدوث المجاعات كما حدث سنة ٦٩٥هـ/١٢٩٥م .(٢)

ولم يتفق الجغرافيون حول تسمية حدود الكرك ، وذلك بسبب تعرض حدودها للمد والجزر نتيجة عوامل شامية داخلية ، وعوامل ارتبطت بالسلطنة في مصر.(٣)

وامتلكت الكرك فروع الادارة العسكرية والديوانية شأنها في ذلك شأن بقية النيابات الاخرى .(٤)

---

(١) البخيت (محمد عدنان) : مملكة الكرك في العهد الأيوبي ، الطبعة الأولى ، سنة ١٩٧٦ ، ص ١٢٣ - ١٢٤ .

(٢) - ابن عبد الظاهر : تشريف ، ص ٢٥ ١ - ابن شيخ الربوة : المصدر نفسه ، ص ٢١٣ - الذهبي : دول ، ج ٢ ، ص ٢١٣ - ابن كثير : البداية ، ج ١٣ ، ص ٢٨٨ - المقريزي : السلوك ، ج ٣ ، ق ١ ، ص ٤٠ - اغاثة الأمة بكشف الغمة / القاهرة ، مطبعة لجنة التأليف والنشر ، ١٩٥٧ م ، ص ٣٤ - البخيت : المرجع نفسه ، ص ٨٤ - ٢٦٢ - حمادة : دراسة وثقية ، ص ٣٧٩ .

(٣) - من أجل الحدود الادارية ينظر ابن شيخ الربوة : المصدر نفسه ص ٢١٣ - القلقشندي : المصدر نفسه ، ج ٤ ، ص ٢٤١ - ٢٤٢ - الظاهري ، المصدر نفسه ص ٤٣٥ - عاشور : مصر والشام ص ٣٠ - زعرور : المرجع نفسه : ص ٩٧ .

(٤) - ينظر ابن قاضي شهبة : المصدر نفسه ، ج ١ ، ق ٣ ، ص ٦٤ - العيني : عقد الجمان ج ٣ ، ص ١٠٦ - ابن تغري بردي : المنهل ، ج ٣ ، ص ٢٧ - الصيرفي : نزهة النفوس ، ج ١ ، ص ٢٢٤ - ابن اياس : بدائع ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ١٣١ - البخيت : المرجع نفسه ، ص ١٠٨ - ١٠٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

نيابة حماة :

شغلت حماة موقعا استراتيجيا هاما ، اذ تتواجد فيها ممرات عسكرية استراتيجية وجدت عبرها شبكة مواصلات قديمة وحديثة ربطت حماه مع الجبال وباتجاه طرطوس. لذلك احتلت مكانة متميزة في الصراع الذى دار في بلاد الشام . وقد أولاها كلا من الايوبيين والمماليك عناية خاصة . وكان لهذه النيابة تاريخ متميز عن بقية نيابات الشام ، ذلك أن الحكم الايوبي انقطع في بلاد الشام اثر موقعة عين جالوت ، لكنه استمر بها ، فقد أقرعليها المظفرقطز الملك المنصورى الثاني محمد بن تقي الدين محمود (٦٤٥ - ٦٨٣هـ/١٢٤٤ - ١٢٨٤م) وأضاف اليه حكم بارين ، كما أعاد اليه المعرة وأخذ سلمية منه وأعطاها لأمير العرب عيسى بن مهنا .(١) عاشت حماة في ظل البيت التقي كمملكة ، لذلك كان الملك على رأس الجهاز الادارى ، واستمرت الملكية فيها في كل المراحل ماعدا فترة الانقطاع من سنة (٦٩٨هـ - ٧١٠/١٢٩٨ - ١٣١٠م) . لكنه في سنة ٦٨٣هـ/١٢٨٤م أضاف قلاوون للمظفرمحمود لقبا آخرهو سلطان ، وعلى هذا حمل ملوك حماة رتبة سلطان ، وغدت نيابة صغرى داخل السلطنة العظمى .(٢) وأعيدت حماه الى أبي الفداء بصفته وال عليها ، ثم أصبح ملكا ، وفي آخرفترة حكمه لقب بالسلطان ، ثم تولى العرش بعده ابنه الافضل ناصر الدين محمد الذى حكم (٧٣٢ - ٧٤٢هـ/ ١٣٣١ - ١٣٤١م) حيث تم عزله فقدم الى دمشق ليعيش فيها ، وبذلك تحولت حماة الى نيابة مثلها مثل بقية النيابات ، ولم تشهد حماه بعد سقوط الحكم الايوبي أحداث متميزة ، ويبدو أنها تراجعت حضاريا وفكريا بعد أن كانت موئلا للعلماء والمفكرين وخاصة في زمن أبي الفداء.(٣)

---

(١) أبوالفداء : المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص٢٠٦ - ٢٠٧ - المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ق ٢ ، ص٤٣٢ - ٤٣٧ - ابن تغري بردي : النجوم ، ج ٧ ، ص٨٣ - سبانو : مملكة حماة ، ص٤٠ - ٤١ - ٤٣ - ٨٥ .

(٢) - ابن عبد الظاهر : تشريف ، ص٧٣ - ٧٤ - اليونيني : ذيل مرآة ، ج ٤ ، ص٢٠٢ - ٢٠٤ - أبو الفداء : المصدر نفسه ، ج ٤ ، ص١٩ - ٢٠ - النويري : المصدر نفسه ، ج ٣١ ص١٢١ - ١٢٢ - الذهبي : دول ، ج ٢ ، ص١٨٦ - ابن الوردي : المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص٣٣١ - ابن كثير : المصدر نفسه ، ج ١٣ ، ص٣٠٥ - سبانو : المرجع نفسه ، ص٩٢ - زعرور : المرجع نفسه ، ص١٠١ .

(٣) - أبوالفداء : المصدر نفسه ، ج ٤ ، ص٩٣ - ٩٤ - ١٣٦ - ابن كثير : المصدر نفسه ، ج ١٤ ، ص١٥٨ - السبكي : طبقات ، ج ٦ ، ص٨٤ - ابن خطيب الناصرية : المصدر نفسه ، ج ١ ، ورقة ٢٣٥ - سبانو : المرجع نفسه ، ص١٢٨ - ١٣١ - ١٣٢ - ١٣٥ - زكي (محمد أمين) : تاريخ الدول والامارات الكردية في العهد الاسلامي ، ١٣٦٤هـ/١٩٤٥م ، ص٢٧٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والواقع أن حدود حماه لم تتمتع بالثبات والديمومة، بل تعرضت للتغيير والتبديل بسبب الصراعات القائمة في المنطقة، فقد بقيت هذه الحدود دون تعديل حتى هجوم هولاكو على البلاد حيث أعاد المظفر قطز المنصور على بارين وحماه وأعاد اليه المعره، وبقيت هذه الحدود دون تبديل حتى زمن أبي الفداء اذ ضمت المعرة الى حلب اقطاعا للامراء الموجودين فيها، وبقيت هكذا حتى سقط الحكم الايوبي منها.(١)

وضمت حماه جميع الوظائف الادارية المملوكية الموجودة في النيابات الاخرى، لكنها افتقدت منصب نائب القلعة وهو المنصب الذي وجد في بقية النيابات. وهكذا شكلت حماة صرحا حضاريا واضحا في بلاد الشام وماثلت بقية النيابات حيث ضمت الزوايا والربط والخوانق والاسواق والحمامات.(٢)

نيابة صفد :

يعود وجود صفد كنيابة الى سنة ٦٦٥هـ/١٢٦٦م، ذلك أن اشتداد الخطر المغولي اقتضى أن تتفرغ دمشق لمواجهته، بينما تقوم صفد بمواجهة عكا الصليبية، وهكذا اقتضت الاوضاع السياسية ايجاد قوة شامية تقوم بالدفاع عن البلاد وكان قيام صفد.(٣)

وقد تمت الاشارة الى الدور السياسي الذي شغلته حتى تم تحريرها من يد الصليبيين واتخاذها مقرا لنيابة (أو مملكة) لها كيانها الذاتي وفقا للاعراف والتقاليد. وأول نائب ولي عليها هو عز الدين العلائي سنة ٦٦٤هـ/١٢٦٦م، وعلى قلعتها مجد الدين الطوري.(٤)

في البداية لم تمتلك صفد حدودا واضحة، لكنها كانت في أقصى اتساعها في العصر المملوكي، وقد منحها موقعها مكانا استراتيجيا في وسط بلاد الشام، وامتلكت من الموارد والامكانات ما مكنها لمواجهة بقايا الصليبيين في ساحل الشام.

---

(١)- للمزيد من التفاصيل ينظر- ابن شيخ الربوه : المصدر نفسه، ص٢٠٦-٢٠٧- العمري : مسالك، ص٦٦- القلقشندي : المصدر نفسه، ج٤، ص١٤١-١٤٢ - ابن شاهين الظاهري : المصدر نفسه، ص٤٨-٤٩.

(٢)- الدمشقي : الوفيات، ج١، ص٣٢٤- القلقشندي : المصدر نفسه، ج٤، ص٢٣٧-٢٣٩- ابن خطيب الناصرية : المصدر نفسه، ج١، ورقة ٩٨- العسقلاني : الدرر، ج١، ص١٧٨- ابن قاضي شهبة : الدر المنتخب، ص٢٦٨-٢٧٠- سبانو : المرجع نفسه، ص١٤٦-١٤٧.

(٣)- زكار : المرجع نفسه، ص٥٤٤- عاشور : مصر والشام ص٣٠٥.

(٤)- أبو الفداء : المصدر نفسه، ج٤، ص٣- ابن كثير : المصدر نفسه، ج١٣، ص٢٤٦- المقريزي : السلوك، ج١، ق٢، ص٥٤٥-٥٥٠- العيني : المصدر نفسه، ج١، ص٤٢١-٤٢٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وكان شيخ الصلاحية أحد الرجال الثلاثة الكبار الذين يصرفون شؤون النيابة، أما الآخران فهما نائب السلطنة وناظر الحرمين ، ونظرا لمكانة متوليها فقد كان يتقلد شيخ الصلاحية منصب قاضي القضاة في بيت المقدس، أو يجمع بين نظر الحرمين ومشيخة الصلاحية، أو بين المشيخة وخطابة المسجد الأقصى ، أو نصف الخطابة، أو بين المشيخة ونصف مشيخة الخانقاه الصلاحية ، وكان يقيم في بعض الاحيان في القاهرة وينوب عنه أحد الشيوخ المقيمين في القدس.(١)

ولقد أثناء البحث في الوضع الاداري لبلاد الشام مر التساؤل عن عدم اقدام بيبرس بعد تحريرا نطاكية على اعتبارها نيابة مع أنها تمتعت بموقع استراتيجي هام ، فهي عقدة مواصلات تجارية وبرية هامة، كما أنها شغلت دورا سياسيا هاما في المنطقة ، بينما اعتبرت طرابلس نيابة ؟ .

لا بد من القول أنه طالما كانت حلب تشكل الجبهة الشمالية لبلاد الشام ، وتتولى مهمة الدفاع ضد الخطر المغولي ، وضد أرمينية الصغرى فلا داعي لجعل انطاكية نيابة . أما طرابلس فقد كانت في السابق امارة صليبية وأبقاها قلاوون نيابة حيث وجدت معطيات دفعته لذلك وهو موقعها الجغرافي ، والبحر يحيط بها من جهة الغرب ، وجبال لبنان تحيط بها من بقية الجهات ، اضافة الى دورها السياسي والازدهار الحضاري الذي حظيت به على مختلف العصور ، وهذه العوامل مجتمعة أدت الى اعتبار طرابلس نيابة.

ولوحظ في فترة البحث أن بعض المؤرخين أكثروا من ذكر ملطية ، ولكنهم لم يعتبروها نيابة مستقلة ، وانما تابعة لنيابة حلب ، وقد مر ذكرها في الحوادث التاريخية حيث عصى نائبها منطاش سنة ٧٦١هـ/١٣٨٨م.(٢)

وفي النهاية نستطيع القول بالرغم من أن الهيكل الاداري لهذه النيابات شهد اختلاف بعضها، فانها شكلت جسدا سياسيا واجتماعيا وعسكريا واحدا وهذا ما أظهرته حوادث التاريخ .

---

(١) - المقريزي : السلوك ، ج ٤ ، ق ١ ، ص ٤٤٠ - ٤٨٣ - العليمي : المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٢٩٨ - ٢٨٣ - زكار : المرجع نفسه ص ٥٨٧ - غوانمه : المرجع نفسه ، ص ٣٧ .
(٢) - ابن تغري بردي : المنهل ، ج ٢ ، ص ٢١٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصل الأول

آثار الحملات العسكرية المغولية على المدن .

١- الهجرة :

آ- النزوح من المدن الى المدن .

ب- الهجرة من بلاد الشام الى مصر .

جـ- الهجرة المغولية الى بلاد الشام .

د- العناصر الوافدة على المدن .

٢- انعدام الاستقرار الاجتماعي :

آ- قتل السكان وتعذيبهم .

ب- نهب السكان .

جـ- تعذيب السكان .

د- الاسر .

ز- التنظيمات والحركات الشعبية .

هـ- الاستباحة الاخلاقية :

١- البغاء

٢- اللواطة

٣- حب الغلمان

و- انتشار ظاهرة الحشيشة .

٣- الاثر على الناحية الدينية :

١- على المسلمين .

٢- على اهل الذمة .

٣- الزهد والتصوف .

آ- نشأة الزهد وتطوره .

ب- قيام الأربطة والزوايا ودورها والحياة داخلها .

جـ- طرق التصوف والآثار الناجمة عن انتشارها

د- كثرة المساجد والمدارس والزوايا .

٤- ادعاء الكرامات وظهور البدع .

٥- هدم المنشآت الدينية .

- ٧٤-٧٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بقولهم ((وكأن القيامة قامت)) بينما نزح قسم آخر باتجاه البراري والحصون فهلك بعضهم بسبب البرد القارس لأن الوقت كان شتاء. (١)

وفي سنة ٦٥٩ هـ/ ١٢٦٠ م احتضنت دمشق النازحين من الشمال ومن حلب، حيث قدم هؤلاء بعد هجوم المغول على مدينتهم، ونزلوا على حماه، فانضم بعض سكانها اليهم، وتوجهوا جميعا نحو دمشق. (٢)

وقد خلت السلطات في بعض الأحيان وأخلت المدن من السكان كما حدث سنة ٦٦٠ هـ/ ١٢٦١ م، فقد أصدر الظاهر بيبرس مرسوما باخلاء مدينة دمشق من سكانها لما علم باقتراب المغول، ولا ندري ما غايته من ذلك؟ هل الخوف من الغزاة؟ أم خطة حربية وضعها الظاهر وقصد من ورائها جعل دمشق مسرحا للصراع العسكري المملوكي المغولي عند خلوها من السكان بالاضافة الى التخفيف من خوف أهل المدينة وتبيان المتآمرين مع العدو؟ وقد ذكرت المصادر بأنه رحل قسم كبير منهم الى مصر، حيث أمر الظاهر بحراستهم من ولاية الى ولاية حتى باب القاهرة، كما أمر أن لا يؤخذ منهم خفارة، ولا زكاة، ولا يتعرض أحد الى ما معهم من أمتعة وقماش، ولا يفتشون، وقد وصلوا الى القاهرة سالمين. (٣)

ان اخلاء مدينة كدمشق من أهلها أمر صعب التحقيق لأن عدد سكانها كبير جدا، ناهيك عن وجود عدد كبير من النازحين فيها، وليس من المعقول أن تستوعبهم أية مدينة مرواجها. وربما أمر الظاهر باخلاء أصحاب الاموال والاعيان والعلماء وأصحاب المهن لاحتياج مصر لأموالهم وعلمهم وخبرتهم، ولا أظن أن النزوح شمل الفقراء المعدمين.

ومن الجدير بالذكر أنه كان كلما ترامى الى مسامع أهل المدن وأهل الثروات والأعيان وأكابر التجار قدوم المغول كانوا ينزحون عنها خوفا من نهب وسلب أموالهم، والبطش بهم، ولذلك نادرا ما شاركت هذه الفئة في القتال ضد العدو، واذا ما حصل فانه بتحريض من الهيئات الدينية أو بضغط من رجال السلطة. وبدأ النزوح من دمشق سنة ٦٦٩ هـ - ٦٧٠ هـ/ ١٢٧٠ - ١٢٧١ م لما أغار العدو على حارم والروج، وكان لهذه التحركات انعكاسات اقتصادية سلبية

---

(١) ابن العميد: اخبار الايوبيين، ص ٥ - ابوشامة: تراجم، ص ٢٠٣ - أبوالفداء: المختصر، ج ٣، ص ٢٠ - المقريزي: السلوك، ج ١، ق ٢، ص ٤٢٣.

(٢) - أبوشامة: تراجم، ص ٢١١ - اليونيني: ذيل مرآة، ج ٢، ص ٩٨ - أبوالفداء: المختصر، ج ٣، ص ٢٠٩ - ٢١٠.

(٣) - ابوشامة: تراجم، ص ٢١٩ - ابن عبد الظاهر: الروض، ص ١٣٦ - اليونيني: ذيل مرآة، ج ١، ص ٤٨٧ - ٤٨٨ - النويري: المصدر نفسه، ج ٣٠، ص ٦٣ - ابن كثير: البداية، ج ١٣، ص ٢٣٥ - المقريزي: السلوك، ج ١، ق ٢، ص ٤٧٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

على المدن ، فقد نتج عنها ارتفاع في الأسعار ، حيث بلغت قيمة الجمل ألف درهم ، واجرته الى مصر مائتي درهم.(١)

وأثناء ورود خبر وصول المغول الى أطراف حلب سنة ٦٧٨هـ/١٢٧٩م خرج جل سكانها مع مجموعة من جندها باتجاه حمص وحماه ، وتركوا الغلال والأمتعة ، الا أن هذه التحركات لم تستمر طويلا ، فبمجرد رحيل المغول عن المنطقة يرجع من نزح ويمارس أعماله اليومية ، وفي بعض الأحيان كان للسلطة دور في اعادة النازحين الى مدنهم لممارسة ما كانوا يقومون به الا من فضل البقاء من السكان بعيدا عن مدينته ، وكان أكثرهؤلاء أصحاب المهن كالعلماء أوالشيوخ الذين تتاح لهم فرص في مدن غيرمدينتهم ، وطبيعي أن يتمتع هؤلاء بحياة أفضل اذا ما فظوا الاستقرار.

وتبرز مسألة هامة لابد من اثارة الاسئلة حولها وهي لماذا لم تحصن السلطات المملوكية المدن بتحصينات دفاعية قوية تجعلها قادرة على صد أي هجوم مغولي ؟ هل كانت الدولة تعاني من نقص في الخزينة المالية ، أم كانت هنالك أسباب أخرى منعتها من القيام بذلك ؟ لا أدري ما هي الصعوبات التي جعلت السلطات المملوكية تقف عاجزة عن الحد من نزوح سكان المدن عندما كان يترامى الى مسامعها نبأ قدوم المغول ، واذا كانت الأسباب الاقتصادية هي المانع من أين أمنت لهؤلاء الطعام وأمكنة الاقامة؟ على كل ان السؤال يشكل النصف الأساسي من العلم.

وفي سنة ٦٧٨ - ٦٧٩هـ/١٢٧٩ - ١٢٨٠م وصل الى دمشق وبعلبك عدد كبير من النازحين من مختلف مدن الشام من حلب وما والاها من حمص وحماه والمناطق الشمالية خوفا من المغول الذين نزلوا على الدربساك(٢) وعين تاب وبغراس(٣) ، ولم يبق بالمدن الا من عجز عن السفر ، فخلت حلب من سكانها حيث التحقوا بحماه وحمص ، وعزم كثير من أهل دمشق والبلاد الشامية على التوجه الى الديار المصرية ليقينهم بأن الأمير سنقر الأشقر سينضم الى المغول ، وبالتالي

(١) - ابن عبد الظاهر : الروض ، ص٣٦٩ - ابوالفداء : المصدر نفسه ، ج ٤ ، ص٨ - النويري : نهاية الأرب ، ج ٣٠ ، ص١٨٧ - ابن كثير : المصدر نفسه ، ج ١٣ ، ص٢٦١ .

(٢) - الدربساك : منطقة ذات قلعة مرتفعة ، لها أعين وساتين ، من شرقيها مروج متسعة حسنة كثيرة العشب ، يمر فيها النهر الاسود وهي عن بغراس في الشمال بميلة الى الشرق وبينهما نحو عشرة أميال . ينظر عماد الدين اسماعيل : تقويم البلدان ، ص٢٦١ .

(٣) - بغراس : وهي ذات قلعة حصينة وهي في الجبل المطل على عمق حارم ، وحارم من جهة الشرق ، وبغراس من جهة الجنوب عن دربساك ، وبينهما بعض مرحلة ، أبوالفداء : تقويم ، ص٢٥٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ستتحول المنطقة الى جحيم.(١) وتدل عمليات الاخلاء السريعة للمدن على مساعدة السلطات للأهالي في عملية النزوح .

لم تذكر المصادر أحوال هؤلاء النازحين في المدن التي قدموا اليها ، عن كسائهم ، ومساكنهم ، وغذائهم ، ولكن يمكن القول بأن السلطات ربما قدمت لهم بعض المساعدات وأمنت لهم سبل العيش خوفا من حصول المجاعات والأوبئة وانعكاسات أخرى على المجتمع ككل .

وقد كانت الاماكن الدينية مأوى للنازحين عند قدوم الغزاة وذلك لأنها لم تكن لتجد بسهولة مأوى آخر ، أو بغية التقرب من الله سبحانه وتعالى والدعاء له ، أو نتيجة للأمان الذى تمتعت به الأماكن الدينية في بعض الأحيان . ففي سنة ٦٨٠هـ/ ١٢٨١م وعندما علم سكان الشام بقدوم أبغا بن هولاكو الى الرحبة خاف السكان واضطربوا ، وتحركوا باتجاهات مختلفة ، فنزح أهل حلب وجندها الى حماه وحمص ، وتركوا أمتعتهم وحواصلهم وغلالهم ، وممن نزح في هذه المرة الأدباء والعلماء وأصحاب الحرف والقضاة كتاج الدين أبو زكريا يحيى بن عفيف الكردي (٦٨٠هـ/ ١٢٨١م) ، بينما التجأ سكان دمشق الى الجوامع بما في ذلك الشيوخ والأطفال وأخرجوا المصحف العثماني وغيره على الرؤوس ، وخرج الخطباء والقراء والمؤذنون الى المصلى ظاهر دمشق يسألون الله الظفر والنصر . ولما انتصر المسلمون على المغول في معركة وادي الخازندار عاد من نزح عن بلاده وأوطانه واستقر فيها .(٢)

وخلت بعض البقاع في بلاد الشام من سكانها نهائيا نتيجة للأعمال الحربية ، اذ هجرها سكانها ريثما تميل الاحوال الى الاستقرار والهدوء ، وهذا ماحصل في وادي التيم ، فقد هجره أهله والتجأوا الى جبل لبنان ينشدون الأمان والاستقرار ، ولم يعد فيه بلد عامر سوى حاصبيا .(٣) وأخلى الغزاة المغول بعض المدن من سكانها بالقوة ، وهذا ماحصل لسكان (رصافة الرقة) فقد قام المغول سنة ٦٨٨هـ/ ١٢٨٩م باخلاء أهلها عنها ، فسكنوا حماة وسلمية ولم يبق بها أحد .(٤) وأجبرت التهديدات المغولية السكان على النزوح باتجاه دمشق ، وهذا ماحصل سنة ٦٩٦هـ/ ١٢٩٦م كذلك سنة ٦٩٨هـ/ ١٢٩٨م ، ولما ان وصلوا اليها حتى وجدوا أهلها مستعدين للفرار

(١) - ابن عبدالظاهر : تشريف الأيام ، ص ٧٦ - المنصوري : التحفة ، ص ٩٥ - ابن كثير : البداية ، ج ١٣ ، ص ٢٩١ - ٢٩٢ - ابن خلدون : العبر ، ج ٥ ، ق ٤ ، ص ٨٥٥ - ابن الفرات : تاريخ ، ج ٧ ، ص ١٨٦ - المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ق ٣ ، ص ٦٨٢ - العيني : عقد الجمان ، ج ٢ ، ص ٢٥٤ . ابن تغري بردي : النجوم ، ج ٧ ، ص ٢٩٨ .

(٢) - ابن كثير : البداية ، ج ١٣ ، ص ٢٩٤ - ٢٩٥ - ابن حبيب : تذكرة النبيه ، ج ١ ، ص ٦٤ - ابن الفرات : المصدر نفسه ، ج ٧ ، ص ٢١٣ - ٢١٤ - المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ق ٣ ، ص ٦٩١ - ابن تغري بردي : النجوم ، ج ٧ ، ص ٣٠٢ - ٣٠٥ .

(٣) - كرد علي : خطط ، ج ٢ ، ص ١٢١ .

(٤) - ابن الشحنة : الدر ، ص ١٦١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

معهم، لكن اعضاء السلطة تدخلوا واصدروا أمرا مفاده أن من خرج منهم فهم في حل من ماله ودمه، فتوقف أهل دمشق عن الهجرة.(١)

وانعكست هذه التحركات السكانية بشكل سلبي على المجتمع العربي الاسلامي، فعلى الصعيد العائلي حصل تفكك أسري، فالعائلة الواحدة تفرقت في عدة أماكن وربما التقى أفرادها فيما بعد، وربما لم يلتقوا. ففي سنة ٦٩٩هـ/١٢٩٩م وردت الى دمشق قفول كثيرة من النازحين من حلب وحماه هاربين من المغول، ولما استوطن هؤلاء دمشق أخذ أهلها بالنزوح منها الى القرى المجاورة، والى القلعة، وآخرون توجهوا نحو القدس والخليل، ومنهم من نزح باتجاه قلعة صفد وعمت الفوضى وأصبح الناس كأنهم يساقون الى المحشر، فلا يلتفت الأخ الى أخيه، ولا الأب الى ابنه، ولا المملوك الى سيده.(٢)

وعند سماع أهل بلاد الشام بتوجه غازان للمنطقة سنة ٧٠٠هـ/١٣٠٠م تفرقوا في السواحل، وقصدوا الحصون وتشتت أغلبهم من الفرات الى غزة، وتجمعت قوافل النازحين من حلب وغيرها في دمشق، وعندما أرادت السلطة اخلاء المدينة خوفا من غازان مر والي دمشق في الأسواق، وأخذ يصيح الى متى قعودكم، من استطاع السفر فليسافر، وأغلق البلد أمام النازحين من المناطق الاخرى، وازدحم الناس بالقلعة، واقتسموا طرقها بالشبر، وسافر القوي وبقي الضعيف الذي عجز عن الحركة، وسافر أعيان البلد، وخرج الكثير من الناس خفافا وثقالا بأهليهم وأولادهم، وجعلوا يحملون الصغار في الوحل الشديد، وقد خرج الكثير منهم على دواب ضعفت من قلة المعلف مع كثرة الامطار والبرد الشديد والجوع.(٣)

وكان أهل دمشق آخر سكان بلاد الشام الذين تركوا مدينتهم ونزحوا الى المناطق المجاورة، ففي سنة ٧٠٢هـ/١٣٠٢م ترك بعض أهل دمشق المدينة ولجؤوا الى الجبال المجاورة بسبب قدوم النازحين من حلب وحماه وحمص هاربين من الغزاة بعد أن سمعوا بعبورهم للفرات، والذين ظلوا في المدينة لجؤوا الى القلعة وظلوا فيها حتى انتهت وقعة شقحب في هذه السنة،

---

(١) - اليافعي: مرآة الجنان، ج ٤، ص ٢٣١-٢٣٢ - ابن تغري بردي: النجوم، ج ٨، ص ١٥٧.

(٢) - المنصوري: التحفة، ص ١٥٧ - الذهبي: العبر، ج ٥، ص ٣٩١ - ابن كثير: المصدر نفسه، ج ١٤، ص ٦ - المقريزي: المصدر نفسه، ج ١، ق ٣، ص ٨٨٥ - العيني: المصدر نفسه، ج ٤، ص ٨ - ٢٥ - عاشور: المرجع نفسه، ص ١٤٦ - شهاب: الدولة الايلخانية، ص ١٦٥ - فهمي: المرجع نفسه، ص ٢٠٢ -

(٣) - المنصوري: المصدر نفسه، ص ١٦٠ - ابن ايبك الدواداري: الدر الفاخر، ص ٤٧ - الذهبي: دول ج ٢، ص ٢٠٥ - العبر، ج ٥، ص ٤٠٩ - اليافعي: المصدر نفسه، ج ٤، ص ٢٣٤ - ابن كثير: المصدر نفسه، ج ١٤، ص ١٥ - المقريزي: المصدر نفسه، ج ١، ق ٣، ص ٩٠٩ - ابن تغري بردي: النجوم ج ٨، ص ١٣١ - ١٣٢ - عاشور: المرجع نفسه، ص ١٦٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المغول الى حمص وتيقن أهل دمشق من ذلك رحلوا عنها . (١)

لقد ضمت هذه التحركات بين جناحيها التجار العابرين والحجاج ، والأساتذة والشيوخ الذين تمتعوا بوسائل العيش والاصدقاء والاتصالات ، كما اكتظت المدن نتيجة هذه الهجرات بأعداد هائلة من المتسولين والصوفية والمعوزين ، وسكن المرضى والعجزة المعوقون في الشوارع والمساجد ، فأدت هجرة الشيوخ والأساتذة الى خسارة المدن للعلم والى تأخر التقدم الثقافي والحضاري . (٢)

وقد نال بعض النازحين مكانة اجتماعية مرموقة في المنطقة التي نزحوا اليها ، اضافة الى انفتاح فرص العمل أمامهم ، فأدت هذه العوامل الى استقرار بعضهم في المناطق التي نزحوا اليها ، ونذكر منهم على سبيل المثال طيبغا واسمه الشريفي عتيق الشريف شهاب الدين نقيب الأشراف بحلب ، هاجر الى دمشق أثناء وقعة تيمورلنك ، وأقام بها وحدث ، وعلم الخط الى أن توفي سنة ٧١٥هـ/١٣١٥م ، كذلك اسحق بن أبي بكر بن ابراهيم بن النحاس من حلب ولد سنة ثلاث أو أربع وأربعين وستمائة ، رحل الى دمشق لما استولى المغول على حلب ، وعمل عدة أعمال منها أنه أقام فقيها بالمدارس بصحن من الزاوية ، كما أنه رتب سمعا بدار الحديث الأشرفية بعد ابن مشرف ، توفي سنة ٧١٠هـ . (٣)

غير أن بعضهم الآخر عاد الى منطقته الاساسية واستقر بها منهم اسماعيل بن علي ابن محمد أبو الخير البقاعي الدمشقي كان يشتغل بالعلم ، وله نظم حسن ، فر من تيمور سنة ٨٠٣هـ/١٤٠٠م الى طرابلس وأقام بها حتى سنة ٨٠٥هـ/١٤٠٢م ثم عاد الى دمشق وظل بها حتى توفي سنة سبع وثمانمائة ، اضافة الى محمد بن محمد بن علم الدين العيني القفصي الذي نزح الى قرى جبل سمعان ، ولما رحل المغول عن بلاد الشام عاد الى ولايته في حلب ، توفي سنة ٨٠٥هـ/١٤٠٢م وغيره كثير لا سبيل لذكرهم كلهم . (٤)

---

(١) - المقريزي : السلوك ، ج ٣ ، ق ٣ ، ص ١٠٣١ - ١٠٣٤ - ١٠٣٦ - ١٠٣٨ - العسقلاني : انباء ، ج ٤ ، ص ١٩٢ - ابن تغري بردي : النجوم ، ج ١٢ ، ص ٢٢٧ - ٢٣٨ - ابن اياس : بدائع ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٢٢٧ - ٢٣٨ - لامب (هارولد) : تيمورلنك ، بيروت ، المطبعة الوطنية ، الطبعة الاولى ، ١٣٩٤ ، ص ١٢٢ - ١٢٤ - كرد علي : خطط ، ج ٢ ، ص ١٧٠ - العلبي : تيمور ، ص ١٢٥ .

(٢) - العسقلاني : انباء ، ج ٥ ، ص ١٦٥ - السخاوي : الضوء اللامع ، ج ٢ ، ص ٣٠٣ - ج ٤ ، ص ١٣ - لابيدوس : مدن ، ص ١٤١ .

(٣) - ابن خطيب الناصرية : الدر ، ج ١ ، ورقة ٢٢٤ - السخاوي : الضوء ، ج ٤ ، ص ١٣ .

(٤) - ابن شداد : تاريخ الظاهر ، ص ٤٢ - ابن خطيب الناصرية : الدر ، ج ٢ ، ورقة ٢٢٢ - العسقلاني : انباء ، ج ٥ ، ص ١٢٢ - السخاوي : الضوء ، ج ٢ ، ص ٣٠٣ - ج ١ ، ص ١٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

صفوة القول ان المناطق الجنوبية والشمالية تعرضت أكثر من مناطق الشام الاخرى للاجتياحات العسكرية المغولية ، وقد تركزت الهجمات على حلب ودمشق باعتبارهما المدن الهامة في المنطقة . أما بالنسبة للكرك والشوبك فلم تتعرض لهذه الحملات ولم يتأثر سكانها بشيء من التحركات السكانية .

وقد نعمت القدس في هذه الفترة بشيء من الازدهار والاستقرار حيث وردت اليها أعداد من المهاجرين من العراق والبلاد الشرقية الذين تركوا بلادهم أمام الضغط المغولي ، وانتقلوا الى حماه وحلب ودمشق والقدس. مما أدى الى زيادة في عدد سكانها وصل الى ٤٠,٠٠٠ نسمة لكن غزوة تيمورلنك خلخلت الديمغرافية السكانية ، فقد أخذت الديمغرافية تتدنى وقد ذكر بعض المؤرخين في ذلك أن القدس اذا اقيمت الصلاة فيها لا يصلي خلف الامام سوى رجلين .(١)

والجدير بالذكر أن هذه التحركات نجم عنها آثار متعددة على الصعد الاجتماعية والاقتصادية ، والسياسية، فعلى الصعيد الاجتماعي أدت الى التفكك الاسري ، فقد ساهمت الفوضى التي رافقت عمليات النزوح أحيانا الى توزع العائلة الواحدة في عدة أماكن ، اضافة الى انتشار المجاعات والاوبئة ، وازدياد اللجوء الى الزوايا والاربطة باعتبارها تقدم العيش الضروري لهم ، مما أدى فيما بعد الى كثرة العاطلين عن العمل في هذه الزوايا ، وقيامهم بأعمال السلب والنهب واللصوصية وغيرها من الاعمال الاخرى .

وعلى الصعيد السياسي أدت هذه التحركات الى ازالة مدن بكاملها كرصافة الرقة . وعلى الصعيد الاقتصادي أدت الى ركود في النواحي الاقتصادية ، حيث كان السكان على يقين بأن ثرواتهم ستصادر من قبل الغزاة ، لذلك ربما حجموا عن اقتناء النفائس وفضلوا الابقاء على الثروات المالية لسهولة نقلها عند نزوحهم . كما سببت هذه التحركات ارتفاعا في أسعار المواد الغذائية الضرورية ، وأسعار وسائل النقل ، ونزوح المهرة من الحرفيين مما ادى الى انخفاض جودة المصنوعات .

(١) - المقريزي : السلوك ، ج ٤ ، ق ١ ، ص ٢٢٥ - غوانمة : بيت المقدس ، ص ١١٧ - ١١٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ب - الهجرة من بلاد الشام الى مصر :

- أضحت دمشق مركزا لتجمع النازحين من مختلف الجهات الشمالية، حلب، حمص، حماء، أو الشرقية كالجزيرة ومدنها كالرها وماردين وعينتاب وحران . وكان أكثر هؤلاء النازحين يسيرون منها باتجاه مصر بعد أن يأخذوا قسطا من الراحة.

وقد ارتبطت الهجرة الى مصر بعوامل عسكرية وسياسية، فكلما سمع سكان المنطقة بقدوم حملة عسكرية مغولية كانت قوافل المهاجرين تعبر الى مصر خوفا على حياتهم وأموالهم وكانت هذه الهجرات تتم بشكل فردي أو جماعي .

كانت الموجة الأولى الكبيرة من المهاجرين من بلاد الشام لمصر اثر دخول هولاكو لبلاد الشام، فقد هاجر قسم من سكان دمشق خوفا من سطوة هولاكو بعد ما ترامى الى سامعهم ما فعله بالعراق وقد عانى هؤلاء المهاجرين كثيرا من مشقات الطريق اذ كان الزمن شتاء، فمات كثير منهم، اضافة الى تعرض الكثيرين للنهب. (١)

كما استقبلت مصر مهاجرين جدد اثر موقعة عين جالوت سنة ٦٥٨هـ/١٢٥٩م ذلك أن المهاجرين كانوا من عامة الناس، كما كانوا من الأمراء. (٢)

وعند سماع أهالي دمشق سنة ٦٧٩هـ/١٢٨٠م بمهاجمة المغول لحلب وقتل سكانها تتابعت قوافل المهاجرين لمصر من جديد. (٣)

ولكن لماذا كان سكان بلاد الشام يهاجرون باتجاه مصر كلما علموا بقدوم المغول الى بلاد الشام أو عند مهاجمتهم أي مدينة ؟ .

من الطبيعي أن يكون لأعمال المغول الارهابية سبب هام في هجرة هؤلاء السكان، فهذه الاعمال كانت تلقي الخوف في النفوس، وكانت تتمثل بالقتل والسلب والنهب والاستباحة الأخلاقية، والمعروف عن المغول أنهم لم يرحموا أي شعب هاجموا بلاده. فخططهم كانت تهدف اما الى الدخول للمدن مباشرة بعد معارك عسكرية بينهم وبين السكان، أو عن طريق منح سكان المدن الأمان لتسهيل دخولهم.

---

(١) - الذهبي : دول، ج٢، ص١٦١ - المقريزي : السلوك، ج١، ق٢، ص٤١٦ - العيني : عقد الجمان، ج١، ص٢١٧ .

(٢) - ابن عبد الظاهر : الروض، ص٧٩ - اليونيني : ذيل مرآة، ج١، ص٣٤٩ .

(٣) - اليونيني : ذيل مرآة، ج٤، ص٤٥ - ابن كثير : البداية، ج١٣، ص٢٩٢ - ابن خلدون : العبر، ج٥، ص٨٥٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ساد بلاد الشام استقرار نسبي بعد ذلك حتى قدوم غازان الى المنطقة سنة ٦٩٨-٦٩٩هـ/ ١٢٩٨-١٢٩٩م ، فبقدومه شعر السكان بالخوف وتوجه الكثير من اهل دمشق الى مصر ومعهم التركمان والعرب والعجم، ومن كافة مدن الشام كحلب وحمص والساحل وكان المهاجرون من أجناس مختلفة. (١)

وبينما كان أهل الشام يضمدون جراحهم ويلمون شتاتهم اذ بالاخبار ترد بأن غازان عازم على التوجه لدمشق ، فشرع سكان دمشق بالهرب الى مصر والشوبك والكرك ليقينهم بتوجه غازان اليهم حين تحين الفرصة له ، لكن المشايخ ومنهم تقي الدين بن تيمية تدخلوا لتهدئة النفوس وحث الأهالي على الجهاد ، لكن هذا لم يمنع اهل دمشق من الرحيل باتجاه مصر فانتشروا في البراري والقفار ، كما نزح الكثير من العلماء والمفكرين أمثال رشيد الدين اسماعيل بن عثمان القرشي الدمشقي وغيره .

لكن غازان أخر قدومه لدمشق بسبب الظروف الجوية السيئة ، وبسبب قلة المؤن ، فنجى الله أهل الشام من كارثة محققة. (٢)

بعدها استقرت الامور نسبيا في المنطقة حتى قدوم الغازي تيمورلنك ومهاجمته للمناطق الشمالية فهاجر قسم من الأهالي الخائفين باتجاه مصر ، وتعرض هؤلاء لغارات الاعراب في الطريق . وممن هاجر من العلماء في هذه الوقعة كمال الدين عمر بن العديم حيث كان معتقلا بقلعة حلب ، فلما افرج عنه تيمورلنك خرج الى أريحا ثم الى مصر وتولى هناك عدة مناصب وعلي بن محمد بن عباس البعلي الدمشقي المعروف بابن اللحام ، وأحمد بن محمد بن قماقم الدمشقي الفقاعي شهاب الدين كان أبوه فقاعيا فاشتغل هو بالعلم ، وابراهيم بن محمد بن بهادر ابن احمد القرشي الغزي . الذي ولد سنة ٧٤٥هـ/ ١٣٤٤م وسكن على شاطىء النيل (ت ٨١٠هـ). (٣)

أما الفئات التي هاجرت الى مصر فيمكن تقسيمها لاربع فئات رئيسية :

---

(١) - المقريزي : المقفى ، ج ٧ ، ص ٤٧١ - العيني : عقد الجمان ، ج ٤ ، ص ٢٧ - ابن تغري بردي : النجوم ج ٨ ، ص ١٢٣ .

(٢) - ابن ايبك الدواداري : المصدر نفسه ، ص ٥٤ - أبو الفداء : المختصر ، ج ٤ ، ص ٤٤ - الذهبي : ذيول العبر ، ص ٧٧ - الصفدي : الوافي ، ج ٤ ، ص ٣٥ - اليافعي : مرآة ، ج ٤ ، ص ٢٥٣ - ابن كثير المصدر نفسه ، ج ١٤ ، ص ١٤ - المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ق ٣ ، ص ٩٠٨ - ٩٠٩ - المقفى ، ج ٢ ، ص ٢٣ - دهمان : ولاة ، ص ١١٥-١١٦ .

(٣) - ابن خطيب الناصرية : الدر ، ج ٢ ، ورقة ١٠٤ - المقريزي : السلوك ، ج ٣ ، ق ٤ ، ص ١٠٣٦ - العسقلاني : انباء ، ج ٤ ، ص ٣٠١ - ج ٦ ، ص ٢٠ - السخاوي : الضوء ، ج ١ ، ص ٣٠١ - ابن اياس : بدائع ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٦١٨ - الحلبي : تيمورلنك ، ص ١٥٦ - شهاب : تيمورلنك ، ص ٣٢٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

آ- فئة الفقراء وعامة الشعب .

ب- فئة العلماء . وقد ضمت كتب التراجم والسير أسماء الكثيرمن العلماء والادباء والمفكرين الذين هاجروا الى مصر والذين قضى بعضهم نحبه في تلك الديار ولنذكر على سبيل المثال أسماء بعض من الجم الكثير الذي أورده المؤرخون :

- عبد الرحيم بن عبد الرحيم (ت ٦٧٠هـ/ ١٢٧١م) تولى نظر الجامع بحلب سنة ٦٤٩هـ/ ١٢٥١م ، وكذلك البيمارستان واستمرالى سنة أربع وخمسين ، وفوض اليه نظرالخزانة للصحبة بدمشق ، ومازال بها ناظرا الى أن خرج من دمشق ناجعا الى الديار المصرية .

- الصدر علاء الدين أبوالحسن بن الشيخ منتجب الدين محمد بن نصرالله الحلبي (ت ٦٧٤هـ/ ١٢٧٥م) هاجرالى مصروسكنها وأقام بها الى سنة ٦٦٣هـ/ ١٢٦٤م فطلبه المنصورصاحب حماه فتوجه اليه واستوزره .

- محمد بن غالب بن محمد بن مري نصيرالدين أبو عبد الله الانصاري كاتب الحكم بدمشق توفي بالديار المصرية .

- الشيخ أبو حامد الحسن بن عماد الدين علي بن الحافظ بهاء الدين القاسم بن الحافظ خرج من دمشق أيام الجفلة الى مصر ولما أراد العودة مات في الشوبك (ت ٦٥٨هـ/ ١٢٥٩م) .

- نجم الدين البعلبكي (ت ٧٣١هـ/ ١٢٣٠م) توفي بالمدرسة الصارمية ، كتب ونسخ وحصل الكتب وقرأ على الشيوخ وتوجه الى القاهرة مهاجرا سنة ٧٠٢هـ/ ١٣٠٢م .

- مروان بن نيروز بن حسن حيث كان ولي مشيخة دار الحديث الاشرفية بدمشق ، خرج الى حلب وأقام بها حتى وقعة المغول ضد مصرفوصلها ، واستشهده قاضي قضاتها تاج الدين عبد الوهاب ابن خلف المعروف بابن بنت الأعز ، ورتبه بالشارع وفوض اليه عقود الأنكحة ، ولم يزل قاضيا الى أن (ت سنة ٦٧٥هـ/ ١٢٧٦م) وانتقل معهم الى مصر وكيل بيت المال محمد ابن الحسين بن زريق بن عيسى حيث توفي بالقاهرة سنة ٦٨٠هـ/ ١٢٨١م . (١)

---

(١) - ابوشامة : تراجم ، ص ٢٥٩ - ابن شداد : تاريخ ، ص ٤٢ - ٤٤ - ٤٦ - ١٨١ - ٢١٨ - الصفدي : الوافي ج ٤ ، ص ٣١٢ - السبكي : طبقات ، ج ١ ، ص ٣٢٧ - ابن خطيب الناصرية : الدر ، ج ٢ ، ورقة ٢٣٢ - النعيمي : الدارس ، ج ١ ، ص ٣٢٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وفي أثناء غزوة غازان هاجر الى مصر جماعة من أعيان دمشق كالقاضي امام الدين الشافعي ، وتاج الدين الشيرازي ، وعلم الدين الصوفي وغيره حتى بقيت دمشق شاغرة ليس فيها حاكم ولا رادع سوى نائب القلعة أرجواش.(١)

جـ - فئة الملوك والامراء والاعيان وأهلهم وحاشيتهم . اذ كان الامراء يبعثون بنسائهم وأموالهم وأولادهم الى مصر عند اقتراب الخطر المغولي منهم وهذا ما حصل سنة ٦٥٧هـ/١٢٥٨م.(٢) ووصل الى مصر أهل الملك الناصر وأهل اخيه الملك الظاهر فاحسن استقبالهم الظاهر بيبرس وأمدهم ببعض النفقات والاقامات .(٣)

د - فئة الجند والقادة الذين انهزموا في المعارك أمام المغول وهذا ما حصل عندما أخفق الجنود المسلمون في صد تيمورلنك من الاستيلاء على دمشق .(٤)

لقد سلك المهاجرون أثناء رحيلهم الى مصر طريقين ، بري ، وبحري . واذا كانت المصادر قد أوردت بأن المهاجرين الذين سلكوا الطريق البري تعرضوا لمتاعب ومشقات جمة منها غارات البدو عليهم في الطريق باعتبارهم سلكوا طرقا جبلية كثيرة وخاصة في فلسطين وهي التي استوطن بها البدو ، كما تعرضوا لظروف مناخية صعبة . فان المصادر لم تورد أية معلومات عن المهاجرين الى مصر بحرا . فاثر هجوم هولاكو على بلاد الشام رحل كثير من السكان باتجاه مصر ، وقد عانى هؤلاء المهاجرون عن طريق البر مشقات الطريق اذ مات كثير منهم بسبب الشتاء القاسي وتعرض كثيرون منهم للنهب .(٥)

وعانى المهاجرون أثناء غزوة غازان من ارتفاع أجور النقل والاسعار ، فقد بلغت اجرة كراء المحارة الى مصر خمسمائة درهم ، واجرة الخطار خمسمائة درهم ، وثمن الجمل ألف ، واضطر هؤلاء لبيع امتعتهم وحوائجهم بأرخص الاثمان .(٦)

وتعرض الذين هاجروا برا الى مصر أثناء هجوم تيمورلنك على بلاد الشام لمهاجمة البدو ،

---

(١) - ابن خطيب الناصرية : الدر ، ج ٢ ورقة ١٢٤ - العيني : عقد الجمان ، ج ٤ ، ص٢٣-٢٤ - دهمان : ولاة ، ص٩١ .
(٢) - ابن العميد : أخبار الايوبيين ، ص٤٩ .
(٣) - ابن عبد الظاهر : الروض ، ص ٧٩ .
(٤) - ابن تغري بردي : النجوم ، ج ١٢ ، ص٢٣٦ .
(٥) - المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ق ٢ ، ص٤١٦ .
(٦) - الصفدي : الوافي ، ج ٤ ، ص٣٥٨ - ابن كثير : البداية ، ج ١٤ ، ص٤ ١ - ابن تغرى بردى : النجوم ج ٨ ، ص١٥٨ - دهمان : ولاة ، ص١١٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فقد قاموا بسلبهم ونهبهم. أما الذين هاجروا عن طريق البحر فربما تعرضوا للنهب والسلب، ويؤكد هذا وصف أحد المؤرخين بأنهم وصلوا الى مصر « في أسوأ حال وأنحس هيئة »[١]. عبر المهاجرون البحر الميت باتجاه يافا ثم دمياط عن طريق البحر المتوسط واتجهوا نحو القاهرة.

واحتلت القاهرة الدرجة الاولى بالنسبة للمدن التي استوطن بها المهاجرون لأنها عاصمة دولة المماليك بالاضافة لاحتوائها على المراكز العلمية والادبية والدينية في مصر. تلتها مدينة دمياط في الاهمية.

وكان معظم هؤلاء المهاجرين يبيتون في الاماكن الدينية كالترب والجوامع لكثرتهم، فالمهاجرون أثناء غزوة غازان سكن قسم منهم القرافة وجامع ابن طولون والحسينية.[٢]

ونستطيع القول بأن السلطات المملوكية قدمت بعض المعونات لهؤلاء المهاجرين حتى استطاعوا العيش ريثما يخرج العدو من البلاد، ومن المرجح أنها ألزمت سكان المناطق التي اقام بها المهاجرون بتقديم المساعدة المؤقتة لهم.[٣]

أدت هذه الهجرات الى الاخلال بالتوزع الديمغرافي للسكان في المنطقة، فقد هجر الفلاحون أرضهم وأصحاب الحرف حرفهم، والتجار تجارتهم مما أدى الى تضرر الفعاليات الاقتصادية، الى جانب العلماء والفقهاء. ونذكر مثالا على ذلك علي بن داوود بن جنادة شيخ العربية الذي هاجر سنة ٧٠٢هـ/١٣٠٢م اثر سماعه بقدوم المغول فراسله بدر الدين نصحاف قائلا له :

ياغائبا قد كنت أحسب قلبه   بسوى دمشق وأهلها لايغلق

ان كان صدك نيل مصر عنهم   لاغرو فهو لنا العدو والأزرق[٤]

كما سببت هذه الهجرات ركودا في معاقل العلم والثقافة مما أدى الى خسارة بلاد الشام مكانتها الثقافية المتميزة، وأدت هذه الهجرات الى ظهور الحرافيش (الفلاحين الذين قدموا من القرى ولجؤوا للزوايا والمساجد) وكثرة قيامهم بأعمال السلب والنهب في المدن الخالية من السكان.[٥] لما كان لهذه الهجرات أسوأ الاثر في مسيرة التقدم الحضاري للمجتمع فخلو

---

(١) - ابن اياس: بدائع، ج ١، ق ٢، ص ٦١٨ .

(٢) - المقريزي: المقفى، ج ٧، ص ٤١٧ - العيني: عقد الجمان، ج ٤، ص ٢٧ - السخاوي: الضوء، ج ١، ص ٢٠٣ .

(٣) - المنصوري: التحفة، ص ١٥٨ .

(٤) - ابن شاكر الكتبي: المصدر نفسه، ج ٢، ص ١٠٦ .

(٥) - ابن كثير: البداية، ج ١٤، ص ٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أي منطقة من علمائها ومفكريها يجعل الظلام والتخلف والجهل يسودها .

أما بالنسبة لمصر فقد كان لهذه الهجرات أثران سلبي وايجابي . فالأثر السلبي تجلى في أن المهاجرين شكلوا عبئا اضافيا على السلطة المملوكية في مصر التي دفعت أحيانا نفقاتهم من خزائنها ، كما أدت الى نقص بعض المواد الضرورية فأدى لارتفاع أسعار المواد المفقودة وهذا ما عاد بالضرر على السكان المحليين الذين أرهق كاهلهم فرض ضرائب جديدة لمواجهة الوضع المستجد . أما الأثر الايجابي فيتجلى في نقل المهاجرين لعادات وطبائع اجتماعيـــة (اللباس والطعام وعادات أخرى مثل الأفراح والأحزان) ، ومن المؤكد ان المهاجرين الذين استقروا نهائيا قد اختلطوا بالمجتمع المصري وذابوا في بوتقة عاداته الاجتماعية فأدى ذلك الى وجود صلة قربى بين أسر مصرية وأسر من بلاد الشام .

والمرجح أيضا أنه كان في صفوف المهاجرين بعض من مهرة الصناع الحرفيين ، حيث استفاد منهم المجتمع المصري في مجال البناء ، والتجارة ، والمهن اليدوية الأخرى . وبالتالي فان هذه الهجرات أضافت أشياء جديدة في الحياة العلمية والفكرية والاجتماعية للمجتمع المصري .(١)

غير أن السلاطين سرعان ما أدركوا خطورة هذه الهجرات فكانوا يقومون باعادة المهاجريــن في بعض الأحيان ، والقيام بالمشاريع الاصلاحية في مناطقهم التي هاجروا منها وتأمين سبل الحياة الرغيدة ، مما يحفزهم بالعودة الى مناطقهم ، لكن سيطرة العثمانيين على المنطقـــة لم تعط المماليك الفرصة لاتمام أعمالهم هذه .

---

(١) - المقريزي : المقفى ، ج ٧ ، ص ٢٤٧ - العيني : عقد الجمان ، ج ٤ ، ص ٧٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

جـ: الهجرة المغولية الى بلاد الشام:

وفود يا حيانا

شهدت مدن الشام قدوم هجرات مغولية جماعية أحيانا/أخرى ، وقد تعددت أسباب هذه الهجرات ، فمنها السياسية المتمثلة بالصراع والحروب بين الأمراء والسلاطين ، ولم تقتصر آثار هذه الحروب على المجتمع المغولي فقط ، بل تعدتها لتشمل المناطق التي خضعت لهم ، وترتب عليها ازدياد تجارة الرقيق ، وهجرة أقوام وطوائف من الأجناس التي خضعت للمغول ، أو من المغول أنفسهم.

أما الدوافع الأخرى للهجرة فهي الاقتصادية الناجمة عن طبيعة العلاقات الاقتصادية المغولية ، فنتج عنها في بعض الأحيان سوء الأوضاع وبالتالي أدت الى الغلاء والمجاعة وبالتالي الهجرة ، كما أن العوامل الطبيعية وانتشار الأمراض ساهمت في ازدياد الهجرة نحو بلاد الشام.

كانت بلاد الشام ممرا لعبور هؤلاء المهاجرين الى الابواب السلطانية في مصر ، وسمي هؤلاء باسم الوافدية أو المستأمنين ، وعند وصول هؤلاء لمصر بدؤوا في الاندماج بالمجتمع ، فارتبط بعضهم بالمماليك عن طريق المصاهرة ، ودخل عددا آخر في خدمة المماليك والأمراء ، ووصلوا الى مراتب عليا لم يتوصل اليها بقية الطوائف كالتركمان والكرد والبدو ، لكنهم لم يتوصلوا لمكانة المماليك السلطانية الذين اشتروا بالمال ، كما التحق عدد قليل منهم بفرق المماليك السلطانية والخاصكية لكن ترقيتهم في سلك الجيش خضعت لقيود شديدة.(١) والباحث المتتبع لسنوات هجرتهم يلاحظ كثرتها في القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي ، فقد وفدوا اثر معركة عين جالوت سنة ٦٥٨هـ.(٢)

نتج عن الأوضاع السياسية الداخلية للامبراطورية المغولية هجرة البعض نحو منطقة بلاد الشام ، فقد سببت الحروب الطاحنة بين هولاكو وابن عمه بركة خان سنة ٦٦٠هـ/١٢٦٢م هجرة جماعة كبيرة من المغول الى بلاد الشام ، وأرسلت هذه الجماعة من بركة الى هولاكو قبل وقوع الحرب بينهم نجدة له ، ولما وقعت الحرب بينهم كتب يستدعيهم ، واذا لم

---

(١) - النويري : المصدر نفسه ، ج ٣١ ، ص ٢٩٩ - ابن خلدون : العبر ، ج ٥ ، ق ٤ ، ص ٨٧٩ - المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ق ٣ ، ص ٨١٣ - التعريني : المماليك ، ص ٥٧ - ٥٨.

(٢) - الذهبي : العبر ، ج ٥ ، ص ٢٦٣ - ٢٦٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يستطيعوا الحضور فعليهم اللجوء الى السلطان المملوكي ، فلما سمع السلطان بقدومهم كتب الى النواب ببلاد الشام باكرام الوافدين ، والاحسان اليهم ، وتقديم المساعدات لهم وكل ما يحتاجون اليه ، وسيرت اليهم الخلع والانعامات والسكر والأغنام والشعير ونحوه ، وساروا الى مصر ، فاستقبلهم الظاهر بيبرس ، وأنزلهم في دور بنيت لهم ، وأكرم وفادتهم ، وقدم لهم الأموال وأمر بعضهم ، فدخل هؤلاء في الاسلام ، ويصف المقريزي حال هؤلاء واهتمام السلطان بهم حيث قال : ((وأعطى السلطان كبراءهم أمريات فمنهم من عمله أمير مائة ، ومنهم دون ذلك ، ونزل بقيتهم من جملة البحرية وصار كل منهم من سعة الحال كالأمير في خدمته الأجناد والغلمان ، وأفرد لهم عدة جهات برسم مرتبهم وكثرت نعمهم وتظاهروا بدين الاسلام فلما بلغ المغول ما فعله السلطان مع هؤلاء قدم عليه منهم جماعة وهو يقاسمهم بمزيد من الاحسان فتكاثروا بديار مصر ، وتزايدت العمائر باللوق وما حوله)) (١)

واجتذبت أنباء هذا الاحسان لهؤلاء قدوم جماعات أخرى مغولية ، وتوافدوا على ثلاث دفعات ، ففي سنة ٦٦١هـ/١٢٦٢م قدمت الدفعة الأولى ، فقد ورد البريد من حلب والبيرة بأن جماعة مستأمنة عددها الف وثلاثمائة فارس من المغول والبهادرية وردوا الى المنطقة ، وبالطبع كانت بلاد الشام ممرا لهم ومن المحتمل أنهم تزودوا بما يحتاجونه منها أثناء مرورهم ، أو أن الحكومة قد اهتمت بهم وأمنت لهم جميع ما يحتاجونه ثم اجتازوا الى القاهرة ، فأمر السلطان بعمارة مساكن لهم باللوق فنزلوها وأكرموا من جهة السلطان . وبما أن هذه الجماعات قد انخرطت مع السكان ومع الجيش ، فلابد أن يكون بعضهم قد رافق الجيش المصري لملاقاة المغول . (٢)

أما الدفعة الثانية فقد وفدت في نفس هذه السنة سادس ذي القعدة وكانت تضم الكثير من أعيان المجتمع المغولي مثل كرمون ، أمطفية ، نوكية ، جبرك ، قيان ، ناصفية ، طيشور ، نبتو ، صنجي ، وغيره ، واجتمعوا بمن وفد قبلهم ، وقدم السلطان لهم الضيافة والاكرام كمن سبقهم ، ثم وفدت

---

(١) - أبوشامة : المصدر نفسه ، ص٢٢٠ - ابن عبد الظاهر : الروض ، ص١٣٧ - ١٧٨ - اليونيني : المصدر نفسه ، ج ١ ، ص٤٩٦ - ج ٢ ، ص١٥٦ - النويري : المصدر نفسه ، ج ٣٠ ، ص ٦٣
- ابن كثير : المصدر نفسه ، ج ١٣ ، ص٢٣٤ - المقريزي : المصدر نفسه ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤٧٣
- الرمزي : تلفيق الأخبار ، ج ١ ، ص٤٢٤ - ٤٢٩ - ٤٣٠ - العريني : المرجع نفسه ص٥٩ - ٦٠
- عاشور : العلاقات السياسية ، ص٧٧ - عودات : تاريخ المغول ، ص٩٩ .

(٢) - النويري : المصدر نفسه ، ج ٣٠ ، ص٨٩ - اليافعي : المصدر نفسه ، ج ٤ ، ص ١٥٩ .
- المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ق ٢ ، ص٥٠٠ - العيني : المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ٣٦٤ -
- السيوطي : تاريخ الخلفاء ، ص٤٨٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الدفعة الثالثة وقد كرر السلطان معهم ما فعله مع سابقيهم وعرض عليهم دين الاسلام فأسلموا وختنوا جميعا.(١)

انضم بعض الوافدين الى سلك الجيش، وأمروا وتسلموا مناصب سياسية وادارية عالية كالنيابات مثلا ثم ثاروا ضد السلطة المملوكية، فقامت السلطات بنفي هؤلاء الى بلاد الشام، حيث وزعتهم في مختلف مناطقها ولا بد أن يكون هؤلاء قد أثروا في المناطق التي أقاموا بها وهذا ما سنلاحظه من خلال الصراع بين المماليك وبينهم. وبدأت هذه الهجرات تضعف منذ أيام الظاهر بيبرس. ولم يقدم سوى تسعة عشر فارسا مع نسائهم وأولادهم زمن السلطان قلاوون ولم يستقروا ببلاد الشام وانما عبروا الى مصر، كذلك قدم زمن الناصر محمد حوالي ثلثمائة فارس، وقد أكرمهم المنصور قلاوون وأمر بعضهم.(٢)

اصطحب الوافدون في أغلب الأحيان عائلاتهم، ففي سنة ٦٨٢هـ/١٢٨٣م وصلت مجموعة تقدر بتسعة عشر رجلا ومعهم صغارهم، كما قدمت فرقة من المغول المنطقة ويعتقد بأنها استقرت في بلاد الشام وكانت عدتها أربعة آلاف فارس مما يغلب عليها الصفة العسكرية، وسبب هجرتهم الصراع بين السلطان أحمد وأرغون، وقد نتج عنه مقتل السلطان أحمد واستقرار الآخر في الحكم وهجرة من تحدثنا عنهم.(٣)

وفي سنة ٦٩٥هـ/١٢٩٥م قدمت دفعة من الوافدية الى بلاد الشام، وذلك في زمن السلطان كتبغا وكان مغولي الأصل، وكان هؤلاء الوافدين يدعون الأويراتية (العويراتية) وقد قدموا بصحبة طرغاي (ت٦٩٦هـ/١٢٩٧م) صهر هولاكو، خوفا على حياتهم من غازان، فقد اتفق طرغاي مع بيدو على قتل كيختو بن ابغا، فلما صار الملك الى غازان خاف طرغاي على نفسه أن يقتله انتقاما لعمه كيختو وكان مقيما بتمانة(٤) بين بغداد والموصل، فأرسل غازان بقطع الطرقات عليهم وأرسل الأمير قطقوا في ثمانين فارسا للقبض على طرغاي ومن معه من أكابر قبيلة

---

(١)- ابن عبد الظاهر: الروض، ص١٨٠- اليونيني: المصدر نفسه، ج١، ص٥٣٤، ج٢، ص١٩٥ - النويري: المصدر نفسه، ج٣٠، ص٨٩-٩٠- المقريزي: السلوك، ج١، ق٢، ص٥٠١ - - العيني: المصدر نفسه، ص٣٦٤.

(٢)- النويري: المصدر نفسه، ج٣١، ص٨٨- ابن الفرات: المصدر نفسه، ج٧، ص٢٥٠- المقريزي المصدر نفسه، ج١، ق٣، ص٧٠٨- المقفى، ج١، ص٣٥٢- العيني: المصدر نفسه، ج٢، ص٢٩٢- العريني: المماليك، ص٦١- عاشور: العلاقات، ص١٢٤.

(٣)- ابن الفرات: المصدر نفسه، ج٧، ص٢٦٠- المقريزي: المصدر نفسه، ج١، ق٣، ص٢١٢ - العيني: المصدر نفسه، ج٢، ص٢٩٥.

(٤)- تمانة: لم أجد لها تعريفا في المعاجم التاريخية.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الأويرات،لكن هؤلاء استطاعوا العبور الى بلاد الشام. وقد اختلفت الروايات في عددهم، فقد قيل أنهم ثمانية عشر ألف بيت، بينما ذكرت مصادر أخرى أنهم عشرة آلاف نفس، وتوجهوا الى جهة الرحبة فأرسل كتبغا الى علم الدين الدواداري بأن يتوجه الى لقائهم، فانطلق من دمشق وتلقاهم ثم أتى بهم الى دمشق وكان في صحبة من مقدميهم وأعيانهم مائة وثلاثة عشر فارسا، وقد خرج نائب السلطنة للقائهم، واحتفل بهم أهل دمشق وأنزلهم النائب في القصر الأبلق، ثم جاء مرسوم بأن يتوجه الأمراء من الدفعة المهاجرة الى الأبواب السلطانية وكان عددهم نحو مائتي فارس، فارتبط بعضهم مع المماليك بعقد المصاهرة وانغمسوا في المجتمع العربي في مصر. أما العامة منهم فقد استقروا في بلاد الشام مع نسائهم وأولادهم، فأنزلوا في الساحل بين قاقون وعثليث، ومن المرجح أن تكون السلطات قد قدمت جميع احتياجات هؤلاء من حسابها الخاص.(١)

أدت مبالغة كتبغا في محاباة الأويراتية الى زوال سلطانه على يد لاجين سنة ٦٩٦هـ/١٢٩٦م فانتقم منهم، وسجن كبراءهم في الاسكندرية ومنهم طرغاي، ولم ينج منهم الا جماعة قليلة سكنت بالأطراف الشمالية ثم دخلت في خدمة الناصر محمد بن قلاوون أثناء مقامه بالكرك مما يدل على انتقالهم الى بلاد الشام واستيطانهم بها، وقد شغلوا دورا مهما في الحياة السياسية لبلاد الشام حيث أولاهم النواب والأمراء أهمية خاصة لمكانتهم الرفيعة، الأمر الذى حدا بالناصر محمد لاتخاذ قراره بطردهم من البلاد.(٢)

لقد اضطرت بلاد الشام الى تقديم المعونة والحماية للمغول القادمين الى أراضيها، ففي سنة ٦٩٦هـ/١٢٩٦م لجأ اليها سلامش ابن أفاك بن بنجو وأخوه قطقطوا ومن معهم هاربين من غازان، فطلب من السلطان اعانته في احضار عائلته وأولاده، فأمر السلطان مجموعة من عساكر حلب بالمسير معه فتوجهوا نحو الشرق، وعند وصولهم الى سيس عرف بهم الأرمن والمغول

---

(١) - المنصوري: التحفة، ص١٤٦ - أبوالفداء: المختصر، ج٤، ص٣٣ - النويري: المصدرنفسه، ج٣١، ص٢٩٦-٢٩٨-٢٩٩ - ابن الجزري: المختار، ص٣٧٥-٣٧٦ - ابن الوردى: المصدرنفسه، ج٢، ص٣٤٤ - ابن كثير: المصدرنفسه، ج١٣، ص٣٤٣ - ابن حبيب: تذكرة ج١، ص١٨٥ - ابن خلدون: العبر، ج٥، ق٤، ص٨٧٨ - ابن الفرات: المصدرنفسه، ج٨ ص٢٠٣-٢٠٥ - ابن خطيب الناصرية: الدرالمنتخب، ج١ ورقة ٥٥ - المقريزى: المصدر نفسه ج١، ق٣، ص٨١٢ - العيني: المصدرنفسه، ج٣، ص٢٧٨-٢٧٩-٣٠٤-٣٠٥- - ابن تغرى بردى: المنهل، ج٣، ص٣٨١ - الطراونة: نيابة صفد، ص١٤٦ - ضومط (انطوان خليل): الدولة المملوكية التاريخ السياسي والاقتصادى والعسكرى، بيروت، ط١، ١٩٨٠، ص٣٦-٣٧ - فهمي: المرجع نفسه، ص١٩٨.

(٢) - العيني: المصدرنفسه، ج٣، ص٣٥٦ - عاشور: مصروالشام، ص٢٠٥ - العريني: المماليك، ص٦٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فضيقوا عليهم الدروب، وحاربوهم، فقتل من مع سلامش، وهرب هو والتجأ الى بعض القلاع فأحضره غازان وقتله. أما اخوته فبقوا في الديار المصرية. (١)

وعلى الرغم من قلة الوافدين في القرن الثامن الهجري الا أننا نلحظ استمرار قدومهم بأوقات متباعدة وأعداد أقل، فقد شهدت سنة ٧٠٣هـ/١٣٠٣م قدوم الأمير بدر الدين جنكلي بن البابا (ت ٧٤٦هـ) الى المنطقة وصحبته جماعة من كبار المغول ومن جملتهم أخو سيف الدين قطلوبك، وكان جده البابا في زمن أبغا أميرا كبيرا ولقبه جمال الدين، وقد عبر هؤلاء بلاد الشام الى مصر حيث استقبلهم السلطان، وكرمهم وأمّر بدر الدين/بطبلخاناه، وأعطاه مائة فارس وأجراه على المعهود من احسانه. (٢)

وكانت أعداد المهاجرين قليلة لا تتجاوز المئات أو العشرات في بعض الأحيان ولم يستقروا في بلاد الشام وانما عبروا الى مصر لأن بلاد الشام كانت تابعة سياسيا لمصر في فترة البحث، وبالتالي كانت مصر مركز الحكم وهي الكفيلة بتقديم المعونات لهؤلاء المهاجرين، وهذا ما حصل سنة ٧١٧هـ/١٣١٧م حيث قدمت جماعة بقيادة الأمير طاطاي في مائة فارس بنسائهم وأولادهم، ودخلوا القاهرة في شوال/من هذه السنة. (٣)

ولم تكن هذه الهجرات ترد الى المنطقة بزعامة الرجال فقط، بل قادت النساء أحيانا طوائف المهاجرين، ففي سنة ٧٢٢هـ/١٣٢٢م حضرت أخت الأمير بدر الدين جنكلي بن البابا من الشرق وصحبتها جماعة كثيرة الى دمشق لكنها ماتت بعد ثلاثة أيام من قدومها، وبقي جماعتها في بلاد الشام، فلما وصل الى مسامع السلطان نبأ وفاتها استدعى من حضر معها الى مصر، فلما حضروا أنعم عليهم بالانعامات لأجل خاطر الأمير جنكلي. (٤)

ولم تكن الأوضاع السياسية لوحدها هي المسبب لهذه الهجرات، وانما لعبت العوامل الطبيعية والكوارث الوبائية دورا هاما لهذه الهجرات، ففي سنة ٧٤١هـ/١٣٤٨م جاءت هجرة مغولية الى البلاد بسبب انتشار الطاعون والغلاء في الشرق، فأذن السلطان لنائب

---

(١) - المنصوري: المصدر نفسه، ص١٥١ - النويري: المصدر نفسه، ج ٣١، ص٣٥٤ - ابن تغري بردي: النجوم، ج ٨، ص١١٩ - ١٢٠.

(٢) - المنصوري: المصدر نفسه، ص١٧٥ - ابن ايبك: الدر الفاخر، ص١١٣ - ابن كثير: المصدر نفسه، ج ١٤، ص٢٩ - ابن خطيب الناصرية: المصدر نفسه، ج ١، ورقة ٣٧٠ - المقريزي: المقفى الكبير، ج ٣، ص٧٥ - عاشور: العلاقات، ص ١٧٦.

(٣) - المقريزي: المصدر نفسه، ج ٢، ق ١، ص ١٧٤ - العريني: المماليك، ص٦٢.

(٤) - المقريزي: المصدر نفسه، ج ٢، ق ١، ص٢٣٦ - المقفى ج ٣، ص ٧٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

حلب أن ينزلهم بنيابته ، فنفذ نائب حلب ما أمره ، وقد هاجرمنهم نحو مائتي فارس الى مصر. (١)
وقد ازدادت هجرة البالفين من المغول منذ عهد الظاهر برقوق وتعددت الأسباب المؤدية لذلك منها الطاعون الذي أصاب القبيلة الذهبية ، اضافة الى هجوم تيمورلنك على أفرادها ، والحروب المستمرة بين أفراد هذه القبيلة بسبب تنازعهم على الاقطاع مما أدى الى انقراضها وهجرة البالفين من أفرادها نحو بلاد الشام. (٢)

سببت هذه الهجرات نتائج سلبية على المجتمع العربي ، فألحقت الضرر البالغ بالدولة والسكان ، فقد انتقلت الطبائع والأخلاق والعادات المغولية مع المهاجرين الى بلاد الشام ، ونجم عن تكريمهم من السلطة المملوكية وتسلمهم للمناصب السياسية العالية ازدياد غضب العامة والخاصة على السلطة المملوكية. ووقعت على عاتق السلطة المملوكية التي فرضت الضرائب على عامة الشعب لتغطية مثل هذه النفقات ، ومن المرجح أن تتأثر المزروعات في بلاد الشام بمرور هؤلاء المهاجرين بمناطق زراعتها . اضافة الى مساهمتهم في ازدياد المشاكل السياسية والاقتصادية في مصروبلاد الشام. (٣)

د : - العناصر الوافدة على المدن :

- أصبحت مدن بلاد الشام موئلا لكثيرمن العناصر العربية وغير العربية ، فقد وفد اليها الكثيرمن المناطق المجاورة وغير المجاورة وذلك بسبب الظروف السياسية خاصة المتمثلة بالغزو المغولي لمناطق المهاجرين . اضافة الى الظروف الاقتصادية والاجتماعية وظروف أخرى . وكان أكثر المهاجرين الى مدن بلاد الشام من الجزيرة الفراتية ، ومن الشرق ، اضافة الى المغاربة الذين هاجروا الى بلاد الشام ليقيموا فيها لاسباب دينية وكان استقرارهم في مدينة القدس خاصة . فعلى الرغم من الغزو المغولي المتكرر للمنطقة والذي رافقه هدم لمعظم المنشآت الدينية ، بقيت القدس تتمتع بالمكانة الدينية العليا في المنطقة ، وظلت منارة علمية ودينية لسكان المنطقة ، والوافدين من خارج البلاد .

---

(١) - العريني : المماليك ، ص ٦٣ - عاشور : العلاقات ، ص ١٩٩ .
(٢) - ضوط : المرجع نفسه ، ص ٣٧ .
(٣) - العيني : المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ٣٠٥ - ضوط : المرجع نفسه ، ص ٣٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

كما شغلت الجزيرة الفراتية دوراها ما في تسهيل أمور المهاجرين الأرمن ، فقد كانت محطة لعبورهم الى بلاد الشام ذلك أن أرمينية تحد الجزيرة من الشمال ومن الشمال الشرقي ، وقد حددها الكثير من الجغرافيين سواء الذين سبقوا هذه الفترة أو الذين عاشوا فيها كابن حوقل ، شيخ الربوة ، القلقشندي . فقد ذكروا بشكل مجمل أن ارمينية منطقة يحيط بها من الغرب حدود بلاد الروم وشيء من الجزيرة ، ومن جهة الجنوب بعض حدود الجزيرة وحدود العراق ، ومن جهة الشرق بلاد الجيل والديلم الى بحر الخزر .

وهاجر قسم كبير من سكان الجزيرة باتجاه مدن الشام بسبب الحروب الطاحنة بين سكانها وبين المغول ، وقد ذكر المؤرخون الكثير من أسماء العلماء والأدباء الذين هاجروا للمنطقة ، وقد سبب هؤلاء المهاجرين حالة من عدم الاستقرار والفوضى أحيانا .(١)

لقد بدأ الهجوم المغولي على الجزيرة سنة ٦٥٦هـ/١٢٥٨م بدءاً بميافارقين وآمد ، وقلعة جعبر وحران والبيرة ، ودام قتالهم لميافارقين سنتين استطاعوا بعدها تخريب البلد وتهجير السكان .(٢)

أما حران فقد قتلوا أكثر أهلها بينما هاجر القسم الباقي الى ماردين والموصل ،(٣) كما تمكنوا من السيطرة على ماردين وقاموا بهدم أسوارها ، وخربوا قلعة جعبر ، ولم يبق بها الا بعض البيوت ، وبالتالي فان أكثر المهاجرين اتجهوا الى بلاد الشام وخاصة الى المدن حيث كانت أكثر أمنا واستقرارا من بلادهم .(٤)

كما طرقت مدن الشام مهاجرين من البيرة التي هاجمها المغول وحاصروها على ثلاث دفعات ، احداها سنة ٦٦٣هـ/١٢٦٤م ، وسنة ٦٧١هـ/١٢٧٢م ، وكانت الرحبة محطة لاستراحة الجيوش المغولية عند هجومهم على مدن الشام ، فقد نزلوا عليها سنة ٦٨٠هـ/١٢٨١م حين نازلها معين الدين البرواناه صاحب الروم ومن المرجح هجرة بعض سكانها باتجاه بلاد

---

(١) ابن حوقل (ابي القاسم بن حوقل النصيبي) : صورة الأرض ، بيروت ، دار الحياة ، ١٩٧٩ ، ص ٢٩٤ - ٢٩٥ - ابن شداد : الاعلاق الخطيرة في ذكر امراء الشام والجزيرة ، مقدمة الكتاب ، ص ٣٩ - ٤٠ - ابن شيخ الربوة : نخبة الدهر ، ص ١٨٩ - ١٩٠ - القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٤ ، ص ٣٥٣ - ٣٥٦ .

(٢) - ابن شداد : المصدر نفسه ، ج ٣ ، ق ٢ ، ص ٥٠١ - العيني : المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ١٧٧ - العريني : المغول ، ص ٢٢٤ - ٢٢٥ - الصياد : المغول ، ص ١٩٤ - ١٩٥ .

(٣) - ابن شداد : المصدر نفسه ، ج ٣ ، ق ١ ، ص ٦٠ - ٦٢ - ابن الوردي : المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٢٩١ - العيني : المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ٢١٨ - ابن تغري بردي : النجوم ، ج ٧ ، ص ٧٤ .

(٤) - ابن شداد : اعلاق ، ج ٣ ، ق ٢ ، ص ١١٩ - ٥٦٤ - ٥٦٥ - تاريخ ، ص ٥٥ - ٥٦ .

ج ٣٠ ، ص ١٨٨ - الذهبي : دول ، ج ٢ ، ص ١٧٣ - ابن الوردي : المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٤٠٨ - ابن كثير : المصدر نفسه ، ج ١٣ ، ص ٢٥٥ - ٢٩٣ - ابن خطيب الناصرية : المصدر نفسه ، ج ١ ورقة ٦٧٠ - النعيمي : الدارس ، ج ١ ، ص ٧٦ .

(٤) - المقريزي : المصدر نفسه ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥١١ - النعيمي : الدارس ، ج ١ ، ص ٢٣٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

كما تلقت بلاد الشام الهجرة القادمة من الشرق سنة ٦٨٢هـ/١٢٨٣م حيث قدم تسعة/عشروا فدا بأولادهم. وقد كانت المصادر التاريخية مقلة جدا في ذكر الطرق التي عاش بها هؤلاء، والمناطق التي سكنوها لذلك لم نعثر على أي أثر سوى عن هجرتهم الى المنطقة.(١)

وقد استلم بعض المهاجرين مناصب هامة منها ادارية كنيابة الحكم ومنهم القاضي صدر الدين قاضي قضاة دمشق وعمر بن بندار التفليسي، وقضاء القضاة كعمر بن عبد الرحمن القزويني، اضافة الى التدريس في المدارس كعلاء الدين أحمد السيرامي الحنفي، الذي أقام في ماردين ثم توجه الى الشام فنزل حلب أولا، ثم توجه الى مصر بطلب من الظاهر برقوق حيث تولى تدريس مدرسة هناك وتوفي سنة ٧٩٠هـ/١٣٨٨م حيث تولى عوضه سيف الدين السيرامي (ت ٨٠٠هـ/١٣٩٧م) القادم من تبريز عند ما استولى تيمورلنك عليها مع اهله وعياله، ونزل حلب وظل هناك يفتي ويدرس.(٢)

ولم تقتصر أعمال المهاجرين على المناصب السياسية أو العسكرية بل دخلوا سلك الطب أيضا فالحسين الأخلاطي أقام في حلب منقطعا عن الناس في مكان بابلا بطرف حلب، ثم حضر الى مصر لمداواة السلطان الظاهر برقوق وظل هناك الى أن توفي.(٣)

كما قدم بعض المهاجرين الذين أظهروا البدع بلباسهم وأشكالهم الغريبة، فقد قدم سنة ٧٠٦هـ/١٣٠٦م براق العجمي في جمع نحو المائة في رؤوسهم قرون، وشواربهم محلوقة، وعليهم أجراس، وكانت هيئتهم مزرية، ونزلوا بالمتسع ثم زاروا القدس، وبعدها توجهوا لمصر. وكان الأفرم نائب دمشق قد أعطى الشيخ براق من خزائنه ألفي درهم الا انه رفضها، فأخذها جماعته، ورحلوا عن بلاد الشام الى بلادهم فيما بعد.(٤)

كما قدمت طائفة أخرى بقيادة شيخ يعرف بزاده سنة ٧٤٠هـ/١٣٣٩م، وقد عبر هؤلاء الى مصر ولم يستقروا في بلاد الشام، وقام الأمير قوصون بتأمين السكن لهم حيث استقروا في خانقاته فعمل لهم فيها عدة أوقات.(٥)

---

(١)- المقريزي: المصدر نفسه، ج ١، ق ٣، ص ٧١٢.

(٢)- ابن شداد: تاريخ الظاهر، ص ٩١- السبكي: طبقات الشافعية، ج ٥، ص ١٣٠- العسقلاني: انباء، ج ٦، ص ٧٥- المقريزي: المقفى، ج ١، ص ٥٩٣- ابن تغرى بردى: المنهل، ج ٢، ص ١٧٣، ج ٦، ص ١٨٩.

(٣)- ابن تغرى بردى: المنهل، ج ٢، ص ١٧١.

(٤)- اليافعي: مرآة الجنان، ج ٤، ص ٢٤١- النعيمي: الدارس، ج ٢، ص ٢٥٠.

(٥)- المقريزي: المصدر نفسه، ج ٢، ق ٢، ص ٢٩٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الى جانب المهاجرين من الشرق تلقت بلاد الشام هجرات جماعية وفردية من بلاد الروم، وقد تكررت هذه الهجرات، وكان أول هذه الهجرات الجماعية سنة ٦٧٤هـ/١٢٧٥م، ثم سنة ٦٩٠هـ/١٢٩١م، حيث وردت جماعة من قونيه الى حلب ومعهم الأمير عزالدين ايبك الخطاي مع اهلهم وغلمانهم، وبهاء الدين عمر بن ناصرالدين، ونظام الدين علي بن حسين، وعلي بن ايدمر الكرجي، وقد ذكر أحد الأمراء أنه سيرمن قبل جماعة كثيرة تقرر حضورهم للأبواب السلطانية. (١)

أما العراق فقد كثر الوافدون منه الى المدن الشامية، ومنهم التجار والعلماء من احتل مناصب ادارية ووظائف عسكرية. كما اختلط بعضهم في مجتمع المدن وتولى مناصب هامة فيها. ومن أهم الشخصيات التي وفدت الى المنطقة صدرالدين العاقولي رئيس بغداد وعالمها وقد وفد هاربا من تيمورلنك، الحسن بن علي بن مسعود التكريتي الموصلي، ومحمد بن علي بن سعيد بن معالي الربعي البعلي، جمال الدين الباجربقي (ت٦٩٩هـ) في حين تولى الأمير بدرالدين يوسف بن درباس بن يوسف الحميدي تقدمة عساكرالشام في البقاع بعد أخيه جمال الدين وكان قد قدم دمشق اثراستيلاء المغول على العراق. (٢)

بينما تولى تقي الدين توبة بن علي بن مهاجربن شجاع بن توبة الربعي التكريتي الوزارة بدمشق ثلاث مرات حتى كانت وفاته (ت٦٩٨هـ)، وكان في البدء تاجرا يجول بين بغداد وبلاد الروم وديار بكر، وعند احتلال المغول للعراق قدم دمشق واستوطنها، وترقى في المناصب وأقرض المنصور قلاوون ستين ألف درهم بلا فائدة، فلما تولى المنصور السلطة حل عنه الضمان وأطلق له ما كان مكسورا عليه وهو ما يقارب مائة ألف درهم، وتولى الخزانة بدمشق، ثم تولى الوزارة في عهد خمسة سلاطين هم المنصور، الأشرف، العادل كتبغا، المنصور لاجين. (٣)

والى جانب هؤلاء وفد الى بلاد الشام طائفة اسلامية كبيرة العدد هي (المغاربة) اذ كان أهل المنطقة يطمئنون اليهم، وكان لكل منهم مورد يكفيه ليعيش بكرامة وينصرف الى شؤون الدين. وأكثر ما أقام هؤلاء بالقدس وذلك لمكانتها الدينية، فحصلوا على وظائف دينية في المساجد والمدارس والخوانق. (٤)

---

(١) - ابن عبد الظاهر: الالطاف الخفيه، ص٨٤ - العيني: المصدر نفسه، ج٢، ص١٥٣.

(٢) - ابن خطيب الناصرية: المصدر نفسه، ج١، ورقة٣٨٤ - ج٢ ورقة٢٩١ - ابن قاضي شهبة: المصدر نفسه، ج١، ق٣، ص٥٠٦ - العيني: المصدر نفسه، ج٣، ص١٠١ - النعيمي: المصدر نفسه، ج٢، ص١٣٤.

(٣) - العيني: المصدر نفسه، ج٣، ص٤٧٥.

(٤) - العيني: المصدر نفسه، ج٣، ص٤٧٤ - الحلبي (أكرم حسن): دمشق بين عهد المماليك والعثمانيين ٩٠٦-٩٢٢هـ/١٥٠٠-١٥٢٠م، دمشق، الشركة المتحدة للطباعة، الطبعة الأولى، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م ص٩٢-٩٣ للمزيد من التفاصيل ينظر: علي احمد: الاندلسيون في بلاد الشام منذ نهاية القرن الخامس الهجري وحتى نهاية القرن التاسع، رسالة ماجستير في التاريخ، كلية الاداب، [illegible]

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٢ - انعدام الاستقرار الاجتماعي :

آ- قتل السكان : شمل القتل معظم سكان بلاد الشام من الشمال الى الجنوب ، ومن الشرق الى الغرب وقد أثر القتل على أعداد السكان التي أخذت في التناقص. هذا التناقص الذي أدى الى تخلخل الكثافة السكانية والتوزع الديمغرافي للمنطقة ، فقد اتسعت مدينة على حساب أخرى ، وأدى هذا بدوره الى تدهور فعاليات المجتمع الاقتصادية من زراعة وصناعة وغيرها . فقد أدى القتل والأسر الى اندثار حرف بأكملها ومهن كانت تشتهر بها بلاد الشام ، كما أن القتل سبب الاضطراب والفوضى في بلاد الشام عامة ، الأمر الذي جعل بعض المنظمات تظهر على الساحة ، وتقوم بمهامها سواء لمساعدة السكان ، أو لتحقيق طموح بعض الحكام والأمراء .

واضطر أكثر سكان بلاد الشام الى الهجرة من مدنهم وقراهم خوفا من القتل وهاجروا اما الى مناطق بعيدة ، أو الى دول أخرى كمصر . فلم تسلم جميع مدن الشام من القتل والعذاب ، فقد لون الغزاة أساليب التعذيب ، اضافة الى الأسر والنقل الى أراضي الدولة المغولية.

كما تركزت العمليات العسكرية على مدن حلب ، حماة ، دمشق ، أما حمص فكان نصيبها هو الأقل من هذه العمليات وبالتالي تعرض سكان هذه المدن لمجازر ، ومذابح جماعية وحشية ، ففي المناطق الشمالية بدأ المغول بمنبج سنة ٦٥٧هـ/١٢٥٨م حيث قتلوا الكثير من سكانها ، ثم انتقلوا الى حلب وكمنوا لاهلها عندما نقوسا فهرب المسلمون طالبين المدينة عندئذ انقضوا عليهم وقتلوا الكثير منهم ، وأثناء دخول الأهالي المدينة اختنق الكثير منهم لكثرة الازدحام. (١)

غير أن المذبحة الكبرى في حلب كانت عند دخولهم بلاد الشام سنة ٦٥٨هـ/١٢٥٩م فقد هجم المغول على المدينة عدة مرات ، كذلك تعرضوا لضواحيها وقراها فقد هاجموا اعزاز واستولوا عليها ، وقد اضطرب سكان حلب عند هجوم المغول عليها ، فأرادوا الهروب ، عندئذ تمكن

---

(١) - الهمذاني : جامع التواريخ ، ج ٢ ، ق ١ ، ص ٣٠٦ - ابن الوردي : المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٢٩١
- العيني : المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٢٩١ - ابن تغري بردي : النجوم ، ج ٧ ، ص ٧٥ - ٧٦
- كرد علي : المرجع نفسه ، ج ٢ ، ص ١٠٤ - عاشور : العلاقات ، ص ٤٢ - شهاب : الدولة الايلخانية ص ١٤٣ - الصياد : المغول ، ص ١٩٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المغول منهم وقتلوا الكثير ، حتى قيل ان ما قتل في بغداد أو في بلاد العجم لا يساوي ما قتل من أهل حلب. لقد امتلأت الطرقات والأسواق بالقتلى ، فقد كانت عساكر الغزاة تسير فوق الجثث بالخيل لكونهم لا يجدون موضعا خال من مقتول ، وقد قتل في أحد المواقع أسد الدين بن الملك الزاهر بن صلاح الدين. وظل سفك الدماء لمدة ستة أيام من يوم الأحد الى الجمعة رابع عشر صفر من السنة المذكورة ، عندئذ أمر هولاكو برفع السيف ، ونودي بالأمان ، ولم يسلم من أهل حلب الا من التجأ الى دار شهاب الدين بن عمرون ودار نجم الدين أخي مردكين ودار البازيار ، ودار علم الدين قيصر الموصلي والخانقاه التي فيها زين الدين الصوفي وكنيسة اليهود وذلك لفرمانات كانت في ايديهم ، وقد قيل انه سلم بهذه الأماكن ما يزيد عن خمسين ألف نسمة.(١)

ونتيجة للذعر والخوف فقد اختبأ جماعة من أهل حلب ، ولما نودي برفع السيف والأمان عادوا الى أماكنهم ، ثم عادت المدينة الى الحياة الطبيعية بعد أن نودي بالأمان ، وأقيمت الجمعة بالجامع.(٢)

واثر معركة عين جالوت وما تمخض عنها من هزيمة المغول ، مرّ هؤلاء الغزاة بحلب اثناء عودتهم الى ديارهم ، عاثوا بحلب ، وأخرجوا أهلها الى قرنبيا وهي شرقي حلب وارتكبوا فيها مذبحة تشيب لها النواصي (٣)

لم يسلم النساء والاطفال والشيوخ من القتل ، ففي حارم امتنع والي قلعتها من تسليمها الا لفخر الدين الساقي والي قلعة حلب ، فأحضره هولاكو حتى تسلمها ، وعندما أصبحت المدينة في يده انتقم من الجميع ، ولم ينج الا صائغ أرمني ، حتى البهائم قتلت على يد المغول خنقا ، ثم عين فخر الدين شحنة بحلب غير أنه قتله بعد ما أثبت عليه بأنه جمع أموالا كثيرة.(٤)

---

(١) ابن العميد : المصدر نفسه ، ص٤٩ - ابو الفدا : المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص٢٠١ - ابن الوردي : المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٢٩٢ - ٢٩٣ - المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ق٢ ، ص ٤٢٢ - العيني : المصدر نفسه ج ١ ، ص٢٣٠ - ٢٣١ - ابن تغرى بردى : النجوم ، ج ٧ ، ص ٧٦ - كرد علي : المرجع نفسه ، ج ٢ ، ص٥٠١ - دهمان - ولاة : ص٤٩ .

(٢) - الذهبي : العبر ج ٥ ، ص٢٤١ - دول الاسلام ، ج ٢ ، ص١٦٢ - اليافعي : المصدر نفسه ، ج ٤ ، ص ١٤٨ .

(٣) - ابوالفدا : المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص٢٠٩ - النويري : المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص٢٠٠ - الذهبي : العبر ج ٥ ، ص٢٤٣ - ابن الوردي : المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص٢٠٣ - شهاب : الدولة الايلخانية ، ص١٥٠ - عاشور : العلاقات ، ص ٦٧ .

(٤) - ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ، ص٤٨٨ - ابن الفوطي : الحوادث الجامعة ، ص١٦٥ - الهمذاني : المصدر نفسه ، ج ٢ ، ق ١ ، ص٣٠٧ - ابوالفدا : المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص٢٠٣ - ابن خلدون العبر ، ج ٥ ، ق ٤ ، ص٧٩٤ - المقريزي : المصدر نفسه ، ج ١ ، ق٢ ، ص٤٠٠ - العيني : المصدر نفسه ، ج ١ ، ص٢٤٠ - ابن الشحنة : الدر المنتخب ، ص١٦٦ - شهاب : الدولة الايلخانية ، ص١٤٥ - العريني : المغول ، ص ٢٤٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومن الواضح أن القادة المغول قرروا ألا يبقوا أحدا في مدينة حلب، فقد هاجموها مرة ثالثة سنة ٦٥٩هـ/ ١٢٦٠م بعد عودتهم من أفامية، وأخرجوا من بها من الرجال والنساء ولم يبق بالمدينة الا من ضعف عن الحركة واختفى خوفا على نفسه، وقسّم الغزاة السكان الى قسمين : الغرباء، وأهل البلد ، ولم يعلم الناس ما يراد بهم، فظن الغرباء النجاة لاهل حلب ، وظن اهل حلب نجاة الغرباء، ولما انقسم الطرفان توجهوا بهم الى بابلي ، فضربوا أعناقهم وفيهم جماعة من أقارب الملك الناصر، ثم أعادوا من بقي من أهل حلب اليها، وسلموا كل طائفة الى رجل من الاكابر.(١)

ولم تكن المناطق الجنوبية لبلاد الشام ببعيدة عن متناول أيدي المغول ، فقد هاجمها الغزاة سنة ٦٥٨هـ/ ١٢٥٩ م فقتلوا السكان في نابلس، الأمر الذي اضطر الأمير مجير الدين بن ابي زكريا ، ونور الدين بن شجاع الأكتع للدفاع عنها غير أنهم قتلوا في المواجهة.(٢)

كما هاجموا غزة وبيت جبرين والخليل والصلت وبعلبك وبانياس فقتلوا ما قدروا عليه، ومن لم يقتلوه أسروه ثم عادوا بهم الى دمشق وباعوا الأسرى والمواشي.(٣)

ولم تسلم مناطق الشام الشمالية ولا الجنوبية من عمليات القتل الافرادية أو الجماعية، ففي سنتي ٦٧٠هـ/ ١٢٧١م، ٦٧٩هـ/ ١٢٨٠م هاجموا كلا من حارم والروج وحلب وقتلوا السكان، حتى اضطر الباقون الى الاختفاء في المغائر والأسربة، وأحرقوا الجوامع، وقتلوا الناس في المدارس ، وربما تعود كل أعمالهم اللاأخلاقية هذه الى المكاسب المادية التي كانوا يرجونها من المنطقة إذ أنهم استولوا على المواشي والغنائم، ولم يوفروا شيئا وجدوه في طريقهم.(٤)

---

(١) - اليونيني : المصدر نفسه، ج ١، ص ٣٦٤ - النويري ، المصدر نفسه، ج ٣ ، ص ٤١ - ابن كثير : المصدر نفسه، ج ١٣، ص ٢٣٠ - ابن خطيب الناصرية : المصدر نفسه، ج ٢ ورقة ٨٣ .

(٢) - ابن العميد : المصدر نفسه، ص ٥٢ - ابن خلدون : المصدر نفسه، ج ٥ ، ص ٧٩٣ - ابن خطيب الناصرية : المصدر نفسه، ج ١ ورقة ٢٧ - المقريزي : المقفى الكبير، ج ١ ص ١١٩ - العيني : المصدر نفسه، ج ١ ، ص ٢٣٢ .

(٣) - اليونيني : المصدر نفسه، ج ١، ص ٣٥١ - ابن تغري بردي : النجوم، ج ٧ ، ص ٧٧ - العريني : المغول ، ص ٢٤٧ .

(٤) - ابن عبد الظاهر : تشريف الايام ، ص ٧٦ - قسم ابن الفرات - المنصوري : التحفة ، ص ٧٣ - النويري : المصدر نفسه، ج ٣ ، ص ١٨٧ - الذهبي : دول ، ج ٢ ، ص ١٨١ - العبـــــــر، ج ٥ ، ص ٣٢٣ - المقريزي : المصدر نفسه، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٦٠٠ - ٦٨٢ - عاشور : العلاقات ، ص ١١٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

كما نالت مدينة حمص نصيبها من عمليات القتل والابادة، وذلك عندما التقت جموع المسلمين مع المغول سنة ٦٨٠هـ / ١٢٨١م فالمنهزمون من المعركة دخلوا المدينة فتتبعهم المغول حتى وصلوا الى الداخل فقتلوا العامة، وأهلكوا عددا كبيرا منهم، ولم يجر في مدينة حمص ما جرى هذه المرة من المغول (١)

والواقع ان بلاد الشام عانت زمن حملة غازان سنة ٦٩٩هـ/ ١٢٩٩م) أكثر مما عانت من قبل، فلم يترك جنود غازان وامراؤه وسيلة الا اتبعوها لاستخراج الأموال، ومصادرة السكان فعذبوا وقتلوا الكثير في دمشق وخاصة في جبل الصالحية، فقد قتلوا ما يزيد على أربعمائة نفس، كما مات قسم من السكان في الزحام عندما حاولوا الفرار من مواجهتهم وقد توفي في الجبل ودمشق الكثير من الجوع والبرد ويقدر عددهم بنحو اربعة الاف نسمة، وقد مات من شيوخ الحديث اكثر من مئة نفس. (٢) وكانت هذه الأيام أياما سوداء على دمشق، فقد حل بأهلها من العذاب والبلاء والقتل والتنكيل ما سبق وصفه.
وكثر عبث المغول وفسادهم أثناء حملة غازان في فلسطين فقد قام بولاي الأمير المغولي بغارات على الأغوار، ووصلوا غزة والقدس الشريف وقتلوا بجامع غزة خمسة عشر رجلا عادوا بعدها الى دمشق بعدما أسروا عددا كبيرا. (٣)

ولم تسلم حلب والمعرة وتيزين والعمق وجبال انطاكية وجبل السماق من سوء تصرف الظالمين فقد هاجموها سنة ٧٠٠هـ/ ١٣٠٠م وقتلوا الكثير من سكانها. (٤)

وكيفما كان الأمر فقد عمد المغول باستمرار الى مهاجمة دمشق وذلك لاضافها باعتبارها خط الدفاع الرئيسي الذي ان تجاوزوه وصلوا الى مصر واستطاعوا مهاجمة دولة المماليك التي أخذت على عاتقها حماية المسلمين في المنطقة ضد الخطر المغولي، لذلك نرى أن قائدا مغوليا يدعى كوتوتسا دخل الشام سنة ٧٠٣هـ/ ١٣٠٣م وملك دمشق وأحرق البيوت والزروع وقتل السكان، ثم عرج في طريق عودته الى حمص وقتل من وجد فيها من المسلمين. (٥)

---

(١) - المنصوري: المصدر نفسه، ص٨ ١٥-١٥٩ - أبوالفدا: المصدر نفسه، ج ٤، ص٥ - ١ - ابن الفرات: المصدر نفسه، ج ٧، ص٦ ٢١٦ - المقريزى: المصدر نفسه، ج ١، ق ٣، ص٦٩٣ - العيني: عقد الجمان ج ٢، ص٦ ٢٧ - ابن تغرى بردى: النجوم، ج ٧، ص ٣٠٢ - عاشور: العلاقات، ص ١١٨

(٢) - المنصوري: التحفة، ص٨ ١٥-١٥٩ - النويرى: المصدر نفسه، ج ٣١، ص٠ ٤٠ - الذهبي: دول ج ٢، ص٤ ٢٠ - الصفدى: تحفة، ج ٢، ص٤ ٢٠ - ابن كثير: المصدر نفسه، ج ١٤، ص٨ - ابن خلدون: العبر، ج ٥، ص ٣٩٢ - المقريزى: المصدر نفسه، ج ١، ق ٣، ص٩ ٨٨-٨٩٦ - العيني: المصدر نفسه، ج ٤، ص ٣٨.

(٣) - المنصوري: المصدر نفسه، ص٨ ١٥ - النويرى: المصدر نفسه، ج ٣١، ص٠ ٤٠ - ابن كثير: المصدر نفسه، ج ١٤، ص ١٠ - دهمان: ولاة، ص٩ ١٠.

(٤) - ابن الفوطي: المصدر نفسه، ص٨ ٢٣ - ابوالفدا: المصدر نفسه، ج ٤، ص٥ ٤ - النويرى: المصدر نفسه، ج ٣١، ص٥ ٤١ - ابن الوردى: تتمة المختصر، ج ٢، ص٥ ٣٥ - كرد علي: المرجع نفسه، ج ٢، ص٧ ١٣

(٥) - منقريوس: تاريخ دول الاسلام، ج ٢، ص ٢٨٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وتستقر الأوضاع في بلاد الشام قليلا ، وينعم السكان بنوع من الهدوء ، والراحة ، والأمان ، ليصل الى المنطقة آخر الغزاة المغول الذين لهم يد طولى وقدم راسخة في تدمير الحضارة الانسانية ، ألا وهو تيمورلنك ذلك أن هذا الغازي الذي خرج من أواسط آسيا استطاع أن يشق طريقه غربا على أنقاض المدن ، وجثث القتلى حتى وصل الى بلاد الشام ، وكان سلاحه المذابح والحرائق ، والقتل الجماعي والابادة ترافق هذا القائد وجنوده . وقد فاق في وحشيته أسلافه المغول الذين أتوا المنطقة كهولاكو ، وغازان ، ففي مدينة حلب هلك تحت أرجل خيله خلق كثير لا تعد ولا تحصى ، حيث امتلأت الخنادق من كثرة القتلى ، وحاولت النساء والصبية الخروج من أبواب حلب ، فداس بعضهم بعضا حتى صارت الرمم طول قامة ، والناس تمشي من فوقها ، والمغول يقتلون ، كما احتمت النساء والأطفال في الجوامع ، لكن المغول هتكوا حرمة الجوامع وقتلوا الناس فيها فامتلأ الجامع والطرقات برمم القتلى واستمرت هذه المصيبة على أهل حلب أربعة أيام متتالية ، من يوم السبت الى الثلاثاء الثالث عشر والرابع عشر من ربيع الاول ، وقد سببت كثرة القتلى في المدينة الى تلوث الهواء وعفونته ، وقد تفنن المغول في أساليب قتل النساء ، حيث أنهم ربطوهن بالحبال ، كما أعملوا السيف في الأطفال . وقد أوقفت هذه المذبحة ضد أهالي حلب بعدما استسلمت القلعة .

كما بنى تيمور من رؤوس القتلى منابر مرتفعة في السماء نحو عشرة أذرع في دور عشرين ذرعا فكانت زيادة على عشرين ألف رأس ، عدا من هلك تحت أرجل الخيول عند اقتحام أبواب المدينة ، وكان تيمور يقدم على بناء هذه المنابر اظهارا لعظمته على جرى عادته في البلاد الأخرى . (١)

---

(١) - ابن خطيب الناصرية : المصدر نفسه ، ج ١ ورقة ٣٥١ - المقريزي : المصدر نفسه ، ج ٣ ، ق ٣ ، ص ١٠٣٣ - ١٠٣٤ - ابن تغرى بردى : المنهل ، ج ٦ ، ص ١١٤ - النجوم ، ج ٢ ، ص ٢٢٣ - ٢٢٤ - ٢٢٥ - ابن عربشاه : عجائب المقدور ، ص ٢٠٧ - ٢٠٩ - الصيرفي : نزهة النفوس ، ج ٢ ، ص ٧٥ - ٧٦ - السخاوى : الضوء ، ج ٣ ، ص ٤٦ - ٤٨ - القرماني : أخبار ، ص ٢٠٨ - ابن العماد الحنبلي : شذرات ، ج ٧ ، ص ٧٢ - الشوكاني : البدر الطالع ، ج ١ ، ص ١٧٥ - العلبي : تيمورلنك ، ص ١٢٣ - كرد علي : المرجع نفسه ، ج ٢ ، ص ١٦٧ - لامب : تيمورلنك ، ص ١٢١ - حمادة : دراسة وثقية ص ٣٥١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

على القلوب من الخوف منهم . وقد خربت دمشق بالكامل ففي سنة ٨٠٤هـ/١٤٠١م دخلها الاميرتغري بردي فوجدها خرابا لسبب حرقها ونهبها وسبي أهلها .(١)

وقدر المؤرخون بأن اعداد الذين هلكوا بحلب وحماة ودمشق في محنة تمرلنك بالجوع والقتل والحريق والأسر عشرات الالاف ، بينما قال مؤرخون آخرون بأنه لا يعلم عددهم الا الله تعالى .(٢)

والخلاصة أن تيمورلنك ترك بلاد الشام أطلالا بالية، أطفالها معرضين للجوع والموت ، نساءها ثكلى على أزواجهم واخوانهم وآبائهم .

وقد قال بعض أهل الأدب فيما حل في حلب :

ياعيني جودي بطرف منك منسحب	طول الزمان على ما حل في حلب
من العدو الذى قد ام ساحتها	ناح الغراب على ذاك الحمى الخرب
ويلاه ويلاه ياشهبا عليك وقد	كسويتي ثوب حزن غيرمنسلب
من بعد ذاك العلا والعز قد حكمت	بالذل فيك يد الأغياد والنوب
وحين جامعنا الله ما دفعت	عنك الجيوش ولا الشجعان بالقضب
وأصبح المغل دكا عليك ولم	يرعوا لجارك ذى القرى ولا الحبب
وفرقوا أهلك السادات وانتشروا	في كل قطر من الأقطار بالجوب
وبدلوا من لباس اللين ذا خشن	نعم ومن راحة الأبدان بالنصب
وخربوا ربعك المعمور حين غدوا	يسعون في كل نحو منه بالنكب .(٣)

وهكذا كان للغزو المغولي انعكاسات سلبية على المجتمع ، فقد دبت فيه الفوضى والنزاعات بين أعيان السلطة وأهل المنطقة اذ تجسد هذا القول عمليا عند النزاع بين نائب حلب كمشبغا الحموي ، والسلطان حاجي سنة ٧٩١هـ/١٣٨٨م الذى انعكس قتلا وسلبا على أهل بانقوسا في حلب .(٤)

---

(١) - ابن طولون : اعلام الورى ، ص ٥٧ .

(٢) - المقريزي : المصدر نفسه ، ج ٣ ، ق ٣ ، ص١٠٧٣ - ابن تغرى بردى : المنهل ، ج ١ ، ص ١٦٥ - النجوم ، ج ١٢ ، ص ٢٤٥ - ابن اياس : المصدر نفسه ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٦٣٧ .

(٣) - ابن خطيب الناصرية : المصدر نفسه ، ج ١ ورقة ٣٥٣ .

(٤) - المقريزي : المصدر نفسه ، ج ٣ ، ق ٢ ، ص ٦٦٢-٨٦٤ - الصيرفي : المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ٢٥٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

كما أن نائب غزة حسن بن باكيش استغل الاضطرابات الحاصلة سنة ٧٩٢هـ/١٣٨٩م وقتل الكثير من الناس، وماثله في هذا العمل نائب طرابلس يونس بلطا حيث أقدم سنة ٨٠٢هـ/ ١٣٩٩م على قتل ما يقارب الألف من طرابلس، وأخذ أموالهم وسبى حريمهم اذ كانت هذه الواقعة من أقبح الحوادث (١).

ب : نهب السكان :

- عانت مدن الشام من الهجوم المغولي عليها، فالى جانب القتل والأسر والمصادرات وغيرها قام الغزاة بنهب محتويات المدن سواء العلمية أو المالية أو التجارة وغيرها . فقد أقدم الجيش المغولي عندما قدم هولاكو الى الشام على نهب النفائس العلمية والأدبية والفقهية من بلاد الشام وأرسلت الى المجمع العلمي الذى أسس تحت اشراف نصير الدين الطوسي ، والذى أقام له مرصدا بمراغة، وجعل هناك خزانة ملأها من الكتب التي نهبت من بغداد والشام والجزيرة وقد تجمع فيها ما يزيد على أربعمائة ألف كتاب (٢).

اما في دمشق فقد أقدم الغزاة على نهب محتويات القلعة بالاضافة الى تخريب أسوارها (٣) أما نواحي حلب فقد نهبت كلها (٤)

وكان الأرمن يحيطون بأطراف البلاد الشمالية لذلك قاموا بالهجوم على هذه الأطراف أكثر من مرة ونهبوا المدن والقرى وهذا ما فعلوه سنة ٦٦٠هـ/١٢٦١م حيث أغاروا على الفوعة من ضواحي حلب وسلمين وجبل ببلون والحفة وأفسدوا ونهبوا حتى استطاع نائب السلطة ردهم على أعقابهم (٥).

وقد كرروا عملهم هذا سنة ٦٦١هـ/١٢٦٢م عندما قام التكفور بنفسه بالهجوم على الجومة، ومعرة مصرين وسرمين والفوعة، حيث أسر من رجالها ثلاثمائة وثمانين نفرا اضافة الى كبس سرمين ونهب غيرها من المناطق التي تعرضوا لها (٦).

---

(١) - ابن تغري بردي : النجوم، ج ١٢، ص ١٩١ - ٢٥٠ .
(٢) - ابن شاكر : فوات الوفيات، ج ٢، ص ٣٠٧ - دهمان : ولاة، ص ٥١ .
(٣) - أبو الفدا : المصدر نفسه، ج ٣، ص ٢٠٣ - ابن كثير : المصدر نفسه، ج ١٣، ص ٢١٩ .
(٤) - الذهبي : العبر، ج ٥، ص ٢٤١ .
(٥) - اليونيني : ذيل مرآة، ج ١، ص ٤٩٦ - ابن كثير : المصدر نفسه، ج ١٣، ص ٢٣٤ .
(٦) - اليونيني : المصدر نفسه، ج ١، ص ٥٣١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وسبب قدوم غازان الى بلاد الشام سنة ٦٩٩هـ/١٢٩٩م فوضى واضطرابات أمنية في البلد فقد هرب السجناء من سجون دمشق ونهبوا الاموال، وكانوا مائتي رجل تقريبا، كذلك كسروا أقفال الباب البراني بباب الجابية، ولم يقتصر النهب في دمشق على أهل السجون بل نهبت من قبل المغول أنفسهم بعد خروج غازان.(١)

كذلك نهبت الأماكن المتواجدة/ حول قلعة دمشق.(٢) وفي سنة ٧٠٠هـ/١٣٠٠م نهب غازان كثيرا من الحيوانات عند هجومه على حماة وسرمين.(٣)

كما ساهمت جماعة من المغول تلك المتمركزة في بلاد الشام وخاصة الشمالية في نهب مدن الشام ففي سنة ٧١٦هـ/١٣١٦م تعرضت أطراف حلب للنهب. وقد وصل المغول في غارتهم قريب من قلعة كختا.(٤)

تمركز تيمورلنك في مدن الشام كحلب ودمشق الى لتعرض سكانها للنهب، ففي حلب نهب جنوده مشهد الدكة بما فيه من الأواني الفضة والبسط وخربوا الضريح والجدار ونقضوا أبوابه، كذلك نهبوا مشهد الحسين وأخذوا ما وقعوا عليه من الستور والبسط والفرش والأواني النحاس والقناديل الذهب والفضية والشمع، ولم يكتفوا بذلك بل خربوا أبوابه.(٥)

كما نهب ما وجد في قلعة حلب من الأموال والمتاع. ومع أنه لم يستقر في بعلبك الا أنه نهبها.(٦) وفي الوقت نفسه قام ابنه ميران شاه بنهب خارج سور مدينة حماة.(٧)

---

(١)- ابن كثير: المصدر نفسه، ج ١٤ ص ٧ - المقريزي: المقفى، ج ٧، ص ١٧١-١٧٣- دهمان: ولاة، ص ٩١ .

(٢)- اليافعي: مرآة، ج ٤، ص ٢٣٠- الذهبي: العبر، ج ٥، ص ٣٩١ .
(٣)- النويري: المصدر نفسه، ج ٣١، ص ٤١٥- ابن الوردي: المصدر نفسه، ج ٢، ص ٣٥٥ - ابن تغري بردي: النجوم، ج ٨، ص ١٣٢ .
(٤)- المقريزي: السلوك، ج ٢، ق ١، ص ١٦٢ .
(٥)- ابن الشحنة: الدر المنتخب، ص ٨٧- ٨٩ .
(٦)- كرد علي: خطط، ج ٢، ص ١٧٤ .
(٧)- المقريزي: السلوك، ج ٣، ق ٣، ص ١٠٣٥- ابن تغري بردي: النجوم، ج ١٢، ص ٢٢٥ - ابن اياس، ج ١، ق ٢، ص ٦٠٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وبعد أن أنهى تيمورلنك نهبه للمناطق الشمالية والوسطى من بلاد الشام توجه نحو مدينة دمشق وجبى منها الأموال ونهبها ، وطلب من جنده القيام بغارة عامة على المدينة. وقد بدأت عمليات النهب من ٣٠ رجب ١٤٠١م وقد استمرت ثلاثة أيام قام خلالها الجند بنهب ما تبقى من مال ومتاع.(١)

واثر استيلائه على قلعة دمشق أخذ منها أموالا لا تعد ولا تحصى من ذهب وفضة وقماش وسلاح وأثاث وغيرذلك من أموال اهل الشام وأهل مصر وممن نهب ماله من أهل مصر علي بن سيف بن علي بن سليمان القاهري ويقال انه باع دمشق لأهلها ثلاث مرات وفي كل مرة بجملة مستكثرة.(٢)

وقد أثارت المنهوبات اعجاب الغزاة ووفرتها ، فقد ضمت الجواهر والنفائس التي عثر عليها في قلعة دمشق وفي دور الأغنياء . ولكثرة المنهوبات لم يستطيعوا حملها في الطريق فقد كانوا يطرحونها في الدروب والمنازل حتى أصبحت الطرق التي مروا عليها كأنها سوق أو معرض.(٣)

جـ: تعذيب السكان :

كانت المكاسب المادية من ضمن الأهداف التي سعى المغول للحصول عليها من المناطق التي استولوا عليها ، لذلك اتبعوا أساليب كثيرة للحصول على هذه المكاسب.
وأقسى أساليب التعذيب اتبعت في حملة تيمورلنك ، أما في حملة غازان فكانت أخف وطأة منها ، وفي حملة هولاكو لم يذكر المؤرخون بأنه أتبعت أساليب لتعذيب السكان للحصول على هذه المكاسب ربما لأن النصر في عين جالوت جعلهم يخرجون من المنطقة بسرعة دون أن يستقروا فيها ويحصلوا على ما يريدون وانما أوردت المصادر أسماء بعض الشخصيات التي ماتت تحت التعذيب ، منهم ابن العجمي أبي طالب عبد الرحمن بن عبد الرحيم الحلبي ، ابراهيم بن خليل الآدمي ، الرئيس أبي طالب عبد الرحمن بن عبد الرحيم بن العجمي.(٤)

---

(١) - ابن تغرى بردى : النجوم ، ج ٢ ، ص ٢٤٥ - العلبي : تيمور ، ص ١٨٦ - والتر : المرجع نفسه ، ص ١٥٦ - لامب : تيمورلنك ، ص ١٢٦ - شهاب : تيمورلنك ، ص ٣١٧ .
(٢) - ابن عربشاه : المصدر نفسه ، ص ٤٧٦ - ابن تغرى بردى : المنهل ، ج ٤ ، ص ١٢٥ - الصيرفي : نزهة ، ج ٢ ، ص ٨٨-٨٩ - السخاوي : الضوء ، ج ٥ ، ص ٢٣٠ .
(٣) - ابن عربشاه : عجائب ، ص ٢٨٨ - لامب : المرجع نفسه ، ص ١٢٦ - شهاب : المرجع نفسه ، ص ٣١٨
(٤) - الذهبي : العبر ، ج ٥ ، ص ٢٤٦ - ابن تغرى بردى : النجوم ، ج ٧ ، ص ٩١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وفي فترة حملة غازان سنة ٦٩٩هـ/١٢٩٩م هلك الكثيرمن سكان بلاد الشام ،اما نتيجة الجوع أو نتيجة التعذيب الذى سورس ضدهم . وقد مات في التعذيب الكثيرمن الشخصيات البارزة أمثال علي بن الحسن بن عبدالله بن الجابي الخطيب بجامع جراح ، ومحمد بن ابي بكربن عبدالسلام بن ابراهيم الصالحي الحفار . وابن شقيروابن المنجي ،ابن القلانسي وغيرهم من كبارالبلد ،مثل قاضي القضاة ابن صصرى .

وقدا تبع المغول مع هؤلاء اسلوب الضرب على الظهر مع مسك الأكمام ،أو اسلوب العصروغيره (١)

وقد بدأ عهد من التعذيب الوحشي في المناطق التي استولى عليها تيمورلنك ولم تنج مدينة من المدن من الخراب والعذاب والفساد ،فقد تعرضت دمشق ،وشملتها حماه ،وحلب لهذا العذاب .

كما مارس تيمور على أهل دمشق أنواعا كثيرة من العذاب كالضرب والعصر ،والاحراق ،التعليق منكسين ، غم أنف الفرد بخرقة فيها تراب ناعم كلما تنفس دخل في أنفه حتى تكاد نفسه تزهق ،واذا أشرف الرجل على الهلاك يخلىعنه حتى يستريح ثم تعاد عليه العقوبةأنواعا ، وتؤخذ نساؤه وبناته وأولاده ويقسم الجميع على أصحاب تيمور .

واتبع المغول أساليب أخرى للتعذيب منها أنهم كانوا يأخذون الرجل ويشدون رأسه بحبل ويلويه حتى يغوص في رأسه ،ومنهم من كان يضع الحبل بكتفي الرجل ويلويه بعصاه حتى تنخلع الكتفان ،ومنهم من كان يربط ابهام يدى المعذب من وراء ظهره ثم يلقيه على ظهره ويذرفي منخريه الرماد مسحوقا ،فيقر على ماعنده شيئا بعد شيء ،ولا يزال يكررعليه العذاب حتى يموت ،ومنهم من يعلق بابهام يديه في سقف الداروتشعل النارتحته ويطول تعليقه فربما يسقط في النار ،فينسحب منها ويلقونه على الارض حتى يفيق ثم يعلق ثانيا .

(١)-ابن ايبك الدوادارى :المصدرنفسه ،ص ٢٩ -العسقلاني :الدرر ،ج ٣ ،ص ٣٩-٤٠٤ -الشوكاني :المصدرنفسه ،ج ٢ ،ص ٣ -العصر: كان يوضع الشخص واطرافه بين خشبتين ويضغط عليه حتى تكاد روحه تزهق ،ثم يرتاح ،ثم يعودوا لتعذيبه حتى يقر بما عنده من اموال .-انظر دهمان ولاة ،حاشية (١) ،ص ١٠٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أو كان الشخص يعلق من ابهامي قدميه بالسقف وتوقد النار تحته ،أو يربط بحبل من تحت ابطيه ويعلق بالسقف ،ثم يبرم بشدة ليدور على نفسه بسرعة كبيرة ،ويجبر أحيانا على المشي على النار ،أو تقص أعضاؤه ،أما الاعيان الكبار فعذبوهم بالماء والملح وسقوهم الرماد والكلس ،وكووهم بالنار ،واستخرجوا منهم الأموال ،وقد استمر تعذيب السكان تسعة عشر يوما حتى الثلاثاء ٢٩ رجب ١٤٠١م (١).

وقد صور بعض المؤرخين حالة دمشق ومنهم الصيرفي حيث قال :

((كم من تاجر يقاد وهو في قيد ،وكم من شاب يستغيث وهو ينقل التراب ،وكم من شيخ يصيح وهو في العقاب ،وكم من صغير تحت سنابك الخيل طريح ،وكم من فقير من الجوع يصيح ،وكم من بكر قد أزيلت عذرتها ،وكم من مخدرة قد اهتك سترها ،وكم من غني كان يطعم الناس ويعطيهم فصار اليوم يسأل الناس ويستعطيهم ،وكم من عزيز وصاحب رفعة وشأن صار اليوم في قهر وخذلان فصار اهلها مابين كسير وطريح ،وأسير وجريح ،فصاروا كبني اسرائيل ، قهر تيمورلنك واسره ،
سلط عليهم أنواع البلايا ،/ وخراب الدور والبقاع ،ووقوع الحريق في الأصقاع ،وسبي الحريم والأطفال ،واستعباد الرجال والنساء والغلاء المفرط الشامل ،والبرد والثلج والمطر النازل ،ثم بعد ذلك كله جراد منتشر وموت ذريع ،وخوف مستمر وضنك منيع ،آيات بينات فيها عبر وتنبيه)) (٢).

أما حلب فقد أذاقوا أهلها أنواعا من العذاب كالقتل والعصر والكي والعقاب ،فقد سجلت أسماء الناس ،ثم قبض عليهم ،ولم يسلم من العقوبة الا القليل ،ويدل على ذلك ماذكره ابن عربشاه بأنهم عذبوا مابين مقيد وسجين ومرسم عليه . ولم يسلم المشايخ من عذابهم ، فمما فعلوه مع الشيخ علي بن محمد بن احمد أنهم ملؤوا سطل نحاس من الماء والملح ليسقوه اياه وشرعوا في ربطه ،فجاء ثور وشربه ،فأطلقوه ولم يعاقبوه .

---

(١) - المقريزي : المصدر نفسه ،ج ٣ ،ق ٣ ،ص ١٠٥٠ - ابن عربشاه : عجائب المقدور ،ص ٢٨٠ .
- ابن تغري بردي : النجوم ،ج ١٢ ،ص ٢٤٤ - ٢٤٥ - المنهل ،ج ٤ ،ص ١٢٥ .
- ابن اياس : المصدر نفسه ،ج ١ ،ق ٢ ،ص ٦١٥ - الطبي : تيمور ،ص ١٨٤ - ١٨٥ .
- السيد : دولة المماليك الثانية ،ص ١٤١ . شهاب : تيمورلنك ص ٣١٧ - الطبي : تيمورلنك ص ١٨٦
- والتر (فيشل) : لقاء ابن خلدون لتيمورلنك ،بيروت ،دار الحياة ،ص ١٥٥ .
(٢) - الصيرفي : نزهة النفوس ،ج ٢ ،ص ٩١ - ٩٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

واستمر هذا العذاب بحلب عشرين يوما وشاهد الناس الكثير من البلاء، بينما أقام تيمورلنك وليمة بعد استيلائه على القلعة. ويقال انه بنى بحلب عدة مآذن من رؤوس بني آدم لكثرة من مات من القتل والتعذيب وقيد قيل في ذلك شعرا :

على حلب حلت مصائب هلاوز
من آل / باطو وجنكز
وطوس وخربندا وننجي وكتبغا
ورد وس ونكدار وبلطر وطلسبا

بأيدى تيمرلنك ومغل وجغطاي
والغاز وقازان وبيد وطقطاي
نويس وصمغان وقيد وبولاي
وطوطوا وسور وزنجي ونوغاي . (١)

وقد مات من أصحاب المهن العلمية والدينية والحرف الكمالية اضافة الى المناصب السياسية الكثير ، فممن توفي تحت عقوبة النكبة نذكر بعض الاسماء :

- حسن بن منصور البدر الحنفي متولي الحسبة .
- عبد الأحد محمد بن عبد الأحد بن عبد الرحمن أبو المحاسن الحراني .
- علي بن العلاء بن مفلح الدمشقي مات من الكوي على ظهره .
- محمد بن سليم بن كامل الحوراني .
- عمر بن براق الدمشقي .
- محمد بن عمر بن محمد بن أبي الكتائب العجلي .
- الشيخ زين الدين عمر النيربي الشافعي المفتي بدمشق . (٢)

ز- الأسـر :

أجمعت المصادر الغربية على وصف المغول بأنهم فاقوا في قسوتهم أشد الشعوب همجية ، فقتلوا غيلة جميع من وقع في أيديهم من أهل البلاد التي استولوا عليها ، ولم يبقوا على رجل أو امرأة أو طفل . (٣)

---

(١) - ابن عربشاه : المصدر نفسه ، ص ٢١٦ - ابن تغرى بردى : المنهل ، ج ٤ ، ص ١٢١ - الصيرفي : المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٧٥ - ٧٦ - السخاوى : الضوء ، ج ٥ ، ص ٢٨٤ ، ج ٣ ، ص ٤٨ - الشوكاني : المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ١٧٦ .

(٢) - العسقلاني : انباء ، ج ٢ ، ص ٣٠٩ - ٣٢٠ - الصيرفي : المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ١٢٥ - ١٢٨ - السخاوى : المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ١٢٩ - ج ٤ ، ص ٢١ - ج ٦ ، ص ٥٧ - ج ٧ ، ص ٢٦٢ .

(٣) - الصياد : المغول : ص ٢٢٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وهذا الكلام صحيح ، فلو نظرنا الى حالة بلاد الشام بعد ما أحرقت ونهبت وقتل سكانها ودمرت ماذا جرى بعد ذلك لأهلها ؟ لقد سيق بعض السكان أسرى من قبل الغزاة ، ولم يكن حافزهم وباعثهم على هذا العمل هو طلب الثأر والانتقام ، وانما كانت بواعثهم ارضاء المطامع السياسية لحكامهم ، بوجوب اخضاع المنطقة لسيطرتهم ، والاستقرار فيها ، يرافقها مطامع اقتصادية وأخرى دينية.

وكان المغول لا يرحمون كبيرا ولا صغيرا ، عجوزا أو شابا ، فقد سبوا النساء وأسروا الصبيان والرجال ولم يفرقوا بين ملة وأخرى وانما طبقوا هذا على جميع الملل ، وهذا ما حصل عند قدوم هولاكو لمدينة حلب ، فقد سبوا ما يزيد على مائة ألف نفس ما بين صبي وعجوز وامرأة ورجل ، وكان من بين السبايا بنات الملوك والامراء ، وبنات الأعيان من الحلبيين وخاصة الأشراف ، كما شمل الأسر أولاد الملك الناصر وأقاربه وأهله ، وقد بيع أكثر هؤلاء في بلاد الفرنج وبلاد الأرمن ونقلوهم الى جزائر البحر الجوانية !(١)

وكان المغول بعد كل غارة تقريبا يبيعون ما استطاعوا بيعه من الأسرى وهذا ما حصل عندما هاجم المغول غزة والخليل والصلت وبركة زيزا والكرك فقد أسروا النساء والصبيان وباعوا أكثرهم في دمشق ، وأطلقوا بعضهم وهرب قسم آخر ، واصطحبوا من بقي معهم!(٢) وقد تكررت أعمالهم الوحشية من السبي والأسر في كل مدن الشام ففي سنة ٦٧٩هـ/١٢٨٠م سبوا الكثير من حلب ، كذلك سنة ٦٨٣هـ/١٢٨٤م حيث قاموا بسبي أهل وادي التيم ، وسنة ٦٩٩هـ/١٢٩٩م في دمشق عند دخولهم الصالحية فقد أسروا نحو أربعة آلاف نسمة ، وعندما نهبوا دير الحنابلة سبي من كان فيه من النساء والأولاد ، ومن جملة ما أخذوا مائة وعشرين بنتا ، وفي مصادر أخرى الف بنت بكر ، كما أسروا القاضي تقي الدين الحنبلي حيث وضعوا في رقبته حبلا كانوا يجرونه فيه ثم تركوه وقاموا بأسر عدد كبير من سكان فلسطين ، ويقال ان الذي صحبهم غازان من الأسرى في هذه السنة من البلاد أحد عشر ألف نفس من

---

(١) - الذهبي : دول ، ج ٢ ، ص ١٦٢ - اليافعي : المصدر نفسه ، ج ٤ ، ص ١٤٨ - ابن كثير : المصدر نفسه ، ج ١٣ ، ص ٢١٨ - المقريزي : المصدر نفسه ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤٢٢ - العيني : المصدر نفسه ، ج ١ ص ٢٣١ - شهاب : الدولة الايلخانية ، ص ١٤٥ - عاشور : العلاقات ، ص ٤٣ - فهمي : الدولة المغولية ، ص ١٤١ .

-(٢) - اليونيني : ذيل ، ج ١ ، ص ٣٥١ - المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤٢٥ - ابن تغرى بردى : النجوم ، ج ٧ ، ص ٧٧ - العريني : المغول ، ص ٢٤٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الرجال والنساء والأطفال ، ولم يصحب معه الى بلاده الا القليل منهم ، فان بعضهم قد هرب ، وآخرون ماتوا ، وبعضهم الآخر اختفى .(١)

وقد تدخلت الهيئات الدينية في فك قيد الأسرى الذين أخذهم غازان ونائبه قطلوشاه .

وقد وصف ذلك الشيخ ابن تيمية الذي قام هو بنفسه بطلبهم من القائد المغولي حيث أنه أقام عنده ثلاثة أيام يحادثه ويعظه ويكلمه في فك ما بيده من الأسرى ، فاستنقذ عددا كبيرا منهم وقد وصف ذلك ابن تيمية حيث قال :

« لما خاطبت التتار في اطلاق الأسرى ، وأطلقهم غازان/وقطلوشاه ، وخاطبت مولاى فيهم ، فسمح باطلاق المسلمين ، قال لي : لكن معنا نصارى أخذناهم من القدس ، فهؤلاء لا يطلقون ، فقلت له : بل جميع من معك من اليهود والنصارى الذين هم أهل ذمتنا ، فانا نفكهم ، ولا ندع أسيرا لا من أهل الملة ولا من أهل الذمة . وأطلقنا من النصارى من شاء الله ، فهذا عملنا واحساننا والجزاء على الله ».(٢)

فكانت الهيئات الدينية تحاول قدر الامكان رفع الضرر عن فئات المجتمع ، فلا تفرق بين ملة وأخرى بل ان جميع السكان متساوون في حقوق المواطنة بغض النظر عن أديانهم .

ولم تسلم الجبال البعيدة عن متناول غازان ، فقد توجه وجيشه الى جبال انطاكية والسماق ، وسبوا النساء والصبيان ، وأسروا من الرجال خلقا كثيرا ، وكالعادة فقد عرضهم للبيع ، ورخصت الأسرى من المسلمين حتى بيع الأسير والأسيرة بستة دنانير أو عشرة دراهم ، وقد اشترى الارمن خلقا كثيرا من الأسرى وسيروهم في المراكب الى بلاد الفرنج .

وقد ظن سكان بلاد الشام أن في الجبال البعيدة أمانا لهم من المغول اذا ما داهموا المنطقة ، لكن ذلك لم يغن بشيء فقد كانت هذه الجبال تغص بالكثير من الهاربين اليها والى الجهات الساحلية . وقد أدى ذلك الى وقوع كثير من الاسرى بيد غازان .(٣)

---

(١) - الذهبي : دول ج ٢ ، ص ٢٠٤ - الصفدي : تحفة الالباب ، ج ٢ ، ص ٢٠٤ - المقريزي : المصدر نفسه ، ج ١ ، ق ٣ ، ص ٨٩٦ - ٨٩٦ - ابن كثير : المصدر نفسه ، ج ١٤ ، ص ٨ - ابن صصرى : الدرة المضيئة ، ص ٩٢ - العيني : المصدر نفسه ، ج ٤ ، ص ٣٧ - ٤٧ - كرد علي : المرجع نفسه ، ج ٢ ، ص ١١٧ - ١١٩ - عاشور : العلاقات ، ص ١٥٣ .

(٢) - دمج (علاء الدين) : الرسالة القبرصية خطاب من شيخ الاسلام ابن تيمية الى سرجواس ملك قبرص . دار ابن حزم/بيروت ، ط ١ ، ١٤٠٨ هـ/١٩٨٧ م ، ص ٤٠ - العيني : المصدر نفسه ، ج ٤ ، ص ٤٤ - دهمان : ولاة ، ص ١٠٩ .

(٣) - النويري : المصدر نفسه ، ج ٣١ ، ص ٤١٥ - ابن ايبك الدوادارى : المصدر نفسه ، ص ٤٦ - العيني : المصدر نفسه ، ج ٤ ، ص ١٢٨ - بدر : مغول ايران ، ص ٩٥ - ٩٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومن الجدير بالذكر أن جميع مدن الشام دون استثناء قد تعرض أهلها للسبي والأسر في أثناء حملة تيمورلنك على بلاد الشام. فقد أسر الغزاة القضاة والعلماء والأدباء والأطفال والشيوخ والنساء والفلاحين والحرفيين ولم يسلم منهم أي انسان. ففي مدينة حلب أسر جيشه جماعة من القضاة والعلماء والأعيان من التجار ومن عسكر مصر ومن أمرائها وقضاتها، وأسر في هذه الوقعة نائب حلب بالذات وهو دمرداش المحمدي ونائب الشام سودون، وشيخ المحمودي نائب طرابلس لكن الأخير استطاع أن يتخلص منهم فيما بعد وهرب الى القاهرة، ثم عاد الى ولايته وقد تولى نيابة دمشق سنة ٨٠٥هـ/١٤٠٢م ولم يبق في بلاد الشام بلدة الا وحكم فيها ما بتوليه من السلطان أو بيده القوية، اضافة الى اسنباي الزردكاش (ت ٨٠٢هـ/١٤٤٨م)، الطنبغا بن عبدالله العثماني لكنه هرب من الأسر وقدم الى الديار المصرية، وتنقلت به الأحوال، وولي عدة وظائف الى أن آلت السلطنة للمؤيد شيخ المحمودي، بهاء الدين عمر نائب غزة.

وأسروا من أعيان دمشق القاضي ناصرالدين أبي الطيب كاتب سر دمشق، ومن أعيان الديار المصرية قاضي قضاة الشافعية صدرالدين المناوي، وقاضي قضاة المالكية ولي الدين عبدالرحمن بن خلدون، ويقال ان عدد الأسرى الذين ساقتهم جيوش الفاتح في ركابها ثلاثمائة وستين ألف أسير بين رجل وامرأة، وقد أخذ من الفقهاء والعلماء، وحفاظ القرآن وأهل الحرف والصناعات والعبيد والنساء والبنات والصبيان ما لا يسع الضبط ولا يحل الربط (١)

وقد استمر الأسر والسبي في حلب طيلة الفترة التي أقام بها تيمورلنك في المدينة، ووزع على أمرائه الأسرى من الشباب والأبكار، وكان جنوده قد ارتكبوا أبشع الأعمال تجاه النساء والأطفال الذين احتموا بالجوامع فمال عليهم أصحاب تيمور وقرنوهن بالحبال، وهلك من الأطفال التي أسرت أمهاتهم بالجوع أكثر ممن قتل. (٢)

---

(١) المقريزي: المصدر نفسه، ج ٣، ق ٣، ص١٠٥٧ - ابن عربشاه: المصدر نفسه، ص٢٩٥ - العيني: المصدر نفسه، طبقة الزهراء، ص١٠٦ - ابن تغرى بردى: المنهل، ج ٢، ص٤٣٢ - ج ٣، ص ٥١ - ٥٢ - الصيرفي: المصدر نفسه، ج ٢، ص٧٧ - ابن اياس: المصدر نفسه، ج ١، ق ٢، ص ٦١٥ - كرد علي: المرجع نفسه، ج ٢، ص ١٦٧ - ٢٢٢ - لابيدوس: مدن الشام، ص ٦٤.

(٢) - ابن خطيب الناصرية: المصدر نفسه، ج ١ ورقة ٣٥١ - المقريزي: المصدر نفسه، ج ٣، ق ٣، ص١٠٣٣ - العسقلاني: انباء، ج ٤، ص١٩٦ - ١٩٧ - ابن تغرى بردى: النجوم، ج ١٢، ص٢٢٣ - ٢٢٤ - ابن اياس: المصدر نفسه، ج ١، ق ٢، ص٥٩٨ - القرماني: أخبار الدول، ص٢٠٨ - الشوكاني: المصدر نفسه، ج ١، ص١٧٥ - لامب: المرجع نفسه، ص ١١٩ - العلبي: المرجع نفسه ص ١٣٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقد أخذ تيمورلنك جميع من كان في قلعة حلب من المعتقلين خلا بعض القضاة ، فأطلق موسى الأنصاري ، وعمر بن العديم ، وأخذ بقيتهم فهرب بعضهم في الطريق.[(١)]

وقد طبق على حماة ما طبق على المدن الشامية الأخرى ، فابن تيمورلنك ميران شاه سبى منها الأطفال والنساء وأسر الرجال.[(٢)]

كما سيق أسرى دمشق بعد ما ربط الأولاد مع الرجال ، وكانت مدة بقائه في دمشق ثمانين يوما فعل فيها كل التصرفات الشنيعة.[(٣)]

وسنورد بعضا لأسماء الشخصيات الذين نقلهم المغول كأسرى الى بلادهم ، وكان أكثرهم أصحاب مهن حرفية أو علمية وقد استخدموا في وظائف الدولة هناك.

- عبد الرحيم بن عثمان بن علي النصيبي الصالحي المعروف بابن الطباخ ، اقام عند المغول مدة في الأسر ثم عاد. مات بدمشق سنة ٧٤٧هـ/ ١٣٤٦م.[(٤)]

- علي بن محمد بن نصر الله بن المظفر بن أسعد بن حمزة التميمي علاء الدين بن القلانسي الشافعي أسره المغول نوبة غازان (ت ٧٣٦هـ).[(٥)]

- شرف الدين أبو طالب عبد الرحيم بن محي الدين بن محمد بن الشيخ العجمي.[(٦)]

- بهاء الدين أبو محمد عبد الرحمن بن قاضي القضاة عز الدين .. أبي عمر المقدسي ، أسره المغول وعمره عشر سنين وبقي ببلاد الشرق مدة ثم تخلص ووصل الى أهله ت ٧٣٧هـ/١٣٣٦م.[(٧)]

ان غياب الفئات المثقفة من الجماهير ، وغياب الطبقة العاملة والحرفية نتيجة للقتل أو للأسر عرض المنطقة ولفترة طويلة الى مرحلة من الضعف والعجز ، جعلها غير قادرة فيما بعد على مواجهة المصاعب السياسية الخارجية ، والاضطرابات الداخلية ، مما جعل المنطقة تتعرض لاحتلال جديد هو الاحتلال العثماني للمنطقة.

---

(١) - ابن خطيب الناصرية : المصدر نفسه ، ج ١ ورقة ٣٥٣ - كرد علي : المرجع نفسه ، ج ٢ ، ص ١٧٤.

(٢) - المقريزي : السلوك ، ج ٣ ، ق ٣ ، ص ١٠٣٥ - ابن تغري بردي : النجوم ، ج ١٢ ، ص ٢٢٥.
- ابن اياس : المصدر نفسه ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٦٠٠.

(٣) - المقريزي : المصدر نفسه ، ج ٣ ، ق ٣ ، ص ١٠٣٤ - ١٠٥١ - ابن تغري بردي : المصدر نفسه ج ١٢ ، ص ٢٤٥ - القرماني : المصدر نفسه ، ص ٢١٠ - ابن العماد : شذرات ، ج ٧ ، ص ٦٥
- لامب : تيمورلنك ، ص ١٢٥.

(٤) - العسقلاني : الدرر ، ج ٢ ، ص ٣٥٨.

(٥) - ابن كثير : المصدر نفسه ، ج ١٤ ، ص ١٨٠ - ١٧٥ - العسقلاني : المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ١١٨

(٦) - الذهبي : ذيول العبر ، ص ١١٥ - ابن حبيب : تذكره ، ج ٢ ، ص ١٠٩.

(٧) - الدمشقي : الوفيات ، ج ١ ، ص ٣٠

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ز - التنظيمات والحركات الشعبية :

وجد الشعب نفسه في هذه الفترة بلا حماية وسند لان النظام السياسي ارتكز على قوتين عسكرية ومدنية ،وهاتان القوتان لم تهتما بمصالح الشعب قدر اهتمامها بمصالحها الذاتية ،لذلك وجد نفسه مضطرا لتكوين قوات محلية ذات سمة شبه عسكرية لحماية عامة الناس من قاطني المدن (١) فعرفت مدن الشام منظمات اجتماعية متعددة منها منظمة الأحداث ، الفتوة ،وأحيانا وجدت ألفاظ زعار ،حرافيش وهذه الألفاظ تدل على ان هؤلاء كانوا فرقا من منظمات كبيرة كالأحداث وغيرها ،وقد برز دور هذه المنظمات أحيانا خلال الاضطرابات السياسية ،وخلال الاجتياح المغولي لبلاد الشام ،فقامت بالدفاع عن السكان ،وأحيانا شاركت بالحملات العسكرية الاسلامية ضد العدو الخارجي سواء الفرنجي أو المغولي ،اضافة الى أعمال أخرى أضرت بالمجتمع كثيرا .

وكلمة الأحداث مرادفة للفتى في اللغة أصلا ،والظاهر أن حركة الأحداث من فروع الفتوة وبدأ استخدام هذه الكلمة في البلاد الاسلامية ،قبل القرن الخامس للهجرة ،وذلك اثر استيلاء الفاطميين على أواسط بلاد الشام بعد أن أصبحوا أسيا ومصر (٢) ثم ازدادت هذه الحركة أو التنظيم اتساعا وأكثرها اشتهر من أحداث في بلاد الشام خلال تلك الفترة أحداث مدينة حلب ،وقد ورد ذكر الأحداث في زبدة الحلب في تاريخ حلب لكمال الدين عمر بن العديم مما يدل على استمرار دورهم السياسي في المنطقة (٣) .

وكان تسليح هذه التنظيمات اما من الضرائب المفروضة ،أو من التبرعات الطوعية أو الاجبارية لبعض أصحاب الأموال ،اضافة لامتلاك بعضهم سلاحا خاصا به (٤) .

وكان للأحداث تنظيمهم ورؤساءهم ،اضافة الى مرتبة النقيب والمقدم ،وكانوا يقومون بأعمال كثيرة منها فرض الضرائب ،حفظ الأمن داخليا وخارجيا (٥) .

وفي فترة قدوم الحملات المغولية للمنطقة لم نلاحظ استخدام كلمة الأحداث كثيرا في المصادر التي

---

(١) - زعرور :الحياة الاجتماعية ، ص ١٣٥ .

(٢) - كاهن (كلود) :الحركات الشعبية والاستقلال الذاتي في المدن الاسلامية خلال القرون الوسطى ترجمة عربية ، مجلة الاجتهاد - العدد السادس ، ١٩٩٠م ، من ص١٠٥-١١٧-٢٠٦ -
- زعرور :المرجع نفسه ،ص ١٣٨ .

(٣) - ابن المعمار الحنبلي (محمد) : الفتوة ،بغداد ، ١٩٦٠ ، ص ٣٧-٤٨ (مقدمة المحقق) .

(٤) - مصطفى (شاكر) : الحركات الشعبية وزعماؤها في دمشق ، مجلة كلية الآداب والتربية ، الكويت العددان الثالث والرابع ، ١٩٧٣ ، ص ١٩ - ١٧٤ - ٢١٣ .

(٥) - الدوري : مقدمة في التاريخ الاقتصادي ، ص ٨٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بين أيدينا وانما نلاحظ استخدام مصطلحات أخرى كالزعار والشطار والحرافيش اضافة الى الفتوة. واذا كان الاجتياح المغولي للعراق قد سبب ركودا للفتوة هناك، فانها انتقلت الى بلاد الشام عن طريق الخليفة العباسي المستنصر بالله الثاني الذى توج في مصر خليفة فقد نقل معه طقوس الفتوة وهذا ما أكده مجموعة من المؤرخين حين أكدوا بأن الخليفة ألبس الظاهر سراويل الفتوة بحضرة الأكابر، ثم ألبسها للمماليك وهذا يدل على رواجها ببلاد الشام ومصر.(١)

وقد أكد وجود الفتوة واستمرارها في بلاد الشام عدة مسائل منها ما جاء في كتاب السبكي في الفتاوى حيث عرضت عليه مسألة كالتالي :

((ما يقول السادة العلماء رضي الله عنهم في هذه الفتوة التي فشت فظهرت في هذا الزمان وصورتها أن قوما يجتمعون في بيت أحدهم فاذا اجتمعوا وأخذوا مجالسهم قام نقيبهم وأنشد أبياتا تتضمن استئذانهم في شد وسطه فيأذنون له، ثم يأخذ باحدى يديه شربة فيها ماء ويأخذ بيده الأخرى ملحا ويخطب خطبة. . ثم يضع الملح في الماء ويرفع الشربة ثم يقوم زعيم القوم وهو الذي يلبسهم سراويل الفتوة، فيجلس وسط القوم ويقول له النقيب من يطلب فيسمي من يريد من الحاضرين فيقومون واحدا واحدا كلما قام أحدهم شد الزعيم وسطه وأوقفه)).(٢)

اضافة الى الفتوى التي أفتى بها ابن تيمية، فقد وجه اليه سؤال من الناس، هل للفتوة أصل من الشريعة أم لا ؟ . وهل أحَلّ أحد من الصحابة أو التابعين أو من جاء بعدهم من أهل العلم هذه الفتوة، فأجاب ابن تيمية بأن لباس الفتوة واسقاء الملح والماء باطل لا أصل له، ولم يفعله أحد لا الرسول صلى الله عليه وسلم. ولا أحد من الصحابة، اضافة الى نفي أصل اللباس، ولم ينكر ابن تيمية الفتوة، ولكنه انكر نسبتها الى الرسول والصحابة والتابعين بينما أكد كاهن أن ابن تيمية حارب الفتوة.(٣)

ولم يقتصر الهجوم على الظاهر والرسوم لأصحاب الفتوة على ابن تيمية فقط بل شاركه فيها ابن

---

(١)- ابن العطار الحنبلي : المصدر نفسه، ص٨٣-٨٤ (مقدمة المحقق) ينظر المقريزي : السلوك، ج١، سنة ٦٥٩هـ/.

(٢)- السبكي (تاج الدين) : فتاوى السبكي، القاهرة، مكتبة القدسي، ١٣٥٥هـ، ص٥٤٨-٥٤٩-٥٥١.

(٣)- عبد اللطيف (محمد فهمي) : الفتوة الاسلامية، دار الزيني للطباعة والنشر، ص٤٨-٤٩ - كاهن : المرجع نفسه، ص١٨٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الوردي فقد قال فيهم ،أنهم مردة وشياطين ،وأنهم أهل ضلالة وجهالة فيقول في احدى تعليقاته : «لقد غاظني حتى هاضني ،وحنقني حتى خنقني ،ما أحدثه أهل الجهل والابتداع، وسكت عنه العلماء حتى شاع في الرعاع وذاع ،وهي البدعة التي يجب اعفاء رسمها ،والنكرة المعروفة بالفتوة وهي ضد اسمها فعكف عليها أتباع الضلالة ،ودعا اليها الجهال وأهل البطالة يجمعون لها الجموع من الانباط ويحضرها المرد أو أهل اللواط ،ومنهم من يتصابى على سنه ، ومنهم من يمشي على بطنه فان تنحنح ذو سطوة أجابوه بسكين وتكاثروا عليه ،وان أضمرت كلمة الحق ظهروا ،فما أحقهم بالنفي عن الجنس،وما أولاهم بالكبس ،وجعلهم كأمس » (١) .

ضمت الفتوة في هذه الفترة عامة الناس بما يسمى بالرعاع ،اضافة الى أصحاب الحرف والصناعات والمهن المختلفة مثل الحياكة ،الحجامة ،النجامة ،الكناسة ،ثم تطورت الفتوة حتى أصبحت مثل نقابات العمال حاليا . (٢)

ان الاوضاع السياسية التي سيطرت على المنطقة وما رافقها من الاجتياح العسكري المغولي لم يحد من نشاط هذه التنظيمات والحركات الشعبية بل دفعت الفتيان والأحداث بالتدرب على استخدام السلاح وفق طقوس خاصة بهم . واستغل هؤلاء الأحداث والشطار الاوضاع السياسية للمدن في ظل الحكم المملوكي وقاموا بتحقيق مآربهم الخاصة ،ففي سنة ٦٥٩هـ/١٢٦٠م قام كل من الأحداث والشطار بالقتل والنهب في حلب لخلوها من العسكر ،وقد لمع أسماء بعض الرؤساء مثل نجم الدين أبو عبد الله بن المنذر ،وعلي بن الأنصاري ،وأبو الفتح يوسف بن معالي ، فقتلوا ونهبوا الكثير من السكان ،وظلوا يتحكمون بالمدينة حتى وصلها الاميرفخرالدين الحمصي ، والأمير حسام الدين العينتابي ومعهما عساكر كثيرة ،فلما وصل العسكر المدينة هرب رؤساء الأحداث وتركوا المدينة . (٣)

من خلال تتبع الحوادث التاريخية في المصادر نلاحظ حلول كلمة الزعار بدل كلمة الاحداث ابتداء من القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي ،والزعار تعني لغويا المقاتلة

---

(١)- عبداللطيف :المرجع نفسه ،ص ٥٠ .

(٢)- عبداللطيف: المرجع نفسه ،ص٥١ - ٥٢ .

(٣)- اليونيني :المصدر نفسه ،ج ١ ،ص ٤٣٩ - النويري :المصدر نفسه ،ج ٣٠ ،ص٤٢ - ابن كثير : المصدر نفسه ،ج ١٣ ،ص ٢٣١ - ابن خطيب الناصرية :الدر المنتخب ،ج ٢ ،ورقة ٨٤ - ابن الطباخ : اعلام النبلاء ،ج ٢ ،ص ٢٤٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الذين يظهرون ويختفون فجأة، وهذا يعني أن ظهورهم مرتبط بظهور الفتن والازمات، وقد نشط الزعر في الاحياء الفقيرة والاشد صلة بالارياف،(١) وكان معظمهم من الشباب، وكان لهم شكل مميز من حيث اللباس، ونموذج الشعر، فقد سموا نتيجة لشعرهم باسم قرعاني، اضافة لارتدائهم أثوابا على اكتافهم كشكل من أشكال البزات الرسمية، وعموما فقد أطلق عليهم أسماء مختلفة مثل الاوغاد، الناس الاشرار، غوغاء الزعران، غوغاء الحارات، أوباش الزعران، وكلها تعبير منحطة.(٢)

ومثلما كان لقرائنهم من الأحداث رئيس، وهو الزعيم الذي كان يعين باختيار من الأمير فقد كان لهم مقدمون في كل حي ويسمون بالكبار.(٣)

والحديث عن الزعر يتمثل في موقفهم من تجاوزات السلطة المملوكية وأعوانها المالية والاقتصادية وحتى السياسية منها. اضافة الى جعل مصالحهم في مقدمة مطالبهم ففي سنة ٧٩١هـ/١٣٨٨م وفي أثناء القتال بين يلبغا الناصري والأمراء قام زعر دمشق بمعونة التركمان في القتال وينهب أعيان دمشق من الأجناد، اضافة الى نهب الحوانيت واستمروا في هذا العمل أيام اختلف المؤرخون في عددها، فبعضهم قدرها بسبعة أيام وبعضهم بأربعة عشر يوما.(٤)

وقد ظهر في هذه الفترة تنظيم شعبي آخر مغاير للزعر وهو الحرافيش، ووصفهم بعض المؤرخين بالزعار والعياق والرعاع أو الدهماء أو العوام، الحثالة العامية، أو الجعيدية، أو الأوباش، أو أراذل السوقة، وقد وصفهم بعض المؤرخين بأنهم ليسوا إلا نهابة، وحرامية، ومناسير، وعياقا وفديوية وسراقا وغيرها من الألفاظ الكثيرة.

لذلك من المتعذر الربط بين الحرافيش والزعر. اذ تباينت الأدوار بين التنظيمين واختلفت، فالزعر كانوا يقومون احيانا بالدفاع عن الشعب ضد تجاوزات السلطة، ولم يقم الحرافيش بهذه المهمة.(٥)

وجمع بعض المؤرخين بين الحرافيش وطوائف اللصوص والنهابة والخطافة، وأنهم استحالوا الى فئة من اللصوص في بعض الفترات، وأشار ابن تغري بردي أن الحرافيش كانوا يتلصصون عند مرافقتهم للجيوش المتجهة للقتال، أو ابان الفتن الداخلية، فالظاهر بيبرس رتب على أبواب

---

(١) - النجار (محمد رجب) : حكايات الشطار والعيارين في التراث الشعبي، الكويت، ايلول، ١٩٨١، ص ١٨٩.
(٢) - لابيدوس: المرجع نفسه، ص ٢٣٨
(٣) - كاهن: المرجع نفسه، ص ١١ - لابيدوس: المرجع نفسه، ص ٢٣٦.
(٤) - ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، ج ٩، ق ١، ص ٦٥١.
(٥) - النجار: المرجع نفسه، ص ١٧٩ - زعرور: المرجع نفسه، ص ١٤٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

انطاكية جماعة من الأمراء لمنع الحرافشة من الخروج بشيء مما نهبوه، واخذه منهم، وقد أطلق على الذين رافقوا الجيوش حرافشة المسلمين وكانوا عبارة عن فقراء الصوفية .(١)

كما أنهم اشتركوا في الحملة التي سيرت ضد حصن الاكراد سنة ٦٦٩هـ/ ١٢٧٠م وقد قاموا بعمل أدى الى قتلهم، ذلك أن السلطان كان قد وقع الهدنة على حصن الاكراد والمرقب، فحدثت اشياء أدت الى فسخ الهدنة مع بيت الاسبتار، فقرر السلطان حماية بلاد الهدنة، ووصى بهم وحضر رسول حصن الاكراد يسأل الوصية، فأعطاهم علما برنكة فقام أحد الحرافشة بالعبور على بستان بقرب تل خليفة المجاور للحصن ومعه رفاقه، فأخذوا منه شيئا لا قيمة له، فضرب المقدم الفرنجي رقاب بعضهم وأسر بعضهم الآخر .(٢)

نستطيع القول أن الحرافيش فئة من الطبقات الدنيا كثيرة العدد، وصفوا بأنهم أوباش، وأنهم خطر على التيار الصوفي، وقد استغلت هذه الفئة تشجيع الحكومة للتيار الصوفي وانخرطوا في سلكه طمعا في رزق ثابت كان يوقف على الربط والخوانق، اضافة الى التبرعات والصدقات والمساعدات . وقد كان أكثر هؤلاء من سكان الأرياف الذين لجؤوا الى الزوايا لعدة أسباب منها سياسية تتمثل بعدم الاستقرار الداخلي، واجتياح العدو المغولي لقراهم، واقتصادية مرتبطة بالضرائب والمكوس وكثرة المغارم، الى جانب أساليب التعذيب والقهر، لكن انخراطهم في سلك التصوف لم يمنعهم أبدا من القيام بمهام أخرى اضافية لكسب قوتهم، ومما يدل على أنهم كانوا عاطلين عن العمل (متسولين) تعريف أحد المؤرخين لهم حيث قال عن الحرفوش بأنه العامل الذي يعمل بأجره اليوم عملا غير ثابت وخصوصا أعمال الفلاحة .(٣)

وكان الحرافيش من العناصر الشابة القوية البنية، وبما أنهم أتوا من القرى فلم يعرفوا التخصص في المهن والحرف لذلك اضطروا الى التسول والالتجاء الى زوايا الصوفية .(٤) وقد ذكر السبكي ذلك وخاصة عن الاستجداء بين الحرافيش ما نصه :

((كثير من الحرافيش اتخذ السؤال صنعة فيسألون عن غير حاجة ويقعدون على أبواب المساجد يشحذون ولا يدخلون للصلاة معهم)) .(٥)

---

(١) - ابن الطباخ : المصدر نفسه، ج٢، ص ٢٥٨ - النجار : المرجع نفسه، ص ١٨٤ .

(٢) - النويري : المصدر نفسه، ج ٣٠، ص ٣٢٥ .

(٣) - النجار : المرجع نفسه، ص١٨٤ - ١٨٨ - ٢٢٣ - لابيدوس : المرجع نفسه، ص١٧١ - ١٧٢ - زعرور : المرجع نفسه، ص ١٤٤ .

(٤) - زعرور المرجع نفسه، ص ١٤٥ - النجار : المرجع نفسه، ص ١٨٢ .

(٥) - السبكي : معيد النعم، ص ١٣٦ - النجار، ص ١٨٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقد وجد الحرافيش في جميع المدن مثل دمشق ،حلب ،القدس ،حماة ،حمص ،وسكنوا في المنازل والأكواخ والمساجد وحتى في الشوارع ،وكان في القدس ممر يسمى بممر أو طريق الحرافيش.

ومثلما كان للتنظيمات العصبية السابقة رؤساء أو مسؤولين يقودون التنظيم ،كان للحرافيش رؤساء أيضا ، فالمسؤول عنهم يقال له سلطان الحرافيش وحظي بمكانة هامة عند الحكومة.(١)

وتمثلت نشاطاتهم العسكرية في اشتراكهم في وقعة حمص سنة ٦٨٠هـ/ ١٢٨١م بين المغـــول والمسلمين ،وعندما لاح النصر للمغول استغل الحرافيش الوضع وقاموا بنهب الأثقال وطاقات العسكر من الأقمشة وخزائن السلاح فأدى ذلك الى فروغ صناديق الخزانة.(٢)

وقاموا بأعمال غيرمستحبة تجاه سكان دمشق عندما علموا بقدوم غازان سنة ٦٩٩هـ/١٢٩٩م فقد استغلوا الفوضى والاضطرابات في المدينة وقاموا بالهجوم على البساتين وكسروا أبوابها ،وسرقوا الأشغال الخشبية والأواني ،كما قلعوا الشبابيك والأبواب وباعوها بأثمان رخيصة ،ولم يهدأوا حتى صادروا الناس بالأموال الكثيرة.(٣)

وقد دل عملهم الذي قاموا به سنة ٧٠٢هـ/ ١٣٠٢م قبل وقعة شقحب وبعدها على عدم ميلهم لصالح جهة معينة ،وانما كانوا يدعمون من يتكسبون منه ،فقد قاموا بأعمال السلب والنهب تجاه سكان المدن وخاصة مدينة دمشق،اذ هاجموا البساتين وقطعوا المشمش قبل أوانه وخربوا محاصيل الفول ،والقمح والباقلاء وسائر الخضراوات ،فآخا فتنهذه الأعمال المسافرين والتجار فانقطعت الطرق من جهة الكسوة ،واثر انتصار المسلمين على المغول في المعركة قام بعض الأفراد الذين اطلق عليهم اسم الأراذل وهم الفئة الدنيا من التنظيم بقتل الكثير من المغول المنهزمين وسلب ماكان معهم.(٤) وقد عبر عن ذلك ابن تغري بردي حيث قال :

« حتى ان أراذل العامة والغلمان قتلوا منهم خلقا كثيرا وغنموا عدة غنائم ».(٥)

عاش الحرافيش كما ذكرنا آنفا من مورد الغنائم والسلب والنهب كما عاشوا على الهبات السخية المقدمة من قبل السلاطين والأمراء والأغنياء ،وانضموا الى الفقراء في أزمان المجاعات ليحصلوا على

---

(١)-ابن صصرى : المصدر نفسه ،ص ٦ - لابيدوس :المرجع نفسه ،ص ٢٧٠ .

(٢)-العيني :المصدر نفسه ،ج ٢ ،ص ٢٨٠ -ابن تغرى بردى :النجوم ،ج ٧ ،ص ٣٠٥ - لابيدوس: المرجع نفسه ،ص ٢٧٢ .

(٣)-النويرى :المصدر نفسه ،ج ٣١ ،ص٣٨٧-ابن كثير :المصدر نفسه ،ج ١٤ ،ص٧-العيني :المصدر نفسه ،ج ٤ ،ص ٢٩ - لابيدوس المرجع نفسه ،ص ٧٢ .

(٤)-ابن كثير :المصدر نفسه ،ج ١٤ ،ص٢٤-المقريزى :المقفى ،ج ٧ ،ص ١٨٤-العيني :المصدر نفسه ،ج ٤ ،ص٢٤٥ -ابن تغرى بردى :النجوم ،ج٨ ،ص١٦٣-دهمان :ولاة ،ص ١٣٨-١٤٢ .

(٥)-ابن تغرى بردى : المصدر نفسه ،ج ٨ ،ص ١٦٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

طعامهم من احسان السلطة ، اضافة الى تقديم المعونة لهم من الواردين على المنطقة ففي سنة ٧٣٢هـ/١٣٣١م وعندما قدم سفراء المغول قدموا الهدايا للمتصوفة والحرافيش.(١)

وقد تعرضوا للطرد عندما اخلالهم بالأمن ففي عهد أرغون شاه سنة ٧٤٨هـ/١٣٤٧م وقف أحد ذوي الثروة وقف لاعانتهم، وفي احدى المرات قاموا باختطاف الخبز من الخبازين ولشدة الغلاء لم يستطع أحد ضبطهم فقام أرغون شاه بنفي بعضهم الى حمص وحماة وحلب ، وقام بتشويه بعضهم ، واعدام آخرين ، وقد وصفت هذه الحادثة شعرا فقيل :

كان الغلا يغلو فأما اذا — أصبح نارا قلت ذا يغلي

وأصبح الحرفوش ذا كسرة — من طلب الكسرة في شغل

من يطلب الخبز ومن يشتهي — وهو بقطع اليد والرجل (٢)

وبصرف النظر عن هذه الأعمال ، فان السلطة استطاعت تجنيدهم كقوات مساعدة في حروبها الداخلية والخارجية ، ضد أرمينيا وغيرها ، وتمردوا على الأوامر في بعض الأحيان فأثناء الحملة المملوكية سنة ٧٢٨هـ/ ١٣٣٧م ومحاصرة اياس ، قام نائب حلب بمنع الأمراء والعساكر من دخول المدينة ريثما يتمكن من صنع زحافات يستطيع بها دخول المدينة دون قتال كبير ، لكن الحرافيش رفضوا هذه الخطة وتضامنوا مع العسكر وأثخنوا بالكلام مع نائب حلب وأسمعوه كلاما غير مستحب منه : ((يا مخامر على السلطان ، وانت اكلت البراطيل من صاحب سيس ، ومنعتنا أن نزحف)). (٣) ثم قاموا باختراق البرج مع الجيش بدون أمر نائب حلب أرقطاي الأمر الذي جعل الارمن يقتلون الكثير منهم ، فوبخ نائب حلب الامراء بقوله : ((كيف سمعتم من السوقة والحرافيش)). (٤)

أما اشارات ابن بطوطة على تنظيم الحرافشة فتظهر بأن قيادة التنظيم قد ظهرت واضحة في وقت متأخر والشيخ الاول الذي ظهر في التواريخ هو أمير علي (ت ٧٩١هـ/١٣٨٩م) الذي كان يدعى : (شيخ طائفة المتسولين) الجعيدية وسلطان الحرافيش ، كما تذكر المصادر

(١) - لابيدوس : المرجع نفسه ، ص ٢٧٠ .

(٢) - الصفدي : تحفة ذوي الالباب ، ج ٢ ، ص ٢٧٤ - دهمان : المرجع نفسه ، ص ١٩٦ - لابيدوس : المرجع نفسه ، ص ٢٧٠ .

(٣) - اليوسفي : نزهة الناظر ، ص ٣٩٨ .

(٤) - اليوسفي : المصدر نفسه ، ص ٣٩٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

هـ- الاستباحة الاخلاقية :

نتيجة لانعدام الأستقرار الاجتماعي في المنطقة، استشرى الفساد الأخلاقي ، وقد تزامن زيادة انتشار هذا الفساد مع دخول المغول للمنطقة، اذ رافق دخولهم هتك أعراض، فجور، فساد، ازدياد البغاء، وقوبل هذا الفساد بمعارضة شديدة من قبل بعض فئات المجتمع كالعلماء وأهل الدين، كما قوبل بمعارضة وقمع من بعض سلاطين المماليك، حيث انتشر الخمر، والحشيش، وبيع في مناطق معروفة وخاصة في دمشق، كما أديرت الخمارات من قبل بعض اهل الذمة وقلة من المسلمين اضافة الى أنهم قاموا بشربه وتوزيعه ابان دخول المغول دمشق .

أما بالنسبة للبغاء فانه لم تخل مدينة من مدن العالم كلها من دور للبغاء وأمكنة للفساد ، ولكن يختلف مدى انتشارها من مدينة لأخرى ، فمدن الشام في هذه الفترة بالذات لم نلحظ فيها انتشار البغاء بشكل كبير وذلك من خلال المصادر التاريخية التي أمدتنا بمعلومات عن هذه الفترة. وقد انتشرت الاستباحات الأخلاقية والفجور عن طريق بعض أفراد الجيش، اضافة الى بعض أفراد المجتمع الشاذين .

وعند دخول المغول للمنطقة، ارتكبوا افعالا شنيعة من هتك الأعراض والفساد وغيره من هذه الافعال غير الأخلاقية. ولم ترتكب هذه الأفعال من قبل واحد من قواد حملاتهم فقط بل من كل قواد الحملات الذين قدموا المنطقة، فعند قدوم غازان الى دمشق سنة ٦٩٩هـ/١٢٩٩م ارتكب أفراد جيشه الفواحش بالجامع الأموي، حيث فجروا بالنساء، وقاموا بشرب الخمور وغير ذلك من الأفعال القبيحة. (١)

(١)- ابن ايبك الدواداري : الدر الفاخر ، ص ٢٨ - الصفدي : تحفة ذوي الالباب، ج ٢ ، ص ٢٠٤ - المقريزي : السلوك ، ج ١، ق ٣ ، ص ٨٩٣ - دهمان : ولاة ، ص ١٠٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولم يقتصر القيام بهذه الأفعال القبيحة على أفراد جيش المغول، بل شارك به بعض رجال السياسة في بلاد الشام، فعثمان السبتاري رجل من أهل قلعة حماة استغل الظروف السياسية السلبية التي مرت بها المدينة وقام باستباحة الحريم، مع سفك الدماء، وقد شاركه بذلك زميل له غدر به فيما بعد، وانفرد عثمان بحكم حماة وتلقب بالملك الرحيم، وظل على أفعاله هذه حتى اعتقل ونفي. (١)

ولم نعد نسمع أي ذكر لمثل هذه الأفعال في المصادر التاريخية، الا عند قدوم تيمورلنك للمنطقة فقد تعرضت كل مدن الشام التي كانت في طريق الحملات المغولية الى مثل هذه الاستباحات الأخلاقية كحلب وحماة ودمشق. ففي حلب كان المغول يأخذون المرأة ومعها ولدها الصغير فيلقونه من يدها ويفعلون بها الأفعال القبيحة، وقد احتمت معظم النساء بالجوامع ظنا منهن أن ذلك يحميهن من أيدي هؤلاء المغول، وكانت تطلي وجهها بطين أوشيء حتى لا ترى بشرتها، ولكن المغولي كان يأخذ المرأة ويغسل لها وجهها ويفجر بها على مرأى من اهلها دون أن يستطيع هؤلاء تخليصها. (٢)

وكانت هذه الأعمال في حماة أخف ثقلا عن مثيلاتها حلب ودمشق، لكنها مع ذلك تعرضت لمثل هذه الاعمال الدنيئة، فقد قام ابن تيمورلنك ميران شاه مع أصحابه بالفجور من غير مراعاة للأعراض والأخلاق. (٣)

---

(١) - أبو الفدا: المصدر نفسه، ج ٤، ص ٤٤ - ابن الوردي: المصدر نفسه، ج ٢، ص ٣٥٤.

(٢) - المقريزي: المصدر نفسه، ج ٣، ق ٣، ص ١٠٣٣ - العسقلاني: انباء، ج ٤، ص ١٩٦ - ابن تغري بردي: النجوم، ج ١٢، ص ٢٢٣ - ٢٢٤ - الحلبي: تيمورلنك، ص ١٣٢ - كرد علي: خطط الشام، ج ٢، ص ١٦٧ - لامب: تيمورلنك، ص ١١٩ - ١٢٠.

(٣) - المقريزي: المصدر نفسه، ج ٣، ق ٣، ص ١٠٣٥ - ابن تغري بردي: المصدر نفسه، ج ١٢، ص ٢٢٥ - ابن اياس: المصدر نفسه، ج ١، ق ٢، ص ٦٠٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولم ترتكب في منطقة من مناطق العالم ما ارتكب في دمشق من قتل وسفك الدماء، وأسر للرجال والتهتك بالنساء، فقد كان أمراء المغول يأخذون الأولاد والنساء ويقسمونهم على أنفسهم فيشاهد الرجل المعذب امرأته وهي توطأ، وابنته وهي تفض بكارتها، وولده وهو يلاط به، فيصير هو يصرخ من ألم العذاب، وابنته وولده يصرخون من ألم ازالة البكارة واتيان الصبي وكل هذا نهارا أوليلا من غير احتشام ولا تستر، ثم اذا قضوا وطرهم من المرأة والبنت والصبي طالبوهم بالمال وأذاقوا عليهم أنواع العقوبات وأخذاذهم مضرجة بالدماء. (١)

لقد عوقب أهل بلاد الشام أشد عقوبة من قبل هؤلاء المغول الذين ادعوا الاسلام، والذين اهتدوا اليه في الربع الأخير من القرن السابع الهجري، ومن المفروض أن يكون هؤلاء أنصارا لهذا الدين يدافعوا عنه، لا أن يهاجموا معتنقيه، فالاسلام دين العفة والأخلاق، فكم فتح المسلمون بلادا، وكم وصلوا الى مناطق بعيدة، لكنهم مع ذلك لم يتعرضوا لأهلها أخلاقيا، فهؤلاء عرفوا الدين القويم، بينما المغول لم يعرفوه الا ظاهريا ولم يمتثلوا لأوامره ونواهيه، ولو ملكوا ذرة من دين لما فعلوا ذلك.

---

(١)- المقريزي: المصدر نفسه، ج ٣، ق ٣، ص ١٠٥٠.
- العسقلاني: المصدر نفسه، ج ٤، ص ٢٠٨.
- ابن تغري بردي: المصدر نفسه، ج ١٢، ص ٢٤٤ - المنهل، ج ٤، ص ١٢٥.
- ابن اياس: المصدر نفسه، ج ١، ق ٢، ص ٦١٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

١ - البغــــاء :

- لقد انتشر المجون والبغاء في هذه الفترة وكثر المستهترون ، وظهر الى العلن مجون النساء وفجورهم ولم يكن المجون وليد فترة البحث ، وانما انتشر في بلاد الشام لفترة طويلة ، وقد حاربه رجال السلطات المتتابعة التي حكمت المنطقة . غير أن قدوم المغول ساعد على زيادة المجون ، ذلك انهم يرون أنه طريقة لالهاء أعضاء السلطة وعامة الشعب عن مقاومتهم وصدهم عن البلاد ، فانتشرت بيوت البغاء في مناطق الشام ونلحظ ذلك عن طريق المناشير التي كان يصدرها السلاطين بمنع هذه البيوت.

ومن الملاحظ أن بيوت البغاء أخذت شكلا علنيا ، وقد فرضت حكومة المماليك على النساء المستهترات أو الخواطىء عقوبات اذا لم يرتدعن عن هذه الاعمال الفاسدة ، ففي سنة ٦٦٤هـ / ١٢٦٥م أمر الظاهر بيبرس باغلاق الحانات والخواطىء بمصر والشام اضافة الى ازالة أماكن المسكرات دلالة على أنها كانت منتشرة بشكل كبير ، وأنها كانت تضر السلطة ، وهي ظاهر غير حضاري ، وغير لائق لأمة عريقة في الاسلام.[١]

كما أصدر الظاهر بيبرس سنة ٦٦٧هـ/١٢٦٨م مرسوما باغلاق الحانات ، وامساك الخواطىء بالبلاد كلها سواء بالشام أو بمصر ونفذ ذلك أفراد السلطة ، حتى أن السلطان أمرهم بحبس النساء الخواطىء حتى يوافقوا على الزواج ، فنفذ أعضاء السلطة هذا الأمر ، وسلبوا النساء كل ما معهن وسجونهن حتى يتزوجن.[٢] كما صدر مرسوم آخر سنة ٧٠٨هـ/١٣٠٨م باغلاق بيوت الزواني وكسر آلاتهم.[٣]

ولم يكن السلاطين وحدهم يقاومون أمكنة الفساد والاستهتار ، بل قاومها أيضا أفراد السلطة الباقون كنواب المدن الشامية ، فنائب حلب سيف الدين أرقطاي أمر سنة ٧٤٥هـ/١٣٤٤م باغلاق هذه الامكنه بعد أن ازداد الفساد فيها ، ذلك أن هذه الأمكنة تؤثر على وضع المجتمع العسكري ، فقد تجر هذه الامكنة الكثير من ذوي النفوس الضعيفة ، وقد يؤدي ذلك الى

(١) - المنصوري : التحفة ، ص٦٥ - العيني : المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ٢٤٦ .
(٢) - ابن عبد الظاهر : الروض ، ص ٣٠٥ - ابن الوردي : المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٤٨٦ .
(٣) - ابن حجر العسقلاني : الدرر ، ج ١ ، ص ٥٠٥ - الشوكاني : البدر الطالع ، ج ١ ، ص ١٦٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

استشراء الفساد في أنحاء البلاد الأمر الذي يدعو الى ضعف الروح القتالية لدى العامة، ولدى أفراد الجيش في مقارعة الغزو المغولي.(١)

ولم تأل السلطة جهداً في تتبع المنكرات وابطالها، فقد بدأ الولاة سنة ٧٩٦هـ/١٣٩٣م بازالة بيوت البغاء من مكانها عندما علم هؤلاء بقدوم تيمورلنك للمنطقة ومحاصرته للرها، وفي ذلك دلالة على أنهم كانوا يعتمدون على نساء هذه البيوت في معرفة أشياء سياسية وعسكرية حول وضع المدن أثناء محاصرتها أو الاستيلاء عليها.(٢)

وبالرغم من محاربة السلاطين وأفراد السلطة لبيوت البغاء الا أنها استمرت، ولم يستطع هؤلاء القضاء على هذه الظاهرة، وانما استطاعوا الحد منها بين الفينة والأخرى.

٢- اللــواطـــــة:

ساد الانحلال الأخلاقي بعض فئات المجتمع لاسيما الفئة الغنية أو الحاكمة، وقد شجع على هذا الانحلال عوامل كثيرة منها الحملات المغولية المتكررة، وترف المماليك السلاطين منهم، واقتناء الجواري والعبيد والغلمان في بيوت سلاطين المماليك، اضافة الى انشغال الحكومة بتجهيز الحملات العسكرية والانفاق عليها. هذه العوامل ساعدت على انتشار الاستهتار بشكل ظاهر وجلي في المجتمع، فالأمير أحمد بن السلطان محمد بن قلاوون اشتهر بخلاعته واستهتاره، ولم ينتشر هذا الفساد بين ابناء الطبقة الحاكمة وانما انتشر وساد بين فئات العلماء والادباء حتى القادمين من خارج بلاد الشام.

ولم تكن هذه الأعمال الفاسدة وليدة فترة البحث، وانما سبقت هذه الفترة بكثير منذ العصور السحيقة فقوم لوط ذهبوا بأجمعهم نتيجة هذه الأعمال القبيحة، وقد أنذرهم الله سبحانه مرات كثيرة بقوله ((أتأتون الفاحشة ما سبقكم بها أحد من العالمين)) وقال أيضا: ((انكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء بل أنتم قوم مسرفون)). غير أن قوم لوط لم يرتدعوا عن مثل هذه الأعمال فأذهبهم الله تعالى من وجه الأرض.(٣)

---

(١) - ابن الوردي: المصدر نفسه، ج٢، ص٤٨٦.

(٢) - ابن قاضي شهبة: تاريخ ابن قاضي شهبة، ج١، ق٣، ص٥٠٤.

(٣) - سورة الأعراف: آية ٨٠-٨١ - ابن قيم الجوزية (شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أبي بكر الحنبلي الدمشقي): روضة المحبين ونزهة المشتاقين، حلب، دار الوعي، ١٣٩٧هـ، ص١٩٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولم تمتثل بعض النفوس الضعيفة لهذه التحذيرات وانما أقبلوا على هذه الشهوات ، فالأمير أحمد بن الناصر محمد بن قلاوون قام بهذه الأفعال القبيحة حيث أنه كان يعاشر أوباش الكرك ، الأمر الذي جعل والده يستدعيه سنة ٧٣٨هـ/١٣٣٧م الى مصر ، فعقد له على ابنة الأمير سيف الدين طاير بغا ظنا أن هذا يردعه عن ذلك ، فعاد أحمد الى الكرك ولم يرتدع عن أفعاله القبيحة ، فاستدعي مرة أخرى سنة ٧٣٩هـ/١٣٣٨م لعلم السلطان بشغفه بواحد من أهل الكرك اسمه الشهيب وهو ابن خياط ، فقد هام به غراما ، فصار أبوه يحصل الأموال من الناس بسبب كثرة الشفاعة التي كان يشفعها عند ابن السلطان ومما يأخذه من الأنعام ، عندئذ أمر السلطان بعقوبة الشاب الذي كان يهواه حتى يحضر المال الذي وهبه له أحمد ، لكن الأمير احمد مالبث أن تشفع له عند الأمراء . (١)

غير أن الأمير أحمد لم يتب عن هذه الأفعال حتى توجه الأمير طوغان سنة ٧٤٢هـ/١٣٤١م فأحضره الى مصر لكثرة شغفه بشباب أهل الكرك وانهماكه في معاقرة الخمر معهم . واستلم السلطة فترة ثم خلعه أخوه الصالح فعاد الى الكرك ، وعاد مرة أخرى الى أفعاله القبيحة ولما حاصرته القوات المملوكية الموجهة من أخيه الصالح سنة ٧٤٥هـ/١٣٤٤م وأرادوا اعتقاله كان لا يأكل شيئا حتى طلب أن يأتوه بشاب اسمه عثمان فأتوه به فأكل . (٢)

وقد اختلفت أقوال العامة والفقهاء في عقوبة اللوطي فأحد الأقوال انها أعظم من عقوبة الزنا ، والقول الثاني انها مثل الزنا ، والقول الثالث انها أقل منها ، وقد قرر بعض الشافعية أن عقوبة الفاعل كعقوبة الزاني ، وعقوبة المفعول به الجلد ، وقد ذهب بعض الفقهاء الى القول بأن عقوبة اللوطي أشد وأقسى من عقوبة الزاني لاجماع الصحابة على ذلك ، وقام بعض الخلفاء باحراقهم كأبو بكر ، وعلي بن ابي طالب ، وعبد الله بن الزبير ، وهشام بن عبد الملك . أما الله تعالى فقد توعدهم بالعقوبة في (١٠) سور من القرآن هي سورة الاعراف ، الحجر ، الانبياء ، الفرقان ، الشعراء ، النمل ، العنكبوت ، الصافات فقد قال في سورة الأعراف عن لوط :

---

(١) - الشجاعي : تاريخ الناصر ، ص ٤٧ - ٤٨ - المقريزي : السلوك ، ج ٢ ، ق ٣ ، ص ٤٣٢ - ٤٦٧ - العسقلاني : الدرر ، ج ١ ، ص ٢٩٤ .

(٢) - ابو الفداء : المختصر ، ج ٤ ، ص ١٣٦ - المقريزي : المصدر نفسه ، ج ٢ ، ق ٣ ، ص ٦٤٠ - المقفى الكبير ، ج ١ ، ص ٦٢٨ - ٦٣٠ - ابن تغري بردي : النجوم ، ج ١ ، ص ٢٣ - ٩٢ - ٩٣

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

« فأنجيناه وأهله إلا امرأته فكانت من الغابرين ، فأمطرنا عليهم مطرا فانظر كيف كانت عاقبة المجرمين » (١) .

وفي سورة الفرقان : « يوم يرون الملائكة لا بشرى يومئذ للمجرمين ، ويقولون حجرا محجورا ، وقدمنا الى ما عملوا فجعلناه هباء منثورا ، أصحاب الجنة يومئذ خير مستقرا وأحسن مقيلا » (٢) .

فالله سبحانه وتعالى تقدم اليهم بالحجة ووعدهم بالعقاب ، وكان هؤلاء هم السلف واخوانهم في هذا العصر بعدهم على الخلف والأثر ، وقد قيل في ذلك أشعار كثيرة منها :

فان لم يكونوا قوم لوط بعينهم	فما قوم لوط منهم ببعيد
وانهم في الخسف ينتظرونهم	على مورد من مهلة وصديد
يقولون لا أهلا ولا مرحبا بكم	الم يتعدكم ربكم بوعيد
فقالوا بلى لكنكم قد سننتم	صراطا لنا في العشق غير حميد
أتيتم به الذكران من عشقنالهم	فأورد ناذا العشق شر ورود
فأنتم بتضعيف العذاب أحق من	متابعكم في ذاك غير رشيد
فقالوا وأنتم رسلكم أنذرتكم	بما قد لقيناه بصدق وعيد
فما لكم فضل علينا فكلنا	نذوق عذاب الهون ذوق مريد
كما كلنا قد ذاق لذة وصلهم	ومجتمعنا في النار غير بعيد . (٣)

ورغم كل التحريم الذي أنزله الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم ، ورغم أحاديث الرسول الكثيرة في النهي عن اللواطة فان بعض أفراد السلطة ، أقدم على ارتكابها ، ومنهم الشيخ الصفوي وهو من أمراء الظاهر برقوق ، فقد ولي نيابة غزة سنة ٨٠٠هـ/١٣٩٧م ثم نقل الى حبس المرقب بسبب شكوى أهل القدس وتعرضه لأبنائهم واكثاره من الفساد . (٤)

---

(١) - سورة الأعراف ، آية ٨٣ - ٨٤ .

(٢) - سورة الفرقان ، آية ٢٢ - ٢٤ - ابن قيم الجوزية : المصدر نفسه ، ص٣٥٣ ، ٣٥٨ - ٣٦٠ .

(٣) - الانطاكي (داود) : تزيين الأسواق في أخبار العشاق ، دار حمد ومحيو ، الطبعة الأولى ، ١٩٧٢م ، ج٢ ، ص٢٣٢ - ابن أبي حجلة (شهاب الدين أحمد بن حجلة المغربي) : ديوان الصبابة ، دار حمد ومحيو ، ط١ ، ١٩٧٢م ، ص ٢٤٥ .

(٤) - ابن قاضي شهبة : تاريخ ابن قاضي شهبة ، ج١ ، ق٣ ، ص٦٦٦ - العسقلاني : انباء ، ج٣ ، ص ٣٩٤ - ابن تغري بردي : المنهل ، ج٦ ، ص ٣١٢ - السخاوي : الضوء ، ج٣ ، ص ٣٠٨ - ابن اياس : بدائع الزهور ، ج١ ، ق٢ ، ص ٥٠٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وأقدم العالم ضياء العجمي على هذه الأفعال ، وكان من العلماء القادمين من خارج بلاد الشام . وقد كان في الخانقاه السميساطية ، وكان يتهتك بالغلمان ويخرج عن طور العقل والعفة ، فكان يمشي وفي يده خرقة من الرياحين فمن لقيه من المرد أدناها الى أنفه فيشمها ، ثم علق بصبي من أبناء الجند فكان يخرج الى سوق الخيل ليشاهده اذا ركب .(١)

وقد اقدمت السلطة على قتل من ارتكب هذه الأفعال الفاسدة كالفتح أحمد بن الثقفي ، فقد اتهموه بأنه زنديق اضافة الى اشتهاره بشرب الخمر واللواطة .(٢)

من الملاحظ أن العوامل السياسية ، واضطراب الأمن في البلاد ، وانعدام الاستقرار الاجتماعي والاقتصادي كان له أثر في ظهور هذا التحلل الأخلاقي لدى بعض أفراد المجتمع ، وكان لهذا التحلل آثار سلبية انعكست على المجتمع بكامله .

٣- حب الغلمان :

كانت ظاهرة هوى الغلمان موجودة في كل المجتمعات ، كالمجتمع العراقي ، والشامي ، وغيره ، ولكن لا نلحظ انها كانت كثيرة الانتشار في مجتمع الشام بالمقارنة مع مجتمع العراق ، ذلك أن ترف القصور وثراء الطبقة الحاكمة في العراق وكثرة الجواري والقيان هو الذي جعل هذه الظاهرة سهلة الانتشار هناك .

أما مجتمع الشام فقد واجه مشاكل سياسية كثيرة منها قدوم الصليبيين للمنطقة ومهاجمة مدن بلاد الشام بين الفنية والأخرى ، الأمر الذي فرض عليها الوضع الحربي ، وجعل معظم الاموال تصرف لتسليح الجيش وتدريبه ، ثم قدم المغول للمنطقة فزادت الأعباء الحربية مما اضطر السكان للانشغال بصد الغزاة أكثر من انشغالهم بالهوى والحب .

وأكد الأطباء قاطبة بأن العشق مرض وسواسي شبيه بالماليخوليا ، يجلبه المرء على نفسه بتسليط فكره على استحسان بعض الصور والشمائل . وكان له سببان نفسي وبدني فالنفسي الاستحسان ، والفكر ، والبدني ارتفاع بخار رديء الى الدماغ .

---

(١) - العسقلاني : الدرر ، ج ٢ ، ص ٢١١ - الشوكاني : البدر الطالع ، ج ١ ، ص ٣٠٠ .

(٢) - ابن كثير : المصدر نفسه ، ج ١٤ ، ص ١٨ - المقريزي : المقفى الكبير ، ج ١ ، ص ٦٣٩ - العيني : عقد الجمان ، ج ٤ ، ص ١٧٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

التهبت نار عشقه في قلبه ، وكتم أمره حتى مرض واشتد به المرض ، فأرسل الملك الظافر صاحب حماه ابنه الى ابن خلكان فلما رآه وثب قائما كأن لم يكن به مرض ، فعرف الغلام أمره وأخبر والده بذلك فحجبه عنه ، وقد قال ابن خلكان في ذلك أشعارا رائعة منها :

يا سادتي اني قنعت وحقكم ... في حبكم منكم بأيسر مطلب

ان لم تجودوا بالوصال تعطفا ... ورأيتم هجرى وفرط تجنبي

لا تمنعوا عيني القريحة أن ترى ... يوم الخميس جمالكم في الموكب

لوكنت تعلم ياحبيبي ما الذى ... ألقاه من كمد اذا لم تركب

لرحمتني ورثيت لي من حالة ... لولاك لم يك حملها من مذهبي

قسما بوجهك وهو بدر طالع ... وبليل طرتك التي كالغيهب

وبقامة لك كالقضيب ركبت من ... أخطارها في الحب أصعب مركب

لولم أكن في رتبة أرعى لها ... العهد القديم صيانة للمنصب

لهتكت سرى في هواك ولذلي ... خلع العذار ولو ألح مؤنبي (١)

الى جانب ابن خلكان ظهر ابن عبد الظاهر كعاشق ولهان أيضا فقد أحب شابا مغنيا اسمه نسيم وقد قال فيه عدة مقاطع شعر منها :

ان كانت العشاق من أشواقهم ... جعلوا النسيم الى الحبيب رسولا

فأنا الذى أتلو لهم ياليتني ... كنت اتخذت مع الرسول سبيلا

فرد عليه صاحب ديوان الصبابة ابن ابي حجلة قائلا :

ان كنت في عشق النسيم متيما ... وزعمت أن هواه ليس بمتلف

فأنا أقول لمن تحرش بالهوى ... عرضت نفسك للبلا فاستهدف

فقال ابن عبد الظاهر ايضا في نسيم

يامن غدا لي من عـــوا صـــــف ... هجرة الريح العقيم

أترى يطيب لي الهوى ... ويقال قد رق النسيم

---

(١) - ابن شاكر : فوات الوفيات ، ج ١ ، ص ١٠١ - ١٠٢ - ابن ابي حجلة : المصدر نفسه ، ص ١١٠ - الانطاكي : المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٣٣٧ - ٣٣٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فأجابه ابن حجلة

بالله ان رق النسيم وأخمدت ... نار توأججها يد التبريح

نقل فوأدك حيث شئت من الهوى ... ودع العدول وقوله في الريح . (١)

وقد فاز بعض العشاق بمعشوقه قبل حلول منيته ومنهم من مات بغصته:

من نال من دنياه أمنيـــة ... أسقطت الأيام منها الألـف

ومنهم من بات على وعد الحبيب مسلوب الرقاد بعيدا عن لقاء الردى ، فهو يكذب قول الحبيب حينا ويصدقه حينا آخر ويجربه ويقول :

ما زالت منتظر لوعدك سيدى ... في البيت ملتفتا لقرع البـاب

يا كاذبا وعده بلســانـه ... من لي بعض لسانك الكذاب

وقد أدى الحب الى النحول والذبول بسبب المعشوق ، كذلك الى هجرة بعض المحبيـــن لمعشوقيهم ، فابن عبد الظاهر يقول في هذه المناسبة :

أيها الصائد باللحظ ومــــن ... هو من دون الورى مقتضــــي

لا تسم طائر قلبي هـــربـــا ... انه من أضلعي في قفصي .

وممن ترك معشوقه وهاجر عبد الله الدربندي ضياء الدين النجوى كان مولعا بشاب يعاشره فترك بسببه الشام وهاجر الى مصر . (٢)

وقد أدى الحب الى القتل أحيانا ففي سنة ٧٥٢هـ / ١٣٥١م أقدم شاب من أبناء دمشق على قتل انسان يحبه ، فلما وصل خبره الى الوالي استقدمه وسأله فأنكر فمراه ليضربه ، عندئـــذ تقدم انسان كان يعشق ذلك الشاب وقال للوالي لا تضربه فانه ما قتله وانما قتلته أنا ، وكـان نائب دمشق أيتمش فاطلع على القصة فأمر بحبس الشاب القاتل ، غير أن ايتمش لم يطل في نيابة دمشق بل أتى أرغون الكاملي فكان أول شيء عمله شنق العاشق بمقتضى المحضر المكتوب عليه . (٣)

وذكر عن ناصر الدين القلندرى أنه كان يهوى شابا من أولاد الجند بطرابلس وكان يكتب عليه وكان آخر ما تمثل به ومات عقبه سنة خمس وثلاثين وسبعمائة قول الصاحب بن عباد

يا من وهبت له نفس فعذبها ... ورمت تخليصها منه فلم أطق

أدرك بقية نفسي فيك قد تلفت ... قبل الممات فهذا آخر الرمق . (٤)

---

(١) - ابن ابي حجلة : المصدر نفسه ، ص ١١٤ - ١١٥ .
(٢) - العسقلاني : الدرر ، ج ٢ ، ص ٣١١ - ابن ابي حجلة : المصدر نفسه ، ص ١١٤ - ١١٥ - ١٩٨ - ٢١٣ .
(٣) - ابن ابي حجلة : المصدر نفسه ، ص ٢٦٧ - ٢٦٨ - الانطاكي : المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٣٥٦ .
(٤) - ابن ابي حجلة : المصدر نفسه ، ص ٢٦٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقال بعض المشايخ وقد عشق شيخا

كلفت به شيخا كان مشيبه على وجنتيه ياسمين على ورد

أخو العقل يدرى ما يراد من الفتى امنت عليه من رقيب ومن ضد

وقالوا الورى قسمان في شرعة الهوى لسود اللحى ناس وناس الى المرد

فقلت لهم لو كنت أصبو لامرد صبوت الى هيفاء مياسة القد

وسود اللحى أبصرت فيهم مشاركا فاثرت أن أبقى بأبيضهم وهدى (١)

ولكثرة الحكايات والصور التي أوردها كل من الانطاكي وابن حجلة نستطيع القول أن هناك أنواعا من عشق الغلمان مما يمكن أن نسميه (بالعشق العذري) فلقد اكتفى بعضهم بصحبة الغلمان دون ممارسة الشذوذ الجنسي ، وقد لاحظنا أن عددا من الفقهاء قاموا باصدار فتاوى تمنع من معاشرة الأحداث والنظر الى الوجوه الملاح .

(١)-ابن ابي حجلة: المصدر نفسه ،ص ٢٤٣-٢٤٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

و: انتشار الخمر والحشيش :

اتخذ الاسلام موقفا واضحا من مسألة تحريم الخمر، وارتبط التحريم بمواقف اخلاقية ودينيـــة رتبت على مستهلكيها نتائج سلبية، ورغم ذلك فقد عرفت ظاهرة تناول الخمر قبل فترة البحث، لكن انتشارها قوي خلال فترة دخول المغول للمنطقة، وكما تذكر المصادر فان أهل الذمـــة ساهموا بشكل كبير في نشر شرب الخمر وتداوله بين الناس، اذ انحصر انتاج الخمر بأهـــل الذمة فقط.

أما العوامل التي ساعدت في انتشار الخمر خلال فترة البحث فهي التسامح الديني الذي أبداه المغول تجاه أهل الذمة في بلاد الشام، اضافة الى غض النظر عن بعض الاعمال التي قاموا بهـــا تجاه المسلمين، ففي سنة ٦٥٨هـ/١٢٥٩م عمد أهل الذمة اضافة الى بعض المتساهلين في امور الدين الى بيع الخمر عند دخول المغول للمنطقة، كما قام أهل الذمة برش الخمر علـــى أبواب المساجد، اذ كان معهم قماقم مملوءة بالخمر رشوها على مسجد درب الحجر الصغيـــر والكبير، وعند رباط الشيخ أبي البيان[(١)]، كما رشوا الخمر على وجوه الناس وثيابهم.[(٢)]

وكان ضعف الرقابة الحكومية الناجمة عن انشغال المماليك بالمواجهة العسكرية مع المغـــول من جهة، ومشاكلها الداخلية من جهة اخرى من العوامل التي ساعدت على انتشـــار الخمر، فالسلطة المملوكية انشغلت بتهدئة حركات الشغب والتمرد ضدها سواء الاستقلالية عن السلطة، أو الحركات التي طمع افرادها في عرش السلطنة، لذلك كان هم السلطات مقاومة العدو المغولي، وتأمين حاجات المجتمع الاقتصادية، وهذا ما سمح لظواهر الفساد بالانتشار. لكن السلطات المملوكية تجاوزت أحكام الاسلام على متعاطي وبائعي الخمر حيث وصلت الى حد القتل، مع العلم أن الرسول صلى الله عليه وسلم والخلفاء من بعده والفقهاء لم يفتوا بقتل السكران وانما اقامة الحد عليه، فقد روى بعضهم عن رسول الله (ص) أنه ضرب في الخمر بالجريد والنعال وجلد أبو بكر أربعين جلدة، أما عمر فقد استشار الناس، فأشاروا عليه بأخف الحدود وهي ثمانين فأمر بها[(٣)]

(١) - رباط أبي البيان : داخل باب شرقي تجاه درب الحجر، وقد بناه ابو البيان بن محمد بن محمد بن محفوظ القرشي ويعرف بابن الحوراني (ت ٥٥١هـ/١١٥٦م). انظر النعيمي : الدارس ج٢، ص١٩٢.

(٢) - ابن الجزري : المختار، ص٢٥٧ - ابن كثير : المصدر نفسه، ج١٣، ص٢١٩ - العيني : المصدر نفسه ج١، ص٣٤٢-٣٤٣ - ابن تغري بردي : النجوم، ج٧، ص٨٠-٨١ - الغامدي : جهاد المماليك، ص٢٠١ - سعد (فهمي عبد الرزاق) : العامة في بغداد في القرنين الثالث والرابع الهجريين : بيروت : الاهلية للنشر، ١٩٨٣، ص٢٧٣.

(٣) - ابن أبي العينين (أبي عبد الله احمد ابن ابراهيم) : اعلام الانام بأحكام الخمر في الاسلام، طنطا، دار التراث، الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م، ص٦٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وتم في فترة البحث التعاون والتنسيق بين الهيئات العلمية والدينية والسياسية لمحاربة الخمور وبيعها وخاصة بالنسبة لأهل الذمة، وأفتى الفقهاء بأن خمور أهل الذمة لا تراق عليهم الا أن يظهروا شربها أو بيعها، وهذا ما حصل في هذه الفترة لذلك لم تأل طائفة الشيوخ جهداً في منعها، فقد قام الشيخ خضر[1] شيخ الظاهر بيبرس مع علماء آخرين بتفتيش بيوت أهل الذمة سنة ٦٦٨هـ/١٢٦٩م لالزامهم بأن يكتبوا على أنفسهم كتاباً بعدم تعاطي الخمور وعدم اقتنائها.[2]

وساعد الشيخ خضر في محاربة انتشار حانات الخمر ومتعاطيها قضاة حماة ناصر الدين بن البارزي الشافعي، وشهاب الدين يعقوب المالكي، وتقي الدين بن شيخ السلامية الحنبلي، ونتيجة لتصرفهم هذا عزلوا عن مناصبهم لأنهم أزالوا الخمارات التي أحدثها النائب سودون العثماني بدون اذن من السلطات. والحانات أو الخمارات كانت المكان الأول لتعاطي الخمور، وضمت القيان، والمغنيات اضافة الى راقصات وغلمان كانوا يضفون على مجالس الشرب نوعاً من التهتك واللهو.[3]

ومن الواضح أن السلطة وقفت الى جانب الهيئات الدينية في محاربة المنكرات، وتعهد أفرادها بازالة هذه المنكرات لذلك اقدم السلاطين والنواب والامراء على محاربتها، وأول من بدأ منهم الظاهر بيبرس البندقداري فأصدر أمراً سنة ٦٦٤هـ/١٢٦٥م بكسر جرار الخمور واراقتها في مصر والشام وقد قيل في ذلك أشعار منها:

ليس لابليس عندنا أرب   فغير هذه البلاد مأواه

حرمته الخمر والحشيش معاً   أعدمته ماءه ومرعاه

---

(١) الشيخ خضر: هو خضر بن ابي بكر محمد بن موسى، اصله من قرية المحمدية أعمال جزيرة ابن عمر، وهو شيخ الظاهر بيبرس وكان الظاهر له عقيدة فيه ذلك أنه أنباه بالسلطنة، وبعد توليه الحكم كان يطلعه على غوامض أسراره، ثم تغير الظاهر بيبرس عليه وحبسه سنة ٦٧١هـ ت الشيخ خضر سنة ٦٧٦هـ. ينظر ابن تغري بردي: النجوم، ج ٧، ص ٢٧٦-٢٧٧.

(٢) - الذهبي: العبر، ج ٥، ص ٢٨٨ - دول الاسلام، ج ٢، ص ١٧١ - اليافعي: مرآة الجنان، ج ٤، ص ١٦٧ - الاقفهسي (احمد بن عماد بن محمد بن يوسف): اكرام من يعيش بتحريم الخمر والحشيش، طنطا، دار التراث، الطبعة الاولى، ١٤١١هـ/١٩٩١م، ص ٢٩.

(٣) - ابن قاضي شهبة: المصدر نفسه، ج ١، ق ٣، ص ٢١٦ - سعد: المرجع نفسه، ص ٢٧٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

كما أصدر الظاهر بيبرس في وقت آخر أمراً بمنع بيع الحشيش والخمر معاً ، وكانت عقوبة البائع والشارب القتل ، وأول دلالة على ذلك أن ابن الكازروني ألقي القبض عليه وهو سكران وعنده جرة خمر فصلب .(١)

وفي سنة ٦٦٩هـ/ ١٢٧٠م أقدم الظاهر بيبرس على اراقة الخمور في سائر البلاد وتعذيب من يقوم بعصرها بعد ذلك ، مما يدل على أن انتاج الخمور كان يتم في المنطقة وعلى أيدي أبنائها حيث تتوفر جميع المواد المستعملة في صنع الخمور .(٢)

وتابع المنصور قلاوون ما بدأ به زميله بيبرس في ازالة المسكرات وغيرها فأمر سنة ٦٧٨هـ/١٢٧٩م بابطال الخمور وألا تضمن ولا يتظاهر بها .(٣)

وكان للتدخل المغولي في المنطقة أثراً على جميع ظواهر الفساد ، ففي سنة ٦٨٠هـ/١٢٨١م وعند دخول المغول للشام سمح ببيع الخمور ، والتغاضي والتجاهل في سوء الاخلاق لمن نال حظوة عند أولي الامر ، غير أن العلماء قاوموا البيع ، وذلك لتحريم التجارة به ، فقد نهى رسول الله صلي الله عليه وسلم عن تجارته فقال : «حرمت التجارة في الخمر» .(٤) أما المغول فقد شجعوا ذلك/ وربما ارتبط البائعون مع الغزاة في مصالح مادية أو معنوية ، وكان هدف الغزاة أيضاً من بيعها اضعاف الروح المعنوية والعسكرية عند اهل تلك البلاد ، فالخمور تذهب العقل وتؤدي الى الخمول والكسل ، وهذه غاية الغزاة في تحقيق مآربهم ، فقام السلطان قلاوون باصدار أمر باراقة الخمور وابطالها ، وقد ساعده على تطبيق هذا القرار معاونة العلماء له .(٥)

وبسبب تشديد السلطة على محاربة الفساد وشرب الخمور ، فقد قبض سنة ٦٨٧هـ/١٢٨٨م على ذمي كان يشغل منصب الكتابة بدمشق ، وامرأة مسلمة يشربون الخمر ، فأمر نائب السلطنة بدمشق بحرق الذمي ، أما المرأة فقطع بعض أنفها جزاءً لما ارتكبت .(٦)

---

(١) - المنصوري : المصدر نفسه ، ص٥٦ - ابن شاكر : فوات ، ج١ ، ص١٧٠ - ابن اياس : المصدر نفسه ، ج١ ، ق٢ ، ص٣٢٦ .

(٢) - ابن عبد الظاهر : الروض ، ص٣٩٠ - النويري : المصدر نفسه ، ج٣٠ ، ص١٨٠ - ابن كثير : المصدر نفسه ، ج١٣ ، ص٢٦٠ .

(٣) - ابن عبد الظاهر : تشريف الايام ، ص٥ قسم ابن الفرات .

(٤) - صحيح البخاري (٤/ ٤١٧) رقم/ ٢٢٢٦ .

(٥) - ابن كثير : المصدر نفسه ، ج١٣ ، ص٢٩٤ - المقريزي : السلوك ، ج١ ، ق٣ ، ص٦٨٨ - ابن ابي العينين : اعلام الانام ، ص٧٩ .

(٦) - النويري : المصدر نفسه ، ج٣١ ، ص١٥٨ - ابن كثير : المصدر نفسه ، ج١٣ ، ص٣١٢ - العيني : المصدر نفسه ، ج٢ ، ص٣٧١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وكانت منطقة الزبداني من المناطق التي يعصر فيها الخمر، لذلك شدد على أهلها سنة ٦٩٠هـ/١٢٩١م ألا يعصروا خمرا. كما طالب بعض سكان المناطق السلطات بإزالة الحانات من مناطقهم، فقد طلب أهالي معرة النعمان من السلطان سنة ٦٩١هـ/١٢٩٢م بإبطال الخمارات في بلادهم فأجابهم إلى طلبهم وأبطلت من وقتها (١).

وشاع انتشار الخمر في بعض الاحيان لدى الاوساط السياسية وخاصة أعيان السلطة وعندما كان الامير لاجين حاكما بدمشق سنة ٦٩٧هـ/١٢٩٧م أخذ يفرط في الشرب ومعاشرة النساء حتى اضطر الشجاعي نائب السلطنة بدمشق أن يخبر الملك المنصور قلاوون بالامر، فبعث يهدده اذا لم يترك ذلك (٢).

وبدخول المغول للمنطقة سنة ٦٩٩هـ/١٢٩٩م ارتكبوا الفواحش كشرب الخمر والزنا وطرح القاذورات والنجاسات في الجامع الاموي، كما قام قبجق نائب غازان بدمشق بإعادة عمل الخمارات وتشجيعها فأمر بإدارة الخمارة والحانة بدار ابن جرادة خارج باب توما، حيث ضمنت كل يوم بألف درهم (٣).

وبعد رحيل غازان عن المنطقة الغى علم الدين أرجواش ما استجده غازان من الحانات، فأغلقها، وأمر بكسر المواعين التي تستخدم فيها الخمور، ونفذ المهمة الشيخ تقي الدين بن تيمية وأصحابه، حيث داروا على الخمارات والحانات وكسروا أواني الخمور وشقوا الظروف، وشتموا اهل الحانات، ورافقه بعض من عامة الشعب وهو يدور على الحانات وكان يقرأ عليهم سورة القتال وآيات الجهاد وأحاديث الغزو والرباط والحرس ويحثهم على ذلك، وقد سر العامة كثيرا لهذا الامر (٤).

وعندما انتشر شرب الخمر بين الأوساط الدينية والقضائية عمدت السلطة الى عقوبة القتل أحيانا، والعزل أحيانا أخرى، فقد قتل الفتح أحمد بن الثقفي من أهل حماه بسبب شربه للخمر، وقتل معه الاديب الشاعر أحمد بن محمود بن اسماعيل، وناصر بن الهيتي، أما القاضي

---

(١) - ابن الجزرى: المختار، ص٣٤٣ - ابن الوردى: المختصر، ج٢، ص٣٣٩.

(٢) - المقريزى: السلوك، ج١، ق٣، ص٨٦١ - العيني: المصدر نفسه، ج٣، ص٤٣٢.

(٣) - النويرى: المصدر نفسه، ج٣١، ص٣٩٦ - ٤٠٠ - ابن ايبك الدوادارى: الدر الفاخر، ص٢٨ - ٣٠ - المقريزى: السلوك، ج١، ق٣، ص٨٩٣ - ٨٩٦ - المقفى الكبير، ج٧، ص١٧٢ - العيني: المصدر نفسه، ج٤، ص٤٦ - دهمان: ولاة، ص١٠٩.

(٤) - النويرى: المصدر نفسه، ج٣١، ص٤٠١ - ابن كثير: المصدر نفسه، ج١٤، ص١١ - المقريزى: السلوك، ج١، ق٣، ص٩٠٠ - المقفى الكبير، ج١، ص٤٥٩ - زيادة: دمشق، ص٢٠١ - دهمان: ولاة، ص١١١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

صدر الدين بن الوكيل فقد تعرض للعزل بسبب شربه الخمر وثار الناس بسبب ذلك وادعوا بأن الصلاة لا تجوز خلفه، وعين بدله صدر الدين بن المرحل ،لكن الخلف لم يكن بأحسن من السلف فقبض على الاخير سنة ٧١٠هـ/١٣١٠م بدمشق مع جماعة يعاقرون الخمر وعزل من منصبه.(١)

وقام السلطان محمد بن قلاوون بابطال الخمور لسنوات متلاحقة ومتتابعة سنة ٧٠٩هـ/١٣٠٩ - ٧١٤هـ/١٣١٤م - ٧١٧هـ/١٣١٧م - ٧٢٠هـ/١٣٢٠م، ٧٤٥هـ/١٣٤٤م.(٢)

وكانت ظاهرة انتشار الخمور مرتبطة بقوة السلطة السياسية في المنطقة ، فقد كانت تزداد انتشارا عند ضعف الأمير أو النائب في المنطقة ، فقد ازداد الفسق والمجاهرة بالخمر في مدينة دمشق عند ضعف الاميرطقزدمر الحموي وتغلب مماليكه عليه.(٣)

وقد تابع النواب سياسة محاربة ظاهرة الخمور بيعه وتعاطيه ، فقام نائب حلب الأمير بيبغا بن عبد الله القاسمي بالتشديد على من يشرب الخمر ، وحكم بغير أحكام الله ، ذلك أن أحد المباشرين بالديوان السلطاني بحلب شرب الخمر سنة ٧٥٢هـ/١٣٥١م ، ثم ركب وسار الى دار الامارة بغير اختياره فأمر بيبغا روس بتسميره على جمل فسمر وطيف به في المدينة ساعة من النهار ثم أطلق.(٤)

وتابع أرغون الكاملي نائب دمشق هذه السياسة فأصدر أمر سنة ٧٥٢هـ/ ١٣٥١م بأن من وجد جنديا سكرانا فلينزله عن فرسه ، وليأخذ ثيابه ، ومن أحضره من الجند الى دار السعادة فله خبزه ، فنفر الناس بذلك واحتجوا على الخمارين والعصارين ورخصت الاعناب.(٥)

وشدد نائب السلطنة في دمشق على اهل الذمة سنة ٧٦٧هـ/١٣٦٥م بعدم عصر الخمور ، لذلك أمر بتفتيش بساتينهم فوجد فيها من الخمر المعتصر الخوابي والحباب فأريقت عن آخرها ، بحيث جرت في الازقة والطرقات ، وفاض نهر ثورا من ذلك وهذا فيه بعض المبالغة ، وأمر بمصادرة أهل الذمة الذين وجد عندهم ذلك وهم تحت الجباية.(٦)

---

(١) - ابن الوردي : المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٣٩٨ - المقريزي : المصدر نفسه ، ج ٢ ، ق ١ ، ص ٨٨ - العسقلاني : الدرر ، ج ٤ ، ص ١١٦ - ١١٧ - العيني : المصدر نفسه ، ج ٤ ، ص ١٧٧ - ٣١٩ - ابن تغرى بردى : المنهل ، ج ٢ ، ص ٩٥ - ٩٦ - الشوكاني : المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٢٣٥ .

(٢) - الذهبي : ذيول العبر ، ص ٥٤ - دول ، ج ٢ ، ص ٢٢٤ - ابن الوردي : المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٣٧٩ - ٤٨٦ - اليافعي : المصدر نفسه ، ج ٤ ، ص ٢٤٥ - ابن كثير : المصدر نفسه ، ج ١٤ ، ص ٥٠ - ٧٠ - ٨٢ - المقريزي : السلوك ، ج ٢ ، ق ١ ، ص ٢١١ .

(٣) - المقريزي : السلوك ، ج ٢ ، ق ٣ ، ص ٦٤٩ .

(٤) - ابن تغرى بردى : النجوم ، ج ١٠ ، ص ٢٩٣ - المنهل ، ج ٣ ، ص ٤٨٦ .

(٥) - ابن كثير : المصدر نفسه ، ج ١٤ ، ص ٢٤٠ - دهمان : ولاة ، ص ٢٠٤ .

(٦) - ابن كثير : المصدر نفسه ، ج ١٤ ، ص ٣١٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولما ولي طرنطاي الجحوهية في دمشق (نائب دمشق سنة ٧٩٢هـ) شدد على العوام في قضية شرب الخمر وعاقب نتيجة لذلك كثيرا من الناس، وظل يحارب الفساد حتى طلب الى الديار المصرية .(١)

وعندما ورد الى مسامع نائب دمشق قدوم قافلة مليئة بالخمر سنة ٨٠٠هـ/١٣٩٧م وهي نحو مائتي جمل أرسل رجاله واعترضوا القافلة وتحاربوا عند المزة، وأخذوا القافلة وكانت للامير يلبغا الاشقتمري، فأخبر نائب دمشق السلطان بهذه الأنباء .(٢)

انقطعت أرزاق الخمارين، وقل بيعهم نتيجة للأحكام الشديدة التي فرضها رجال السلطة على متعاطي الخمور، وعندما نقلت السلطات المملوكية الاميرسيف الدين منجك من نيابة دمشق لنيابة صفد فرح الخمارون ومتعاطو الخمر، لأنه حارب الخمارين كثيرا .(٣)

ونتيجة انتشار التعاليم الدينية بشكل كبير بين الناس، بتوجيه من الفقهاء ورجال الدين، تولد لديهم قناعة تامة بتحريم شرب الخمر، وجلبه للمصائب، فقد روى بستاني أن مياه عين الكرش بمدينة دمشق جفت بعد أن كانت تديرحجر الطاحون وسبب جفافها شرب الخمر من قبل بعض الأهالي ، وفعلهم لكل قبيح ، فمنع الناس من الجلوس عندها وعزلوها ، فجرت ولكن بشكل ضعيف .(٤)

لقد ساهم الغزو المغولي للمنطقة في انتشار شرب الخمر وبيعه ، كما أثرعلى أحكام أمراء المماليك التي تناولت شرب الخمر، فوصلت بعض هذه الاحكام الى حد القتل متخطية أحكام الاسلام بذلك .

- انتشار الحشيشة :

ارتبط تناول الحشيشة في بلاد الشام تاريخيا بالصوفية، والى الصوفية يعود الفضل في الكشف عنها وانتشارها، فاستعملت كمادة منشطة تساعد على السهر، وتم اكتشاف الحشيشة

(١) - ابن تغرى بردى : المنهل، ج٦، ص ٣٨٣ - دهمان : ولاة، ص ٢٤٨ - ٢٥٠ .
(٢) - ابن قاضي شهبة : المصدر نفسه، ج١، ق٣، ص ٦٥١ .
(٣) - ابن كثير : المصدر نفسه، ج١٤، ص ٢٦٣ - دهمان : المرجع نفسه، ص ٢١٤ .
(٤) - ابن صصرى : المصدر نفسه، ص ٢٠١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

على يد الشيخ حيدر المقيم في خراسان الذى تناول نبات الحشيش في البرية ولم يعرف ما هو اسمه ، فشعر بنشاط في جسمه وذهنه ، فأصبح يتناولها باستمرار ثم أهداها الى أصحابه وأوصاهم بكتمان سرها عن العوام وقال :

((ان الله تعالى قد خصكم بسرهذا الورق ليذهب بأكله همومكم الكثيفة ، ويجلو بفعله أفكاركم الشريفة ، فراقبوه فيما أودعكم وراعوه فيما استرعاكم)) .

كما أمرهم الشيخ حيدر بزرع الحشيشة حول ضريحه بعد أن يموت . لكن الادباء هزئوا بتلك الحشيشة وسموها مدامة حيدر وفي ذلك يقول بعضهم :

دع الخمر واشرب من مدامة حيدر	معنبرة خضراء مثل الزبرجد
يعاطيكها ظبي من الترك أغيد	يميس على غصن من البان أملد
فتحسبها في كفه اذ يديرها	كرقم عذار فوق خد مورد
يرنحها أدنى نسيم تنسمت	فتهفوا الى برد النسيم المردد
وفيها معان ليس في الخمر مثلها	فلا تستمع فيها مقال مفند .(١)

وانتشرت آفة تناول الحشيش على يد الصوفية في كافة المجتمعات ، لكنها اتخذت عند الصوفيين للسهر والعبادة ، بينما اتخذت الحشيشة في فترة البحث للسكر كالخمر تماما .

ولقد نهى الفقهاء ورجال الدين عن تناولها بالقياس مع الخمر ، لأن كل مسكر حرام ، فقد قال ابن البيطار : الحشيش مسكرة جدا ، وقال القرافي : يحرم أكل الحشيش بالاجماع ، بينما اعتبر ابن تيمية من استحلها كافر .(٢)

لكن بعض الفقهاء حللوا بيع الحشيشة ، وربما قصدوا من ذلك الجانب الطبي حيث كانت تستخدم للتداوي ، والدلالة على صحة القول قولهم لمن يأكلها حرام كبيع العنب أو يعصر الخمر .(٣)

---

(١) - مبارك (زكي) : التصوف الاسلامي في الادب والاخلاق ، مصر ، مطابع دار الكتاب العربي ، الطبعة الثانية ١٣٧٣هـ/١٩٥٤م ، ج ١ ، ص ٣٢٣ - ٣٢٤ .

(٢) - الاقفهسي : المصدر نفسه ، ص ٦٠ - ٦١ .

(٣) - الاقفهسي : المصدر نفسه ، ص ٦٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقد عدد أحمد بن يوسف الاقفهسي مضار الحشيشة الدينية والدنيوية حيث قال :

« انها تورث الفكرة وتجفف الرطوبات ، وتعرض البدن لحدوث الامراض ، وتورث النسيان ، وتصدع الرأس وتقطع المني وتجففه ، وتورث موت الفجاءة ، واختلال العقل ، والدق ، والسل ، وتورث فساد الفكر ونسيان الذكر ، وافشاء السر ، وانشاء الشر ، واذهاب الحياء ، وكثرة المراء وعدم المروءة ، وكشف العورة ، وعدم الغيرة ، واتلاف الكيس ، ومجالسة ابليس ، وترك الصلوات ، والوقوع في المحرمات ، وتفسد العقل ، وتقطع النسل وتورث الجذام ، وتورث البرص ، . . . . وتفتر الاعضاء ، وتضيق النفس ، وتقوى الهوس ، وتنقص القوى . . وتورث الكسل والفشل ، وتجعل الأسد كالجعل ، وتعيد العزيز ذليلا ، والصحيح عليلا ، ان أكل لا يشبع ، فان أعطى لا يقنع ، وان كلم لا يسمع ، تجعل الفصيح أبكما ، والصحيح أبلما ، وتذهب الفطنة ، وتحدث البطنة ، وتورث اللعنة ، والبعد عن الجنة » .(١)

وساهم المغول بشكل غير مباشر في انتشار الحشيشة في بلاد الشام وشجعوا تناولها ، نتيجة للظروف السياسية السائدة بعد احتلال المغول لبغداد ، التجأ السلطان أحمد بن اويس الى دمشق سنة ٧٩٦هـ/١٣٩٣م ونزل في القصر الأبلق والميدان ومعه خمسمائة نفس عاثوا فسادا في دمشق وشربوا الحشيشة أمام أهلها ، فمقتهم أهل دمشق نتيجة تصرفهم هذا .(٢)

ومن غير المستبعد أن يكون بقاؤهم في مجتمع كبير كمدينة دمشق قد جر بعض ضعاف النفوس الى تناولها ، الأمر الذى سيؤدي بالطبع الى كثرة انتشارها بين جماهير العامة والجهال بشكل خاص ، مما سيؤدي الى اضعاف الروح الدينية والقومية في مرحلة وصفت بأنها أصعب المراحل التي مرت على المنطقة ، فالسلطان المملوكي في خصام مع نواب دمشق ومع منطاش التركماني ، وتيمورلنك خرج من بلاده وبدأ باجتياح المدن أمامه وتشريد اهلها ، وقتلهم وظل جادا في سيره حتى وصل المنطقة سنة ٨٠٣هـ/١٤٠٠م .

واذا كان للمغول يد في وصول الحشيشة الى بلاد الشام ، فمن البديهي أن يشجعوها عند احتلالهم للمنطقة حتى يضعف المجتمع ويصيب أفراده الخمول ، مما يسهل سيطرتهم عليه .

(١) - الاقفهسي : المصدر نفسه ، ص ٦٥ .
(٢) - ابن صصرى : الدرة المضيئة ، ص ١٤٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وعلى الرغم من تحريم الحشيشة فقد سادت بين فئات الشعب العامة منهم والخاصة وحتى بين المشايخ ، فبدلا من قيامهم بالدور الايجابي للحد منها كان بعضهم يتناولها، منهم احمد بن ابراهيم بن احمد بن راجع نجم الدين عاد الدير المقدسي سبط الشيخ شمس الدين بن أبي عمر (ت ٧١٠هـ) وقد أدت الحشيشة الى وفاته ، وقد مات كثير ممن تناولها فجأة.(١)

وفي سنة ٧٠٤هـ/١٣٠٤م أحضر ابن تيمية الشيخ ابراهيم القطان ، وأمره بترك الصياح والفحش وأكل الحشيشة وترك لباس الدلق ، وأكل جميع ما يغير العقل ويذهبه ، وأفتى ابن تيمية بكفر من استحلها ويدل هذا دلالة واضحة على اشتراك الهيئات الدينية بمحاربة الحشيشة.(٢)

والظاهر أن تناول الحشيشة لم يقتصر على الرجال فقط بل تناولتها النساء أيضا ، فالشجاعي نائب دمشق هدد كل من أكلها ، وعندما سمعت النساء بهذا التهديد تراجعن عن أكلها.(٣)

ونتيجة لخطورة تناولها فقد سارعت السلطة ممثلة بالنواب والسلاطين وحتى الهيئات الدينية في بلاد الشام للتصدي لمشكلة بيع الحشيشة وأكلها ، لأنها تذهب العقل ، وتلغي دور الفرد السياسي عامة والديني خاصة في المجتمع ، في وقت كانت فيه بلاد الشام أحوج ما تكون لنشاطات هؤلاء الافراد السياسية والعسكرية في صد الغزاة ومنع تقدمهم باتجاه المنطقة. لذلك أمر الظاهر بيبرس بابطال ضمان الحشيشة واحراقها سنة ٦٦٤هـ/١٢٦٥م لأسباب كثيرة منها أنها مادة مسكرة ، وكل مسكر حرام ومنها أنها تضر وتورث الفتور والخدر في الاطراف اضافة الى أن النبي صلى الله عليه وسلم نهى عن كل مسكر.(٤)

كما شارك المتصوفة في حملات مكافحة الحشيشة ، فقد قام مجموعة من الفقراء المغاربة سنة ٧٥٧هـ/١٣٥٦م بمهاجمة اماكن لبيع الخمر والحشيش بدمشق ، فكسروا أواني الخمر واتلفوا الحشيش ثم انتقلوا الى حكر السماق وغيره فثار عليهم البازدائية والكلابرية وغيرهم من الرعاع فتناوشوا ، وقد رأى الوالي ان يناصر هؤلاء المغاربة على الحشاشين والخمارين.(٥)

---

(١) - العسقلاني : الدرر ، ج ١ ، ص ٨١ .

(٢) - ابن كثير : المصدر نفسه ، ج ١٤ ، ص ٣٣ - الاقفهسي : المصدر نفسه ، ص ٦١ - المقريزي : المقفى ، ج ١ ، ص ٤٥٩ .

(٣) - الذهبي : دول ، ج ٢ ، ص ١٩٢ .

(٤) - ابن عبد الظاهر : الروض ، ص ٢٦٦ - النويري : المصدر نفسه ، ص ١٣٠ - الاقفهسي : المصدر نفسه ، ص ٦٦ - ابن أبي العينين : اعلام الانام ، ص ٦٠ .

(٥) - ابن كثير : المصدر نفسه ، ج ١٤ ، ص ٢٥٧ - دهمان : المرجع نفسه ، ص ٢١٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٣- الأثر على الناحية الدينية :

١- على المسلمين :

انقسم جيش المغول من حيث تركيبته الدينية الى نساطرة وشامانيين وبوذيين ، واتبع المغول سياسة دينية في كافة المدن التي احتلوها تقوم على تعيين حكام يخالفون السكان الأصليين من حيث العنصر والمذهب ، ففي بلاد الشام عين المغول حكاما معظمهم من الشيعة الفارسيين ، كما عزف المغول ببراعة على أوتار الطائفية في بلاد الشام ، فقد قربوا منهم ظاهريا الأقليات الموجودة فيها ، فتآخوا مع النساطرة الموجودين في حلب ودمشق وملطيه وغيرها ، وأحيوا الفتن الطائفية لمحاولة ضرب التماسك الداخلي في بلاد الشام.(١)

عند دخول المغول للمنطقة أولوا أهمية خاصة لأهل الذمة ، فعطفوا على النصارى وولوهم مناصب هامة استغلها النصارى لصالحهم وقام بعضهم بالانتقام من المسلمين في كافة مدن الشام ، وكان لدخول الغزاة أثر كبير على المؤسسات الدينية الاسلامية ، فقد أحرقوا الجوامع ، وانتهكوا حرمتها ، وعطلوا الصلوات فيها ، وعطلوا مواسم الحج لسنوات ، ونهبوا الجوامع والأديرة ، ولكن نجد من زاوية أخرى أن بعض قادة جيشهم كهولاكو أمر باحترام المؤسسات الدينية التي تنتمي لجميع الطوائف ، فلم يتعرض جيشه للخانقاه ، التي فيها زين الدين الطوسي وكنيسة اليهود ، بينما أحرق هيثوم ملك الأرمن الجامع الكبير.(٢)

ونتيجة للهجمات التي شنها المغول على دمشق بقيادة هولاكو فقد تعطلت فيها الصلوات ، فقام فيما بعد والي دمشق ايازالحراني بالتشديد على أهل الأسواق وأمرهم بالصلاة ، وعاقب من تخلف عنها ، وقد ساعده على ذلك شخص حنبلي يسمى ابن الصيرفي.(٣)

ولم تكن سياسة غازان الدينية تجاه الادارات والمؤسسات الاسلامية بأحسن من سابقيه ، فعند دخول جيشه دمشق ومحاصرة قلعتها اتخذ جنوده الجامع حانة يزنون بها ويشربون الخمر ، وانقطعت الصلاة في الجوامع ، وكان الجامع الأموي يغلق بين العشائين ومن تأخر

(١)- العريني : المغول ، ص٢٤٨ .
(٢)- ابوشامة : تراجم ، ص٢٠٨ - أبوالفداء : المصدر نفسه ، ج٣ ، ص٢٠١ - ابن الوردي : المصدر نفسه ، ج٢ ، ص٢٩٣ - الذهبي : دول ، ج٢ ، ص١٦٣ - العيني : المصدر نفسه ، ج٤ ، ص٣٧-٣٨ - العريني : المغول ، ص٢٤٤ - دهمان : ولاة ، ص٤٩ - عاشور : العلاقات ، ص٥٤-١٥١-١٥٢.
(٣)- ابن تغرى بردى : المنهل ، ج٣ ، ص١٢٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فيه شلح ، ولم يكن يصلي فيه الا نفر قليل صباحا ومساء ، كما نهبوا الأماكن المحيطة بالجامع فأغلقت أبواب الجامع ، وترك منها باب صغير ، كما انقطع الناس عن الصلاة حتى أنه لم يكن يصلي خلف الامام الا رجل أو اثنان خوفا على أنفسهم ، كما نهب دير الحنابلة ومسجد الأسدية ومسجد خاتون ، ودار الحديث الأشرفية ، وأحرق جامع التوبة بالعقيبة ، وهاجم المغول رباط الحنابلة وأسروا كثيرا من البنات .(١)

استخدمت الجوامع للدعاء لغازان والخطبة باسمه ، وأصبحت مصلى للمغول ، وفوضت ولاية القضاء الى قبجق ، فقام هؤلاء بنثر الدراهم والدنانير على الناس ففرحوا بذلك لما يعلمونه من عدل قبجق وحسن سيرته .(٢) وتابعت المدن حياتها اليومية بعد خروج غازان من المنطقة فتكون الخطبة قد انقطعت في الجوامع باسم السلطان المملوكي حوالي مائة يوم ، وبعد خروج غازان عادت الى سابق عهدها .(٣) وكانت الكارثة على مدن الشام أعم وأكبر عند قدوم تيمورلنك على المنطقة ، فلم يعط الأمان لمدينة من المدن بل خضعت المدينة بكامل مؤسساتها الدينية والادارية والاقتصادية لهمجية جيشه ، فقد تعطلت الصلوات في المدن ، وتوقفت سبل الحياة الاقتصادية ، كما شهدت المدن أضرارا مادية ومعنوية جسيمة ، وكانت مدينة حلب أولى المدن المتضررة ، فقد كثر فيها القتل والحرق والسبي للمسلمين ، اضافة الى تضرر المعاهد الدينية .(٤)

أما في دمشق فكانت الكارثة أكبر ، اذ تعطلت الصلوات والأذان ، ومنع الناس من اقامة صلاة الجمعة ، ولم يصل الناس في فترة بقاء جيوش الغزاة الا مرتين الاولى يوم الجمعة التاسع عشر من جمادى الاخرة ، حيث دعا فيها الخطيب للسلطان محمود ولولي عهده ابن تيمور ، واستباح الغزاة الجامع الاموي حيث ذهبت منه البسط والحصر ، وستروا بها شرفات الجامع على البوائك ، وصلى الناس الجمعة الثانية في شمالي الجامع وكان عددهم قليل ، وهتك المغول حرمة الجامع فلعبوا بالكعاب ، وضربوا بالطنابير ثم منعوا الناس من اقامة صلاة الجمعة في

(١) - الصفدي : تحفة ، ج ٢ ، ص ٢٠٤ - ابن كثير : المصدر نفسه ، ج ١٤ ، ص ٨ - ٩ - ابن خلدون : العبر ، ج ٥ ، ق ٤ ، ص ٨٩٠ - المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ق ٣ ، ص ٨٩٣ - المقفى الكبير ، ج ٧ ، ص ١٧٢ - العيني : المصدر نفسه ، ج ٤ ، ص ٢٧ - ٩٨ - عاشور : العلاقات ، ص ١٥١ - دهمان : ولاة ، ص ١٠٢ .

(٢) - الصفدي : تحفة ، ج ٢ ، ص ٢٠٢ - المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ق ٣ ، ص ٨٩١ - دهمان : ولاة ، ص ٩٦ - ٩٧ .

(٣) - النويري : المصدر نفسه ، ج ٣١ ، ص ٤٠١ - العيني : المصدر نفسه ، ج ٤ ، ص ٤٧ .

(٤) - ابن تغري بردي : النجوم ، ج ١٢ ، ص ٢٢٥ - الصيرفي : المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٧٥ - ٧٦ - ٧٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الجامع الاموى فأقيمت بالخانقاه السميساطية، ولم تقم صلاة الجمعة بالجامع الأموى الا بعد سنة تقريبا، فقد كان خرابا.(١)

كما تدخل تيمورلنك في تعيين القضاة وفي تفضيل بعض المذاهب على الآخر فقد جعل أعلى رتبة من القضاة للقاضي الحنفي، كذلك عين الحنبلي مكانه اما المالكي أو الشافعي فلم يهتم بتعيين قضاتهم.(٢)

وتعطلت قافلة الحج بعد الغزو المدمر للمنطقة، فبعد قدوم تيمورلنك توقفت قافلة الحج مايقارب الثلاث سنوات، ولم تقم حتى سنة ٨٠٦هـ/١٤٠٣م حيث قام المؤيد شيخ نائب الشام بتجهيز المحمل وجعل أمير الركب فارس الدوادار التنمي وجعل ثوب المحمل حريرا أصفر مذهبا قيمته نحو خمسة وثلاثين ألف درهم فضة.(٣)

واتخذ موسم الحج مظهرا اجتماعيا في هذا العصر لأنه محط اهتمام الناس كافة العامة أو الخاصة، وفي هذا الموسم كانت الحركة والنشاط يسريان في أوصال المجتمع، وتزدهر الأسواق المخصصه لبيع لوازم الحجاج، وبالتالي فان انقطاع قافلة الحج أثر سلبا على هذه الأسواق، فانخفضت بالتالي عائدات التجار لأن الحجاج كانوا يتبضعون الطعام واللباس وغير ذلك من لوازم الحج من المدن التي يمرون بها، فقد كانوا يشترون من دمشق مثلا البقسماط بكميات كبيرة، وبالتالي شكل انقطاع هذه العائدات خسارة كبيرة لتجار المدن وللدولة ايضا.(٤)

وأثرت غزوات المغول سلبا على المعاهد الدينية، اذ أوقعتها في الفوضى، فقد استوجبت أعمال الترميم للمنشآت الدينية خفض رواتب الأساتذة لدفع التكاليف لهذه الترميمات، فخفضت رواتب الأساتذة حتى وصلت أخيرا الى الثلث عام ٨٢٠هـ/١٤١٧م وذلك لتقليل النفقات الكبيرة، وبقي العجز حوالي أربعين ألف درهم ولتأمينه تم استقطاع مدفوعات شهرية من رواتب القضاة والمدراء وخطباء المساجد وراتب واحد من المؤذنين والأساتذة في العام اللاحق كما أعيد تنظيم المدفوعات، وافترض اعادة دقيقة للتنظيم بسبب نقص الأموال التي ازدادات نتيجة لاهمال استمر أكثر من قرن.(٥)

---

(١) - المقريزي: السلوك، ج ٣، ق ٣، ص ١٠٤٨-١٠٨٢ - العسقلاني، ج ٤، ص ٢٠٧-٢٠٨-
- ابن تغرى بردى: النجوم، ج ١٢، ص ٢٤٢-٢٩٧ - الصيرفي: نزهة النفوس، ج ٢، ص ٨٨
- النعيمي: الدارس، ج ٢، ص ١٦٠ - ابن اياس: المصدر نفسه، ج ١، ق ٢، ص ٦١٣-٦٤٦
- العلبي: تيمورلنك، ص ١٨٣-١٩١.

(٢) - الصيرفي: المصدر نفسه، ج ٢، ص ٨٩ -

(٣) - المقريزي: المصدر نفسه، ج ٣، ق ٣، ص ١١٢٠ - العسقلاني: انباء، ج ٥، ص ١٥٢ - ابن طولون: اعلام الورى، ص ٥ - ابن اياس: المصدر نفسه، ج ١، ق ٢، ص ٦١٣.

(٤) - العلبي: دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين، ص ٢٦١ - قاسم: عصر سلاطين المماليك، ص ١٠٠.

(٥) - لابيدوس: المرجع نفسه، ص ١٢٩-١٣٠

٢- أهل الذمة :

أولى الاسلام أهمية خاصة لأهل الذمة فأباح حرية الاعتقاد والعبادة لأبناء الديانات الأخرى اذا قبلوا ان يعيشوا في ديار الاسلام، وأهتم الخلفاء بتنظيم أمور أهل الذمة تنظيما يكفل لهم حماية جيدة وعيشا مطمئنا ، وقد أصدر الخلفاء عددا من العهود التي تنظم علاقة أهل الذمة بالدولة والمجتمع الاسلاميين .

تعددت فئات أهل الذمة التي انتشرت في مناطق بلاد الشام فكان منهم النصارى واليهود والصابئة والمجوس، وكان النصارى فئتين : الملكانية وتدين بالولاء للبابا ، وعرفوا بالكاثوليك ، وكان لهم بطريرك يرجعون اليه في التحليل والتحريم ، وفي الحكم بينهم ، وفي أمر الكنائس والبيع ، وهو يترأس هذه الجماعة ويخضع له الجميع.

أما الفئة الثانية فكانت اليعقوبية وهم الشرقيون وقد ساد هذا المذهب أيضا في الحبشة ومصر. (١)

أما اليهود فكانوا في بلاد الشام ينقسمون الى فئتين : أولاهما اليهود القراؤون والربانيون ، وهؤلاء الذين اتفق الاسلام على يهودیتهم ، والثانية السامريون أتباع السامري الذى أضل اليهود وجعلهم يعبدون العجل وقد أورد ابن فضل الله العمرى الوصية التي أوكلت الى رئيس السامرة حيث قال :

((... فليتزم الحدود وليقم من شرط الذمة بما يقيم به طول المدد وليتمسك بالموسوية من غير تبديل ولا تحريف في كلمة ولا تأويل وليحص عمله فانه عليه مسطور وليقف عند حده ولا يتعد طوره في الطور وليحكم في طائفته)) . (٢)

وكان رئيس السامرة مقيما بمدينة نابلس مدينتهم المعظمة ، وله نائب بدمشق ، وكانت وظيفة رئيس اليهود توضح في مرسوم التعيين وهي تشبه وظيفة البطرك . (٣)

ولا بد عند الحديث عن أهل الذمة ودورهم الاجتماعي والسياسي في هذه الفترة من التطرق الى الأماكن التي قطنوا بها ، واللباس الخاص بهم ، والجزية التي ادوها باستمرار ومتى قطعوا تأدية هذه الجزية؟ .

---

(١) - العمرى : التعريف بالمصطلح ، ص١٤٤-١٤٥ - العلبي : دمشق ، ص٨٢ .

(٢) - العمرى : المصدر نفسه ، ص١٤٤ - العلبي : المرجع نفسه ، ص ٨١ - ٨٢ .

(٣) - القلقشندى : صبح الاعشى ، ج ٤ ، ص١٩٤ - زيادة : دمشق في عصر المماليك ، ص ١٦٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

برزت لدى طوائف أهل الذمة نزعة استقلالية في أحياء خاصة من المدن، ففي مدينة دمشق مثلا اختلفت الروايات حول مناطق سكن اليهود والنصارى، فأحدها تقول أن النصارى كانوا يقيمون في شمال شرق مدينة دمشق، بينما تجمع اليهود في الجنوب الشرقي، أما الرواية الثانية فقد ذكرت بأن النصارى أقاموا في الزاوية الجنوبية الشرقية من المدينة بينما أقام اليهود في قسم مماثل من المدينة جنوبي الشارع المستقيم الممتد من باب الجابية الى باب شرقي. وكان درب كليلة في المدينة يعرف بحارة اليهود، وهو قبلي درب البياعة، والدرب يعرف قديما بكليل القاضي. ولم يقتصر سكن اليهود على مدينة دمشق فقط بل أقاموا في القرى ومنها قرية جوبر.(١)

وكان شأن أهل الذمة في الدولة الاسلامية شأن الفئات الأخرى الا أنهم كانوا يدفعون الجزية، وفرض عليهم بعض الشروط لتمييزهم عن المسلمين، اذ أورد السبكي في كتاب الفتاوى ما حرم عليهم وما جاز لهم، فقال أنهم كانوا يمنعون من تعليم أولادهم القرآن لانهم قد يستخفون بحرمته ويستهزؤون به، ولهذا منعوا من شراء المصحف، كما منعوا من مشاركة المسلمين في أي شيء الا في التجارة لأنهم قد يتعاطون بالربا والخمر والخنزير، كذلك منع الاسلام على المسلمين التشبه بلباسهم حتى لا يخرجوا الى مرتبة التعظيم لقوله صلى الله عليه وسلم: ((ولا تتشبهوا باليهود)) ولأن عمر صالحهم بشرط تغيير زيهم بحضرة الصحابة. وقد كان لون لباس أهل الذمة في فترة البحث أزرق، بينما كان لباس اليهود أصفر.(٢) غير أنهم في بعض الأحيان لم يتقيدوا بارتداء هذا اللباس ربما بسبب انشغال السلطة باعادة الاوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية الى ما كانت عليه قبل قدوم الحملات العسكرية المغولية المتكررة، لذلك فقد حددت السلطات لباسهم سنة ٦٨٠هـ/ ١٢٨١م ووظائفهم سيما أن بعضهم قام بدور مغاير لمصلحة المجتمع اثر قدوم المغول الى المنطقة.

---

(١) - ابن عبد الهادي: ثمار المقاصد في ذكر المساجد، ص١٠٣ - زيادة: المرجع نفسه، ص١٣
- سوفاجيه (جان): دمشق الشام لمحة تاريخية حتى عهد الانتداب، تحقيق أكرم حسن
- العلبي، دمشق، ط١، ١٩٨٩ ص٨٠ - العلبي: المرجع نفسه، ص٨١ .

(٢) - السبكي: الفتاوى، ص ٤٠١ - ٤٠٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومارس النصارى دورا سلبيا اثر قدوم الحملات المغولية، فقد ساندوا الغزاة منذ دخولهم المنطقة، وقد حصلوا على أمان من هولاكو فثاروا بدمشق، ورفعوا الصليب، ودقوا النواقيس ونهبوا المسلمين وقللوا من شأن دين الاسلام، ورشوا الخمر على أبواب المساجد حيث دخلوا من باب توما قاصدين درب الحجر، ورشوا الخمر على رباط الشيخ أبي البيان، وفعلوا ذلك على باب مسجد الحجر الصغير، والمسجد الكبير، فاشتكاهم المسلمون الى نائب قلعة دمشق ايل سنان، لكنه طردهم وأهانهم، ورفع من مكانة قسيس النصارى، لذلك لم يكن مجال أمام المسلمين الا الانتظار لما تستسفر عنه آثار المعركة بين المسلمين والمغول، ولما انجلت النتائج في عين جالوت وانتصر المسلمون، قاموا بالثأر من النصارى والتشفي منهم لما فعلوه، فقتلوا الكثير منهم في دمشق، وخربوا الكنائس ومنها كنيسة اليعاقبة وكنيسة مريم وهي بالجانب الذى فتحه خالد بن الوليد، وأخذوا جميع ما فيها وشعثوا بقية الكنائس كذلك فرضوا قطيعة على أهل الذمة سواء النصارى أو اليهود بلغت مائة ألف وخمسين ألف درهم فالتزموا بها وجمعوها وحملوها للمظفر قطز (١).

وأخذت قضية ترميم الكنائس المتهدمة أو بنائها حيزا هاما من كتابات الفقهاء وخاصة المؤرخين منهم، وقد ناقشوا متى تهدم، ومتى لا تهدم، ومتى تبنى، ومتى يعاد ترميمها، ومن هؤلاء الفقهاء السبكي حيث يقول:

« غير أني أقول ان اليد ههنا على الكنائس لا أسلم انها للنصارى بل للمسلمين، فما ظهر لهم أنهم تبقى بقيت، وما شك فيها فهي في أيدينا باقية على الشك لا نقدم على الحكم فيها بأمر من الأمور لا بهدم ولا بابقاء الا بمستند خوفا من الله تعالى لا من أحد أن يقدم في شريعته على حكم بغير علم. وتظهر فائدة ذلك فيما اذا هدمها هادم، وقد قدمنا بعض كلامه، ولا شك أن صفة التأليف التي بها قوام الكنيسة غير مضمونة كصفة الصليب والمزمار وكذا يظهر لي في ذوات الآلات في الحجر ونحوه، كما لا يضمن الخمر اللهم الا أن يقال انه يضمنها

(١) ابن العميد: اخبار الايوبيين ص٥٣-٥٤ - أبو شامة: تراجم، ص٢٠٨ - اليونيني: المصدر نفسه، ج١، ص٣٦٢-٣٦٤ - أبو الفدا: المختصر، ج٣، ص٢٠٤ - ابن الوردى: المصدر نفسه، ج٢، ص٢٩٦ - الذهبي: العبر، ج٥، ص٢٤٢-٢٤٣ - دول، ج٢، ص١٦٣ - اليافعي: مرآة الجنان، ج٤، ص١٤٩ - ابن كثير: المصدر نفسه، ج١٣، ص٢٢١ - ابن خلدون: العبر، ج٥، ق٤، ص٧٩٤ - المقريزى: السلوك، ج١، ق٢، ص٤٢٥-٤٣٢ - العيني: المصدر نفسه، ج١، ص٢٤٢-٢٤٣-٢٤٩ - ابن تغرى بردى: النجوم، ج٧، ص٨٠-٨١ - فهمي: المرجع نفسه، ص١٤٢-١٤٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لأهل الذمة فلايبقى شيء آخر وهوالتعذير ، وهنا يفترق الحال ، فان كانت الكنيسة مما يتحقق انه قدلزمنا ان لانهدمها فيكون قد أقدم على حاكم تحريمه فيعزر. وان كان أقدم في الصورة التي فرضنا حيث لا تحكم بذلك لعدم المقتضى فلايعزر لأن الحكم بالتعزير يستدعي تحقق سببه ولم يوجد ، واعادة التي هدمها هادم كاعادة المنهدمة بنفسها » (١).

هذا بالنسبة للمذاهب جميعها أما بالنسبة لمذهب السبكي وهوالشافعية فانه يقول :

« وبالجملة المشهور من مذهبنا التمكين من الترميم ، والحق عندي خلافه وهوالمشهور من مذهب مالك وأحمد ، وقال القرافي المالكي يمنعون من رمها خلافا للشافعي والمدرك أنها من المنكرات والعين التي تناولها العقد قد انهدمت والعود لم يتناوله العقد وهومنكرتجب ازالته » (٢).

ولم يقتصر دور اهل الذمة على مساندة المغول وقت دخولهم للمنطقة ، بل وأثناء غيابهم ، فكانوا يهاجمون المسلمين ويأخذونهم ويبيعونهم للفرنج ، فرد عليهم السلطان الظاهر بيبرس سنة ٦٦٤هـ/١٢٦٥م بأن شن غارة على قارة أسفرت عن قتل الكثيرمنهم وسبى منها ألف نفس وتشفع للباقي رئيسها أبو العز ، فقبل الظاهر شفاعته ، لأن أبا العز أكرم الظاهر بيبرس لما ساق خلف المغول بعين جالوت ، وقام الظاهر بهدم كنيستها وبناها جامعا ، ونقل اليها بعضا من المسلمين وصيرها دارا سلام . وكان الفقهاء قد حكموا في نقض أهل الذمة لعهدهم ان الامام يتخير فيهم بين أربعة أشياء هي القتل والمن والاسترقاق والمفاداة ، وليس تخيره على سبيل التشهي بل مايظهر من مصلحة المسلمين ، لذلك نرى أن الظاهر بيبرس اختار القتل لأنه رأى أن مصلحة المسلمين تقتضي ذلك (٣).

لذلك فقد بادر أفراد الحكومة ، والأمراء والسلاطين الى اصدار المراسيم بالزام أهل الذمة بارتداء لباس يميز عن المسلمين ، كذلك أصدر السلاطين مراسيم تحد من وظائفهم في الدولة وقصروها على وظائف محددة ، ففي سنة ٦٨٠هـ/١٢٨١م جاء مرسوم السلطان بأن

---

(١) - السبكي : فتاوى ، ص٤٠٧ - ٤٠٨ .

(٢) - السبكي : المصدر نفسه ، ص٤١٧ .

(٣) - ابن شداد : تاريخ الظاهر ، ص٣٥٧ - ٣٥٨ - النويري : نهاية الأرب ، ج ٣٠ ، ص٢٩٢ - ٢٩٣ - أبو الفدا : المصدر نفسه ، ج ٤ ، ص٤ - الذهبي : العبر ، ج ٥ ، ص٢٧٥ - ٢٧٦ - السبكي : المصدر نفسه ، ص٩١ ٤ - العيني : المصدر نفسه ، ج ١ ، ص٤٢٤ - ٤٢٥ - ابن تغرى بردى : النجوم ، ج ٧ ، ص ١٤٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يسلم أهل الذمة من الدواوين والكتبة، ومن لا يسلم يصلب فأسلموا مكرهين، وكانوا يقولون: آمنا، وحكم الحاكم باسلامنا بعد أن عرض من امتنع منهم على الصلب بسوق الخيل، وجعلت الحبال في أعناقهم.(١)

وقد صرف أهل الذمة سنة ٦٨٩هـ/ ١٢٩٠م عن المباشرات الديوانية بأمر الملك المنصور قلاوون.(٢)

كما فرض الأشرف خليل بن قلاوون على الدواوين بدمشق أن يدخلوا في الاسلام، ومن امتنع يؤخذ منه ألف دينار، فأسلم أربعة من كبار الدواوين، كما أصدر الأشرف مرسوما يمنع أهل الذمة من دخول مقام الخليل، وكانوا قبلا يدخلون ويدفعون مالا مقابل دخولهم.(٣)

وربما هدف السلاطين من ذلك ضم جميع فئات المجتمع الى جانبهم عند دخول المغول المنطقة، فالمغول يعتمد عند الدخول على الفئات المعارضة للسلطة، او الفئات المضطهدة ليستطيع من خلالها النفوذ والوصول الى ما يريد فعند دخول المغول للمنطقة في عهد هولاكو أطلقوا لأهل الذمة الحرية ليستطيعوا القضاء على نفوذ المسلمين، القوة الأكبر، أما أهل الذمة فهم تحت سيطرتهم.

وكان الحذر من قبل السلاطين منصبا على أهل الذمة، خوفا من تعاضدهم وتعاونهم مع المغول مرة أخرى لذلك فانهم منعوا من ركوب الخيل والبغال وذلك سنة ٦٩٤هـ/١٢٩٤م، وقد أوعز الى المسلمين أنه من رأى أحدا من أهل الذمة يخالف ذلك فله الحق في سلبه. وكان منعهم ركوب الخيل والبغال منذ عهد الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فقد جاء في شروطه أن يمنعهم المحتسب من ركوب الخيل، وحمل السلاح والتقلد بالسيوف، واذا ركبوا البغال ركبوها دون سرج.(٤)

كذلك صدر قانون آخر سنة ٧٠٠هـ/ ١٣٠٠م يمنعهم من ركوب الخيل والبغال اضافة الى منع اهل الذمة من العمل بديوان السلطان ودواوين الأمراء. كما فرض أن يلبس النصارى العمائم الزرق، واليهود العمائم الصفر والسامرة العمائم الحمر، وهدد المخالفون، فالتزم

---

(١) - ابن كثير: المصدر نفسه، ج ١٣، ص ٢٩٤.
(٢) - ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ٩٣.
(٣) - المقريزي: المصدر نفسه، ج ١، ق ٢، ص ٧٤٢، ٥٤٢ - ابن تغرى بردى: المنهل، ج ٥، ص ٢٧٤.
(٤) - ابن بسام المحتسب: نهاية الرتبة في طلب الحسبة، ص ٢٠٧ - ابن كثير: المصدر نفسه، ج ١٣، ص ٣٤٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

النصارى، واليهود بما أمروا به الا أهل الكرك فان جمال الدين آقوش الأفرم رأى الابقاء على حالهم، فلم يغير أهل الكرك والشوبك العمائم البيض.(١)

ومن خلال ما ذكر فيما مضى يلاحظ انهم تمتعوا بحرية ولو لفترة قصيرة، ولولا الأعمال المخلة التي تؤدي الى الاضطراب السياسي والعسكري والديني والتي تغيظ العدو والمغولي، لما أقدم السلاطين أو غيرهم من الأمراء على اتخاذ الاجراءات ضدهم.

وقد تدخلت الهيئات الدينية المسلمة في بعض الاحيان ضد أهل الذمة، ففي سنة ٧٠٩هـ/١٣٠٩م أراد السلطان الناصر محمد أن يجعل أهل الذمة يرتدون العمائم البيض بالعلامات مقابل مبلغ يدفعونه من المال، لكن ابن تيمية سعى عنده في ابطال ذلك، اضافة الى دفع ٧٠٠ ألف دينار كل سنة للديوان، ولولا أعمالهم المضرة بالمجتمع لما انتقض ابن تيمية هذا القرار.(٢)

وقوبلت محاولات النصارى بادخال أشخاص الى دينهم وتنصيرهم بعقوبات شديدة من الحكومة، ففي سنة ٧١٤هـ/١٣١٤م قتل موسى بن سمعان النصراني كاتب قطلوبك الجاشنكير لانه نصر مسلما وكواه على يده مثال الصليب.(٣) ولم يسلم اليهود من بعض الأحكام التي صدرت بحق أهل الذمة فقد خربت كنيستهم المعروفة بالقرائيين سنة ٧٢١هـ/١٣٢١م بدمشق، حيث اجتهد المسلمون بهدمها، وأثبتوا أنها محدثة، بينما أثبت اليهود عند بعض القضاة بأنها قديمة، وكانت بدرب الفواخير الذى أغلب سكانه يهود، وانتهى الامر بأن أذن للمسلمين بهدمها.(٤)

وقد مارس اهل الذمة دورا سلبيا ضد المسلمين سنة ٧٤٠هـ/١٣٣٩م حيث أقد مواطنو رمي النار في مدينة دمشق، وظنوا أن أحدا لم يعرف بذلك، فاحترقت بذلك أماكن دينية وتجارية وصناعية كما ضاع للمسلمين أموال جسيمة، اذ احترق قسم من الجامع الاموي،

---

(١) - النويري: المصدر نفسه، ج ٣١، ص١٨ ٤ - ابن كثير: المصدر نفسه، ج ١٤، ص ١٦. - ابن خطيب الناصرية: الدر المنتخب، ج ١، ورقة ٨٧ - المقريزى: السلوك، ج ١، ق ٣، ص ٩١١ - ٩١٢ - المقفى الكبير، ج ١، ص ٤٣٢ - ج ٢ - ص ٢٣٧ - العيني: المصدر نفسه، ج ٤، ص ١٤٠ - (ماير): ل. ا.: الملابس المملوكية، ترجمة صالح الشيتي، مصر، الهيئة العامة للكتاب، ١٩٥٢، ص ١١٧ - قاسم (قاسم عبده): دراسات في تاريخ مصر الاجتماعي عصر سلاطين المماليك، مصر، دار المعارف، الطبعة الثانية ١٩٨٣م، ص ٨٤ - ٨٥.

(٢) - السيوطي: تاريخ الخلفاء، ص ٤٨٤ - ماير: المرجع نفسه، ص ١١٨ - قاسم: المرجع نفسه، ص ٨٥.

(٣) - المقريزى: المصدر نفسه، ج ٢، ق ١، ص ١٤٢.

(٤) - الذهبي: ذيول العبر، ص ١١٦ - ابن الوردى: المصدر نفسه، ج ٢، ص ٣٨٩ - ابن كثير: المصدر نفسه، ج ١٤، ص ٩٩ - المقريزى: المصدر نفسه، ج ٢، ق ١، ص ٢١٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقيسارية القواسين، وبعض قيسارية الحمير، وقسم من المدرسة الأمينية، ولكن الحقيقة لم تطمس لوقت طويل فعلم نائب دمشق تنكز بأمر الفاعلين، وثبت لديه أنهم من كتاب أهل الذمة وعددهم اثنا عشر كاتبا منهم كاتب سنجر الجمقدار، والمكين عامل الجيش، وكاتب الحوطات، فعاقبهم نتيجة لذلك جسديا وماديا، فقد فرض عليهم مليون ومائتي ألف درهم، وذلك على أربعة منهم، ثم سمروهم على الجمال، وداروا بهم دمشق، وأحرقوا بالنار كما فعلوا هم بالمسلمين، واحترق للمسلمين أشياء كثيرة، ففرض على أهل الذمة، واستخرج منهم بالضرب والمقارع تسعون ألف دينار رسم بصرفها في عمارة ما احترق من الأملاك كالجامع الأموي، ولما علم السلطان بذلك لم يرق له هذا العمل وانزعج وخاف أن يعامل المسلمين في القسطنطينية بالسوء، وطلب من تنكز أن يرسل له الأموال، لكن الأخير رفض وتابع عمارة الجامع.(١) وقد حرم على نائب السلطنة في البت بهذا الأمر، وهو مقصور على السلطان فقط فقد قيل في ذلك « والأمر في ذلك للسلطان نفسه لا لنائبه فان القتل في ذلك عظيم فليس للنائب أن يستقل به حتى يشاور مولانا السلطان. ولكن التقدير لابد منه على كل حال ويستقل به نائب السلطان من غير مشاورة وهو متعين والتقدير في مثلهم بحسب رأى نائب السلطنة وان ذلك يختلف باختلاف ما يظهر له من أحوالهم، وأما بعد الفعل فانه اجترأ على المسلمين والسكوت عليه وصمة فيهم ويثاب ولي الأمر على انكاره، ولا يقول أحد انهم يقرون على ذلك بلا تقدير ».(٢)

وقد اقتضت الظروف السياسية التي كانت تعيشها المنطقة على محاربة أهل الذمة اذ منع السلطان سنة ٧٥٥هـ/١٣٥٤م اليهود والنصارى من الخدمة في الأعمال وألا يستخدم نصرانيا ولا يهوديا في ديوان السلطان، ولا في شيء من دواوين الأمراء، ورسم أن تكون عمامة النصراني واليهودي عشرة أذرع ويلزموا بزيادة صبغها وألا يستخدموا مسلما وأن يركبوا الحمير بالأكف، وأن تلبس نساؤهم ثيابا مغايرة للزي حتى الأخفاف تكون لونين،

---

(١) - الشجاعي : تاريخ الناصر، ص٧٤-٧٦- الذهبي : دول، ج٢، ص٢٤٦- ابن كثير : المصدر نفسه، ج١٤، ص١٨٦- ابن حبيب : تذكرة، ج٢، ص٢١١- المقريزي : السلوك، ج٢، ق٢، ص٤٩٥- ٤٩٦- ٤٩٨- المقفى، ج٢، ص٦١٥- ابن العماد الحنبلي : شذرات الذهب، ج٦، ص١٢٦.

(٢) - السبكي : المصدر نفسه، ص٤١٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الى ادخال هؤلاء الذين يعملون في دواوين الحكومة في الاسلام . وهؤلاء أنفسهم لم يشعروا باضطهاد حقيقي متعمد سواء من الشعب أو الحكام ومارسوا عباداتهم بحرية تامة ، ومع أن المغول قد اضطهدوا المسلمين عند دخولهم للمنطقة ، وفضلوا أهل الذمة عليهم وجعلوا لهم الحظوة ، الا أنهم لم يسمحوا لهم باقامة امارات مسيحية مستقلة ، أو كيان مستقل ضمن الدولة الاسلامية.(١)

---

(١)-المقريزي : المقفى الكبير ، ج ١ ، ص٢٣٨- رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ، ج ٣ ، ص ٥١٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٣- الزهد والتصوف:

آ- نشأة الزهد وتطوره:

كانت ظاهرة الزهد والتصوف موروثة عن العصور السابقة، فبذور التصوف ظهرت منذ عصر الرسول صلى الله عليه وسلم عند أهل الصفة، واستمرت نزعات الزهد في القرن الأول الهجري / السابع الميلادي بسبب عوامل كثيرة منها المبالغة في الشعور بالخطيئة، والخوف الذي استولى على قلوب المسلمين من عقاب الله. وقد تطورت معاني الزهد في القرن الثالث والرابع الهجريين / التاسع والعاشر الميلاديين وتحول الى تصوف وأصبح للتصوف نظام كامل.(١)

وقد اختلف الفقهاء والعلماء في تعريف الزهد والتصوف، وعرفه كل واحد منهما بحسب معرفته ودراسته وارتباطه بهذا السلك، فابن الجوزي ذكر بأنه رياضة النفس، ومجاهدة الطبع برده عن الأخلاق الرذيلة، وحمله على الأخلاق الحميدة من الزهد والحلم والصبر والاخلاص الى غير ذلك من الخصال التي تكسب المدائح في الدنيا والثواب في الآخرة. بينما عرفه الغزالي بأنه « التصوف أمر باطن لا يطلع عليه، ولا يمكن ضبط الحكم بحقيقته، بل بأمور ظاهرة، يعول عليها أهل العرف في اطلاق اسم الصوفي. والضابط الكلي أن كل من هو بصفة اذا نزل في خانقاه الصوفية لم يكن نزوله فيها واختلاطه بهم منكراً عندهم، فهو داخل في غمارهم، والتفصيل أن يلاحظ فيه خمس صفات: الصلاح، والفقر، وزي الصوفية، وأن لا يكون مشتغلا بحرفة، وأن يكون مخالطا بطريق المساكنة في الخانقاه ».(٢)

وكان الزهاد أو المتصوفة يبتعدون عن المحرمات والمباحات، ومنهم من لا يزيد طعامه عن الخبز الشعير لانه يلائم خشونة اللباس، وبعضهم يتناول اليسير كل يوم، وبعضهم لا يتناول الطعام أياما حتى تضعف قوتهم، ويمكن تفسير ذلك بأنهم يقتدون طريقة رسول الله صلى الله عليه وسلم في الطعام فقد كان يرضى بالقليل، فان أحب الطعام أكله، وان كرهه تركه، وكان صلى الله عليه وسلم يأكل خبز الشعير غير منخول، وما ذم طعاما قط، فقد قال الغزالي في ذلك «وما ذم طعاما قط لكن ان أعجبه أكله، وان كرهه تركه وان عافه لم يبغضه الى غيره

---

(١) نيكولسون (رينولد): في التصوف الاسلامي وتاريخه، القاهرة، مطبعة لجنة التأليف، ١٣٨٨هـ/ ١٩٦١م ص ٢٠ - ٢١.

(٢) - الغزالي (محمد بن محمد) احياء علوم الدين، مصر، مطبعة عيسى البابي، ١٣٥٨هـ/ ١٩٣٩م، ج٢، ص ١٣٥ - ابن الجوزي (عبد الرحمن بن علي): تلبيس ابليس، مصر، مطبعة النهضة، ١٣٤٧هـ/ص ١٦٢ - ١٦٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

... وكان يلعق بأصابعه الصفحة ويقول آخر الطعام أكثر بركة، وكان يلعق أصابعه من الطعام حتى تحمر، وكان لايمسح يده بالمنديل حتى يلعق أصابعه واحدة واحدة ».[١] والواضح أن الصوفية كانوا فريقين، فريقا يبالغ في الاقلال بالطعام ويروض نفسه على الجوع وفريقا آخر يتسامح بعض التسامح فيسمح لنفسه بأكل مايصل اليه من الأطعمة.[٢] ونتيجة للحوادث السياسية ومارافقها من اضطرابات اجتماعية مرتبطة بالهجوم المغولي زاد انتشار الزهد والتصوف كرد فعل للاعمال العدوانية المغولية تجاه سكان بلاد الشام .

ب: قيام الأربطة والزوايا ودورها والحياة داخلها :

وقد أقام المتصوفة في أمكنة أطلق عليها الرباط، الزاوية، الخانقاه ، ففي العصور الاسلامية الأولى نشأ الرباط من أجل حماية الثغور، ثم أصبحت الربط ملتقى للمتصوفة، ولكن منذ القرن السابع الهجرى / الثالث عشر الميلادى أصبحت هذه الكلمات تستعمل دون تفريق لاقامة الصوفية بها .

وكان للرباط عادة شيخ وخادم، وكان الشيخ يعين في الغالب من قبل الحكومة، ورتبة المشيخة من أعلى المراتب في طريق الصوفية. ومن أهم واجباته الاشراف على الرباط، وتدريب المريدين، وهم المنضمين الى الرباط أو الزاوية أو الخانقاه، أما الخادم فأهم واجباته تنظيف الرباط، والسهر على راحة النزلاء فيه، ومباشرة أوقاف الرباط أو الخانقاه، وتقرير أمور الصوفية وقد ذكر ذلك السهروردى حين قال :

« الخادم يدخل في الخدمة راغبا في الثواب، وفيما أعد الله تعالى للعباد، ويتصدى لايصال الراحة ويفرغ خاطر المقبلين على الله تعالى من مهام معاشهم ».[٣]

ومن الوظائف الأخرى التي كانت ملحقة بالزوايا والأربطة وظيفة الخازن، والنقيب اضافة الى وظيفة الامامة.[٤]

وكانت أعلى مرتبة بها هي مرتبة شيخ الشيوخ، وقد حظى شيخ الشيوخ بمنزلة اجتماعية وسياسية رفيعة جدا، ولم يقل دوره عن دور القضاة وكبار العلماء، وكان حلقة اتصال بين

---

(١) - الغزالي : المصدر نفسه، ج ٢، ص٣٧٠ - ٣٧١ .

(٢) - ابن الجوزى : تلبيس، ص٢٠٦ - ٢٠٧ - مبارك : التصوف، ج ٢، ص ١٨٦ .

(٣) - السهروردى (شهاب الدين بن جعفر بن عمر بن محمد) : عوارف المعارف، ليس له طبعة، ج ١، ص٤٩ - السبكي : معيد النعم، ص ١٢٦ - ابن خطيب الناصرية : الدر المنتخب ج ١، ورقة ٣٩ - ابن قاضي شهبة : المصدر نفسه، ج ١، ق ٣، ص٥٣٢ - زيادة : المرجع نفسه ص ١٢٥ - ١٢٦ .

(٤) - الدمشقي : الوفيات، ج ١، ص ٢٦ - السخاوى : الضوء، ج ٢، ص ٢٧٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الصوفية والسلطان ، وللصوفية أهمية خاصة في نظر أهل الحكم لما يخلقوا للسلطة من متاعب. وقد وجدت هذه الوظيفة في فترة البحث.(١)

ويبدو أن مشيخة الشيوخ في بلاد الشام كانت تابعة لشيخ الشيوخ في مصر ، وكان السلطان نفسه يقوم بتعيينه بمرسوم ملكي ، فالناصر محمد بن قلاوون أصدر مرسوما بتقليد الشيخ نظام الدين الاصفهاني مشيخة الشيوخ في مصر والشام ، وقد خوله المرسوم الاشراف على مواريث الصوفيه وأوقافهم ، وقد يكون شيخ الشيوخ أحيانا من الشام وليس من مصر فقط ، فقد ذكر كلا من ابن حبيب أنه تولاها شرف الدين أبو بكر بن محمد الجويني (ت ٦٧٨هـ/١٢٧٩م) ، وابن كثير والنعيمي أنه تولاها بدر الدين بن جماعة خطيب الخطباء وبناء على طلب الصوفية ، وصفي الدين الهندي ، ومؤرخون آخرون ذكروا أن نجم الدين بن صصرى تولاها سنة ٧١٦هـ/١٣١٦م بناء على توصيات الصوفية.(٢)

أما الشخص المنتسب للرباط فكان يسمى المريد ، وكان يرتبط بشيخه فيخلع عليه خرقة التصوف ، ويسمى الزمن الذى يمضيه المريد مع الشيخ زمن الارتضاع.(٣) وكانت المدة التي يقضيها المريد قبل أن يؤذن له بالعهد ثلاث سنوات ، فالسنة الأولى يقضيها المريد في خدمة القوم ، والثانية في خدمة الله ، والثالثة في مراقبة كلية. وقد كان المتصوفة يهتزون عند الاستماع للموسيقى والغناء ويقومون أحيانا بالتصفيق ويصيحون وقد بلغت الحال بأحد المتصوفة وهو محمد بن عثمان بن علي المعروف بابن الرومي (ت ٦٨٤هـ/١٢٨٥م) أن خلع جميع ثيابه ورقص عريانا ولم يبق عليه الا السراويل ، واذا ما تمكن الطرب منهم في حال رقصهم جذب أحدهم بعض الجاوس ليقوم معه. وقد كان لاختلاف المذاهب أثرا في استماعهم للموسيقى ومشاركتهم فيها ، فالحنابلة لا يرون الضرب بالدف بل بالكف.(٤)

وكان ساكن الرباط أو الزاوية ينصرف كليا الى العبادة ، ويترك الاكتساب ، ويعتني بالرياضة والمجاهدة ، والروحانيات والخلوة حتى أن بعضهم كان يقيم في الخلوة أربعين يوما

---

(١)- ابن الوردى : المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٢٧٦ - ابن حبيب : المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ٥٦ - المقريزى : السلوك ، ج ١ ، ق ٣ ، ص ٩٢٧ - السخاوى : المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ٢٦ - لابيدوس : المرجع نفسه ، ص ١٧١ - زيادة : دمشق ، ص ١٦٢ - زعرور : الحياة الاجتماعية ، ص ١٥١ .

(٢)- ابن الوردى : المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٢٧٦ - ابن كثير : المصدر نفسه ، ج ١٣ ، ص ٢٢٢ - ج ٤ ، ص ١٧ - ٢٦ - ٧٦ - ابن حبيب : المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ٥٦ - المقريزى : المقفى ، ج ١ ، ص ٧١٦ - النعيمي : الدارس ، ج ٢ ، ص ١٥٦ - حطادة : دراسة وثقية ، ص ٤٠٢ - ٤٠٥ .

(٣)- السهروردى : المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ٥٧ - اليونيني : ذيل مرآة ، ج ٣ ، ص ٥١ - الذهبي : ذيول العبر ، ص ١٩٧ - العيني : المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ٣٦١ - السخاوى : المصدر نفسه ، ج ٢ ص ٢٥٥ .

(٤)- ابن الجوزى : المصدر نفسه ، ص ٢٥٠ - ٢٧٥ - ٢٥٨ - ٢٦٠ - اليونيني : المصدر نفسه ، ج ٤ ، ص ٢٧٤ - ابن كثير : المصدر نفسه ، ج ١٣ ، ص ٢٤٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لا يخرج الا للجمعة، ويصبح الرباط مكانا لمأواهم ومبيتهم، كما يصبح المصدر لاطعامهم وسبيلا لهم وقد ذكر السهروردي ذلك فقال:

« شرائط ساكن الرباط قطع المعاملة مع الخلق وفتح المعاملة مع الحق، وترك الاكتساب اكتفاء بكفالة مسبب الأسباب، وحبس النفس عن المخالطات، واجتناب التبعات، وعانق ليله ونهاره العبادة متعوضا بها عن كل عادة، شغله حفظ الأوقات وملازمة الأوراد وانتظار الصلوات واجتناب الغفلات ليكون بذلك مرابطا مجاهدا » (١)

واكتفى المتصوفة باللباس الخشن، كالصوف، والمرقع، وقد فضلوا لبس الصوف، وكان شارة الزهد وقد جعله الغزالي من صفات من يصرف اليهم مايوصى به للصوفيه، وقد كره بعض شيوخ الصوفية لبس المرقعة خوفا من طوارق الرياء ومن التعرض للسؤال، وهي لا تكون علاقة للرياء الا عندما تكون علامة قاطعة على التصوف، وهي لا تعرض صاحبها للصدقات الا لدلالتها على الفقر والبؤس، وكان نزع المرقعة علامة الاقبال على الدنيا (٢)

أما طعام المتصوفة فقد أتاهم من عدة طرق، عن طريق الاحباس، الأوقاف، الصدقات، حيث أن بعض المحسنين كانوا يقدمون ما تجود به أنفسهم الى شيخ الزاوية الذي يقسمه على المريدين، وكان يتولى النقيب مهمة التوزيع، وأحيانا كان يأتيهم الطعام عن طريق السؤال، أو بمرسوم سلطاني، فالمنصور قلاوون قرر للشيخ أبي عبدالله محمد بن الشيخ غانم المقدسي كل شهر غرارتان قمحا بالكيل النابلسي انعاما مستمرا، غيرأن بعض الزوايا لم يكن لها مرتب ولا وقف كزاوية الشيخ محمد بن قوام البالسي (ت ٧١٨ هـ / ١٣١٨م) حيث رفض أن يعطى مرتب لزاويته أكثر من مرة. وكان قسم قليل من المتصوفة لا يرضى أن يقيم بالزاوية أو الرباط ليأكل ماتدره عليهم، بل يعمل بيده ليتقوت من عمله كأبو العباس الزرعي (ت ٧٦١هـ/١٣٥٩م) كان يتقوت من عمل العبي.(٣)

---

(١) - السهروردي: المصدر نفسه، ج ١، ص ٢٠٧ - اليونيني: المصدر نفسه، ج ٣، ص ١٦١ - ج ٤، ص ١٩٩ - العسقلاني: الدرر، ج ٢، ص ٢٤٠ - ٢٥٩ - السخاوي: الضوء، ج ٥، ص ١٢٥ - ج ٩، ص ٢٨٩ - العليمي: الانس الجليل، ج ٢، ص ١٦٠.

(٢) - الغزالي: احياء، ج ٢، ص ١٣٥ - ابن الجوزي: المصدر نفسه، ص ١٨٦ - ابن شاكر: فوات ج ١، ص ٣٥٧ - مبارك: المرجع نفسه، ج ١، ص ٥٧.

(٣) - ابن تغري بردي: المنهل، ج ٢، ص ٢٣١ - النعيمي: الدارس، ج ٢، ص ٢٠٨ - ٢٠٩ - العليمي: المصدر نفسه، ج ٢، ص ١٥٦ - تيلوتسون: المرجع نفسه، ص ٥٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقد أورد الشعراني كيف تقسم الحصص على المتصوفة حيث قال :
« يجب على الشيخ اذا وقع على يده قسمة دنيا بين الفقراء أن لا يخص أحدا منهم بشيء زائد على غيره الا أن تكون حاجته ظاهرة للفقراء كلهم بحيث يحنوا عليه ويرقوا لحاله ، وليحذر أن يأخذ مع الفقراء نصيبا له أو لولده فيكون كأحدهم في دناءة المروءة وتذهب رياسته عليهم بل يجب عليه أن يفرق كلما دخل على المساكين والأرامل وغيرهم ولا يلحس منهم لحسة ولا يأخذ منه فلسا ولا يدخله بيته أبدا ثم يخرجه للفقراء بعد ذلك فانهم يتهمونه في الأخذ منه قياسا على نفوسهم لو اخلوا به فمن فعل ما ذكر من الفقراء وأعظم في أعينهم وهذه شروط خاصة بالفقراء الصادقين »(١).

واختلفت طريقة عيش المريدين في الزوايا باختلاف الأطعمة التي كانت تقدم لهم ، فبعض يهدى لاهلها الخبز القفار ، وبعض الزوايا تحمل الى اهلها أطايب الطعام ، وقد صرح الشعراني أنه ينبغي للشيخ ان يخرج من الزاوية كل من غير وبدل عهود الفقراء التي دخل الزاوية على نيتها .(٢)

ج - طرق التصوف والآثار الناجمة عن انتشارها :

كان لانتشار طرق التصوف في بلاد الشام آثار كثيرة منها كثرة بناء الأربطة والزوايا ، اضافة الى كثرة بناء المساجد والمدارس الدينية وغيرها ، وانضمام الكثير الى هذه الأربطة والزوايا بفعل الاوضاع السياسية المضطربة التي عاشتها المنطقة من جراء الغزو المغولي ، فلابد أن يكون الأهالي أو العامة قد لجأت الى الزوايا عند دخول الغزاة للمدن لتأمين الطعام والشراب لهم ، اضافة الى أنه لشيوخ الزوايا رأي في مثل هذه الاوضاع.
وكانت بعض الطرق التي انتشرت مستحبا وبعضها موروثا ، وكان لهذه الطرق دور هام في الحياة الاجتماعية ، فقد مارس داخلو سلك التصوف دورا اجتماعيا هاما في محاربة الفساد والانحلال الاخلاقي الذي ساد أثناء الغزو ، اضافة الى مفاوضة حكام المغول أثناء الحصارات العسكرية على المدن ، وتقوية الروح الدينية لدى العامة عن طريق الأفكار التي نشروها عن الجهاد : اضافة الى تقديم المؤن والمساعدات للعامة . كما أن بعضهم

---

(١) - الشعراني (عبد الوهاب) : البحر المورود في المواثيق والعهود ، ليس له طبعة ، ص ٢٦٨ .
(٢) - الشعراني : المصدر نفسه ، ص ٢٧٢ - زكي : المرجع نفسه ، ج ١ ، ص ٣٥٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

شاركوا المدن الحياة الادارية، حيث نصب الكثير منهم قضاة، أو مدرسين في المدارس أو احتلوا مناصب ادارية أخرى وكانت أهم الطرق الصوفية المنتشرة:

- الطريقة القادرية: اشتهر من صوفيتها نجم الدين ابراهيم البعلبكي (ت ٧٤٠هـ/ ١٣٣٩م) وغيره كثير.(١)

- الطريقة الرفاعية: وكان من مشايخها حسن بن الرفاعي ت ٧٧٧هـ / ١٣٧٥م وغيره كثر.(٢)

- الطريقة البكائية: وقد أقيمت لهذه الطريقة زوايا كثيرة وخاصة بالقدس والمنطقة الجنوبية من بلاد الشام. وقد اشتهر من صوفيتها عمر بن شمس الدين أبو عبد الله الجعفري.(٣)

- الطريقة الحريرية: كانت منتشرة بكثرة ومن اتبعها الصدر الأديب نور الدين أحمد ابن ابراهيم بن عبد الضيف بن مصعب الدمشقي ت ٦٩٦هـ/ ١٢٩٦م، وقد سافر مع الفقراء الحريرية لبلاد كثيرة ومنها مصر. كذلك اشتهر منها الشيخ علي الحريري وهو الذي أنشأ الزاوية الحريرية ظاهر دمشق سنة ٦٤٥هـ/ ١٢٤٧م.(٤)

- الطريقة الاحمدية: أظهر ابن تيمية انكارا لما يفعلونه من دخولهم النيران المشتعلة وأكلهم الحيات ولبس الأطواق الحديد في أعناقهم وتقلدهم بالسلاسل على مناكبهم، وعمل الأساور الحديد في ايديهم، ولفهم شعورهم وتلبيدها. وقد أظهر الفقهاء أن هذه الطائفة مبتدعة.(٥)

- طريقة ابن عربي: منشؤها محمد بن علي بن محمد بن أحمد بن عبد الله الحاتمي، ويعرف بابن عربي، وقد جاء من الاندلس حاجا ولم يعد بعدها الى الاندلس وأقام بمصر، ثم انتقل للحجاز، وأقام بدمشق حتى توفي بها سنة ٦٣٨هـ/ ١٢٤٠م، وكان له أنصار وأتباع كثر منهم أحمد بن محمد بن عثمان النابلسي نزيل غزة.(٦)

---

(١) - الذهبي: ذيول، ص٢١ - السخاوي: المصدر نفسه، ج٩، ص١٤٧ - النعيمي: المصدر نفسه، ج٢، ص١٦٨ - زيادة: المرجع نفسه، ص١٢٨.

(٢) - المقريزي: المقفى، ج١، ص٤٦٠ - العسقلاني: انباء، ج١، ص١٦٤ - ابن تغرى بردى: المنهل، ج٦، ص٣٣٤.

(٣) - العليمي: المصدر نفسه، ج٢، ص١٥٥ - ١٥٦.

(٤) - النويري: نهاية الارب، ج٣٠، ص٣٩١ - العيني: المصدر نفسه، ج٣، ص٣٧٥ - ابن تغرى بردى: المصدر نفسه، ج٥، ص١٠٤ - النعيمي: المصدر نفسه، ج٢، ص١٩٧.

(٥) - ابن كثير: المصدر نفسه، ج١٤، ص٣٦ - المقريزي: المصدر نفسه، ج٢ ق١، ص١٦ - المقفى: ج١، ص٤٦٠.

(٦) - السخاوي: المصدر نفسه، ج٢، ص١٤٠ - مبارك، ج١، ص١٥٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- الطريقة اليونسية: ينتمون الى يونس الشيباني، وقد ذكر المؤرخون أن له كرامات، وكانوا يذكرون بأنهم أشر الطوائف، ولهم أعمال تدل على الاستهتار والانحلال قولا وفعلا، وقد انتشرت زوايا باسم هذه الطريقة خاصة في مدينة القدس.(١)

- الطريقة القلندرية: انتشرت بكثرة بين العامة، وقامت لها زوايا باسمها وخاصة في القدس، ومؤسسها ابراهيم القلندري، وممن اشتهر من شيوخها في هذه الفترة محمد بن يونس جمال الدين الساوجي حيث قدم دمشق وسكن قاسيون، وأبو القاسم الكاشغري (ت ٧١٧هـ) الذي دفن بمقابر الصوفية. وقد أمرهم السلطان في نيابة بيدمر سنة ٧٦١هـ، بترك حلق لحاهم وحواجبهم وشواربهم، وترك زي الأعاجم والمجوس.(٢)

- الطريقة الحيدرية: كان من شعار صوفيتها لبس الفراجي والطراطير وقص اللحى وترك الشوارب وهو خلاف السنة وقد بنيت لهم زاوية بظاهر دمشق قريبا من العونية.(٣)

- الطريقة الوفائية: انتشرت أيضا في المنطقة وقد أقام جماعتها زوايا اشتهر منها الزاوية الحمراء بالقدس.(٤)

ان انتشار هذه الطرق بكثرة أدى الى انغماس بعض هؤلاء المتصوفة في حياة المدن الوضعية، وقد أشاروا في بعض الأحيان آراء منحرفة وغير اسلامية بين العامة من الشعب، ومثل بعضهم الآخر الاتجاه العاطفي للشعور الديني الاسلامي المتزمت، وغالبا ما هاجم مشايخ الصوفية محلات الخمر، وأدانوا استعمال الحشيش بشدة، وقد أدت هذه الغارات الى حدوث الاضطرابات، حيث اصطدمت بعض الزمر الشعبية التي تساند أو تعارض الصوفية بعضها مع بعض، فقد هاجم المتصوفة محلات الخمر سنة ٦٥٨هـ/١٢٥٩م وقاموا بتحطيمها، فقام بمحاربتهم مهوشوا الكلاب، ومدربوا البزاة وشنوا هجوما معاكسا على مسجدهم، وأسروا بعض المتصوفة، لذلك أنهى الصوفية هذه الأعمال. كما تكررت الحادثة سنة ٧٥٨هـ/١٣٥٦م حيث أتلف الصوفية أواني الخمر وأدوات الحشيش في الاماكن المختصة بذلك، فنتج عن ذلك أن تناوشوا مع الرعاع، وقد تدخلت السلطة

---

(١) - النعيمي: المصدر نفسه، ج٢، ص٢١٤ - غوانمه: نيابة المقدس، ص١٧٦.
- زيادة: المرجع نفسه، ص١٢٨.

(٢) - المقريزي: المقفى، ج٦، ص٢٩ - ج٧، ص٥٢٢ - النعيمي: المصدر نفسه، ج٢، ص٢١٠
- العليمي: الانس الجليل، ج٢، ص٦٤ - زيادة: المرجع نفسه، ص١٢٨ - دهمان: ولاة، ص٢٢

(٣) - النعيمي: المصدر نفسه، ج٢، ص٢١٢.

(٤) - العليمي: المصدر نفسه، ج٢، ص٤٧ - زيادة: المرجع نفسه، ص١٢٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لصالحهم ،غير أن العامة كانت ضدهم ،وكثرت الاضطرابات والمشا كل فاضطر ذلك السلطة الى قمع ذلك بالقوة حيث قامت بضرب بعضهم ،وطيف بهم في البلد.(١)

وقد أدى ازدياد الثقة بهؤلاء المتصوفة من قبل العامة ،وكارضاء لهم من قبل السلطة، أعطوا مناصب ادارية تخص العامة كالقضاء مثلا ،فقد شاركوا المدن حياتها الادارية ،ومن الذين تولى منصب القضاء خيرالدين بن العجمي قررفي قضاء الحنفية بالقدس ،وموفق الدين العجمي في قضاء الحنفية بغزة.(٢)

وقد زاد انتشار الطرق الصوفية عدد الزوايا والصوفية ،كما ساعد على تطور وتوسع دورها ، ومما ساعد أيضا على تطور دورها ارتباطها بالحرافيش وتنظيمهم المسلح ،فالزاوية في الماضي لم يتعد كونها مكانا لاجتماع بعض الشيوخ ومريديهم ،ثم تطور الى أن اصبح دورها سياسي ،ثم تطورت حتى أصبح دورها اجتماعي ،فقد أصبحت مكانا للعلم على اختلاف أنواعه ،غيرأن اكثر العلوم التي درست فيها العلوم الفقهية،و قلما تخلو ترجمة من تراجم الشخصيات الفقهية أوالدينية من ذكرمن مارس التدريس في احدى الزوايا ، كالشيخ الامام شمس الدين محمد بن ابي بكربن محمد الناوس،الملايكي (الايكي) (ت ٦٩٦هـ/ ١٢٩٦م) ،درس بزاوية الغزالي،ومحمد بن أبي بكر بن محمد بن قوام الشيخ نور الدين بن الشيخ نجم الدين درس بالرباط الناصرى بقاسيون (ت ٧٦٥هـ/ ١٣٦٣م)-. لذلك فانه تطورت مهمة الزوايا والأربطة فأصبحت مهمتها تعليمية ثقافية الى جانب مهمتها التعبدية فالمتصوفة كانوا طلاب علم أيضا.(٣)

وقد تحول دور الزاوية الى مؤسسة اجتماعية كونها ضمت فئات مختلفة من رجال ونساء، فهي متكفلة بمعيشتهم كاملا من اطعامهم وتقديم الشراب لهم واللباس ،لذلك نرى أن الزوايا والأربطة انتشرت بكثرة في هذه الفترة ،فقد أورد ابن بطوطة أنه في كل مدينة من مدن الشام زوايا لاطعام الفقراء ،ففي كرك نوح في البقاع زاوية يطعم بها الوارد والصادر، وبخارج مدينة صهيون زاوية مثلها ،وبجبلة واللاذقية وكلها لاطعام الفقراء .

---

(١)- ابن كثير: المصدر نفسه ،ج ١٤ ،ص ٢٥٧ - لابيدوس: مدن الشام ،ص ١٧١ - ١٧٢ .

(٢)- ابن تغرى بردى :النجوم ،ج ١١ ،ص ٢٢٨ - ابن اياس: المصدر نفسه ،ج ١ ،ق ٢ ،ص ٣٢٤ .

(٣)- ابن كثير: المصدر نفسه ،ج ١٤ ،ص ٣٠٦ - السبكي : طبقات ،ج ٦ ،ص ٤٥ - المقريزى : المقفى ،ج ٥ ،ص ٤٤٦ - العيني :المصدر نفسه ،ج ٣ ،ص ٣٧٧ - غوانمه : القدس ،ص ١٧٦

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقد ذكر بعض المؤرخين أن بعض الأربطة خصصت للنساء الأرامل والمطلقات مما يعني أنها مارست دورا اجتماعيا هاما الى جانب دورها الديني ، ومما ساعد على تولي هذا الدور وكونها ملكت امكانات اقتصادية ومالية عالية ، لذلك نستطيع القول أن الزاوية كانت مركزا لتربية المريدين واعداد المرشدين الدينية واقامة واطعام الفقراء والمعوزين اضافة الى مهمتها الثقافية التعليمية.(١)

اضافة الى ما قدمته الزاوية من خدمات اجتماعية ، فقد كانت في بعض الأحيان مجالا للابتعاد عن مشاغل الحياة والفرار من القيل والقال والاخلاد للهدوء ، اضافة الى سماع الأصوات الشجية والألحان والموسيقى الصاخبة ، ففي مجالس الذكر ينتقل الحضور من مرحلة الهدوء والتفكر الى مرحلة من الوجد والهياج العاطفي ، فتكون الزاوية قد أمنت فيها المتعة لجميع الناس ، وتكون قد ضمت دورا جديدا مارسته على صعيد الحياة الاجتماعية.(٢)

د- كثرة المساجد والمدارس والزوايا :

تميزت فترة البحث بكثرة انشاء دور القرآن والحديث والمدارس الدينية والمساجد في بلاد الشام ، فلم يعتلي سلطان من السلاطين دفة الحكم الا وأمر بانشاء هذه المعاهد الدينية والدور التعليمية ، كذلك التجار ، وذوو النعمة واليسار ، ويدل هذا دلالة على أن العلماء والفقهاء الذين كانوا يتولون الأوقاف يتبرعون للسلطات المختصة بأموال الاوقاف لانشاء هذه المعاهد الدينية ، ولولا وجود الأموال ، وموافقة الهيئات الدينية على انشاء هذه المعاهد لما قامت بتلك الكثرة. ويمكن القول بأن كثرة المعاهد الدينية يدل على أن الدين كان هو المعيار آنذاك ، وكانت السلطة السياسية تحسب حساب القيادات الدينية ، والقوى الشعبية ، اضافة الى كسب هذه القوى لجانبها ضد المغول عند قدومهم للمنطقة ، لذلك فان بعض ولاة السلاطين قام بهدم منشآت عمرانية وجعل مكانها دار حديث وقرآن مثل الأمير تنكز . ومن خلال كثرة هذه المعاهد لابد من

---

(١)- اليونيني : المصدر نفسه ، ج ٤ ص ٣٠ ، ١٩٦ - النويري : المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ٦٦ ، ج ٣١ ص ٢٢٣ - اليافعي : المصدر نفسه ، ج ٤ ، ص ٢٤٣ - ابن كثير : المصدر نفسه ، ج ١٣ ، ص ٢٤١ - ٣٣٣ - السبكي : طبقات ، ج ٦ ، ص ٤٥ - ابن بطوطة : رحلة ابن بطوطة ، ٦١ - ٦٣ - ٧٥ - ٧٩ - ٨١ - العيني : المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٩٨ ، ج ٤ ، ص ٢٩٥ - زعرور : المرجع نفسه ، ص ١٥١ - غوانمه : المرجع نفسه ، ص ١٧٧ .

(٢)- زعرور : المرجع نفسه ، ص ١٥١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومن الجدير بالذكر أنه لم يكن انشاء المساجد يقل أهمية عن انشاء المدارس الفقهية ودور القرآن، ولم تخل مدينة من مدن بلاد الشام الا وأقام فيها رجال السلطة مساجد، وكانت هذه المساجد مراكز للتعليم والوعظ، اضافة الى أشياء أخرى كثيرة، فقد شغل الجامع في حياة المدن دورا هاما في النواحي الاجتماعية والعلمية، فقد كان بمثابة الملجأ والملاذ لأهل المدن أثناء الهجوم المغولي، فقد كانوا يرتادونه مكبرين مهللين، ولا ينصرفون الابعد أن يحققوا ما جاؤوا من أجله ففي سنة ٦٨٠هـ/ ١٢٨١م اجتمع الناس بأسرهم في جامع دمشق، وتضرعوا الى الله وضجوا وبكوا، وحملوا المصحف العثماني على الرؤوس، وخرجوا من الجامع الى المصلى خارج البلد وهم يسألون الله النصر على الاعداء كذلك تكرر الموقف سنة ٧٠٢هـ حيث بات الناس بالجامع الاموى، وظلوا يدعون حتى رحل المغول عن المدينة، وكان الجامع يضم أيضا الى وظيفته هذه وظيفة الصلاة يوم الجمعة اضافة الى صلاة العيد الرسمية، كما كان ملتقى العلماء المسلمين الوافدين على دمشق .(١)

وقد ساهمت جميع فئات المجتمع في اقامة المساجد والجوامع، التي كثرت في المنطقة، ففي حلب أقيمت الجوامع،(٢) وفي دمشق، وحماه وغيرها من مدن بلاد الشام، ففي دمشق اشتهر جامع التوبة ولكنه احترق فعمره الأمير شاهين الشجاعي من ماله، كذلك اشتهر مسجد الكريمي بالقبيبات، الذى أنشأه كريم الدين عبد الكريم بن المعلم بن هبة الله وكيل الخاص السلطاني بالبلاد جميعها وذلك سنة ٧١٨هـ / ١٣١٨م،(٣) جامع السلاح الذى أنشأه شمس الدين غبريال ناظر الدواوين بدمشق خارج باب شرقي سنة ٧٠١هـ/ ١٣٠١م، ويقال له مسجد ضرار بن الأزور،(٤) جامع الخليخاني : أنشأه نجم الدين بن خليخان من القبلة خارج باب كيسان، وخطب به شمس الدين بن قيم الجوزية، جامع يلبغا أنشأ سنة ٧٤٧هـ،(٥) جامع تنكز أنشأه الامير تنكز سنة ٧١٧هـ ظاهر باب النصر تجاه حكر السماق على نهر بانياس،

---

(١)- ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، ج ٧، ص ٢٠٧-١ المقريزى : المصدر نفسه، ج ١، ق ٣، ص ٩١ - المقفى الكبير، ج ٧، ص ١٨٠-١ العلبي : المرجع نفسه، ص ١٦٨ .

(٢)- النويرى : المصدر نفسه، ج ٣١، ص ٨٧- ابن خطيب الناصرية، ج ١ ورقة ٢٤٣-٢٥٧ .

(٣)- النعيمي : الدارس، ج ١، ص ٣١٢- ج ٢، ص ٤١٦ .

(٤)- النعيمي : الدارس، ج ٢، ص ٤٢٠- ٤٢١ - ابن عبد الهادى : ثمار المقاصد، ص ٢٣٧ .

(٥)- النعيمي : الدارس، ج ٢، ص ٤٢١- ٤٢٣ - دهمان : ولاة، ص ١٩٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقد خطب به نجم الدين علي بن داود يحيى الحنفي المعروف بالقحفازى من مشاهير الفضلاء بدمشق ، وقد حضر نائب السلطان والقراء والمنشدون.(١)

اضافة الى مسجد تربة اقشى - الميدان - السويقة ؛ وآقشى هو جمال الدين النجيبي الصالحي استاذ دار الصالح ، ولهذا المسجد جبهة من الحجر الأصفر الجيد فيها ثلاثة شبابيك الى الطريق ، وفوق هذا المسجد قبة حسنة تحتها محراب لطيف حجرى والى جانبه الضريح .(٢)

ولم يقتصر اهتمام السلطان على انشاء المساجد بل اهتم بتزيينها وترخيمها ، وذلك ارضاء للهيئات الدينية حتى يضمن موقفها المؤيد دائما ، فقد أقدم النائب تنكز سنة ٧٢٨هـ/١٣٢٧م بترخيم الجامع الاموى - الحائط الشمالي - وذلك بعد أن كتب الى السلطان يستأذنه بذلك ، فجاء المرسوم بالاذن في عمارته ، فعمر وعمل محراب فيما بين باب الزيادة ومقصورة الخطابة يضاهي محراب الصحابة ، وقد تبرعت العامة في العمل في هذا المشروع ، فكان يعمل فيه كل يوم اكثر من مائة رجل حتى كملت عمارة الجدار ، وأعيدت طاقاته وسقوفه وذلك كله بهمة الشيخ تقي الدين بن مراجل ، واستمرت عمارته لمدة سنة حتى أعيدت ، وذلك سنة ٧٢٩هـ/١٣٢٨م وفي سنة ٧٣٠هـ/١٣٢٩م شرع في ترخيم الجانب الشرقي من الجامع ليشبه الجانب الغربي ، وقد ظل العمل فيه حتى آخر هذه السنة.(٣)

اضافة الى أننا نلحظ كثرة الزوايا والأربطة أيضا ، وسببها دخول أعداد كبيرة من الناس في سلك التصوف ، ومن أهم العوامل المسببة لذلك هو الخطر المغولي ، فعندما احتل المغول بغداد نزح كثير من العلماء من العاصمة العباسية بغداد متجهين غربا ، وكانت بلاد الشام هي المكان الطبيعي الذى يحضن هؤلاء ، اضافة الى نزوح عدد كبير من سكان المشرق ، ومن دول أخرى غيرها ، وقد أكد العمرى هذه المقولة عندما قال :

«وبجميع الشام وجوه الخير كثيرة من المدارس ، الخوانق ، والربط ، والزوايا للرجال والنساء والمارستانات وأوقاف البر والصدقات على اختلافها ، وخصوصا دمشق فانه لا يطاول في ذلك باعها ، ولا يحاول في هذه الغاية ارتفاعها ».(٤)

---

(١) - الصفدى : تحفة ، ج ٢ ، ص ٢٣٩ - ابن كثير : المصدر نفسه ، ج ١٤ ، ص ٨١ - ابن خطيب الناصرية ج ١ ، ورقة ٣٠٥ - النعيمي : الدارس ، ج ٢ ، ص ٤٢٥ - ابن عبد الهادى : ثمار المقاصد ، ص ٢٠٢

(٢) - دهمان : ولاة ، ص ١٦٨ ، (عبد الهادى : المصدر نفسه ، ص ٢٠١) .

(٣) - ابن كثير : المصدر نفسه ، ج ١٤ ، ص ١٣٣ - ١٣٤ - النعيمي : الدارس ، ج ٢ ، ص ٢٩٥ - ٢٩٦ .

(٤) - العمرى : مسالك الابصار ، ص ٢٦ - ٢٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومن هؤلاء الذين وردوا الشام وسلكوا طريق التصوف ركن الدين أحمد عبد المنعم القزويني الطاوسي[1]، بدر الدين حسن بن ابراهيم بن دراع اليمني (ت ٧٤٨هـ)[2]، عبد الله الذاكر من الروم (ت ٨١١هـ)[3] عبد الله خليل الاسداباذي نزيل بيت المقدس جاء من بغداد ت ٧٨٥هـ[4]، سيف الدين محمود بن أبي بكر الأرموي القرافي[5].

من العوامل الأخرى التي سببت كثرة الربط والزوايا هو الحصول على الأموال من التجار، اضافة الى كسب الهيئات الدينية الى جانب الحكومة، وقد حصل عدة مرات أن طلب السلاطين الفتاوى من العلماء والفقهاء لجمع الأموال للانفاق على الحملات العسكرية، لذلك لم تأل السلطة جاهدة لانشاء الزوايا لهؤلاء العلماء والمشايخ فالظاهر بيبرس أشاد عدة زوايا ارضاء للشيخ خضر العدوى في حمص، وحماة، وبعلبك، والمزة وغيرها من المدن[6].

كما أقام الأمير علاء الدين ايدغدي بن عبد الله الصالحي النجمي ت ٦٩٣هـ/١٢٩٣م ربطا كثيرة بالقدس، واقتدى بفعله أيضا منجك اليوسفي نائب الشام من سنة ٧٧٠هـ/ ١٣٦٨م حيث أقام زاوية بالكسوة وعمل لها سماطا، كما أرض الاسعردي نائب حماة الشيخ عبد الرحمن بن يوسف بن سحلول وبنى له خانقاه للصوفية خارج باب الجنان على نهر قويق[7].

ولم تقتصر اقامة هذه الزوايا على حكام بلاد الشام بل تعداه الى حكام المغول، فالسلطان أوزبك خان بعث الشيخ علاء الدين النعمان (ولد سنة ٦٥٧هـ) الى القدس وحمله أموال فعمر ببعضه خانقاه بالقدس[8].

وبالتالي نستطيع القول ان المتصوفة لم تقتصر على فئة معينة من الناس، بل دخل سلكها الجميع، كالشعراء والأدباء والعلماء. وقد ساعدت هذه الطرق في بث الروح الدينية لدى العامة، والى جعلها مرتبطة بالأرض والعادات والتقاليد أكثر مما مضى[9].

---

(١) - الذهبي : ذيول العبر، ص ٢٧ .
(٢) - الدمشقي : المصدر نفسه، ج ١، ص ٢٤٦ .
(٣) - السخاوي : المصدر نفسه، ج ٥، ص ٧٦ .
(٤) - ابن خطيب الناصرية : المصدر نفسه، ج ١ ورقة ٥٦٩ - العسقلاني : الدرر، ج ٢، ص ٢٥٩ .
(٥) - الذهبي : دول، ج ٢، ص ٢٣١ .
(٦) - ابن شداد : تاريخ الملك الظاهر، ص ٢٧٣ - ٢٧٤ - اليونيني : المصدر نفسه، ج ٣، ص ٢٦٥، ٢٦٧ - النويري : المصدر نفسه، ج ٣٠، ص ٣٧٨ - ابن شاكر : فوات، ج ٢، ص ٣٠٠ - ابن الفرات : المصدر نفسه، ج ٧، ص ١٠٢ - المقريزي : المقفى الكبير، ج ٣، ص ٧٥٠ - ٧٥١ .
(٧) - ابن قاضي شهبة : المصدر نفسه، ج ١، ق ٣، ص ٤٧ - ابن طولون : اعلام، ص ٥٠ - العيني : المصدر نفسه، ج ٣، ص ١٥٣ .
(٨) - الرمزي : تلفيق الأخبار، ج ٢، ص ٣٠ .
(٩) - السبكي : طبقات، ج ٦، ص ٢٥١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٤ - ادعاء الكرامات وظهور البدع :

لقد سبب انشغال الحكومة بالاوضاع السياسية الى ضعف الوازع الديني لدى بعض أفراد الطبقة العامة ، الأمر الذي أدى الى ظهور الكثير من البدع أو الى ادعاء أشخاص بالمكاشفات والكرامات ، فقد وجد في المصادر أسماء كثيرة لهؤلاء اضافة الى أن بعضهم ادعى الالوهية وكانت البدعة على ثلاثة أنواع ، أحدها ماكان مباحا كالتوسع في المآكل والمشارب والملابس ، والثاني ماكان حسنا وهو كل مبتدع موافق لقواعد الشريعة غير مخالف لشيء منها كصلاة التراويح وبناء الربط والخانات وغيرذلك من أنواع السير . أما الثالث فهو ماكان مخالفا للشرع أو ملزما لمخالفة الشرع.[1] وهذا ماسيكون مجال البحث.

فنادرا ما نلحظ ترجمة لعالم أو فقيه الا ويذكر أن له كرامات ومكاشفات ، فبعضهم كان يعلق في رقبته عظام الجمال ، والآخر كان يزار ويتبرك به ، والبعض الآخر يحلق ذقنه ويمشي حافيا ويكثر الحلف بالله وينطق أحيانا بالمغيبات فيقع كما قال ، فيزداد صلاحه عند الناس .[2]

وأما أهم المشايخ الذين ظهرت لهم كرامات ابن قوام البالسي (ت ٦٥٨ هـ) ،[3] ابو اسحاق ابراهيم ابن الخطيب المقدسي أيضا ،[4] الشيخ أبو بكر بن فتيان الشطي (ت ٦٧٢ هـ) ،[5] وقد ظهر لبعضهم كرامات واضحة كالسيد عبد الحافظ (ت ٦٩٦ هـ) فقد كان له ولد اسمه داود من أصحاب الكرامات.[6]

ومن كراماته أن قرية شرفات كان بها قليل من النصارى ، وكانوا يعصرون الخمور ويبيعونها للفساق من المسلمين ، فصعب ذلك على داود ودعا عليهم الى الله فاستجاب له وكانوا كلما عصروا الخمور انقلبت خلا وقيل ماء .[7]

وقد غالى الناس في محبة الشيخ ابراهيم بن سعيد الشاغوري (ت ٦٨٠ هـ/١٢٨١ م) وكانوا يذكرون له مكاشفات وكرامات ، وكل ذلك خرافات من خرافات العوام ، ولشدة حب العامة له

---

(١) - السبكي : طبقات الشافعية ، ج ٥ ، ص ١٠٥ .
(٢) - ابن حبيب : تذكرة ، ج ٢ ، ص ١٦٦ - العسقلاني : الدرر ، ج ٢ ، ص ٧٣ - ج ٤ ، ص ٣٦٨ - اليافعي : المصدر نفسه ، ج ٤ ، ص ٢٠٦ - العيني : المصدر نفسه ، ج ٤ ، ص ١٥٠ ، ج ٣ ، ص ٤٨ .
(٣) - الذهبي : العبر ، ج ٥ ، ص ٢٥٠ .
(٤) - الذهبي : المصدر نفسه ، ج ٥ ، ص ٢٨٤ .
(٥) - ابن شداد : تاريخ ، ص ٩٩ .
(٦) - العليمي : المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ١٤٧ - ١٤٨ .
(٧) - العليمي : المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ١٤٧ - ١٤٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

عطوا على قبره لما توفي حجارة منقوشة وسقفا مقرنصا بالدهان وأنواعه ،كما عطوا عليه مقصورة وأبوابا ، وغالى الناس فيه مغالاة زائدة. (١)

كما اتبع جماعة من الفلاحين والشباب المنتمين الى طريقة أحمد بن الرفاعي الشيخ علي القطناني (ت٧٤٧هـ/ ١٣٤٦م) واتبعوه بالزيارة والتبرك ،وكان له أصحاب يظهرون اشارة باطلة وأحوالا مفتعلة، وهذا ما كان ينقم عليه بسببه. (٢)

وقد حارب ابن تيمية بدعا كثيرة ففي سنة ٧٠٤هـ/ ١٣٠٤م توجه مع جماعة الى مسجد النارنج بدمشق وأحضر جماعة من الحجارين ، وقطع صخرة هناك كان الناس يزورونها وينذرون لهـا النذور ، وكان لهم فيها أقاويل كثيرة فأزالها ، وقد حصل بين ابن تيمية وأهل دمشق نزاع بسبب هذه الصخرة ، فقد كانوا يدعون أن فيها أثر قدم النبي ويتغالون في أمرها ، فغضب كثير من الرجال والنساء بذلك. (٣)

ومن الجدير بالذكر أن بعض العامة ادعى الالوهية ، ففي سنة ٧١٧هـ/ ١٣١٧م قام رجل من جبلة فأدعى أنه المهدى مرة ، وطي مرة أخرى ، وأن دين النصرانية حق ، وأن الملائكة تنصره ، وأن الخمر حلال ، وأن تناسخ الأرواح حق وأن العالم قديم ، والبعث بعد الموت باطل ، وأن الصلوات خمس وقد ثار معه خلق من الجهلة وصدقوه وأصبحوا أعوانه فبلغوا ثلاثة آلاف ، وعاثوا الفساد بالساحل واستباحوا جبلة ورفعوا أصواتهم ، ووعدهم بأن يملكوا البلاد ، إذ قسمها بينهم ، وعين لكل واحد حصته ، وأمرهم بالخروج اليها ، وأعطاهم ورق الزيتون وكان يقول لهم ، استظهروا فانها كالأوامر فاذا خرج أحدهم الى بلد أحضره أميرها فيقول له ان الامام المهدى أعطاني هذا البلد ، فيقول له أين الأمر؟ فيخرج ورق الزيتون ويضرب ويحبس غير أن الحكومة لم تطق صبرا بما كانوا يقومون به فحاربتهم حتى استطاعت قتل طاغيتهم. (٤)

وقد ظهر سنة ٧٨٤هـ/ ١٣٨٢م بدمشق أن الشافعية والمالكية والحنابلة قد أظهروا البدع ونحو ذلك. (٥)

---

(١) - ابن كثير : المصدر نفسه ، ج ١٣ ، ص ٢٩٨ .

(٢) - ابن كثير : المصدر نفسه ، ج ١٣ ، ص ٢٢٠ - ٢٢١ .

(٣) - ابن كثير : المصدر نفسه ، ج ١٤ ، ص ٣٤ - المقريزى : السلوك ، ج ٢ ، ق ١ ، ص ٨ - ٩ - المقفى الكبير ، ج ١ ، انظر ترجمة ابن تيمية - العيني : المصدر نفسه ، ج ٤ ، ص ٣٥٧ .

(٤) - الذهبي : ذيول العبر ، ص ٩١ - ابن الوردى : المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٣٨٠ - ابن بطوطة : المصدر نفسه ، ص ٨٠ - المقريزى : السلوك ، ج ٢ ، ق ١ ، ص ١٧٨ - ابن العماد الحنبلي : شذرات ، ج ٦ ، ص ٤٣ .

(٥) - ابن قاضي شهبة : المصدر نفسه ، ج ١ ، ق ٣ ، ص ٨٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ان دل هذا على شيء فانه يدل على انشغال أفراد الحكومة باعادة الاوضاع الأمنية الى المنطقة عقب كل غزوة مغولية ، اضافة الى ضعف الوعي الديني عند بعض أفراد العامة ، وعدم اكتمال الشعور القومي الذى أدى الى انغماس بعض الأفراد بالبدع ، والتمسك بها والدفاع عنها .

٥- هدم المنشآت الدينية :

- ان خراب المنشآت الدينية شمل المناطق التي تعرضت مباشرة للغزو المغولي ، فالجزيرة تعرضت منشآتها للهدم فقد خربوا جامع حران وأخذوا الأخشاب من سقوفه ، كذلك استصحب المغول ما تبقى من آثاره معهم ، كما خربوا مشهد علي في سنجار .(١)

وأما في حلب وأعمالها فقد شمل الخراب الجوامع والمساجد ، فعند دخول هولاكو المدينة خرب المسجد الجامع الذى عمره فيما بعد سنقر نائب حلب وفرغ منه سنة ٦٨٤هـ/ ١٢٨٥م ، وكان احراقه قد تم على يد نائب سيس ، كذلك هدموا مسجد الأنصارى الذى يضم قبر عبد الله الأنصارى بداخله .(٢)

وقد تعرضت جوامع ومساجد المنطقة للخراب والهدم أثناء غزوة غازان ، فقد هدم مسجد التوبة في العقيبة ، ومسجد الصابون ، ودار الحديث الأشرفيه التي عمرها فيما بعد الشيخ زين الدين الفارقي وقبالتها الى العادلية الصغيرة ثم الى العادلية الكبيرة ، كذلك تضرر مسجد الأسدية ، ودار الحديث النورية . كما نهبت ونقضت أخشابها وقلع ما فيها من الرخام وأخذ ما فيها من الأثاث وبيعت بأقل الأثمان ، حتى أنه قلعت في أثناء هذه الغزوة شبابيك الترب بالصالحية وأخذت أبوابها . ولا بد أن يكون الجامع في قلعة دمشق قد تأثر حيث أن المغول نصبوا المجانيق على الجامع ، فعندما أراد أرجواش ضرب المنجنيق ألقى جنوده النار عليه فأحرق الجامع .(٣)

---

(١) - ابن شداد : الاعلاق الخطيرة ، ج٣ ، ق١ ، ص٦٢ - ١٥٥ - النويرى : المصدر نفسه ، ج ٣٠ ، ص ١٨٨ - عاشور : العلاقات ، ص ٩٧ .

(٢) - المنصورى : التحفة ، ص٩٥ - اليونيني : المصدر نفسه ، ج ٤ ، ص ٤٥ - اليافعي : المصدر نفسه ، ج ٤ ، ص١١٠ - ابن حبيب : تذكرة ، ج ١ ، ص ٥٩ - ابن خلدون : العبر ، ج ٥ ، ص ٨٥٥ - ابن خطيب الناصرية : المصدر نفسه ، ج ١ ، ورقة ٨٢ - المقريزى : السلوك ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤٢٢ - العيني : عقد الجمان ، ج ٢ ، ص ٢٥٤ - ابن الشحنة : الدر المنتخب ، ص٦٤ - ٨٩ - كرد علي : خطط ، ج٢ ، ص١١٧ .

(٣) - ابن ايبك الدوادارى : الدر الفاخر ، ص٢١ - ٤٠ - النويرى : المصدر نفسه ، ج ٣١ ، ص ٣٩٦ - الذهبي : دول ، ج ٢ ، ص٢٠٣ - الصفدى : تحفة ، ج ٢ ، ص٢٠٤ - ابن كثير : المصدر نفسه ، ج ١٤ ، ص٢٣٠ - المقريزى : سلوك ، ج ١ ، ق ٣ ، ص ٨٩٣ - المقريزى : المقفى : ج ٢ ، ص١٦ - العيني : المصدر نفسه ، ج ٤ ، ص ٣٧ - ابن تغرى بردى : المنهل ، ج ٢ ، ص٢٩٤ - النعيمي : الدارس ، ج ١ ، ص٢٦ - كرد علي : المرجع نفسه ، ج ٢ ، ص١٣٥ - عاشور : العلاقات ، ص ١٥٢ - ١٥٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وسار تيمور سيرة من سبقه من أسلافه في المنطقة من الخراب والدمار ، ولم يكتف بما رتكبه من مجازر جماعية في بيوت الله عند دخوله اليها ، وانما قام بهدمها ونهبها ، اضافة الى هدم المدارس والزوايا والربط وغيرها من المنشآت الدينية ففي مدينة حلب ، خرب جنوده الجوامع [١] ، وطبيعي أن مدينة حماة ساوت مدن الشام الأخرى في خراب منشآتها الدينية وان لم تذكر المصادر بالتحديد أسماء هذه المنشآت ، غير أن هجوم ابن تيمورلنك عليها واشعاله النار فيها لابد أن يترك أثرا على المدينة. [٢]

وكانت مدينة دمشق أكثر المدن تضررا من غزوة تيمورلنك ، فقد تعرض مسجد المزاز في الشاغور الى دمار كامل ، [٣] اضافة الى جامع بني أمية أكثر جوامع دمشق أصالة وعراقة وجمالا ، فقد سقطت سقوفه بعد أن سال رصاصه من الحريق ، وزالت أبوابه ، وتلف رخامه ، ولم يبق غير جدره قائمة ، ومئذنة العروس ، رغم أنها كانت من الخشب ويظهر أنها نفس منارة عيسى ، وكان الذى أضرم النار في المسجد الفرق الخراسانية في جيش تيمورلنك ، وهذه الفرق كانت أشد عداء لاهل الشام عموما وللامويين خصوصا ، وقد برر المؤرخون عمله بأنه قضاء وقدر ودليلهم على ذلك ما تظاهر به شاه ملك ورجاله باطفاء النار في الجامع الأموى ، ومع ذلك انهارت المنارة الشرقية كليا وكانت مبنية من الحجر ، وظل المسجد على وضعه هذا حتى أمر المؤيد شيخ الخاصكي بعمارته مع ما تهدم قبله. [٤] بينما لم يتجاوز تيمورلنك في غزوته هذه حدود مدينة دمشق ، وبالتالي فان المناطق الجنوبية لم تتعرض لأى أذى من الغزاة ، فقد كانت مدن سورية بالتحديد هي التي تعرضت للغزو المباشر والضرر الذى شمل المنطقة ، فقد كان المجتمع الشامي أكثر المجتمعات تعرضا للقتل والسبي والأسر والنهب والاستباحات الأخلاقية والبغاء ، كما تأثر تأثرا كبيرا بنتائج الغزوات المتباعدة زمنيا .

---

(١) - ابن خطيب الناصرية : المصدر نفسه ، ج ١ ، ورقة ٣٥٣ - السخاوى : المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ٤٨ - كرد علي : المرجع نفسه ، ج ٢ ، ص ١٧٢ - لامب : تيمورلنك ، ص ١٢٨ .

(٢) - المقريزى : المصدر نفسه ، ج ٣ ، ق ٢ ، ص ١٠٣٦ - ابن تغرى بردى : النجوم ، ج ١٢ ، ص ٢٢٥ - ٢٢٦

(٣) - ابن عبد الهادى : ثمار المقاصد ، ص ٢٥٣ .

(٤) - المقريزى : السلوك ، ج ٣ ، ق ٣ ، ص ١٠٣٣ - ١٠٥١ - ابن خلدون : التعريف ، ص ٣٧٤ - ابن طولون : اعلام ، ص ٥٧ - ابن عربشاه : المصدر نفسه ، ص ٢٨٥ - العيني : المصدر نفسه ، ج ٤ ص ٤٣ - ابن تغرى بردى : النجوم ، ج ١٢ ، ص ٢٤٥ - ٢٤٦ - الصيرفي : نزهة النفوس ، ج ٢ ، ص ٩٨ - ابن اياس : المصدر نفسه ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٦١٦ - العلبي : تيمورلنك ص ١٨٦ - ١٨٧ - والتر : لقاء ابن خلدون ، ص ١٥٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

-(الفصل الثاني)-

آثار الحملات العسكرية المغولية على الارياف

آ- الآثار على القرى .

١- قتل السكان وتشريدهم ونهبهم .

٢- النزاع بين اليمنية والقيسية .

٣- الهجرة من الريف الى المدن .

٤- معاقبة أهل الجبال .

ب- الآثار على الزراعة .

١ - أهم المزروعات في بلاد الشام واثر الهجوم المغولي عليها .

٢ - آثار الحملات على الأوضاع الزراعية .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والسابعة السبع ، والثامنة الثمن .(١) ولكن اختلفت هذه القواعد عند التطبيق فكانت احيانا تبعا للظروف السياسية ، وأحيانا ارتبطت بالعوامل الاقتصادية فالفلاح في كثير من الأحيان ترك الأرض وهجرها الى المدينة عند اجتياحها من قبل الغزاة ، أو هجرها الى مصر ، وتعرضت محاصيله للمصادرة اما من قبل الحكومة أو قبل الغزاة أنفسهم . ويلحق بذلك أن فرضت على الفلاحين ضرائب كثيرة لوقف التدهور الاقتصادي الذي تعرضت له الادارة الحكومية في بعض الأحيان ولسد العجز المالي نتيجة الانفاق على الحملات العسكرية لصد الغزاة المغول .

لقد خسر الفلاح كل شيء ابان هذه الغزوات ، محاصيله ، مواشيه ، اضافة الى عياله وأولاده . فقد تعرض الفلاحون بشكل مباشر من قبل المغول الى القتل والتشريد والنهب شأنهم في ذلك شأن أهل المدن، لذلك لابد من دراسة آثار هذه الغزوات عليهم بالتفصيل .

١- قتل السكان و تشريدهم ونهبهم :

من المعروف أن الفلاحين الذين قطنوا في مناطق وسط بلاد الشام وشمالها تعرضوا منذ أيام هولاكو وحتى تيمورلنك الى نكبات هائلة على أيدي الغزاة المغول ، فقد دمر هؤلاء الريف الحلبي ووصلوا الى ريف حمص وفعلوا به أيضا مثل ريف حلب ، كما وصلت غاراتهم الى ريف فلسطين لكنها لم تتعد المرة الواحدة أو المرتين .

لقد عانى الفلاحون من الظلم والخراب الذي لحق بهم أثناء قدوم المغول سنة ٦٥٧ هـ / ١٢٥٨ م بقيادة ابن هولاكو الى نهر الجوز وتل باشر (٢) . فلابد أن تكون الأراضي الزراعية قد تأثرت بمرورهم على صعيد المزروعات ، وقد تابع المغول مسيرهم واجتازوا عدة قرى منها حيلان ، (٣) الحاري ، سلمية ، (٤) وقاموا بقتل السكان حتى اضطربت مدينة حلب لهذه الأحوال . (٥)

---

(١)- النويري : ج ٨ ص ٢٥٧ - السبكي : معيد النعم ، ص ١٢٧ - زعرور : المرجع نفسه ، ص ٢٣٣ .

(٢)- تل باشر : قلعة حصينة في شمالي حلب وأهلها نصارى أرمن ، لها ربض وأسواق ، وهي عامرة آهلة - انظر الحموي : معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ٤٠ .

(٣)- حيلان : قرية شمالي حلب فيها أعين جمع ماؤها وسيق الى المدينة . انظر ابن خطيب الناصرية : المصدر نفسه ، ج ١ ، ورقة ١٠ .

(٤)- سلمية : هي بليدة في ناحية البرية من أعمال حماه بينهما مسيرة يومين وكانت تعد من أعمال حمص ، انظر ياقوت ، ج ٣ ، ص ٢٤٠ .

(٥)- ابن شداد (عزالدين) : الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة ، ج ٣ ، ق ٢ ، ص ٧٢ ، ابن خطيب الناصرية : المصدر نفسه ، ج ٢ ، ورقة ٤١٤ - ابن تغرى بردى : النجوم ، ج ٧ ، ص ٧٤ - ٧٥

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أما ريف دمشق فقد تعرض لأبشع انتقام، فقد وصل المغول سنة ٦٥٨هـ/١٢٥٩م الى دمشق من جهة الغوطة مارين من وراءها الى جهة الكسوة، وقد أهلك الغزاة كثيرا من السكان حيث كانوا قد تجمعوا وتحزبوا لقتالهم، فقد قتلوا جماعة من أهل قرية حرزما[1]، وكانت غوطة دمشق تحوي الكثير من القرى، ولم تقتصر على حرزما فقط، بل ضمت قرى كثيرة أمثال سكا[2]، قرحتا، القيسا، النشابية، زملكا[3]، جرمانا[4]، تلفيتا، الحديثة، عين ترما، جوبر، كفر مديرا[5]، مسرابا، دوما، جسرين. وكان أكثر هذه القرى يقع في المرج ومنها القيسا، حران المرج بينها وبين الغوطة أربع ساعات.[6]

غير أن الباحث كرد علي لا يصنف قرى المرج ضمن نطاق غوطة دمشق، وأهم قرى الغوطة لديه من حيث وفرة السكان (دوما) حاضرة الغوطة الشمالية و(داريا) حاضرة الغوطة الجنوبية.[7] لم يقتصر عمل الغزاة على اهلاك الطاقة البشرية الموجودة في القرى، بل لابد أنهم أقدموا على تدمير سبل الحياة المعيشية في هذه الأرياف، فقد كانت تشتمل الارياف على المساجد التي انتشرت بكل قرى الغوطة، اضافة الى الحمامات والخانات والخانقاوات، فقد اشتهرت الصالحية بحماماتها، وأهمها على الاطلاق حمام الركنية، الشبلية، الزهر، الجورة، المقدم، العرائس، الزمرد، العفيف. كما اشتهرت المزة بحماماتها، وجوبر، وسقبا، وداريا، وبلدا، اضافة الى وجود المساجد بضواحي المزة، وفي الربوة، وبرزة، والقابون، والخانقاوات بالربوة وغيرها.[8]

---

(١)- حرزما: قرية من قرى المرج وثلثها وقف على دار الحديث الأشرفية: ابن عبد الهادي: ثمار المقاصد ص ١٣٦ - ابوشامة: تراجم، ص ٢٠٣ - اليونيني: المصدر نفسه، ج ١، ص ٣٤٩- ٣٥٠ - ابن تغري بردي: النجوم، ج ٧، ص ٧٦.

(٢)- سكا: كانت تعرف في القرن السابع بقصر سكا، كما في كتاب التمهيد وهي ما زالت باقية وليست من قرى الغوطة. ينظر كرد علي: غوطة دمشق، دمشق، دار الفكر الطبعة الثالثة، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م، ص ٢١.

(٣)- زملكا: وتورد باسم زملكان بالنون. ينظر كرد علي: المرجع نفسه، ص ١٩، حاشية رقم (٥).

(٤)- جرمانا: وردت في معجم البلدان جرمانس ينظر: كرد علي: المرجع نفسه ص ١٩، حاشية (٢).

(٥)- مديرا: وردت في الدارس مديرى، ينظر كرد علي: المرجع نفسه، ص ٢٠، حاشية (١).

(٦)- ابن عبد الهادي: ثمار المقاصد، ص ١٣٥-١٤٠.

(٧)- كرد علي: المرجع نفسه، ص ١٧ وللمزيد من التفاصيل ينظر المرجع نفسه، ص ١٨ - ٢٢.

(٨)- العسقلاني: الدرر، ج ٤، ص ٦٠- العيني: عقد الجمان، ج ٣، ص ٢٨٨- النعيمي: الدارس، ج ٢، ص ٤٣٨- ٤٣٩، ص ٤٤٢- ابن عبد الهادي: المصدر نفسه، ص ٥٠- ٥٢- ١٥٨-١٥٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وشعر الغزاة بأنهم بحاجة للوصول الى المناطق الجنوبية من دمشق، فوصلوا في غاراتهم حتى حوران ونابلس والصلت والخليل وقتلوا الكثير من سكانها، واستاقوا مواشيهم من البقر والغنم الشيء الكثير.(١)

من الطبيعي أن يكون لقتل سكان الريف آثار سلبية انعكست عليهم، فقد كان أهل الريف يغدون الى أسواق المدن ببضائعهم من المنتجات ويعودون الى قراهم بعد بيعها، وفي فترة الغزوات كانوا يحجمون عن الحضور الى المدن وبالتالي خسارتهم لأسباب معيشتهم اليومية.

وعاود المغول هجومهم على ريف حلب سنة ٦٥٩هـ/١٢٦٠م إثر معركة عين جالوت عاد القواد المغول الى بلادهم، وكان هولاكو قد غضب عليهم، فأصدر أمرا بأنه من أقام في الاردو قتل، فعادوا الى بلاد الشام وأغاروا على قرى حلب، فانهزم أهل القرى من وجههم ودخلوا مدينة حلب، عندئذ أصدر قائدهم أمرا أن يخرج جميع أهل القرى الموجودين بمدينة حلب الى خارج المدينة، اضافة الى أهل المدن، وتبقى كل طائفة بمعزل عن الأخرى ثم قتلوهم عن آخرهم.(٢)

وتحرك المغول للمنطقة سنة ٦٧٩هـ/١٢٨٠م حيث أرسل أبغا ملك المغول أخاه منكو تمر فوصل الى حلب وملك ضياعها، ولما ترامى الى مسامعه سير السلطان المصري أحرق الضياع، وقتل أهلها ونهب أموالهم، وانسحب فلما سمع السلطان المملوكي بهذه الأنباء انسحب وعاد الى القاهرة، فاستغل منكوتمر الموقف وعاد الى المنطقة وعاث وأفسد أضعاف ما فعل في المرة الأولى فخرج السلطان ولاقاه وكسره كسرة عظيمة.(٣)

كما تعرضت القرى والسواد التي بجهة حارم سنة ٦٨٠هـ/١٢٨١م الى فساد احدى الفرق المغولية التي تقدمت للمنطقة من جهة الروم.(٤)

وكانت الغزوات المغولية ما بين قدوم هولاكو وحتى قدوم غازان هي الأخف وطأة على المنطقة، وكانت نكبة أهل الارياف الكبرى عند دخول غازان، فقد نهب الغزاة القرى، وقتلوا السكان سواء في مناطق الشام الشمالية والجنوبية، وكانت الضربة القاصمة لأهل قرى دمشق خاصة الصالحية،

---

(١) أبوشامة: المصدر نفسه، ص٢٠٤- اليونيني: المصدر نفسه، ج١، ص٣٥٠-٣٥١- ابن تغري بردي: النجوم، ج٧، ص٧٧- دهمان: ولاة، ص١٥.

(٢) - ابن العبري: تاريخ مختصر، ص٤٩٢- اليونيني: المصدر نفسه، ج١، ص٤٣٥-٤٣٦- النويري: المصدر نفسه، ج٣٠، ص٤١- ابن خطيب الناصرية: المصدر نفسه، ج٢ ورقة٨٣- العيني: المصدر نفسه، ج٣، ص٢١٧.

(٣) - أبوالفدا: المختصر، ج٤، ص١٤-١٥- ابن تغري بردي: المصدر نفسه، ج٧، ص٢٩٨-٢٩٩ ابن اياس: بدائع الزهور، ج١، ق١، ص٣٥٠- ابن الطباخ: المصدر نفسه، ج٢، ص٢٦٩- كرد علي: خطط، ج٢، ص١١٧.

(٤)- المنصوري: التحفة، ص٩٨-٩٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والمزة وداريا ، وغيرها من القرى المحيطة بدمشق . فعساكره عاثت فسادا في الغوطة ، بقتل السكان ونهبهم سواء عند قدومه سنة ٦٩٩ هـ أو عند خروجه من دمشق في نفس هذه السنة .(١)

وكانت المزة من القرى التي تعرضت للاجتياح المغولي وقت قدوم غازان وكانت تتمتع بأراضي خصبة ومزروعات وافرة نتيجة مرور نهر المزة فيها ، وكانت لجمالها تسمى المنزة وقد وصفها ابن شيخ الربوة حيث قال فيها : « وكان اسمه المنزه لطيبها من صحة الهواء وصفاء الماء وحسن القصور وطيبة الثمار وكثرة الزهور والورد واستخراج الماء منه حتى أن حراقته تلقى على الطرقات وفي دروبها وأزقتها كالمزابل فلا يكون لرائحته نظير ويكون ألذ من المسك الى مدة انقضاء الورد وصفة اخراجه في الكركات » .(٢)

ولما قام المغول بنهب سكانها ومعالمها هرب أكثر أهلها خوفا منهم الأمر الذى سهل المهمة على الغزاة لتدمير أقنيتها ودساكرها ، اضافة الى الطواحين الموجودة على أنهارها ، فقد كان يخترقها نهر يسمى باسم نهر المزة ، وكان هذا النهر يسقي بساتين كثيرة اضافة الى قيام الطواحين عليه .(٣)

وقرية الصالحية من ضمن القرى التي تعرضت لخراب ودمار شامل ، على كافة الأصعدة السكانية ، العمرانية ، الاقتصادية . فقد أقدم على حرق أماكنها ملك الأرمن ، وقد أراد الانتقام من السكان نتيجة لمشاركتهم بالجيوش المملوكية المتوجهة ضد بلاده في معظم الأحيان ، لذلك بذل مالا عظيما لكبار الأمراء والوزراء ليتوسطوا له لدى غازان بتمكينه من دمشق ، لكن الأمير قبجق تعصب للمدينة ودافع عنها ، غير أنها سلمت أخيرا الى ملك الأرمن ، فلم يأل جهدا في احراق المساجد والمدارس وقتل السكان ، وقد ساعده على عمله هذا جنود المغول ، فقد نهبوا جميع محتويات المدارس والجوامع والترب من البسط والقناديل ، ونبشوا الخبايا فظهر لهم شيء كثير حتى كأنهم كانوا يعلمون أماكنها ، اضافة الى نهب كتب كثيرة من الرباط الناصرى والضيائية وخزانة ابن البزورى . ونتيجة لذلك قتل الكثير من سكانها فقد

---

(١) - الصفدى : الوافي ، ج ٤ ، ص ٣٠٥ـ٣٠٨ - المقريزى : السلوك ، ج ١ ، ق ٣ ، ص ٨٩٠ - العيني : المصدر نفسه ، ج ٤ ، ص ٤٣ - ابن الطباخ : المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٢٨٢ - ٢٨٣ .

(٢) - ابن شيخ الربوة : نخبة الدهر ، ص ١٩٤ - ١٩٥ .

(٣) - النويرى : المصدر نفسه ، ج ٣١ ، ص ٣٩٥ - ابن كثير : المصدر نفسه ، ج ١٤ ، ص ٨ - ابن خلدون : العبر ، ج ٥ ، ق ٤ ، ص ٨٩٠ - ابن صصرى : الدرة المضيئة ، ص ٩٢ - المقريزى : السلوك ، ج ١ ، ق ٣ ، ص ٨٩٢ - العيني : المصدر نفسه ، ج ٤ ، ص ٣٤ - ابن عبد الهادى : رسائل دمشقية ، ص ٣١ - عاشور : العلاقات ، ص ١٠٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

قدروا عدد القتلى والأسرى فيها بنحو تسعة آلاف وتسعمائة نفس، لكن هذه الأعمال لم ترق للشيوخ فخرج ابن تيمية في جمع كبير الى شيخ الشيوخ يشكو له ما حصل فيها، فتوجه معه الى الصالحية، فلما سمع المغول الذين بالجبل هذه الأنباء خربوا الدور والمساكن وسبوا النساء، عندئذ لم يبق أمام ابن تيمية الا الشكوى لغازان فتوجه اليه وكان مقيما بمرج راهط، لكن وزيراه رشيد الدين، وسعد الدين لم يسمحا لابن تيمية في مقابلته.(١)

ومن خلال وصف الصالحية من قبل الجغرافيين والمؤرخين نلاحظ أنها تكاد تكون كالمدن نتيجة لوجود جميع مرافق الحياة الاقتصادية فيها، فهي كبيرة واسعة الأرجاء، كثيرة الحارات، فقد وصفها العمري حيث قال فيها «الصالحية في سفح قاسيون، ذات بيوت، جنائن، مدارس، ربط، ترب جليلة، وأسواق حافلة بالبز وغيره، وبأعاليها من ذيل الجبل المقابر العامة، وهي مشرفة على دمشق وغوطتها وكل بساتينها وشر فيها وميادينها ومجرى واديها».(٢)

وقد ضمت الصالحية حارات كثيرة من أشهرها، زقاق الماء، الشبلية، بيت الحارة، حارة الخراب حارة الركنية، حارة رأس العلية، حارة السهم الأعلى، حارة بيت الكويس، حارة الصرادوة، حارة حمام الكلاس، حارة المدرسة، وحارات كثيرة بلغ تعدادها ثمانية وثلاثون حارة اشتملت على جميع مرافق الحياة الاقتصادية وخاصة الأسواق، والخانات التي أصبحت مركزا للتجار، ففيها عند البيمارستان خانان أحدهما للعنب والثاني للخشب، وسوق الفاكهة ست خانات، وفي سوق صاروجا خان.(٣)

بعد تدمير الصالحية وتخريبها وقتل سكانها اتجه الغزاة نحو قرية داريا، وكانت داريا تضم زراعات متنوعة نتيجة اختراق بساتينها لنهر يسمى باسم داريا وقد وصفها شيخ الربوة حيث قال: «داريا قرية عظيمة المغل والأرض وبها قبر أبي مسلم الخولاني وقبر أبي سليمان الداراني».(٤)

---

(١) ابن ايبك الدواداري: الدر الفاخر، ص٨ - الذهبي: دول، ج٢، ص٢٠٣ - ابن كثير: المصدر نفسه، ج١٤، ص٨ - ابن خلدون: العبر، ج٥، ق٤، ص٨٩٠ - ابن صصرى: الدرة المضيئة، ص٩٢ - المقريزي: السلوك ج١، ق٣، ص٨٩١-٨٩٢ - العيني: عقد الجمان، ج٤، ص٢٦٢-٢٦٤-٢٧٤ - ابن تغرى بردى: النجوم، ج٨، ص١٢٥ - ابن اياس، ج١، ق١، ص٤٠٤ - دهمان: ولاة، ص١٠٠-١٠١ - عاشور: العلاقات السياسية، ص١٥٠-١٥٢.

(٢) - العمري: مسالك الأبصار، ص١١٣-١١٤.

(٣) - ابن عبد الهادي: ثمار المقاصد ص١٥٥-١٥٦-١٥٧-٦١-٦٢-٦٣ - ابن طولون (محمد بن علي الصالحي): القلائد الجوهرية في تاريخ الصالحية، تحقيق محمد احمد دهمان، دمشق، مكتب الدراسات الاسلامية، ١٣٦٨هـ/١٩٤٩م، ١٣٧٥هـ/١٩٥٦م، ص١٤٠-١٨٢-١٨٣-٢٠٥-٢٠٦-٢٠٧-٢٤٨-٢٥٤-٢٥٥-٢٥٧.

(٤) - ابن شيخ الربوة: المصدر نفسه، ص١٩٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وعندما وصل المغول اليها احتمى أهلها بالجامع فلم يزالوا بداخله حتى دخلوا اليها قسرا وفعلوا فيها كما فعلوا في القرى السابقة فقتلوا ، ونهبوا البلد .(١)

ولما استقر المغول في دمشق أخذوا في جمع الأموال من الناس ، وفرضوها على أهل المدن كما فرضوها على الفلاحين ، ونتيجة لكثرة التعذيب والقتل من أجل المال فانه قتل من الفلاحين والجند مئة ألف انسان وفي هذا بعض المبالغة ، وقد وصف ابن قاضي شهبة هذه الحادثة حيث قال :

رمتنا صروف الدهر منها بسبعة ... فما أحد منا من السبع سالم

غلاء ، وغازان ، وغزو ، وغـارة ... وغدر واغبان وغم ملازم

وقال الشيخ كمال الدين محمد بن علي الزملكاني أيضا :

لهفي على جلق ياسوء ما لقيت ... من كل علج في كفره فـن

بالظلم والرم جاء والاعد يدلهم ... فالجن بعضهم والحن والبن (٢)

وازدادت الأوضاع سوءا بعد ما اتجه بولاى أحد أمراء غازان الى قرى فلسطين مع كتائبه فقد نهبوا الأغوار وخربوا القرى المتواجدة فيها ، وقتلوا الكثير من سكانها وسبوا خلقا من أطفالها ، وعادوا بعدد كبير من الأسرى .(٣)

ولم تقتصر الأضرار على قرى دمشق أو فلسطين في سنة ٦٩٩ هـ ، أو وقت قدوم غازان بل شملت قرى غيرها جرت على أرضها المعارك العسكرية ، وأهم هذه القرى مجمع المروج التي تقع في وادي الخزندار ، وقد شهدت هذه القرية المعركة الفاصلة بين غازان وبين العساكر الاسلامية سنة ٦٩٩ هـ والتي استخدمت فيها كافة الأسلحة من الرماح ، والسيوف ، والدبابيس ، وكان جيش المغول في مئة ألف مقاتل ، ولم يستطع المسلمون فعل شيء امام كثرتهم الا استخدام قوارير النفط التي تسبب اشتعال الحرائق ، وبالنتيجة فان هذه الحرائق سوف يكون لها أكبر الأثر على مزروعات القرى الموجودة في هذا الوادي بكاملها .

---

(١) النويري : المصدر نفسه ، ج ٣١ ، ص ٣٩٥ - ابن كثير : المصدر نفسه ، ج ١٤ ، ص ٨ - ابن خلدون : العبر ، ج ٥ ، ق ٤ ، ص ٨٩٠ - المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ق ٣ ، ص ٨٩١ - عاشور : المرجع نفسه ، ص ١٥٢ - كرد علي : غوطة دمشق ، ص ١٥٧ .

(٢) - المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ق ٣ ، ص ٨٩٤ - المقفى ، ج ٧ ، ص ١٧٣ - العيني : المصدر نفسه ، ج ٤ ص ٤ .

(٣) النويري : المصدر نفسه ، ج ٣١ ، ص ٤٠٠ - ابن كثير : المصدر نفسه ، ج ١٤ ، ص ١٠ - ابن خلدون : العبر ، ج ٥ ، ق ٤ ، ص ٧٩٣ - المقريزي : المقفى ج ٧ ، ص ١٧٢ - العيني : المصدر نفسه ، ج ٤ ، ص ٤ - دهمان : المرجع نفسه ، ص ١٠٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

كذلك أتلفت الحيوانات المستخدمة في الحرب كثيرا من المزروعات التي كان يعتمد عليها الفلاحون في معيشتهم اليومية، أو بيعها في أسواق المدينة.(١)

كذلك شهدت قرية شقحب المعركة العسكرية الفاصلة بين المغول والمسلمين في بلاد الشام سنة ٧٠٢هـ/١٣٠٢م. فقرية شقحب تقع في مرج الصفر في الغرب منه، وهو سهل واسع قبلي دمشق، يبعد عنها حوالي /٢٥/كم ويقع بين قرية الكسوة وغباغب من قرى دمشق، وقد ضم بعض الخانات. يحده شمالا قريتا الطيبة وزاكية، وغربا مزرعة المازنية وشقحب، وشرقا عالقين، وجنوبا أركيس والزريقية. وقد استغرقت المعركة بين الطرفين وقتا لا بأس به، وقد رافق المعركة خراب لمحاصيل فلاحي القرى الواقعة في السهل، فالحيوانات المستخدمة في المعركة كانت تعيش على مراعي السهل. اضافة الى ما أحدث من خراب في قنى الري والأنهار في المنطقة، ناهيك عن المضايقات التي تعرض لها الفلاحون من قبل العسكر المتحارب. وكان لهذا المرج قيمة حربية باعتباره ممرا بين دمشق وفلسطين.(٢)

وكانت القريتين أوحوارين من القرى التي يقيم بها التركمان وهي على بعد مرحلتين من تدمر وكان هؤلاء فلاحون يعتمدون على زراعة الأرض وتربية الماشية، وقد تعرضوا الى هجوم مغولي كبير نهبوا على أثره الأموال والمواشي وسبوا النساء، فسارعت العساكر الى رد الهجوم بقيادة اسندمركرجي ومعه عسكر طرابلس، فأدرك المغول بناحية عرض ومعهم الغنائم فدار القتال بين الطرفين حتى تركوا الأغنام واستطاع العسكر الشامي انقاذ الأسرى من الحريم والرجال والأولاد وكانت عدتهم تقارب الستة آلاف نفس.(٣)

ولم يكتف المغول بما فعلوه في القرى القريبة من المدن بل ساروا باتجاه الجبال البعيدة، فقد قاموا بنهب قرى جبل السماق وقتل السكان، حيث أخذوا كثيرا من مواش الفلاحين من الأغنام والأبقار، وقاموا بسبي وأسر عدد كبير من سكان الجبل.(٤)

---

(١)- أبو الفدا: المصدر نفسه، ج ٤، ص ٤٢-٤٣- المقريزي: السلوك، ج ١، ق ٣، ص ٨٨٦-٨٨٧ - فهمي: تاريخ الدولة المغولية، ص ٢٠١-٢٠٢ - دهمان: المرجع نفسه، ص ٨٩-٩٠.

(٢)- المقريزي: المقفى، ج ٧، ص ١٨١- ابن تغري بردي: النجوم، ج ٨، ص ١٥٩-١٦١- دهمان: المرجع نفسه، ص ١٢٨- فهمي: المرجع نفسه، ص ٢٠٩-٢١٠.

(٣)- الحموي: البلدان، ج ٢، ص ٣١٦- المنصوري: التحفة، ص ١٦٤- ابو الفدا: المصدر نفسه، ج ٤، ص ٤٨- ابن حبيب، تذكرة، ج ٢، ص ٢٤٥-٢٤٦- المقريزي: المقفى، ج ٢، ص ١٨٧- ج ٧، ص ١٨٠- ابن تغري بردي: النجوم، ج ٨، ص ١٥٨- فهمي: المرجع نفسه، ص ٢٠٩.

(٤)- ابن أيبك الدواداري: المصدر نفسه، ص ٤٦- النويري: المصدر نفسه، ج ٣١، ص ٤١٥- العيني: المصدر نفسه، ج ٤، ص ١٣٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

هناك هرب البدو، واستقر الأمر للعامة.

وبشكل مشابه فقد نهب التركمان في شمال سورية والأناضول القرى الزراعية الصغيرة، ووسعوا ملكيهم سنة ٨٠٦هـ/١٤٠٣-١٤٠٤م لتشمل منطقة حلب الادارية، ولم تسترد حلب سيطرتها على هذه الاقاليم الهامة مثل انطاكية، سرمين، صهيون، القصير، حارم، ديار كوش حتى عام ٨١٤هـ/١٤١١-١٤١٢م.(١)

وكلفت مشاركات التركمان في الحروب الاهلية وأعمال النهب حلب كثيرا، وذلك بصرف النظر عن الهجمات المتقطعة، ومن المحتمل أن يكون البدو قد أعطوا نزعة القتال للقرويين الذين حاربوا جيرانهم، وقد كانت القرابة في القرى قرابة وحدة أهداف ومصالح، وكانت ذات حماية ذاتية بشكل غريزي، وقد كان للعديد من القرى تنظيمات شبه مستقرة ومكملة للعادات القديمة، ومبنية على الروابط القديمة مع البدو، وانتشرت الحزبية بين القرويين أيضا نتيجة للأحلاف مع البدو وعلى أسس روابط القرابة الحقيقية أو المزعومة.(٢)

٢- النزاع بين اليمنية والقيسية:

- لقد ظهرت النزاعات في الحياة الريفية أكثر من المدينة، وارتبط الصراع الداخلي المشترك وبشكل رئيسي مع البدو ونماذج من التنظيمات التي تبدو متأصلة في طريقة حياتها، وبشكل جيد بالقرابة ووحدة المصالح والاهداف في المنافسات العنيفة حول أراضي المراعي والمواشي، لكن النزاع بين القيسية واليمنية نزاع قديم ومتأصل، وقد استمر هذا النزاع في فترة البحث، واشتد أكثر عند قدوم المغول، وما رافق ذلك من اضطرابات أمنية واجتماعية جعلت السلطات عاجزة عن الحد من توسع النزاع القبلي. وقد انتشرت قيس ويمن في أنحاء بلاد الشام قاطبة، فقد استوطنت يمن منطقة حمص، وقد ضرب المثل بها فقالوا (أذل من قيس بحمص) ومعنى ذلك أن حمص كانت لليمن وليس بها من قيس الا بيت واحد، ثم وجدت آثارها بحوران ولبنان، كذلك وجدت عشيرة قيس في البقاع. وقد أدى الصراع المستمر بين هاتين العشيرتين الى خراب ودمار اكثر القرى، وقد ذكر ذلك الاسدي في القرن الثامن الهجري حيث قال:

---

(١)- ابن صصرى: المصدر نفسه، ص ١٦١- لابيدوس: المرجع نفسه، ص ٦٦-٦٧.
(٢)- لابيدوس: مدن الشام، ص ١٥٠

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

« انتشار الشرور بين القيس واليمن ووقوع الحرب والقتال فيما بينهم والفتن ، والسبب في ذلك تغيير العوايد ، من بطاين السوء ، ومن التدليس على الملوك والحكام وولاة الامور بالاغراء والتسلط على الفلاحين بالظلم ، وطلب العاجل والعسف في الحكم ، والميل مع القوى وانهاك التمرد والعصيان ، والتشرد عن الاوطان ، وتسلطت العربان والعشران على الاراضي والبلدان ، وتراكمت الاهواء ، ووقع التحاسد والاغراء الموجبان لسفك الدماء ، فنهبت الاموال ، وقتلت الرجال ، وتخلت المشائر ، وعظمت الفتن بين القبائل ، وصار اهل الزرع والرفع من الفلاحين ، على صهوات الخيول مارقين ، ولم يكونوا نادمين على أفعالهم الى أن أوجب ذلك الخراب في كثير من رستاق الشام والقرى والبلدان صارت دمناً ليس فيها انسان وفي ذلك مايشهد به الديوان من أسماء القرى التي كانت مزارع ، وتسمى بالخراب الداثر في هذا الزمان والموجب لهذا جميعه : سوء التدبير مع نقص القوة والامكان ، ونقص سنة العدل وسوء التصريف ، والأخذ في جانب التقصير والنقصان الى أن صار الحكم لمقدمي الفلاحين ورؤساء العشران ، وصار الاعيان منهم يظهرون الطاعة للسلطان ويبطنون المخالفة والعصيان ويستخرجون الأموال بالظلم والطغيان ، ويرضون ببعضها من له في الدولة كلام وامكان ، ويحطونه من الهدايا والأموال يرشون بها الاعوان ، فيسعى لهم ، ويلبسون التشاريف الملوكية بين يدى الملك والأمير والسلطان ، فيصير كل واحد منهم في بلده واقليمه اذا عاد اليه ذا قوة وامكان ، وسطوة وأعوان ، وخيول وميدان ، واقطاعات وتمم وديوان ، وقويت بذلك نفسه وازدرى بقول فلان وفلان ».(١)

لقد انقسمت قرى حوران الى زمر وأحزاب جددت وفقاً للنزاعات القبلية القديمة قيسية ويمنية وقد نتج عن ذلك قتل للسكان ودمار للقرى وخرابها ، ففي سنة ٦٧٨هـ/ ١٢٧٩م وقع الخلف بين العشير وقامت الحرب بينهم على قدم وساق (٢)

(١) -الأسدى (محمد بن خليل) : التيسير والاعتبار والتحرير والاختبار فيما يجب من حسن التدبير والتصرف والاختيار ، مصر ، دار الفكر العربي ط١ ، ١٩٦٧م/١٣٨٧هـ ص ٩١-٩٢- -كرد علي : خطط ، ج٢ ، ص ١٥٧ .
(٢) -ابن كثير : المصدر نفسه ، ج ١٣ ، ص ٢٨٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

كما نتج عن القتال الخطير بينهم سنة ٧٠٩هـ/١٣٠٩م مقتل ألف شخص بالقرب من السويداء، وقد انهزمت يمن من قيس حتى دخل الكثير منهم الى دمشق في أسوأ حال وأضعفه، وهربت قيس خوفا من الدولة، وبقيت القرى خالية، وتركت المنطقة مهجورة.(١)

وقد كان القتال فيما بينهم يؤدي الى أن يحجب عنهم السلطان الأموال، فيثورون ويقطعون الطرقات على المسافرين وهذا ما حصل سنة ٧٥٠هـ/١٣٤٩م حيث جرد اليهم النائب أرغون شاه ابن صبح مقدم الجبلية.(٢) وقد ثارت الحوارنة من قيس ويمن سنة ٧٦٠هـ/١٣٥٨م، وأخذوا عندهم بقرية حوران أحد المشير واسمه رويمن وهو المعروف بعمر الدنيط، وهاجموا القرى الأخرى، فتصدى لهم والي الولاة شنكل منكل، وطلب منهم الدنيط فلم يعطوه اياه، عندئذ طلب النجدة من نائب السلطنة فأمده بجيش كبير حاصر القرية الى أن استسلم الحوارنة وقتل منهم فوق المائة، وأسر منهم والي الولاة نحو ستين رجلا، وأمر بقطع رؤوس القتلى وتعليقها في اعناق الأسرى، ونهبت بيوت الفلاحين كلهم وسلمت الى مماليك نائب السلطنة، ولم يفقد منها ما يساوي ثلاثمائة درهم وكر راجعا الى بصرى وأخذ معه الأسرى حيث حبس بعضهم، ووسط آخرين، وعلق الرؤوس على أخشاب قلعة بصرى.(٣)

وقد امتد النزاع القيسي اليمني الى ناحية عجلون، ولم يعد يقتصر على ناحية حوران، وذلك سنة ٧٦٢هـ/١٣٦٠م حيث دمرت قرية عين حتيا التي تقع الى الشرق من عجلون وخربت، وقطعت أشجارها بالكلية.(٤)

وقد استغل هؤلاء ظروف البلاد العسكرية حيث الحملات المغولية المتكررة على البلاد، وقاموا اثر حملة غازان على المنطقة بتشليح العسكر، ونشر الرعب والفساد في القرى، فطلب مقدميهم من قبل الحكومة، وطلب منهم جميع ما أخذه هؤلاء المفسدين من أموال الأجناد، وألزموا باحضار ما أخذ للعسكر وأهل البلاد في توجههم الى مصر وقت الجفلة.(٥)

لقد سمح ضعف الدولة للعداء الكامن بالظهور فيما بعد في بداية القرن السادس عشر الميلادي، وبدأت نزاعات القيسية واليمانية من جديد في غوطة دمشق، وهاجمت قرية داريا العديد من القرى الأخرى.(٦)

---

(١)- الذهبي: دول، ج٢، ص٢١٥- ذيول العبر، ص٤٦- ابن الوردي: تتمة المختصر، ج٢، ص٣٦٩- ابن كثير: المصدر نفسه، ج١٤، ص٥٠- لابيدوس: المرجع نفسه، ص١٥٠.
(٢)- المقريزي: السلوك، ج٢، ق٣، ص٧٩٨.
(٣)- ابن كثير: المصدر نفسه، ج١٤، ص٢٨٦.
(٤)- ابن كثير: المصدر نفسه، ج١٤، ص٢٨٦.
(٥)- المقريزي: المصدر نفسه، ج١، ق٣، ص٩٠٢- العيني: المصدر نفسه، ج٤، ص٨١.
(٦)- لابيدوس: المرجع نفسه، ص١٤٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٣-الهجرة من الريف الى المدن :

- تنوعت الهجرة أثناء حصول الهجوم المغولي على بلاد الشام من الريف الى المدن وكانت اما هجرة قسرية من قبل السلطة ،أو من قبل الغزاة ،أو بشكل طوعي خوفا على حياتهم ، فالهجرة كانت عكسية من الأرياف للمدن ،ظنا من أهل القرى أن الأمان موجود في المدن ،لذلك نرى أن قرى بكاملها هاجرت بعدد مارها لذلك اضطرت السلطة جاهدة في بعض الاحيان اعمارها بالسكان وإقامة المنشآت العمرانية من جديد .(١)

ولم تسلم قرى الشام الشمالية والجنوبية من الهجرة ،وقد تضافرت العوامل الطبيعية والسياسية في زيادة الهجرة ،وقد تجلت العوامل الطبيعية في نقص المياه والجفاف. فعندما دخل الأمير المغولي كوكالكي وصل الى قريب حمص ونهبها وسبى وقتل خلقا كثيرا من اهلها ، ثم عاد الى حلب فلجأ اليها اهل القرى فأخرجهم القائد المغولي .مع أهل المدن وقتلوهم عن آخرهم.(٢) وعندما عسكر المغول في البيرة أغاروا على قلعة كركر سنة ٦٦٧هـ/١٢٦٨م وقتلوا رجالها وأخرجوا فلاحيها كرها الى بلاد الشام.(٣)

وعندما تولى غازان/في الحكم بلاد المغول وجه ثلاث حملات عسكرية ولمرات متتالية ،ففي المرة الاولى سنة ٦٩٩هـ/١٢٩٩م أخربت جيوشه غوطة دمشق ،كما قتلوا الكثير من أهل القرى ، وفي المرة الثانية سمع أهل الريف بمسير عسكره وعبورهم الفرات ،فهاجروا الى المدن وحذر أهل المدينة أن لا يخرج أحد الى الجبل أو الغوطة ،ولما تأكد الخبر برجوع غازان الى المشرق دخل نائب دمشق قبجق مع مجموعة من الامراء ونزلوا تحت مأذنة فيروز بدار بهادر رأس نوبة ودار المطروحي وامتلأت تلك الناحية بهم . كما أصدر امرا بعودة أهل القرى الى اماكنهم.(٤)

كما هرب أهل القرى سنة ٧٠٠هـ/١٣٠٠م خوفا من غازان عندما علموا بمجيئه ،غير أن ذلك لم يحدث ولم يأت الى المنطقة.(٥)

---

(١)-الشجاعي : تاريخ الناصر محمد بن قلاوون ،ص١٢٣ .

(٢)-ابن العبرى : المصدر نفسه ،ص٤٩٢-كرد علي :المرجع نفسه ،ج٣ ،ص١١١ .

(٣)-ابن عبدالظاهر : الروض ،ص٣٥١ .

(٤)-النويرى :المصدر نفسه ،ج٣١ ،ص٣٩٣-٣٩٩-ابن ايبك الدواداري :الدر الفاخر ص٣٤-المقريزي : المصدر نفسه ،ج١ ،ق٣ ،ص٨٨٥-٨٨٦-المقفى ،ج٧ ،ص١٦٨-ابن تغرى بردى النجوم ،ج٨ ،ص١٢٧-عاشور :العلاقات السياسية ،ص١٥٤ .

(٥)-المنصوري :التحفة ،ص١٠٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وتواردالى مسامع اهل القرى قبل وقعة شقحب سنة ٧٠٢هـ/١٣٠٢م باتجاه المغول الى البلاد فهاجر الفلاحون من قراهم وتركوها خالية، ووصل الغزاة الى قارة وقيل الى القطيفة فانزعج الناس كثيرا ولم يبق حول القرى والحواضر أحد، وقلقت مدينة دمشق الكثير من هؤلاء المهاجرين الذين ازدحموا بالقلعة، وبالمنازل والطرقات، غيران المغول وصلوا الى المرجه واتجهوا الى الغوطة، ثم عادوا عن البلد ولم يدخلوها. (١)

ولم يكن تيمورلنك بأحسن من أسلافه في سياسته التوسعية في الشام، فقد ارتكب المجازر بأهل القرى كما ارتكبها بأهل المدن، وقد خرب الريف بكامله، من زراعاته، ومواشيه، وسكانه الذين اضطروا في كل الاحيان وفيمن بعضها الى ترك قراهم والالتجاء الى المدن فلما قدم للمنطقة واستولى على عينتاب هرب الفلاحون امامه، كما هرب معهم اهل البلاد الحلبية. (٢)

كما خاف اهل ريف دمشق وهاجروا باتجاه المدينة عند قدومه للشام، فامتلأت دمشق بالمهاجرين، وكان تيمورلنك قد وصل الى الصنمين، ولا بدأن تكون جميع هذه القرى قد تأثرت من قبلهم، وقد أقدموا على تهجير الفلاحين من قراهم مثل حارم، شيزر، وكركنوح. (٣)
من الملاحظ أن القرى قد اتخذت من قبل اهل المدن كمحطة لاستقرارهم واستراحتهم، ربما كونها أكثر بعدا عن الجيوش الغازية، وصعوبة وصول الغزاة اليها احيانا اذا كانت جبلية أو طريقها وعرة، والغزاة يركزون على المدن أكثر من الارياف حيث النفائس وحواصل الدولة، وأموال التجار، والمنشآت العمرانية، بينما لا يستفيد الغزاة من القرى أي شيء لذلك نلحظ هجرات علماء الى القرى البعيدة خوفا من الغزاة، فالقاضي جمال الدين المالكي (ت ٨٠٥هـ) الذي ولي حماه وحلب مرارا هاجر عقب فتنة تيمور الى احدى قرى جبل سمعان، حيث كانت ابنته قد أسرت بأيديهم وظل قابعا هناك حتى انزاح المغول عن البلاد، فعاد الى القضاء وباشر ولايته. (٤)

---

(١) - الذهبي : دول الاسلام، ج ٢، ص ٢٠٨ - ابن كثير : المصدر نفسه، ج ١٤، ص ٢٤ - دهمان : ولاة دمشق، ص ١٣٧ .

(٢) - السخاوي : الضوء اللامع، ج ٣، ص ٤٧ - الشوكاني : البدر الطالع، ج ١، ص ١٧٥ - شهاب : تيمورلنك، ص ٢٨٤ .

(٣) - المقريزي : المصدر نفسه، ج ٣، ق ٣، ص ١٠٤٠ - ابن تغرى بردى : النجوم، ج ٢، ص ٢٣٨ - الصيرفي : نزهة النفوس، ج ٢، ص ٧٤ - ٩٣ - ابن اياس، ج ١، ق ٢، ص ٦٠٥ - كرد علي : المرجع نفسه، ج ٢، ص ١٧٠ - العليمي : المرجع نفسه، ص ١٢٥ .

(٤) - ابن خطيب الناصرية : المصدر نفسه، ج ٢، ورقة ٢٤٣ - العسقلاني : انباء، ج ٥، ص ١٢٢ - السخاوي : الضوء، ج ١٠، ص ١٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولم تكن العوامل السياسية هي السبب الوحيد لهجرة اهل الارياف، بل ساهمت في ذلك العوامل الطبيعية التي سببت في دخول عدد كبير من الفلاحين بأبقارهم وأغنامهم وجمالهم وحريمهم وأولادهم الى المناطق الشمالية سنة ٧٩٧هـ/١٣٩٤م حيث قل المطر عندهم فتفرقوا في البلاد.(١)

لقد كان للجهرة آثارها السلبية على وضع الفلاحين والزراعة، فقد أدت الى اهمال الأراضي والاستثمارات الزراعية، وبالتالي نقص المؤن التي تنتجها هذه الأراضي، اضافة الى اهمال القرى. أما بالنسبة الى الفلاحين فقد تسلط الامراء عليهم وقاموا بتسخيرهم في أعمالهم ومزارعهم، وقد تصدى الأمير تنكز لهذه المحاولات. ولم يقتصر منعه على مزاولة الأعمال، بل منعهم من الاجتماع معهم في الفرجة والمنتزهات، غير أن تنكز حلل على نفسه ما حرمه على غيره، فقد سخر الفلاحين في اواخر ايامه.

والظاهر أن تسخير اهل القرى كانت عادة متبعة في الشام فقد استخدموا لذلك سنة ٧٤٥هـ/١٣٤٤م.(٢)

نستطيع القول ان اكثر القرى في الشام قد تأثرت بالغزو، فالقرية التي لم تدمر نهائيا وتزال معالمها خربت، والتي لم تخرب هاجر اهلها وتركوها، وقد انعكس هذا سلبا على الحياة الاقتصادية، فالمجتمع الشامي مجتمع زراعي يعتمد على الأرض والفلاح وانتاج تلك الارض، فهذا يعني ان الفلاح هو أساس البنيان الاقتصادي، والزراعة قاعدة لهذا البنيان، ولم يكن المجتمع صناعيا بل اعتبر زراعيا على الرغم من وجود الكثير من الصناعات والحرف التي أثر الغزو بدوره عليها، وقد فقدت بعض تلك الحرف نتيجة للخراب والدمار والأسر الذى قام به تيمور.

٤- معاقبة اهل الجبال :

-لقد قام بعض اهل الارياف بممارسة دور سلبي على الصعيد العسكري، والاقتصادي، والسياسي فقد قام أهل الجبال الجرد والكسروان بالفساد في المنطقة، فسقاموا بالتشليح،

---

(١) -ابن صصرى : المصدر نفسه، ص١٦٥.

(٢)-المقريزى : السلوك، ج٢، ق٢، ص٥١١-٥١٢-ج٢، ق٣، ص٦٥٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والنهب ، والسلب ، والاعتداء على اهل المدن واستغلال الظروف السيئة التي كانت تعيشها البلاد خاصة عند قدوم الحملات العسكرية المغولية . وقد نجح المماليك في تجنيد السكان العامة في حربهم ضد هؤلاء المتمردين وذلك بالرغم من غياب الطموح السياسي لدى العامة من الشعب.

وقلما استلم سلطان مملوكي الحكم الا وأمر بخروج فرق عسكرية لقتالهم وتأديبهم وذلك حتى يستطيع ضبط الأمن الداخلي للمنطقة ،فثوراتهم وعصيانهم وتمردهم يؤدي الى انعدام الاستقرار السياسي المنعكس بدوره على الحياة الاجتماعية والاقتصادية.

وكان المنصور قلاوون من السلاطين الذين تولوا معاقبة الجرديين وذلك خوفا من انضمامهم الى جانب العدو المغولي عند قدومه للبلاد فأعطى أوامره للجند سنة ٦٨٦هـ/١٢٦٩م بقتالهم ،ورغبهم بالقتال حيث أصدر أمرا بأنه من نهب امرأة كانت له جارية ،أوصبي كان له مملوكا ، ومن أحضر رأسا فله دينار ،وكان الذى تولى مهمة استئصال شأفتهم الامير سنقر الأشقر حيث سبى ذراريهم ،وأنزل بهم القتل والفتك.(١)

غير أن اهل الجبال سارعوا الى نجدة الصليبيين ،فقدموا لبوهيمند السابع أمير طرابلس سنة ٦٨٨هـ/١٢٨٩م يد المساعدة وذلك حتى يخفف عنهم الصليبيون عبء الحملات المجردة ضدهم ،فأغضب ذلك المنصور قلاوون ،فجرد اليهم حملة أخرى في هذه السنة استطاعت كسر شوكتهم.(٢)

وعندما استولى الأشرف خليل على عكا وغيرها من بقايا الجيوب الصليبية لجأ بعض سكان هذه الجيوب الى جبال كسروان ،وأخذوا يحرضون أهل الجبال ضد سلطنة المماليك ،اضافة الى أنهم كانوا يقطعون الطرقات على التجار والمسافرين ،وكانوا دائما عصاة على نائب الشام وغيره ،فأراد الشجاعي النائب المسير اليهم ومقاتلتهم لكن أمراء الشام منعوه لكثرتهم وقوتهم ،لذلك بادر الأشرف خليل بارسال حملة سنة ٦٩١هـ/١٢٩١م بقيادة بدر الدين بيدرا ،وكان بيدرا قد تكونت لديه معلومات حول قوة الجبليين ومنعتهم فكره الذهاب اليهم ولكن الأشرف أجبره على الخروج مع ثلاثة آلاف فارس

---

(١)- ابن يحيى : تاريخ بيروت ،ص ٥٣- لابيدوس: المرجع نفسه ،ص ٢٥٢ .

(٢)- عاشور: مصر والشام ،ص ٢١٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومجموعة من الأمراء تتكون من شمس الدين سنقر الأشقر، الأمير قرا سنقر المنصور، بدر الدين بكتوت الأتابكي، ولما وصل بيدرا الى هناك عزم على استئصال شأفتهم، لكنه حضر من أثنى عزمه وكسر حدته، فحصل فتور منه في مقابلتهم، عندئذ طمع الجبليين بالعسكر الشامي وكمنوا لهم في المضايق والأوعار وقتلوا وسلبوا الكثير منهم، ولما تحقق هؤلاء بأن العسكر بقيادة النائب وليس السلطان خافوا فأرسلوا من يتوسط لهم في اصلاح أمرهم مع السلطان خشية على أنفسهم، فأشار الامراء على بيدرا باصلاح الأمور، ثم استحلف الجبلية على أن لا يؤذيهم فاتفق الحال بينهم فأرسلوا له الهدايا، وأفرج عن جماعة منهم كانوا اعتقلوا بقلعة دمشق، وكتب عليهم بمال يحملونه كل سنة، واستحلفهم للسلطان، وقد نسب لبيدرا نتيجة هذا الموقف أنه ارتشى وتبرطل منهم، ولولا خذلانه لما طمع هؤلاء بهم.(١)

وخلال سلطنة الناصر محمد بن قلاوون الثانية سار آقوش الأفرم نائب دمشق ومعه ابن تيمية وجماعة من المتطوعة والحوارنة من دمشق الى كسروان لقتال أهلها عقوبة لهم عن موقفهم أثناء هجوم غازان للشام وقد تحصن الكسروانيون بجبلهم المنيع، وقاموا بأذية الهاربين من وجه المغول سنة ٦٩٩هـ/١٢٩٩م، فقد أسروا الكثير منهم على سبيل المثال حسن بن انوشروان الرازي الحنفي أبو الفضائل حسام الدين، ويقال انه بيع للفرنج فتعاطى الطب بقبرص ثم شاع أنه بقبرص حي وأنه يطلب ما يفتك به من الأسر، وقد قيل بأن هذه القضية لا أساس لها من الصحة(٢) ومن المحتمل ان يكون المغول قد أجروا اتصالات سرية مع اهل الجبال تم بموجبها تحديد مهمتهم بالنسبة للجيش المملوكي لقاء مبالغ من المال والسلاح وكان أكثر أهل الجبال أذى أهل كسروان وجزين، فقد بالغ هؤلاء في أذية العسكر، فأمسكوا بعضهم وباعوهم للفرنج، اضافة الى سلبهم ما كانوا يحملونه، فقد كانوا يأخذون الجندي قبضا بالكف ويأخذون ما معه ويرسلونه عريانا اذا أحسنوا اليهم وربما يقتلونه

---

(١) - النويري: المصدر نفسه، ج ٣١، ص ٢٤٠ - ٢٤١ - ابن يحيى: المصدر نفسه، ص ٢٤ - ٢٥ - المقريزي: المقفى، ج ٢، ص ٥٦٣ - العيني: المصدر نفسه، ج ٣، ص ١٢٨ - ١٢٩.

(٢) - الصفدي: تحفة، ج ٣، ص ١١ - ١٢ - ابن كثير: المصدر نفسه، ج ١٤، ص ١٣ - ابن خطيب الناصرية: الدر المنتخب، ج ١، ورقة ٣٧١ - المقريزي: المقفى، ج ١، ص ٢٣٧ - العسقلاني: الدرر، ج ٢، ص ١٠ - العيني: المصدر نفسه، ج ٤، ص ٨٩ - النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس، ج ١، ص ٥١٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أو يرسلون عليه حجرا فيهلك هو وفرسه ، ومما سارع في قتالهم مرور بدالدين أميرسلاح بالمنطقة قادما في مواجهة المغول ، فعندما سمعوا أرادوا الايقاع بجيشه فتصدى لهم بعسكره وظل يناوشهم حتى قدم غزة بعدما تخطف أهل الجبال الكثيرمن أثقاله ، كذلك نهب أهل الجبال جيش سيف الدين الطباخي نائب حلب أثناء ملاقاته المغول في الاغوار ، فعندما سلك جيشه طريق الساحل ومروا من المناطق الجبلية استفرد الجرديون بهم وفتكوا بهم ، ونهبوا مابقي معهم من القماش والعدة .

عندئذ رأت السلطة أنه لابد من كبح نفوذهم ومحاربتهم ففوضت هذه المهمه الى نائب طرابلس الذى اتفق مع جميع نواب الشام على خطة محكمة في القضاء عليهم ، وأن تكون المواظبة على الزحف ستة أيام ، ولما رأى أهل الجبال هذه القوة وقع الرعب في قلوبهم ، وانهزموا فقتل الجيش منهم جماعة كثيرة ، ثم حضرت مشايخهم وأكابرهم والتزموا أن يحضروا جميع ماأخذوه من العسكر ولا يخلون عندهم درهما ولا يخفونه ، وظل العسكر هناك الى أن أحضروا جميع ماأخذه الجرديون من القماش والسلاح والعدد من السيوف والرماح ، ثم قرروا عليهم مبلغا من المال تذكر بعض المصادر أنه يبلغ مائة ألف درهم والبعض الآخر مائتي ألف درهم ، وأخذوا جماعة من مشايخهم وأكابرهم رهائن معهم الى دمشق الى أن يحضروا بالمال الذى قرر عليهم ، فيكونوا بذلك قد دخلوا تحت الطاعة ، والتزموا بما فرض عليهم وأقطعت أراضيهم وديارهم . (١)

وردا على هذه الحملة وما لاقوه من عسكر دمشق قام أهل الجبال سنة ٧٠٢هـ/١٣٠٢م بمحالفة الفرنج وكانوا اعوانا لهم في المنطقة مستغلين اضطراب الظروف السياسية والامنية من جراء المعارك مع العدو المغولي ، وقد حاولت الحكومة جاهدة منع هذا الاجتماع بين الفرنج والجرديين ، وجردت العساكر الشامية لقتالهم ، لكن هؤلاء تصدوا للجيش وقتلوا اكثره ، وغنموا أمتعة الجيش وسلاحه وأخذوا أربعة الاف رأس من خيلهم ،

---

(١) - ابن شاكر: فوات الوفيات ، ج١ ، ص٢٣ - المنصوري : التحفة ، ص١٧٨-١٧٨ - النويري : المصدر نفسه ، ج٣١ ، ص٧٠٤٠ - ابن ايبك الدواداري : الدر الفاخر ، ص٠٤ - الذهبي : دول ، ج٢ ، ص٢١١ - ابن كثير : المصدر نفسه ، ج١٤ ، ص١٢ - ابن يحيى : المصدر نفسه ، ص٧٧-٧٨ - المقريزي : السلوك ، ج١ ، ق٣ ، ص٩٠٢ - المقفى : ج١ ، ص٢٣٧ - العيني : المصدر نفسه ، ج٤ ، ص٢٤ - ٢٦ - كرد علي : خطط ، ج٢ ، ص١٢٦-١٢٧ - دهمان : ولاة ، ص٩١ - ١١٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقد انضم الاكراد لنجدة الجرديين ،بينما انضم أمراء الغرب التنوخيون الى جيش دمشق لنجدته ،فعاد الجرديون وغزوا عين صوفر وشليخ وعين زيتونة وغيرها (١)

كانت نتيجة معاونة أمراء التنوخيين لجيش دمشق ،أن ثارت حفيظة الكسروانيين وتأصلت العداوة واستفحلت بين الفريقين ،الامر الذى جعل الحكومة تتدخل للصلح بينهم وتم ذلك سنة ٧٠٥هـ/ ١٣٠٥م حيث أرسل نائب دمشق آقوش الأفرم الى الجبليين والكسروانيين الشريف زين الدين عدنان يأمرهم أن يصلحوا شؤونهم مع التنوخية ،وينضموا الى طاعتهم ،وأرسل ايضا لهذه المهمة الشيخ تقي الدين بن تيمية صحبة بهاء الدين قراقوش ، ولم يحصل اتفاق بين الطرفين ،فأفتى العلماء بنهب ديارهم بسبب استمرارهم بالعصيان ،ورفضهم الدخول في الطاعة ،فتوجه آقوش الأفرم من دمشق بجموع كثيرة تبلغ خمسين ألفا ،وقد اشترك معه في الحملة أمراء الغرب ومنهم ناهض الدين بحتر وأقاربه ،وقتل منهم في المعركة الأمير نجم الدين محمود وأخيه شهاب الدين احمد ، وساندها يضا سيف الدين اسندمر نائب طرابلس ،ونائب صفد ،وأراد الأفرم أن ينفي عنه تهمة مباطنة الجرديين فخربت الحملة أراضيهم ،وقطعت كرومهم ،وأخربت بيوتهم وقتلت الكثيرمنهم ،وتمزقوا في البلاد ،فاستخدم اسندمر جماعة منهم بطرابلس بجامكية ، وأقطع بعضهم أخبازا من حلقة طرابلس ،واختفى بعضهم في البلاد واضمحل امرهم.(٢)

ولم تذكر المصادر بعد هذا التاريخ عن حملات ضد الجبل ~~جرد~~ جردت مما يدل على أنهم هدأوا حتى قدوم تيمور للمنطقة ،فقد أوردت المصادر أنه لما انسحب السلطان فرج بن برقوق من المعركة ،وعاد الى مصر عاد العسكرالها ربين وراءه ،فوصل بعضهم الى البقاع ،غيران اهل الجبال نفردوا بهم وشلحوهم ،كما قتلوا الكثيرمنهم ،وقد أخذوا خيلهم وسلاحهم وباعوها بأرخص الاثمان ،وقد جرى عليهم من أهل الجبال مالم يفعله الغزاة (٣) أنفسهم.

---

(١)- كرد علي : المرجع نفسه ،ص ١٣٧ .

(٢)- ابن شاكر: فوات الوفيات ،ج ١ ،ص١٧٣-١ المنصورى :التحفة ،ص١٧٨-١ ابوالفدا :المصدر نفسه ،ج ٤،ص٢ ٥- الذهبي :ذيول العبر ،ص٣٠ - دول ،ج ٢ ،ص ٢١١-ابن الوردى :تتمة المختصر،ج ٢ ،ص٣٦٢- ابن كثير :المصدرنفسه ،ج ١٤ ،ص٣٥- الصفدى :الوافي ،ج ٤ ،ص٣٦٥ -ابن حبيب: تذكرة النبيه ،ج ١ ،ص٢٦٨- ابن يحيى :المصدرنفسه ،ص٢٨-٢٩- ٩٥-٩٦ - المقريزى :المصدرنفسه ،ج ٢ ،ق ١ ،ص١٤- البقاعي ،ج ١ ،ص٤٦٠- العيني :المصدرنفسه ،ج ٤ ، ص ٣٨٤- كرد علي :المرجع نفسه ،ج ٢ ،ص١٣٩- ١٤٠.

(٣)- ابن يحيى :المصدرنفسه ،ص٢١٨- ٢١٩- العسقلاني :انباء ،ج ٤ ،ص٢٠٠- الصيرفي : المصدر نفسه ، ص ٨٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ب - الآثار على الزراعة :

- تتركز المقومات الاقتصادية على ثلاثة قطاعات رئيسية هي ، القطاع الزراعي ، الصناعي ، التجاري فالقطاع الزراعي كان شديد الالتصاق بالجيش، لذلك نتج عنه الاقطاع ، فقد أوجدت الحكومة على الأسس التي تلائم وضع الحكام العسكريين ، ولا بد للانتاج الزراعي في هذه الفترة أن يتأثر بحالة عدم الاستقرار التي رافقت مسيرة المجتمع العربي الشامي .

ان الحياة الاقتصادية لا تدرس بمعزل عن الحياة الاجتماعية ، فعلاقات الناس فيما بينهم تشكل العصب الاجتماعي والاقتصادي والسياسي في كل مجتمع.(١)

لقد سيطرت حكومة المماليك في هذه الفترة ، وكانت بيروقراطية حربية بنيت على الاقطاع الحربي ، وكانت بعيدة كل البعد عن الشعب الذي عانى الجوع ، وفقدان الأمن ، فلم يكن هناك من رابطة بين هذه الحكومة والشعب الا الضرائب وخاصة من العاملين في الحقل الزراعي ، لارتباطهم بسادتهم الاقطاعيين ، بالاضافة الى الصلة التي كان يوجدها بعض المتعممين الذين طالما بذلوا جهودهم لدى الحكام لتخفيف مآسي الناس .(٢)

لقد أدى الغزو المغولي الى تناقص مساحة الاراضي المزروعة في القرى التي أخضعوها كما ساهم المغول بعد توقف الحملات العسكرية الى انتشار النظام الاقطاعي ، فقد أقدم المغول على منح مساحات واسعة من الأراضي الزراعية لاقربائهم وغيرهم من الأمراء المغول ، وكان هؤلاء يمارسون في هذه الأراضي سلطات اقطاعية ، ويتقاضون رواتبهم من دخلها ويورثونها لأبنائهم .(٣)

كما تنوعت المزروعات في بلاد الشام ، فكانت تحوي على الكثير من الأشجار المثمرة والفواكه والنباتات البرية والبحرية وغيرها . ولا بد أنه اثناء الغزو المغولي للمنطقة ان تكون قد تعرضت هذه المزروعات الى التلف أثناء تمركز الجيوش في القرى أونهبها أو أثناء مرورها بها ، ورغم أن المصادر لم تذكر بشكل مفصل هذه الآثار على المزروعات وانما ذكرت خراب القرى واتلاف المزروعات. غير أنه يمكن القول بأن الفلاحين في بلاد الشام تابعوا أعمالهم الزراعية وقاموا بزراعة ما تشتهر به المناطق جميعها .

---

(١) - ضوط : المرجع نفسه ، ص ٨٤ .
(٢) - ضوط : المرجع نفسه ، ص ٨٤ - ٨٥ .
(٣) - شهاب : الدولة الايلخانية ، ص ٢٥٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

١- أهم المزروعات في بلاد الشام وأثر الغزو المغولي عليها :

- تقسم الزراعة في بلاد الشام الى قسمين مروية ، وغير مروية ، وكانت غوطة دمشق تقوم بها الزراعات المروية ، وقد استخدم الدمشقيون وسائل للري على درجة عالية من التقدم ، فلم يكتفوا بتوزيع مياه بردى الى عدة أنهار تروي مختلف مناطق دمشق وغوطتها ، بل أبدعوا طرائق جديدة لرفع المياه حتى يمكن ارواء أي منطقة بالراح .

وكانت الزراعة في بلاد الشام غالبا صيفية وشتوية ، وقليل منها خريفي ، وتصدرت الزراعة الشتوية المرتبة الأولى بكونها أنتجت مختلف الحبوب (١)

ولكثرة جمال دمشق بزراعاتها وكثرة خضارها وصفها العمري حيث قال :

« بها البساتين الانيقة ، فيها البرك العميقة والجواسق العلية ، والبحيرات الممتدة ، وتحف بها الغراس والنصوب المطرزة بالسر والطنف البرود ، والحور المشوق القدود ، والرياحين المتأرجحة الطيب ، والفواكه الجنية والثمرات الشهية ، والبدائع التي تغنيها شهرتها عن الوصف » (٢)

وينبت على جانبي بردى الشيح والقيصوم . كذلك اشتهرت بلاد الشام عامة بأشجار التين والعنب والسفرجل والكمثرى ، والتفاح ، والاجاص ، والقراصيا والتوت والقرصاد ، والمشمش والزعرور والخوخ .

كما كان هناك فواكه خريفية مثل الجوز ، اللوز ، الفستق ، البندق ، الليمون ، الاترج ، النارنج ، الكباد ، الموز ، قصب السكر ، البطيخ الاصفر ، الخيار ، القثاء ، اليقطين ، الجزر ، القنبيط ، الهليون ، الباذنجان ، الملوخية وغير ذلك من أنواع الخضراوات المأكولة ، اضافة الى الزيتون الكثير الذي اشتهر بزراعته الجبل الاقرع والذي يصدر الى كثير من البلاد ، كما اشتهرت الشام بإنتاج القمح والشعير ، أما حلب فقد اشتهرت بالبطيخ الاصفر القليل أمثاله في الشام . (٣)

ان معظم هذه المزروعات تعرضت للتلف أثناء مرور جيوش الغزاة المغول على أراضيها ، أو أثناء حصول الغارات من قبل الأعداء ، ناهيك عن المعارك العسكرية التي أدت الى اتلاف معظمها والى توقف تصديره لخارج البلاد .

---

(١) - العمري : مسالك الأبصار في ممالك الأمصار ، ممالك مصر والشام ، والحجاز واليمن ، القاهرة ، المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية - ص ٢٥ .

(٢) - العمري : المصدر نفسه ، ص ١١٣ .

(٣) - ابن شيخ الربوة : المصدر نفسه ، ص ٨٥ - العمري : المصدر نفسه ، ص ٢٥-٢٦- ١١٦ - المقريزي : المصدر نفسه ج ٢ ، ق ٣ ، ص ٧٠٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فمعظم قرى الشام تعرضت للهجوم والغارات عليها مما أدى الى تضرر زراعتها ، والمؤكد أنه أثناء حملات هولاكو- غازان- تيمورلنك ، أغار جنودهم على أعمال حلب وأتلفوا معظم مناطقها الزراعية ، فتلفت غالب مزروعاتها ، فمثلا سرمين ، معرة النعمان كانت تشتهر بالزيتون والتين ، حارم بالرمان ، أن تكون قد تأثرت معظمها . اضافة الى تأثر مزروعات الثغور كالشغروبكاس التي اشتهرت بالفواكه ، والمرقب بقصب السكر والحمضيات ، وشيزر بالرمان ، ومنبج بالتوت ، ودركوش بالعنب ، والصبيبة بالأرز الذى يجلب منها الى دمشق وغيرها .(١)

وكانت مزروعات الجزيرة أكثر تعرضا للخراب لأنها كانت دائما الخط الأول للهجوم المغولي على المنطقة ، وقد اشتهرت بانتاج الرمان ، الكمثرى ، الخوخ ، السفرجل في سروج واشتهرت حيزان بشجر البندق ، سنجار بالنخيل ، وليس في الجزيرة بلد فيه نخل غير سنجار .(٢)

ومن المرجح بأن الزراعات التي اشتهرت في جبل لبنان قد تعرضت للتلف نتيجة مرور الجيوش المملوكية عبر هذه الجبال سواء عند الذهاب لملاقاة العدو ، أو عند عودتهم الى مصر ، أو عند قيام السلطات المملوكية بتجريد الحملات العسكرية ضد سكان الجبال . وأهم الزراعات الموجودة في الجبال الزيتون ، النباتات البرية الكثيرة مثل الريباس ، البرباريس ، الكثيراء ، الغافيا وهو عود الصليب والقيسة والبقس والقيقب الذى يعملون منه المراسل والملاعق ، وشجر المحمودة والاشتوان والزراوند والحماما التي لا توجد الا في اقليم دمشق بجبل لبنان وهو معلق في شقيق عال لايقدروا على جنيه الا أنه يدلوا جانبه بحبال من رأس جبل عال كما يدلى الدلو في البئر وهي لأجل الترياق الفاروق والراوندان واللوز المر والحلو والابهل والقراصيا والزيزفون . أما الفواكه فهي كثيرة جدا في المنطقة .(٣)

كما تعرضت الزراعات في المناطق الساحلية لاسيما المحيطة بطرابلس بالمؤثرات السياسية التي سادت المنطقة والتي ارتبطت بالمغول ، فمن المرجح أن جنود غازان قد وصلوا الى تلك المناطق من أجل جمع الأموال ، أو أنهم أغاروا على أراضيها بعد رحيل غازان وبقائهم في المنطقة . وما انطبق على غزوة غازان ينطبق على غزوة تيمورلنك أيضا .

---

(١)- أبو الفداء : تقويم ، ص ٢٣١- ٢٥٥- ٢٥٩- ٢٦١- ٢٦٣- ٢٧١- ابن بطوطة : الرحلة ، ص ٦٧- القلقشندى : المصدر نفسه ، ج ٤ ، ص ١٢٦- ١٢٧- ١٢٨- الظاهرى : زبدة كشف الممالك ، ص ٤٦ .

(٢)- أبو الفداء : المصدر نفسه ، ص ٢٧٧- ٢٨٣ .

(٣)- ابن شيخ الربوة : نخبة الدهر ، ص ١٩٩- ٢٠٠- المقريزى : المصدر نفسه ، ج ٣ ، ق ١ ، ص ٣٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

قامت طرابلس في السهل الواقع على مصب نهر أبي علي ، وكان لموقعها أثر كبير في اشتغال سكانها بالزراعة ، وكانت المناطق المزروعة لا تقتصر على غوطة طرابلس المحيطة وتعرف أحيانا بالمرج ، وانما تمتد على ضفة نهر أبي علي وعلى سفوح الجبال القريبة منها في اهدن وزغرتا والضنية والكورة .

كانت طرابلس فيما سبق هذه الفترة تصدر منتجات زراعية الى مصر في عهد الحاكم بأمر الله مثل النارنج ، الترنج ، الموز ، الليمون ، التمر ، ولكن لم نسمع طيلة البحث في هذه الفترة أنه حدث استيراد من مصر لمثل هذه المنتجات من بلاد الشام ، ومع ذلك ظلت طرابلس تحتفظ بمركز الصدارة بين مدن الشام في انتاج قصب السكر ، وفي زراعة الكروم والجوز والنخيل والموز والقلقاس ، الذى لا يوجد مثله ، والقطن والكثير من أشجار الحمضيات كالبرتقال.(١)

وأرغمت الظروف العسكرية الحربية أثناء موقعة عين جالوت وما سبقها من استعدادات حربية من قبل المماليك والمغول على تلف معظم زراعات المنطقة الجنوبية (فلسطين) ، فضلا عن الغارات التي شنها المغول أثناء غزوة غازان على الأغوار والمناطق المحيطة بها .

كثرت الزراعات وتنوعت في فلسطين ، فمدينة غزة اشتهرت بانتاج العنب والتين والنخيل والقمح والشعير ومحاصيل صيفية أخرى وكانت هذه الزراعات تعتمد على مياه الامطار.(٢) أما في بيت جبرون فقد كثرت فيها أشجار الزيتون ، التين ، الخرنوب ، وسائر الفواكه الأخرى.(٣) وغطيت جبال القدس والخليل ونابلس بأشجار مختلفة مثل الزيتون ، و يحمل زيتها الى الديار المصرية والشامية والى الحجاز والبرارى مع العربان اضافة الى البطيخ الزائد الحلاوة ، والسرو والسنديان ، والخروب ، والسماق ، وأشجار الفواكه مثل الخوخ ، التفاح ، اللوز ، الجوز ، والتين ، والكرمة ، أما سهولها وأوديتها فأنتجت البرتقال والسفرجل والرمان ، وقد اشتهرت الأغوار بالسكر والقند والموز والنخيل ، وكانت تزرع بها الحنطة والشعير والسمسم والذرة والخضراوات.(٤) .

---

(١)- الاصطخرى (ابراهيم بن محمد) : المسالك والممالك ، الجمهورية العربية المتحدة ، وزارة الثقافة والارشاد القومي ، ١٣٨١هـ/ ١٩٦١م ، ص٤٦ - ابن شيخ الربوة : المصدر نفسه ، ص٢٠٧ - أبو الفداء : تقويم ، ص٢٥٣ - سالم : طرابلس الشام ، ص٢٣١ - ٢٧٨ - ٢٧٩ - ٣٨٠ .

(٢)- أبو الفداء : المصدر نفسه ، ص٢٣٩ - العمرى : المصدر نفسه ، ص١٤٢ - العليمي : الانس الجليل ، ج٢ ، ص٧٤ - القلقشندى : المصدر نفسه ، ج٤ ، ص٩٨ - عطا الله : نيابة غزة ، ص٩٧-٩٨ .

(٣)- أبو الفداء : المصدر نفسه ، ص٢٤١ .

(٤)- المقدسي (البشارى) : أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، ليدن ، مطبعة بريل ، ١٩٠٤م ص١٦٦ - ابن شيخ الربوة : المصدر نفسه ، ص٢٠٠ - المقريزى : المصدر نفسه ، ج٢ ، ق٣ ، ص٥٨٤ - العليمي : المصدر نفسه ، ج٢ ، ص٧٥ - ٩٥ - غوانمة : تاريخ نيابة بيت المقدس ، ص٧٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

اضافة الى هذه الأراضي كانت هناك أراضي الأوقاف وهي أراضي قرى أوقفها الظاهر بيبرس على عدد من مزارات الانبياء والأولياء والصحابة، وكذلك الاشرف خليل بن قلاوون سنة ٦٩٠هـ/١٢٠١م.(١)

٧- آثار الحملات على الأوضاع الزراعية:

سبب قدوم الحملات المستمرة على منطقة بلاد الشام اعتماد حكومة المماليك في مصر بشكل قوي على نتاج البلاد الزراعية في الشام لارتكازها على صناعة السفن التي تعتمد اعتمادا كليا على أخشاب الغابات في منطقة الشام، فقد كانت الغابة في منطقة دمشق والجبال اللبنانية ملكا للسلطان، كما خضعت الأشجار ذات القيمة الاستراتيجية للمراقبة في حال الضرورة، ولذلك فقد نظم المماليك حملات عسكرية الى خليج اسكندرونة لجلب الخشب المنشور من المناطق الآنفة الذكر الواقعة في شمال سورية ومن مناطق الأناضول البحرية.(٢)

ففي سنة ٦٨٩هـ/١٢٩٠م أمرت الحكومة بجلب الأخشاب من أراضي بعلبك لما هنالك من الاخشاب العظيمة التي لا يوجد مثلها في دمشق، فكثرت الجبايات والشكايات، وأخذوا أخشاب الناس وحملت الى دمشق بكلفة عظيمة وشدة كثيرة، ومنذ ذلك الحين تعرضت الغابات في المنطقة للتلف الذي أدى بدوره الى تناقص مساحة الغابات والأراضي الحراجية، هذه الغابات التي استفاد منها الانسان استفادة كبيرة سواء في خدمة البيئة الطبيعية، أو في الخدمة الاقتصادية. وقد تكررت هذه الحادثة أي قطع الاخشاب مرة أخرى سنة ٧٦٧هـ/١٣٦٥م عندما أمر نائب السلطنة بتجهيز القطاعين والنشارين من دمشق والتوجه الى الغابة التي بالقرب من بيروت، وأن يشرع في عمل الشواني في آخر يوم من الشهر.(٣)

كما سبب الغزو للمنطقة الى سيطرة حكومة المماليك بشكل ملحوظ على مقدرات البلاد الزراعية وعلى أراضيها، فبين الفنية والأخرى يقوم السلطان المملوكي أو نائب السلطنة

---

(١)- النويري: المصدر نفسه، ج ٣٠، ص٢٧٦-٢٨١- المقريزي: المصدر نفسه، ج ١، ق٢، ص٣٢٤-٥٢٤- العيني: المصدر نفسه، ج ١، ص٤٠١-٤٠٦- الطراونة: المرجع نفسه، ص ١٥٥-١٦٠
(٢)- لابيدوس: مدن الشام، ص ١١٧.
(٣)- ابن كثير: المصدر نفسه، ج ١٣، ص ٣١٥-٣١٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بالحوطة على البساتين ، كما قام بعضهم بغرض الضرائب الباهظة على القرى والفلاحين ، فالظاهر بيبرس أقدم في دمشق على انتزاع أراضي كثيرة من القرى والبساتين التي بأيدي ملاكها سنة ٦٦٦هـ/١٢٦٧م وزعم أنه قد كان المغول استحوذوا عليها ، ثم استنقذها منهم ، وقد أفتاه بعض الفقهاء من الحنفية بذلك بناء على أن الكفار اذا ما أخذوا شيئا من أموال الناس المسلمين ملكوها ، واذا استرجعت لم ترد الى أصحابها الذين أخذت منهم ، وخاف الناس غائلة ذلك فتوسط الصاحب فخرالدين بن الوزيربهاء الدين بن الحنا ، وكان قد درس بالمدرسة الشافعية بعد تاج الدين بن بنت الأعز فقال يا خوند أهل البلد يصالحون بك عن ذلك كله بألف درهم مقسطة كل سنة مائتا ألف درهم فضة ، فأبى الا أن تكون معجلة ، ثم بعد أيام وقد خرج منها الى الديار المصرية أجاب الى تقسيطها ، ورسم أن يعجلوا من ذلك أربعمائة ألف وأن تعاد اليهم الغلات التي كانوا قد احتاطوا عليها زمن القسم والثمار.(١) غير ان ابنه الملك السعيد أبطل هذه الضريبة سنة ٦٧٧هـ/١٢٧٨م.(٢)

وأراد الظاهر بيبرس السيطرة على البساتين سنة ٦٦٤هـ/١٢٦٥م ولكن القاضي عبد الله ابن محمد بن عطاء أبو محمد شمس الدين الحنفي (ت ٦٧٣هـ) تصدى له وقال له لا يحل لمسلم أن يتعرض الى هذه الأملاك ولا البساتين فانها بيد اصحابها ، فغضب الظاهر بيبرس منه ، لكن الامراء شرعوا يتلافوه ، وقالوا : لم يقل ان مولانا السلطان ما هو مسلم وانما قال ما يحل لمسلم التعرض الى أملاك الناس ، ثم أثبتوا هذا الكتاب عند القاضي الحنفي.(٣)

وقد أدى قدوم الحملات المغولية للشام باستمرار الى قيام المماليك باتباع خططا حربية مختلفة تعتمد على سياسة الأرض المحروقة ، وذلك حتى لا يستطيع الأعداء تقديمها طعاما لخيولهم عند قدومهم للمنطقة.

وأول من أقدم على هذا العمل الظاهر بيبرس ، فقد أمر باحراق الاعشاب على الحدود الفراتية حتى لا يجد المغول عشبا لحيواناتهم اذا هاجموا البلاد ، فقد سير جماعة الى

---

(١)- النويري : المصدر نفسه ، ج ٣٠ ، ص ١٥٢ - ١٥٣ ؛ ابن شاكر : فوات ، ج ١ ، ص ١٧١ .
- العيني : المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٣٠ - ٣١ -
(٢)- الذهبي : العبر ، ج ٥ ، ص ٣٣٣ - المقريزي : المقفى ، ج ٥ ص ٤٦٣ - السلوك : ج ١ ، ق ٢ ، ص ٦٥٠ - العيني : المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٢٠١ .
(٣)- اليونيني : ذيل مرآة ، ج ٣ ، ص ٩٥ - ٩٦ - النعيمي : الدارس ، ج ١ ، ص ٥٧٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بلاد آمد والى مواضع الأعشاب ، وسيرمعهم القداحات والصوفات وآلات النار سرا ، فأحرقوا من المروج مسيرة عشرة أيام ، وكذلك أعشاب بابلا وخلاط ، واحرقت المروج جميعها .(١)

كما ان المنصور قلاوون قد اتبع هذه السياسة اثر معركة حمص سنة ٦٨٠هـ/ ١٢٨١م حيث أن الكثير من المغول اختفى بجانب الفرات فأمر السلطان بحرق المزروعات والأعشاب الموجودة بتلك الناحية ، فاحترق من العدو جماعة كثيرة وهلك منهم خلق كثير ممن سلكوا الطريق الصحراوية الى سلمية.(٢)

وقد كانت الاراضي المحروقة عبارة عن مراعي لخيل الدولة ، فاذا ما أراد العدو قصد المنطقة عمد السلاطين الى حرق هذه الأراضي حتى لا تقدم العلوفات لخيولهم ، وكان ينفق في كل سنة من الخزانة على هذه المحرقات جملا من الاموال ويجهز فيها الرجال الأقوياء ، وكانوا يستصحبون معهم الثعالب الوحشية ، والكلاب المنفرة ، ثم يكمن المجهزون في بطون الجبال ، وبطون الأودية ، وتمضي الأيام حتى يكون يوم عاصف قوى الهواء تعلق النار في أذناب الثعالب والكلاب ثم تطلق الكلاب والثعالب في اثرها وقد جوعت ، فتهرب الثعالب والكلاب وراءها فتحرق ما مرت به وتعلق الريح منه فيما جاوره هذا الى ما كانت تلقيه الرجال بأيديها في الليالي المظلمة.(٣)

كما أن التصدي للحملات المغولية جعل سلاطين المماليك يتخذون أراضي بلاد الشام مرعى لخيولهم ، فالمروج في حارم مثلا كانت مربعا لخيول السلطان ومحطة لاستراحة السلطان وعساكره ، وهذا ما حصل سنة ٦٧٥هـ / ١٢٧٦م عندما عاد السلطان من قتال المغول في بلاد الروم ، وصحبته علاء الدين علي بن البرواناه ، ومن أخذ من الروم أسيرا ، كذلك كانت غوطة دمشق مربعا لخيل عساكر المماليك المتوجهين لصد الغزاة ففي سنة ٧٠٠هـ/ ١٢٧٦م وبعد رحيل المغول قدم الافرم من المروج وقد أقام بها مع الأمراء أربعة شهور ودخل مدينة دمشق ، ولا بد أن تكون تلك المروج قد تأثرت بخيلهم التي رعتها ،

---

(١) - ابن عبد الظاهر : الروض ، ص١٣٦ - النويرى : المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص٦٣ - المقريزى : المصدر نفسه ، ج ١ ، ق ٢ ، ص٧٢٣ - عودات : المماليك ، ص ٩٧ - العبادى : قيام دولة المماليك ، ص٢٠٧ - عاشور : العلاقات ، ص ٧٩ .

(٢) - ابن الفرات : تاريخ ابن الفرات ، ج ٧ ، ص٢١٨ - ابن تغرى بردى : النجوم ، ج ٧ ، ص٣٠٦ - عاشور : المرجع نفسه ، ص ١١٩ .

(٣) - العمرى : التعريف ، ص٢٠١ - ٢٠٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

اضافة الى تأثر المزروعات بتلك النواحي . كما أنه في بعض الأحيان كان العسكر يطلقون خيلهم في أي زروع كانت مخصصة للرعي أو غيرذلك دون اذن اصحابها من الفلاحين ، وقد سبب هذا الى تناقص مؤن الفلاحين في تلك المناطق والى انعدام قوت مواشيهم الذي أثر بدوره عليهم ، وجعل شبح المجاعات يخيم على المنطقة في بعض الاحيان ، وأدى الى غلاء الأسعار في أحيان أخرى نتيجة لفقدان بعض المواد .(١)

ولم تكن الأراضي هي المصدر الوحيد لتمويل الحملات ، بل كانت حواصل الناس وغلاتهم أيضا مصدرا آخرا فعند علم الحكومة باقتراب العدو من المنطقة كانت تعطي الاذن للامراء بأخذ حواصل الناس وغلاتهم وهذا ما حصل سنة ٧٩٥هـ/١٣٩٢م عندما علم السلطان باقتراب تيمورلنك من المنطقة ، فقد أمر نائب الشام أن يجهز العساكر وأن يختم على حواصل الشعير الذي للناس برسم الركاب الشريف ، وكانت الناس في أيام شدة منذ منطاش وحتى ما بعد قدوم تيمورلنك للمنطقة .(٢)

وشجع قدوم الغزاة للمنطقة بعض الخارجين والطامحين في الاستقلال الى احداث القلاقل والاضطراب الأمني ، كذلك شجع قدومهم البدو مع بعض الزعر والحرافيش الى استغلال أوضاع المجتمع والقيام بأعمال تسيء لهذا المجتمع ، ففي سنة ٧٠٢هـ/١٣٠٢م استغل البدو والحرافيش الاوضاع السياسية المضطربة ، واستعدادات العامة للغزو العسكري ، فقاموا بنهب بساتين الناس وقطع الاشجار ، فقد قطعوا المشمش قبل أوانه كذلك القمح والباقلاء وسائر الخضراوات .(٣)

وقد قام البدو بحرق القرى وقطع أشجارها نتيجة قطع الحكومة اقطاعاتهم عنهم سنة ٧٦٤هـ/١٣٦٢م بسبب موقفهم المعادي للسلطة ، فقد قام آل فضل باحراق تدمر وحرق الكثير من أشجارها ، ورعي أراضيها ونهبها ، وكانت تدمر مصدر رغني لزراعات متنوعة في المنطقة . كذلك قام شمس الدين البرلي سنة ٦٥٩هـ/١٢٦٠م باحراق زرع بيهد العشر حين نزل على حماه .(٤)

---

(١)- الذهبي : دول ،ج٢ ،ص ٢٠٥- العيني : المصدر نفسه ،ج٢ ،ص١٦٢- ابن تغري بردى : المنهل ،ج٣ ،ص٣٦٩ .

(٢)- ابن صصرى : المصدر نفسه ،ص ١٤٥ .

(٣)- ابن كثير : المصدر نفسه ،ج١٤ ،ص٢٤- دهمان : ولاة ،ص ١٣٨ .

(٤)- ابوالفدا : المصدر نفسه ،ج٣ ،ص ٢١١- ابن كثير : المصدر نفسه ،ج١٤ ،ص ٣٠١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أدى قتل الفلاحين وتشريدهم الى تناقص مساحة الأراضي المزروعة، التي أشرت بالتالي على نقص في المواد الزراعية الاولية التي كانت تعتمدها المنطقة للزراعة، فالغوطة تعرضت للنهب والفساد بها وقد أثر ذلك عليها سلبا اضافة الى قرى المناطق الشمالية كحيلان وغيرها، التي تأثرت بقدوم الغزاة كثيرا وخاصة عند قدوم تيمورلنك اذ أصبحت أراضيها مسرحا للنشاط العسكرى، كذلك قرى حمص وحماة وقد وصلت الغارات حتى قرى فلسطين التي لا بد أنها قد تأثرت ولكن بنسبة أقل من القرى الأخرى، وكل هذا أدى الى اتلاف المزروعات.(١) كما قام الغزاة أنفسهم بقطع الأشجار وذلك انتقاما من السكان، فلما عسكروا بحلب استمروا شهرا يقتلون في اهل القرى اضافة الى قطع الكثيرمن الأشجار، وكذلك نال ماردين نصيبا من قطع الأشجار وتخريبها مثل حلب بل جعلوا أعاليها أسافلها.(٢)

وتمخض الغزو عن اتلاف الكثير من المحاصيل الزراعية، فأدى ذلك الى غلاء الأسعار والى فقدان الكثير من هذه المحاصيل كالقمح مثلا حيث اضطرت الحكومة ممثلة بالنواب في بعض الأحيان الى جلبه من مصر. فنائب طرابلس قام سنة ٧٣٥هـ/١٣٣٤م بطلب الغلال من مصر من أجل أن طرابلس قد احتاجت اليه. وكانت بلاد الشام فيما مضى هي المصدر الأول لتزويد مصر بالغلال وخاصة القمح والشعير، وقد احتاجت مصر ذلك أكثر من مرة، ففي سنة ٧٣٦هـ/١٣٣٥م وبعد طلب نائب طرابلس احتياجه من الغلال وقعت مصر في أزمة خانقة وفي غلاء شديد وفقدان مادة الخبز، فكتب لنواب الشام بحمل الغلال الى مصر، فنفذ الأمر، وبعثت الغلال على الجمال فكانت نحو أربعة آلاف غرارة من الكرك والشوبك.(٣) واحتلت بلاد الشام الصدارة في تمويل مصر بالأغنام، فكلما ازداد سعر اللحم في مصر وفقد من الأسواق، كان يطلب من بلاد الشام بتمويلها بالمادة المفقودة.(٤)

وظهرت الاحتكارات في المنطقة نتيجة لقلة المواد الغذائية وخاصة الزراعية منها، وكان خير مثل لها في المنطقة ابن النشو (ت ٧٩٩هـ/١٣٩٦م)، فقد أصبح يحتكر الحبوب ولا يبيع لأحد

---

(١)- اليونيني: ذيل مرآة، ج٢، ص٧٣- ابن ايبك الدواداري: الدر الفاخر، ص٢٣- الذهبي: دول، ج٢، ص٢٠٣-٢٠٨- الصفدي: الوافي، ج٤، ص٦١- ابن تغرى بردى: المنهل، ج٤، ص١١٩.

(٢)- العسقلاني: انباء الغمر، ج٤، ص١٩٧- ابن تغرى بردى: النجوم، ج١٢، ص٢٢٥- الصيرفي: نزهة النفوس، ج٢، ص٩٢-٩٣- ابن اياس: بدائع، ج١، ق٢، ص٥٩٨.

(٣)- ابن عبد الظاهر: تشريف، قسم ابن الفرات، ص٧٧- اليونيني: المصدر نفسه، ج٤، ص٤٥- الذهبي: ذيول العبر، ص١٣٢- اليوسفي: نزهة الناظر، ص٢٣٦-٢٩٥-٣٠٠.

(٤)- اليوسفي: نزهة الناظر، ص٣٤٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

شيئا الا بعد مراجعة فقلت الأقوات وعزت على الناس ، عندئذ تعاونوا جميعا على قتله وقاموا بهذا الفعل في سنة ٧٩٩ هـ ، وردا على ذلك كتب نائب دمشق الى السلطان بما حصل ، فأمر السلطان بمعاقبة الذين فعلوا ذلك ، فحصل لكثير من الشاميين أذى كبير ، وكتبوا فيه محضرا بما كان يبدو من المذكور من الفجور والظلم المفرط ، وظل النائب يلطف القضية حتى أعفى الناس.(١)

وأهم الآثار التي ظهرت هي اللجوء الى الرشوة أوشراء المناصب على كافة أنواعها (سيذكر عنها بالتفصيل فيما بعد) . والذى اشترى منصبه بالرشوة لم يكن أمامه سوى تعويضه عن طريق الضرائب والقسوة والاستغلال ، وقاد ذلك الى المزيد من التمزق المعيشي للفلاحين وسوء أوضاعهم وقد صورها المقريزى ((فدها هي أهل الريف بكثرة المغارم وتنوع المظالم اختلت أحوالهم ، وتمزقوا كل ممزق ، وجلوا عن أوطانهم ، فقلت مجابي البلاد ومتحصلها ، لقلة مايزرع بها ، ولخلو أهلها ورحيلهم عنها لشدة الوطأة من الولاة عليهم ، وعلى من بقي منهم)).(٢)

وقد كان واقع الفلاحون الاقتصادى والاجتماعي في مصر يشابه الواقع في بلاد الشام ويماثله ، الا أن الفلاحون في بلاد الشام كانوا أحرارا أكثر.

وقد رافق تدميرا لأراضي الزراعية وتلاف محاصيلها الى فرض الأعباء المالية على الفلاحين من قبل الغزاة ، أو من قبل السلطة الحاكمة وذلك لسد العجز المالي الذى حصل في الخزانة ، ففي سنة ٧٠٠ هـ/ ١٣٠٠ م قامت الحكومة بفرض ضرائب أربعة أشهر على القرى والضياع ، وأخذت عن كل مدى ستة دراهم وثلثا درهم ، ومن الفلاحين ضريبة المغل اضافة الى أصحاب الأملاك في دمشق ، وكان مغل هذه السنة قليل بسبب وجود العدو في المنطقة ، وبالتالي لم يستطع الفلاحون تسديد الضريبة فاضطروا الى قطع الأشجار وبيعها حطبا ، وقد بلغ الحطب كل قنطار دمشقي بثلاثة دراهم نقرة ، حتى لم يجدوا من يشتريه ، وفي النهاية لم تستفد الحكومة من هذه الأموال الضريبية ، بل ان اكثر المستخدمين الذين

---

(١) - العسقلاني : انباء ، ج ٣ ، ص ٣٢٨ - ٣٦٠ - ابن صصرى : المصدر نفسه ، ص ١٣٨ - ١٦٦ - ٢٠٧ - ٢١٠ .

(٢) - المقريزى : اغاثة ، ص ٤٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

جبوا هذه الأموال الذين استفادوا منها وسرقوها ،ولم يصل لبيت المال شيء ،وقد أبطل هذا الديوان بعد أن جبوا الأموال من الناس.(١)

وقد تنبه ابن خلدون الى أن اكثار الضرائب والمغارم على الفلاحين سوف يقود الدولة الى الانهيار العام حيث قال :

«اعلم ان الجباية أول الدولة تكون قليلة الوزائع كثيرة الجملة ،وآخر الدولة تكون كثيرة الوزائع قليلة الجملة والسبب في ذلك أن الدولة ان كانت على سنن الدين فليست الا المغارم الشرعية من الصدقات والخراج والجزية وهي قليلة الوزائع لأن مقدار الزكاة من المال قليل كما علمت..... واذا قلت الوزائع والوظائف على الرعايا نشطوا للعمل ورغبوا فيه فيكثر الاعتمار ويتزايد محصول الاغتباط بقلة المغرم واذا اكثر الاعتمار كثرت أعداد تلك الوظائف والوزائع فكثرت الجباية التي هي جملتها فاذا استمرت الدولة واتصلت وتعاقب ملوكها واحدا بعد واحد واتصفوا بالكيس وذهب شر البداوة والسذاجة وخلفها من الاغضاء والتجافي وجاء الملك العضوض والحضارة الداعية الى الكيس وتخلق أهل الدولة حينئذ بخلق التحذلق وتكثرت عوائدهم وحوائجهم بسبب ما انغمسوا فيه من النعيم والترف فيكثرون الوظائف والوزائع حينئذ على الرعايا والاكرة والفلاحين وسائر أهل المغارم ويزيدون في كل وظيفة ووزيعة مقدارا عظيما لتكثر لهم الجباية ويضعون المكوس على المبايعات وفي الأبواب كما نذكر ثم تندرج الزيادات فيها بمقدار بعد مقدار لتدرج عوائد الدولة في الترف وكثرة الحاجات والانفاق بسببه حتى تثقل المغارم على الرعايا وتهضم وتصير عادة مفروضة لأن تلك الزيادة تدرجت قليلا قليلا ولم يشعر أحد بما زادها على التعيين ولا من هو واضعها انما ثبت على الرعايا في الاعتياد لذهاب الأمل من نفوسهم بقلة النفع اذا قابل بين نفعه ومغارمه وبين ثمرته وفائدته فتنقبض كثير من الأيدي عن الاعتمار جملة فتنتقص جملة الجباية حينئذ بنقصان تلك الوزائع منها ،وربما يزيدون في مقدار الوظائف اذا رأوا ذلك النقص في الجباية ويحسبونه جبرا لما نقص حتى تنتهي كل وظيفة ووزيعة الى غاية ليس وراءها نفع

---

(١) - ابن ايبك الدواداري : المصدر نفسه ،ص٤ - ابن كثير : المصدر نفسه ،ج ١٤ ،ص ١٤ - المقريزي : السلوك ،ج ١ ،ق٣ ،ص ٩٠٧ - دهمان : المرجع نفسه ،ص ١١٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولا فائدة لكثرة الانفاق حينئذ في الاعتمار وكثرة المغارم وعدم وفاء الفائدة المرجوة بـــه فلا تزال الجملة في نقص ومقدار الوزائع والوظائف في زيادة لما يعتقدونه من جبر الجملة بها الى أن ينتقض العمران بذهاب الآمال من الاعتمار ويعود وبال ذلك على الدولـــة لأن فائدة الاعتمار عائدة اليها ». (١)

وكان من آثار الحملات العسكرية المغولية المتكررة أن وجد نظام اقطاعي ظالم عانى منه الفلاحون كثيرا ، فقد كانت سياسة السلاطين في توزيع الاقطاعات نابعة من الضغط المغولي المتكرر على المنطقة ، فلكي يرضي السلاطين الجند والامراء كانوا يغدقون عليهم الاقطاعـات الكبيرة والكثيرة ليضمنوا وقوفهم الى جانبهم ساعة وقوع المعركة ، وقد انعكس هذا سلبا على وضع الفلاح في المنطقة ، فلم يكن له الحق في مغادرة الأرض التي يعمل بها الا بعد مرور ثلاث سنوات ، وان حدث وغادرها يعاد اليها بالقوة .

وكان الفلاحون ملزمين بايجار الأرض ، وهو حصة المقاسمة وتتراوح بين ١/٨ - ١/٢ الحاصل حسب خصب الارض وموقعها وطريقة ريها . وكذلك كان ملزم بدفع العشر من نصيبه مــــن الانتاج وعليه دفع ضرائب ورسوم ، ونفقات الحملات ، وضريبة السدود والترع وأجور الرعـــــي وغيرها . فأصبح الفلاح قنا لسيده الاقطاعي ويصف المقريزي حالة الفلاحين بقوله :

«فتعدوا الى الأراضي الجارية في اقطاعات الأمراء . . وزادوا في مقادير الأجور . فجعلوا الزيادة ديدنهم كل عام ، حتى بلغ الفدان لهذا العهد نحوا من عشرة أمثاله . . لا جرم أنه لما تضاعفت اجرة الفدان من الطين . . وتزايدت كلفة الحرث والبذر والحصاد وغيره ، وعظمت نكاية الولاة والعمال واشتدت وطأتهم على أهل الفلح وكثرت المغارم في عمل الجسور وغيرها . . فخرب بما ذكرنا معظم القرى وتعطلت أكثر الأراضي من الزراعة ونقصت الغلات ». (٢)

كما لحق الظلم بالفلاحين من جراء الضرائب التي كان البدو يفرضها عليهم من وقت لآخر فيسببون لهم المعاناة الدائمة. (٣)

---

(١) - ابن خلدون : مقدمة كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر ، بيروت ، دار العودة ، ١٩٨١ ، ص ٢٢١ .

(٢) - السبكي : معيد النعم ، ص ٣٤ - المقريزي : اغاثة الأمة ، ص ٤٥ - ٤٧ - الدوري (عبد العزيز ، مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي ، بيروت ، ١٩٦٨ ، ص ١٠٦ - ١٠٧ - غوانمة : تاريخ نيابة بيت المقدس ، ص ٧٨ .

(٣) - غوانمة : المرجع نفسه ، ص ٧٨ - ٧٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقامت الحكومة بالزام الفلاحين في بعض الأحيان بالدفاع عن البلاد ، وقد استطاعت تجنيدهم عند قدوم الغزاة ، فقد اشتركوا في عين جالوت حيث قتل الفلاحون عددا كبيرا من المغول ولم يسلم من الاعداء الا القليل.(١)

كما رسم السلطان لأهل القرى سنة ٦٧٢هـ/١٢٧٣م أن تخرج كل قرية خيالة على قدر حال أهل القرية كما يقومون بالانفاق عليهم.(٢)

وقد ذكر ابن شاهين الظاهري بأنه كتب على كل القرى التي بالشام ومصر خياليين ، فكان عدد ما كتب على القرى خاصة ستة وستين ألف خيال ما بين الوجه القبلي والبحري من مصر ، ومن اضح الى ديار بكر.(٣)

والمفروض أن الحملات العسكرية المغولية سببت أضرارا كبيرة لوسائل الري ولقنوات المياه سواء مياه السقاية أو مياه الشرب ، أضيف الى ذلك اهمال نظام الري المعمول به في المنطقة وتخريب آلات السقاية التي تعددت أنواعها فمياه الشرب في القرى كانت أحيانا تجر من مدينة دمشق ، وقد أخربت قنوات دمشق فالمغول سنة ٦٩٩هـ/١٢٩٩م وعندما حاصروا قلعة دمشق اضطروا الى استعمال الحجارة لرمي المنجنيق فخربوا حيطانا كثيرة وأخذوا حجارتها ، كما خربوا طرفا من القنوات بسبب أخذهم لهذه الحجارة.(٤)

وتعطلت بسبب ذلك تقاسيم المياه بمدينة دمشق ، وقد أقدم النائب تنكز على اصلاح هذه التقاسيم ونظف مجاريها ، وفتح طرقها في فترة ولايته.(٥)

أما الفلاحون في دمشق وغوطتها فكانوا يعتمدون على نهر بردى المتفرع الى سبعة أنهر أربعة غربية وهي نهر داريا ويعرف بالداراني ، ويتفرع قبل الربوه عند الشاذروان ، وهو يسقي داريا وأراضيها وما والاها ، وهو يسير بأقنية الى القرية ومن المفروض أن مياهه تعرضت للتلوث نتيجة للاهمال والعفونة وتردي الاوضاع الاقتصادية التي انعكست سلبا على المجتمع الريفي.

---

(١)- ابن تغري بردي : النجوم ، ج ٧ ، ص ٨٠ .

(٢)- ابن عبد الظاهر : الروض ، ص ٤٢٠ - المنصوري : التحفة ، ص ٧٨ - المصدر نفسه ، ص ٢٠٦ .

(٣)- الظاهري : زبدة كشف الممالك ، ص ١٠٤ - ١٠٥ .

(٤)- ابوشامة : تراجم ، ص ٤٢٠ - اليونيني : المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ٣٥١ - ابن كثير : المصدر نفسه ج ١٣ - ص ٢١٩ - القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٤ ، ص ١٤٠ - العيني : المصدر نفسه ، ج ١ ص ٢٤١ .

(٥)- المقريزي : السلوك ، ج ٢ ، ق ٢ ، ص ٥١٠ - دهمان : المرجع نفسه ، ص ١٦٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يضاف لنهردا ريا ، نهرالمزة ،القنوات ،با نياس. واثنا ن شرقية هما نهرا يزيد وثورا ونهربردى ممتد بينهما ، وطبيعي أن الفلاحين في القرى يعتمدون على الأنهار الآنفة الذكر في السقاية.
وكان نهرا بانياس والقنوات يدخلون المدينة ويخترق نهربانياس القلعة ثم ينقسم قسمين ، قسم للجامع وقسم للقلعة ،ثم ينقسم كل منهما على أقسام كثيرة ويتفرق في المدينة ،ثم يخرج ويسقي بساتين الغوطة ،وكان عليه عدة طواحين وتشرب منه بساتين وأراضي كثيرة. أما نهر القنوات فهو يجرى في قنى مدفونة في الأرض الى أن يصل الى الدور ، ثم تنصب فضلات الماء الى قنى معقودة تحت الأرض،ثم تجتمع وتخرج الى ظاهر المدينة لسقاية البساتين.
وقد اختلفت وتنوعت وسائل الري في كل قرى بلاد الشام وذلك بحسب طبيعتها ففي حماة وأريا فها سادت الناعورة وكانت توضع على العاصي ، وترفع الماء الى الدور والبساتين والغيطان ، أوعن طريق الآبار. أما في حلب فكانت الأرياف تشرب اما من مياه الينابيع ،أومن نهرقويق ، أومن السلجور التي استحدثه الناصرمحمد . (١)
يستخلص من مختلف المصادر التي أشارت الى الفلاحين ونزوحهم من الريف الى المدينة انهم لم يكونوا يتقنوا سوى لغة الأرض وبالتالي يعلل هذا تدني المستوى الثقافي للفلاحين . كما سبب النازحون من الريف الى المدن مشاكل اجتماعية كثيرة أهمها على الاطلاق ازديا د عدد العاطلين عن العمل ،وعاش هؤلاء النازحون كفئة متطفلة على المجتمع المدني، فالذى لم ينخرط في سلك الزوايا وخانقاوات الصوفية انحرف الى طريق الجريمة من الاستهتار وتعاطي المخدرات .
كما عانى الفلاحون في بلاد الشام من ظلم الاقطاع ورجال الدولة ، ودفع ثمن المخاطر الخارجية التي نجمت عن الأعمال العسكرية المغولية حيث أتلفت محاصيله نتيجة اما تدمير القرى أو كون هذه الاراضي مسرحا للعمليات الحربية.

---

(١)- ابوالفدا : تقويم ،ص٢٦٣ - ٢٧٨- العمرى: مسالك الأبصار ،ص١٢٦ - ١٣٢- القلقشندى : المصدر نفسه ،ج ٤ ،ص ٨٠ - ٩٥- ٩٦- ١١٧- ابن عبدالهادى ؛ رسائل دمشقية ، ص ٣١ - ٣٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وتمخض الغزو المغولي اضافةالى ما سبق ذكره عن تخلخل سكاني في القرى فقد أدى نزوح أهل الريف الى النقص في عدد سكانها ، فضلا عما أصابها من خراب ، والى ظهور نزاعـات قديمة تجددت بين قبيلتي قيس ويمن ، والى تمرد أهل الجبال في كسروان والجرد ، والى تسلط عناصر بيروقراطية في حكومة المماليك على الفلاحين ، وارهاق الفلاحين بفـرض ضرائب اضافية وهذه قضية هامة جدا بالنسبة لفلاحي هذه الفترة حيث كانت هذه الضرائب في بعض الأحيان لتغطية النفقات العسكرية لصد الغزاة . ولم يقتصر ظلم الفلاح عن طريق دفعه الضرائب فقط بل عن طريق اشراكه في هذه الحملات ، وتجنيد أهل القرى والزامهم بدفع نفقات الخيالة المجندين من بينهم .

كما دفع الفلاحون ثمنا للاضطرابات الداخلية بين المماليك أنفسهم ، خاصة عند ظهور دوافع استقلاليه لدى بعض النواب أوالامراء في بلاد الشام .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

« الفصـــل الثـالـث »

الآثـــار على البادية والقبائل غير العربيـــة

آ - الاثار على القبائل البدوية .

١- المهام الموكولة للبدو

- رصد العدو المغولي والاغارة عليه ومساعدة السلطات داخليا .

٢- اثر الهجوم المغولي على الاوضاع التجارية البدوية .

٣- استغلال قدوم المغول وفساد البدو بالمنطقة .

ب- التركمان

١ - نتائج الهجوم المغولي على أعمال التركمان .

٢ - نتائج الهجوم المغولي في ازدياد الصراع البدوي التركماني .

٣ - نتائج هجوم تيمورلنك في ازدياد أطماع التركمان .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

آ - الآثار على القبائل البدوية

شكل البدو في مجتمع المشرق العربي فئة مستقلة ، واستطاع هؤلاء بتأثير عوامل بيئية وسياسية أن يشكلوا القوة المرجحة في الصراعات السياسية قبل العصر السلجوقي ، وفي العصر المملوكي ظل المجتمع العربي على علاقة بالبداوة العربية ، فطرق الحج والتجارة كانت تمر من خلال ديار البدو ومواطن انتشارهم . كما شكلوا خطرا دائما على المدن والحواضر ، اذ كانوا يغيرون عليها طمعا في الثروات ، أو في محيطها الزراعي وأثناء النزاعات والصراعات العسكرية مال هؤلاء الاعراب وانحازوا الى كفة الميزان الرابحة ، وانضموا للطرف الذى شكل غالبا ضمانا لمصالحهم.(١)

كان لتوغل البدو في بلاد الشام وسيطرتهم على طرق الحج والتجارة والدور التجاري الذى يفترض أنهم قاموا به بين كلا الطرفين المملوكي والمغولي أثر كبير على المجتمع العربي الاسلامي ، فقد أمدوا الاطراف المتصارعة بالخيل والأسلحة والجمال وجميع المتطلبات الحربية عن طريق ما يمكن ان يسمى (تجارة التهريب) . حيث أمدوا المغول بما يحتاجه دون علم السلطات المملوكية ، ومن المرجح انهم أمدوا السلطات المملوكية بالاحتياجات نفسها ، فضلا عن تجارة الخيل التي شجعها سلاطين المماليك معهم.

تضافرت عدة عوامل دفعت السلطات المملوكية كسب ود البدو ولجانبها ، منها الدور السياسي الذى قاموا به أثناء الصراع مع الصليبيين أول الامر ثم مع المغول ، اذ التجأ بعض أمرائهم الى المغول حين تضاربت مصالحهم مع مصالح السلطات المملوكية ، لذلك عمدت السلطة مراعاة مصالحهم قدر استطاعتها والعفو عن امرائهم الهاربين .

ولابد قبل الخوض في الحديث عن الدور السياسي الذى شغله البدو ، والعلاقة بينهم وبين السلطات المملوكية أثناء الهجوم المغولي على المنطقة من توضيح التوزع الجغرافي للقبائل المنتشرة في بلاد الشام بشكل سريع وموجز .

انتشرت القبائل البدوية في بلاد الشام الداخلية وسيطرت على مساحات واسعة في الصحراء ، اذ أكد ذلك أكثر المؤرخين والجغرافيين فابن شيخ الربوة ذكر عن أعمال صفد :

---

(١) - العمرى (شهاب الدين أبي العباس أحمد): مسالك الأبصار في ممالك الأمصار ، قبائل العرب في القرنين السابع والثامن الهجريين ، تحقيق دوروتيا كرافولسكي ، بيروت ، المركز الاسلامي للبحوث ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٥ ، ص ١٣ - ٢٤ - مقدمة المحقق .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومن أعمالها كفركنا ، وهي قرية كبيرة بها مقدموا العشائر ورؤساء الفتن والهوى ، يسمون قيس الحمراء ، ومن أعمال صفد مدينة اللجون وهي مضافة الى العشير والهوى واليمن وأهل الناصرة كما أن أهل كفركنا قيس) .(١)

وضمت غزة عددا كبيرا من القبائل العربية وخاصة في صحراء سيناء ، وكانت غالبية بطونها من جرم الطائية ثم من جذام القحطانية وفضلا عن ذلك كانت هناك قبائل صغيرة أخرى .(٢) بالاضافة الى القبائل البدوية المتمركزة في البادية السورية ، وفي المناطق المحيطة بحلب مع وجود بعضهم في غوطة دمشق وفي الجولان ومناطق أخرى ، وكان لهؤلاء دور سياسي هام في المنطقة. وكانت القبيلة الأكثر تميزا بين القبائل قبيلة ربيعة(٣) التي يرجع نسبها الى طيء التي ظهرت في القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي . وانقسمت هذه القبيلة في فترة البحث الى ثلاثة أفخاذ هم : آل فضل ، آل مرى ، آل علي .

وازداد شأن قبيلة ربيعة في عصر الدولة الايوبية ، ففي مطلع القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي منح حديثة الربعي رسميا لقب أمير العرب من قبل الملك العادل الأيوبي (٥٤٠-٦٣٦هـ/١١٤٥-١٢١٨م) . ويعتقد أن هذا اللقب يشير الى مكانة صاحبه السامية ، فقد أورد سهيل زكار نقلا عن ابن العديم في حوادث سنة ٤٧٢هـ/١٠٧٩-١٠٨٠م أن دولة بني مرداس قد انتهت في هذه السنة لكن امرة العرب ظلت في بني كلاب حتى أيام الظاهر الأيوبي (١٢٦٠-١٢٧٧م) عندما قويت قبيلة طيء فاستولت على الامرة. ولا ندري فيما اذا كان اللقب قد وجد بين قبائل بلاد الشام بعد قيام الاسلام ، أو أن اللقب كان موجودا فيها قبل قيام الاسلام ، وليس من المستبعد أن تكون وظيفة امرة عرب الشام وجدت أيام حكم الدولة البيزنطية لبلاد الشام ، وحمل هذه الرتبة أمراء غسان . وعلى كل حال فان هذا اللقب كان يعني في العصر المملوكي زعيم القبائل العربية بالشام والحجاز والحدود العراقية.(٤)

(١) - ابن شيخ الربوة : المصدر نفسه ، ص٢١٢ - زكار : فلسطين ، ص ٥٦٨ .
(٢) - زكار المرجع نفسه ، ص ٥٧٦ .
(٣) - من أجل ربيعة ينظر العمرى : مسالك الابصار قسم القبائل ص١١٤-١١٦-١٣٦ - التعريف ، ص ٧٩ - ٨٠ - ابن خلدون : العبر ، ج ٥ ، ص٩٣٦-٩٣٧ - القلقشندى : صبح الاعشى ، ج ٤ ، ص ٢٠٤-٢٠٥-٢٠٨-٢١٠ - قلائد الجمان في التعريف بقبائل عرب الزمان ، القاهرة ، دار الكتب الحديثة ، الطبعة الاولى ، ١٣٨٣هـ/١٩٦٣م ، ص٧٢-٧٣-٨١-٨٢ - العسقلاني : الدرر ، ج ١ ، ص٣٢١ - ابن تغرى بردى : المنهل ، ج ٢ ، ص٢٥٥-٢٢٦ - زكريا (احمد وصفي) : عشائر الشام ، دمشق ، دار الفكر ، الطبعة الثانية ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م ، ص ٩٢ .
(٤) - العمري : المصدر نفسه ، ص٢٧-١١٣ - التعريف ، ص٧٩ - زكار (سهيل) : امارة حلب ، دمشق ، دار الكتاب العربي ليس له سنة طبع ، ص ٨٥ - ٨٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وفي العصر المملوكي وتحديداً في فترة حكم الظاهر بيبرس أعطيت الامرة لعيسى بن مهنا ، فعند اشتد النزاع على السلطة في القاهرة واتجه المماليك البحرية من مصر الى بلاد الشام كان بينهم بيبرس الذي طلب من أبي بكر علي بن حديثة ايوائه لكنه رفض فآواه عيسى بن مهنا وأكرمه وأعطاه خيلا ، ورداً للجميل أعطاه بيبرس الامرة ورفض أن يشرك معه في لقب الامارة أي شخص.[(١)] ومعنى هذا أن امرة العرب أصبحت رتبة عسكرية عالية في العصر المملوكي ، وجعلت ضمن الجهاز الاداري.[(٢)]

ومن القبائل الاخرى التي استوطنت بلاد الشام قبيلة زبيد[(٣)] وديارهم في المرج والغوطة ومناطق أخرى ، اضافة الى بني كلاب الذين قطنوا أطراف حلب وبلاد الروم وكانت شوكتهم قوية في الفترة التي سبقت العصر المملوكي.[(٤)] الى جانب قبيلة ثعلبة ، جرم ، جذام.[(٥)]

أولا - المهام الموكولة للبدو :

شكل البدو في فترة البحث جبهة داخلية قوية وقفت الى جانب السلطات المملوكية في صراعها مع العدو المغولي ، ويعلل موقف البدو وهذا بمصالحهم الشخصية المرتبطة بعلاقتهم مع السلطات والمتمثلة في حصولهم على الاقطاعات والمنح والهدايا ، اضافة الى الربح الهائل الذي نتج عن طريق تجارتهم بالخيول . لذلك حرص أمراء البدو على تحسين العلاقات مع هذه السلطات ومساندتها والوقوف لجانبها في أثناء الغزوات المغولية وهذا ما لاحظناه في أثناء غزوة هولاكو سنة ٦٥٨هـ/١٢٥٩م ، فقد اشترك آل فضل الى جانب المظفر قطز في عين جالوت ، فكافأ المظفر أميرهم وأعطاه سلمية بعد أن انتزعها من المنصور بن المظفر صاحب حماة.[(٦)]

كما أنهم اشتركوا في معركة حمص سنة ٦٨٠هـ/١٢٨١م الى جانب الناصر محمد بن قلاوون الألفي

---

(١) - النويري : المصدر نفسه ، ج ٣٠ ، ص٣٧ - العمري : مسالك ، ص١١٧ - ١١٨ - زعرور : الحياة الاجتماعية ، ص٢٥٧ .

(٢) - العمري : المصدر نفسه ، مقدمة المحقق ، ص١٦ - ١٧ .

(٣) - من أجل زبيد ينظر العمري : مسالك - القلقشندي : صبح الاعشى ، ج ٤

(٤) - ينظر العمري : المصدر نفسه ، ص١٤٣ - ١٤٥ - الصفدي : تحفة ذوي الالباب ، ج ٢ ، ص١٢٣ - ١٢٧ - القلقشندي : صبح الاعشى ، ج ٤ - زكار : امارة حلب.

(٥) - للمزيد من التفاصيل عن هذه القبائل ينظر العمري : المصدر نفسه - القلقشندي : صبح الاعشى ، ج ٤ - قلائد الجمان - المقريزي : البيان والاعراب عما بأرض مصر من الاعراب ، تحقيق عبد المجيد عابدين ، الاسكندرية ، دار المعرفة ، ١٣٨٩هـ ، ص٣ ، ٤ ، ٥ ، ٦ ، ٧ ، ١٨ ، ٢٠ .

(٦) - ابن خلدون : العبر ، ج ٥ ، ق ٤ ، ص٩٤٠ - القلقشندي : صبح الاعشى ، ج ٤ ، ص٢٠٦ - العيني : عقد الجمان ، ج ١ ، ص٢٤٥ - ابن تغري بردي : المنهل ، ج ٢ ، ص٢٢٧ - سبانو : مملكة حماة ، ص٨٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وترسخت ثقة السلطان بالقبائل البدوية بعد أن أوصلوا له معلومات وهو يحاصر قلعة الروم، مفادها أن جماعة من المغول يقدر عددها نحوا من تومان (١) اجتازوا الفرات قاصدين عسكره، فاتفق رأيه مع بقية الامراء على تجريد فرقة تضم عددا من الامراء الى جانب آل مهنا، آل فضل، آل مرى، وبني كلاب الى جانب طائفة من التركمان، فسار الجميع حتى وصلوا الفرات غير أنهم لم يعثروا على آثار العدو، فلما تحققوا خبر ذلك علموا أن ذلك كان حيلة من ملك الارمن الذى استنجد به أهل القلعة التي يحاصرها المسلمون، فعلم أنه عاجز عن فك الحصار، فاحتال بأن ألبس خمسة آلاف فارس أرمني زي العسكر المغولي، وجعل لهم رايات وطبول على زي المغول وأمرهم بأن ينزلوا الفرات، ويظهروا أمام البدو حتى يظنوا أنهم مغول فينقل هؤلاء أخبارهم الى السلطان الذى يحاصر القلعة فيتراجعوا عن محاصرتها. (٢)

تجلى امتثال أمراء البدو من آل مهنا لأوامر السلطان الناصر محمد. وتجلى واضحا في العمل الذى أقدم عليه محمد بن عيسى بن مهنا ضد أمير مكة حميضة، فقد استغل ملك المغول سوء الاوضاع السياسية وجرد مع الشريف حميضة عساكر مغولية عدتها أربعة آلاف فارس يريد مكة، وكان ذلك سنة ٧١٥هـ/١٣١٥م، فبلغ ذلك الامير محمد فتجهز مع قواته لردعهم وساعده في انجاز مهمته موت الايلخان المغولي خدابنده، فهاجم الامير محمد عسكر حميضة وقتل منهم الكثير، وأسر حميضة. (٣)

ثانيا: أثر الهجوم المغولي على الاوضاع التجارية البدوية:

-أثر جفاف المنطقة التي استوطنها البدو وبشكل كبير على أعمالهم، فقد أدركوا عدم فاعلية أراضيهم الزراعية، لذلك اتجهوا الى مجالات أخرى تؤمن لهم مصادر عيشهم اليومي وتؤمن لهم مستلزماتهم العسكرية كالأسلحة والعتاد -وغيرها من السلع الأخرى لحماية أنفسهم من هجمات الآخرين فاتجهوا الى التجارة، وقد تلمس البدو المجالات التجارية التي تدر عليهم الارباح الطائلة، لذلك توجهوا الى المتاجرة بالسلع الممنوعة، ساعدهم على ذلك انخفاض

---

(١) - ورد شرحها في المدخل.
(٢) - العيني: المصدر نفسه، ج ٣، ص ١٠١.
(٣) - المقريزى: السلوك، ج ٢، ق ١، ص ١٤٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- رصد العدو والاغارة عليه ومساعدة السلطات داخليا :

-١ اعتمدت السلطات المملوكية على القبائل البدوية في رصد تحركات العدو المغولي ، فأوكلت اليهم أولا حماية وحراسة الحدود ، وأول من عهد الى البدو بهذه المهمة الظاهر بيبرس ، ففي سنة ٦٥٩هـ/ ١٢٦٠م جند القبائل البدوية من عرب خفاجة المقيمة على الحدود الفراتية ، وحثهم على قتال هولاكو ، فأطاع هؤلاء الامراء وشنوا الغارات ووصلوا حتى أبواب بغداد . (١)

وبرزت مقدرة البدو في رصد العدو في فترة وقوع معركة الخازندار ، حيث اطلعوا على اسرار العدو المتقدم والمتمركز قرب سلمية ، وبعثوا بانباء ذلك للسلطان . (٢)

كما اعتمد عليهم الظاهر برقوق سنة ٧٩٦هـ/ ١٣٩٣م في رصد العدو على الحدود الفراتية لمعرفة تقدم فرقه العسكرية . (٣)

ولم تكن مهام البدو مقصورة على رصد تحركات العدو المغولي وانما أضيفت اليها مهام الغارة على العدو المتمركز بالقرب من حدود بلاد الشام وذلك بأمر من السلطات المملوكية ، ففي سنة ٦٧٠هـ/ ١٢٧١م سير الظاهر بيبرس الأمير علاء الدين طيبرس الوزيري وجماعة من البدو يتقدمهم الامير عيسى بن مهنا للغارة على المغول الموجودين في حران ، فقطع هؤلاء الفرات ، واصطدموا مع المغول واستطاعوا اجلائهم عن المدينة . (٤)

وفي سنة ٦٧٢هـ/ ١٢٧٣م أوكل الظاهر بيبرس الى الامير عيسى بن مهنا مهمة الغارة على الانبار حيث تمركز المغول فيها فامتثل عيسى للأوامر وهاجمها ، كما اقتتل مع عرب خفاجة وظل القتال ما يقارب نصف نهار حتى انتصر عليهم . (٥)

وظهر تعاون آل مرى وآل فضل مع السلطات جليا واضحا سنة ٦٨٤هـ/ ١٢٨٥م ، عندما أغاروا على المغول ونهبوا الكثير من الأمتعة والأقمشة واستاقوا الخيول وغيرها . (٦)

---

(١) ابن عبد الظاهر : الروض ، ص١١٩ - النويري : المصدر نفسه ، ج٣٠ ، ص٤٦ - ابن خلدون : العبر ، ج٥ ، ق٤ ، ص٨٢٧ - المقريزي : السلوك ، ج١ ، ق٢ ، ص٤٦٤-٤٩٢ - عطاالله : المرجع نفسه ، ص٨٧ - العبادي : المرجع نفسه ، ص٢٠٧ - عدوان : المرجع نفسه ، ص٥٤ - عودات : تاريخ المغول ، ص٩٧ .

(٢) - المقريزي : السلوك ، ج١ ، ق٣ ، ص٨٨٦ - المقفى ، ج٧ ، ص١٧٦ .

(٣) - ابن خلدون : المصدر نفسه ، ج٥ ، ص١٠٨٥ - منقريوس : تاريخ دول ، ج٣ ، ص٧٢ .

(٤) - ابن شداد : الاعلاق النفيسة ، ج٣ ، ق١ ، ص[illegible] .

(٥) - ابن عبد الظاهر : الروض ، ص٤٢٦ - ابن الفرات : المصدر نفسه ، ج٧ ، ص٦ .

(٦) - ابن عبد الظاهر : تشريف الايام ، ص١١١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وترسخت ثقة السلطان بالقبائل البدوية بعد أن أوصلوا له معلومات وهو يحاصر قلعة الروم ، مفادها أن جماعة من المغول يقدر عددها نحوا من تومان [١] اجتازوا الفرات قاصدين عسكره ، فاتفق رأيه مع بقية الامراء على تجريد فرقة تضم عددا من الامراء الى جانب آل مهنا ، آل فضل ، آل مرى ، وبني كلاب الى جانب طائفة من التركمان ، فسار الجميع حتى وصلوا الفرات غير أنهم لم يعثروا على آثار العدو ، فلما تحققوا خبر ذلك علموا أن ذلك كان حيلة من ملك الارمن الذى استنجد به أهل القلعة التي يحاصرها المسلمون ، فعلم أنه عاجز عن فك الحصار ، فاحتال بأن ألبس خمسة آلاف فارس أرمني زي العسكر المغولي ، وجعل لهم رايات وطبول على زي المغول وأمرهم بأن ينزلوا الفرات ، ويظهروا أمام البدو حتى يظنوا أنهم مغول فينقل هؤلاء أخبارهم الى السلطان الذى يحاصر القلعة فيتراجعوا عن محاصرتها . [٢]

تجلى امتثال أمراء البدو من آل مهنا لأوامر السلطان الناصر محمد . وتجلى واضحا في العمل الذى أقدم عليه محمد بن عيسى بن مهنا ضد أميرمكة حميضة ، فقد استغل ملك المغول سوء الاوضاع السياسية وجرد مع الشريف حميضة عساكر مغولية عدتها أربعة آلاف فارس يريد مكة ، وكان ذلك سنة ٧١٥هـ/ ١٣١٥م ، فبلغ ذلك الاميرمحمد فتجهز مع قواته لردعهم وساعده في انجاز مهمته موت الايلخان المغولي خدابنده ، فهاجم الاميرمحمد عسكرحميضة وقتل منهم الكثير ، وأسر حميضة . [٣]

ثانيا : أثرالهجوم المغولي على الاوضاع التجارية البدوية :

- أثر جفاف المنطقة التي استوطنها البدو بشكل كبير على أعمالهم ، فقد أدركوا عدم فاعلية أراضيهم الزراعية ، لذلك اتجهوا الى مجالات أخرى تؤمن لهم مصادر عيشهم اليومي وتؤمن لهم مستلزماتهم العسكرية كالأسلحة والعتاد وغيرها من السلع الأخرى لحماية أنفسهم من هجمات الآخرين فاتجهوا الى التجارة ، وقد تلمس البدو المجالات التجارية التي تدرعليهم الارباح الطائلة ، لذلك توجهوا الى المتاجرة بالسلع الممنوعة ، ساعدهم على ذلك انخفاض

---

(١) - ورد شرحها في المدخل .

(٢) - العيني : المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ١٠١ .

(٣) - المقريزى : السلوك ، ج ٢ ، ق ١ ، ص ١٤٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

رقابة السلطات على البادية قياسا للمدن ، وفي ظل هذا المناخ الحر استطاع البدو أن يتاجروا في الخيول والاسلحة والجمال .

وما جعلني أرجح هذه المسألة هي درجة الغنى التي وصل اليها البدو في فترة البحث ، فقد أورد المقريزي أن البدو وصلوا الى الغنى الفاحش في عصر السلطان محمد بن قلاوون فذكر :

« ولبسوا في أيامه الحرير الاطلس المعدني ، والداير الباطني ، والاسكندري المطرز بالذهب . وصاغ السلطان لنسائهم الاطواق الذهب المرصعة ، وعمل لهن الشنابر [(١)] المشهورة بأكسر الذهب والأساور المرصعة بالجوهر واللؤلؤ ، وبعث لهن القماش السكندري والشرب والشمع ، وعمل لهن البراقع المزركشة والمسك وأنواع الطيب ، وذلك بعد ما كان لبس أمرائهم الى آخر الايام المنصورية الطراطير الحمر تحت العمائم الشامية من القطن ، وكانت خلعهم الماسمط أو كنجي » [(٢)] .

والسؤال المطروح على بساط البحث هو ما مصدر هذا الثراء ؟ هل كان من العمل الرعوي ؟ هل تعامل البدو مع أطراف منحتهم هذه الأموال ؟ أم هل كان ذلك ناتجا عن مردود الاقطاعات التي حصلوا عليها من السلطات المملوكية ؟ أم كان هناك مصادر أخرى لم تورد ها المصادر بشكل واضح ؟ بالطبع كان هذا الثراء محصلة مصادر متعددة منها موارد الاقطاعات التي منحتها السلطات للبدو ، وهي عبارة عن قرى كبيرة وصغيرة درت عليهم الغـــلات والحواصل ، وقد أقدمت السلطات على ذلك لتشجيعهم في الحفاظ على أمن البادية ، اذ كان البدو يحرسونها ويلقون القبض على كل متمرد يسعى للفرار عبرها ، وكانوا يقدمـــون الملجأ لجميع الفارين من العراق والحجاز وغيرها ، ومن الذين حماه البدو بعد فراره من العراق الحاكم بأمر الله احمد بن أبي علي بعد دخول المغول لبغداد اذ انتقل من عرب الى عرب حتى وصل الى عيسى بن مهنا فحماه ، وظل في حمايته حتى ملك قطز دمشق ، فبعث رسولا اصطحبه لمصر ثم بايعه على الخلافة . [(٣)]

---

(١) - الشنابر : شريط من الحرير الأسود أو الاحمر التام عرضه شبران وطوله نحو سبعة أذرع ، تلفه النساء على رؤوسهن فوق العصابة بحيث يتدلى أحد طرفيه من مقدم الرأس والثاني من مؤخرها . انظر المقريزي : السلوك ، ج ٢ ، ق ٢ ، ص ٥٢٨ ، حاشية المحقق رقم (١) .

(٢) - المقريزي : المصدر نفسه ، ج ٢ ، ق ٢ ، ص ٥٢٧ - ٥٢٨ .

(٣) - ابن الجزري : المختار ، ص ٢٦٠ - ٢٦٢ - القلقشندي : صبح الاعشى ، ج ٤ ، ص ٢٠٦ - - زعرور : المرجع نفسه ، ص ٢٦٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

اضافة الى موارد الاقطاعات، وان عمليات السلب والنهب التي كانت تقوم بها بعض القبائل البدوية اثناء حصول الغزوات المغولية شكلت موردا من موارد البدو. ومن المحتمل أن البدو استغلوا الصراع بين المماليك والمغول وأمدوا كليهما بالاسلحة والعتاد والخيول وسلع أخرى، فسارع كل من المغول والمماليك لكسب رضاهم واغداق الاموال والهبات والعطايا عليهم حتى يستمر تدفق المتطلبات الحربية عليهم. وهذه نقطة جديرة بالاهتمام والتركيز عليها، ويبقى ما نقوله مجرد افتراضات وتخمينات.

ان مواطن سكن البدو الواسعة والمترامية الأطراف وغياب رقابة السلطات، شجعت البدو للعمل بتجارة التهريب - حيث كانت تستقدم الخيول، الجمال، الاسلحة، المعدات دون علم السلطات للتهرب من دفع الرسوم المقررة عليها، وساعدهم على عملهم هذا انفتاح حدود البادية على جهات متعددة ويؤكد ذلك الكميات الهائلة من الخيول التي باعوها للمماليك والتي أثبتتها المصادر بشكل كبير، فمن خلال استعراض العصر المملوكي لوحظ أن البدو تسابقوا في الحصول على الخيول لمنحها أو بيعها للسلاطين حيث كانوا يكسبون أثمانها مضاعفة. ومن السلاطين الذين ساهموا في ازدهار هذه التجارة الناصر محمد بن قلاوون الذي تحالف مع آل مهنا وآل فضل وأصبحوا ساعده الايمن في الحصول على الخيول الاصيلة. (١)

وعندما توفي الناصر محمد ترك قدرا كبيرا من الخيول قدرت بثلاثة آلاف فرس في المرعى، وأربعة الاف وثمانمائة في الاصطبلات، وترك زيادة على خمسة آلاف من الهجن الأصائل والنوق المريات والقرشيات عدا أتباعها وقد تولى تدريب هذه الخيول العربان والامراء، وكان يترتب على كل أمير من أمراء الالوف أربعة رؤوس سنويا ليروضها. (٢)

لذلك لم يأل أمراء البدو جهدا في احضار الخيول للسلاطين سواء بطلب من السلطان شخصيا، أو على سبيل الهدية، فالامير موسى بن مهنا حضر سنة ٧٢٣هـ/١٣٢٣م ومعه الخيول المطلوبة، وكرر هذا العمل مهنا بن عيسى الذي أخذ أثمانها مضاعفة. وقدرت الخيول التي جلبها فياض بن مهنا سنة ٧٤٦هـ/١٣٤٥م بسبعين فرسا ثمنها ألف ألف درهم وخمسون

---

(١) - اليوسفي: نزهة الناظر، ص١٩٨ - المقريزي: السلوك: ج ٢، ق ٢، ص٥٢٦-٥٢٧.
(٢) - المقريزي: السلوك، ج ٢، ق ٢، ص٥٢٩-٥٣٠ - زكريا: المرجع نفسه، ص ٩٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

هجينا وعشر مهريات والتي جلبها سنة ٧٤٩هـ/١٣٤٨م أثنين وسبعين فرسا أقلها بعشرة دراهم وأوسطها بعشرين درهما، وأعلاها بثلاثين ألفا عدا الهجن.(١)

وتعد الجمال موردا آخر من موارد البدو والتي اعتمدوا عليها في معيشتهم وفي تجارتهم، وكانوا لا يوفرون جهدا في كسبها أثناء غاراتهم على القرى، ومن المرجح أن السلطات قد حرصت على الحصول على الجمال من أجل الاستفادة منها وقت السلم ووقت الحرب، وكانت تجارة الجمال بالنسبة لهم تؤمن لهم العيش الدائم، وقد ذكر الصفدي ذلك في تحفة الألباب عندما قال :

« كان البدوي يجلب الجمل ويبيعه بأضعاف قيمته، ويشتري به الغلة رخيصة، لان الناس يحتاجون الى السفر الى مصر ».(٢)

ان المتأمل لهذا النص يلاحظ مدى براعة البدو في استغلال الفرص المناسبة، فالناس كانوا مضطرين لاقتناء الحيوانات لاستخدامها في نقلهم الى مصر وقت حصول الغزو المغولي.

وفي النهاية يمكن القول بأن السبب الأكثر وجاهة من الأسباب المذكورة لثراء البدو وهو تجارة التهريب التي مارسها البدو، والتي حصل لهم بفضلها نفوذ وجاه في البلاد.

وهناك حوادث تاريخية دلت على وجود علاقة خفية بين المغول والبدو، وهي لجوء الأمير قراسنقر والأمير مهنا بن عيسى الى الأراضي المغولية سنة ٧١١هـ/١٣١١م، ذلك أن المغول أعطوا الاميرين الهاربين اقطاعات، فقد أقطع مهنا اقطاعا بالعراق، وهنا يطرح سؤال آخر لماذا أقدم السلطان المغولي (خدابنده) على اقطاع مهنا ؟.

من المحتمل أن خدابنده أقدم على هذا العمل للحصول على معلومات عسكرية وسياسية عن بلاد الشام في وقت كان فيه بأمس الحاجة لمثل تلك المعلومات وذلك للدخول للمنطقة واحراز أمجاد جديدة تضاهي الامجاد والانتصارات التي حققها غازان للمغول، أو كان هدف خدابنده الحصول على الاسلحة والعتاد بشكل سري من البدو عن طريق تهريبها دون علم السلطات والا لما أكرمه كل هذا الاكرام.(٣)

---

(١) - اليوسفي : المصدر نفسه، ص١٩٨ - المقريزي : السلوك، ج٢، ق٢، ص٣٧٣-٤٥٢ - ج٢، ق٣، ص٦٩٢ - ٧٧٠ .

(٢) - الصفدي : تحفة، ج٢، ص١٦٨ .

(٣) - ابن ايبك الدواداري : الدر الفاخر، ص٢١٨ - ٢٣٣ - ابن الوردي : المصدر نفسه، ج٢، ص٤٣٦ - الصفدي : المصدر نفسه، ج٢، ص٢٢٠-٢٢١ - ابن بطوطة : الرحلة، ص٧٧ - المقريزي : السلوك، ج٢، ق١، ص١٢٨-١٣١-٣٧٣-٣٧٤-١٠٨-١٢٨ - ج٢، ق٢، ص٤٨٧ - المقفى، ج٧، ص٢٠٢ - كرد علي : خطط، ج٢، ص١٤٢ - زكريا : المرجع نفسه، ص٩٥ - ٩٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ثالثاً - استغلال قدوم المغول وفساد البدو بالمنطقة :

أثر قدوم الغزاة للمنطقة بشكل مباشر على بعض الاعمال البدوية ، فقد أقدمت بعض القبائل على القيام بعمليات السلب والنهب اثر موقعة عين جالوت وكان على رأس هذه القبائل قبيلة زبيد القاطنة في نواحي دمشق ، فقد هاجموا أكثر أراضي دمشق الزراعية وخربوها فاضطرت السلطات مرغمة الى قتالهم وقتل الكثير منهم.(١)

ولما كانت السلطنة المملوكية منشغلة بالمخاطر الناجمة عن المغول سنة ٦٨٠هـ/١٢٨١م فان البدو استغلوا ذلك وساعدهم تمرد سنقر الأشقر ، فتعرّضوا بعض مناطق فلسطين ومنها غزة ونابلس لأعمال النهب والسلب ، فردت السلطات على ذلك بتجريد كل من الأمير علاء الدين ايدكين الفخري بعساكر غزة ، وشمس الدين سنقر البدوي بعساكر من مصر ، وقد ساعدهم نائب غزة في تأدية مهماتهم ، فقبض الفخري على جماعة منهم ، وشنق عدداً من رجالاتهم قدر باثنين وثلاثين رجلا.(٢)

واستطال البدو في بعض مناطق الشام سنة ٦٩٩هـ/١٢٩٩م اثر غزوة غازان حيث سلبوا الجند الهاربين من المعارك الحربية ، ولم تستطع السلطات في ذلك الوقت الرد عليهم ومعاقبتهم فانتظرت حتى رحل غازان عن المنطقة ، عندئذ ردت عليهم بشكل عنيف حيث طلبت مشايخهم وألزمتهم باحضار ما أخذوه من العسكر وأهل البلاد أثناء هجرتهم الى مصر.(٣)

وفي أثناء التحضيرات لوقعة شقحب أقدم الأمير (سيف الدين قطايا) أمير قبيلة بني كلاب التي تقطن في شمال بلاد الشام على احداث القلاقل والفوضى حين قام بالفساد في نواحي حلب ، ما اضطر السلطات مرغمة لقتاله فهزمته ، عندئذ لجأ الى سلطان المغول غازان الذي أكرمه وحماه ، وظل مقيما عنده حتى توفي غازان فرأى أنه لا بد من العودة للمنطقة فقد استعطف نائب حلب الذي كاتب السلطان بشأنه فعفا عنه وقدم للمنطقة سنة ٧٠٤هـ/١٣٠٤م.(٤)

وتعرضت بعض مدن الشام لغارات البدو أثناء حملة تيمورلنك على البلاد ، وكانت حلب هي

---

(١) - المقريزي : السلوك ، ج١ ، ق٢ ، ص ٤٦٤ .

(٢) - ابن الفرات : تاريخ ، ج٧ ، ص٢٢٥ - المقريزي : السلوك ، ج١ ، ق٣ ، ص٦٨٩ - ٦٩٠ - زكار : المرجع نفسه ، ص٧٦ ٥ - عطالله : المرجع نفسه ، ص ٢٠١ .

(٣) - المقريزي : السلوك ، ج١ ، ق٣ ، ص٩٠٢ .

(٤) - المقريزي : السلوك ، ج٢ ، ق١ ، ص٣ - العيني : المصدر نفسه ، ج٤ ، ص ٣٤٣ - ٣٤٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الأسوأ وضعاً بين تلك المدن، فقد هاجمها بدو آل فضل مما اضطر نائبها دمرداش الى الاستنجاد بالتركمان الرمضانية، كما أقدم أمير آل فضل ويدعى علي على تقسيم البلاد، ولم تكن هذه هي المحاولة الوحيدة من قبله، بل أعادها مرة أخرى سنة ٨٠٦هـ/١٤٠٣م بعد رحيل المغول عن البلاد فتصدى له نائب الشام آنذاك ومنعه من هذه المحاولة.[1] ولا ندري ما هو التقسيم الذي قام به علي هل هو جغرافي، أم اداري حيث حاول الاستقلال بالمنطقة لتبقى تحت نفوذه.

وبالنسبة لبدو المنطقة الجنوبية (فلسطين) فان الروايات تترجح أن قبيلة حارثة كانت بين عشير جبال صفد واللجون وقاقون الذي تولى نهب القوات العسكرية المتراجعة أمام ضغط تيمورلنك، وعلى رأسها السلطان فرج بن برقوق، وقد عانت هذه القوات المشقة في الطريق بعد أن قام البدو بسلبهم الثياب والأمتعة من الدروع والسيوف، حتى أن قسماً منهم ساروا حفاة عراة، عندئذ عمد نائب صفد دقماق المحمدي الى قتالهم، لكن البدو استطاعوا التغلب عليه، فهزموه وقتلوا من مماليكه اثني عشر فارساً وأسروا أمه، فما كان منه الا اللجوء والاستنجاد بنائب طرابلس شيخ المحمودي الذي هب لمساعدته وقتال العرب، واستطاع الاثنان التغلب عليهم وأخذوا ستة آلاف بعير، عندئذ سارع متيريك أمير حارثة بالتوسط لدى السلطة للعفو عنه واسترجاع ما أخذ منهم، فرفض دقماق الطلب.[2]

وعلى الرغم مما حل بمتيريك فانه تابع غاراته، مما اضطر الامير سودون الحمزاوي نائب صفد الى اعتقاله والتمثيل بجثته سنة ٨٠٥هـ/١٤٠٢م.[3]

نستخلص مما ورد أن طوائف البدو والتي ارتبطت مصالحها مع السلطات سارعت الى مساعدتها ضد الغزو المغولي، بينما قامت الطوائف البدوية الاخرى بالهجوم على مدن الشام وقراها اثر الغزوات المغولية، وقد تضررت هذه القرى والمدن بشكل كبير، كما قامت هذه الطوائف بالاعتداء على الجنود الهاربين من المعارك العسكرية مما كان له أثر سلبي انعكس بشكل حاد على المجتمع البدوي.

واذا كانت المصادر قد أمدتنا بمعلومات عن تأثير الهجوم المغولي على حياة المدن، وتأثيراً أقل

---

(١) - العسقلاني: انباء، ج٥، ص١٤٩-٢٢١.

(٢) - المقريزي: السلوك، ج٣، ق٣، ص١٠٦٦-١٠٦٧ - العسقلاني: انباء، ج٤، ص٢٠٠-٢٤١
- الصيرفي: نزهة النفوس، ج٢، ص٨٥-٨٦ - ابن اياس: المصدر نفسه، ج١، ق٢، ص٦٣٠
- زكار: المرجع نفسه، ص٥٦٩ - الطراونة: نيابة صفد، ص٢١٤.

(٣) - العسقلاني: انباء، ج٥، ص١٧ - زكار: المرجع نفسه، ص٥٦٩ - الطراونة: المرجع نفسه، ص٢١٤

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

على حياة الريف، فانها لم تزودنا بأي معلومات عن تأثير الهجوم على البادية، لكننا من خلال استعراض حياة القبائل البدوية في هذه الفترة نستخلص بأنها لم تتأثر بالشكل الذى تأثرت به المدن والأرياف، ذلك أن الغزاة اقتحموا المدن الكبيرة كحلب ودمشق ونواحيها وعاثوا فيها الفساد فكانت هذه المدن محور عملياتهم الحربية بينما نجت البادية من الدمار المغولي الذى عم هذه المدن، وبالتالي توفرت للبدو الظروف السياسية والاجتماعية والاقتصادية المناسبة التي جعلتهم يعيشون حياة تجارية مزدهرة، وأصبح لهم نفوذ سياسي في المنطقة لأنهم كانوا يشكلون فئة لا يستهان بها ضمن المجتمع العربي الاسلامي في بلاد الشام.

ب- التركمان :

- دفع الغزو المغولي لبلاد الشام قبائل التركمان القاطنة في مدن وقرى الشام الى القيام بأعمال تخريبية ضد السكان المحليين وضد الأراضي الزراعية وذلك لتنفيذ طموحاتهم وآربهم في تحقيق ثقل سياسي واعادة الأمجاد السابقة في اقامة دولة تخصهم. ولم يقتصر تحريض الغزو المغولي على التركمان القاطنين بداخل البلاد بل شمل التركمان القاطنين في آسيا الصغرى وفي كيليكية وفي الجزيرة الفراتية. (١)

لم تكن الأعمال التخريبية للتركمان ضد أراضي البلاد في الحملات الثلاثة هولاكو-غازان- تيمورلنك على وتيرة واحدة، فبينما لم تذكر المصادر عن أعمالهم أثناء غزوة هولاكو وغازان معلومات بهذا الصدد، نلاحظ أنها أمدتنا بفيض وفير من المعلومات عن أعمالهم التخريبية أثناء غزوة تيمورلنك. ولا بد لنا قبل الخوض في آثار الغزو وانعكاساته على الأعمال التخريبية للتركمان من ايراد معلومات مختصرة عن مناطق وجودهم في بلاد الشام.

وتبعا لما ذكرته المصادر توزعت القبائل التركمانية بين شمال البلاد وجنوبها، ففي المناطق الشمالية استقروا في الجبل الأقرع، وقد هاجم هؤلاء في فترة متأخرة المؤيد شيخ الظاهري سنة ٨٠٤هـ/١٤٠١م. وكثروا في حلب والمناطق المحيطة بها، اذ وجدت منهم طائفة في

---

(١)- من أجل دويلات التركمان في آسيا الصغرى وكيليكية والجزيرة ينظر: ابن عبد الظاهر: تشريف ص ٢٥٥-٢٥٦- العمرى: التعريف ص ٤١- ابن قاضي شهبة: المصدر نفسه، ج ١، ق ٣، ص ١٩٩- ٦٧٦- ابن تغرى بردى: المنهل، ج ١، ص ٢٩٧-٢٩٨- السخاوى: الضوء، ج ٨، ص ٢٠٢- ج ١، ص ٣٠٣- ج ٥، ص ٣١٣- القرماني: أخبار الدول ص ٣٣٦- ٣٣٩- الشوكاني: البدر الطالع، ج ١، ص ٤١٣- شبولر: العالم الاسلامي في العصر المغولي، ص ١٣٥- ١٣٦- زظمة: المماليك في مصر، ص ٧٣- ٧٤

- (CAHENCCLAMDE) : pre ottoman Turkey - SIDG wick - jickson London , 1968 - P 313 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ظاهر المدينة دعيت باليا روقية انتسبت الى ياروق التركماني الذي بني على شاطيء قويق فوق تل مرتفع مساكن لأهله وعمائر متسعة.(١) كذلك قطنوا في تيزين الموجودة على طريق قنسرين، وفي العمق، وفي رعبان وهي مدينة بالثغور بين حلب وسميساط قرب الفرات، وقد أسكنهم فيها الظاهر بيبرس بعد أن خرب المغول قلعتها وسلموها لملك الأرمن، لكن الظاهر أعاد الاعمار بها مرة أخرى، ولا يغيب عن ذهن الباحث أنهم قطنوا جعبر، ذلك أن حاكمهم سالم الدوكاري أو (الذكري-الدكري) شغل دورا هاما سواء على الصعيد السياسي، أوفي اقدامه على قطع الطرق على القوافل التجارية، اضافة الى هجومهم المستمر على حلب، ففي سنة ٨٠٦هـ/١٤٠٣م هاجم خجا بن سالم نائب جعبر حلب وأفسد القرى وقطع الطرق.(٢) وأكد ابن شيخ الربوة وجودهم في المناطق الشرقية في حران وعينتاب، كما تواجدوا في المناطق الوسطى كشيزر.(٣)

وفيما يتعلق بالمناطق الجنوبية فقد أقاموا في الجولان، وهؤلاء قدموا من بلاد المغول، لكن حادثة وقعت لهم اضطرتهم الى مغادرة بلاد الشام واللجوء الى بلاد الروم خوفا من السلطات، ذلك أنه في سنة ٦٥٩هـ/١٢٦٠م وقعت بينهم وبين الفرنج المقيمين بصفد نزاعات ومشاحنات أدت الى قتل الكثير من الفرنج فخافوا من عاقبة ذلك ورحلوا عن البلاد.(٤)

وتبعا لما أورده ابن خلدون في أحداث سنة ٧٠٢هـ/١٣٠٢م فانه أكد وجود أحياء من التركمان بالقدس، تولوا قتال قطلوشاه أحد قواد غازان وهزموه.(٥)

ومن الجدير بالذكر أنهم قطنوا في الشريط الساحلي الممتد على طول البحر المتوسط، وقد ورد أنهم استوطنوا نواحي طرابلس عند الميصرة. وذكر ابن شداد في تاريخه أنه في أثناء هجوم المغول على بعض القبائل التركمانية وفد الى البلاد ما يزيد على أربعين ألف بيت أنزلهم في مساحة امتدت من غزة في الجنوب الى انطاكية الى تخوم سيس بعد أن منحهم الاقطاعات الكثيرة.(٦)

---

(١) - ابن خلكان: وفيات، ج ٦، ص ١١٧ - ابن خطيب الناصرية: الدر المنتخب، ج ١، ورقة ٥١٥.

(٢) - ابن خطيب الناصرية: المصدر نفسه، ج ١ ورقة ٤٤٧ - ابن تغري بردي: المنهل، ج ٥، ص ٣٢٤ - ابن الشحنة: الدر المنتخب، ص ٢٢٢ - السخاوي: الضوء، ج ٦، ص ٢٢٧ - الطباخ: اعلام، ج ٢، ص ٣٠٨.

(٣) - ابن قاضي شهبة: المصدر نفسه، ج ١، ق ٣، ص ٤٦٤ - الصيرفي: نزهة النفوس، ج ٢، ص ٩٣

(٤) - ابن خلدون: العبر، ج ٥، ص ٨٢٨ - العيني: المصدر نفسه، ج ١، ص ٣١٨.

(٥) - ابن خلدون: المصدر نفسه، ج ٥، ص ١١٦٢.

(٦) - ابن شداد: تاريخ، ص ٣٣٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لقد حرك الهجوم المغولي للمناطق المحيطة ببلاد الشام قدوم مهاجرين تركمان اليها ، ففي سنة ٦٦٠هـ/ ١٢٦١م قدم مهاجرون تركمان من بلاد الروم اثر تعرض منطقتهم للهجوم وقطنوا في البلاد وخضعوا للظاهر بيبرس. (١)

١ - نتائج الهجوم المغولي على أعمال التركمان :

كان للهجوم المغولي أثران متضادان على أعمال التركمان ، آثار سلبية ، آثار ايجابية ، فقد تجلى الجانب الايجابي في تكتل طوائفهم وقبائلهم في جبهة قوية استطاعت حماية حدود البلاد من غارات الأعداء ، وبالتالي الوقوف جنبا الى جنب مع القوة العربية الاسلامية العسكرية ، بينما أثمر الجانب السلبي عن ازدياد التنافس بينهم وبين البدو في المنطقة ، ومحاولتهم مد سيطرتهم على بعض مناطق الشام اثر رحيل الغزاة متخذين نصب أعينهم الفوضى وعدم الاستقرار الأمني الذي كان يعم البلاد اثر كل غزوة.

أما الناحية الايجابية تجلت في ظهور التعاون والتحالف بين السلطات المملوكية وبعض القبائل التركمانية الموجودة في الشام ، هذه القبائل التي شاركت السلطات مهمتها القتالية وأقدمت على المشاركة في وقعة حمص سنة ٦٨٠هـ/ ١٢٨١م الى جانب البدو والذين احتلوا الميسرة ، بينما كان هؤلاء في ميمنة الجيش دائما . (٢)

لكن بعض عساكرهم خيبوا آمال الناصر محمد بن قلاوون سنة ٧٠٠هـ/ ١٣٠٠م فعندما علم بقدوم المغول جندما يزيد على ثمانمائة شخص منهم ، وأعطى لكل واحد منهم ستمائة درهم ، فهرب أكثرهم لما علموا بعبور المغول الفرات ، وذهب المال المدفوع كله . (٣)

والجدير بالذكر أن ننبه هنا الى أن هؤلاء التركمان لم يخونوا السلطان ويخذلوه ، وانما أدركوا بأنهم لا طاقة لهم بالجيش المغولي المسلح والمدرب تدريبا جيدا ، كما أن الظروف الامنية والسياسية ساهمت في اعاقة مهمتهم.

وحصلت مناوشات تطورت الى لقاءات عسكرية بين التركمان والمغول قبل وقعة شقحب وتحديدا سنة ٧٠١هـ/ ١٣٠١م أسفرت عن هزيمة التركمان وأسر الكثير منهم ، مما حدا بنائب طرابلس اسندمر كرجي الى استنقاذ ألف أسير منهم ، ولم ينس المغول أعمال التركمان العدوانية ضدهم

---

(١) - اليونيني : المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ٥١٢ - زكريا : المرجع نفسه ، ص ٦٧٨ .

(٢) - النويري : المصدر نفسه ، ج ٣١ ، ص ٣٣ - ابن الفرات : المصدر نفسه ، ج ٧ ، ص ٢١٣ - المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ق ٣ ، ص ٩٠٧ .

(٣) - ابن خلدون : المصدر نفسه ، ج ٥ ، ق ٤ ، ص ١٠٨٥ - المقريزي : المصدر نفسه ، ج ١ ، ق ٣ ، ص ٩٠٧ - ملطيوس : تاريخ ، ج ٣ ، ص ٧٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فاقتصوا منهم أثناء وقعة شقحب وقتلوا الكثير ونهبوا قراهم.(١)

وعلى العموم لم يستطع الهجوم المغولي أن يحدث شرخا في الجبهة الداخلية العسكرية لبلاد الشام، هذه الجبهة التي اتحدت وتكتلت وتوزعت الأدوار فيما بينها، وتناست النزاعات والمصالح الشخصية، فبينما اتخذ البدو على عاتقهم حماية الحدود الشرقية والشمالية الشرقية وحفظ أمن البادية، والغارات على العدو، التزم التركمان بالتزامات تكمل الأولى وتنحصر في حماية الحدود الشمالية من هجمات المغول الطامعين في المنطقة. وقد اتبعت السلطات السياسة نفسها التي اتبعتها مع البدو والتي تتلخص في منحهم الامريات والاقطاعات، ففي سنة ٧٣٨هـ/١٣٣٧م كرم الناصر محمد خليل بن دلغادر وأمره وأقطعه الاقطاعات الجليلة وهذا ما دفع بخليل الى مقارعة المغول أكثر من مرة.(٢)

لقد جمعت المصالح المشتركة كلا من المماليك والبدو والتركمان في جبهة واحدة ضد العدو، وهذا ما حدا بالأطراف جميعها الى توقيع الاتفاقيات التي تتضمن الدفاع ضد أي طرف يتعرض للغزو، وعملا بهذه الاتفاقيات فقد تبنى زعيم طائفة القراقونيلو/ قرايوسف التركماني/ ضد جنود المغول الذين قدموا الى نواحي ماردين، واستطاع الفتك بهم بعد حيلة نفذها فقد أخلى معسكره من المقاتلين مما دفع بالمغول للنزول بالخيام فداهمهم وقتل الكثير منهم.(٣)

كما صدت قبائل التركمان (القراقونيلو) الغارة التي شنها المغول على المنطقة سنة ٧٩٧هـ/ ١٣٩٤م، وكان عددهم نحو عشرين ألف مغولي، واستطاع زعيم القراقونيلو هزيمتهم في المعركة.(٤) وظهرت براعتهم في اكتساب المواقف الايجابية عندما استطاعوا القبض على أطلمش قريب تيمورلنك وأسره، وأطلمش كان نائبه في بعض القلاع القريبة من تبريز، لذلك أرسلوه للقاهرة سنة ٧٩٨هـ/١٣٩٥م فأمر السلطان بحبسه في قاعة عنده.(٥)

بعد التوصل الى معرفة موقف التركمان أثناء الحملات العسكرية المغولية وأثر تلك الحملات بات من الممكن طرح تساؤل يمكن أن يكون له قيمة في هذا الموضوع وهو لماذا انضم التركمان الذين يقطنون داخل البلاد وخارجها الى جبهة المماليك في صراعهم ضد المغول؟ هل كان هناك عداء بينهم وبين المغول؟ أم أن هناك أسبابا أخرى دفعتهم لهذا العمل؟

---

(١) العسقلاني: الدرر، ج ١، ص ٣٨٧.

(٢) - المقريزي: المقفى، ج ٣، ص ٧٦٨-٧٦٩- ابن الطباخ: المصدر نفسه، ج ٢، ص ٣٢٠.

(٣) - ابن قاضي شهبة: المصدر نفسه، ج ١، ق ٣، ص ٢١٦.

(٤) - ابن قاضي شهبة: المصدر نفسه، ج ١، ق ٣، ص ٥٥٧.

(٥) - ابن قاضي شهبة: المصدر نفسه، ج ١، ق ٣، ص ٥٧٤- ابن اياس: المصدر نفسه، ج ١، ق ٢، ص ٤٨١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

من الممكن أن يكون التركمان قد أدركوا تماما بأنهم عاجزون عن الحرب في جبهتين ، جبهة المماليك من جهة والمغول من جهة أخرى ، فهم لا يستطيعون الوقوف في وجه القوة العربية الاسلامية عسكريا لأنهم قوى وطوائف متفرقة لا يجمع بينها حكم مركزي قوي هذا من جهة ، ومن جهة أخرى علموا مسبقا بأنهم لا طاقة لهم في مواجهة قوات المغول الكبيرة والتي كانت تضم جنسيات مختلفة ، الى جانب يقينهم لو وقفوا الى جانب المغول وتمكن هؤلاء من السيطرة على بلاد الشام فسيكون مصيرهم مصير جميع القبائل والشعوب التي خضعت لهم من القتل والسبي والاسر وتدمير ممتلكاتهم الزراعية والصناعية والتجارية ، يضاف الى ذلك الجانب الديني ، فالمعروف أن معظم التركمان يعتنقون الدين الاسلامي السني وهم متعصبون كثيرا له وهم يلتقون في ذلك مع المماليك المدافعين عن الاسلام والمتعصبين له . لهذه الأسباب جميعا ارتأى أمراء التركمان الانضمام الى الجبهة الاسلامية ضد العدو المغولي وعقدوا معهم اتفاقيات تقتضي الدفاع عن التركمان ضد أي عدو خارجي .

مما سبق ذكره يتفرع سؤال آخر وهو لماذا لم يتحالف التركمان مع المغول مثلما فعل الأرمن ؟ وبذلك يضمنوا استمرار مصالحهم وتحقيق أهدافهم .

ان المصادر العربية الاسلامية وغير العربية جعلتنا نقف أمام معضلات كثيره وخطيرة لم يتقدم أحد من المؤرخين أو الباحثين لحلها ، وهذا ما ولد شعوري بالخوف أمام كل ترجيح أو رأي شخصي أورده بذلك ، فأتت بعض معلوماتي استنتاجية مبنية على أحداث ووثائق تاريخية مرت بشكل مقتضب ومختصر لدى المؤرخين . وبناء على ذلك أقول بأن التركمان قد علموا بعجز المغول عن تأمين الحماية الدائمة لهم واذا أخذنا بعين الاعتبار أنهم يقطنون داخل البلاد التي يحكمها المماليك ، أو على حدود دولتهم سواء الشرقية أو الشمالية منها ، وكانوا على قناعة تامة بأنهم لو تحالفوا مع المغول فان مصيرهم سيكون كمصير الارمن ، فعلى الرغم من أن المغول قد أمدوا الأرمن بجسور من المساعدات العسكرية والتجارية ، وأبرموا معهم الاتفاقيات والمعاهدات التي تقتضي الدفاع عنهم ، لكنهم لم يستطيعوا حمايتهم من الهجمات المملوكية خاصة وأن المماليك كانوا قوة لا يستهان بها .

جاءت تحركات التركمان وغاراتهم ضد المغول سببا لعقوبتهم ، لذلك لم تسنح أمام المغول فرصة من الاقتصاص منهم الا اغتنموها ، ففي سنة ٦٧٠هـ/ ١٢٧١م هاجموهم في عينتاب ، ثم تابعوا

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

سيرهم حتى وصلوا الى المنطقة الواقعة بين حارم وانطاكية والتي يقطنها التركمان فاقتصوا منهم وقتلوا الكثير، فسمع السلطان المملوكي بأنباء هذا الهجوم، فما كان منه الا أن سارع الى الدفاع عنهم، ويعتبر هذا أحد الدلائل على التحالف التركماني المملوكي (١).

وقبل وقعة شقحب سنة ٧٠٢هـ/١٣٠٢م هاجم المغول القريتين حيث توضعت بها أحياء من التركمان المهاجرين من الفرات، فاستاقوا أحياءهم بما فيها، فأنجدهم عسكر حلب وأوقعوا بالمهاجمين واستخلصوا التركمان من أيديهم، وسبى الغزاة النساء والرجال وأخذوا أسرى كثيرين (٢).

وحافظت السلطات المملوكية على علاقاتها الودية مع التركمان، مع تنفيذ وعودها بحمايتهم حتى قدم تيمورلنك بجيوشه الجرارة للبلاد فاختلفت موازين القوى ولم تستطع السلطات المملوكية حينها الدفاع عنهم، مما أدى الى استغلال بعضهم لظروف البلاد السيئة ومهاجمة الاراضي والممتلكات من وقت لآخر.

أضمر تيمورلنك البغضاء والحقد لهؤلاء الذين تركوا المغول ووقفوا مع أعدائهم المماليك، لذلك فقد اقتص منهم ولم يرحمهم، وبدأ بالتركمان المحيطين ببلاد الشام، فهاجم عينتاب مرتان الأولى عند دخوله لبلاد الشام سنة ٨٠٣هـ/١٤٠٠م، والثانية أثناء انسحابه، حيث أسروا منها كل امرأة جميلة، ونهبوا ما وقع تحت أيديهم من الاموال والاطفال، حتى أخذوا المواد الغذائية التي يقتات بها السكان كالزبيب والدبس والأرز، ونهبوا أسواقها، فأدى ذلك الى ارتفاع الاسعار فيها (٣).

وما عدا المعلومات التي أوردتها فيما مضى لم أقع في المصادر على أخبار تخص التركمان الذين قطنوا بالداخل، ومن المحتمل أن يكونوا قد تعرضوا للوحشية المغولية من النهب والقتل والتدمير، خاصة أن المغول عرفوا بقساوة القلب، وعدم التمييز بين طائفة وأخرى، فمثلا عندما هاجموا حلب أصاب التركمان ما أصاب بقية السكان، وهذا يقاس على جميع المناطق التي تعرضت للتدمير المغولي والتي قطنها التركمان.

---

(١)- ابن كثير: المصدر نفسه، ج ١٣، ص ٢٦١ - ابن الطباخ: المصدر نفسه، ج ٢، ص ٢٦٠.
(٢)- المنصوري: التحفة، ص ١٦٤ - ابن خلدون: المصدر نفسه، ج ٥، ص ٨٩٨ - المقريزي: السلوك ج ١، ق ٣، ص ٩٣١ - العسقلاني: الدرر، ج ١، ص ٣٨٧ - العيني: المصدر نفسه، ج ٤، ص ٢١٨ - ٢١٩ - ابن تغري بردي: النجوم، ج ٨، ص ١٥٧ - ١٥٨.
(٣)- الصيرفي: نزهة النفوس، ج ٢، ص ٩٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

كذلك ينطبق عليهم ما انطبق على بقية السكان فقد لحقت الاضرار بأراضيهم الزراعية ،اضافة الى هجرة الأيدي العاملة في الأراضي.

٢- نتائج الهجوم المغولي في ازدياد الصراع البدوي التركماني :

تأثرت الحياة الاجتماعية والسياسية في جميع جوانبها في بلاد الشام بالهجوم المغولي ، فقد ساد عدم الاستقرار السياسي وعمت الفوضى وانعدم الأمن أثناء الغارات، وتغيرت الحياة القبلية في البلاد ، فقد أصبح للبدو النفوذ المطلق في أكثر الأحيان ، ووصلوا الى درجة كبيرة من الثراء والغنى ، وأصبحت الأراضي المزروعة في الوقت نفسه أقل مما سبق . وهذا عاد بالضرر الكبير على العلاقات بين التركمان والبدو. فكلا الطرفين سعى الى تحقيق مصالحه الذاتية بطرق مشروعة أو غير مشروعة مما أدى الى تضارب هذه المصالح وبالتالي الى ازدياد المشاحنات والنزاعات بين الطرفين . وكان موقف البدو ومركزهم السياسي في المنطقة ،أقوى من التركمان لأنهم حازوا على رضى الأطراف المتصارعة ، فالمماليك سارعوا الى كسب رضاهم لتأمين متطلبات السلطات من الخيول والجمال والأسلحة ،والمغول سلكوا الطريق نفسه معهم للحصول منهم على معلومات عسكرية وسياسية وخاصة نواحي الضعف لدى الجيش الاسلامي ،اضافة الى الحصول منهم على معدات عسكرية وحربية يفتقدونها ، يؤيد ذلك كثرة هروب أمراء البدو الى الأراضي المغولية وحمايتهم ،واقطاعهم الاقطاعات الجليلة. هذه العوامل المذكورة أدت الى ازدياد المشاحنات بين البدو والتركمان ، وكان المتضرر الأكبر من جراء هذه النزاعات هي قرى ومدن الشام التي أصبحت مسرحا للحروب التي أدت بالنهاية الى الاضرار بالفعاليات الاقتصادية والاجتماعية.

ففي سنة ٧٩٧هـ/١٣٩٤م حصل صراع بين التركمان الموالين للسلطات وبين نعير بن حيار ابن مهنا ، وأسفر هذا الصراع عن ابادة المواشي بما فيها الأغنام والجمال ويقال كان عددها ثلاثة آلاف جمل ، يضاف اليها مقتل الكثير من البدو ، ويقال أن هذه الوقعة قصمت ظهر نعير.(١) من المرجح أن رجحان كفة البدو على التركمان سياسيا في المنطقة زادت من حدة المشاحنات فالعلاقات وصلت الى درجة سيئة جدا بين تركمان جعبر وبدو آل فضل فقد استمرت الحروب

---

(١) - ابن الفرات : المصدر نفسه ، ج ٩ ، ق ١ ، ص ٤٠ - المقريزي : السلوك ، ج ٣ ، ق ٢ ، ص ٨٣٣ - ابن قاضي شهبة : المصدر نفسه ، ص ٤٥ - العسقلاني : انباء ، ج ٣ ، ص ٢٤٥ - الصيرفي : المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ٤٠٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بين دمشق خجا بن سالم سيف الدين الدكزي التركماني نائب جعبر ونعير سنين طويلة أفضت بالنتيجة الى مقتل دمشق خجا سنة ٨٠٦هـ/ ١٤٠٣م على يد نعير.(١)

٢- نتائج هجوم تيمورلنك في ازدياد أطماع التركمان :

- كان لهجوم تيمورلنك على بلاد الشام أسوأ الأثر على هذه البلاد ، فقد حرك هذا الغزو القبائل التركمانية ودفعها نحو المناطق الحدودية مما مكنها من الاعتداءات على المدن والقرى ، وأصبحت نيابة حلب والمناطق المحيطة والتابعة لها مجالا للسباق بين التركمان أنفسهم للسيطرة عليها ففي سنة ٨٠٤هـ/ ١٤٠١م هاجمها ابن رمضان التركماني متخذا في ذلك ذريعة مساندة نائبها دقماق ضد دمرداش،(٢) كذلك هاجموها سنة ٨٠٦هـ/ ١٤٠٣م وأفسدوا في أراضيها ، وبالغوا في النهب والمصادرة ، كما أفسدوا في اعزاز وفي مناطق أخرى تابعة لها.(٣)

وكانت ردة فعل فارس بن صاحب الباز تجاه مناطق الشام كبيرة اثر حملة تيمورلنك ، فانشغال السلطات باعادة الاستقرار الأمني ، واعادة مجريات الأمور الطبيعية للمجتمع دفع فارس أمير التركمان بالعمق لشن الغارة على انطاكية والقيصر وما جاورهم ، ومد سيطرته على البلاد الغربية من أعمال حلب فرد عليه نائب حلب دمرداش بأن استعان على قتاله سنة ٨٠٧هـ/ ١٤٠٤م بالتركمان البياضية والاينالية والفادرية والرمضانية ، كما تناسى خلافاته مع طائفة الاجقية والبزقية وهاجم هؤلاء جميعا فارس الذي تحصن با نطاكية ، فعجزوا عن الامساك به ، فما كان من دمرداش الا أن عسكر على العمق بطائفة الاينالية والبياضية.(٤)

وأرغمت الظروف الأمنية والسياسية حكم نائب حلب على الحد من سطوة ونفوذ فارس والقضاء على مطامعه العدوانية ، فهاجم حكم منطقته سنة ٨٠٨هـ/ ١٤٠٥م وسلب نعمته وخرب بيته ، ثم هاجم انطاكية وهزم التركمان الموجودين فيها ، فسألوه الأمان وأن يسمح لهم بالخروج الى الجبال والى مواطنهم القديمة ، ويسلموا اليه القلاع الموجودة بحوزتهم ، فتقرر الحال على ذلك وأرسل الى كل قلعة واحدا من جهته ودخل حلب بعد أن استطاع أسر فارس فسلمه الى

---

(١)- المقريزي : السلوك ، ج ٣ ، ق ٣ ، ص ١١٢٣ - ابن تغري بردي : المنهل ، ج ٥ ، ص ٣٢٤ - السخاوي : ج ٣ ، ص ٢١٩ .

(٢)- المقريزي : السلوك ، ج ٣ ، ق ٣ ، ص ١٠٨٩ - العسقلاني : انباء ، ج ٥ ، ص ٩١ - الصيرفي : نزهة النفوس ، ج ٢ ، ص ١٣٥ - ابن اياس : بدائع الزهور ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٦٤٠ .

(٣)- ابن خطيب الناصرية : المصدر نفسه ، ج ١ ورقة ٤٤٧ - العسقلاني : انباء ، ج ٥ ، ص ١٤٩ - ١٥٣ - السخاوي : المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ٢١٩ - ابن اياس : المصدر نفسه ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٦٨٨ .

(٤)- ابن خطيب الناصرية : المصدر نفسه ، ج ٢ ، ورقة ١٤٥ - المقريزي : السلوك ، ج ٣ ، ق ٣ ، ص ١١٤٢ - ابن اياس : المصدر نفسه ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٧٠٣ - ٧٠٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

عدوه غازي بن أوزن فقتله وقتل ولده .(١)

وتأثرت المناطق الداخلية والساحلية بهجمات التركمان مثلما تأثرت المناطق الشمالية ، فقد ظهرت مطامع التركمان في طرابلس حيث أغار عليها ابراهيم بن صوجي ،لكن نائبها شيخ خرج في اثره فأظهر ابراهيم الهزيمة الى أن بعد عن البلد وهويتبعه ،فشفع فيه دقماق نائب حلب فقبلت شفاعته ، وتفرقت عساكره فاغتنم صوجي الفرصة وهجم على عسكر شيخ الجرار لكن الاخير هزم التركمان .(٢)

وتعرضت قارا لهجوم تركماني من قبل أصحاب سالم الدوكاري سنة ٨٠٥هـ/١٤٠٢م حيث استباحوا القرى المحيطة بها ونهبوها ، ونهبوا ثلث البلد ، ولم يخرج اليهم نائب حلب ، ولم يزعجهم ، وعاقبوا الناس من أجل جمع الاموال وذلك على مثيل ماصنع تيمورلنك في البلاد .(٣)
والظاهر أن حملة تيمورلنك فتحت الباب على مصراعيه أمام طموحات التركمان في تحقيق كيان سياسي خاص بهم ، واعادة أمجادهم السابقة ،لاسيما أنهم نجحوا في القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى في مد سيطرتهم على معظم مناطق الشام ، فقبل استيلاء السلاجقة على الشام كانت حلب والموصل وحران وقلعة جعبر تحت سلطان أسر بدوية من قبائل كلاب وعقيل ونمير وقشير ، ونجح التركمان في تجريد هذه الأسر من سلطانها ، واغتصاب ملكها لانفسهم ، كما أن بعض أمرائهم شغل دورا موثرا في انزال ضربة قاصمة بالقوة البدوية العربية في الجزيرة ، ويضاف الى ذلك أن الاسرة الارتقية التركمانية حكم أفراد منها في حلب والجزيرة وكانوا من أهم قادة المسلمين أيام الحملة الصليبية الأولى ، ثم أثناء الفترات التالية .(٤)
ان كل ماورد ذكره من أسباب يفسر استمرار الضغط التركماني على مناطق الشام لاسيما حلب اذ أرادوا أن يسيطروا على جميع مدن الشام ويجعلونها تحت نفوذهم/أو راهبة (راغبة) مستغلين اضطراب أوضاعها الامنية والاقتصادية من جراء غزوة تيمورلنك ،لذلك تابع علي بن خليل بن دلغادر التركماني غاراته على القرى المحيطة بحلب سنة ٨١٠هـ/١٤٠٧م ونهبها وأفسد فيها كثيرا ووقفت السلطات عاجزة عن ردعه فظل على وضعه هذا مع تسلمه لنيابة عينتاب حتى استقر الاشرف برسباي في سدة الحكم وعزله الى مصر (٥)

---

(١) - ابن خطيب الناصرية :المصدر نفسه ،ج ١ ورقة ٤١ - العسقلاني :انباء ،ج ٥ ،ص ١٩٩ - ابن اياس :المصدر نفسه ،ج ٢ ،ص ٢١٨ - السخاوى :المصدر نفسه ،ج ٦ ،ص ١٦٣ - كرد علي :المرجع نفسه ، ج ٢ ،ص ١٧٨ .
(٢) - ابن خطيب الناصرية :المصدر نفسه ج ٢ ورقة ٤١ - العسقلاني :انباء ،ج ٥ ،ص ١٦ .
(٣) - العسقلاني :انباء ،ج ٥ ،ص ٨٦ .
(٤) - زكار :امارة حلب ،ص ١٥٦ - ١٧٠ .
(٥) - العسقلاني :انباء ،ج ٦ ،ص ٢٥ - السخاوى :الضوء ،ج ٥ ،ص ٢١٧ - كرد علي :المرجع نفسه ، ص ١٨١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أمام هذا الخراب والدمار الذي لحق مناطق الشام من جراء الغارات التركمانية، قامت السلطات المملوكية بتسيير حملات لقتالهم وكانت أقوى الحملات الموجهة ضدهم التي وجهها شيخ المحمودي على الأطراف الشمالية لبلاد الشام لارغام الدويلات التركمانية مثل ذي الغادر، قرمانية، رمضانية الى العودة الى سابق عهدها من خضوع وطاعة للسلطان، ففي سنة ٨٢١هـ/١٤١٨م توجهت الحملة بقيادة المؤيد شيخ فحاصر طرسوس مدة أربعة أشهر وأكثر، فقدم له أمراء التركمان فروض الطاعة، ولكن لم يكد المؤيد شيخ يعود الى بلاده حتى نقض التركمان القرمانية الهدنة فأرسل اليهم مجددا حملة بقيادة ابنه ابراهيم سنة ٨٢٢هـ/١٤١٩م فوصل ابراهيم حلب، ثم كركر متوجها لقتال ابن قرمان الذي هرب، ثم توجه نحو لارندة فنازلها وكانت قاعدة بلاد ابن قرمان، ثم الى قيسارية وهي أعظم بلاده، والى قونية، وهي كرسي البلاد، وخطب في جميع البلاد باسم المؤيد شيخ وضربت السكة باسم ابراهيم المذكور وأسره ابن قرمان، ومات بعد فترة، ثم مات شيخ بعده سنة ٨٢٤هـ/١٤٢١م.(١)

ويبدو أن هذا الهدوء جاء موقتا بدليل أن زعيم دولة الشاة البيضاء (آق قونيلو) انتهز فرصة سوء التفاهم بين السلطان برسباي وشاه رخ حول مسألة كسوة الكعبة وأغار على حدود الشام فأرسل برسباي حملة خربت الرها سنة ٨٣٣هـ/١٤٢٩م، لكنه لم يستطع أن يقوم بعمل تأديبي ضد التركمان، لأن ازدياد النفوذ العثماني وتدخلهم في شؤون تلك الامارات التركمانية على حدود المماليك جعل السلطات في بلاد الشام ومصر تضع حدا لتغلغل نفوذهم ونفوذ العثمانيين، لذلك أقدمت السلطات على ارسال عدة حملات ضد شاه سوار أمير ذوالغادر سنة ٨٧٣هـ/٨٧٦هـ/١٤٦٨، ١٤٧١م لأنه كان يقطع الطرق على التجار، ويمنع مرور الميرة والبضائع، مما أدى الى ضعف نشاط الحركة التجارية في المدن الشامية، كما وصل فساده ونهبه حتى حلب وملطية فاستطاعت السلطات انزال الهزيمة به والاستيلاء على قلعة أذنة وعينتاب وطرسوس والقبض عليه وارساله الى القاهرة.(٢)

---

(١)- العسقلاني: انباء، ج٧، ص٣٠٣-٣٢٣-٣٤٣-٣٥٤- القرماني: المصدر نفسه، ص٣٣٩- الشوكاني: البدر الطالع، ج١، ص٢٨٣- عاشور: مصر والشام، ص٢٣٤.

(٢)- الصيرفي: انباء الهصر بأنباء العصر، القاهرة، دار الفكر العربي، ١٩٧٠، ص٧٠-١٢٩-٢١٢-٣٢٣- عاشور: المرجع نفسه، ص٢٤٥-٢٤٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

كان من محصلات الحملات المغولية المتكررة على المنطقة خراب المزروعات ، هجرة السكان من الفلاحين والعاملين الى خارج البلاد ، وقتل عدد كبير من السكان اضافة الى النهب ، وشيوع الفوضى وانعدام الاستقرار الأمني والاجتماعي ، والى بروز مطامع البدو ، وازدياد هجوم التركمان على مدن الشام وقراه رغبة في اعادة الامجاد السابقة في تأسيس حكم تركماني يسيطر على البلاد ، لكن المماليك لم يتيحوا لهم تنفيذ مطامعهم . ان هذه العوامل مجتمعة أدت الى تأخير الانجازات الحضارية والاقتصادية والاجتماعية التي كان يطمح اليها المجتمع العربي اثر خروج المغول من البلاد .(١)

---

(١)-الصيرفي : المصدر نفسه ، ص ٧٧- ١٣٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

١ـ دخل الدولـــة :

ان فهم وتحليل الجوانب العديدة للحياة الاقتصادية يتطلب مجموعة من البيانات والاحصاءات التي تخص الحقل الاقتصادي . وكلما زاد حجم هذه البيانات والمعلومات كلما دعت الحاجة الى تحليلها وتنسيقها بشكل يفيد البحث الاقتصادي . وباعتبار أن غالبية المؤرخين في فترة البحث أهملوا تدوين هذه الجوانب الاقتصادية وأولوا اهتماماتهم لتدوين الجوانب السياسية لذلك وجدت صعوبة كبيرة في استخلاص الجوانب الاقتصادية . اضافة الى أن غالبية المدونات الاقتصادية خصت مصر باعتبارها مقر الحكم المركزي المملوكي ، ولكون معظم المؤرخين من مصر فقد أولوا بلادهم فـــي مدوناتهم أهمية خاصة لذلك وجدت صعوبة كبيرة في الفصل بين القوانين المطبقة في بلاد الشام ومصر باعتبارهما تخضعان لحكم مركزي واحد هو الحكم المملوكي ، كما وجدت صعوبة في التفريق بين أضرار الغزو المغولي على الوضع الاقتصادي للمجتمع العربي في البلاد وبين ما أحدثته السياسة المملوكية الخاطئة على البلاد من أضرار .

وعند القاء الضوء على الجوانب الاقتصادية نرى أنها تضمنت مجالات مختلفة وعديدة تجلت فـــي الانفاق والدخل الحكوميين . فالانفاق شمل نواحي عديدة كالانفاق على مشاريع الترميم للمنشآت التي خربها المغول ، والانفاق على الحملات العسكرية والسكان وعلى متطلبات السلطات .

أما الدخل فقد تضمن جوانب اقتصادية متعددة شملت مختلف مجالات الانتاج من زراعة وصناعة وغيرهما كما تضمن الاقطاع والضرائب والنظام المالي الذي ساد اثر الغزو المغولي والغنائم التـــي حصل عليها المماليك من غزواتهم ، وهذه المجالات ترتبط ببعضها ارتباطا وثيقا لذلك توجـــب دراستها بشكل مجمل وكلي .

لابد أ بد راسة دخل السلطات لمعرفة النفقات على المجتمع المدروس . لذلك نقول بأن الدخـــل تمثل في الاقطاع والضرائب ومجالات متعددة سيرد ذكرها أثناء البحث .

آ ـ الاقطاع :

يمثل الاقطاع ظاهرة ادارية كان هدفها تنظيم العلاقات الاقتصادية في المجتمع ، والاسلام لـم يغفل هذه الظاهرة بل اهتم بها كثيرا وطورها وغيرها بما يتماشى مع تقدم المجتمعات ومع الظروف السياسية السائدة في كل عصر .

وتمثل الاقطاع في الاسلام بنوعين ، اقطاع التمليك واقطاع الاستغلال .(١)

---

(١) ـ الدوري : مقدمة في التاريخ الاقتصادي ، ص٨٩ ـ ضومط : الدولة المملوكية ، ص ٩٥-٩٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فاقطاع التمليك اما أن يكون أرض موات أو عامرا أو معدنا . والأرض الموات يجوز للسلطان اقطاعها لا حيائها ،وكان هذا الاقطاع يعطي صاحبه الحق في الملكية بحيث يدفع عنه العشر.

أما اقطاع الاستغلال فكان على ضربين اما خراج أو عشر يعني جزية أو أجر، والمتفق عليه منذ نشوء هذه الاقطاعات بالنسبة للخراج أن من يقطعه الامام من أهل الصدقات لم يجز أن يقطع مال الخراج لأن الخراج فيء لا يستحقه أهل الصدقة كما لا يستحق الصدقة أهل الفيء.

والخراج اما جزية وهي الواجبة على أهل الذمة ،أو أجرة ، وقد فصل ذلك القلقشندي حين قـال :

((فان كان جزية لم يجز اقطاعه أكثر من سنة ،لأنه غير موثوق باستحقاقه بعدها لاحتمال أن يسلم الذمي فتزول الجزية عنها . وان كان أجرة جاز اقطاعه سنين لأنه مستقر الوجوب على التأييد . ثم له ثلاثة أحوال :

احداها- أن يقدر بسنين معلومة ،كما اذا أقطعه عشر سنين مثلا ،فيصح بشرط أن يكون رزق المقطع معلوم القدر عند الامام ،وأن يكون قدر الخراج معلوماً عند الامام وعند المقطع، حتى لو كان مجهولا عندهما أو عند أحدهما لم يصح . ثم بعد صحة الاقطاع يراعى حال المقطع في مدة الاقطاع. فان بقي الى انقضاء مدة الاقطاع على حال السلامة فهو على استحقاق الاقطاع الى انقضاء المدة . وان مات قبل انقضاء الاقطاع بطل الاقطاع في المدة الباقية ،ويعود الاقطاع الى بيت المال . وان كان له ذرية دخلوا في عطاء الذراري دون أرزاق الأجناد ويكون مايعطونه تسببا لا اقطاعا . وان حدث بالمقطع زمانه في تلك المدة ففي بقاء الاقطاع قولان : أحدهما أن اقطاعه باق عليه الى انقضاء المدة (والثاني) أنه يرتجع منه .

الثانية- أن يقطعه مدة حياته ثم لعقبه وورثته بعد موته ،فلا يصح : لأنه يخرج بذلك عن حقوق بيت المال الى الأملاك الموروثة ،فلو قبض منه شيئا برىء أهل الخراج بقبضه : لأنه عقد فاسد مأذون فيه ويحاسب به من جملة رزقه : فان كان أكثر رد الزيادة ،وان كان أقل رجع بالباقي ، وعلى السلطان أن يظهر فساد الاقطاع حتى يمتنع هو من القبض ويمتنع أهل الخراج عن الدفع ولم يبروءوا بما دفعوه اليه حينئذ .

الثالثة- أن يقطعه مدة حياته . ففي صحة الاقطاع قولان للشافعي بالصحة والبطلان ،ثم اذا صح الاقطاع فللسلطان استرجاعه منه بعد السنة التي هو فيها .ويعود رزقه الى ديوان العطاء. أما السنة التي هو فيها : فان حل رزقه فيها قبل حلول خراجها لم يسترجع منه في سنته لاستحقاق خراجها

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

في رزقه ،وان حل خراجهاقبل حلول رزقه جاز استرجاعه منه : لأن تعجيل المؤجل وإن كان جائزاً فليس بلازم.

وأما المشرفلا يصح اقطاعه ،لأنه زكاة الأصناف، فيعتبر وصف استحقاقهم عند دفعها اليهم ،وقد يجوز ألا يوجد فلا تجب » . (١)

لكن هذه التشريعات تغيرت أثناء الحكم المملوكي ،فقد أصبح اقطاعا حربيا عسكريا ،حيث لم يكن للمقطعين حق امتلاكه ،كما أعطي بدل الرواتب ومقابل الخدمة العسكرية ،وقد ذكر القلقشندي هذا التبدل عند ماقال :

« أما في زماننا فقد فسد المال وتغيرت القوانين ،وخرجت الأمور عن القواعد الشرعية ،وصارت الاقطاعات ترد من جهة الملوك على سائر الأموال : من خراج الأرضين ،والجزية ،وزكاة المواشي ، والمعادن ،والعشر وغيرذلك . ثم تفاحش الأمر وزاد حتى أقطعوا المكوس على اختلاف أصنافها ، وعمت بذلك البلوى ،والله المستعان في الأمور كلها » . (٢)

وخلال فترة البحث كثرت المصطلحات الدالة على الاقطاع ،فقد سادت مصطلحات الأخباز ،الرزق ، المثال وكانت هذه المصطلحات تغاير مدلولاتها . فالرزق يتقاضاه الجندي نقلاعن بيت المال . والخبز هو مايحصل عليه الجندي أو الأمير من عطاء عينا أونقدا ،أو مايكفيه ويكفي الفرسان الذين في خدمته . والمثالات : جمع مثال وهي أول مايكتب عن الوثائق اللازمة لتقرير اقطاع لشخص جديد على الاقطاع ،يكتبه ناظر الجيش ،وبعد سلسلة من الاجراءات يصدر بها منشور وتصبح نهائية ،وتسمى أحيانا الأخباز. (٣)

لقد طرأ التغيير والتبدل على أسس الاقطاع في فترة البحث وهذا يطرح أمامنا تساؤلات كثيرة وهي : لمن منحت الدولة المملوكية الاقطاعات ؟ وهل كان الهجوم المغولي لبلاد الشام هو السبب الوحيد لتغير مفهوم وأسلوب الاقطاع؟ وهل تغيرت الشروط الواجب توفرها في المقطع له ؟ وهل ماثلت بلاد الشام مصر في عملية التغير؟ وماهي السياسة التي اتبعتها الدولة المملوكية بالنسبة للاقطاع ومدى نجاحها في هذا المجال ؟ والنتائج الاقتصادية التي ترتبت على هذه السياسة .

لقد وزع السلاطين الاقطاعات على الأفراد والامراء الذين شاركوا في قتال الأعداء وكانت هذه الاقطاعات تتناسب مع انجازاتهم العسكرية في المعارك . (٤)

---

(١) - القلقشندي : صبح الأعشى ،ج ١٣ ،ص١١٣ - ١١٧ .
(٢) - القلقشندي : المصدر نفسه ،ج ١٣ ،ص١١٧ .
(٣) - ابن كثير : المصدر نفسه ،ج ١٤ ،ص٧ - القلقشندي : المصدر نفسه ،ج ١٣ ،ص ١٥٥-١٥٦ - المقريزي : السلوك ،ج ٢ ق ١ ،ص١٢٧ - العريني : المماليك ،ص١٧٠ - العلبي : دمشق ،ص٢٩٨ .
(٤) - حمادة : المرجع نفسه ،ص٣٩٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

كما خصت السلطات المملوكية نواب مدن الشام باقطاعات كبيرة لكسب ودهم وضمان مساعدتهم للمماليك عند حصول اعتداء مغولي على بلاد الشام ولحثهم على ضبط أمور نياباتهم الداخلية عند حصول الاضطرابات الأمنية المرتبطة بالظروف السياسية، فالسلطان الأشرف خليل بن قلاوون أمر سنة ٦٨٩هـ/١٢٩٠م بزيادة اقطاع الأمير لاجين المستقر وهي قرية حرستا، ثم أقطع سنة ٦٩٠هـ/١٢٩١م مرة أخرى[1]، كما أقطع الأمير سنجر الشجاعي نائب الشام وأذن له بأن يأخذ من الخزائن ما أراد من غير مشورة، كما زيد في اقطاعه حرستا التي كانت آنذاك لمصالح حواصل القلعة[2].

واهتم جميع السلاطين بنواب مدينة حلب التي كانت تشكل خط الدفاع ضد الهجوم المغولي فأغدقوا الاقطاعات والهدايا عليهم لكسب ودهم فقد أقطع السلطان نائب حلب أراضي سيس بعد استرجاعها سنة ٧٣٨هـ/١٣٣٧م. وفي هذه السنة أقطع السلطان تنكز قلعة كواره، نجيمة، قلعة سرفندكار، وأعطى معهم عدة من الأمراء فقاموا باستخدام أهلها الأرمن في الفلاحة[3].

وجعلت بعض المناطق في بلاد الشام منطقة اقطاعات لبعض أفراد العائلات المبعدة مثل غزة وطرابلس والكرك التي كانت اقطاعا لبعض مشايخ الأعراب، أما بلدة أريحا فكانت اقطاعا لنائب القدس. غير أن المصادر لم تذكر كيفية توزيع متحصلات هذه الاقطاعات وهل كان يعطى منها للسلطات؟، وهل كانت وراثية؟ أم تنتهي بوفاة المقطع له؟[4]

وأقدمت السلطات المملوكية على توزيع اقطاعات في بلاد الشام لأمراء المماليك المصريين، وأحيانا لأمراء من الحجاز[5]، وكان السلطان قطز أول المماليك الذين أقطعوا الامراء الصالحية والمعزية اقطاعات جليلة بالشام[6].

وأثناء الاجتياح المغولي للمنطقة شغل البدو دورا تجاريا وسياسيا هاما دفع السلطات لاسترضاء زعمائهم عن طريق منحهم اقطاعات كبيرة المساحة وغير زراعية، ولم تعطهم اياها على سبيل الملكية- عدا بعض الاحيان- وعمدت الى استردادها عند تمردهم عليها. فقد أعيدت الاقطاعات الى عربان آل فضل سنة ٧٣٧هـ/١٣١٥م بعد ان أخذها الأمراء.

---

(١) - النويري: المصدر نفسه، ج ٣١، ص ٤٨١ - ابن الجزري: المصدر نفسه، ص ٤١٣ - ابن الفرات: تاريخ، ج ٨، ص ١٠٣ - العيني: المصدر نفسه، ج ٣، ص ٣٨.

(٢) - ابن كثير: المصدر نفسه، ج ٣، ص ٣٢ - العريني: المماليك، ص ١٧٣.

(٣) - اليوسفي: المصدر نفسه، ص ٤١٤ - المقريزي: السلوك، ج ٢، ق ٢، ص ٤٣٠- ٤٣٦.

(٤) - ابن تغري بردي: المنهل، ج ١، ص ٢٥٧ - العليمي: الانس الجليل، ج ٢، ص ٧٥ - عطا الله: نيابة غزة، ص ١٠٠ - البخيت: نيابة الكرك، ص ٣٢- ٣٣.

(٥) - المقريزي: السلوك، ج ٢، ق ٢، ص ٣٩٢.

(٦) - ابن عبد الظاهر: الروض، ص ٩٦- ٩٧ - المقريزي: السلوك، ج ١، ق ٢، ص ٤٣٣ - العبادي: قيام دولة المماليك، ص ١٧٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وأعطي سنة ٧١٥هـ/١٣١٥م زعماء البدو اقطاعات على سبيل الملكية لمحاولة استرضائهم ومنعهم من القيام بأي تمرد داخلي، لم تكن السلطات آنذاك تستطيع احتواءه بسبب الدمار الشامل الذي أحدثته غزوة غازان خصوصا اذا علمنا بأنه في تلك الفترة ساند بدو آل مهنا قراسنقور المنصوري الذي لجأ الى السلطان المغولي خربنده مع أميرهم مهنا بن عيسى (١).

واستجد نتيجة الاجتياح المغولي اقطاعات ألغيت فيما بعد، فنتيجة للدور الذي قام به سكان كسروان أثناء غزوة غازان من قتل العسكر العائد باتجاه الأراضي المصرية ونهبه فقد أقطع السلطان سنة ٧٠٥هـ/١٣٠٥م هذه الجبال لعدة من الأمراء وضعوا أيديهم عليها ولكنهم أبقوا أهلها يعملون في زراعتها، بيد أن هذا الاقطاع أبطل سنة ٧٠٦هـ/١٣٠٦م وأعطي للتركمان بثلاث مائة فارس، وقد عرف هؤلاء بتركمان كسروان (٢).

أما الشروط الواجب توفرها في الشخص المقطع له والتي اعتمدها ديوان الجيش فقد تغيرت بتأثير الهجوم المغولي. فالمعروف أن المقطع له يجب أن يكون بالغا، مسلما، شجاعا، حرا لا تابعا لسيد، وخاليا من الأمراض المانعة للقتال، ألا يكون أعمى ولا أقطع، وتجوز أن يكون أخرس أو أصم. لكن هذه الشروط لم تنطبق على المماليك الذين كانوا من العبيد المجلوبين للبلاد الذين كونوا معظم أفراد الجيش، ويمكن تسويغ منحهم هذه الاقطاعات بأن الظروف التي سادت نتيجة الاجتياح المغولي ألزمت السلطات بوجود جيش قوي افتقدته البلاد ولم تجده في أبنائها لذلك تجاوزت أسس هذا الديوان ومنحت المماليك الاقطاعات (٣).

وكان الاقطاع يورث في عهد الأيوبيين، لكن السلطات المملوكية ألغت هذه الظاهرة ولكن بتأثير الاجتياح المغولي فقد أعادتها وأقدمت على توريثه لأهالي وأقرباء من أدوا خدمات حربية ضد العدو المغولي ولأبناء أفراد الجيش لضمان استمرارهم في خدمتها بعد آبائهم، ولحاجتها لهم عند حدوث أي اعتداء خارجي على أراضيها.

وكان الظاهر بيبرس أول من أصدر مراسيم بخصوص ذلك، فقد ورث الاقطاع لأبناء من مات في خدمته. كما أقدم بيبرس على توريث اقطاع والي سرمين الذي أسر بيد الفرنج سنة ٦٦٢هـ/١٢٦٣م لاخوته وغلمانه، كما أنه ورث الأراضي التي فتحها الجيش ٦٦٣هـ/١٢٦٤م في قيسارية وأرسوف، وأعلن أن ما منحه الله على يد السلطان من البلاد صار ملكا للأمراء المجاهدين وقد جاء في الكتاب:

---

(١) - المقريزي: المصدر نفسه، ج ١، ق ٢، ص ٥٣ - ج ٢، ق ٢، ص ٢٢٤ - عاشور: المرجع نفسه، ص ١٩٤ - الدوري: المرجع نفسه، ص ٤٠ - الطراونة: المرجع نفسه، ص ١٥٤ - العريني: المماليك، ص ٢٢٣

(٢) - المقريزي: السلوك، ج ٢، ق ١، ص ١٦ - العيني: المصدر نفسه، ج ٤، ص ٣٨٠ - ابن يحيى: تاريخ بيروت، ص ٢٠.

(٣) - القلقشندي: المصدر نفسه، ج ١٣، ص ١١٠ - ١١١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

« يملك الأمراء المجاهدون من البلاد التي فتحها الله عليه ، وتبقى للولد منهم وولد الولد وما يرفع الى آخر الدهر ويبقى الى الأبد ». (١)

ومن المتغيرات التي حدثت في بلاد الشام اثر الهجوم المغولي في مجال الاقطاع كان روك الأراضي وهو يعني اعادة توزيع الاقطاعات بشكل متناسب يرضي جميع الفئات التي تعتمد في معيشتها على الاقطاع ، أما الأسباب التي أوجبت اصدار الروك فهي اقتصادية ومالية بالاضافة للدمار الذي أحدثه الهجوم المغولي للأراضي الصالحة للزراعة . وفقدان كثير من السكان لاقطاعاتهم ، مما أدى الى عدم التناسب في حجم الاقطاعات المعطية للناس ، وعدم تقديمها المردود الكافي .

لقد ظهر الروك للمرة الأولى في عهد السلطان لاجين سنة ٦٩٨هـ/١٢٩٨م لكن أسبابه لم تكن بسبب الغزو المغولي وانما لأسباب اقتصادية ومالية متعددة . (٢)

وقد أوضح الأسدي أسباب الفساد حين قال :

«ولما آل الأمر الى الملك المنصور لاجين ، ودفع اليه اختلال أمر البلاد ونقص الارتفاع لوقوع الخلل في العمارة ، ولقوة القوى وضعف الضعيف وتغير الاحوال ، واستطالة أصحاب الأموال ، وانفراد أصحاب الوجاهة والجاه والمباشرين بالتدبير والتصرف بغير الحق في غالب الأمور ، فاستشار في ذلك أهل الديانة والأمانة والبصارة والتحرير ، فأشاروا عليه بروك البلاد لأجل مصالح العباد ، فأمر بروك الديار المصرية والبلاد الشامية وسائر الممالك ، وانصرم أمره ولم يتم له ذلك ولما عاد الأمر للسلطان الملك محمد بن قلاوون أمر بالروك كما أمر به الملك المنصور لاجين ، وأعانه الله عليه وأتمه على يده . . وعبرة البلاد الشامية ، هي عبرة الديار المصرية سواء في الروك الناصري من الارتفاع ، وعبرة العساكر في العدة ، أربعة وعشرون ألف فارس . . ويكشف في كل سنة مقدار الارتفاع ، ومقدار المصروف ، ومهما توفر بعد ذلك رفع علمه للمسامع الشريفة ، فيرفع منه ما يرفع محمولا للخزائن الشريفة بالديار المصرية ، ويرفع منه ما يدخر في القلاع الحصينة لما يحتاج اليه عند حدوث الزمان ». (٣)

وأعادت السلطات روك أراضي الشام سنة ٧١٣هـ/١٣١٣م . وكان لحملة غازان سنة ٦٩٩هـ/ على البلاد وما لحقها من دمار وخراب لمعظم مدن وقرى الشام أثر كبير في القيام بعملية الروك ، وأوكل السلطان العمل لنائب غزة علم الدين سنجر الجاولي الذي قام بتوزيع اقطاعات ومثالات جديدة لأمراء دمشق وأجنادها ووفر عدة اقطاعات أدخلها في ديوان السلطان الخاص .

---

(١) - النويري : المصدر نفسه ، ج ٣٠ ، ص ٢٧٦-٢٨١ - المقريزي : المصدر نفسه ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥٣٢-٥٣٤ - العيني : المصدر نفسه ، ص ٤٠٣-٤٠٦ - العريني : المماليك ، ص ١٦٨-١٦٩-١٧٠ - الطراونة : المرجع نفسه ص ١٥٥-١٥٦ .

(٢) - العريني : المماليك ، ص ١٧٢ - ضومط : المرجع نفسه ، ص ١٣٤-١٣٦ .

(٣) - الاسدي : التيسير والاعتبار ، ص ٧٥-٧٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

كان لهذه العملية انعكاساتها الحادة على المستوى المعيشي لمجتمع بلاد الشام فتناقصت الملكيات التي تخص الأمراء والجنود والسكان المحليين . مما أدى الى انخفاض واردات الاقطاعات الجديدة وعجز المقطعين عن تسديد الضرائب المترتبة عليهم للخزينة العامة وبالتالي اهمال هذه الاقطاعات ووسائل ريها ، فانخفض المردود الزراعي وانعكس هذا سلبا على المستوى المعيشي للبلاد .(١)

واعادت السلطات روك بلاد الشام سنة ٧١٥هـ/١٣١٥م واستمر العمل به خمسة وسبعين يوما قام نائب دمشق خلالها مقام السلطان في توزيع الاقطاعات دون أن يكون له الحق في ترشيح أحد ، فاذا مات أمير أخبر السلطان لاقرار عوضه ممن هو في حضرته بالقاهرة أو في خدمته بالشام . واذا مات أحد من جند الحلقة استخدم النائب عوضه دون الرجوع أولا الى السلطان فيكتب المثال للمقطع على نحو ما جاء في ديوان الجيش ثم يجهز ليوقعه السلطان .(٢)

وصدرت المراسيم سنة ٧٢٢هـ/١٣٢٤م بروك أراضي نيابة حلب اضافة الى دمشق ، حيث خرج من القاهرة جماعة من المباشرين وتوجهوا الى حلب فراكوا أراضيها . وبناء على هذه العملية فان معظم مناطق دمشق قد خضعت لاعادة توزيع الاقطاعات فيها بشكل يتناسب مع حجم المردود الذى ستقدمه الأرض. لأن معظم الاراضي الاقطاعية السابقة تعرضت للخراب والدمار وقتل العاملين فيها على يد المغول .(٣)

اتبعت السلطات المملوكية بالنسبة للاقطاع سياسة تجلت بعدم تمكين المقطعين من استثمار اقطاعاتهم لفترة طويلة . حيث كان الاقطاع يتغير بتغير وظيفة صاحبه والقصد من ذلك عدم تمكين المقطعين من تقوية نفوذهم اذا ما استمروا في الاقطاعات لفترة طويلة فاذا نقل الشخص المقطع له من اقطاع الى آخر كان ينال في مكانه الجديد اقطاعا آخر، واذا كان الاقطاع الجديد غير لائق فانه يبقى على اقطاعه الأول فارتبط تغير الاقطاع أو استرجاعه بالموت أو العزل من المنصب أو النقل .(٤)
ولمنع نشوء ارستقراطية اقطاعية قائمة على ضياعها واتباعها في المنطقة فقد منحت الاقطاعات في مناطق مبعثرة ولعل تسميتها لدى السبكي باقطاع الأرفاق يعبر عن ذلك ، وقد طبقت هذه القاعدة

---

(١) الذهبي : ذيول ، ص٧٣ - المقريزي : السلوك ، ج ٢ ، ق ١ ، ص١٢٧ - المتقى ، ج ٧ ، ص٢٠٣ .
(٢) - العريني : المماليك ، ص١٨٩ .
(٣) - المقريزي : المصدر نفسه ، ج ٢ ، ق ١ ، ص٢٦٤ - ابن اياس: المصدر نفسه ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٤٥٧ - ابن الطباخ : المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص٣٠٣ .
(٤) - النويري : المصدر نفسه ، ج ٣٠ ، ص٣٨٦ - اليوسفي : نزهة الناظر ، ص٢٢٤ - ابن صصرى : الدرة المضيئة ، ص١٣٣ - ابن اياس: بدائع ، ج ١ ، ق ٢ ، ص٥٨٥ - العلبي : دمشق ، ص٢٩٩ - قاسم عبده : المرجع نفسه ، ص ٢٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

في جميع نيابات الشام كصفد وطرابلس ودمشق وشملت كافة الفعاليات السياسية والادارية ، وكان لهذه السياسة آثارها السيئة على المجتمع فالمقطعون الذين احتفظوا بالاقطاعات لفترة قصيرة لم يملكوا الوقت الكافي لتحسينها أو تطويرها.(١)

كما أدت هذه السياسة لتدهور وضع أصحاب الثروات الذين اعتمدوا بشكل مباشر على الدخل من الأراضي ، فاستقطاع جزء كبير منها للسلطان والجيش أدى لخفض موارد هؤلاء وهبوطهم الى مركز متدن .

وأدت هذه السياسة الى استحواذ المماليك على معظم بلاد الشام حيث أعطيت الاقطاعات للمماليك بدل الرواتب وتحول هؤلاء بدورهم الى تجار المواد الغذائية الرئيسيين في البلاد عند ماباعوا محاصيلهم وغالبيتها من الحبوب بأنفسهم وهذا بدوره أدى الى قيامهم بالاحتكارات لكسب الأموال ارضاء لجشعهم.(٢)

لقد أدى الخلل الذي طرأ على أسس ونظم الاقطاع الى حد قيام السلطات باقطاع موارد الدولة بما فيها الضرائب ، المعادن ، المكوس ، اضافة الى المناصب سواء العسكرية أو غيرها من المناصب الأخرى . وهدفت السلطات من وراء ذلك الحصول على الأموال ولم توضح المصادر التاريخية فيما اذا كانت هذه الأموال جمعت لخزينة الدولة لانفاقها على مصالح الرعية ، أو كانت للسلاطين والأمراء وأفراد الادارة . ومن المرجح أن السلطات هدفت من وراء هذه العملية ارضاء الحكام وليس الرعية ، لأن المقطع سيتبع عند جمع الضرائب أساليب شتى لتحصيل الأموال من الرعية مما يؤدي الى تعرض السكان للظلم والقهر الاجتماعي عند عدم قدرتهم على السداد ، والذي يدل أن السلطات هدفت الى جمع الأموال الكثيرة عند تضمين موارد الدولة بأنها عمدت في أكثر الأحيان الى عزل أفراد من مناصبهم واحلال آخرين مكانهم يبذلون أموالا أكثر منهم لشراء هذه الموارد.(٣)

أما الفلاحون فقد أصبحوا في وضع لا يحسدوا عليه فقد كان يتوجب على الفلاح دفع رسوم اضافية الى جانب الضرائب الثابته مما يعني أن الهجوم أثر بشكل كبير على وضع الفلاح ، فقد تعرض لعبودية جديدة.(٤)

---

(١) - ابن كثير : المصدر نفسه ، ج ١٤ ، ص٧٦ - ٩٥ ٢ - دهمان : ولاة ، ص٢٢٤ - الدوري : المرجع نفسه ، ص ١٠٤ - الطراونة : المرجع نفسه ، ص ١٥٤ - آشتور : المرجع نفسه ، ص٢٧٢ .

(٢) - آشتور : المرجع نفسه ، ص٢٧٢ - ٢٧٣ .

(٣) - ابن تغري بردي : النجوم ، ج ٩ ، ص١١ - عودات : المفضول ، ص ١٥٨ .

(٤) - الدوري : المرجع نفسه ، ص ١٠٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ان العوامل المذكورة قللت من مردود الأرض ، وزادت من سوء وضع الفلاحين وخاصة بعد ماعمدت السلطات الى زيادة الضرائب والمكوس عليهم .

وأثر سوء استصلاح واستثمار الأراضي الى تخريبها أيضا ، فالمقطع الذى كان يعلم مسبقا أنه لن يستقر طويلا في الاقطاع ، لم يعر الأراضي الزراعية أى اهتمام مما أدى الى بوارها ، ناهيك عن اهتمامه بالحصول على أعلى انتاجية ممكنة دون معرفة الوسيلة الناجعة لزيادة الانتاج ورفع مستواه مما حال دون تقدم الانتاج ، وأدى الى خراب معظم الاقطاعات .

لقد ترتب على عدم استملاك واستقرار الاقطاع طويلا في يد صاحبه الى عدم الاقامة والسكن الى جانبه والى رعاية شوءونه من قبل منه وبين مارسوا أشكالا وأنواعا شتى من الظلم ضد الفلاحين لاستخراج حق المقطعين .(١)

ب ـ الضرائب والمكوس :

شكلت الضرائب (المكوس) أحد موارد الدخل بالنسبة للسلطات والأسر الحاكمة لكنها تأثرت كثيرا بالغزو المغولي لبلاد الشام ، فقد تغير بعضها وبقي الأخر ثابتا . جعل الغزو المنطقة تعيش في أجواء اقتصادية تعمها الفوضى وعدم الاستقرار المالي نتيجة فرض ضرائب جديدة ومصادرات بحق السكان وذلك لتجهيز الجيوش والانفاق على الحملات العسكرية .

وكانت الضرائب في فترة البحث العامل المهم والأساسي لدعم رواتب المماليك (الجند) كما كانت موردا من موارد الأسر الحاكمة في بلاد الشام وهذا الأمر زاد العامة فقرا والخاصة غنى .(٢)

ويمكن تقسيم الضرائب التي سادت فترة البحث الى نوعين :

١) ـ ضرائب فرضت بسبب قدوم المغول (الضرائب الطارئة أو المستحدثة) .

٢) ـ ضرائب ثابتة كانت مفروضة قبل الاجتياح المغولي واستمرت بعده .

١) ـ الضرائب الطارئة (المستحدثة) :

ـ تعرضت بلاد الشام الى ثلاث غزوات مغولية رئيسة فصل بينها فاصل زمني طويل ، وخلال هذه الغزوات تعرض السكان لضرائب متعددة فرضت أحيانا من قبل السلطات الحاكمة لمواجهة مشكلة الغزو وأحيانا من قبل المغول عند دخولهم المدن الرئيسية .

---

(١) ـ عبده قاسم : المرجع نفسه ، ص ٢٠ ـ ضومط : المرجع نفسه ، ص ١٣٤ ـ عودات : المرجع نفسه ، ص ١٦١ .

(٢) ـ لابيدوس : مدن الشام ، ص ٩٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وتذكر مصادر التاريخ أنه أثناء التحضير لموقعة عين جالوت فرض المظفر قطز على الرعية في الشام ومصر على السواء ضريبة جديدة لرد الغزو .

لكن الشيخ العز بن عبد السلام وقف مرتفعا حازما تجاه المظفر وذكره بأن عليه أولا أخذ الأموال من بيت المال وعند عدم الكفاية يبيع الجند حوائصهم الذهبية وإن احتاجت السلطات بعدها للمزيد من الأموال فلا بأس أن تؤخذ الضرائب أو الرسوم من العامة .(١)

وبعد دخول المغول لكل من حلب ودمشق فرضوا ضرائب على الرعية ، فقد أخذت أكثر أموال أهل حلب .(٢) أما في دمشق فقد جمع الزين الحافظي أموالا كثيرة للقائد المغولي كتبغا نوين ، واشترى له بها مجموعة من الثياب الفاخرة منها العتابية . اضافة الى الخطاء والقسي(٢) مكرر وقدمها للأمراء الذين معه ، وماتبقى معه قدم له بها مستلزمات الضيافة ، والضيافة عند المغول تسمى (الطرغوا) وهي عبارة عن خراف مشوية ونبيذ ومأكولات غيرها ، لكن المغول لم يحفظوا له هذا الجميل وانما استحضره هولاكو سنة ٦٦٢هـ/١٢٦٣م وقتله بتهمة الخيانة .(٣)

ولم تكن عقوبة الحافظي بأخف من عقوبة الفخر بن يوسف الكنجي الذى جبى أموال الغياب عن دمشق ، فاقتص منه أهل المدينة بعد رحيل الغزاة وقتلوه وقتلوا من ساعده وكان من أعوان المغول .(٤)

نتج عن جباية الضرائب أثناء وجود المغول في البلاد هجرة بعض الأفراد من المدن والقرى نتيجة للتعذيب الذى تعرضوا له لعدم قدرتهم على تسديد الالتزامات المالية المتوجب دفعها ، وكان رحيلهم اما باتجاه مصر حيث أمنت لهم السلطات في بعض الأحيان أعمالا يعيشون منها ، أو باتجاه المدن الرئيسية التي ضمت فعاليات اقتصادية واجتماعية كبيرة .

أما التجار فقد هاجروا خوفا على رؤوس أموالهم من المصادرة وضمانا لسلامتهم ، وهذا ماعاد بالضرر على الجوانب الاقتصادية خلال فترة البحث .

وقد أورثت جباية الضرائب مجموعة من العاهات والأمراض لبعض الأشخاص الذين تعرضوا لأساليب تعذيب وحشية ، فأحمد بن محمد بن أبي طالب عبد الرحمن بن الحسن شمس الدين أبو بكر العجمي (ت ٧١٤هـ/١٣١٤م) وقع في قبضة هولاكو فأخذ أمواله وعذبه عذابا بموجبه غلب عليه النسيان وفقد عقله .(٥)

---

(١) - ابن تغرى بردى : النجوم ، ج ٧ ، ص٧٢-٧٣- النجيدى (حمود بن محمد بن علي) : النظام النقدى المملوكي ، الاسكندرية ، مؤسسة الثقافة الجامعية ١٩٩٣/١٤١٤هـ ص ٥٧ .

(٢) - ابن الفوطي : الحوادث الجامعة ، ص ١٦٥ .

(٢) مكرر- القسي : الرماح المستعملة في القتال ينظر دهمان : معجم ، ص ١٢٣ .

(٣) - ابن العميد : اخبار الايوبيين ، ص ٥١ - ابن كثير : المصدر نفسه ، ج ١٣ ، ص ٢٤٤ .

(٤) - اليونيني : ذيل مرآه ، ج ١ ، ص ٣٦ - ابن كثير : المصدر نفسه ، ج ١٣ ، ص ٢٢١ - العيني : المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ٢٥٠ - ابن تغرى بردى : النجوم ، ج ٧ ، ص ٨٠ .

(٥) - العسقلاني : الدرر ، ج ١ ، ص ٢٧١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فرض المظفر قطز ضريبة شملت تصقيع الأملاك وتقويمها وزكاتها ثلث الترك الأهلية ، كما ضاعف الزكاة وجبى دينار من كل انسان وكان مقدارها ستمائة ألف دينار .

ولا ندري اذا كانت هذه الضريبة قد شملت مصر والشام أم اقتصرت على مصر وحدها ، أما سببها فيرجح أن يكون خشية المظفر قطز من عودة المغول الى البلاد بعد هزيمته في عين جالوت ومحاولته الاستعداد لهذه العودة . ومايؤيد هذا القول أن الظاهر بيبرس عمد الى الغائها بعد تسلمه عرش السلطة اثر استتباب الأمور الامنية والسياسية في المنطقة .(١)

وعاقب الظاهر بيبرس الفلاحين المتعاونين مع المغول والافرنج فقد فرض ضريبة سمّاها الجنايات سنة ٦٦١هـ/١٢٦٢م على الفلاحين الذين يعيشون على السواحل ونابلس وألزمهم حملها الى بيت المال وذلك عقوبة لهم عما أخذوه من أفراد الجيش العائد من المعارك الحربية مع المغول والمار بأراضيهم .(٢)

وكان الظاهر بيبرس أول سلطان مملوكي فرض ضريبة على المزارعين في دمشق - سبق ذكرها فيما مضى - وعلل اقدامه على هذا العمل باعتباره حماها من سيطرة المغول وانتزعها من أيديهم ، لكن الفقهاء قرروا تخفيضها وتوسطوا بين أصحاب الشأن والسلطان لالغائها ، فقرر عليهم ضريبة مقدارها ألف ألف درهم لكنهم لم يستطيعوا تسديدها ولم يتوفر لديهم سوى أربعمائة ألف درهم ، فقبل ذلك مقابل أن يسددوا كل عام مائتي ألف درهم .(٣)

ومن المرجح حسب اعتقادي أنها الضريبة التي سمي متحصلها بالعوارض ، سنة عتيقة وسنة جديدة وقد عد المؤرخون بأن هذه الضريبة هي مظلمة لأنها كانت تؤخذ من سكان الشام فقط وقد أشار اليها الأكرمي بقوله :

لحا الله أيام العوارض انها	هموم لرؤياها تشيب العوارض
يضيق لها صدري واني لشاعر	ضليع وبيتي ماعليه عوارض (٤)

لم تستمر هذه الضريبة طويلا فقد ألغاها بركة بن بيبرس سنة ٦٧٧هـ.(٥) ولم ينقطع فرض الضرائب من قبل السلطات مابين غزوة هولاكو وغازان وذلك لمواجهة المشكلة المغولية وماأحدثته غزوة هولاكو من آثار اقتصادية .

---

(١) - النويري : المصدر نفسه ، ج ٣٠ ، ص ؛ - العيني : المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ٢٧٠ .
(٢) - ابن عبد الظاهر : الروض ، ص ١٥٨ - المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤٨٨ .
(٣) - النويري : المصدر نفسه ، ج ٣٠ ، ص ٥٢ ، ١٥٣ - ابن شاكر الكتبي : فوات ، ج ١ ، ص ١٧١ .
(٤) - ابن كثير : المصدر نفسه ، ج ١٣ ، ص ٣٨٠ - كرد علي : خطط ، ج ٢ ، ص ١٠١ .
(٥) - الذهبي : العبر ، ج ٥ ، ص ٣١٣ - ابن الفرات : المصدر نفسه ، ج ٧ ، ص ١١٧ - المقريزي : المقفى ، ج ٥ ، ص ٤٦٣ - العيني : المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٢٠١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وكانت الضرائب الطارئة التي استحدثت اثرقد وم غازان للمنطقة أكبر من الضرائب التي استحدثت اثرقد وم هولاكو فعند ورود الأنباء للسلطات بقدوم المغول للبلاد فرض الناصرمحمد سنة ٦٩٩هـ/ ١٢٩٨-١٢٩٩م ضريبة سماها مقرر الخيالة، فرضت على الشام ومصر، وسعت السلطات المملوكية اكسابهذه الضريبة الصفة الشرعية فطلبت من الفقهاء جواز افتائها لكنهم تمنعوا عن الافتاء، فاضطرت السلطات مرغمة وتحت ضغط الحاجة للأموال الى تقريرها وهي دينار على كل انسان.

ويرجع سبب نقص الأموال لتجهيز الجيوش لرد الغزاة لحالة الثراء الذى كان يعيشه الحكام الاداريون في البلاد وقد ذكر ذلك المقريزى حين قال رفض الفقهاء على الافتاء بالضريبة:

« وأما الآن فيبلغني أن كلا من الأمراء له مال جزيل، وفيهم من يجهز بناته بالجواهر واللآلىء، ويعمل الاناء الذى يستنجي منه في الخلاء من فضة، ويرصع مداس زوجته بأصناف الجواهر ». (١)

والظاهر أن الرعية التزمت بأداء هذه الضريبة ومايدل على ذلك بعض المؤرخين الذين أوردوا أنه في سنة ٧٠٠هـ/١٣٠٠م رسم باستخراج أجرة أربعة أشهر من أرباب الأملاك والاوقاف التي بدمشق ومن الضياع التي ضمانها أكثر من امدائها ثلث ضمانها. وان كانت امداؤها أكثر من ضمانها، استخرج عن كل مدى ستة دراهم وثلثا درهم وأخذ من الأغنياء ثلث أموالهم. وطلب من الفلاحين ضريبة غلة مثل سنة ٦٩٨هـ/١٢٩٨م وقيل سنة ٦٩٩هـ، والأصح أنها ٦٩٩هـ.

ونزل بالناس نتيجتها بلاء عظم واضطروا لقطع الاشجار وبيعها حطبا لتسديد الأموال، وقد أنشىء لهذه الجباية ديوان خاص سمي بديوان الاستخراج، وذكر ابن كثير بأن هذا الديوان ألغي بعد هذه الجباية لأن الجباة أنفسهم أخذوا الأموال وهربوا، فأبطل الديوان وسومح الناس بالباقي. (٢)

ومنذ هذا التاريخ أثقلت الضرائب كاهل السكان لكثرتها، ولاندرى فيما اذا كان الخوف من عودة المغول الى البلاد مرة أخرى، أو لجوء بعض الأمراء الى المغول هو السبب في كثرة الضرائب.

لذلك وخشية من نقمة الرعية، وتقربا من العامة، فقد سامح الناصرمحمد سنة ٧١٣هـ/١٣١٣م الناس من بواقي الضرائب المتراكمة عليهم من سنة ٦٩٨هـ/١٢٩٨م والى تاريخ اصدار المرسوم وقد شملت الضرائب الملغاة ضريبة السجون، مقرر الأقصاب، ضمان القواسين رسوم الشد والولاية. (٣)

---

(١) - المقريزى: السلوك، ج ١، ق ٣، ص ٨٩٨.

(٢) - ابن أيبك الدوادارى: الدر الفاخر، ص ٤٤ - النويرى: المصدر نفسه، ج ٣١، ص ٤١١ - ٤١٢ - الذهبي: العبر، ج ٥، ص ٤٠٨ - ابن كثير: المصدر نفسه، ج ١٤، ص ١٥-١٥ - المقريزى: السلوك ج ١، ق ٣، ص ٨٩٧ - ٨٩٨ - ٩٠٧ - المقفى، ج ٧، ص ١٧٦ - دهمان: المرجع نفسه، ص ١١٤

(٣) - المقريزى: السلوك، ج ٢، ق ١، ص ١٣٦ - المقفى، ج ٧، ص ٢٠٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقد ورد نص المرسوم عند القلقشندي :

« فلذلك رسم بالأمر الشريف - لا زال بره عميما ، وفضله لحسن النظر في مصالح رعاياه مديما - أن تسامح مدينة دمشق المحروسة وسائر الأعمال الشامية بما عليهما من البواقي المساقة في الدواوين المعمورة الى المدد المعينة في التذكرة الكريمة المتوجه بالخط الشريف ، وجملة ذلك من الدراهم ألف ألف وسبعمائة ألف وستة وأربعون ألفا ومائة ألف وخمسة وأربعون درهما ، ومن الغلال المنوعة تسعة آلاف وأربعمائة واثنتان وأربعون غرارة ، ومن الحبوب مائتان وثمانون غرارة والغنم خمسمائة رأس ، ومن الفولاذ ستمائة وثمانية أرطال ، ومن الزيت ألفان وثلاث مائة رطل ومن حب الرمان ألف وستمائة رطل » . (١)

وأثناء غزوة غازان فرض المغول من الضرائب على دمشق أكثر من غيرها وعمد غازان الى الخداع للحصول على أموال الضرائب فكسب أولا ود الفئة الدينية التي لها تأثيرها الفكري الكبير على المجتمع اذ قامت باقناع الناس بدفع الضرائب تجنبا للتعذيب والحصول على الأمان وعندما حصل على بغيته طبق على الفقهاء ورجال الدين ما طبقه على العامة من التعذيب والاهانة .

تم تقسيم الضرائب المفروضة على دمشق حسب الشرائح الاجتماعية للسكان فمن الفئة الأولى حصلوا سبعين ألفا ولحقها من الترسيم للمغول مائة ألف ، وقد وضع الوجيه بن المنجا في هذه الفئة ، وحصلوا من الفئة الثانية ثلاثين ألفا ، ولم تذكر المصادر التاريخية عن مقدار الضرائب التي حصلوها من بقية الفئات سوى أنهم أخذوا من العامة واللحامين . (٢)

بينما فرض على اسواق دمشق الضرائب التالية :

سوق الخواصين ١٣٠٠٠٠ درهم .

سوق الرماحين ١٠٠٠٠٠ درهم .

سوق علـــي ٦٠٠٠٠ درهم وفي مصادر أخرى ١٠٠,٠٠٠ درهم .

سوق النحاسين ٦٠٠٠٠ درهم وفي البعض الآخر ٦٠,٠٠٠ درهم .

قيسارية الشرب ١٠٠,٠٠٠ درهم .

سوق الذهبيين على صغره وقلة أهله ١٥٠٠ درهم

بينما فرض على بقية الأسواق وأكابر البلد ٣٠٠,٠٠٠ درهم جبيت من حساب أربعمائة ألف درهم .

---

(١) - القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ١٣ ، ص ٢٩ - ٣٠ - حمادة : دراسة وثقية : المصدر نفسه ، ص ٤٠ .

(٢) - الذهبي : دول ، ج ٢ ، ص ٢٠٣ - ابن كثير : المصدر نفسه ، ج ١٤ ، ص ١٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وتولى جمع الأموال عدد من أعيان البلد مارسوا ذلك اما مكرهين كفخرالدين بن السيرجي أو دافع الرغبة لتحقيق مآرب شخصية مع الغزاة، وأبرزهم على الاطلاق الصفي السنجاري الذي كافأه المغول وأعطاه مئة ألف درهم بينما ذكرت مصادر أخرى انه قبض ثمانين ألف درهم والى جانب علاء الدين استادار قفجق، وأولاد الشيخ علي الحريري والحسين بن محمد بن عدنان الحسيني المعروف بابن المحسن (ت ٧٠٨هـ/١٣٠٨م) (١).

وقد جمع أعيان البلد مجباة الغزاة كثيرا من الأموال واختلفت المصادر في مقدارها فقيل أن ما حمل الى خزانة غازان، ثلاثة ملايين سوى مانهبه الغزاة، حيث كان يخرج اليهم كل يوم أربعمائة غرارة من باب شرقي. بمعنى أنه جبيت (ثلاثة آلاف ألف وستمائة ألف) درهم، وقيل (سبعمائة ألف لغازان سوى الدواب والقماش والقمح والشعير وغيره من الضرائب العينية التي جمعت للبراطيل، وكان اذا ألزم التاجر ألف درهم فانه يغرم فوقها بمائتي درهم. أما نصيب بقية قواد المغول وأعوانهم فكان لشيخ الشيوخ ثلاثة آلاف دينار، وهذا غير معقول ذلك أن مقدار ما أخذه يماثل ماجمعه غازان من الأموال، بينما تذكر مصادر أخرى أنه حصّل ستمائة ألف دينار وهذا ممكن بينما حصّل منجم غازان وناظر أوقافه أصيل الدين الطوسي مائتي ألف وقيل مائة ألف، وقد وصل للأمير اسماعيل مائتا ألف درهم عدا ما استخرجه قفجق ولأمراء المغول، وقيل ان الجباية استمرت خمسة وأربعين يوما رافقها بلاء عظيم تمثل بالقتل وسفك الدماء وهتك الأعراض وحرق الممتلكات (٢)، حتى قيل أن عدد القتلى من سكان دمشق وضواحيها بلغ مائة ألف شخص، وليس من السهل تصديق هذه الرواية وقبول الرقم الذي نقله المؤرخون لأنه لا يتناسب مع عدد سكانها آنذاك، المهم هو أنها تعكس حجم الخسائر في الارواح لتوضيح مدى الوحشية المغولية.

---

(١) - النويري : المصدر نفسه، ج ٣١، ص٣٩٧ - ابن ايبك الدواداري : المرجع نفسه، ص٢٩ - ٣٣ - ابن كثير : المصدر نفسه، ج ١٤، ص٨-٩ - ابن حبيب : تذكرة، ج ١، ص٢٩٠ - المقريزي : السلوك، ج ١، ق٣، ص٨٩٣-٨٩٤ - المقفى، ج ٧، ص١٧٣ - العسقلاني : الدرر، ج ٢، ص٦٩ - العيني : عقد الجمان، ج ٤، ص٣٤ - ٣٦ - ٢٩ - ابن تغرى بردى : المنهل، ج ٦، ص٥٣-٥٤ - النعيمي : الدارس، ج ١، ص ٤٩٤ - دهمان : المرجع نفسه، ص١٠١-١٠٦ - عاشور : العلاقات، ص١٥٢ - عدوان : المماليك، ص ١٢٨ - ١٢٩.

(٢) - ابن ايبك الدواداري : المصدر نفسه، ص٣١ - الذهبي : العبر، ج ٥، ص ٣٩٢ - دول، ج ٢، ص ٢٠٣ - الصفدي : الواقي، ج ٤، ص٣٥٨ - تحفة الالباب، ج ٢، ص٢٠٣-٢٠٤ - اليافعي : مرآة، ج ٤، ص٢٣٠ - ابن كثير : المصدر نفسه، ج ١٤، ص٩-١٠ - ابن حبيب : المصدر نفسه، ج ١، ص٢٢٠ - المقريزي : السلوك، ج ١، ق ٣، ص٨٩٤ - المقفى، ج ٧، ص ١٧٣ - العيني : المصدر نفسه، ج ٤، ص٣٨ - ٣٩ - ٤٧ - كرد علي : خطط، ج ٢، ص ١٣٥ - شهاب : تيمورلنك، ص١٦٧ - دهمان : ولاة، ص ١٠٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

هذه الأساليب المتبعة لجباية الضرائب أثارت استنكار الفقهاء ورجال الدين الذين تمنوا الدفاع عن الرعية ومن هؤلاء ابن تيمية الذي حاول مرارا اعفاء الرعية من الأموال ولكنه لم ينجح في مهمته (١) ولم تنته عمليات تحصيل الضرائب برحيل غازان، بل فرض قفجق نائب دمشق مجموعة من الضرائب من اجل بولاي أحد قواد المغول (٢) ومن أجل قطلوشاه الذي حاصر قلعة دمشق بعد رحيل غازان من أجل اخضاعها، لكنه لم يستطع دخولها فأشار عليه قفجق، وبكتمر السلاح دار نائب حلب بأن يترك دمشق بمن معه من المغول مقابل حصوله على كمية كبيرة من المال فرضي بذلك ورحل عن دمشق. (٣) ونتيجة للجبايات المتعاقبة والكثيرة أصبح أهل دمشق يعانون من الفقر المدقع، فلم يبق معهم شيء من الأموال الا مايسد رمقا ضئيلا، وقد وصف كمال الدين الزملكاني حالهم.

لهفي على جلق ياسوء مالقيت ... من كل علج في كفره ضن

فالجن بعضهم والحن والبن ... بالطم والرم جاؤوا لاعديد لهم (٤)

وعلى الاغلب فان مدينة دمشق عانت من المجاعة بسبب الفقر بعد هذه الغزوة مما أدى لانتشار الأوبئة والأمراض بين أفراد المجتمع، ومن المرجح أن السلطات المملوكية حاولت مساعدة السكان والنهوض بمدينة دمشق من جديد، بمساعدة نواب دمشق، ويبدو أنها نجحت في ذلك.فقد اعتمدت في اصلاحاتها على أقوش الأفرم الذي دافع عن دمشق ضد المغول قدر استطاعته وعلى تنكز الذي اشتهر بحبه للاصلاح والقيام بالمشاريع العمرانية والاقتصادية وقد سعى أثناء فترة نيابته الى توسيع مدينة دمشق واصلاح طرقاتها والنهوض بمشاريع عمرانية متعددة. كما يلاحظ بأن السلطات خففت من الضرائب المفروضة على بلاد الشام بل عمد السلطان الناصر محمد الى الغاء بعضها كالغلة والسجون والأقصاب والبواقي المتراكمة عليهم من سنة ٦٩٨هـ.

وظلت البلاد تنعم بحالة من الاستقرار النسبي مابين حملتي غازان وتيمورلنك، فلم تحصل السلطات أثناء هذه الفترة الاضرائب يعود مردودها لحكام البلاد، أو للمشاريع العمرانية حتى سنة ٧٩٥هـ/ ١٣٩٢م فقد جبيت الأموال من دمشق - حلب - طرابلس من قبل الأمير فرج شاد الدواوين ويرجح أن تكون هذه الجباية بسبب الاستعدادات العسكرية عند ورود الانباء للسلطات بتحرك تيمورلنك، وقامت السلطات تحديدا سنة ٧٨٩هـ/١٣٨٧م بأخذ زكاة الأموال من التجار وفوض الأمر الى

---

(١) - ابن كثير: المصدر نفسه، ج ١٤، ص٨- المقريزي: المقفى، ج ٧، ص١٧٣- دهمان: ولاة، ص١٠١ - شهاب: تيمورلنك ص ١٦٧.

(٢) - ابن ايبك الدواداري: المصدر نفسه، ص٣- ابن كثير: المصدر نفسه، ج ١٤، ص١٠- العيني: المصدر نفسه، ج ٤، ص٤٤- دهمان: ولاة، ص ١٠٩.

(٣) - النويري: المصدر نفسه، ج ٣١، ص٣٩٩- ابن خلدون: العبر، ج ٥، ق ٤، ص٨٩١- المقريزي: السلوك، ج ١، ق ٣، ص ٨٦٥- دهمان: المرجع نفسه، ص ١٠٨.

(٤) - دهمان: ولاة، ص ١١٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وأبرز من تولى جباية الأموال من أهل دمشق صدقة بن الجابي ، ابن المحدث ، عبد الملك بن التكريتي المنبوذ ومن المغول عبد الجبار ، عضد الدين ، عبيد ، خواجه مسعود ، عمرو كان مثل كاتب الخزانة حيث يأتي بالأموال ويحصرها ويضبطها ، وفوض الادارة جميعها الى كفاية الله داد أحد أفراد المغول وكان يقطن في دار ابن مشكور خارج باب الصغير ، وكان المستخلص في دار الذهب.(١) أمر تيمورلنك الجباة بالتشدد في عمليات التحصيل ، وهذا أدى الى نشوء الخلافات بين الجباة لذلك أمرهم تيمورلنك بتسليم مايجمعونه يوميا الى رئيس الجباة كفاية الله داد.(٢)

وكان جباة تيمورلنك يستخرجون الأموال التي يخبؤها السكان في الأماكن المهجورة ، وقد صوّر لنا المؤرخ ابن عربشاه كيف كان جنود تيمورلنك يعرفون مكان الأموال بقوله :

« ثم ينزل عن دابته ، ويأخذ من ذلك التراب ويشمه ، ثم يلتفت الى جهاته الأربع فيقصد بها جانبا ويؤمه ، ثم لا يزال يسير بمن معه من الأعوان ، حتى يصلوا الى مكان فيحفروه ويخرجوا كمين الدفائن وما في ذلك المكان من المغلات والخزائن .

وكذلك اذا وصلوا الى عمائر أو مروا على مقابر ، يتوجهون الى الخبأ كأنهم وضعوه بأيديهم أو أوحت شياطينهم ذلك اليهم ، وربما يجيئون الى مقام ، مر على ساكنه فيه أيام ، ومضى عليه شهور وأعوام وفيه شيء مطمور ، ولم يكن لصاحبه وساكنه به شعور ، فبمجرد دخولهم اليه يفتح ذلك ويطلعون عليه وحين يطلع ساكنه على ذلك يأكل ندامة وحسرة يديه وكان لهم درايات في دهرهم عجيبة ، وسهام آراء في عمرهم مصيبة ، وكانوا يحملون البقر ويركبونها ، ويسرجون الجمر ويلجمونها ، ويسابقون على ذلك أصحاب الخيل العراب الى احراز قصبات المغانم فيسبقونها ويطعمون الجمل لحم الكلب والحمل ، ويقاضون عن شعير الفرس بالقمح والأرز والدخن والزبيب والعدس ، وربما أعوزهم في ذلك السفر ، فأطعموا دوابهم لحاء الشجر».(٣)

وبعد أن اكتمل جمع المال قبض تيمورلنك على ابن مفلح ورفاقه وكبله بالاغلال وألزم مع الأعيان أن يكتبوا له خطط دمشق وحاراتها وسككها فكتبوا له ذلك وقدموه له ، ففرقه على أمرائه ، وقسم البلد بينهم فساروا اليه ، ونزل كل أمير في قسمه وطالب من فيه من السكان بالأموال والذى

---

(١) - ابن عربشاه : عجائب المقدور ، ص٩٥ ٢ - ٢٦٠ - ٢٦٥ - ابن تغرى بردى : المنهل ، ج ٤ ، ص٣ ٣
- الصيرفي : نزهة النفوس ، ج ٢ ، ص٨٩ - ابن العماد الحنبلي : شذرات الذهب ، ج٦ ، ص ٦٤
- شهاب : تيمورلنك ، ص٩ ٣٠ - والتر : المرجع نفسه ، ص٥ ٣١ - ٣١٦ -
(٢) - شهاب : المرجع نفسه ، ص٥ ٣١ - ٣١٦ - والتر : المرجع نفسه ، ص٣ ١٥ .
(٣) - ابن عربشاه : المصدر نفسه ، ص ٤٧٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لا يستطيع الدفع يعاقب بأنواع مختلفة من العذاب ، فكانت تهتك الأعراض ، ويعذب الأطفال واستمرت أعمال الجباية هذه تسعة عشر يوما .(١)

وقد سببت هذه الضرائب غلاء الأسعار وانحطاط القيمة الشرائية للنقود بعد أن رفض جنوده تحصيلها واكتفوا بالدراهم الفضية والدنانير .

لم يقتصر فرض الضرائب وجبايتها على دمشق فقط بل سادت في مدن أخرى كحلب وطرابلس وصفد صيدا ، بيروت ، حمص ، البيرة ، لكنها اختلفت عن دمشق بكونها عدا حلب لم يدخلها تيمورلنك عسكريا وانما جمعوا لتيمورلنك الأموال وبعثوها اليه .(٢)

وتعرض سكان مدينة حلب لعمليات تعذيب وحشية ماثلت في ذلك أختها دمشق لأنهم لم يستطيعوا تسديد الأموال المفروضة عليهم ، فما كان منهم الا أن طلبوا معونة اخوانهم وأصدقائهم بدمشق ليدفعوا المبالغ المفروضة عليهم الى خزائن تيمورلنك .(٣)

وكان المقيمون في قلعة حلب أكثر من تعرض لعمليات التعذيب ، فقد طلب منهم تيمورلنك دراهم ، واستخلص منهم أموالا تعجز عن حصرها العقول ، الى جانب استيلاء الجنود عما وجدوه فيها من الأموال والأقمشة التي أذهلتهم ، وذكر تيمورلنك أنه لم يجد في الدنيا قلعة فيها هذه الذخائر .(٤)

واستمرت عمليات الجباية في مدينة حلب خمسة عشر يوما نهبت خلالها الدور والقصور واستلبت الجواهر الثمينة والمعدات الفاخرة وأوكل تيمورلنك الى أحد أمرائه موسى بن حاجي طغاي مع مجموعة كبيرة من الجند حراسة هذه الأموال .(٥)

٢) الضرائب الثابتة :

تنوعت الضرائب الثابتة في فترة البحث ويمكن ذكر أهمها :

١- الضرائب الخراجية : وهي الضرائب التي تؤخذ من الأراضي المزروعة بالحبوب أو الأشجار المثمرة وتعطى لصاحب الاقطاع ليؤديها الى خزانة الدولة وتختلف ما بين منطقة وأخرى بحسب طبيعة

---

(١) - المقريزي : السلوك ، ج ٣ ، ق ٣ ، ص ١٠٤٩ - العسقلاني : انباء ، ج ٤ ، ص ٢٠٨ - ابن تغري بردي : النجوم ، ج ١٢ ، ص ٢٤٤ - ابن اياس : المصدر نفسه ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٦١٤ - القرماني : المصدر نفسه ص ٢١٠ - لامب : المرجع نفسه ، ص ١٢٤ - شهاب : المرجع نفسه ، ص ٢١٦ - عبد السيد : المرجع نفسه ، ص ١٤٠ - ١٤١ .

(٢) - ابن عربشاه : المصدر نفسه ، ص ٢٢٠ - الصيرفي : نزهة ، ج ٢ ، ص ٩٣ - لامب : المرجع نفسه ، ص ...

(٣) - شهاب : تيمورلنك ، ص ٢٤٠ .

(٤) - ابن خطيب الناصرية : الدر المنتخب ، ج ١ ، ورقة ٣٥٢ - العسقلاني : انباء ، ج ٤ ، ص ١٩٦ - ١٩٧ - ابن تغري بردي : المنهل ، ج ٤ ، ص ١٢١ - الصيرفي : المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٧٦ - السخاوي : الضوء ، ج ٣ ، ص ٤٦ .

(٥) - ابن عربشاه : المصدر نفسه ، ص ٢٢٦ - ابن تغري بردي : النجوم ، ج ١٢ ، ص ٢٢٤ - الصيرفي : المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٩٢ - شهاب : المرجع نفسه ، ص ٢٨٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

التربة ومدى استغلالها وطريقة ريها . وقد ذكر الخراج في سنة٧١٣هـ/١٣١٣م حيث حولت الأموال الخراجية لغوطة دمشق . الى جانب القرى الممتدة من دمشق الى العريش لصالح السلطان المملوكي (١) . وقد أثبت ذلك كرد علي حين قال : « وذلك لأن خراجها كان يجبى بسهولة أي أن الجباية التي يسهل الحصول عليها يخص بها السلطان نفسه ، أما ما تتعذر جبايته فيتركه لنفقات الدولة » (٢) .

٢- الضرائب الهلالية : والتي كانت تحصل شهريا كضمان البغاء ، الآدر والحوانيت والحمامات ، الأفران معاصر الشيرج والزيت ، الزكاة ـ المواريث ـ دار العيار ، دار الضرب ، قصب السكر ـ مصائد السمك والحشيش (٣) .

٣- ضريبة التصقيع والتقويم : فالتصقيع اخذ أجرة شهرين عن الأملاك في كل سنة والتقويم هـي تقدير ثمن الدار وأخذ درهم عن كل دينار .

٤- الضرائب على الأفراد : وتقسم الى :

آ- الجزية وأطلق عليها في فترة البحث الجوالي (٤) وتفرض على غير المسلمين وعلى الرجال فقط من أهل الذمة . كما أخذت من بعض طوائف المسلمين كالاسماعيلية الذين أدوها للفرنج قبل المماليك واستمرت في عهد المماليك ، فمثلا في عهد بيبرس كان مقدارها مئة وعشرين ألف درهم كان يحملها اليه في كل سنة زعيمهم نجم الدين حسن بن الشعراني (٥) .

ب- ضريبة الحج : وقد فرضت على الحجاج المسلمين والنصارى :

فالحجاج المسيحيون كانوا يدفعون سبعة دراهم عند دخولهم عكا واثني عشر درهما عند دخولهم الناصرة ، وسبعة دراهم عند قطعهم الجسور وجزية عند مرورهم بنيابة صفد ، وقد أزعجت هذه الضريبة الحجاج الأوربيين لأنها كانت مفروضة عليهم (٦) .

أما الحجاج المسلمون فقد أدوا ضريبة الحج للسلطات وكانت توظف أحيانا لشراء لوازم ومتطلبات حج السلطان (٧) .

---

(١) - ابن يحيى : تاريخ بيروت ، ص ٩٠ - كرد علي : غوطة دمشق ص ١٠٢ .
(٢) - كرد علي : المرجع نفسه ، ص١٠٢ .
(٣) - ضومط : الدولة المملوكية - ص١٠٢ - الطراونة : المرجع نفسه ، ص ١٧٩ - ١٨٢ .
(٤) - الجوالي : جمع جالية الذين جلوا عن أوطانهم ، ويسمى في بعض البلدان مال الجماجم وهي الرأس . انظر الخوارزمي : مفاتيح العلوم ، ص٤٠ - دهمان : معجم الالفاظ التاريخية ، ص٥٦ .
(٥) - ابن عبد الظاهر : الروض ، ص٣٦٦ - النويري : المصدر نفسه ، ج ٣٠ ، ص٢٤٨ - الذهبي : العبر ، ج٥ ، ص ٢٨٧ .
(٦) - الطراونة : المرجع نفسه ، ص١٨١ - عطا الله : نيابة غزة ، ص ١٠١ .
(٧) - أبو الفداء : المصدر نفسه ، ج ٤ ، ص٨٥ - المقريزي : السلوك ، ج ٢ ، ق ١ ، ص١٩٥ - ج ٢ ، ق ٢ ، ص ٣٥٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أما الحجاج اليهود: فقد فرضت السلطات عليهم ضريبة باسم رسوم الزيارة، كانوا يدفعونها الى قرية حيرون في ولاية برصفد وعند زيارة طبرية.(١)

٥- ضرائب أخرى مثل ضريبة الأغنام وضريبة مال القبان، ضريبة الغلة، ضريبة الجند، ضريبة لـف أثر الاجتياح المغولي على هذه الضرائب فقد اضطرت السلطات المملوكية الى التوقف عن تحصيلها أثناء وجود المغول بالبلاد وعادت لتحصيلها بعد خروجهم وظهور الاستقرار الاقتصادي.

فقد ألغى الظاهر بيبرس ضريبة التصقيع والتقويم لأنه اعتبرها مظلمة وكذلك الخمس والزكاة المعجلة والجوالي المعجلة والتبرع والراجل ومقدارها ستمائة ألف دينار ومن المرجح أن الظروف السياسية هي التي دفعت الظاهر بيبرس للاقدام على هذه الخطوة.(٢)

أما بالنسبة للجزية فقد اضطرت الظروف السياسية السلطات لتحصيلها لأكثر من سنة عام ٧٤٢هـ/ ١٣٤١م حيث أخذت ثلاث سنين سلفا وتعجيلا.(٣)

وأرسل القائد المغولي غازان في كتاب الأمان لأهل دمشق بعدم التعرض لأهل الذمة من اليهود والصابئة والنصارى ماداموا يؤدون الجزية ولهم الأمان في أموالهم ودمائهم.(٤)

وحاول اليهود التخلص من أداء الجزية فقد ذكر ابن كثير أنه في سنة ٧٠١هـ/١٣٠١م عقد مجلس لليهود الخيابرة وأحضروا كتابا مزورا يزعمون فيه أن الرسول صلى الله عليه وسلم أسقط عنهم الجزية لكن الفقهاء تحققوا من كذبهم وعلى رأسهم ابن تيمية نمادت السلطات لاستيفاء الجزية منهم.(٥)

- أما بالنسبة لضريبة الاغنام فقد اضطرت السلطات سنة ٧٦٤هـ/١٣٦٧م لالغاء نصفها وكانت عبارة عن أربعة دراهم فأصبحت درهمين وربع درهم نتيجة لقلة الاغنام التي أدت لخسارة الخزينة لمتحصلات الضرائب المفروضة عليها وبهذا الاجراء فتح المجال أمام التجار باستيراد الاغنام من الخارج في تحصيلها هذه الضريبة بعد خروج المغول فقد أوردت المصادر بأن نوروز الحفظي (ت ٨٠٢- ٨٥٢/ ١٣٩٩-١٤٤٨م) شاد الأغنام ببلاد الشام كلها مما يدل على استمرار الضريبة.(٦)

---

(١) - الطراونة: المرجع نفسه، ص ١٨١.
(٢) - ابن عبد الظاهر: الروض، ص ٧٧- الطراونة: المرجع نفسه، ص ١٨٢.
(٣) - ابن كثير: المصدر نفسه، ج ١٤، ص ١٩٨.
(٤) - ابن ايبك الدواداري: الدر الفاخر، ص ٢٢- ٢٣- دهمان: ولاة، ص ٩٤- ٩٥.
(٥) - ابن كثير: المصدر نفسه، ج ١٤، ص ٢٩.
(٦) - ابن تغري بردي: المنهل، ج ٢، ص ٢٥١- السخاوي: الضوء، ج ٢، ص ٢٤٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أما ضريبة الغلة فقد عانى معظم الفلاحين من دفعها . ولتخفيف وطأة الظروف الاقتصادية السيئة فقد قام معظم السلاطين باسقاطها لفترة قصيرة فقد أبطلت سنوات ٦٨٩هـ/١٢٩٠م - ٦٩٢هـ/١٢٩٣م، ٦٩٥هـ/١٢٩٥م، ٦٩٦هـ/١٢٩٦م وعادت للظهور بعدها لأنها تشكل موردا هاما للخزينة.(١)

وألغيت ضريبة الجند سنة ٧٤٢هـ/١٣٤١م.(٢) بالنسبة لضريبة الخمور فقد ألغيت بعد خروج الغزاة من البلاد سنة (٦٩٩هـ/١٢٩٩م) لأن المغول شجعوا على شرب الخمور وفتح خمارات جديدة لكن السلطان أمر بعد خروجهم بابطال ضمانها سنة ٧٠٨هـ/١٣٠٨م وتعويض الجند بدلها وفي هذا دلالة على أن هذه الضريبة ارتبطت بالظروف الحربية للبلاد.(٣)

لقد بدا واضحا أثر الحملات العسكرية المغولية في اضعاف الرعية ليس في مواجهة الغزاة عسكريا بل في الضعف الاجتماعي والاقتصادي مما جعل أغلب الرعية ترضى بكافة الوسائل التي تفرضها السلطات عليهم. وظهرت مساوىء الحملات المتكررة على بلاد الشام بالضغوطات المتكررة من جانب السلطات على الفقهاء لاجبارهم على الافتاء بجواز الضريبة لتأخذ صفتها الشرعية. ومثلما أثر الاجتياح في استحداث ضرائب جديدة، وفي الغاء بعضها فقد أثر بدوره على الأسعار، فكثرة الضرائب كانت تدفع الباعة الى رفع الأسعار لأنهم كانوا يجدون المبرر والعذر في تزايد عبء الضرائب على كواهلهم على مر السنين لذلك لجأ الباعة الى الغش في الموازين والمكاييل لتعويض الأموال الضريبية التي دفعوها، ولتحقيق المزيد من الأرباح، والنتيجة كانت الضغط على المستهلك الذي يضطر الى شراء حاجاته الضرورية فقط. والى كساد في حركة الأسواق من حيث حجم المبيعات التي لم تخضع لأي قاعدة.(٤)

وفي النهاية نقول بأن العائدات الضريبية كانت تصرف في وجوه كثيرة وخاصة لتلبية متطلبات الجانب العسكري وجنى ثمارها السلطات المملوكية فقط.(٥) بينما عانى العامة من الفقر واضطر الحرفيون لترك أعمالهم والنزوح لمناطق أكثر أمنا وهذا ما انعكس على جودة المصنوعات واتقانها، بالاضافة لارتياد الناس الاربطة والزوايا وانتشار اللصوص والحرافيش وتفشي الأمراض الخلقية كاللواطة وتعاطي الخمور.

(١) - ابن كثير: المصدر نفسه، ج ١٣، ص ٣٤٣ - ابن الفرات: تاريخ، ج ٨، ص ١٦٦ - المقريزي: السلوك ج ١، ق ٣، ص ٧٥٩ - ٧٩٢ - ٨٢٤ - المقفى، ج ٣، ص ٨٠٢ - العيني: المصدر نفسه، ج ٣، ص ٢٠٢٠٧ - ابن تغري بردي: المنهل، ج ٥، ص ٢٧٩ - النجوم، ج ٨، ص ٦٤٢٦ - ابن اياس: المصدر نفسه، ج ١، ق ١، ص ٣٦٦ - القرماني: أخبار الدول، ص ٢٠٠.

(٢) - المقريزي: المقفى، ج ٢، ص ٥٦٩ - ابن تغري بردي: النجوم، ج ١٠، ص ٢٢.

(٣) - المقريزي: السلوك، ج ٣، ق ٢، ص ٦١٦، ج ٢، ق ١، ص ٢١١ - ج ١، ق ٣، ص ٩٠٠ - المقفى، ج ص ٤٥٩ - العيني: المصدر نفسه، ج ٤، ص ٤٦ - ٤٧ - النويري: المصدر نفسه، ج ٣١، ص ٤٠٠ - ٤٠١

(٤) - قاسم عبده: دراسات في تاريخ مصر الاقتصادي، ص ٥٥.

(٥) - لابيدوس: المرجع نفسه، ص ٤٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

جـ - المصادرات :

- شكلت المصادرات موردا من موارد الدخل الحكومية استعملتها السلطات لأسباب متعددة ، فكانت اما لتغطية النفقات العسكرية أثناء قدوم الغزاة ، ولتغطية نفقات السلطة وخاصة مستلزمات السلطان من حج وأمور غيرها ، ولمنع احتكار السماسرة والتجار .

لقد احتل موضوع المصادرات وماتبعه من العقوبات حيزا هاما في فترة الدراسة ، لأن تلك المصادر شملت أموال كبار موظفي الدولة حتى المتوفين منهم كالصاحب شمس الدين بن غبريال ناظر الشام وغيره ولم تكن المصادرات تتم بشكل افرادى فقط من قبل السلطات بل شملت عامة الناس عند حصول الغزو ومن قبل قوادهم .(١)

والسمة المشتركة لكل عمليات المصادرات التي تمت من قبل السلطات أنها أضعفت من نفوذ كبار التجار في بلاد الشام حيث كانت تتم خلالها مصادرة رؤوس أموالهم، وساعد السلطات في مهمتها التوتر الاجتماعي الذى كان كبيرا في المدن وربما أكبر في المناطق الريفية ، ذلك أن فئة التجـــار والأثرياء البورجوازية - امتلكت الضياع، الاقطاعات ، مراكز ادارية هامة وشعرت بقوة كافية عند حصول الضعف في كافة النواحي اثر مجيء الغزاة ، لذلك لم تأل الحكومة جهدا في معاقبة هذه الفئة عند استقرار الأوضاع الأمنية . ونستطيع تقسيم عمليات المصادرات الى قسمين :

أ - مصادرات من قبل قواد المغول :

تم خلالها تجريد السكان من كافة الأموال اضافة الى الممتلكات العينية ، فأثناء غزوة هولاكو لم يحصل مصادرات من قبل المغول نتيجة لعدم استقرارهم بالمدينة الى جانب هزيمتهم في عين جالوت، بينما صودر سكان حلب ودمشق أثناء غزوة غازان ، ففي دمشق صادر المغول الفرش والأواني والخيول ، وأهان الكثير من سكان دمشق بمدرسة القيمرية بسبب تحصيل الخيل ، ثم صادر الجمال لأنها من عدة الحرب والقتال الى جانب الأسلحة والغلال الزراعية ، وأخرج أكثر من عشرين ألف حيوان كان منهم مايفوق العشرة الاف فرس، الى جانب مصادرة النفائس العلمية والأدبية .(٢)

---

(١) - اليوسفي : تحفة الناظر، ص ٧٨ .

(٢) - ابن ايبك الدوادارى : المصدر نفسه ، ص ٢٣ - ٢٩ - اليافعي : المصدر نفسه ، ج ٤ ، ص ٢٣٠ - ابن كثير : المصدر نفسه ، ج ١٤ ، ص ٨ - المقريزى : السلوك ، ج ١ ، ق ٣ ، ص ٨٩٤ - المتقى ، ج ٧ ، ص ٧٢ ١ - العيني : المصدر نفسه ، ج ٤ ، ص ٩٣ - عاشور : العلاقات ، ص ١٥٢ - شهاب تيمورلنك ص ١٦٧ - لابيدوس : مدن الشام ، ص ٤٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

كما صادر تيمورلنك في سنة ٨٠٣هـ/ ١٤٠٠م معظم سكان حلب ودمشق ، ففي حلب صادر الأموال والامتعة التي خبأها الأهالي في القلعة ، وصادر مقتنيات الأشخاص الذين غادروا المدينة ، وقد ذكر أحد من أوكل اليهم ضبط ما هو موجود في القلعة لقاضي حلب أنه ما أخذ من مدينة قط ما أخذ من قلعة حلب.(١)

وبالنسبة لمدينة دمشق فقد صادر كل شيء منها ، فقد حصّل جميع ما وجد بالمدينة من جمال وبغال وخيول وبلغ عدد الدواب المصادرة مائة وعشرين ألف دابة.(٢) ويدل هذا على أن القواد المغول كانوا يوزعون هذه الغنائم على الجنود وذلك لتشجيعهم على القتال كلما تطلب الامر.

٢- مصادرات من قبل السلطات:

لقد اتبعت السلطات في بلاد الشام طرائق كثيرة لتحصيل المصادرات التي تنوعت وتعددت أسباب الاقدام عليها . فكان من الأسباب الأولى الموجبة لهذه المصادرات هو الانفاق على الحملات العسكرية ضد الغزو ، فالسلطات وجدت نفسها بحاجة للمال بشكل سريع ، ورأت أن الوسيلة الاسرع والأمثل هي القيام بالمصادرات ، ففي سنة ٦٥٨هـ/ ١٢٥٩م وصلت الأنباء الى مسامع الناصر يوسف ملك دمشق باستيلاء المغول على قلعة حلب فصادر أموال الناس لتغطية نفقات الجيش.(٣)

واستغل بعض المتنفذين من حلب الاضطراب والفوضى الذي عم المدينة وقام بمصادرة أموال السكان ونهبهم سنة ٦٥٩هـ/ ١٢٦٠م ، وظلوا يعيثون الفساد حتى قدم اليهم جيش الظاهر بيبرس فأزالوا ذلك كله وصادروا مال اهلها بألف ألف وستمائة ألف.(٤)

وشجعت أنباء قدوم المغول وحصارهم للرحبة الحكام على مصادرة أموال الناس سنة ٧١٢هـ/١٣١٢م وقد تولى مهمة المصادرة أمين الدين بن الغنام فصادر كلا من الوزير ومعظم السكان في دمشق ، واتبع أساليب كثيرة للتعذيب من أجل تحصيل البضائع والاموال ، فقد ضرب بعضهم بالمقارع ، بينما أهان الاعيان ومنهم ابن فضل الله محيي الدين.(٥)

---

(١) - ابن عربشاه : المصدر نفسه ، ص٢١٦ - شهاب : تيمورلنك ، ص ٩٠ - لابيدوس: المرجع نفسه ، ص٦٤ .

(٢) - المقريزي : السلوك ، ج ٣ ، ق ٣ ، ص١٠٤٩ - ابن اياس: المصدر نفسه ، ج ١ ، ق ٢ ، ص٦١٣ - شهاب: تيمورلنك ، ص ٣١٦ - لابيدوس : المرجع نفسه ، ص ٢٠٨ .

(٣) - المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤٢٢ .

(٤) - ابن كثير : المصدر نفسه ، ج ١٣ ، ص ٢٣١ .

(٥) - ابن كثير : المصدر نفسه ، ج ١٤ ، ص ٦٧ - المقريزي : المصدر نفسه ، ج ٢ ، ق ١ ، ص١١٩-١٢٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لقد شهدت فترة البحث مصادرة كبار التجار في بلاد الشام ولم تسعفنا المصادر سوى بالتليل عن أسباب المصادرات، ومن المرجح أن السلطات قامت بهذا العمل لثلاثة أسباب:

١- لاعتقادها بوجود علاقة بين هؤلاء التجار وبين السلطات المغولية قائمة على تهريب البضائع من قبل التجار في بلاد الشام نحو المشرق.

٢- للاحتكار الذي ربما قام به التجار أثناء الهجوم المغولي فقامت السلطات بمصادرتهم لتأديبهم.

٣- لسد عجز الخزينة الحكومية لأن كافة المدخولات الصناعية والتجارية والزراعية خفت وازداد الانفاق الحكومي كثيرا ومايدفعنا لتبني الرأيين الاول والثاني أن المصادرات تحتاج لمسوغات عالية جدا مثل الاحتكار والخيانة. ومايدفعنا للتقليل من أهمية الرأي الثالث هو أن السلطات كانت تلجأ عند حصول الازمات الى الاقتراض من أصحاب الثروة فماهو الداعي لمصادرتهم إذاً.

فالوزير سنجر الشجاعي أجبر تجار الكارم في سنة ٦٨٧هـ/١٢٨٨م على اقراض تجار دمشق الاموال المفروضة عليهم ولم يسلم تجار الكارم أنفسهم من المصادرة حيث فرضت السلطات عليهم الغرامات.(١)

اذا أردنا ضرب الامثلة على المصادرات بدون مسوغات فهي كثيرة منها المصادرة التي تعرض لها أعيان دمشق سنة ٦٨٧ هـ/١٢٨٨م من قبل ناصر الدين المقدسي وهم الشيخ عز الدين حمزة ابن القلانسي، نصير الدين بن سويد، ابن صصرى. فلما حضروا طلب منهم أموال فكانت الاموال المطلوبة من الشيخ القلانسي مائة وخمسين ألف درهم، ومن ابن سويد ثلاثين ألف درهم، ومن ابن صصرى ثلثمائة ألف درهم، كما طلب من أكابر البلد أموالا كثيرة، لكن هؤلاء اعتذروا بأنهم لم يحملوا أموالهم لمصر وأبقوها في دمشق فطلب الوزير الشجاعي جماعة من تجار الكارم بمصر وأمرهم أن يقرضوا أعيان دمشق مالا يحملونه لهم فيمابعد ففعلوا ذلك وكتبت عليهم الحجج ثم أعادوا المبلغ لاصحابه.(٢)

أن هذه التجاوزات التي حصلت من رجال الادارة كالمقدسي وغيره لا يمكن أن تتم لولا ضعف السلاطين المماليك، وساعد المقدسي وغيره في تنفيذ هذه الاعمال ارتباطهم بشبكة من الاداريين ساعدته على هذه التجاوزات.

---

(١) - آشتور: آ: التاريخ الاقتصادي ص ٣٩٤.

(٢) - ابن الجزري: المختار، ص ٣٢٥ - ابن كثير: المصدر نفسه، ج ١٣ ص ١١٢ - ابن الفرات: تاريخ، ج ٨، ص ٦٢ - المقريزي: السلوك، ج ١، ق ٣، ص ٧٣٩ - المتقي، ج ٦، ص ٥٦ - دهمان: ولاة، ص ٧٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ساعدته على هذه التجاوزات.

ان هذه الطرق القاسية في المصادرات جعلت النفوس تثور ضد هذه التصرفات، كما علت الأصوات لمطالبة السلطات المملوكية بالعدول عن مثل هذه الطرق. (١)

وعالجت السلطات المشاكل الاقتصادية في بلاد الشام والناجمة عن سوء سياستها الداخليــــة في معظم الأحيان لشكها في وجود علاقة خفية بين التجار وبين المغول ، فاستخدمت عمليات المبيعات القسرية (الطرح) للحصول على رؤوس الاموال الى جانب مصادرة الممتلكات ، الحجز على البضائع والاملاك وطرحها على التجار وبيعها حتى يتم بموجبها تحصيل الأموال . وكان هذا الطرح أو البيع القسرى للتجار بسعر يزيد عن قيمة السوق ويخالف رغبات المشترى . وكانت هذه العملية بمثابة مصادرة جزئية لرأس المال وطريقة لجعلها شرعية بايجاد مسوغ للمصادرات.لذلك وحفظا لماء الوجه صادرت السلطات سنة ٦٨٨هـ/١٢٨٦م جماعة من أعيان دمشق وتجارهـــا وطرحت مصادرات تقي الدين توبة من الاخشاب والسكر على أهل دمشق بأضعاف قيمته ، فكان يحفظ لمن يطرح عليه منه الربع فمادونه ، فحصل من ذلك مايقدر بخمسمائة ألف درهم ، كما صادر نائب دمشق الشجاعي نجم الدين عباس الجوهرى ، وطالبه بأموال كثيرة لم يستطع دفعها ، فاضطر لابدالها بجواهر قيمتها ثمانون ألف درهم ، فرفضها الشجاعي فاضطر نجم الدين أن أحضــــر خونجاه ذهب مرصعة باللؤلؤ قومت بأربعمائة ألف درهم سبكوها فجاءت في سبعة آلاف دينار. (٢)

ان الوقوف على ماذكر فيما مضى يدل على أن السلطات كانت تعاني من نقص في كمية الذهب المستخدم لضرب النقود ، فهي رفضت الجواهر وقبلت الذهب وهذا يدل على العجز والتضخم للميزانية الحكومـ

لقد ارتبطت عمليات الطرح بالفوضى السياسية الناجمة عن قدوم المغول ، ففي سنة ٨٠٢هـ/١٣٩٩م تعرض أرباب الأموال بدمشق للضرر الفادح بعد أن طرح عليهم ابن الطبلاوي السكر الحاصل من الأغوار ، بحيث أن السكر طرح على فئات متعددة كالفقهاء والقضاة ونقباء القضاة وأهل الفوطة ، فسبب ذلك للسكان الضيق والاحراج ، وزاد بلاؤهم مافعله والد نائب دمشق المدعو جركس حين

---

(١) - النويرى : المصدر نفسه ، ج ٣١ ، ص ١٥٨ - ابن الجزرى : المصدر نفسه ، ص ٣٣ - ٣٣٦ - ابن كثير المصدر نفسه ، ج ١٣ ، ص ٣١١ - ٣١٦ - المقريزى : السلوك ، ج ١ ، ق ٣ ، ص ٧٤١ - ٧٤٢ - المقفى ، ج ٦ ، ص ٥٧ - النعيمي : الدارس ، ج ١ ، ص ٢٦٩ .

(٢) - النويرى : المصدر نفسه ، ج ٣١ ، ص ١٦٣ - ١٦٤ - ابن الجزرى : المصدر نفسه ، ص ٣٣٠ - ابن كثير : المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ٣١٣ - ٣١٤ - ابن الفرات : المصدر نفسه ، ج ٨ ، ص ٨١ - المقريزى : السلوك ج ١ ، ق ٣ ، ص ٧٤٨ - لابيدوس : المرجع نفسه ، ص ١٠٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

طرح السكر الباقي على الناس، فمقت الناس ذلك لكثرة الضرر الفادح[١]. ويرجح أن ابن الطبلاوي أقدم على هذا العمل بإذن من السلطات التي خشيت من تعامل التجار مع العدو المغولي المتقدم نحو البلاد والتي وصلتها أنباؤه قبل هذا الوقت، أو خشية خذلانها بعدم تزويدها بالمال الكافي لمواجهة الغزو. وسببت عمليات الطرح والبيع القسرية كإجراء اقتصادي الكثير من المتاعب للتجار، إضافة إلى أنها كانت من عوامل انكماش حركة الأسواق الداخلية، كما مكنت السلطات من التدخل في جميع مظاهر النظم الاقتصادية، فقد تحمل التجار خسائر كبيرة عبر التحديد غير المتوازن للأسعار، وعرقلة المشاريع التجارية[٢].

لقد نتج عن المصادرات التعسفية النزوح باتجاه المناطق الريفية، مما أدى إلى الركود العام سواء الصناعي أو الزراعي أو التجاري، فعلى الصعيد التجاري شهدت تجارة الجملة أو المفرق، التجارة الداخلية أو الخارجية خللا واضحا. وعلى الصعيد الصناعي شهدت الحرف والمنتجات قلة الأيدي العاملة، وبالتالي يمكن أن يكون قد أثر ذلك على جودة الصناعة.

كما فسحت الطرق الخاطئة للمصادرات وجباية الأموال الفرصة للحرافيش والزعار بتشكيل ميليشيات شعبية تبنت من خلال تنظيماتها الدفاع عن مصالح الرعية، وأظهرت نفسها بمظهر الحامي والمدافع عنها.

وهنا يتوجب طرح سؤال وهو، لمَ لم يعترض أصحاب الأموال والتجار على أعمال المصادرات، التي كانت تقابل بخنوع واستكانة من قبلهم ومن قبل السكان؟ هل كان عليهم أي مسلك تجاه السلطات أو كان ذلك نابعا من الخوف؟.

من الطبيعي ألا تكون هذه الاستكانة والخنوع نابعة من الخوف فمما عرف عن سكان بلاد الشام قوتهم وجبروتهم وعدم قبولهم بالذل والضيم، ولولا وجود المسوغات المالية للسلطات لمصادرة التجار لأقدم هؤلاء على الهجرة من البلاد وتركها نهائيا حتى تستتب الأمور فيها وهذا ينطبق على معظم الفترات السابقة. فلم نلحظ أن هناك معارضة من قبلهم تجاه السلطات بل نلحظ تجاوبا

---

(١) - ابن تغري بردي: النجوم، ج ١٢، ص ٨٢ ١- ابن اياس: المصدر نفسه، ج ١، ق ٢، ص ٥٥٦-٥٧٤.

(٢) - لابيدوس: المرجع نفسه، ص ٥٠١- قاسم عبده: المرجع نفسه، ص ٥٣- آشتور: المرجع نفسه، ص ٤١٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

مستمراً ، فالسلطات كانت دائما بحاجة للأموال لشراء المواشي لاستخدامها وقت الحرب ووقت السلم ، وبحاجة للتحصينات ، وشق الطرقات ، وغيرها وكانت أموال المصادرات من التجار هي أحد الأسس التي اعتمدتها السلطات لتنفيذ هذه الأعمال مع عدم المعارضة . صحيح أنه في كل المجتمعات التي قامت ثم اندثرت حصلت فيها تجاوزات من قبل السلطة تجاه عامة الشعب لكنها لم تكن بهذا الشكل المريع ، ذلك أنها اقتصرت على فئة محددة . ولولا وجود المسوغات لما احتكمت السلطات الى هذه الأعمال .

ان الخراب الذى سببته قسوة المغول لا يقارن بنتائج أى غزو سابق ، فهذا الخراب أثر على سياسة السلطات الاقتصادية ، وأثر على وضع التجار أيضا ، فبدلا من أن تنفق السلطات الأموال للتنمية الزراعية والصناعية والتجارية ، أصبحت تنفقها لتجهيز الجيوش وشراء المعدات والأسلحة ، حتى أصبحت في النهاية غير قادرة على الانفاق فاستطالت على السكان بفرض الضرائب بمسوغات شرعية . اضافة الى قيامها بالمصادرات .

د - النظام النقدى :

لأى نظام نقدى قاعدة يقوم عليها ، وهى اما أن تكون قائمة على معدن واحد أو على معدنين . ونظام المعدن الواحد اما أن يتمثل بالذهب ، أو بالفضة ، أما نظام المعدنين فيتمثل بهما معاً ، وهذا النظام كان سائدا في بلاد الشام في فترة الدراسة (١) .

وطبيعيا أن يكون للنظام النقدى أثره على حركة النشاط الاقتصادى ، هذا النشاط الذى تأثر بدوره بمؤثرات سياسية واقتصادية عادت بالضرر على البلاد . فلذلك لوحظ وقوع البلاد في أزمات نقدية عديدة حاولت السلطات جاهدة حلها عن طريق اصدار نقود جديدة ، سواء كانت هذه النقود دراهم أو دنانير أو فلوس لانهاء هذه الأزمات .

ان الأحداث السياسية التي مرت بها بلاد الشام والمرتبطة بالغزو المغولي كان لها تأثير كبير على النظام النقدى . فهذه الأحداث أدت الى مجموعة من الأزمات النقدية التي عالجت السلطات بعضها بينما عجزت عن معالجة الأزمات الأخرى . ان تلك الأحداث دعت السلطات الى اصدار نقود جديدة عند حصول بعض المعارك العسكرية مع المغول . فالسلطان قطز ضرب سنة ٦٥٨هـ/١٢٦٠م

---

(١) - النجيدى : النظام النقدى ، ص ٢٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

نقودا تصورالانتصار العظيم الذي حققه العرب المسلمون في عين جالوت ضد جحافل المغول الغازية ان ظروف الغزو المغولي لبلاد الشام تجعل بعض الباحثين يرجعون انتشارالدراهم اللنكية الى غزوة تيمورلنك سنة ٨٠٣هـ/١٤٠٠م . فقد أشار بعضهم أن هذه الدراهم وصلت الى مصر سنة ٨١٧هـ/١٤١٤م، وان كان ذلك صحيحا فهو يدل على انتشارها في بلاد الشام عند قدوم تيمورلنك للمنطقة . وكان لهذه الدراهم أثركبيرفي تخفيف أزمة نقص الفضة في مصر، لكنها نافست الدراهم المملوكية التي أصدرها الأشرف برسباي ، فحاولت السلطات منع التعامل بها أكثرمن مرة سنة ٨٣١هـ/١٤٢٨م لكن لم يتحقق للسلطات ما ارادت، وظلت تكرر المحاولات حتى سنة ٨٣٤هـ/١٤٣٠م حيث سحبت هذه العملة من الأسواق ودفعتها الى دار الضرب لتحويلها الى دراهم فضية مملوكية . ولم تورد المصادر المملوكية بعد هذا التاريخ أي ذكر لها .[٢]

من الطبيعي أن يكون لانتشار الدراهم المغولية في بلاد الشام أثر على وضعها النقدي ، فهو يؤدي الى منافسة العملة المتداولة بين الرعية ، خصوصا اذا ما علمنا بأن تيمورلنك أقدم في مدينة دمشق على الاستيلاء على النقود الذهبية والفضية ، فلم يبق سوى الفلوس النحاسية وهي ماكانت ترفض السلطات التعامل بها بنتيجة لغشها وتزييفها مما أدى الى حصول مجاعات وكوارث اقتصادية نتيجة عدم وجود النقود للتعامل .

وقد تزامن الغزو المغولي للبلاد مع تدفق كميات كبيرة من الفضة من آسيا الوسطى الى كل من بلاد الشام ومصر وغيرها من البلدان الأخرى التي هاجمها المغول ، والظاهر أن هذا السيل لم يستمر لفترات طويلة بدليل فقدانها بعد حين حيث اضطرت السلطات الى صك الفلوس النحاسية بدلها . وقد سبب تدفق الفضة زيادة نسبتها في الدراهم فبعد أن كانت $\frac{1}{20}$ في الدرهم من الدينار وصلت الى $\frac{1}{25}$ ، ثم الى $\frac{1}{30}$ في فترة لاحقة .[٣] ولا يمكن تجاهل ما أحدثه الغزو من أثر على القيمة النقدية للنقود المتداولة في بلاد الشام . فالأوضاع النقدية لم تكن مستقرة خلال السنوات العشر الأولى من العصر المملوكي بسبب عدم استقرار الحالة السياسية اثر غزوة هولاكو ، ذلك أن هذه الغزوة أثرت على ارتفاع قيمة الذهب بدليل أنه بعد اتجاه الأوضاع الى الهدوء سنة ٦٥٩هـ/١٢٦١م

---

(١) - النجيدي : المرجع نفسه ، ص ٢٠١ .

(٢) - المقريزي : السلوك ، ج ٤ ، ص ٢٨٧ - ٢٨٨ - ٨٥١ - ٧٩٣ - النجيدي : المرجع نفسه ، ص ٤٨٦ - ٤٨٨ .

(٣) - أشتور : المرجع نفسه ، ص ٢٨٠ - ٢٨١ - العلبي : دمشق ، ص ٢٤٣ - ٢٤٤ - قاسم عبده : دراسات ص ٥٥ - ٥٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أصبحت القيمة النقدية للدينار أقل منها في السنة الماضية.(١)

وشهدت الفترة التي تلت غزوة هولاكو انخفاضا في القيمة النقدية للدينار، بعد حصول السلطات على كميات وفيرة من الذهب فكثر بذلك عرضه وانخفضت قيمته، لكن هذه القيمة شهدت ارتفاعا في أوائل سنة ٦٩٩هـ/١٢٩٩م بحيث وصلت الى سبعة عشر درهما فضيا، ثم الى ثمانية عشر، ثم الى خمسة وعشرين درهما فضيا ونصف أواخر سنة ٦٩٩هـ وبداية سنة ٧٠٠هـ/١٣٠٠م.(٢)

ويُرجع المقريزى سبب هذا الارتفاع الى الظروف الحربية التي كانت تمر بها البلاد والتي تمثلت في الاستعدادات العسكرية اضافة الى فرض عدد من الضرائب لتجهيز الجيوش فقال:

« واجتمع من ذلك مال عظيم، وصرلكل فارس أربعون دينارا، وبعثوا الى كل مقدم نفقة اضافية، والى كل من نواب الشام نفقة عسكرية ».(٣)

لقد أدت هذه الاجراءات الى توفر النقود الذهبية بين أيدى التجار، كما أن المبالغ التي أعطيت للجيش أنفقها في التجهز وشراء مايلزم من عتاد، مما أدى الى كثرة تداولها، فتسبب في انخفاض القيمة النقدية لها وذلك ناتج عن كثرة عرضها وقلة الطلب عليها، وما أن زالت الظروف العسكرية حتى تدنت القيمة النقدية للدينار وبلغت سبعة عشر درهما فضيا.(٤)

واذا كانت غزوة غازان قد أثرت بشكل ملحوظ على القيمة النقدية، فان ما أحدثه غزوة تيمورلنك كان أعمق وأكبر لأن جنوده أخذوا الدراهم والدنانير وفضوا الغلوس، فأدى ذلك الى ارتفاع القيمة النقدية للدنانير والدراهم، حيث بلغت قيمة الدينار تسعة وثلاثين درهما فضيا، بينما أغفلت هذه المصادر قيمة الدرهم الغضي ربما بسبب انعدامه وبعد عدة أشهر من رحيل تيمورلنك انخفض سعر تبادل الدينار دينارا واحدا ليصبح ثمانية وثلاثين درهما.(٥)

وقد قابل ارتفاع القيمة النقدية للدينار والدرهم انخفاض القيمة النقدية للغلوس، ذلك ماكان بخمسة دراهم لم يؤخذ الا بدرهم واحد - وكانت الغلوس هي القاعدة النقدية التي تنسب اليها قيمة المبيعات قبل غزوة تيمورلنك ومادعا لذلك قلة الدراهم الكاملية، وكثرة النفقات في العسكر

---

(١) - النجيدى: المرجع نفسه، ص ٢٧٠ - ٢٧١.

(٢) - ابن ايبك الدوادارى: الدر الفاخر، ص ٣٧ - المقريزى: السلوك، ج ١، ق ٣، ص ٨٩٩ - النجيدى: المرجع نفسه، ص ٢٧١.

(٣) - المقريزى: السلوك، ج ١، ق ٣، ص ٨٩٩.

(٤) - المقريزى: المصدر نفسه، ج ١، ق ٣، ص ٨٩٩.

(٥) - المقريزى: السلوك، ج ٣، ق ٣، ص ١٠٤٩ - ابن تغرى بردى: النجوم، ج ١٢، ص ٢٥٠ - ابن اياس: المصدر نفسه، ج ١، ق ٢، ص ٦١٣ - ٦١٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

من الذهب المخلف عن الظاهر برقوق - وانحطاط الفلوس يقابله ارتفاع في قيمة الذهب، فحاولت السلطات حل هذه الأزمة النقدية عن طريق طرح الذهب على الصيارف، لكن النتيجة كانت عكسية فقد حصل تدهور نقدي عالجت معضلته السلطات حيث قررت أن يؤخذ في الدينار الافرنتي المشخص تسعة وثلاثين درهما من الفلوس وكان بلغ بين الناس ثمانية وثلاثين درهما فتناقص الى خمسة وثلاثين درهما.(١)

والظاهر أن انحطاط الفلوس استمر لفترة طويلة، حيث تداوله الناس بالميزان عام ٨٠٧هـ/١٤٠٤م حيث أصبح كل رطل بستة دراهم، وصار وزن الفلوس ج درهم بعد أن كان مثقالا.(٢)

وشاع استعمال الفلوس في فترة البحث نظراً لتناقص كميات الفضة والذهب، ولكون القيمة النقدية للدرهم والدينار في ارتفاع وانخفاض، لذلك قامت السلطات سنة ٧٤٥هـ/١٣٤٤م بشراء النحاس وتصنيعه فلوسا الى جانب الرصاص الذي كان يخلط مع الفلوس، فاشترت الدولة رطل النحاس بدرهمين وصنعته فلوسا فبلغ الرطل بعشرين درهما، كما استولت السلطات على الفلوس في بلاد الشام حيث كانت واسعة فقامت بتقطيع كل فلس فيها الى ست قطع ثم طرحها للتداول.(٣)

وأجبرت كميات النحاس المتزايدة الاستعمال نتيجة لارتفاع الأسعار سنة ٧٨١هـ/١٣٧٩م الفضة على الاختفاء من التداول، وتوقف استعمالها بحلول سنة ٨٠٣هـ/١٤٠٠م، ذلك أن مخزون الفضة في دور السك تناقص منذ سنة ٧٨٢هـ/١٣٨٠م، اضافة الى عدم قدرة السلطات استيراده من الخارج بسبب المصاعب المالية والاقتصادية التي تعرضت لها البلد ان المصدرة للمعدن، فتوجب انقاص المحتوى الفضي للدرهم، فبينما بقي معدل صرف الدرهم $\frac{1}{20}$ دينار لمدة ١٣٠ سنة، أصبح $\frac{1}{25}$ ثم فيما بعد $\frac{1}{30}$ دينار. ومنذ هذا الوقت أصبحت العملة النحاسية المقدرة بالدراهم وسيلة للتبادل العام، وانخفضت قيمة النحاس بسرعة بالمقارنة مع الذهب، ووصلت للهاوية سنة ٨٠٨هـ/١٤٠٥م، لكننا لا نعتبر هذه الأزمة سببا للمصاعب الاقتصادية الطويلة الأمد، حيث أن هذه الأزمة كانت قصيرة جدا ومع ذلك سببت الاضطرابات.(٤)

ومازاد في ضرب الفلوس التحرك المغولي باتجاه البلاد عام ٧٩٩هـ/١٣٩٦م، فالاستعدادات العسكرية تطلبت عملة نقدية لشراء متطلبات الجيش، عندئذ لم تجد السلطات من حل سوى ضرب فلوس

(١) - المقريزي : السلوك، ج ٣، ق ٣، ص ٩٥ ١٠٠ - ابن اياس: المصدر نفسه، ج ١، ق ٢، ص ٦٩٤-٦٩٥.
(٢) - العسقلاني : انباء، ج ٥، ص ٢١٩.
(٣) - المقريزي : السلوك، ج ٢، ق ٣، ص ٦٩٩.
(٤) - لابيدوس: مدن الشام، ص ٦٩

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وتدريج الغش المنحوس لأن الغش اذا أطلق في اليسير سرى وتدرج في الكثير، وصار في ذلك الامكان لأهل الزغل والفساد، وتدرج الحال الى أكل الحرام وفساد الأحوال في الأرض والبلاد. واستمر ذلك الى آخر دولة السلطان الملك الظاهر برقوق، مع أن السلطان الظاهر برقوق اعتنى بها وأصلحها، ولم يبطل العيار، وصارت مع دخول الغش فيها متفاوتة في العدد ثم في الميزان، مجهولة قطع ودراهم صحاح آل أمرها الى ماحدث من فساد المعاملة وحصول الضيق والمحن بعد انتهاء دولة الناصر فرج لأن في دولته تمكن أهل الغش والزغل والبهرج من الاستطالة وافساد المعاملة من كثرة ماأفسدوه في العمل». (١)

وهناك أمثلة كثيرة على من غش النقود المتداولة، كالصاحب شمس الدين غبريال (ت ٧٣٤هـ) الذى غش الدينار البجشورى (٢)، بينما قام موظفو دار الضرب سنة ٧٣٠هـ/١٣٢٩م بالتلاعب في عيار الذهب بحيث أنقصوا وزنه، فصادرهم نائب دمشق تنكز وغرمهم خمسمائة ألف درهم، وتقرر سعر الدينار من تسعة عشرة درهما الى احدى وعشرين درهما، فيكون بذلك قد ارتفعت القيمة النقدية للدينار. (٣)

ان هذا التزييف يعود بنتائج سلبية على المجتمع ذلك أنه يؤدى الى انخفاض القيمة النقدية للعملة المتداولة فيؤثر سلبا على الأسعار التي تشهد حركتها ارتفاعا ملحوظا نتيجة لذلك وقد وصلت في بعض الأحيان الى مستويات عالية، ومن جراء ذلك عانت البلاد مما يعرف بمشكلة التضخم - اضافة الى تضرر مصالح الناس، فمن المرجح بأنها ستؤدى الى تعطيل المصالح، واغلاق الحوانيت والمتاجر، وانعدام وصول البضائع الى الاسواق الى جانب فقدان البلاد لثقة التجار الأجانب، فقد أضعف الفساد حماس طوائف التجار في استخدام تلك النقود.

ومن خلال تتبع سير الحوادث التاريخية في فترة البحث، لوحظ أن المؤرخين لم يشيروا لا من قريب ولا من بعيد الى أحوال دار الضرب ابان حصول الغزوات المغولية، هل استمر الموظفون في عملهم من اصدار العملات، أم حصل توقف للعمل خصوصا أن الغزاة مثل غازان وتيمورلنك حاصروا المدن وقطعوا الامدادات الخارجية عنها، كما أنهم وفي أثناء اقتحامهم للمدن أقدموا

---

(١) - الأسدى: التيسير والاعتبار، ص ١٢٤-١٢٦-١٢٧.
(٢) - الدينار البجشورى: عملة تصك بموافقة الصاغة والصيرفي ابن البجشور، فقد غشوا الذهب فحملوا المثقال نحو أربعة قراريط فضة. انظر النعيمي: الدارس، ج٢، ص ٩.
(٣) - المقريزي: السلوك، ج ٢، ق ٢، ص ٣٢٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

على المصادرات وجمع الأموال الذهبية والفضية ، وهل كانت دور الضرب منتشرة في كل مدن بلاد الشام؟ .

بالنسبة لدور سك النقود في البلاد ، فمع عدم اشارة المصادر التاريخية لتلك الدور وانتاجها لكن المرجح استمرار العمل في المراكز الادارية الهامة من حيث الموقع والمساحة وتعداد السكان ، واذا كانت المصادر لم تسعفنا باحصاءات أو معلومات عن سير عمل هذه الدور ، فلعلنا نستطيع القول بأن الغزات المغولية لم تعطل سيرها بدليل الاصدارات المتتالية بعد خروج المغول من البلاد . ويخيل لي بأن الغزوات المغولية أثرت بشكل حاد على الايرادات المالية للسلطات ، لأن دور الضرب كانت تعد جهة من جهات الايراد المالي للخزينة ، وكانت السلطات تحصل لقاء ضربها النقود رسوما وضرائب ، لكنها ومن المحتمل لم تزد عما كان عليه زمن الايوبيين ، وبالتالي فان بطلان صك النقود سيؤدي الى انقطاع الرسوم ولو لفترة مؤقتة وهذا سينعكس حتما على الحياة الاقتصادية للسكان .

كما توقف حصول دور الضرب على احتياجاتها من المعدن ، حيث ان السلطات كانت تستفيد من تحويل الخامات الذهبية والفضية والنحاسية التي يملكها التجار الى عملات معدنية ، وهذه الخامات كانت تشكل تغطية شبه كاملة لمستلزمات دار الضرب .(١)

وثمة علاقة بين القيمة الشرائية النقدية وبين الأسعار ، فارتفاع الأسعار يعني انخفاض القيمة الشرائية ، وانخفاضها يعني ارتفاع القيمة الشرائية والمعروف أن القيمة النقدية ماهي الا انعكاس للقيمة الشرائية أو لأثمان السلع ، بمعنى أن ارتفاع الاسعار يعني انخفاض قيمة النقود ، وانخفاض الأسعار يعني ارتفاع قيمة النقود ، فبمقدار التغير في أثمان السلع يتحدد مقدار التغير في قيمة النقود .(٢) وقد تعرضت هذه القيمة الى التذبذب نتيجة لظروف سياسية واقتصادية متعددة .

فالقيمة الشرائية عاشت حالات من التذبذب وعدم الثبات بسبب السياسة الاقتصادية التي اعتمدتها الحكومة والتي ارتبطت بالنظام الاقطاعي ذي الطابع العسكري ، فأصحاب الاقطاعات من أمراء وجنود لم يعيروا اهتماما كبيرا لاستصلاح أراضيهم وجعلها أكثر مردودا بسبب عدم استقرار هذه الاقطاعات التي كان يعاد توزيعها لسبب أو لآخر .

كما أن الاجراءات التي كانت تتخذها السلطات كطرح كميات من البضائع على التجار وعلى العامة

---

(١) - النجيدي : المرجع نفسه ، ص ٢٠٣ .
(٢) - النجيدي : المرجع نفسه ، ص ٢٧٥-٢٧٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بأسعار مضاعفة ، اضافة الى المداهمات والمصادرات كلها أسباب أدت الى انخفاض القيمة الشرائية وبالتالي الى غلاء الاسعار ، يضاف الى الأسباب السابقة الظروف الحربية والعسكرية التي سيطرت على البلاد والتي تمخض عنها الغزو المغولي والتي أدت بالنتيجة الى اضطرابات اقتصادية واجتماعية عادت بالضرر الفادح على القيمة الشرائية ، حيث أدى الغزو الى ارتفاع الأسعار.(١)

١- العوامل السياسية المؤثرة على القيمة الشرائية (الأسعار) :

عند احتمال أي هجوم مغولي ضد مناطق الشام كانت تنشأ حالة من القلق والخوف لما يترتب على ذلك - في حال حدوثه - من تأثير على اقتصاد البلاد نتيجة تأثر الطرق التجارية ، وعدم انتظام وصول السلع ، وتناقص الكمية عن حاجات المستهلكين ، كما أن تجهيز السلطات للجيوش والاضطرار الى المواجهة العسكرية له أثر على المستوى العام للأسعار ، فيكثر الطلب على السلع الاستهلاكية ، فيؤدى ذلك الى زيادة الأسعار التي ترتفع أكثر عند نقص تلك السلع.(٢)

وهذه العوامل المؤثرة عند تطبيقها على الواقع الذى عاشته الأسعار يتبين لنا القيمة الشرائية للنقود ، وحالات الثبات أو التذبذب الذى عاشته الأسعار.

ففي سنة ٦٥٨هـ/١٢٥٩م ولما حاصر المغول حلب مدة أربعة أشهر ومنعوا الدخول والخروج من المدينة ارتفعت الأسعار ، فأدى ذلك بالنتيجة الى انخفاض القيمة الشرائية النقدية ، وهذا بدوره قاد الى حدوث كوارث اجتماعية من مجاعات وغيرها فاضطر الناس الى أكل الحيوانات والجلود.(٣) ولم ينطبق هذا الحال على مدينة حلب فقط بل ساد مدن الشام جميعها ، فاثر غزو البلاد من قبل هولاكو أصبحت القوة الشرائية للنقود منخفضة حيث قابلها ارتفاع في الأسعار ، فقلت الأقوات ، وانعدمت السلع الضرورية الى جانب اضطراب النقود وعدم وجود كميات كافية منها وبالذات الفلوس النحاسية.(٤) ومما ساعد على تدهور هذا الوضع النقدى طرح الفرنج لعملة نقدية مغشوشة عرفت بالدراهم اليافية ، وكان في المائة منها خمسة عشر درهما فضة والباقي نحاس ، مما أدى الى ارتفاع الأسعار فاضطرت السلطات الى منع التعامل بها . ومن المفيد القول أن أول من غش الدراهم وضربها زيوفا عبيد الله بن زياد سنة أربع وستين للهجرة حين فر من البصرة ، ومنذ ذلك الحين بدأ الغش واستمر حتى أيام فترة البحث (٥)

---

(١) - اليوسفي : تحفة الناظر ، مقدمة المحقق ، ص ٨١ - ٨٢ .

(٢) - المقريزى : السلوك ، ج ٣ ، ق ٣ ، ص ١٠٤ - ١٠٥٣ - ابن تغرى بردى : النجوم ، ج ١٢ ، ص ٢٤٦ - شهاب : تيمورلنك ، ص ٢٨٦ .

(٣) - العيني : المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ٢٦٩ .

(٤) - المقريزى : السلوك ، ج ١ ، ق ٤ ، ص ٤٣٤ - النجيدى : المرجع نفسه ، ص ٣٩٠ .

(٥) - المقريزى : اغاثة الأمة ، ص ٦١ - ٦٢ - العيني : المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ٢٧٢ - النجيدى : المرجع نفسه ، ص ٤٨٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وتعرضت القيمة الشرائية للانخفاض نتيجة ارتفاع الأسعار سنة ٦٥٩هـ/ ١٢٦٠م عند هجوم المغول على مدينة حلب. حيث قتلوا الكثيرمن السكان الأمرالذى أدى الى قلة العرض وزيادة في الطلب فقاد ذلك الى ارتفاع الأسعار، ولم يستطع نائب المدينة ايدكين البندقدارى (ت ٦٨٤هـ) معالجة هذه المعضلة، فاضطر لترك المدينة لشدة الغلاء بها.(١)

وقد أورد أحد تجار حلب أنه لشدة الغلاء بالمدينة اضطر الى بيع أربع بقرات كانت تدر الواحدة في اليوم من سعر اللبن مئة وأربعين درهما، كما أنه باع خمسة نعاج وثلاث خراف بتسع مائة درهم والذى اشتراهم منه كسب فيهم خمسين درهما ويقال مائتي درهم، ونتيجة الغلاء اضطر سكان المدينة الى قطع الطرقات بسبب المجاعة، والقيام بأعمال غير لائقة لتأمين القوت اليومي.(٢)

وبعد خروج المغول استقرت الأسعار في البلاد، لكن حركتها بدأت في التذبذب والارتفاع عند قدومهم الى حارم سنة ٦٧٠هـ/ ١٢٧١م، حيث أن أهل دمشق علموا بقدومهم فنزحوا الى المناطق الآمنة القريبة كالجبال والارياف، أو الى المناطق البعيدة كمصر، حيث بلغ ثمن الجمل ألف درهم وأجرته الى مصر مائتي درهم.(٣)

ان ارتفاع الأسعار يؤدى حتما الى انخفاض القيمة الشرائية النقدية أى أن الطلب على البضائع سيقل، لأن المستهلك يحجب عن شراء تلك السلع، مما يؤدى الى كساد في الأسواق التجارية، ويعود هذا الكساد بالضرر على الصناع والتجار وبقية المنتجين، وهذا يشكل خطرا على الاقتصاد المحلي لأن حركة الواردات ستصبح أكثر من حركة الصادرات. وهذا يعني بالضرورة بأن متحصلات الدولة (أى التصدير يعني دخول رأسمال) سيكون أقل من مدفوعات الدولة (واردات سلعية خروج رأس المال) وهذا سيؤدى بالطبع الى الخلل في ميزان المدفوعات ويتمثل هذا الخلل اما بكونه فائضا أو عجزا.

ويبوب الباحثون الاقتصاديون - في العصر الحديث - العجز في بابين، الأول عجز مرضي (مقنع) تكون فيه الواردات أكبر من الصادرات، عندئذ تقوم السلطات بتغطية هذا العجز عن طريق قروض طويلة الأجل من أجل توازن ميزان مدفوعاتها. وهذا يؤدى الى زيادة نسبة مديونية الدولة

(١) - ابن عبد الظاهر: الروض، ص١١٣ - ابن خطيب الناصرية: المصدر نفسه، ج ٢، ورقة ٨٣ - المقريزي المقفى، ج ٢، ص٣٤٧ - السلوك، ج ١، ق ٢، ص ٦٣٤ - عاشور: العلاقات، ص ٧٢.
(٢) - اليونيني: المصدر نفسه، ج ١، ص٤٢٧ - العيني: المصدر نفسه، ج ١، ص٢٧٠.
(٣) - المقريزي: السلوك، ج ١، ق ٢، ص ٦٠٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

تجاه العالم الخارجي مما يوقع الدولة في خطر مالي متمثل بعدم قدرتها على تسديد التزاماتها على المدى البعيد .

والباب الآخر حالة العجز المزمن الطويل الأمد . وفي هذه الحالة تكون الواردات أكبر من الصادرات فتقوم السلطات بتغطية هذا العجز عن طريق تحركات رؤوس الأموال قصيرة الأجل ، وهذا يعني أن السلطات لا تستطيع تغطية احتياجاتها المتزايدة ، كما أن جهازها الانتاجي لا يلبي حاجات المستهلكين ، ولا يساهم في تخفيض الواردات أو زيادة الصادرات ، وبالتالي فان الخلل بكلا أبوابه نابع من البنيان الاقتصادي للمجتمع .

أما في حالة الفائض فتكون حركة المعاملات الاقتصادية (الصادرات + رؤوس الأموال الطويلة والقصيرة الأجل) كبيرة من حيث الصادرات وخروج الأموال الكبيرة الى الخارج ، عندها يجب على الدولة أن تقلل من خروج هذه الأموال للحفاظ على امكانية الاستثمار داخل البلد ، وهذا لم نلحظه في فترة البحث.(١)

ولا بد بعد هذا التحليل من العودة الى استعراض الظروف العسكرية المؤثرة على القيمة الشرائية النقدية ، فهذه القيمة وصلت الى مستوى منخفض مقابل ارتفاع الأسعار عند ما تعرضت بلاد الشام لهجوم غازان سنة ٦٩٩هـ/ ١٢٩٩م وقد ساعد على ارتفاع الأسعار قلة بعض السلع الضرورية للجيش كالأعلاف من أجل الخيول ، الى جانب ما فرضه غازان على أهل دمشق من الأموال الكثيرة .(٢) وشهدت القوة الشرائية ارتفاعا ملحوظا بعد خروج غازان من البلاد . وفي ظل الاستعدادات العسكرية لمواجهة الهجوم المغولي المتوقع ، فقد خفت حدة الخوف الذي أصاب الناس فانخفضت الأسعار الى النصف تقريبا .(٣)

وكانت القوة الشرائية النقدية أكثر تماسكا سنة ٧٠٠هـ/ ١٣٠٠م فقد كانت الغرارة من القمح تساوي ثلاثمائة درهم ، وبعد خروج الغزاة بلغت مائتي درهم الوجانب هبوط أسعار الأقمشة والغلات الأخرى .(٤)

غير أن شبح الحروب الذي خيم على بلاد الشام سنة ٧٠٢هـ/ ١٣٠٢م تسبب في أزمات اقتصادية أثرت

---

(١) - رمضان (محمد) : العلاقات الاقتصادية الدولية ، جامعة دمشق ، ١٤٠٤ - ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٤ - ١٩٨٥م ص ٧٤ - ٧٥ - ٧٦ - ٧٧ - ٨٣ - ٨٦ - ٨٧ .

(٢) - ابن كثير : البداية ، ج ١٤ ، ص ٦ - ٧ - المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ق ٣ ، ص ٨٨٦ - ٨٩٣ .

(٣) - ابن ايبك الدواداري : الدر الفاخر ، ص ٤٣ - ابن كثير : المصدر نفسه ، ج ١٤ ، ص ١٠ - المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ق ٣ ، ص ٩٠١ - العيني : المصدر نفسه ، ج ٤ ، ص ٧٩ .

(٤) - النويري : المصدر نفسه ، ج ٣١ ، ص ٤١ - الذهبي : العبر ، ج ٥ ، ص ٤٠٩ - ابن كثير : المصدر نفسه ، ج ١٤ ، ص ١٤ - ١٦ - المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ق ٣ ، ص ٩٠٩ - المقفى ، ج ٢ ، ص ٢٣٨ - العيني : المصدر نفسه ، ج ٤ ، ص ٧٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

على حركة التجارة الداخلية (الأسواق) والخارجية ، وأدى الى ارتفاع حركة الأسعار ، وعدم توفر المواد الضرورية . (١)

وتفيد المصادر بأن حركة الأسعار مابين حملتي غازان وتيمورلنك تراوحت مابين الارتفاع والانخفاض نتيجة لسوء التخطيط الاقتصادي لأجهزة الحكومة ، اضافة الى عوامل أخرى داخلية بحتة لكنه تحديد في سنة ٧٩٠هـ/١٣٨٨م سببت الأخبار بتحركات تيمورلنك العسكرية ارتفاعا في الأسعار في معظم مدن بلاد الشام كدمشق وحلب والرملة والقدس ، ولم تنخفض الأسعار حتى نقلت السلطات الغلال من مصر لمعالجة الأزمة . (٢)

وسبب هجوم تيمورلنك على البلاد المجاورة لبلاد الشام سنة ٧٩٨هـ/١٣٩٥م ارتفاعا في الأسعار في كافة مدنها وشمل كلا من دمشق ، وحماة ، طرابلس ، حمص ، وأدى هذا الارتفاع الملحوظ الى ظهور الاحتكارات للمواد الغذائية الضرورية وخاصة الطحين ، كما أدى الى اهمال زراعة الأرض بسبب غلاء البذار وغيره ، وقلة الأيدي العاملة ، والخوف من اجتياح الغزاة للبلاد . (٣)

وأسفر اجتياح تيمورلنك لبلاد الشام الى تردي مستوى الانتاج الزراعي والصناعي والتجاري اثر قتل الفلاحين وأسر الصناع والحرفيين فجر ذلك ويلات على المستوى المعيشي تمثل في حصول المجاعات والأوبئة ، فأصبح الجراد غالب قوت الناس حتى أن الرطل منه بيع بأربعة ونصف ، بينما بقي غالب الناس حفاة عراة ، أما الأكابر فكانوا يلبسون العبي والجلود ويبيعون الجراد . (٤)

وأثر العامل النقدي في تردي الحالة الاقتصادية وخصوصا الأسعار أثناء الاجتياح ، فقد أدى الى انخفاض القيمة الشرائية نتيجة لارتفاع حركة الاسعار ، وأوضحت المصادر سبب هذا الانخفاض وعزته الى قلة كميات الذهب والفضة بسبب الاستيلاء عليها من قبل تيمورلنك . (٥)

وبعد انحسار تلك الظروف عادت القيمة الشرائية للنقود الى مستواها السابق بتراجع الأسعار وانخفاضها ، سنة ٨٠٤هـ/١٤٠١م - ٨٠٥هـ/١٤٠٢م لكن تأثير الوضع النقدي ظل مسيطرا على الحالة الاقتصادية للمجتمع لسنوات متعددة بعدها ، وظل شبح الغلاء يسيطر على المواد

---

(١) المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ق ٣ ، ص ٩٢٢ - المقفى ، ج ٧ ، ص ١٨٠ - العيني : المصدر نفسه ، ج ٤ ، ص ٢٨٨ - ابن تغري بردي : النجوم ، ج ٨ ، ص ١٥٨ - عاشور : العلاقات ، ص ١٦٧ .

(٢) - ابن الفرات : تاريخ ج ٩ ، ق ١ ، ص ٢٠٤ - ٢٠٥ - المقريزي : السلوك ، ج ٣ ، ق ٢ ، ص ٥٧٤ - ابن قاضي شهبة : المصدر نفسه ، ج ١ ، ق ٣ ، ص ٢٣٨ - الصيرفي : نزهة النفوس ، ج ١ ، ص ١٦٧ .

(٣) - ابن صصرى : الدرة ، ص ٢٢٦ - ٢٢٧ - ابن قاضي شهبة : المصدر نفسه ، ج ١ ، ق ٣ ، ص ٥٨٧ .

(٤) - العسقلاني : انباء ، ج ٤ ، ص ٢٠٩ .

(٥) - المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ق ٣ ، ص ١٠٤٩ - ابن اياس : المصدر نفسه ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٦١٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الضرورية ، وتنقل بعض المصادر التاريخية صورا توضح حجم المأساة وضخامة الأزمة التي كانت تمر بها البلاد اثر غزوة تيمورلنك والتي جعلت القوة الشرائية النقدية تنخفض بشكل كبير .(١)

٢- العوامل الاقتصادية المؤثرة على القيمة الشرائية :

تلت العوامل الاقتصادية سابقتها في الأهمية بالتأثير على الأسعار ، حيث كان لها تأثيراتها العميقة على حياة المجتمع في بلاد الشام .

ان قلة الأيدي العاملة ومالها من تأثير على نواحي الانتاج الزراعي والصناعي والتجاري ينعكس بشكل سلبي على ارتفاع الأسعار ، وقلة الأيدي العاملة ناتجة عن قتل معظم العاملين في هذه المجالات الانتاجية أو أسرهم اثر غزوة تيمورلنك .

وكان للسياسة التجارية التي سارت عليها السلطات أثر كبير في ارتفاع الأسعار ، فما أقدم عليه بعض الشخصيات الحاكمة أو التجارية من احتكار المؤن الغذائية وقت حصول الغزوات المغولية ، وما انتهجوه من أساليب في تخزينها كان له نتائج سلبية على الأوضاع الاقتصادية .(٢)

كما كان للنظام النقدي أثره الفعال على تذبذب حركة الأسعار ، اضافة الى الرسوم والضرائب سواء التي فرضتها السلطات من أجل الانفاق على الجيش الذي سيتولى مهمة الدفاع عن البلاد ضد الغزاة ، أو التي فرضها الغزاة أنفسهم على سكان المدن سواء في أثناء غزوة غازان أو تيمورلنك الى جانب عمليات السلب والنهب والمصادرات .(٣)

وأخيرا نستنتج :

- أن تذبذب حركة الأسعار أدى الى بروز ظاهرة التضخم نتيجة للفروقات الكبيرة في الأسعار ونتيجة لانعدام العملة الذهبية والفضية ، واستخدام الفلوس النحاسية في عمليات التداول نقودا رئيسية .

- كانت ظاهرة ارتفاع الاسعار أكثر من ظاهرة الانخفاض ، والارتفاع حصل في معظم الأحيان بسبب الهجوم المغولي على بلاد الشام .

- ان عدم ثبات القيمة النقدية للعملات أثر على تذبذب الأسعار وعدم ثباتها ، وبالتالي عدم استقرار القيمة الشرائية .

- ارتبطت حركة الأسعار بقلة أو وفرة الايدي العاملة /ومالها من تأثير على نواحي الانتاج الزراعية والتجارية

---

(١) - العسقلاني : انباء ، ج ٥ ، ص٥ ١- ابن تغرى بردى : النجوم ، ج ١٤ ، ص٢٩٧ ٢- الصيرفي : نزهة النفوس ، ج ٢ ، ص١٦٩ .

(٢) - ابن الفرات : تاريخ ، ج ٩ ، ق ١ ، ص٤٦٢ - اليوسفي : المصدر نفسه ، ص٨٧ - ابن صصرى : المصدر نفسه ، ص١٣٨ - ٢٢٥ - ٢٢٧ - زيادة : دمشق ، ص١٤٨ - لابيدوس : مدن الشام ، ص٩٧ .

(٣) - النويري : المصدر نفسه ، ج ٣١ ، ص٣٤٧ - الذهبي : دول ج ٢ ، ص٢٠٤ - الصفدي : تحفة ، ج ٢ ص٢٠٤ - المقريزي : السلوك ، ج ٣ ، ق ٣ ، ص١٠٤٨ - المقفى ، ج ٧ ، ص١٧٣ - ابن تغرى بردى : النجوم ، ج ١٢ ، ص٢٤٢ - ابن اياس : المصدر نفسه ، ج ١ ، ق ٢ ، ص١١٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والصناعية ، ومايخلفه من ارتفاع أسعار المواد المنتجة .

- ان السياسة الضرائبية التي انتهجتها السلطات أثرت على حركة الأسعار ، فكلما اتجهت هذه السياسة نحوتقليص الضرائب ، والعمل على ابطالها كانت تؤدى الى الاستقرار ، لكن لوحظ أن عكس ذلك هوالذى حصل ابان حصول الغزو .

- ارتبطت حركة الأسعار بالاستقرار الاقتصادى للبلاد ، فكلما كانت البلاد تشهد استقرارا اقتصادي فان القيمة الشرائية لا تتأثر بالازمات السياسية الناجمة عن الغزو ، ونلمس هذا الواقع اثرغزوة هولاكو التي لم يكن لهاذلك التأثير على الناحية الاقتصادية ، بينما لوحظ الأثر الكبير لغزوة غازان وتيمورلنك وذلك نابع من عدم الاستقرار الاقتصادى .

وبالرغم من كل ماذكر فان السلطات حرصت على درء الأخطار الناجمة عن ارتفاع الأسعار وحل المعضلات عن طريق الحد من قوة المضاربين ، ومراقبة الأسعار سعيا لتخفيضها ، ففي سنة ٧٢٤هـ / ١٣٢٣م حصل غلاء بالشام بسبب قدوم جماعات من الشرق هربا من الحروب بين قبائل المغول وبسبب انتشار المجاعات والأوبئة في بلادهم ، حتى أن الغرارة من الغلال بلغت أكثر من مائتي درهم ، فأمر السلطان بنقل الغلال من مصر ، فأحضرت الى بيروت وطرابلس وكانت نحوعشرين ألف اردب سوى ماحمله التجار ، ولما أحضرت انخفضت الأسعار الى مائة وعشرين درهما ، ثم نزل بعدها السعر بشكل كبير حتى أصبحت ثمانين درهما ، وأمر بعدها السلطان باسقاط مكس الأقوات في الشام وذلك للتخفيف من حدة الغلاء .(١)

ولمعرفة معدل ارتفاع الأسعار وانخفاضها انظر الجداول الآتية :

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

---

(١) - الذهبي : دول ، ج ٢ ، ص ٢٠٣ - ٢٠٢ - اليافعي : مرآة الجنان ، ج ٤ ، ص ٢٧٠ - ابن كثير : المصدر نفسه ، ج ١٤ ، ص ١١٤ - المقريزي : السلوك ، ج ٢ ، ق ١ ، ص ٢٥٤ - ابن العماد الحنبلي : شذرات ، ج ٦ ، ص ٦٢ - ٦٣ .

السلعة	السعر	السنة	المصدر
الخبز	رطل بدرهمين	سنة ٦٥٠ هـ	أبو شامة : تراجم ، ص٢١١ _ اليونيني : ذيل مرآة ، ج ١ ص٢٧٢-٢٧٣ _ ابن مصرى الدرة المضيئة : ص[illegible]
			ابن طولون : اعلام ص٣٣
	كل [illegible] اواق بدرهم	سنة ٦٠٥	ابن الفرات : المصدر نفسه ج ٨ ، ص[illegible] .
	الرطل بدرهمين او درهمين ونصف .	سنة ٦٩٦ هـ	الدواداري : الدرر ، ص٤٢ ابن كثير : المصدر نفسه : ج ١٤ ، ص٤ _ المقريزي : السلوك : ج ١ ، ق ٣ ص٨٤٣
	اوقية بدرهم	سنة ٧٤٣ هـ	أبو الفدا : المصدر نفسه : ج ٤ ، ص١٣٣ _ ابن العماد : شذرات الذهب : ج ٦ : ص١٣٧
	سبع أواق بدرهم نقرة	سنة ٧٤٨ هـ	دهمان : ولاة : ص١٩٤
	الرطل بدرهمين ونصف	سنة ٧٧٥ هـ	ابن مصرى : المصدر نفسه : ص٤١ _ ابن طولون : المصدر نفسه ، ص٥١ .
	الرطل الحلبي بثلاثة دراهم	سنة ٧٧٧ هـ	ابن العراقي : الذيل على العبر : ص٤٠٢ .
	كل رطل بدرهم	سنة ٧٨٩ هـ	ابن الفرات : المصدر نفسه : ج ٩ ، ق ١ ، ص٧ .
	كل ثمان اواق بدرهم	سنة ٧٩٥ هـ	ابن مصرى : المصدر نفسه : ص١٣٣ .
	كل سبع اواق بدرهم	سنة ٧٩٨ هـ	= = = : ص٢٢٦-٢٢٧ .
	كل تسع اواق بدرهم	سنة ٧٩٩ هـ	ابن قاضي شهبة : المصدر نفسه : ج ١ ، ق ٣ ، ص٦١٨ .
القمح	الغرارة باربعمائة درهم او اربعمائة وخمسين درهم	سنة ٦٦٠ هـ	النويري : المصدر نفسه : ج ٣٠ ، ص٦٦ _ ابن كثير : المصدر نفسه : ج ١٣ ، ص٢٣٤ _ المقريزي : السلوك : ج ١ ، ق ٣ ص٤١١ .
	بثلاثمائة او ثلاثمائة وستين درهم .	سنة ٦٩٦ هـ	الصفدي : تحفة : ج ٢ ، ص٢٠٤-٢٠٥ _ المقريزي : المقفى : ج [illegible] ، ص١٧٣ _ السلوك : ج ١ ، ق ٣ ص٨٢٢ _ العيني : المصدر نفسه ، ج ٤ ص٤٦ .
	الغرارة بثلاثمائة وثلاثمائة وستين درهما وأربعمائة ثم انحط قليلا حتى بلغ مئة وخمسين درهما .	بعد رحيل غازان سنة ٦٩٩ هـ	الدواداري : المصدر نفسه : ص٣٤ _ ابن كثير : المصدر نفسه : ج ١٤ ، ص١١ _ المقريزي : السلوك : ج ١ ، ق ٣ ، ص٩٠١ العيني : المصدر نفسه ج ٤ ، ص[illegible]
	الغرارة بثلاثمائة درهم وبعد خروج الجفل من الشام بلغت الغرارة مائتي درهم .	سنة ٧٠٠ هـ	النويري : المصدر نفسه : ج ٣١ ، ص٤١٥ _ المقفى : ج ٢ ص٢٢٨

[illegible] ٢٣٥ ، ص٨٩٣ _ المقفى : ج ٢ ، ص١١٩-١٢٣ _ العيني : المصدر نفسه ، ج ٤ ، ص٤٦ - عدوان : المماليك ص١٢٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

جدول - ٤ أسعار

المادة	السعر	السنة	المصادر
سمك	الرطل بثلاثين درهما	سنة ٦٥٩ هـ	اليونيني : المصدر نفسه : ج ١ ص ٤٣٦ - النويري : المصدر نفسه : ج ٣٠ ، ص ٤٣ .
شيرج	الرطل بسبعين درهما	سنة ٦٥٩ هـ	اليونيني : المصدر نفسه : ج ١ ص ٤٣٦ - النويري : المصدر نفسه : ج ٣٠ ، ص ٤٣ .
خل	الرطل بثلاثين درهما	سنة ٦٥٩ هـ	= = = = = = = = =
أرز	الرطل بعشرين درهما	سنة ٦٥٩ هـ	= = = = = = = = =
حب الرمان	الرطل بثلاثين درهما	= =	= = = = = = = = =
سكر	الرطل بمئة درهم بعد عين جالوت	سنة ٦٥٨ هـ	العيني : المصدر نفسه : ج ١ ص ٢٦٩ - ٢٧٠
	الرطل بخمسين درهما	سنة ٦٥٩ هـ	اليونيني : المصدر نفسه : ج ١ ص ٤٣٦ - النويري : المصدر نفسه : ج ٣٠ ص ٤٣ .
حلوى	الرطل بخمسين درهما	سنة ٦٥٩ هـ	= = = = = = = =
عسل	الرطل بخمسين درهما بعد عين جالوت .	سنة ٦٥٨ هـ	العيني : المصدر نفسه : ج ١ ص ٢٦٩-٢٧٠ .
″	بثلاثين درهما	سنة ٦٥٩ هـ	اليونيني : المصدر نفسه : ج ١ ص ٤٣٦ - النويري : المصدر نفسه : ج ٣٠ ص ٤٣ .
شراب	الرطل بسبعين درهما بعد عين جالوت .	سنة ٦٥٨ هـ	العيني : المصدر نفسه : ج ١ ص ٢٦٩-٢٧٠ .
″	الرطل بستين درهما	سنة ٦٥٩ هـ	اليونيني : المصدر نفسه : ج ١ ص ٤٣٦ - النويري : المصدر نفسه : ج ٣٠ ص ٤٣ .
جدي الرضيع	بمائة درهم بعد عين جالوت	سنة ٦٥٨ هـ	العيني : المصدر نفسه : ج ١ ص ٢٦٩ - ٢٧٠ .
	بأربعين درهما	سنة ٦٥٩ هـ	اليونيني : المصدر نفسه : ج ١ ص ٤٣٦ - النويري : المصدر نفسه : ج ٣٠ ص ٤٣ .
دجاجة	بعشرة دراهم بعد عين جالوت .	سنة ٦٥٨ هـ	العيني : ج ١ ، ص ٢٦٩ - ٢٧٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

جدول (٥) أسعار

المادة	السعر	السنة	المصدر
دجاجة	بخمسة دراهم	سنة ٦٥١هـ	اليونيني : المصدر نفسه : ج ١ ص ٤٣٦ ـ النويري : المصدر نفسه ، ج ٣٠ ، ص ٤٣ .
بيضه	بدرهم ونصف بعد عين جالوت	سنة ٦٥٨-٦٥٩هـ	= = = = = = = = = = العيني المصدر نفسه ج ١ ص ٢٦٦ - ٢٧٠
	كل أربع بيضات بدرهم	سنة ٦٩٩هـ	المقريزي : المقفى : ج ٧ ، ص ١٧٣ ـ العيني : المصدر نفسه ، ج ٤ ، ص ٤٦ .
	كل خمس بيضات بدرهم	سنة ٧٤٨هـ ٦٦٩هـ	أبو الفدا : المصدر نفسه ج ٤ ، ص ١٥١ ـ ابن كثير : المصدر نفسه : ج ١٤ ، ص [illegible] .
[illegible]ل	البصلة بنصف درهم .	سنة ٦٥٨ + ٦٥٩ هـ	النويري : المصدر نفسه : ج ٣٠ ، ص ٤٣ ـ العيني : المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ٢٦٩ - ٢٧٠ .
بقل	باقة البقل بنصف درهم بعد عين جالوت .	سنة ٦٥٨هـ	العيني : المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ٢٦٩-٢٧٠ .
	باقة البقل بدرهم	سنة ٦٥٩هـ	اليونيني : المصدر نفسه ، ج ١ ص ٤٣٦ ـ النويري : المصدر نفسه : ج ٣٠ ، ص ٤٣ .
[illegible]يمه	بأربعين درهما	سنة ٦٥٩ هـ	اليونيني : = = = = = = = = =
تفاحة	بخمسة دراهم	سنة ٦٥٨-٦٥٩هـ	اليونيني : = = ج ١ ص ٤٣٧ = = = ج ٣٠ = العيني ج ١ ص ٢٦٦-٢٧٠ .
[illegible]ت	بستة دراهم أو سبعة	سنة ٦٩٤هـ	ابو الفدا : المصدر نفسه : ج ٤ ، ص ١٥١ ـ المقريزي : المقفى ، ج ٧ ، ص ١٧٣ ـ العيني : ج ٤ ، ص [illegible] .
جبن	الاوقية درهماً ونصف او درهم	سنة ٧٤٨هـ ٦٥٨هـ	ابو شامة : المصدر نفسه ، ص ٢١١ ـ اليونيني : المصدر نفسه ج ١ ، ص ٣٧٦ ـ ابن صصرى ، ص ١٤٠ .
	الرطل باثني عشر درهما	سنة ٦٦٩هـ	العيني : المصدر نفسه ، ج ٤ ، ص [illegible] .
ثوم	أوقية بدرهم .	سنة ٦٦٥	ابو شامة : ص ٢١١ ـ اليونيني : المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ٣٧٦ .
[illegible]نب	الرطل بدرهمين	سنة ٦٦٥هـ	اليونيني : المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ٣٧٦ .
	ثلاثة أرطال بدرهم	سنة ٧٩٥هـ	ابن صصرى : المصدر نفسه ، ص ١٤٠ .
[illegible]ين	ثلاثة أرطال بدرهم واربعة ارطال .	سنة ٧٩٥هـ	= = = = =
[illegible]راق	ثلاثة أرطال الا ثلث بدرهم	سنة ٧٩٥هـ	ابن صصرى : ص ١٤٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

جدول (٦) اسعار

المادة	السعر	السنة	المصدر
لقنبرس	اوقية بدرهم	سنة ٦٥٨هـ	ابو شامة : المصدر نفسه ، ص٢١١ - اليونيني ،ج ١ ، ص٣٧٦ .
الذهب	كان بخمسة وعشرين درهما وانحط الى سبعة عشر درهما بعد رحيل غازان .	سنة ٧٠٠	المقريزي : المقفى ،ج ٧ ص١٧٤ .
الذهب	ارتفع سعره كثيرا لان الفضة كانت في غاية الغلاء .	سنة ٨٠٣هـ	العسقلاني : انباء ،ج ٤ ،ص ٢٣١ .
	زاد السعر عن الحد في دمشق حتى صار سعر المثقال الهرجة خمسة وستين درهما والدينار المشخص يساوي درهما	سنة ٨٠٥هـ	ابن تغري بردي : النجوم :ج ١٢ ،ص١٩٧ .
الحيوانات	الجمل بألف والحمار بستمائة	سنة ٧٠٢هـ	المقريزي ،المقفى ،ج ٧ ، ص١٨٠ - العيني : ج ٤ ، ص٢٢٨ .
	خروفان بخمسمائة درهم	سنة ٧٠٠هـ	العيني : المصدر نفسه ، ج [illegible] ، ص[illegible] .
	ارتفعت أسعار الحيوانات النقل والحمير لان اخبار تيمورلنك والفتوحات التي قامت بها جيوشه هي التي ادت الى هذا الارتفاع .	سنة ٨٠٣هـ	عجائب : تيمورلنك : ص[illegible] .
	عند ما خرج العلماء الدماشقة الى غازان لمقابلته من اجل اخذ الامان لدمشق بلغ سعر الفرس خمسا وستين درهما والجوشن الذي قيمته مائتي درهم عشرين درهما .	سنة ٦٩٩هـ	الدواداري : المصدر نفسه ، ص١٩ .

يلاحظ ارتفاع سعر الذهب بسبب قلته في الاسواق ، وسبب الاستيلاء علية من قبل تيمورلنك .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- جدول (٧) - أوزان -

الـوزن	القيمـة	المصـدر
الأوقيـة	تساوي بغض النظر عن استثناءات قليلة $\frac{١}{١٢}$ من الرطل	هنتر (فالتر) : المكاييل والا الاسلامية وما يعادلها في النـ المترى، عمان، آب، ١٩٧٠، ص١٩-
الاوقية الدمشقية	كانت تساوي $\frac{١}{٢}$ رطل وقيمتها ٥٠ درهما .	
الاوقية الحلبية	= $\frac{١}{٣}$ ٦٠ درهما عند الشيزري، وعند القلقشندي تساوي ٦٠ درهما كل درهم ١٦٧ر٣ غم .	
الاوقية الحموية	كانت تساوي ٥٥ درهما .	
الاوقية الحمصية	كانت تساوي ٧٢ درهما .	
الاوقية المقدسية	كانت تساوي $\frac{٢}{٣}$ ٦٦ درهما .	
الرطـل	يساوي أساسا أثناعشر أوقية، ويساوي $\frac{١}{١٠٠}$ من القنطار .	هنتر: المرجع نفسه، ص٣٠-٣٤-٣٥ .
الرطل في القدس في القرن الثاني عشر	يساوي ٨٠٠ درهم = ٥ر٢ كغم	
الرطل في الرملة	يساوي ٣٤٣ درهم = ٣٢١ر٢ كغم	
رطل عكا في القرن الرابع عشر	الرطل = ١٢ أوقية ٤٤ بيزن = ٢ر٢ كغم وزنا محتملا .	
في دمشق	الرطل = ٨٥ر١ كغم وفي القرن الخامس عشر الرطل يتراوح بين ٨٧ر١ كغم و ٨٤ر١ كغم أي = ٨٥ر١ كغم	
رطل حلب حسب تقديرات العمري	٧٢٠ درهما وهو ١٢ أوقية $\frac{١}{٣}$ ٦٠ والرطل = ٢٧٣ر٢ كغم .	
رطل طرابلس	= ٦٣٠ درهما = ١٢٥ر٣ غم، ٩٦٨ر١ كغم	
رطل حمص في العصور الوسطى	٨٦٤ درهما = ٧ر٢ كغم .	
رطل حماة	٠٦٢ر٢ درهما وفي شيزر = ١٣٧ر٢ .	

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

تـــابـــــع - أوزان -

الـــــوزن	القيمـــــــــــــــــــة	المصـــــــدر
الغرارة مكيال دمشقي للحنطة غـــرارة غـــزة غـــرارة القدس	تتألف من ١٢ كيلا أو ٧٢ مدا دمشقيا وعن العمري الغرارة الواحدة ومد ونصف تساوي ٣ أرادب مصرية ويكون وزن الغرارة ٥ر٢٠٤ كغم قمح أو حوالي ٢٦٥ لترا بوصفها مكيال . $\frac{1}{2}$ غرارة دمشقية أي ٧٥ر٣٠٦ كغم قمح وحوالي ٥ر٣٦٧ لتر. ٣ غرائر دمشقية = ٥ر٦١٣ كغم	هنتس : المرجع نفسه ، ص ٦٤
المـــــد مـــد فلسطيـــن	المد الشرعي = $\frac{1}{4}$ صاع . وفي أواخر العصور الوسطى كان الـ ٧٢ مدا تعادل الغرارة الدمشقية وكان $\frac{1}{2}$٧٣ مد = ٣ أرادب مصرية . فالمد السوري = ٨٤ر٢ كغم . $\frac{2}{3}$ تغيز ، كل قفيز ٤ ويبات = ٢٤ صاعا	هنتس : المرجع نفسه ، ص ٧٤ -
المكوك في حلب عند العمري فـــي الرملة	١٨ سنبلا من سنابل شيزر ، كل سنبل منها $\frac{1}{2}$١ رطل ويتوازن مع وزن من القمح قدره ٦١ كغم $\frac{1}{2}$ ٢ مكوك تعادل غرارة دمشقية واحدة = ٧٥ر٨١ كغم قمح وعند القلقشندي المكوك الحلبي = ٧ ويبات مصرية = ٨١ر٢ كغم كل ٨ مكوك = قفيز واحـــد .	هنتس : المرجع نفسه ، ص ٧٩

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

مواسم الغلاء والرخص:

وقع غلاء سنة ٦٥٨هـ/١٢٥٩م حيث ارتفعت أسعار جميع الأشياء.[(١)]

وقع غلاء سنة ٦٥٩هـ/١٢٦٠م.[(٢)]

اشتد الغلاء سنة ٦٦٠هـ/١٢٦١م في جميع مناطق بلاد الشام.[(٣)]

سنة ٦٩٥هـ/١٢٩٥م كان غلاء بالشام وكان بسبب الوباء والفناء بمصر.[(٤)]

كان غلاء سنة ٦٩٩هـ/١٢٩٩م بسبب قدوم غازان ورغم الأمان الذي قدمه ظلت الأسعار تحافظ على ارتفاعها.[(٥)]

كان غلاء عند ماتواردت الانباء بقدوم غازان سنة ٧٠٠هـ/١٣٠٠م.[(٦)]

سنة ٧٤٨هـ/١٣٤٧م كان غلاء بالشام وبمصر أيضا حتى هاجر الكثير.[(٧)]

سنة ٧٧٥هـ/١٢٧٣م كان غلاء بدمشق، حتى ان بيد مرأهل مصالح المسلمين، كما غلت الأسعار في حلب حتى أكلت الناس الميتة.[(٨)]

سنة ٧٨٩هـ/١٣٨٧م غلت الاسعار كثيرا بدمشق.[(٩)]

---

(١) - ابوشامة: تراجم، ص٢١١ - ٢ - ابن صصرى: الدرة، ص١٨٠ - ابن طولون: اعلام، ص٣٢.
(٢) - ابن عبد الظاهر: الروض ص٩٨ - ١١٣ - ابن خطيب الناصرية: الدر المنتخب، ج٢، ٨٣.
- المقريزي: السلوك، ج١، ق٢، ص٤٦٣ - عاشور: العلاقات، ص٧٢.
(٣) - النويري: المصدر نفسه، ج٣٠، ص٦٦ - ابن كثير: المصدر نفسه، ج١٣، ص٢٣٤ - ٢٣٥.
- المقريزي - السلوك، ج١، ق٢، ص٤٦٦.
(٤) - ابن كثير: المصدر نفسه، ج١٣، ص٣٤٣.
(٥) - النويري: المصدر نفسه، ج٣١، ص٣٩٧ - الذهبي: دول، ج٢، ص٢٠٤ - ٢ - ابن كثير: المصدر نفسه، ج١٤، ص٧ - العيني: المصدر نفسه، ج٤، ص٤٦.
(٦) - الذهبي: العبر، ج٥، ص٤٠٩ - دول، ج٢، ص٢٠٥ - ٢ - المقريزي: السلوك، ج١، ق٣، ص٩٠٩.
(٧) - أبو الفداء: المختصر، ج٤، ص١٥٠ - ١٥١ - دهمان: ولاة، ص١٩٦.
(٨) - ابن صصرى: المصدر نفسه، ص١٨٨ - ابن طولون: المصدر نفسه، ص٥١ - دهمان: المرجع نفسه ص٢٣٣.
(٩) - ابن الفرات: المصدر نفسه، ج٩، ق١، ص٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

سنة ٧٩٠هـ/١٣٨٧م غلت الأسعار نتيجة تحركات تيمورلنك .(١)

سنة ٧٩٤هـ/١٣٩١م غلت الأسعار بالشام .(٢)

سنة ٧٩٥/١٣٩٢م غلت الأسعار بدمشق .(٣)

سنة ٧٩٨هـ/ ١٣٩٥م ارتفعت الأسعار كثيرا .(٤)

سنة ٨٠١هـ/١٣٩٨م رخصت الأسعار .(٥)

سنة ٨٠٣هـ/١٤٠٠م ارتفعت الأسعار بسبب قدومه للمنطقة ، ودخوله المدن الواحدة تلو الأخرى .(٦)

سنة ٨٠٤هـ/١٤٠١م رخصت الأسعار .(٧)

سنة ٨٠٥هـ/١٤٠٢م رخصت الأسعار بالشام والبلاد الشمالية .

---

(١) ابن الفرات : المصدر نفسه ، ج ٩ ، ق ١ ، ص ٢٤ - ٢٥ - المقريزي : السلوك ، ج ٣ ، ق ٢ ، ص ٥٧٤ - ابن قاضي شهبة : المصدر نفسه ، ج ١ ، ق ٣ ، ص ٢٣٨ .

(٢) - ابن صصرى : المصدر نفسه ، ص ١١٠ - ابن العماد الحنبلي : شذرات الذهب ، ج ٦ ، ص ٣٢٢ .

(٣) - ابن صصرى : المصدر نفسه ، ص ١٣٣ .

(٤) - ابن صصرى : المصدر نفسه ، ص ١٢٦ - ابن قاضي شهبة : المصدر نفسه ج ١ ، ق ٣ ، ص ٥٨٧ .

(٥) - العسقلاني : انباء ، ج ٤ ، ص ٢٣١ - المقريزي : السلوك ، ج ٣ ، ق ٣ ، ص ١٠٤٨ - ابن تغري برد النجوم ، ج ١٢ ، ص ٢٤٢ - ابن اياس : المصدر نفسه ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٦١٣ .

(٦) - الصيرفي : نزهة النفوس ، ج ١ ، ص ٤٩٢ .

(٧) - العسقلاني : انباء ، ج ٥ ، ص ١٥ - الصيرفي : المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ١٦٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

هـ : الأوقاف:

يقصد بالأوقاف الأراضي والمنشآت التي يخصصها المسلمون لأغراض دينية أو للمجاهدين أو لليتامى أو لبناء المعالم الحضارية كالحصون والبيمارستانات اضافة الى المعاهد الدينية كالزوايا والأربطة وغيرها من المنافع العامة. وكانت الأوقاف على نوعين خاصة يوقفها الأمراء والأغنياء، ورسمية توقف من قبل الدولة متمثلة بالسلطان والنواب لتصرف على بعض المنشآت الدينية والاجتماعية العامة، فالأوقاف كانت مصدرا لتمويل الحركة العلمية، وكانت مصدرا للانفاق على الحملات العسكرية الموكل اليها رد الغزاة المغول عن البلاد. وكان الوقف يشتمل على ثلاثة أقسام، وقف الذرية، الوقف الخيري، الوقف الثالث نوع مشترك تخصص فيه الأملاك للورثة، وبعدهم لوجوه الخير.(١)

ولم يكن تخصيص الأوقاف حكرا على المسلمين فقط، بل كان لأهل الذمة من اليهود والنصارى أوقاف كثيرة، فمثلا كان أهل الذمة قد أوقفوا الكثير على كنيسة القيامة أو البطركية التي استأجرها الشقيقان داود بن نصر وأحمد بن نصر. أما اليهود فقد امتلكوا كنيسا في القدس وأوقافا خاصة بهم.(٢)

وكان القيم على الأوقاف يسمى شاد الأوقاف، وقد اختلفت رتبة المتولين لهذا المنصب بين مدينة وأخرى، ففي دمشق كانت عادتها امرة عشرة، وربما كانت طبلخاناه، بينما كانت في مدينة حلب تقدمة ألف وطبلخاناه، وكان متوليها يعين من الأبواب السلطانية، وبذلك تكون رتبة شد الاوقاف في حلب أعلى من دمشق.

وكان يساعد شاد الأوقاف في عمله مجموعة من المشارفين، الشهود، العمال، أصحاب الديوان أو المستوفين الى جانب مجموعة من النظار الذين تطاول بعضهم وأكل أموال الأوقاف.(٣)

وقد استغل هؤلاء مناصبهم وقاموا بأعمال غير شرعية عبر عنها السبكي في كتب الفتاوى:

((ويترتب على ذلك مفاسد كثيرة منها مختص بالناظر ومنها مشترك بينه وبين غيره، فمن المختص بالناظر أنه تطول المدة ويظن كثير من الناس أنه انتهى اليه بشرط الواقف فيشهد له بذلك وربما يسنده الى غيره، . . . ومن المختص بالناظر أنه قد يكون كبيرا أو صغيرا فيكبر بعد ذلك ويستقل

---

(١) - غوانمة: نيابة القدس، ص١٠٧ - العلبي: دمشق، ص١٦٢.

(٢) - ابن تغري بردي: المنهل، ج٣، ص٦٥ - غوانمة: المرجع نفسه، ص١٠٨.

(٣) - النويري: المصدر نفسه، ج٣٠، ص٩٤ - ابن كثير: المصدر نفسه، ج١٣، ص٣١٦ - ابن الفرات: المصدر نفسه، ج٨، ص٦٤-٦٥ - المقريزي: السلوك، ج١، ق٣، ص٧٤١ - العسقلاني: انباء، ج٢، ص(٨٣) - القلقشندي: صبح الاعشى، ج٤، ص١٨٦-٢١٨ - النعيمي: الدارس، ج١، ص٢٦٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بالكلام وتكبرنفسه عن استئذان الحاكم أو امتثال أمره فينسلخ ذلك الوقف من ديوان الحكم بالكلية وهو خلاف شرط الواقف وخلاف حكم الشارع أن النظر للحاكم . ومن المختص بالناظر أنه يبقى مطلق التصرف فيؤخر ما يراه من المدد الطويلة ويتصرف بأنواع التصرفات التي تقتضي العرف والشرع مراجعة القاضي فيها فلا يراجعه فيحصل بذلك مفاسد لا تحصى ، وكذلك لتسمية ناظر واجراء حكم الناظر المستقل عليه ، ومن المختص بالناظر أنه قد يتوهم أن جعل القاضي له ناظرا كشرط الواقف وقد يتوهم بعض الناس ذلك فيقول الواقف اذا شرط النظر لشخص ارتبط شرطه ، واذا لم يشترط بقي مبهما ، واذا ولي القاضي ناظرا كان يقينا لذلك المبهم فيصير كالمشروط من الواقف فلا يجوز تغييره وهذا حال باطل . . ومن المفاسد المشتركة بين الناظر وغيره أنه اذا بقي شخص منفرد بوظيفته كناظر أو عامل أو غيرهما يأخذ على خط القاضي توقيعا بالجمل عليه ثم لا يقدر القاضي يعزله بعد ذلك بل يبقى متمسكا بذلك التوقيع ويوهم أرباب الدوله أنه من جهة السلطان أو نائبه فلا يقدر القاضي على عزله ولو بان منه ألف مصيبة وتبقى تلك الوظيفة دائما لا تؤخذ الا بتواقيع ولا للقاضي فيها حديث» . (١)

ونتيجة للغزو المغولي على بلاد الشام فقد جرى اعتداء على أموال وأملاك الأوقاف التي كانت تؤدي خدمات دينية واقتصادية وثقافية . هذا الاعتداء حصل اما من قبل قواد وجنود المغول ، أو من قبل رجالات الادارة المتحكمين بالبلاد فأصبحت موارد الأوقاف هدفا للاستغلال والسلب والاستثمار من قبل هؤلاء الرجال ، لذلك فقد طرأ تبدل وتغير جذري على موارد هذه الأوقاف والتي عادت بالضرر الكبير على المجتمع ، فالمفروض أن تصرف موارد هذه الأوقاف في سبل الخير كاطعام الخبز مثلا لمن يرد الى احدى المدن كالقدس مثلا أصبحت تصرف في طرق غير شرعية . (٢)

وهناك سؤال مطروح على بساط البحث وهو ماذا حصل لموارد الأوقاف اثر الحملات العسكرية ؟ هل طرأ تغير جذري على انفاق الموارد أو تحصيلها أم لم يطرأ ؟ .

من الجدير بالذكر أنه عندما دخل هولاكو سنة ٦٥٨هـ/١٢٥٩م الى بلاد الشام عين قاض للقضاة وناظر للأوقاف وهو كمال الدين عمر بن بندار التفليسي . (٣) ولم تذكر المصادر غير ذلك ، لكن يستدل

(١) - السبكي : فتاوى السبكي ، ص ١٥٥ - ١٥٧ .
(٢) - المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤٢١ .
(٣) - أبو شامة : تراجم ، ص ٢٠٤ - ابن كثير : المصدر نفسه ، ج ١٣ ، ص ٢٢١ - ابن تغرى بردى : النجوم ، ج ٧ ، ص ٧٦ - ٧٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

من هذا التعيين أن هولاكو أراد الاستيلاء على موارد الأوقاف ولولا ذلك لما عين كمال الدين في هذا المنصب ولأبقى الذي قبله.

وأثرت غزوة غازان أكثر من سابقتها على الأوقاف، فقد عمد الى المصادرات والاحراق والسلب لمعظم هذه الأوقاف مما أدى الى اندثار وضياع الكثير منها وبالتالي الى توقف وارداتها التي كانت تعود بالفائدة اما الى المستفيدين منها من العامة، أو الى السلطات.

ذلك أنه عندما دخل غازان بلاد الشام رافقه الأصيل حسن فحكمه في أوقاف الشام وكانت نتيجة ذلك أن نهب موارد الأوقاف وسلبها، ولم يقتصر النهب على الأصيل بل اشترك به بعض الحكام كنائب دمشق قفجق، حيث استولى على معظم أوقاف المدارس، وهذا يعني أنه حرم الكثير من الطلاب ومن المعلمين الدعم المادي الذي كانت تقدمه لهم هذه الأوقاف، فأثر على معيشتهم اليومية، وأثر على استمرار تلقيهم العلم في المدارس، وهذا بالنتيجة يعني تأثر الحالة العلمية بذلك.(١)

وبالرغم من تنمية موارد وريع الأوقاف بعد غزوة غازان، الا أن غزوة تيمورلنك أضرت بها كثيرا، فما دامت الفعاليات الاجتماعية والاقتصادية قد لحقتها الأضرار الفادحة، فلابد أن تكون الأوقاف قد لحقها قسم من هذه الأضرار. فعندما دخل تيمورلنك الى دمشق فرض على مباشر كل وقف من سائر الأوقاف كمية من المال، فأخذ من أوقاف جامع بني أمية مائة ألف درهم شامية، ومن بقية أوقاف الجوامع والمدارس شيء معلوم.(٢)

وهنا يوجد سؤال آخر وهو اذا كانت موارد أوقاف جامع بني أمية وأوقاف الجوامع والمدارس قد استولى عليها تيمورلنك فمن أين استطاعت السلطات الانفاق على الجوامع والمدارس؟ هل كان ذلك من مال السلطان الخاص، أو عن طريق فرض الضرائب، أو هل كان ذلك من الخزينة العامة؟.

ان هذا السؤال لم اجد الاجابة عليه عند البحث في المصادر، لكن يخيل لي ان الانفاق قد تم من الخزينة العامة الى جانب اموال الصدقات والتبرعات، وكان الانفاق على الجوامع والمدارس، الى جانب الانفاق على مشاريع الترميم والاصلاح للمنشآت التي خربها المغول، والانفاق على تسليح الجيش هي أحد العوامل الرئيسية في انهيار الدولة المملوكية، لأن الانهيار لا يكون فجأة

---

(١) ابن شاكر: فوات، ج ٢، ص ٣١٢- ابن كثير: المصدر نفسه، ج ١٤، ص ٩- المقريزي: السلوك، ج ١ ق ٣، ص ٨٤٤- العيني: المصدر نفسه، ج ٤، ص ٣٩-٤٦.

(٢) - المقريزي: السلوك، ج ٣، ق ٣، ص ١٠٤٨- ابن تغري بردي: النجوم، ج ١٢، ص ٢٤٢- ابن اياس المصدر نفسه، ج ١، ق ٢، ص ٦١٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وانما يكون نتيجة لسنوات طويلة ، فالانفاق رافقه ضعف في الدخل الحكومي وهذا بدوره أدى الى العجز والى التضخم .

كما أجبر الضغط المغولي السلاطين المماليك على منح الأوقاف كاقطاعات للأمراء ، ففي سنة ٦٥٩هـ/ ١٢٦٠م أخرج الظاهر بيبرس أوقاف الخليل من اقطاعات الأمراء .(١)

وانعكست الضرائب المفروضة على الاقطاعات بشكل حاد على الأوقاف ، فالمصادرات المتعددة ، والضرائب على الأراضي الاقطاعية اضطرت أصحاب الاقطاعات الى تحويلها الى أوقاف أحباس لتنجو من المصادرات ، فكثر الواقفون ، وكان غالبيتهم من الحكام ، وقد أورد لنا الأديب محمد كرد علي ذلك « وكان العمال كثيرا مايقبلون الأرض أي يضمنونها ويضيفون دخلها الى بيت المال . ومن العمال من كان يحبس القرى على مصالح المدينة ومرافقها قاصدا بذلك عمارتها . وهذا من أول الأحباس في الشام . وكثرت الأوقاف الخيرية والأهلية بكثرة الظلم وشدة الاستبداد في العصور التالية ، فكان الواقفون وأكثرهم من رجال الدولة يقفون على الجوامع والمدارس وأعمال البر لتنجو أملاكهم وضياعهم من المصادرة . وأتت عهود كثرت فيها أوقاف الغوطة فقام رجال أذكياء أنقذوا الأوقاف بأن حلوها بحيل سموها شرعية واخترعوا لها أسماء كالتحكير والاحترام والاجارتين والمرصد وأخرجوها عن ملك الوقف الى الملك الخاص ، وكثرت هذه الحيل أيام العثمانيين . وكانوا على عهد المماليك يؤجرون ملك الوقف مئة سنة وفي العهود الأخيرة أنزلوا مدة الايجار الى ثلاث سنين .

وما سلم الوقف من الاحتيال على حله واستصفاء أعيانه حتى وقف الجوامع والمدارس والمبرات المجمع على نفعها . . وأصحاب الأوقاف مابرحوا يزعمون أن شرط الواقف كنص الشارع ، كلمات اخترعها من عاشوا بسرقة الأوقاف ، حللوا لأنفسهم وحرموا على غيرهم ، وكان من العوامل في الاخلال بنظام الوقف تحيل طائفة من القضاة على اخرابه عما وضع له . كان يقصد بالوقف في أول وضعه الخير فأصبح في الزمن الأخير شرا .

وأضر الوقف في العمران وهو آخذ بالزوال سنة عن سنة بتوفر الأهلين على الاستبدال الذى كان نفعه ظاهرا ، كما كان من النعم على هذا الاقليم كون أرضها مقسمة بين أهلها قسمة طبيعية ، فلا ترى فيها زراعات كثيرة الا نادرا ، ومهما بلغ من سعة المزارع الكبرى أو الحوانيت فانها تدار بعناية

(١) - ابن عبد الظاهر : الروض ، ص٨٩ - النويري : المصدر نفسه ، ج ٣٠ ، ص٢٣ - المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤٤٤ - غوانمه : المرجع نفسه ، ص ١٠٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

كما تدار الزراعات الصغيرة ، ويظهر أنها كانت على ذلك منذ الزمن الأطول » .(١)

وظهر في فترة البحث لفظ الاقتراض من أموال الأوقاف وكان ذلك حيلة جديدة من قبل السلطات استخدمتها من أجل تسليح الجيش اثر قدوم الغزاة . فعند ورود الأنباء بقدوم غازان طالبت السلطات - ولاة المال - بالأموال فاقترضوا أموال الأيتام وأموال أوقاف الاسرى لأجل الجيش ، وهذه الطرق جميعها غير شرعية وغير قانونية ، فالمفروض أن هناك خزينة مالية تدفع جميع متطلبات النفقات العسكرية .(٢)

وعاودت السلطات المطالبة بأموال الاوقاف سنة ٧٨٩هـ/١٣٨٧م من أجل الاستعانة على قتال العدو المغولي ، وقد سوغت السلطات طلبها بخلو الخزائن من الأموال ، واستشير الفقهاء والعلماء في هذه القضية ، فوافق بعض القضاة ، وعارض آخرون باعتبار أن أموال الأوقاف لا تؤخذ ، ثم اقتضى الرأي أن يؤخذ من التجار الزكوات ، فشرع في الأخذ منهم ، فاستخرج ليوم واحد ثم أبطل ذلك ورد المال الى أصحابه ، واتفق الفقهاء في النهاية على أن يؤخذ من مال الأوقاف أجرة الأماكن اضافة الى خراج الأراضي سنة كاملة مع بقاء الأوقاف على حالها .(٣)

وفي سنة ٧٩٣هـ/١٣٩٠م عاودت السلطات طلب أموال الاوقاف لتنفقها على تسليح الجيش ، وفرضت على القضاة مبلغ خمسين ألف درهم ، فقررت على أوقاف المدارس الشافعية النصف ، والحنفية سبعة عشر ألفا وعلى المالكية ثلاثة ، وعلى الحنابلة خمسة .(٤)

وكان للعجز المالي الذي وقعت به الخزينة العامة أثر على زيادة الركود الاقتصادي الذي تجلى في احدى صوره في الاقتراض بشكل دائم من مال الأوقاف ، فقد أعاد الظاهر برقوق سنة ٧٩٧هـ/١٣٩٤م اقتراض أموال الأيتام والأوقاف من مودع الشام وكان مقدارها ستمائة ألف درهم .

ويلاحظ أنه في خلال ثماني سنوات عمدت السلطات ثلاث مرات على أخذ أموال الأوقاف مما يدل على وقوع البلاد في عجز مالي ، وهذا يتنافى مع ما أقدم عليه الظاهر برقوق من اقامة مشاريع عمرانية كثيرة ، ومع ما خلفه وتركه من الذهب الذي صادرته السلطات فيما بعد ووزعته أثناء قدوم تيمورلنك للبلاد .

---

(١) - كرد علي : غوطة دمشق ، ص ٩٣ .

(٢) - ابن كثير : المصدر نفسه ، ج ١٤ ، ص٦ - دهمان : ولاة ، ص٨٩ .

(٣) - المقريزي : السلوك ، ج ٣ ، ق ٢ ، ص٥٦٣ - ابن قاضي شهبة : المصدر نفسه ، ج ١ ، ق ٣ ، ص ٢١٨ ، ١٩-٢١ - ابن اياس : المصدر نفسه ، ج ١ ، ق ٢ ، ص٣٨٦ - ابن الطباخ : المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٣٧٣ - ٣٧٤

(٤) - ابن قاضي شهبة : المصدر نفسه ، ج ١ ، ق ٣ ، ص ٢٧٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وأقدم بعض الحكام الاداريين على بيع الأوقاف بطرق واهية مزيفة كما فعل محمد بن أحمد بن محمود النابلسي في دمشق فقد باع أكثرها بطريق المناقلات، أما سكان المدينة فقد استولوا على أوقافها، عندئذ أمر السلطان بايقافهم عن البناء ظاهر البلد، ونتيجة لذلك أقال القاضي الأخنائي، وعين بدلا منه شمس الدين الصلتي وأمره بالكشف عما استولي عليه من الأموال والأوقاف فاستيمد ذلك كلا ان التصرف الخاطئ تجاه التعامل مع موارد الأوقاف من قبل الحكام الاداريين شجع بقية السكان على سلبها ونهبها، وهذا ناتج عن حالات التخبط والفوضى التي كانت تعيشها البلاد، وعن موجة عدم الاستقرار الأمني، فلو أن الاستقرار الأمني والاقتصادى يسود البلاد لما تجرأ السكان على الاستيلاء على تلك الأوقاف.

وهنا يجب طرح سؤال وهو لماذا حللت السلطات لنفسها أخذ موارد الأوقاف ولو كان ذلك لغايات عسكرية، وحرمتها على السكان؟.

اذا أخذنا بعين الاعتبار الروايات التاريخية لوحظ أن الأسباب التي نوقشت فيما مضى هي التي دفعت السلطات للاقدام على هذا العمل، بينما اذا تعمقنا في هذه الروايات نلاحظ أن السبب وراء ذلك هو الاحتفاظ بالموارد المالية لمواجهة المخاطر الناجمة عن الأزمات الاقتصادية اضافة الى الغزو المغولي.

وأثر العجز المالي بشكل أو بآخر على زيادة أجور الأوقاف وخاصة اثر غزوة تيمورلنك وذلك لسد العجز المالي، اضافة الى سرقة موارد الأوقاف المالية بين العلماء. فقد أفتى العلماء سنة ٨٠٣هـ ١٤٠٠م لصالحهم عندما رفضوا اعطاء نصف الأوقاف كاقطاع للأجناد البطالين، وبرروا ذلك بأن لا يجوز الاعتماد عليهم في الحروب لأنهم دائما مع المنتصر.(٢)

وفي المقابل فانهم رفضوا في هذه السنة التصديق على الضريبة التي فرضها السلطان لمصادرة أموال الأوقاف والتجار لتلبية متطلبات الجيش الذى سيواجه القائد المغولي تيمورلنك.(٣)

ومن المرجح أن رفضهم نبع من المعالجة الخاطئة للسلطات لمعالجة العجز المالي أثناء قدوم الغزاة المغول.

---

(١) - المقريزى: السلوك، ج ٤، ق ٢، ص ٨٣٨ - ابن قاضي شهبة: المصدر نفسه، ج ١، ق ٣، ص ٢ - العسقلاني: انباء، ج ٥، ص٥ - السخاوى: الضوء اللامع، ج ٧، ص ٥٨ - ١٠٧، ج ٩، ص ٨٨ - النعيمي: الدارس، ج ٢، ص٤٧.

(٢) - النعيمي: المصدر نفسه، ج ١، ص٢٩٩ - ٣٢٧ - لابيدوس: المرجع نفسه، ص١٣١ - العلبي تيمورلنك، ص١٢٨.

(٣) - ابن تغرى بردى: النجوم، ج ١٢، ص ٢١٨ - لابيدوس: المرجع نفسه، ص ٢١١-٢١٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وأثارت قضية حل الأراضي الموقوفة على المساجد والجوامع والزوايا مشا كل عديدة ومناقشات بين الفقهاء، ففي سنة ٧٨٠هـ/١٣٧٨م جمع الظاهر برقوق القضاة لمناقشة حل الأراضي الموقوفة على أولاد الملوك والأمراء، وتعرض للرزق الأحباسية، لكن القضاة، أفتوا بعدم جواز حلها بوجه من الوجوه، وانقضى الأمر على اخراج عدة أوقاف كاقطاعات.(١)

كل ماذكر فيما مضى وسائل غير شرعية لمصادرة أموال الأوقاف، ونستطيع تسميتها بسرقة أموال الأوقاف، وهذه العبارة كررها أكثر من مؤرخ في فترة البحث، وفي فترة لاحقة للغزو المغولي نذكر منهم على سبيل المثال البدري وهو من علماء القرن التاسع الهجري، فقد ذكر في كتابه نزهة الأنام عن جامع تنكز: « فهو متنزه يقصد، وللمصلي معبد، وفي كل شرف منه ماعدة من المدارس والمساجد ولكل واجد مايكفيه من الأوقاف استولت عليها أيدي المتشبهين بالفقهاء فأظهروا فيها أنواع المفاسد، فلا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم ».(٢)

وشبه بعض الباحثين آكلي أموال الأوقاف باللصوص فقد ذكر كرد علي بأن لصوص الأوقاف قد أكلت ماحبسه القيمري على البيمارستان / من القرى والبساتين والحوانيت والطواحين.(٣)

كان محمد كرد علي على صواب عند ما أطلق عليهم اللصوص، فمن استولى على أشياء لا تخصه فهو لص خاصة أنها كانت تعود بالنفع العام على المجتمع كله، ولكن رغم السلبيات التي تعرضت لها الأوقاف الا أن بعض نواب المدن ساهم في تنميتها ورفعها لتساهم في بناء المجتمع العربي الاسلامي، فالنائب تنكز عمل على تنمية ريعها وبناء معاهدها، وأقر أن لا يصرف لأحد من موظفيها راتبه حتى تعمر، فعوض أثناء الترميم خسارة هذه الأوقاف، فقد عوض عن خان تابع لأوقاف المدرسة الظاهرية وأعاد بناء الدكاكين التابعة للمسجد الأموي، كما صادر عدة أوقاف لأولاد الملوك.

وهذا ليس بمستغرب على تنكز الذي عمل جاهدا على القيام بنهضة عمرانية اتسمت بمظهر ديني واقتصادية واجتماعية في المناطق التابعة لدمشق وفي المدينة بالذات، وبينما كان بعض النواب يستغلون موارد الأوقاف كان يكثر من الأوقاف، فقد كانت له أوقاف كثيرة كمارستان بصفد، جامع بنابلس وعجلون، دار حديث بالقدس وغيرها الكثير.(٤)

---

(١) المقريزي: السلوك، ج٣، ق١، ص٣٤٠-٣٤٧- ابن اياس: المصدر نفسه، ج١، ق٢، ص٢٣-٢٣٦.

(٢)- البدري: نزهة الأنام، ص٤١.

(٣)- كرد علي: غوطة دمشق، ص١٣٥.

(٤)- الصفدي: تحفة، ج٢، ص٢٣٣- ابن كثير: المصدر نفسه، ج١٤، ص١٨٧- المقريزي: السلوك، ج١، ق٢، ص٥١٢- لابيدوس: المرجع نفسه، ص١١٠- دهمان: ولاة، ص١٦٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وأثارت قضية الاستيلاء على أموال الأوقاف من قبل العلماء، استياء العامة والسلطات معا، ويرجح أن السبب وراء عمل الفقهاء أو العلماء هي أسباب سياسية واجتماعية، سياسية متمثلة في الغزو المغولي الذي نتج عنه استشراء الرشوة بكثرة. ذلك أن بعض العلماء بذل أموالا كثيرة لتسلم منصبه. وكان هؤلاء في بعض الأحيان غير كفوء مما جعلهم يظلمون الناس بكثرة المغارم والمكوس، ففي حلب كان في أيام نائبها قراسنقر مستوفي يهودي على الأوقاف، شدد وظلم أهل الأوقاف والناس فاشتكوه فعزل ثلاث مرات ثم عاد بالبرطيل والرشوة، وظل على حكمه حتى حل المشكلة خطيب حلب حيث جلس في الكنيس اليهودي مدة منع اليهود من الصلاة فيه أيام السبت فضايقهم ذلك كثيرا، عندئذ أذعنوا لمطالب الناس ووعدوا الخطيب بأن لا يباشر هذا المستوفي الأوقاف نهائيا.(١)
وصفوة القول بأن الظروف السياسية ولدت عدم استقرار أمني في المنطقة فأصبحت موارد الاوقاف لا تعطى بشكل مستمر وثابت، وانما بشكل متقطع، فالمجتمع كل متماسك في بنيانه الاجتماعي والاقتصادي، واذا ما طرأ أي خلل على احدى هذه البنى فانها ستؤثر بالطبع على المجتمع كله. كانت الموارد تعطى بالدرجة الأولى للقيمين على هذه الأوقاف كالامام المؤذن، القيم، اضافة الى الواردين عليها من البلاد، فالأربطة مثلا أو الزوايا كانت توقف لها الأملاك الكثيرة حتى تسد حاجة القيمين بها فأصبحت بذلك هذه الموارد احدى طرق المعيشة لبعض الأفراد العاطلين عن العمل، وبطالتهم نتجت عن التحركات السكانية التي حصلت من الأرياف والمدن نتيجة للاضطراب الأمني.(٢)

ومن المفيد هنا التساؤل عن أحوال المقيمين في الأماكن الدينية اثر الغزو المغولي، ماذا طرأ على أوضاعهم بعد انقطاع الموارد عنهم فترة حصول الاجتياح هل تركوا الزوايا واتجهوا الى اماكن أخرى تقدم لهم قوتهم اليومي، أم ظلوا في أمكنتهم وبالتالي فان معظمهم تعرض للمجاعة، أو أن السلطات مع جهات أخرى تبرعت لهم بالأموال وغيرها؟.

المصادر لم تزودنا بأي معلومات عن هذه الاستفسارات المطروحة، لكن من الطبيعي أن تكون السلطات قد عمدت الى مساعدتهم اثر فقدان الموارد، الى جانب استمرار الصدقات فهي لم تتوقف أبدا ولا نستطيع الجزم فيما اذا كان هؤلاء قد تركوا الزوايا، أم بقوا فيها، لكن من المرجح

---

(١) - ابن تغري بردي: المنهل، ج١، ص٣٥٥ - ٣٥٧ - عبد الرزاق (أحمد): البذل والبرطلة زمن سلاطين المماليك، مصر، الهيئة العامة المصرية للكتاب، ١٩٧٩م، ص٢٠ - ٢٦

(٢) - ابن شداد: تاريخ الظاهر: ص٣٠٢ - ابن قاضي شهبة: المصدر نفسه، ج١، ق٣، ص٥٤٤

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أن الامكنة التي تعرضت للتفتيش والقتل من قبل الأعداء قد نزح قاطنوها ،و من كانت أكثر أمنا فقد بقوا فيها . و هنا يجدر بنا القول بأن الأمكنة التي نزح منها قاطنوها طرأ عليها تغيير في البنية الاجتماعية فالذين هاجروا لم يعودوا جميعهم ،بل اندمج معهم أناس جدد تباينت فئاتهم الاجتماعية .الى جانب أنه طرأ تغيير عمراني على هذه الأمكنة فيما اذا كانت قد تعرضت للهدم .

وأرغمت الظروف السياسية على حصول تبدل في الفئات الداخلة في سلك الوقف ،فبينما كانت تقتصر على الأمراء في السابق ،فقد دخل فيها كبار القادة ووجهاء المدينة وهذا ما أثر بشكل سلبي على المجتمع ،حيث نفذ هؤلاء مطامعهم الشخصية من خلالها .(١)

وبذلك تكون الأوقاف قد تعرضت مثل غيرها للتغيير والتبديل نتيجة لعدم الاستقرار السياسي ، وبدلا من أن تكون هذه الأوقاف احدى واردات الخزينة ،ومولا للمشاريع الثقافية العلمية والخيرية ،وسندا للاقتصاد المحلي في ظل الغزو المغولي ،أصبحت هدفا للاستغلال والنهب من قبل رجال الادارة وبعض العلماء والفقهاء من جهة ،ومن قبل أمراء المغول من جهة أخرى ،وبالتالي كان لها الباع الطويل في تدهور الأوقاف ،وكانت من الأسس التي سببت الانهيار الاقتصادى .

هـ: الرشوة :

وجدت الرشوة زمنيا قبل العصر المملوكي فقد عرفت في العصر العباسي أثناء وجود السلاجقة في العراق وكانت تسمى ضرائب على الترقي ونيل الوظائف الكبيرة وكانت موردا من الموارد التي تدر بعض المال على خزينة الدولة .(٢)

لكن الرشوة كمرض اجتماعي انتشرت في بلاد الشام ابان العصر المملوكي بالاضافة للأمراض الخلقية الاخرى كالبغاء واللواطة وشرب الخمر والحشيش ،وشملت الرشوة كافة فئات المجتمع بدءأ من قاعدة الهرم الاجتماعي وحتى القمة . لكن الرشوة لم تتخذ الصفة الشرعية لها حتى منتصف القرن الثامن الهجرى /الرابع عشر الميلادى حيث انشيء لها ديوان سمي ديوان البذل .(٣)

(١) - سوفاجيه :دمشق الشام ،ص ٨٢ .

(٢) - الأيوبي (محمد بن تقي الدين عمر بن شاهنشاه الأيوبي) :مضمار الحقائق وسر الخلائق ،القاهرة عالم الكتب ،ص ١٦٩ .

(٣) - المقريزى : المقفى ،ج ٢ ،ص ٢٢٦ - ابن تغرى بردى :المنهل ،ج ٢ ،ص ٤٦٠- ٤٦١ - عبد الرزاق المرجع نفسه ص ٢٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولنتساءل الآن عن مدى تأثير الغزو المغولي على انتشار الرشوة . وهل حدثتنا المصادر التاريخية عن قبض الرشوة من قبل قواد المغول .

ان جميع البلدان التي تتعرض لغزو خارجي تزداد فيها الأمراض الخلقية ، ناهيك عن الأمراض الجديدة التي يجلبها الغزاة معهم ، وقد انطبق هذا على الرشوة . فقد شجعها المغول وزودتنا المصادر بأن لها ذكرا في غزوتي هولاكو وغازان بينما شجبها تيمورلنك ظاهريا . فأثناء غزوة هولاكو سنة ٦٥٨ هـ/١٢٥٩م قلد القضاء القاضي كمال الدين عمر بن بندار التفليسي بدلا من القاضي صدر الدين بن سني الدولة الذي حكم مدة خمسة عشر عاما مع زميله محي الدين بن الزكي فسار القاضيان المعزولان للقاء هولاكو في حلب فخدع ابن زكي زميله ابن سني الدولة وبذل أموالا جزيلة تولى على اثرها القضاء في دمشق وهنا نتساءل لمن بذلت هذه الأموال لهولاكو أم لأعوانه المقربين ؟ . من المرجح أن يكون المال المبذول قد أعطي للمقربين من هولاكو وهم بدورهم أعطوه اياه وبناء على هذا التقليد عاد ابن الزكي الى دمشق وجلس في خدمة ايل سنان تحت قبة النسر عند الباب الكبير حيث كانت زوجة ايل سنان موجودة ، وقد هاجم ابن كثير ابن الزكي على عمله ووصف ذلك بقوله : « وقرىء التقليد هنالك والحالة كذلك وحين ذكر اسم هولاكو نثر الذهب والفضة فوق رؤوس الناس ، فانا لله وانا اليه راجعون ، قبح الله ذلك القاضي والأميروالزوجة والسلطان وذكر أبو شامه أن ابن الزكي استحوذ في مدته القصيرة على مدارس كثيرة فقد عزل قبل رأس الحول فأخذ في هذه المدة العذراوية السلطانية والفلكية والركنية والقيمرية والعزيزية مع المدرستين اللتين كانتا بيده التقوية والعزيزية وأخذ لولده عيسى تدريس الأمينية ومشيخة الشيوخ وأخذ أم الصالح لبعض أصحابه وهو العماد المصري . وأخذ الشامية البرانية لصاحب له ، واستتاب أخاه لأمه شهاب الدين اسماعيل بن أسعد بن حبيش في القضاء وولاه الرواحية والشامية البرانية . قال أبو شامة مع أن شرط واقفها أن لا يجمع بينها وبين غيرها » (١) .

وتشير المصادر بأن جنود قوات غازان أخذوا الرشوة تحت اسم البراطيل - انظر بند الضرائب المستحدثة - ومن المرجح أن غازان قد حصل قسما منها لنفسه .

ولم تشر المصادر الى تيمورلنك بأنه أخذ الرشوة بل كانت الرشوة مكروهة لديه ظاهريا على الأقل وقد أكد ذلك الكتاب الذي أرسله للظاهر برقوق حيث قال :

---

(١) - ابن كثير : المصدر نفسه ، ج ١٣ ، ص ٢٢١ - ٢٢٢ - عبد الرزاق : المرجع نفسه ص ٢٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

« فكيف يسمع الله دعاكم وقد أكلتم الحرام وضيعتم الأنام وقبلتم الرشوة من الحكام » .(١)

وقد اثبت الصيرفي مقالة تيمورلنك بأن البراطيل نشأت في أيام الظاهر برقوق فلا يستطيع أحد الوصول الى وظيفة الا بالبذل وقد اشتهر في أيامه ثلاثة أشياء قبيحة هي اتيان الذكور، اشتهاره بتقديم المماليك الحسان، التظاهر بالبرطيل.(٢) والظاهر برقوق هو أول من استجد البذل على الولايات .(٣)

وربما كان القصد من كتاب تيمورلنك لبرقوق هو محاولة تأليب الناس على المماليك، بتصويرهم بأنهم مرتشون ومارقون على الاسلام ولا يهمهم سوى مصلحتهم، كما هدف تيمورلنك الى اظهار المغول بمظهر المدافع عن الدين والاخلاق لكسب الناس الى صف المغول فليس من المعقول أن تتواجد في شخصية تيمورلنك تلك الصفات من القتل وسفك الدماء وهتك الأعراض وتدمير المنشآت الحضارية والدينية ولا تتواجد فيه صفة أخذ الرشوة. هذا افتراض طبعا ولكن المصادر التاريخية لم تذكر لنا ايضاحات حول هذا الجانب.

- لقد عد المؤرخون الرشوة من مساوئ السلطات في تلك الفترة وكانت سياسة الدولة المملوكية هي السبب الأول في تلك الانحرافات ذلك أن أنماط القيادة المختلفة وفلسفة الادارة في اختيار الاساليب والوسائل التي تراها مناسبة أكثر من غيرها في تحقيق الأهداف العامة كانت أسبابا مباشرة لهذه الانحرافات، وبدلا من تقويم أداء الأفراد عن طريق تحديد مدى مساهمة كل فرد في المجتمع ومقارنتها مع الأهداف الموضوعة من قبل السلطات وبالتالي وضع كل فرد في المجال الذى يحقق فيه أفضل النتائج فانها أبدتها ونماً تجاه أساليب الانحراف فأدى ذلك الى ظلم فئات المجتمع . وقد وصف ابن صصرى الوضع السيء حيث قال :

« عليكم بحكام هذا الزمان يرتشون ويرشون على المناصب ولم يعطوا درهم لفقير وجميع مايجمعونه به للظلمة ولا يمش لهم حال » .

وقد وصف ذلك شعرا :

فبرطل ان أردت الحال يمش   فما يمش سوى حال المبرطل .(٤)

---

(١) - المقريزى : السلوك، ج ٣، ق ٢، ص ٨٠٤ - العسقلاني : انباء، ج ٣، ص ٢٠٧ - ابن تغرى بردى : المنهل، ج ٣، ص ٣٢٠ .

(٢) - الصيرفي : نزهة النفوس، ج ١، ص ٢١٣ - ابن اياس : المصدر نفسه، ج ١ ق ٢، ص ٢٢٠ .

(٣) - الشوكاني : البدر الطالع، ج ١، ص ١٦٤ .

(٤) - ابن صصرى : الدرة، ص ٣٨ - ٣٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أوصال البلاد أن جمع هؤلاء الموظفون أكثر من وظيفة في أيديهم.(١)

٣- أدت زيادة الرشوة الى ازدياد الفئة الغنية ثراء، والفقيرة فقرا.

٤- ان غياب رقابة السلطات نتيجة للفوضى، أو انعدام الأمن، أثر على الروح الوطنية والعسكرية لبعض الأمراء فجعلهم ذلك يصانعون الأعداء ويأخذون الرشوة.(٢)

٥- اضطرت السلطات في أحيان كثيرة بعض الأشخاص الراغبين في تسلم وظائف هامة للاقدام على بيع أملاكهم.(٣)

٦- طالت الرشوة الاقطاعات، فتقرر من طلب اقطاعا من مائة دينار حملها مقابل رشوة مائة دينار، ففسدت الأحوال بذلك.(٤)

وأخيرا نستطيع القول بأن الرشوة أصبحت نوعا من أنواع الابتزاز والاختلاس، لأنها كانت في الغالب تخدم السلطات وقد ساهمت مع عوامل وأمراض اجتماعية أخرى الى ازدياد الوضع الاجتماعي والاقتصادى سوءا، ومابدا واضحا عجز كلا الطرفين الجيش والمدنيين عن صد هجوم تيمورلنك العنيف على بلاد الشام ولا ندرى فيما اذا كان قد حاول أمراء المغول من رشوة بعض الأعيان أو السكان لمساندتهم أثناء دخولهم للمدن ليكونوا لهم عونا، بعد أن اطلعوا على أمور البلاد، وأنا لا أستبعد ذلك فكل عصر من العصور حافل بهذه الحوادث، فدائما يسعى العدو الى ايجاد حليف قوى له داخل البلاد، وذلك اما عن طريق بذل الأموال الكثيرة له، أو تسليمه منصب هام عند تسلمه زمام السلطة في البلاد، ولكن الذى لم أستدل عليه من خلال المصادر هو الأشخاص الذين قاموا بهذه المهام برضاهم وليسوا مجبرين وأرجو أن تصدر أبحاث بخصوص هذه النقطة.

---

(١)- ضومط : الدولة المملوكية ص ٨١ .

(٢)- النويرى : المصدر نفسه، ج ٣١، ص ٢٤٢- ابن الوردى : المختصر، ج ٢، ص ٤٧٩- المقريزى : السلوك، ج ١، ق ٣، ص ٧٧٩ .

(٣)- السخاوى : الضوء، ج ٧، ص ٢٧٧ .

(٤)- المقريزى : المقفى، ج ٢، ص ٢٢٥- ٢٢٦- ابن تغرى بردى : المنهل، ج ٢، ص ٤٦٠، ج ٦، ص ٢٥٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أخذ منه اقطاع الوظيفة فيبقى بلا مورد مالي فأدى ذلك لقلق كبار الأمراء.[1]

ورغم ما أحدثه الغزو المغولي للمنشآت في بلاد الشام فقد شهدت نهضة عمرانية وحضارية ملموسة قام بها مجموعة من النواب والأمراء الذين تولوا الحكم، فقلما تولى نائب أو أمير حكم مدينة الا ونفذ المشاريع العمرانية وخاصة الدينية، مثال هؤلاء الأمير تنكز الذي عمر جامعه وتربته قبل أن يموت وشهدت دمشق في عهده ازدهارا عمرانيا واقتصاديا كبيرا.[2]

وقد ساعد هؤلاء الأمراء في تنفيذ هذه المشاريع الامكانات المادية الجيدة عن طريق عطايا السلاطين لهم وعن طريق استثمار اقطاعاتهم ومشاركتهم لكبار التجار لاستثمار أموالهم.

أما طرق ترميم المنشآت والقلاع والاسوار التي خربها المغول في بلاد الشام فقد تنوعت.

فذكرت المصادر التاريخية بأن بعض هذه المنشآت رممت عن طريق تسخير أعداد كبيرة من الناس بالعمل فيها، فمثلا أجبر علم الدين سنجر الحلبي أثناء ترميمه لقلعة دمشق سنة ٦٥٨هـ/١٢٥٩م الصناع وكبراء الدولة والعامة وحتى النساء منهم اشتركن في العمل بها.[3]

وقام تنكز بعمل مشابه لعلم الدين سنجر بالنسبة لقلعة جعبر التي خربها المغول في غزوة هولاكو لأن أحدا لم يستطع الانفاق عليها لاحتياجها الى طاقات عاملة ضخمة ومبالغ كبيرة، تعهد تنكز بترميمها الى سيف الدين أبي بكر الباشري وذلك سنة ٧٣٥هـ/١٣٣٤م الذي أشرك في البناء الكثير من الصانعين والحجارين والمهندسين من سكان بلاد الشام الى جانب استخدام الأسرى، كما فرض على قرى حلب ومدن الساحل بمشاركة رجالها في العمل.

كما سخرت السلطات الكثير من رجال حلب للعمل في نهرها فقد فرض ان يعمل نصف رجال كل قرية فتسبب ذلك بنزوح الكثير من سكان هذه القرى، كما فرضت على اسواق حلب الأموال والرجال فجمع تنكز عشرين ألف رجل العمل، وبذلك استمر العمل في القلعة والنهر مدة طويلة من الزمن،

---

(١) - عبد الستار: المرجع نفسه ص ٣١٦ = ٣١٧

(٢) - لمزيد من المعلومات عن المشاريع في عهد تنكز ينظر: الذهبي: ذيول، ص ١٥٩ - ابن الوردى ج ٢، ص ٤١٥ - الصفدى: تحفة، ج ٢، ص ٢٢٣ - ٢٢٩ - ابن شاكر: فوات، ج ١، ص ١٧٥.
- ابن كثير: المصدر نفسه، ج ١٤، ص ١٣٣ - المقريزى: السلوك، ج ٢، ق ١، ص ١٢٧ - ج ٢، ق ٢، ص ٥١٠ - ٥١١ - المقفى، ج ٢، ص ٦٠٦ - ٦١١ - ابن خطيب الناصرية: الدر، ج ١، ورقة ٢٥٥
- ابن تغرى بردى: المنهل، ج ٣، ص ٣٥٦ - العليمي: الانس الجليل، ج ٢، ص ٣٥ - دهمان: ولاة: ص ١٦٥ - ١٦٦ - لابيدوس: مدن الشام ص ٥٧.

(٣) - اليونيني: ذيل مرآة، ج ١، ص ٣٧٣ - ابن الوردى: المصدر نفسه، ج ٢، ص ٢٠١ - المقريزى: السلوك ج ١، ق ٢، ص ٤٣٨ - العيني: المصدر نفسه، ج ١، ص ٦٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وبعد الانتهاء اتخذتها السلطات لتخزين الغلال والأزواد (١)

وقد وصف لنا ابن الشحنة كيف سخر نائب حلب العامة والأكابر لردم الخندق وتعمير القلعة بعد خرابها اثر غزوة تيمورلنك قال :

« واستمرت خرابا الى أن جاء الأمير سيف الدين جكم نائبا اليها من قبل السلطان الملك الناصر فرج ابن برقوق وادعى الأمر لنفسه فأمر ببناء القلعة وألزم الناس بالعمل في الخندق وتحرير التراب منه وجد في ذلك . . . واستعمل وجوه الناس شاهدت ذلك وأنا صغير مع سيدي الوالد رحمه الله بحيث كان كبار الأمراء يحملون الأحجار على متونهم . والله أعلم » . (٢)

كما ألزمت السلطات سكان البلاد باعادة اعمار المنشآت التي لم تستطع اعمارها ، فنائب دمشق ألزم أهلها سنة ٨٠٥هـ/١٤٠٢م بعمارة دار السعادة وفي سنة ٨١١هـ بعمارة المدارس . (٣)

أما المصادر التي اعتمدتها السلطات للانفاق على ترميم المنشآت فقد تنوعت منها فرض الضرائب والغرامات على الناس وعلى الأراض الزراعية والأمثلة على ذلك كثيرة لذلك سأكتفي بمثال واحد فمثلا كمشبغا نائب حلب جمع من أهلها مبلغا كبيرا من المال ليعمر سور المدينة ، ويحصن القلعة . (٤) الى جانب ما فرضته السلطات سنة ٨٠٩هـ/١٤٠٦م على الأراضي الزراعية لاعادة عمارة قلعة دمشق . (٥)

واعتمدت السلطات الأوقاف كمصدر آخر للنفقات ففي سنة ٨٠٣هـ/١٤٠٠م أوقف النائب أحمد اليغموري لبناء قلعة دمشق عدة قرى مثل داريا ، أريحا ، غزة ، نابلس الى جانب أموال المواريث الحشرية والزكاة والمسابك ودار الضرب ونصف متحصل كنيسة قمامة من القدس وربع الزكاة وربع العشر ، وربع ما يتحصل من دار الوكالة فظلم أكثر أهل دمشق بسببها . (٦)

وكانت الصدقات آخر المصادر فقد تبرع أصحاب الخير لبناء بعض المعالم الخربة ، فالشيخ زين الدين الفارقي (٦٣٣-٧٠٣هـ) عمر دار الحديث بعد خرابها اثر غزوة غازان ، كما تصدق أخو عز الدين أحمد أحد البتكجية بحلب بعشرين ألف درهم لعمارة الجامع ومنها ثمانية عشر ألفا لبنائه وألفين لحصره ومصابيحه . (٧)

---

(١) - أبو الفداء : المختصر ، ج ٤ ، ص ١١٦ - ابن ايبك الدواداري : الدر الفاخر ، ص ٤٠ - الشجاعي : تاريخ الناصر ، ص ١١٤ - ابن الوردي : المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٤٤١ - اليوسفي : المصدر نفسه ، ص ٢٦٨ - ٢٦٩ - الصفدي : الوافي ، ج ٤ ، ص ٣٦٦ - ابن حبيب : المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٢٦٣ - المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤٤٤ - ابن تغري بردي : المنهل ، ج ٤ ، ص ١٩٦ - ابن الدباخ : المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٣١٣ .

(٢) - ابن الشحنة : الدر المنتخب ، ص ٥٧ .

(٣) - العسقلاني : انباء ، ج ٥ ، ص ٨٦ ، ج ٦ ، ص ١٠٧ - ابن طولون : اعلام الورى ص ٥٧ - الطبي : المرجع نفسه ، ص ١٩١ .

(٤) - ابن تغري بردي : النجوم ، ج ١١ ، ص ١٢ - الصيرفي : نزهة النفوس ، ج ١ ، ص ٢٠٧ - السخاوي : الضوء ، ج ٦ ، ص ٢٣٠ .

(٥) - العسقلاني : انباء ، ج ٦ ، ص ٨ .

(٦) - المقريزي : السلوك ، ج ٣ ، ق ٣ ، ص ١٠٦٥ - ابن اياس : المصدر نفسه ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٦١٠ - الطبي : المرجع نفسه ص ١٩٢ .

(٧) - ابن الشحنة : المصدر نفسه ، ص ٦٩ - النعيمي : الدارس ، ج ١ ، ص ٢٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ففي غزوة هولاكو خرب الغزاة قلعة أعزاز، المعرة، الصلت، عجلون، بعلبك، الشميميس، جعبر، وغيرها، وعند ما هاجموا حلب أمر هولاكو بتدمير أسوار القلعة.

كما خرب جنوده جامع القلعة والمقام الموجود بداخله، مما اضطر كل من شحنة القلعة والناظر على نقل رأس يحيى بن زكريا من القلعة الى المسجد الجامع بحلب ودفناه غربي المنبر وقيل شرقيه، وبني له مقصورة، وظلت القلعة حتى جددت أيام سلطنة خليل بن قلاوون. ولم يقتصر التخريب على القلعة فقط بل شمل الجوامع والمدارس ودار السلطنة، ودور الأمراء وسور المدينة وأبراجها.(١)

أما سور حلب الذي بنى قسما منه بنو مرداس، وبنى معز الدولة أبو علوان ثمال بن صالح بن مرداس بعض أبراجه بعد سنة عشرين وأربعمائة فقد بقيت أسواره قائمة الى أن تخربت على يد المغول، واستمرت خرابا حتى جددها كمشبغا الحموي سنة ٧٩٢هـ/١٣٨٩م، فقد جمع من أهل حلب ما يقارب مليون درهم وأعاد اصلاحها، وجعل لها أبوابا تغلق عليها، فجدد باب الفراديس(٢) الذي يقع بين باب الجنان وباب النصر، وجدد باب الفرج الذي يقع الى جانب حمام القصر.(٣)

وخرب كمشبغا من أجل اصلاح هذا السور وركثيرة الى جانب قصر الطنبغا ودار الكلماوي، وظل هذا السور مرمما حتى جاء تيمورلنك وخرب المدينة وهدم أسوارها، فلم تستطع بعدها السلطات ترميمها دفعة واحدة وانما على دفعات، وظل السور بدون ترميم حتى تسلطن المؤيد شيخ ورممه الى جانب الأسوار والقلعة،(٤) وخرب أيضا باب الرقة وظل خرابا حتى تولى الظاهر بيبرس فنقض حديد المصفح ومساميره ونقله الى دمشق ومصر، وخرب مشهد الحسين،(٥) فرممه الظاهر بيبرس، وجدده واصلحه وعمل أبوابه ورتب له اماما ومؤذنا وقيما.

وتعرض الجامع الأموي بحلب للحرق من قبل ملك الأرمن، فتصدق لاعادة بنائه أهل الخير، ثم قام الظاهر بيبرس البندقداري فيما بعد بتكليس الحائط الذي بني وعقد الجملون على الحائط القبلي، وكذلك الحائط الغربي من جهة صحن الجامع وبنى له سقف متقن.(٦)

---

(١) - أبو الفداء: المصدر نفسه، ج٣ ص٢٠٣ - ابن الوردي: المصدر نفسه، ج٢، ص٢٩٤ - ابن كثير: المصدر نفسه، ج١٣، ص٢١٨ - المقريزي: المصدر نفسه، ج١، ق٢، ص٤٢٢ - ابن الشحنة: المصدر نفسه، ص٥٤-٥٥-٧٦-٧٧ - العريني: المغول، ص٢٤٤.

(٢) - باب الفراديس: يقع بين باب الجنان وباب النصر جدده الملك الظاهر وبنى له جسر على الخندق - ابن العديم (كمال الدين عمر بن أحمد بن أبي جراده) بغية الطلب في تاريخ حلب، حققه. سهيل زكار - دمشق ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م، ص٥٦.

(٣) - ابن العديم: المصدر نفسه، ص٥٧.

(٤) - ابن الفرات: تاريخ، ج٩ ق١، ص٨٦ - ٢١٥ - ابن خطيب الناصرية: المصدر نفسه، ج١، ورقة ٨ - ابن قاضي شهبه: المصدر نفسه، ج١، ق٣، ص٢٤١ - العيني: المصدر نفسه، ج٣، ص٨ - ابن تغرى بردى: النجوم، ج١٢، ص١٢٠ - ابن الشحنة: الدر المنتخب، ص٣٢ - ص٥٦ - ٥٧ - اليونيني: المصدر نفسه، ج١، ص٣٠٧ - السخاوي: المصدر نفسه، ج٦، ص٢٣٠ - العريني: المغول، ص٢٤٧.

(٥) - مشهد الحسين: هو مشهد الدكة يقع غربي حلب، أنشأه سيف الدولة علي بن حمدان. انظر ابن الشحنة: المصدر نفسه، ص٨٤ - ٨٦.

(٦) - ابن الشحنة: المصدر نفسه، ص٦٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وحظيت قلعة حلب بعد مرور زمن على غزوة هولاكو باهتمامات السلطة وانفاقها الأموال على اعادة بنائها ، فقد أكمل عمارتها الأمير قراسنقر المنصوري نائب السلطنة سنة ٦٩٠هـ/ ١٢٩١م وقد تعرضت للخراب مرة أخرى على يد تيمورلنك في طريق العودة.(١)

وبالنسبة لحماة فقد اكتفى هولاكو بتخريب سور قلعتها ، فقد أوكل هذه المهمة الى الأشرف موسى صاحب حمص ، كما خرب أسوار قلعة شيزر وقد أصلحت شراريف هذه القلعة من قبل الظاهر بيبرس الذى أنفق عليها مبالغ طائلة . أما أسوار المدينة فلم تخرب نتيجة دفع السكان الأموال للقائد المغولي خروشاه الذى ترك المدينة ولم يخرب سورها .

وكانت مدينة حمص من بين المدن التي لم تعان من أضرار الغزو ، فقد اكتفى هولاكو بتخريب جزء من القلعة .(٢)

وماثلت دمشق أختها حلب في الأضرار التي لحقت بها من جراء الغزو ، فقد خرب المغول أسوار المدينة وصادروا الأسرى ، ونقبوا القلعة وخربوا منها مواضع كثيرة نتيجة لرميها بالمنجنيق ، ثم أحرقوا منها مواضع كثيرة وهدموا من أبراجها اعاليها، وهدموا شراريف القلعة وأتلفوا ماكان فيها من الزرد خانات والأسلحة .(٣)

وأول من رمم القلعة النائب سنجر الحلبي ، ثم تابع الظاهر بيبرس العمل في ترميم القلعة ، فأقام باشورة وعلاها حتى تشرف على البلد جميعه ، كما جدد باب القلعة لكن الظروف لم تسمح له باتمام العمل بها نتيجة لموته المبكر ، فأكمل ترميمها واصلاحها في مدة حكم الأشرف خليل بن قلاوون حيث أمر فيها ببناء القبة الزرقاء ، وقاعة الذهب وأنجزت في سنة ٦٩١هـ/١٢٩٢م.(٤)

وقد أولى الظاهر بيبرس القلاع المتضررة في البلاد أهمية خاصة وأنفق المبالغ الطائلة لترميمها ولم تشر المصادر لا من قريب ولا من بعيد الى كيفية الانفاق ، بل اكتفت بذكر سنوات الترميم والأماكن التي رممت .

---

(١) - النويري : المصدر نفسه ، ج ٣١ ، ص ٢٢٣ - ابن الجزري : المختار ، ص ٢٤٨ - ابن الوردي : المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٣٢٧ - ابن كثير : المصدر نفسه ، ج ١٣ ، ص ٣٢٣ - ابن حبيب : تذكرة ، ج ١ ، ص ١٤٠ - ابن خطيب الناصرية : المصدر نفسه ، ج ١ ورقة ٨ - المقريزى : السلوك ، ج ١ ، ق ٣ ، ص ٧٧٥-٧٠٨ - العيني : المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ٢٣٨ - ابن الشحنة : المصدر نفسه ، ص ٤٥ - ابن الطباخ : اعلام النبلاء ، ج ٢ ، ص ٢٧٤ .

(٢) - ابن شداد : تاريخ ، ص ٣٥ - أبو الفداء : المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ٢٠٣ - ابن الوردى : المصدر نفسه ج ٢ ، ص ٢٩٤ - ٢٩٥ - ابن شاكر : المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ١٦٩ - ابن خلدون : العبر ، ج ٥ ، ق ٤ ص ٧٩٤ - العيني : المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ٢٤٠ - كرد علي : المرجع نفسه ، ج ٢ ، ص ١٠٦ - شهاب : تيمورلنك ، ص ٢٩٣ .

(٣) - أبوشامة : تراجم ، ص ٢٠٤ - أبو الفداء : المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ٢٠٧ - اليافعي : مرآة الجنان ، ج ٤ ص ١٤٨ - شهاب : الدولة الايلخانية ، ص ١٤٦ - لعريني : المغول ، ص ٢٤٧ .

(٤) - ابن شداد : المصدر نفسه ، ص ٢٥٤ - ٢٥٦ - اليونيني : المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٢٦٠ - النويري : المصدر نفسه ، ج ٣١ ، ص ٢٢١ - الذهبي : دول ، ج ٢ ، ص ١٩١ - العبر ، ج ٥ ، ص ٣٧١ - الصفدي : تحفة ، ج ٢ ، ص ٨٩ - اليافعي : المصدر نفسه ، ج ٤ ، ص ٢١٩ - ابن كثير : المصدر نفسه ، ج ١٣ ، ص ٣٢٣ - ابن الفرات : تاريخ ، ج ٨ ، ص ١٢٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وكانت أهم القلاع المرممة هي قلعة الصلت، عجلون وصرخد التي لم تستكمل في عهده، بل ظلت حتى سنة ٦٧٩هـ/١٢٨٠م حيث أكملها السلطان قلاوون، وكانت هذه القلعة قد بنيت من قبل نور الدين محمود زنكي وظلت قائمة حتى هدمها جنود هولاكو.(١)

اضافة الى تجديده لقلعة الصبيبة فقد أنشأ فيها منارة للجامع، ودارا لنائب السلطنة، وعمل جسرا يصل الى القلعة.(٢)

بينما رمم في قلعة بعلبك بابها والدركاه. والى جانب القلاع المذكورة رمم قلعة بصرى، وحمص وجعبر.(٣)

تلا حملة هولاكو العسكرية حملة مغولية سنة ٦٧٩هـ/١٢٨٠م لكن ضررها لم يشمل كافة مدن الشام وانما اقتصرت على حلب بالذات، وقد اختلفت الروايات حول الأضرار التي سببتها هذه الحملة، فاحدى الروايات أوردت بأن الغزاة أحرقوا المدينة بالكامل بعد أن وجدوها خالية وهذه رواية لا يمكن قبولها وتصديقها، فمن غير المعقول أن تكون حلب قد تركها أهلها، واذا قبلنا هذا الكلام على علاته فكيف استطاعت معاهد حلب ومؤسساتها العلمية والدينية مزاولة النشاطات الطبيعية اثر خروج الغزاة.

وذكرت الروايات الأخرى أن الأماكن التي احترقت بالمدينة هي منبر الجامع الذي أحرقه ملك الأرمن اضافة الى الجامع الذي ظل خرابا حتى عمره سنقر نائب حلب، وكان المسؤول عن عمارته القاضي شمس الدين صفي الحلبي. وانتهى من عمارته سنة ٦٨٤هـ/١٢٨٥م والظاهر أنه لم يستكمل حتى جاء الطنبغا الصالحي فعمر الحائط الشرقي منه وخرب المغول المدارس، ودور الأمراء ودار السلطنة.(٤)

ولم تمض فترة طويلة حتى هاجم غازان بلاد الشام، وقد اعتبرت حملته العسكرية أعنف وأقوى حملة تعرضت لها المدن، فكانت أكثر وطأة من سابقتها. وقد أطنب المؤرخون في ذكر الأضرار التي لحقت بالمدن جراء هذه الحملة وكانت كل من مدينتي حلب ودمشق هي الأكثر تضررا، فقد أحرق المغول في حلب بعض معالمها الحضارية. أما في دمشق فقد كثرت الأضرار بالمدارس، والجوامع

---

(١) - ابن عبد الظاهر: تشريف، ١٩٤ - العمري: مسالك الابصار، ص١٢٠ - ابن شاكر: المصدر نفسه، ج١، ص١٦٩.

(٢) - اليونيني: المصدر نفسه، ج٣، ص٢٦٠ - ابن شاكر: المصدر نفسه، ج١، ص١٦٨ - ابن تغري بردي: النجوم، ج٧، ص١٩٥.

(٣) - اليونيني: المصدر نفسه، ج٣، ص٢٦٠ - ابن شاكر المصدر نفسه، ج١، ص١٦٩.

(٤) - ابن العبري: تاريخ مختصر، ص٥٠٣ - المنصوري: التحفة، ص٩٠ - اليونيني: المصدر نفسه، ج٤، ص٤٥ - اليافعي: المصدر نفسه، ج٤، ص١٤٨ - ١٩٠ - ابن حبيب: المصدر نفسه، ج١، ص٥٩ - ابن خطيب الناصرية: المصدر نفسه، ج١، ص٨١ - ابن الشحنة: المصدر نفسه، ص٦٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والأربطة والخانقاوات ،كما أدى حصار القلعة من قبل الغزاة الى هدم المساكن المحيطة بها خوفا من تسلق المغول الى سطح القلعة .

وكانت السلطات عاجزة عن تركيب واصلاح كافة المعالم التي تهدمت في حلب ودمشق جراء الغزو بسبب فداحة الأضرار ، فقد شارك بعض وجوه الخير في ترميم بعضها ، فقد ذكر النويري أن جامع التوبة جدده النائب أقوش الأفرم ، أما الشيخ زين الدين الفارقي (ت ٧٠٣هـ) فقد جدد دار الحديث.(١) ويلاحظ بأنه على الرغم من اسلام غازان فان جنوده أقدموا على هدم المساجد ودور القرآن والحديث والأربطة والزوايا التي بناها المماليك حكام بلاد الشام والمعروف عنهم أنهم المدافعين عن المذهب السني .

ان الدمار المريع الذى أحدثه حملة غازان مرتبط بالتركيب النفسي لغازان ، أو بتركيبة الجيوش والقوات المغولية ، التي لم تتغلغل العقيدة الاسلامية في نفوسها وانما اتخذوا الاسلام كمظهر دعائي ليكسبوا سكان المناطق التي يخضعونها الى جانبهم بعاطفة الدين .

ولم تكن الأضرار البشرية المادية الناجمة عن غزوة تيمورلنك لمدن الشام بأقل من سابقاتها بل كانت أكثر وطأة ، ففي مدينة حلب لحقت الأضرار بجميع المنشآت فيها . فقد دمرت أسوارها ورممها الناس سنة ٨٢٠هـ/١٤١٧م في أثناء حكم المؤيد شيخ والفترة الزمنية بين حملة تيمورلنك وترميم السور بعيدة جدا وتدل على عجز السلطات على الانفاق تحت ضغط الظروف السياسية والاقتصادية. على كل قام المؤيد بتسخير الناس للعمل في هذا المشروع وأمر بجمع الأموال منهم وفوّض العمارة لعلم الدين سليمان بن الحاني الوزير ، فأمر ببناء الأسوار من باب العراق الى باب الأربعين بناء محكما مع ترميم السور المواجه لخندق الروم فظلم سليمان الناس كثيرا وصادر أملاكهم واستعان بحجارة بعض الترب للترميم كتربة قيصر .

كما خرب الدور التي بنيت بالقرب من السور القديم.(٢)

(١) - المنصوري : التحفة ، ص ١٨٥ - النويري : المصدر نفسه ، ج ٣١ ، ص ٣٩٦ - ابن ايبك الدواداري : المصدر نفسه ، ص ٨١ - ٣١ - ٣٢ - ٤٠ - الذهبي : دول ، ج ٢ ، ص ٢٠٣ - ٢٠٤ - الصفدي : تحفة ، ج ٢ ، ص ٢٠٤ - ابن كثير : المصدر نفسه ، ج ١٤ ، ص ٩ - ابن خطيب الناصرية : المصدر نفسه ، ق ١ ، ص ٢٥٨ - المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ق ٣ ، ص ٨٩٥ - المقفى ، ج ٧ ، ص ١٧٢ - العسقلاني : الدرر ، ج ٢ ، ص ١٣٠ - ١٧٠ - العيني : المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ٣٨ - ٤١ - ج ٤ ، ص ٣٧ - ٤١ - ابن تغري بردى : المنهل ، ج ٢ ، ص ٢٩٤ - ٢٩٥ - ابن اياس : بدائع الزهور ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٤٠٤ - كرد علي : المرجع نفسه ، ج ٢ ، ص ١٣٥ .

(٢) - ابن خطيب الناصرية : المصدر نفسه ، ج ١ ، ورقة ٨ - ابن الشحنة : المصدر نفسه ، ص ٣٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بالنسبة للمدارس التي تعرضت للأضرار فبعضها اندثر نهائيا ولم يستطع أحد ترميمها كالمدرسة القطبية التي أنشأها سعد الدين مسعود بن الأمير عزالدين ايبك المعروف بقطبي عتيق عز الدين فرخ شاه ابن شاهنشاه بن أيوب صاحب بعلبك، وبعضها الآخر رممها العلماء كالمدرسة الناصرية، فقد أصلحها قاضي القضاة علاء الدين وهو خطيبها وابنه، وأقام بها الخطبة بعد اصلاحها. وهناك مدارس رممت ولم تذكر المصادر من الذي رممها ومنها الأتابكية، بينما اكتفت المصادر بذكر من درس بها وهو العلامة شهاب الدين بن أحمد بن البرهان، ولم تزل بيده حتى تنازل عنها لكمال الدين أبي الفضل محمد بن الشحنة.(١)

وظلت قلعة حلب بدون ترميم حتى أعاد بناءها الأمير جكم سنة ٨٠٩هـ/١٤٠٩م حيث ألزم الناس بالعمل في خندقها، وضرب من أجل اصلاحها أسواق كثيرة مثل سوق العزى، مكتب السلطان حسن، قنطرتين احداهما شمالي جمام الناصري مبنية كالحجارة الهرملية، والأخرى غربي السابقة عند طرف سوق الخيل، كما بنى البرجين الموجودين علويا بالقلعة الفوقاني، وبني قصرا على سطح البرجين، لكنه لم يستطع أن يسقفه التصرف فظل على حاله حتى أمر بسقفه المؤيد شيخ فيما بعد حيث قطعت له الأخشاب من دمشق وقيل من بعلبك.(٢)

لقد زادت هذه الضغوط المالية حياة سكان البلاد سوءا، فمنهم فقدوا معظم أموالهم الذهبية والفضية أثناء الاجتياح ومن بقي معه شيء يسير يعيش به استخلصه منه الحكام الاداريون لاعادة الحياة الطبيعية الى ماكانت عليه قبل الاجتياح وبالطبع فان ذلك سيؤدي الى نزوح الكثير منهم الى جانب حدوث المجاعات، ازدياد اللصوصية والسرقات واستشراء انتشار المفاسد الاجتماعية الاخرى كالخمور والبغاء وغيرها وهذا ماعاد بالضرر الكبير على بلاد الشام.

كما أن الخسائر الفادحة التي لحقت بالمباني والدور كانت أقل عليا من الخسائر العلمية والثقافية والديمغرافية التي حصلت جراء الاجتياح فقد شهدت المدارس تعطلا في مسيرة الحياة العلمية وشهدت الجوامع والأربطة هجرة قاطنيها الى أماكن أكثر استقرارا وأمنا وبالتالي شهدت المدن تغيرا في عمرانها الهندسي وبنيتها الاجتماعية، فقد ظلت النار مشتعلة بمدينة دمشق ثلاثة أيام

---

(١) - ابن الشحنة: المصدر نفسه، ص ٧٢- ٧٣ - ١١٣- ١٢٠ .

(٢)- ابن الشحنة: المصدر نفسه، ص ٥٧- ٥٨- الصيرفي: نزهة النفوس، ج ٢، ص ٢٣٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

حتى قضت على معالمها ، فاحترق فيها الجامع الأموى الذى تحيرت العقول في تكوينه وجمال زخارفه وحسنه والذى لايماثله بروعة التكوين مسجداً آخر. وسقطت سقوفه وخربت أبوابه وانتزع رخامه ، كما احترقت أكثر مساجد دمشق وقياسرها ودورها وحماماتها وقلعتها. (١)

حيث حاصر المغول القلعة وأحضر تيمورلنك المهندسين لمعرفة مكان الاقنية المحيطة بها لعلهم يعثرون على المنفذ ، فتناظروا كثيرا ولم يحصلوا في البداية على نتيجة ، لكنهم استطاعوا في النهاية من صرف الماء المحيط بها ، وقاموا بقذفها بالمنجانيق التي بلغ تعدادها مايقارب الستين منجنيقا اضافة للعرادات والنفوط ، حتى سقطت بعد حصار دام شهرين أو أقل وتحديدا في ثلاثة وأربعين يوما وقد هدم المغول جميع الدور المحيطة بها من الجنوب والغرب. (٢)

حولت الغزوة دمشق الى رقعة كبيرة من الخراب فاستحال على سكانها العيش بداخلها ، فبنوا في ظاهر الأسواق وفي الغوطة دورهم من جديد وذلك لكثرة الخسائر في المدينة واستحالة اعمارها بالوقت الحاضر نتيجة الحالة السيئة التي كان يعيشها السكان، (٣) فقد ذكر نقولا زيادة ان حيا علو مقربة من باب القديس بولس لم يرمم بعد وهذا نقلا عن الرحالة دولا بروكييه. (٤) لقد وقع على كاهل السكان اصلاح ماتخرب في المدينة نتيجة العجز المالي للسلطات ، فأعادوا بناء المدرسة القليجية التي تقع شمال الصادرية والتي بقيت خربة حتى سنة ٦٩٤هـ/١٢٩٤م وذكر ابن قاضي شهبة بأنه في سنة ٨١٤هـ/١٤١١م أذن في المنارة الغربية فيها لأول مرة ، بينما أعيد بناء المدرسة الجقمقية الواقعة شمال الجامع الأموى سنة ٨٢١هـ/١٤٠٠م (٥) وتم اعمار الشامتين من قبل الشيخ خليل بن عبد الوهاب بن سليمان بن محمد بن أحمد بن أبي بكر صلاح الدين الأنصارى (ت ٨٢٤هـ). (٦)

(١) . ابن خلدون ، التعريف ص ٣٧٣ - المقريزى : السلوك ، ج ٣ ، ق ٣ ، ص ١٠٥١ - ابن تغرى بردى : النجوم ، ج ١٢ ، ص ٢٤٤ - ٢٤٦ - ابن عربشاه ، عجائب المقدور ، ص ٢٨٥ - ٢٦٦ - ابن اياس : المصدر نفسه ، ج ١ ، ق ٣ ، ص ٦١٦ - ٦١٧ - العلبي : تيمورلنك ، ص ١٨٦ - ١٨٧ - لامب : المرجع نفسه ، ص ١٢٥ - عبد السيد : المرجع نفسه ، ص ١٤١ - كرد علي ، المرجع نفسه ، ج ١٢ ، ص ١٧٢ - منقريوس : تاريخ دول ، ج ٢ ، ص ٢٩٤ .

(٢) - ابن خلدون : المصدر نفسه ، ص ٣٧٣ - ابن عربشاه : المصدر نفسه ص ٢٩٦ - ٢٧١ - ابن اياس : المصدر نفسه ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٦١٣ - زيادة : دمشق ، ص ٩٩ - العلبي : تيمورلنك ، ص ١٧٧ - ١٧٩

(٣) - المقريزى : السلوك ، ج ٣ ، ق ٣ ، ص ١٠٨٢ - ابن اياس : المصدر نفسه ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٦٤٦ - العلبي : تيمورلنك ، ص ١٩١ .

(٤) - زيادة : المرجع نفسه ، ص ٩٧ .

(٥) - العلبي : المرجع نفسه ، ص ١٩٢ .

(٦) - السخاوى : المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ١٩٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وتبنى السكان اصلاح دار السعادة والجامع الأموي.(١) وأصلح الأمير شاهين الشجاعي المؤيد شيخ سنة ٨١٢هـ/١٤٠٩م جامع التوبة من ماله الخاص.(٢) كما جدد الطواشي مرجان خزندار الأمير شيخ مسجد المزاز، اضافة الى ترميم مسجد القليجية من قبل الشيخ أحمد سليمان وكان المسجد في سوق التبن موضع دار الفلوس، ثم دارا للأمير سيف الدين محمد جلبي، فلما أتم الشيخ عمارها جعلها زاوية عام ٩٧٠هـ/ ١٥٦٢م.(٣)

ومن المفيد التساؤل عن المصدر المالي الذي استخدمه العلماء أو الفقهاء لترميم واصلاح هذه المنشآت، هل كانت هذه من أموالهم الخاصة التي خبؤوها أثناء الغزو؟ أم حصلوا عليها من تنمية ريع الأوقاف لهذه المنشآت؟ ثم اصلاحها، هذا السؤال تبقى الاجابة عليه غامضة اذا لم تثبت المصادر ذلك.

ب: نفقات الدولة على التجنيد العام والحملات العسكرية:

- تعددت نفقات الدولة المملوكية منها النفقات على مشاريع ترميم المنشآت التي خربها المغول والنفقات على الحملات العسكرية وما تستلزمه الجيوش من العتاد والاسلحة والتي شكلت مصدرا من مصادر خسارة الخزينة المملوكية.

لقد تعددت المصادر التي مولت الحملات العسكرية، وأولها السلطات المملوكية، فالسلطة مسؤولة عن الانفاق على الجند والأمراء سواء الذين تولوا محاربة المغول أو الذين كلفتهم السلطات بمهمات حربية خارج حدود بلاد الشام.(٤) فأعطت الجنود رواتب من الخزينة وسميت الجامكية.(٥) أما الأمراء فقد حصلوا على الاقطاعات. ولم تقتصر النفقات على الأموال النقدية بل شملت الأشياء العينية كالخلع والتشاريف.(٦) كما كانت السلطات المملوكية مسؤولة عن تدريب الجيش في الحرب والسلم وعن تزويده بالعتاد والأسلحة والخيول وعن استتباب الأمن الداخلي في البلاد وهذا يحتاج الى قوات عسكرية كبيرة ونفقات باهظة لذلك فمن المرجح أن تكون السلطات المملوكية

---

(١) - المقريزي: السلوك، ج٣، ق٣، ص١١٠٠ - العسقلاني: انباء، ج٥، ص٨٦ - العيني: المصدر نفسه، ص١١١ - تحقيق عبد الرزاق الطنطاوي.

(٢) - النعيمي: الدارس، ج١، ص٣١٣.

(٣) - ابن عبد الهادي: ثمار المقاصد ص٢٥٣ - ٢٤٦.

(٤) - المنصوري: التحفة، ص٣٠١ - أبو الفداء: المصدر نفسه، ج٤، ص٤٢ - ابن كثير: المصدر نفسه، ج١٣، ص٣٢٧ - ابن الفرات: المصدر نفسه، ج٨، ص١٣٦ - ١٣٧ - المقريزي: السلوك، ج١، ق٣، ص٧٧٧ - العيني: المصدر نفسه، ج٣، ص١١١ - ابن تغري بردي: النجوم، ج١١، ص١١٠.

(٥) - الجامكية لفظ فارسي مشتق من جامة بمعنى اللباس، أي نفقات أو تعويض اللباس الحكومي، وقد ترد بمعنى الأجر والراتب أو المنحة، انظر دهمان، معجم الالفاظ التاريخية، ص٥١.

(٦) - ابن عبد الظاهر: الروض، ص٢٢٧ - عاشور: العلاقات، ص٨٧ - ٨٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

قد فرضت على الموظفين الاداريين ضريبة دائمة من أجل اعانة القوات المسلحة - ما يسمى حاليا بالمجهود الحربي - تقطع من رواتبهم بانتظام.

وكان المصدر الآخر للنفقات على الحملات العسكرية هو الأمراء وقد أفادنا المؤرخون بأن بعض الأمراء أنفقوا من أموالهم الخاصة بينما يعتقد بأن الآخرين منهم قد فرضوا الضرائب.

وكان أبرز الأمراء الذين تبرعوا من أموالهم الخاصة للانفاق على الجيش طيبرس الوزيرى، فقد أوصى عند موته بثلاثمائة ألف، تصرف للجند الضعفاء بالشام ومصر عند موته، فحصل كل جندى على خمسين درهما.(١)

وتدعمد الأمير سلار سنة ٧٠٨هـ/١٣٠٨م الى الانفاق من ماله الخاص على الجيش المتجه الى حلب لصد المغول فقد تبرع بأربعة آلاف غرارة من القمح وثمانين ألف درهم وربما قصد من وراء ذلك الارتقاء الى منصب أعلى.(٢)

أما المصدر الثالث للنفقات على الحملات العسكرية فهم المقطوعة المدنيون من السكان الذين قاتلوا لجانب أفراد الجيش، فمن المرجح أنهم تحملوا جزءا من النفقات كون بعضهم من التجار والصناع والحرفيين وأصحاب أموال. فقد أسهبت المصادر في نقل الصور الحية لنشاط السكان أثناء قدوم الغزاة فعند قدوم غازان لدمشق حرض الفقهاء الناس على القتال، واجتمعوا على الاسوار لحفظها لكن الأمان الذى أعطي لهم أطفأ جذوة حماسهم، وهدأت نفوسهم قليلا بعد رحيل القائد المغولي عن المنطقة، فأمر النائب أقش الأفرم سكان دمشق بتعليق الأسلحة في الحوانيت كما أمر بالرمي والتهيوء للحرب، وجلس لعرض الناس فاستعرضهم طائفة بعد أخرى. وعملت الاماجات(٣) في المدارس استعدادا للحرب، كما استعد أهل الأسواق للقتال فعين لكل سوق مقدم ومعه جماعة.(٤)

كما فرضت السلطات القطوع الالزامي للمدنيين سنة ٧٠٠هـ/١٣٠٠م لما تقدم العدو نحو البيرة فاستعرضت الجيوش في دمشق فعرض نحو خمسة آلاف بالعدة والأسلحة على قدر طاقتهم.(٥)

---

(١) - العيني : المصدر نفسه، ج ٣، ص ٤٩.

(٢) - المقريزى : السلوك، ج ٢، ق ١، ص ٥٥ - ٥٦.

(٣) - اماج : الهدف الذى يرمى اليه السهم، ويجمع على اماجات. انظر دهمان : معجم الالفاظ التاريخية، ص ٢٠.

(٤) - ابن كثير : المصدر نفسه، ج ١٤، ص ١٢ - ١٣ - ابن حبيب : المصدر نفسه، ج ١، ص ٢٢٣ - المقريزى السلوك، ج ١، ق ٣، ص ٩٠٣ - دهمان : ولاة، ص ١١٢ - ١١٣.

(٥) - ابن كثير : المصدر نفسه، ج ١٢، ص ١٤ - ١٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وعند تقدم تيمورلنك باتجاه حلب خرج سكانها الى ظاهر المدينة والتقوا طلائع جيشه وظلت المناوشات بينهم حتى دخول المغول للمدينة.(١)

كما أبدى أهل دمشق استعدادا للقتال بسبب تحريض الفقهاء للناس، وبسبب الخوف الذي سيطر عليهم اثر سماعهم بالمجازر الوحشية المرتكبة في حلب، لذلك عسكروا على الاسوار وتراموا مع جند تيمورلنك فأخذ عدة من خيولهم، وقتلوا نحو الألف، حتى أرسلوا القاضي ابن مفلح للتفاوض معه.(٢)

هؤلاء المدنيون شكلوا عبئا اضافيا على النفقات حيث كانت موارد الدولة قليلة والنفقات كبيرة لذلك قامت الدولة بفرض الضرائب - (ينظر فقرة الضرائب) - فمثلا في سنة ٧٠٢هـ/١٣٠٢م أوكلت السلطات الى الأمراء عند اقتراب العدو من مرعش بالانفاق على العسكر، حيث يدخل الربع في عدته. ويضيفهم الى جماعته، كذلك فرضت على أهل البوادي والمدن خيالة ويقوم هؤلاء بالانفاق عليهم من أموالهم.(٣)

أما مقدار الأموال التي انفقت فقد كان كبيرا جدا ففي سنة ٦٧٤هـ/١٢٧٥م أنفق السلطان مايزيد عن ستمائة ألف دينار عندما علم بقدوم جيش مغولي بقيادة الأمير بطاي، لكن جيش العدو لما سمع بتحرك العساكر الاسلامية غادر المنطقة فورا باتجاه بلاده.(٤)

ولما وردت الأنباء بقدوم القائد المغولي غازان نحو المنطقة استعرض السلطان الجند في دمشق وأنفق على العسكر فأعطى لكل فارس مابين ثلاثين الى أربعين دينارا لكنها لم تكن كافية بسبب غلاء الأسعار ولم ينفق الجنود هذه الأموال في التسليح أو شراء الحاجيات، وانما في شراء احتياجات الطعام وقد وصف العيني ماكان يقوله الجنود عند ما أخذوا هذه النفقات:

« كان كل واحد بينهم يأخذ النفقة من يده ويقلبها ويقول: اش اشترى اليوم بهذا؟ فوالله لأخليها حتى يأخذها التتار. فان الأشياء من سائر الأصناف تحسنت وغلت جدا خصوصا الدواب وآلات الحرب وكان الجندي منهم يقول: اش بقي اما ثلاثة أيام، أو أربعة؟ فنحن أحق بالذي

---

(١) - المقريزي: السلوك، ج ٣، ق ٣، ص١٠٢٢ - ابن تغرى بردى: النجوم، ج ١٢، ص٢٢٢-٢٢٧ - ابن اياس: المصدر نفسه، ج ١، ق ٢، ص٥٩٧-٥٩٩.

(٢) - المقريزي: السلوك، ج ٣، ق ٣، ص١٠٣٥-١٠٤٦ - ابن اياس: المصدر نفسه، ج ١، ق ٢، ص ٦١٠ - عبد السيد: دولة المماليك الثانية ص١٣٩-١٤٠ - الحلبي: تيمورلنك، ص١٥٧-١٥٨

(٣) - العيني: المصدر نفسه، ج ٤، ص٢٠٨.

(٤) - ابن شداد: تاريخ الظاهر، ص١٢٧ - المنصوري: المصدر نفسه، ص١٨١ - النويري: المصدر نفسه، ج٣١، ص٢١٩ - الذهبي: دول، ج ٢، ص١٧٥ - ابن كثير: المصدر نفسه، ج ١٣، ص٢٦٩ - ابن الفرات: المصدر نفسه، ج ١، ق ٢، ص١٢١ - ابن الطباخ المصدر نفسه، ج ٢، ص ٢٦٤ - عاشور: المرجع نفسه، ص١٠٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

نشترى به ، ومنهم من كان يقول : لعن الله من ينظر الى فرجة العدو ، فوقع في نفوس الناس الخذلان والانكسار سلفا وتعجيلا)) . (١)

وسلم السلطان كل نائب من نواب الشام نفقة عسكره ، فسلم الى الأمير جمال الدين آقش الأفرم نفقة عسكر الشام ، والى الأمير سيف الدين الطباخي نفقة عسكر حلب ، وسلم نفقة عسكر صفد الى كراى المنصوري ، ونفقة عسكر طرابلس الى شرف الدين الدواداري ، ثم الى الأمير سيف الدين قطلبك وكانت النفقة في الجيوش ذهبا . (٢)

أما سبب اعطاء النفقة من الذهب رغم قلة كميته عن السابق فهي على الأرجح أن السلطات المملوكية عمدت الى ايهام العدو بتماسك البلاد الاقتصادي والعسكري ، ولاستقطاب أعداد كبيرة من المتطوعين للقتال ضد العدو ، وبسبب الغلاء وارتفاع الأسعار الذي نتج عن انخفاض في القيمة الشرائية للنقود .

وخشي السلطان مرة أخرى من رجوع العدو بعد رحيله فأنفق مرة أخرى على الجيش وقسم الحلقة حسب النفقات الى ثلاثة أقسام ، القسم الأول أعطاه (لكل شخص) ثمانين دينارا ، القسم الثاني خمسة وسبعين دينارا ، الثالث خمسة وستين دينارا ، كما أعطى السلطان أجناد الشام كل شخص عشرة دنانير ذهبا وعشرة أرادب شعيرا وعشرة أرادب قمحا ، ثم أنفق على المقدمين كل واحد خمسين دينارا اضافيا بينما ذكرت مصادر أخرى أن الانفاق كان حسب المقام . (٣)

وفي سنة ٧٠٠هـ/١٣٠٠م نال الفارس ستمائة درهم عندما وردت الأنباء بتحركات غازان نحو المنطقة ثانية وقد تحمل سكان دمشق جزءا من هذه النفقات حيث استخرجت الأموال من الأملاك والأوقاف وأصحاب البساتين وكانت الأموال ثلث أموال الأغنياء . (٤)

وعند هجوم تيمورلنك أنفق على الجيش سواء الشامي أو المصرى فقد بلغ مقدار ما أعطي لكل شخص ألفا درهم ، وكل واحد من المستخدمين ألف وسبعمائة درهم وكانت جملة المنفق عليهم خمسة آلاف نفر ، وقيل ان السلطان أعطى مماليكه عند الخروج أربعة عشر ألف جمل وألفين وخمسمائة فرس

(١) - العيني : المصدر نفسه ، ج ٤ ، ص ٨ - ٩ .

(٢) - المنصوري : التحفة ، ص ١٥٦ - ١٥٧ - النويري : المصدر نفسه ، ج ٣١ ، ص ٤٠٢ - المقريزي : السلوك ج١ ، ق ٣ ، ص ٨٨٥ - المقفى ، ج ٧ ، ص ١٦٨ - طه بدر : مغول ايران ، ص ٨٦ .

(٣) - العيني : المصدر نفسه ، ج ٤ ، ص ٧١ - ابن اياس : المصدر نفسه ، ج ٢ ، ق ١ ، ص ٤٠٥ - ابن الطباخ : المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٢٨٣ - ٢٨٤ .

(٤) - أبو الفداء : المصدر نفسه ، ج ٤ ، ص ٤٦ - ابن الوردي : المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٣٥٦ - ابن كثير : المصدر نفسه ، ج ١٤ ، ص ١٤ - المقريزي : المقفى ، ج ٧ ، ص ١٧٦ - العيني : المصدر نفسه ، ج ٤ ، ص ١٢٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

تحمل قسطا منها بالطبع سكان الشام.(١) وبمجرد سقوط حلب أمام هجوم تيمورلنك بدأت السلطات توزع النفقة على الجيش، فأخذ كل مملوك ثلاثة الاف وأربعمائة درهم. وكل مقدم ألفا وثمانين درهما الى مائة وعشرين ألف، وكل طلبخاناه عشرين ألفا، وكل أمير عشرة آلاف درهم.(٢)

نلاحظ من سياق البحث بأن السلطات أكثرت من الانفاق لتحقيق عدة أهداف، منها:

- تشجيع الجنود وقت الحرب واذكاء روح الحماسة لديهم، فالجندي الذي يعطى امتيازات كبيرة يصبح لديه دافعا كبيرا للقتال أقوى من الذي يجبره على الدفاع دون مقابل.

ففي سنة ٦٥٨هـ/١٢٥٩م أنفقت السلطات على الجيش الفارين وجه هولاكو وزودتهم بالحيوانات كالخيول والجمال لاذكاء روح الحماسة لديهم وخوفا من فرار القسم المتبقي في ساحات القتال.(٣)

- والهدف الآخر هو محاولة المساواة المادية بين الجيش المملوكي وجنود المد والمغولي، حيث ضم جيش المغول فئات مختلفة من أرمن وكرج وغيرهم وأكثرهم مرتزقة جند هم المغول للقتال وأغدقوا عليهم الأموال لتشجيعهم على القتال، وهذا ما دفع بالسلاطين لاكثار النفقات على الجنود حتى يستطيعوا مواجهة الأعداء.

وأخيرا نقول ان الاجتياح المغولي لبلاد الشام أجبر السلطات على الانفاق لترميم المنشآت التي خربها المغول وعلى التجنيد العام وهذا أدى لانخفاض أموال الخزينة العامة نتيجة كثرة النفقات كما عانى معظم السكان من الفقر والمجاعات والنزوح ومشاكل اجتماعية كثيرة ولم تستطع بلاد الشام بسببها الوقوف أمام الدولة العثمانية فرزحت تحت احتلالها وبعد أن كان العرب هم الفاتحون لمعظم بلاد العالم فقد احتلوا من قبل دولة ليست بمستوى الحضارة العربية بل دونها بكثير.

---

(١) - ابن قاضي شهبة: المصدر نفسه، ج١، ق٣، ص٥٠٧.

(٢) - المقريزي: السلوك، ج٣، ق٣، ص١٠٣٥ الصيرفي: نزهة النفوس، ج٢، ص٧ - ابن اياس: المصدر نفسه، ج١، ق٢، ص٦٠٠.

(٣) - ابن طولون: المصدر نفسه، ص٣١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

-(الفصــــــل الخامـــس) -

xx:xx:xx:xx:xx:xx:xx:xx:xx:xx:xx

- آثار الحملات العسكرية المغولية على الصناعة .
- آثار الحملات العسكرية المغولية على التجارة الداخلية والخارجية .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

(١) - آثـار الحملات العسكرية المغولية على الصناعة :

- يتعلق ازدهار الحياة الاقتصادية بالمناخ السياسي والاجتماعي المستقر، وهذا المناخ افتقدته بلاد الشام في فترة البحث نتيجة للغزو المغولي المتكرر الذى ساهم الى حد بعيد في عرقلة مسيرة تطورها وازدهارها الاقتصادى .

ومما يؤسف له أن المعلومات التي يمكن استخلاصها من المصادر عن الصناعة والحرف والمستهلكين والمنتج شبه معدومة . وبينما زخرت المصادر التاريخية بالاخبار السياسية عن الاجتياح المغولي للبلاد نراها شحت في ايراد الاخبار الاجتماعية والاقتصادية وعلى الأخص الأخيرة منها .

ان اغفال المؤرخين لذكر أوضاع الصناع والصناعات والحرف اثر الاجتياح وضع نصب أعيننا معضلة لم يتطرق اليها أحد من الباحثين بالدراسة والتنقيب ، وهذه المعضلة تتلخص بتساؤلات عديدة تتضمن أثر الهجوم المغولي على الصناعة في البلاد ، هل اندثرت الصناعات أم بقيت مستمرة ؟ ماهي الصناعات التي استمر انتاجها بعد انتهاء موجات الغزو؟ ماذا حصل للمستهلك والمنتج ؟

ان هذه التساؤلات لا توجد لها اجابات مباشرة في المصادر ، لذلك يمكن استخلاص الاجوبة عن طريق الافتراضات والتوقعات من خلال استعراض للتاريخ السياسي وايجاد القرائن والمعطيات لها .

والواقع ان بناء المجتمعات الاقتصادية يكون باقامة توازن بين جميع القطاعات المنتجة ، فان أصاب احدى هذه القطاعات خللا فان المنتجين سيعمدون الى استثمار أموالهم في القطاعات الباقية ، وان أصاب أحد الميادين دون الآخر نجاحا مرموقا فهو سيؤثر سلبا على الاستثمارات في الميادين الأخرى . ان رعاية القطاعات الاقتصادية تتطلب ادراكا عميقا ودراية وحكمة ، والا فالخلل لا بد حاصل وبالتالي فان الانحطاط قد يشمل جميع الميادين الاقتصادية .(١)

واذا ماقسنا هذه النظريات على واقع بلاد الشام نجد أنها تطابقه ، ذلك أن الخلل أصاب جميع القطاعات الاقتصادية من جراء الغزو المغولي ، فعلى الصعيد الزراعي تعرض معظم الفلاحين للقتل والنهب وأجبروا على النزوح تحت ضغط الظروف الامنية والاقتصادية ، كما تعرضت معظم المزروعات للتخريب والتدمير . وتطرق الخلل بالطبع الى القطاع الصناعي والحرفي نتيجة لقتل أكثرية العاملين به الى جانب فقدان الرساميل الصناعية التي تفذيه وتنمية وذلك اما بنقلها الى خارج البلاد أو بمصادرتها من قبل السلطات للانفاق على الحملات العسكرية ، أو نهبها من قبل

---

(١) - ضوط : المرجع نفسه ، ص ١٥٣-١٥٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المغول أنفسهم . ناهيك عن أن معظم الحرفيين والصناعيين تعرضوا عقب هجوم تيمورلنك للأسر فقد اقتيدوا الى خارج البلاد مما كان له أثر كبير على ضعف الحرف والصناعات بعد أن افتقدت ركائزها الأساسية والمتمثلة بالأموال واليد المنتجة .(١)

ومن خلال استعراض منظومة الحوادث التاريخية يلاحظ بأن المغول كانوا ينهبون الأموال أولا ، ثم ينزلون أقسى العقوبات بالسكان ، ولم يميز الغزاة بين الصناع والتجار والشرائح الاجتماعية الأخرى بل كان القتل من نصيب الجميع وهذا مالوحظ أثناء حملة هولاكو وغازان وتيمورلنك ، باستثناء أنه تيمورلنك أقدم أثناء اجتياحه لبلاد الشام بأسر العلماء والأدباء والصناع والحرفيين من حمص وحماه وحلب ودمشق وطرابلس ومدن أخرى غيرها . وهنا لابد من طرح تساؤل لماذا أقدم تيمورلنك على أسر الصناع والحرفيين في بلاد الشام ؟ .

من الممكن القول بأن المغول وحسب ماوصفهم معظم الباحثين رعاة لا حضارة لهم،(٢) لذلك فهم يجهلون معظم الصناعات والتقنيات الحرفية ، ولا يتوفر عندهم أي وسائل أو معدات صناعية متطورة تماثل ماتمتلكه البلدان والمناطق التي غزوها ، فلم يكن أمامهم الا أسر هؤلاء الصناع من معظم المناطق التي هاجموها وخاصة من الهند وبلاد الشام . لذلك اقتيد معظم الصناع والحرفيين في بلاد الشام كأسرى الى بلاد المغول ، وقد ذكر بارتولد في كتابه تاريخ الحضارة الاسلامية بأن قوافل الصناع وأرباب الحرف الأسرى كانت تسير الى جانب الجيوش المغولية .(٣)

وقد عدد المؤرخ ابن عربشاه أصناف الحرفيين الأسرى فقال :

((وأخذ من دمشق أرباب الفضل وأهل الصنائع ، وكل ماهر في فن من الفنون بارع ، من النساجين والخياطين والحجارين ، والنجارين ، والاقباعية ، والبياطرة ، والخيمية ، والنقاشين ، والقواسين ، والباذداريه ، وفي الجملة أهل أي فن كان وجمع كما ذكر السودان)) .(٤)

ان هذا النص يدل دلالة قاطعة على أن تيمورلنك اكتفى بأسر الصناع المهرة من جميع الفنون ولا بد أنه بقي من أهل كل صناعة مجموعة قاموا بمهمة التصنيع فيمابعد ، ويدل النص على الحاجة الماسة للمغول لمثل هذه الحرف والصناعات . اذا بقي معظم الصناعات رغم رحيل صناعها ، لكنها عانت من التدهور والانحطاط .

---

(١) - العيني : المصدر نفسه، ص ٢٧٥ - ج ٤ ، ص ١٥٢ .

(٢) - الصياد : المغول في التاريخ ، ص ٢٢٤ - ٢٢٥ .

(٣) - الهمذاني : جامع التواريخ ، ج ٢ ، ق ١ ، ص ٢٣٥ - بارتولد : تاريخ الحضارة الاسلامية ، مصر ، دار المعارف ، الطبعة الرابعة ، ١٩٦٦ ، ص ١٢٧ - شهاب : الدولة الايلخانية ، ص ٢٥٢ .

(٤) - ابن عربشاه : عجائب المقدور ، ص ٢٩٣ - ٢٩٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولم يقتصر الأسر على رجال الصناعات والمهن اليدوية فقط، بل شمل رجال الصناعات الفكرية كالأطباء والعلماء والقراء والقضاة. ومن أبرز الأشخاص الذين اقتيدوا أسرى رئيس الأطباء جمال الدين، وشهاب الدين أحمد الزرد كاش، كان في حدود التسعين وقد قابله تيمورلنك بالسخط وقيده بقيد فوق ركبتيه زنته سبعة أرطال ونصف بالدمشقي، وقصد بذلك التشديد عليه، وقاضي قضاة الحنفية محي الدين بن العز وولده القاضي شهاب الدين أبو العباس، وقاضي قضاة الحنفية محمود بن القاضي نجم الدين وأخيه بهاء الدين محمد الشهيران بابني الكشك، وقاضي القضاة شمس الدين النابلسي الحنبلي، وقاضي قضاة الشافعية صدر الدين المناوي، وشهاب الدين أحمد بن الشهيد الذي عاد الى دمشق فيما بعد، برهان الدين بن القوشة، يلبغا المجنون وقد ولاه تيمورلنك نيابة مدينة تدعى كانيكي كلاس، ولم يطلق من أسره الا الشرف موسى الأنصاري، والكمال ابن العديم، وابن الشحنة وجماعة معهم.(١)

وسمح لهؤلاء الأسرى في بعض الحالات اصطحاب زوجاتهم وأولادهم، وقد أوردت المصادر التاريخية وفاة عدد من هؤلاء الاسرى في منفاهم كأبي بكر بن الجندي الساعاتي، والشيخ عثمان الانصاري الكركي وجماعة كثيرة وذلك سنة ٨٠٤هـ/١٤٠١م.(٢)

وتشجيعا للأسرى بنى تيمورلنك لذوي المهن والصناعات مستعمرات عمالية كبيرة حول سمرقند زاول فيها هؤلاء نشاطاتهم ومهاراتهم ضمن مجموعات منظمة تشبه النقابات، وقد تمتعوا من خلالها بكافة الحقوق والامتيازات ماعدا حق العودة. وقد استخدمهم تيمورلنك في اصلاح بلاده وخاصة سمرقند عاصمة ملكه، وأسمى تيمورلنك القرى التي أنشأها حول سمرقند بأسماء المدن الكبيرة التي اجتاحها كدمشق وشيراز والسلطانية. ولم تقتصر الاقامة على أسرى بلاد الشام فقط بل على الصناع الأسرى الذين جلبهم من الهند والذين ساهموا الى حد بعيد في بناء معظم المنشآت العمرانية وخاصة جامع الملك.(٣)

لا شك أن الضرر الذي أحدثته حملة تيمورلنك العسكرية على صعيد القطاع الصناعي كان كبيرا جدا، غير أنه لم يكن على نفس المستوى بالنسبة لمناطق الشام، فعلى سبيل المثال لم تتضرر صفد أوالقدس

---

(١) ـ ابن خطيب الناصرية: المصدر نفسه، ج١، ورقة ٣٥٣ - ابن عربشاه: المصدر نفسه، ص١٠٣ - ابن تغري بردي: المنهل، ج٤، ص١٣٧ - الصيرفي: نزهة النفوس، ج٢، ص٢٠٩ - الحلبي: تيمورلنك، ص١٨٨ - ١٨٩ - لامب: تيمور، ص١٢٦ - شهاب: تيمورلنك، ص١٢٠ - ١٢١ - شكري علي: المرجع نفسه، ج٢، ص١٧٤.

(٢) - ابن اياس: المصدر نفسه، ج١، ق٢، ص٦٤٥.

(٣) - شهاب: المرجع نفسه، ص٤٢٠ - بارتولد: المرجع نفسه، ص١٣٩ - لامب: المرجع نفسه، ص١١٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أو بيروت من الغزو مثلما تضررت دمشق أوحلب أوحمص. فالبعض من هذه المناطق تتابع فيهـا العمل الصناعي ولم تتعرض الا للغرامات. على كل ساهم غزو تيمورلنك لبلاد الشام على اختفـاء صناعة الزجاج[1]، ومن المؤسف أنني لم أعثر بين المصادر والمراجع الاعلى اختفاء هذه الصناعة، ولو اختفت غيرها لذكرذلك. ولكن يمكن القول بأن الصناعات الباقية تعرضت للتدهور والانحطاط لعدة أسباب الأول، انعدام الرساميل الصناعية والتجارية التي سببت عدم استيراد المواد الخام الأساسية للصناعات المحلية، خصوصاً أن معظم الصناعات المشهورة كانت تعتمد على الموارد المستوردة كالحديد والنحاس والذهب والسبب الثاني فقدان اليد العاملة في الصناعة بسـبب النزوح أوالقتل أوالأسر.

ولا بد أن الاسباب المذكورة فيما مضى أثرت على جودة الصناعة العلمية والفنية والحرفية واتقانها، فالصناع والحرفيون يمثلون شريحة قليلة من المجتمع، وبتعرض هذه الشريحة لأضرار الاجتياح المدمر قاد بالنتيجة الى خسارة العقول المبدعة في هذه الشريحة، وهذا ماأثر على جودة الصناعات وعدم اتقان صنعتها، وتراجع حقيقي في المستوى الفني لها وخاصة اليدوية منها.[2]

ان الغزو المغولي أدى الى اضعاف الصناعة بشكل عام غيرأن حملة تيمورلنك العسكرية كانت الأكثر أثرا لا سيما بعد أن أكد المؤرخون بأن مدينة حلب ودمشق تعرضت للخراب والدمار الكامل اثر اضرام النارفيها وهذا يعني أن الورشات الصناعية والأسواق التي كانت مكانا لتجمع الصناعات قد فقدت نتيجة الحريق معدات العمل والمواد الخام المستهلكة في أثناء العمل. وكان طبيعيا أن يؤدى ذلك الى تضخم وعجز في الميزانية الحكومية، ومن الخطأ اعتباره مصدر الضعف الشامل للحرف والصناعات في القرن التاسع الهجرى / الخامس عشر الميلادى، بل ساهم الانحطاط الزراعي وسوء التخطيط الاقتصادى الى جانب هذه العوامل في ضعف الصناعة وانخفاض الايرادات المملوكية الذى جرفي ذيله انكماشا وبعدا عن رعاية الحرف الكمالية.[3]

وأدى انعدام وجود المستهلك من جراء الغزو الى تدهور الانتاج الصناعي، فالقتل والأسر والنزوح لمعظم المستهلكين أدى الى عدم الاقبال على شراء المنتجات الصناعية والحرفية اليدوية، مما سبب ركودا في حركة الأسواق وكسادا تجاريا وخسارة لمعظم العاملين في الحقل الاقتصادى.

(١) عبد السيد : المرجع نفسه، ص ١٤١.
(٢) - العيني : المصدر نفسه، ج ١، ص ٢٧٥ - ج ٤، ص ٥٢ - ١، الشوكاني : البدر الطالع، ج ٢، ص ٢٥٧ - ٢٥٨ - زيادة : دمشق، ص ١٠٧.
(٣) - لابيدوس : المرجع نفسه، ص ٦٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فالملاحظ أنه كلما ازداد عدد السكان كلما ازداد الطلب الذي يسرع في عملية الانتاج وفي التشجيع وتثمير روءوس الأموال الصناعية .

ومن المرجح ولا نستطيع الجزم بأن الهجوم المغولي قد ساهم في تطوير وتقدم الصناعة المتعلقة بالجيش من ثياب وسلاح وعتاد ، فاحتمال غزو البلاد باستمرار دفع السلطات الى الحرص على توفير عدد كبير من الصناعيين والموظفين الاكفاء المتعددي الاختصاصات لخدمة دور السلاح والنهوض بمسوءولياتها .(١)

وكان يطلق على صناع السلاح اسم الزردناشية ، ولم تقتصر مهمة هذه الدور على تصنيع الجديد فقط بل المستعمل أيضا . وكانت أهم الأسلحة المستخدمة في الحروب السهام ، الأقواس ، الرماح ، السيوف وغيرها .(٢)

وقد ذكر ابن فضل الله العمري أنه كان في بلاد الشام صناعا للسلاح متعددي الاختصاصات وذلك عند ذكره دمشق :

((وبها من أنواع الصناع في الأسلحة والنشاب والزركش والصوغ والكفت وغير ذلك مايكاد يعد تفردها به ، والرماح التي لا يعمل في الدنيا أحسن منها)) .(٣)

وقد تمركز هوءلاء الصناع فيما بعد تحت قلعة دمشق عند ميدان سوق الخيل ، وبدءوا يتركون حوانيتهم الواقعة ضمن الأسوار شيئا فشيئا ، ولعل سبب ذلك أن السلاطين أو النواب كانوا يتعرضون للجيش في سوق الخيل ، فيضطر الجيش لشراء مايحتاجه من عتاد وسلاح وقماش من الحوانيت المتجمعة حول هذا الميدان .(٤)

وحدد الهجوم المغولي شكل الترابط المهني بين السلطة والعمال التي بقيت العلاقات من خلاله محدودة الى أبعد الحدود ، فقد ازداد ميل العمال والمهنيين الى الدين والتصوف والزوايا وقد ارتاد الكثير منهم هذه الامكنة الدينية ، كذلك وجد أساس آخر للتضامن في ربط العمال مع المساجد المحلية الخاصة ، وجعلت الاعداد الضخمة من أمكنة العبادة والأسواق مراكز أساسية للحياة المدنية والاجتماعية ، وحمل العديد من المساجد اسم التجارة أو السوق التي وجد فيها ، كما منحت أسماء الحرفيين لبعضها ، ويبدو أن فئة الصناع لم تكن جادة في تطبيق الواجبات الدينية ، لذا غالبا مابذل العلماء والفقهاء جهودا لرفع مستوى العمل والسلوك الديني في

---

(١) - موءلف مجهول : خزانة السلاح ، تحقيق د. نبيل محمد بن عبد العزيز ، المنيا ، مطبعة الانجلو المصرية ، ١٩٧٨م ، ص١٤ .

(٢) - المقريزي : المقفى ، ج٢ ، ص٢٣٠ - ٢٢١ - ج٧ ، ص١٦٩ - مجهول ، المصدر نفسه ، ص١٦ .

(٣) - العمري : مسالك الأبصار ، ص٢٧ .

(٤) - سوفاجييه : المرجع نفسه ، ص٩٣ - ٩٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الأسواق وذلك بانشاء مكان نظامي للصلاة، وتخصيص الأئمة للمساجد، وجمع معونة مادية من العملة النحاسية من كل صاحب حانوت لمساندة الأساتذة الفقراء.(١)

ونتج عن تدهور وانحطاط الصناعات اليدوية والحرفية فقدان النقابات المهنية، فلم يذكر سوى قلة من المؤرخين عن أشخاص لقبوا بلقب مهنتهم كالحريرى الذى يعمل في الحرير وغيره كالشيخ محمد الذى علم الحديث في دمشق ت ٦٨٣هـ/١٢٨٤م وكان يسمى نقيب من الحريرية (اى عامل حرير صوفي). وهذا يعني أن هذه النقابة كانت جمعية حرفية دينية قامت على أساس وحدة المهنة، وهي جمعية لصوفيي صناع الحرير في دمشق، وأطلقت تسميات عديدة لهؤلاء الصناع مثل طائفة الحريرية، أوشيوخ فقراء الحريرية. وربما كان هؤلاء الصناع يلبسون لباسا مميزا عن غيرهم.(٢)

وختاما يمكن القول بأن الهجوم المغولي أثر على تجميد الاستثمارات الصناعية نتيجة لأوضاع الصناع السيئة. وقد ساهم سوء التخطيط الاقتصادى من قبل السلطات في زيادة هذا التجميد، فقد عمدت السلطات الى تطبيق نظام الضرائب العيني، حصل بموجبه السلاطين على سلع صناعية بأسعار بخسة استطاعوا بها التفوق ماديا على الصناعيين المحليين الذين حصلوا على السلع نفسها بأسعار مرتفعة، فضلا عن دفعهم الضرائب عن منتجاتهم، ناهيك عن المصادرات المتكررة التي اتخذها الحكام لزيادة دخلهم.(٣)

---

(١) - لابيدوس : المرجع نفسه، ص/١٦٧-١٦٨/.

(٢) - ابن كثير : المصدر نفسه، ج/١٣، ص ٢٨٣ - النعيمي : الدارس، ج ٢، ص ١٩٧.
لابيدوس : المرجع نفسه، ص ١٦٦.

(٣) - غوما : المرجع نفسه، ص ١٧٦-١٧٧ - لابيدوس : المرجع نفسه، ص ٦٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- آثار الحملات العسكرية المغولية على التجارة الداخلية والخارجية :

- كانت بلاد الشام تحتل مركزا تجاريا مرموقا منذ آلاف السنين ، فقد كانت تقع على الطرق التجارية الآتية من الشرق أي الصين والهند ، اضافة الى وقوعها على الطرق المتصلة بين البحر الأسود ومصر. وزاد أهميتها وقوعها على شواطئ البحر الأبيض المتوسط حيث كانت تصلها البضائع الأوروبية عن طريق جنوه ، البندقية ، قطلونية ، فلورنسا وغيرها من الجمهوريات الأخرى . الى جانب كونها على مقربة من جزيرتي قبرص واليونان التي أقامت معها علاقات تجارية منذ القديم ، فأسرة آل المابرو التي قطنت طرابلس جاء جدها من اليونان للتجارة في سوريا فبقي فيها واختار طرابلس وطنا له وظل أحفاده يقيمون في المنطقة . (١)

غير أن تعرض بلاد الشام للهجوم المغولي أفقدها الكثير من أهميتها التجارية ، وقلل من نشاطها كمعبر لتجارة الترانزيت الى جانب آثار أخرى سلبية انعكست بشكل حاد على المجتمع.

وقد يكون من المناسب أن نتوقف لحظات نتأمل من خلالها مصير التجار والتجارة الداخلية والخارجية لبلاد الشام اثر تعرضها لغزوات المغول . وهنا تبرز أمامنا بضعة تساؤلات تتطلب أجوبة عنها ، ولعل السؤال الأول ماذا كانت النتيجة الفعلية لهذا الهجوم من حيث علاقته بالتجارة الداخلية ؟ وما هو مصير التجار؟ والسؤال الثاني ما هو أثر الغزو على التجارة الخارجية؟ وثمة سؤال ثالث وهو هل تابعت بلاد الشام نشاطاتها التجارية رغم الهجوم مع بقية البلدان أم انقطعت هذه العلاقات؟

كانت بلاد الشام قبل الهجوم المغولي تحتل أهمية تجارية كبيرة ، وكانت الطرق التجارية المؤدية اليها آمنة وسالكة ، لذلك أمها التجار العرب المسلمون وغير المسلمين وجلبوا معهم البضائع الضرورية والكمالية وغيرها . غير أنه ونتيجة تعرضها للغزو فان بعض التغييرات والتبدلات حصلت على وضعها التجاري الداخلي والخارجي .

يمكننا تقسيم بلاد الشام الى ثلاثة خطوط تجارية ، الأول : داخلي ، والثاني خط البادية ، والثالث خط الساحل . والمؤكد أن حملات المغول أثرت سلبا على خط التجارة الداخلية التي تمركزت عليها المدن الكبرى كحلب وحماه ودمشق . ولكنها مع ذلك لم تستطع أن تعطل الخط التجاري القادم من فارس والعراق الى عكا . (٢)

واذا أثر الهجوم بشكل كبير على الخط التجاري الداخلي الشمالي ، فان الجنوبي المرتبط بالحجاز

---

(١) - نوفل : تراجم علماء طرابلس وأدبائها ، ص ٢٤٥ .

(٢) - العريني : المغول ، ص ٣٢٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لم يتعرض لأي مؤثرات بدليل استمرار تصدير الأغنام والجمال ، واستمرار قوافل الحجاج ماعدا السنوات التي أتى بها الغزاة للبلاد فانها شهدت انقطاعا في استمرار سير الحجاج . لقد أكدت المصادر علم استمرار الحجاج بالذهاب الى مكة والمدينة والمرجح أنهم قاموا بدور الوسيط التجارى بين بلاد الشام والحجاز حيث نقلوا بضائع باتجاه الحجاز وجلبوا مقابلها بضائع من هناك ، ولكن ليس لدينا مواد تاريخية تؤكد هذه الترجيحات.(١)

فضلا عن ذلك فان تجارة البادية تقوم على الجمال والخيول والأسلحة ، ولم يرد في المصادر مايشير الى تصدير أو تهريب هذه المواد ، ولكن يمكن القول بأن البدو قاموا بعمليات تهريب للأسلحة والعتاد والحيوانات عبر خطوط التجارة التي تخترق البادية ، وأمدوا بها الأطراف المتنازعة في بلاد الشام ، والظاهر أنهم أقاموا علاقات تجارية مع المغول أمنوا لهم بواسطتها السلع الضرورية سواء كانت أسلحة أم عتاد أم مواد أخرى ، ومايؤيد هذا القول استرضاءهم من قبل السلطات المملوكية ومنحهم الاقطاعات الكثيرة، الى جانب استرضاء أمرائهم الذين لجؤوا الى المغول في معظم الأحيان .

واذا ماظهرت آثار الهجوم بشكل مباشر على تجارة المدن الداخلية ، فانها لم تظهر على المدن الواقعة على ساحل البحر المتوسط مما أدى الى استمرار علاقاتها مع أوربا ، وسارعت تلك الدول الى عقد المعاهدات التجارية مع السلطات المملوكية لا سيما بعد أن فقدت تلك الدول امتيازاتها التجارية في البحر الأحمر بعد غارات تيمورلنك . ان المصادر التاريخية تثبت بأن المدن المتوسطية شهدت حركة تجارية هامة فعلى سبيل المثال بلغ عدد السفن الراسية في مرفأ بيروت مابين (٨٠٢ - ٨١١هـ / ١٣٩٩-١٤٠٨م) مائتين وثمان وسبعين سفينة ، ويدل هذا على الحيوية التي كانت تتمتع بها تلك المرافىء. واذا مالاحظنا عدد السفن التي كانت تزور الموانىء نلاحظ حجم التجارة والجدول يوضح ذلك(٢).

التاريخ	بيروت	عدد السفن
١٣٩١-١٣٩٥م	=	٢٠
١٣٩٦-١٤٠٠م	=	٢٦
١٤٠١-١٤٠٥م	=	٨ من المحتمل أن الانخفاض كان بسبب غزوة تيمورلنك
١٤١١-١٤١٥م	=	١٩
١٤١٦-١٤٢٠م	=	١٨

(١) - اليونيني : ذيل مرآة ، ج ٤ ، ص ١٨١ - المقريزى : السلوك ، ج ٣ ، ق ٣ ، ص ١٠٨٩ - ابن قاضي شهبة المصدر نفسه ، ج ١ ، ق ٣ ، ص ١٠٨-٣ ، ١١٤-١٢١ ، ٥ - العسقلاني : انباء ، ج ٥ ، ص ١٥٢ - ابن طولون اعلام الورى ، ص ٥٨ - الصيرفي : نزهة النفوس ، ج ٢ ، ص ١٤٦ .

(٢) - ضومط : المرجع نفسه ، ص ٢٣٣ - ٢٣٥ - ٢٣٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وحرى بنا بعد أن اطلعنا على الوضع التجاري في بلاد الشام أن نتتبع المتغيرات التي طرأت عليه من جراء الحملات المغولية . ففي أثناء حملة هولاكو تعرض التجار مع فئات المجتمع الأخرى في مدينة حلب الى القتل والتعذيب ، ويفترض أن قسما من هؤلاء التجار نزحوا عن المدينة باتجاه المناطق الآمنة بعد أن حملوا أموالهم ، ومن لم يغادر المدينة بقي بها ، ومن الطبيعي أن يكونوا قد تعرضوا للمصادرة والنهب خاصة عند نهب الأسواق التجارية . وفي المقابل فان تجار دمشق ظلوا بأحسن حال بالقياس الى وضع اخوانهم في حلب عند ما نجوا من القتل والنهب والمصادرات ولكن لا نستطيع الجزم بأن قلة منهم لم تنزح باتجاه مصر وما يؤيد هذا القول نزوح التاجر الكبير محمد بن علي بن سويد التكريتي (ت ٦٧٠ هـ) عند قدوم هولاكو ، فقد منحه الأخير الأمان على نفسه وماله شرط حضوره اليه ، غير أنه لم يثق بكلامه بل سافر الى مصر اضطرارا لأنه لحق بالناصر يوسف في نابلس ، فانقطع طريق دمشق ولم يستطع العودة فدخل منها الى مصر وغرم مقدارا من المال اختلفت المصادر في تقديره فأحد الروايات ذكرت أنه مائتين وخمسين ألف درهم وبعضها الآخر مليون درهم وقد ولي فيما بعد مكانة مرموقة في مصر حيث نصبه الظاهر بيبرس ناظرا للأوقاف.(١)

وعلى العموم فان هذه الحملة العسكرية أدت الى ركود في حركة الأسواق بسبب قلة البيع والشراء وارتفاع الأسعار ، وبسبب تناقص السكان نتيجة القتل والتعذيب . كما أدت الى انقطاع الطرق التجارية المؤدية لبلاد الشام فقل بالتالي ورود البضائع.

وأصاب تجار دمشق الويلات عند سماعهم بنبأ قدوم غازان نحو المدينة ، فعند ما توجه من حمص باتجاه دمشق أغلقت الأسواق التجارية فتعطلت الأعمال فيها ، وخرج التجار من المدينة نحو الجبال والأرياف ومصر للنجاة بأموالهم وأنفسهم.(٢) وكانت المصائب على التجار أعم عند ما دخل المدينة فقد اتخذ غازان مجموعة من الاجراءات التي عادت بالضرر الكبير عليهم وعلى السكان عامة ، فقبل انزال الضربات القاصمة بالسكان قام جنده بأعمال نهب واسعة ولا بد أنها شملت الأسواق التجارية ، وكانت الأسواق التي تضررت من جراء النهب تلك المحيطة بالجامع الأموى وخاصة سوق باب البريد.(٣) كما أنه فرض الغرامات الكبيرة على أسواق دمشق كل سوق بحسب تجارته ، فكان مجموع ما قرر على سوق الخواصين والرماحين وسوق علي والنحاسين وقيسارية الشرب وسوق الذهبيين أربعمائة وخمس

---

(١) - ابن شداد : تاريخ ، ص ٤٦ - ٤٨ .

(٢) - ابن كثير : المصدر نفسه ، ج ١٤ ، ص ١٦ - المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ق ٣ ، ص ٨٨٩ .

(٣) - النويري : نهاية الأرب ، ج ٣١ ، ص ٣٩٦ - ابن كثير : المصدر نفسه ، ج ١٤ ، ص ٩ - المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ق ٣ ، ص ٨٩٣ - عاشور : العلاقات ، ص ١٥١ - دهمان : ولاة ، ص ١٠٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وتسعون ألف درهم ، بينما قرر على بقية أسواق دمشق ثلاثمائة ألف دينار ، فجبيت أربع مائة ألف دينار (١)
ولم تقتصر الاضرار التي لحقت التجار على الغرامات والنهب فقط ، بل لا بد أن الاسواق تعطلت حركتها التجارية ، بسبب قلة البيع والشراء ، وفقدان رؤوس الأموال المموّلة للتجار ، اذ أنه وبعد خروج غازان من المدينة نادى نائب دمشق أن يفتح التجار دكاكينهم. (٢)
ان هذا الواقع يجعلنا نفترض بأن أصحاب الرساميل الذين لم ينزحوا عن دمشق تضرروا كثيرا من الغرامات المفروضة عليهم ، فقد افتقدوا الاموال التي كانت تسير تجارتهم ، أما التجار الذين نزحوا و تركوا المدينة فان مغادرتهم عادت بالضرر الكبير على البلاد لأن هجرة الرساميل تؤدي الى تقليل الاستثمارات التي تعود بالفائدة على المجتمع وعلى خزينة الدولة معا . ومع ذلك فان المصادر التاريخية لم تفدنا بمعلومات تفصيلية عن الأضرار المادية التي لحقت بالاسواق والتجار معا ، ولم تطلعنا عن الاسواق التي تعرضت للتدمير أو التخريب سوى ماذكر فيما مضى .
وعلى العموم فان الخراب للأسواق التجارية وتعطل أعمال التجار لم يقتصر على حملة غازان ، بل طالتها حملة تيمورلنك أيضا . وكانت مدينة حلب أول مدن بلاد الشام تعرضا للدمار والخراب ومن المؤكد أن معظم الاسواق التجارية اندثرت خصوصا أن أعمال الغزاة التخريبية استمرت شهرا كاملا ، ومن الاسواق التي اندثرت نهائيا سوق حلب الذي كان يشهد فيما مضى حركة تجارية مزدهرة ، فقد كانت تصله بضائع الشرق الى أوروبا ، ناهيك عن الوضع المأساوي للتجار في المدينة ، فقد تعرضوا للقتل اسوة ببقية السكان ، فضلا عن النزوح والنهب وغيرها من الأعمال اللاانسانية. (٣)
لم تنعكس آثار هذه الحملة على مدينة حلب فقط بل على جميع البلدان المتعامل معها تجاريا ، فقد أدت الى انقطاع المسالك التجارية ، وتخريب المحطات التجارية المتواجدة على الطرق والتي احتاجت سنين طويلة لترمم من قبل السلطات ، وهذا يعني توقف وصول السلع الاستهلاكية الضرورية والكمالية بسبب خوف التجار من ارتياد الطرق التجارية المؤدية اليها ، وهذا قد يؤدي الى حصول مجاعات في البلاد ، وكساد في حركة الاسواق ، وتضرر الصناع والتجار ماديا ، فالصناعات الحرفية وخاصة اليدوية منها لم يبق لها سوق ، حيث لم تعد هناك رؤوس أموال ، ولم يعد هناك

---

(١) - ابن ايبك الدواداري : الدرر ، ص ٩٠٢ - ابن كثير : المصدر نفسه ، ج ١٤ - ص ٨ - ٩ - المقريزي : السلوك ج ١ ، ق ٣ ، ص ٨٩٣ - دهمان : ولاة ، ص ١٠٠ .
(٢) - ابن ايبك الدواداري : المصدر نفسه ، ص ٣٠٢ - ابن كثير : المصدر نفسه ، ج ١٤ ، ص ٩ - المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ق ٣ ، ص ٨٩٦ - دهمان : المرجع نفسه ، ص ١٠٨ - ١٠٩ .
(٣) - العسقلاني : انباء ، ج ٤ ، ص ٢٣٢ - ابن تغري بردي : النجوم ، ج ١٢ ، ص ٢٢٤ - ٢٢٥ - السخاوي : الضوء ، ج ١ ، ص ٣٦٦ ، ج ٣ ، ص ١٠٣ - ابن اياس : المصدر نفسه ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥٩٧ - ٥٩٨ - شهاب : تيمورلنك ، ص ٢٨٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

من طالبين لهذه البضاعة . وبالتالي فقدت حلب أهميتها التجارية نتيجة للحملات المغولية جميعها ، لأن ماعانته هذه المدينة من الخراب والدمار كان اكثرماعانته حماه أوحمص مثلا .

بعد الاعمال الوحشية التي ارتكبها الغزاة في حلب توجهوا نحو دمشق ، فماكان من ابن مفلح الا أن غرم التجار ومياسير الناس بأموال باهظة لدفعها تيمورلنك حتى يعود ويترك المدينة غيرأنه لم يقبل ، ودخل بجنوده المدينة فتعطلت حركة الأسواق التجارية ولم يبق فيها شيء الا ماكان واردا ثمنه في الجباية المقررة ،[1] وكان طبيعيا أن يقتحم جنوده الأسواق وينهبوها، وعلى الرغم من أن أكثر المؤرخين أكدوا بأن تيمورلنك أمرجنوده بعدم الاعتداء على الاشخاص وللممتلكات اثرمنحه الأمان لدمشق الا أن ابن تغرى بردى أورد بأن أحد جنده خالف أوامره ونهب الأسواق فعاقبه تيمورلنك وصلبه برأس سوق البزورية .[2]

ولم يكتف تيمورلنك بمصادرة أموال التجار ، أو نهب الأسواق بل عمد الى اضرام النار في تلك الأسواق ،[3] ولم أعثر في المصادر على اسم الأسواق التي شملها الحريق سوى ماذكره ابن قاضي شهبة باحتراق القيسارية التي عمرها شمس الدين البهسني بالحريريين ،[4] وماذكره الصيرفي عن سوق الدهشة حيث قال :

« ولم تزل النار تأكل ما يليها ، وتفنى ما يشملها ويقليها الى أن شملت على دورها ومدارسها ، وعلت على أسواقها ومجالسها ، فكادت تكون كنار القيامة ، وقودها الناس والحجارة ، وأصبح باب الساعات وهو آية من آيات الساعة ، وخلت مصاطب الشهود من السنة والجماعة ، وأصبحت الدهشة وقد آل أمرها الى الوحشة كأن لم يكن بها شهيد ولا شهود من ثيابها وقماشها جبة وحرير ، وأصبحت الميادين وقد صارت كالعهن المنفوش ، ومحيت بأيدى النار سطور كل جام منقوش » .[5]

ومن المرجح أن معظم أسواق دمشق وقيسارياتها قد شملها الحريق وأصبحت أطلالا بالية ورسوما خالية ، ولم تقم لها قائمة الا بعد سنوات طويلة ، وما الأسواق التي عددها ابن عبد الهادى الا كانت نقلا عن مصادر قبله .

وبعد أن دمرتيمورلنك مدينة دمشق اقتاد صناعها وتجارها أسرى الى عاصمة ملكه سمرقند ، فخلت مدينة دمشق من كل تاجروصانع ماهر ، وهذا ما أثرعلى حياتها الاقتصادية ، فالمنتجات سواء كانت

---

(١) - المقريزى : المصدر نفسه ، ج٣ ، ق٣ ، ص ١٠٤٨ - العسقلاني : أنباء ، ج٤ ، ص ٢٠٨ - ابن اياس : المصدر نفسه ، ج١ ، ق٢ ، ص ٦١٣

(٢) - ابن تغرى بردى : المنهل ، ج٤ ، ص ٢٢٣ .

(٣) - الصيرفي : المصدر نفسه ، ج٢ ، ص ٩٠ .

(٤) - ابن قاضي شهبة : المصدر نفسه ، ج١ ، ق٣ ، ص ٢٢٨ .

(٥) - الصيرفي : المصدر نفسه ، ج٢ ، ص ٩٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فضلاعن ذلك فان غزوات المغول للمناطق المجاورة لبلادهم أدت الى تأمين طرق القوافل التجارية عبر آسيا الصغرى والى أوربا عن طريق المتوسط والبحر الأسود، مماساهم بتحويل الطرق التجارية الى بحرقزوين والبحرالاسود فقلل ذلك من كمية السلع المنقولة عبر بلاد الشام.(١)

وأثر الهجوم على الحركة التجارية التي كانت تتم عند زيارة الاماكن المقدسة في فلسطين، ذلك أنه قلل من عدد الحجاج القادمين لتلك الاماكن للزيارة والتبرك ومن المؤكد ان بعض هؤلاء الحجاج كانوا يحملون شيئا من التجارة اليها أو على الأقل منها.

وهنا يتبادر للذهن سؤال لا بد من طرحه وهو هل ازدهرت التجارة في بلاد الشام فحسب؟ أم في كل المناطق المحيطة بها كالعراق وأرمينية خاصة أنه كان لدينا امبراطورية مغولية وحدت أجزاء من آسيا، وهل سهلت هذه الامبراطورية التجارة؟

بالطبع لم يساهم المغول في تنشيط التجارة في بلاد الشام، على العكس تماما ماحصل في أرمينية، فالهجوم المغولي على بلاد الشام أفقدها الكثير من عائداتها التجارية نتيجة لتحول طرق التجارة عنها (الترانزيت)، اضافة الى التقليل من أهمية محطاتها التجارية وحتى تخريبها في معظم الأحيان وكان ذلك على حساب تضخم ونمو موانيء أخرى خارج البلاد كهرمز التي احتكرت التجارة الدولية في الخليج العربي، وأصبحت تنقل البضائع الى تبريز بدلا من العراق، الى جانب التدهور الذي أصاب الطريق التجاري الذي كان يصل العراق بشمال سورية الى حد كبير، وأدى الهجوم بالنهاية الى تحويل التجار نحو البحر الأحمر، فنشطت التجارة عبر هذا البحر ومصر بعد أن انعدم الأمن بسبب حروب المغول في طرق وسط آسيا وغربيها.(٢)

كما أثرت الحروب التي قامت بين المغول أنفسهم على ازدياد تجارة الرقيق لا سيما في أسواق الشام ومصر، فقد تبارى السلاطين المماليك في جلب الرقيق من المماليك الترك وذلك لأغراض متعددة اما عسكرية، واما حبا في الظهور والاستكثار. ومن هؤلاء السلطان قلاوون، والناصر محمد وكان يتم جمع تجار الرقيق في شغركفا بالقرم، مما اضطر طقطاخان ملك القبجاق الى ضربها لمنع هذه التجارة لكنه لم يستطع أن يمنعها أو يقلل من شأنها، وكان المماليك قد عهدوا للتجار بالاتصالات

---

(١) - رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية ج٣، ص٦١٢-٦١٣ - العريني: المغول، ص٢٤٢.

(٢) - عبد السيد: قيام دولة المماليك، ص٢٤١ - آشتور: المرجع نفسه، ص٣٤٠-٣٤٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

(١٣) الايوبي (محمد بن تقي الدين عمر بن شاهنشاه الايوبي) : مضمار الحقائق وسر الخلائق ،القاهرة ،عالم الكتب ، ١٩٦٨م.

(١٤) - بارتولد : تاريخ الحضارة الاسلامية ، مصر ،دار المعارف ، ١٩٦٦م.

(١٥) - البخاري (محمد بن اسماعيل) صحيح البخاري .

(١٦) - البخيت(محمد عدنان) : مملكة الكرك في العهد الايوبي ،الطبعة الاولى ،١٩٧٦م.

(١٧) - بدر (مصطفى) : مغول ايران بين المسيحية والاسلام ،مصر ،مطبعة الاعتماد .

(١٨) - البدري (عبد الله بن محمد) :نزهة الأنام في محاسن الشام ،دار الرائد العربي ، الطبعة الاولى ، ١٩٨٠م.

(١٩) - بروكلمان (كارول) : تاريخ الشعوب الاسلامية ،بيروت ،دار العلم ،الطبعة الثالثة

(٢٠) - ابن بسام المحتسب (محمد) : نهاية الرتبة في طلب الحسبة ،بغداد ،مطبعة المعارف، ١٩٦٨م.

(٢١) - ابن بطوطة (محمد بن ابراهيم) : رحلة ابن بطوطة ،بيروت،دار صادر ، ١٣٨٤هـ /١٩٦٤م.

(٢٢) - ابن تغري بردي (جمال الدين أبي المحاسن يوسف) : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ،طبعة مصورة عن دار الكتب ،وزارة الثقافة والارشاد القومي المصرية .

(٢٣) - المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي ،الهيئة العامة المصرية للكتاب ،له طبعات متعددة ،١٩٨٤، ١٩٨٦، ١٩٨٨، ١٩٩٠م.

(٢٤) - الترك (عثمان) : صفحات من تاريخ الأمة الأرمنية ، ١٦٠٠م.

- ابن الجزري (محمد بن ابراهيم بن أبي بكر) :

(٢٥) - المختار من تاريخ ابن الجزري ،بيروت ،دار الكتاب العربي ،الطبعة الأولى ،١٤٠٨هـ /١٩٨٨م.

- ابن الجوزي (عبد الرحمن بن علي) :

(٢٦) - تلبيس ابليس ،مصر ،مطبعة النهضة ، ١٣٤٧هـ.

(٢٧) - ابن قيم الجوزية (شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أبي بكر الحنبلي) : روضة المحبين ونزهة المشتاقين ،حلب ،دار الوعي ، ١٣٩٧هـ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

(٢٨)- ابن حبيب (الحسن بن عمر) : تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه، مصر، مطبعة دار الكتب، ١٩٧٦م.

(٢٩)- حماده (محمد ماهر) : دراسة وثقية للتاريخ الاسلامي ومصادره، بيروت، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.

(٣٠)- حمدى (حافظ) : الشرق الاسلامي قبيل الغزو المغولي، دار الفكر العربي، ١٩٥٠م.

(٣١)- ابن العماد الحنبلي (عبد الحي) : شذرات الذهب في أخبار من ذهب، نسخة مصورة عن نسخة المصنف المحفوظ في دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٣٥٠هـ.

(٣٢)- ابن المعمار الحنبلي (محمد) الفتوة، بغداد، ١٩٦٠م.

(٣٣)- ابن حوقل (ابي القاسم بن حوقل النصيبي) : صورة الأرض، بيروت، دار الحياة، ١٩٧٩م

(٣٤)- الحموي (ياقوت) : معجم البلدان، بيروت، دار صادر، ليس له تاريخ طبعة.

(٣٥)- الحسيني (محمد بن علي) : ذيول العبر، الكويت، ١٩٨٦م.

(٣٦)- الخالدى (ابراهيم بن عبد الرحمن بن القيسراني): النور اللائح والدر الصادح في اصطفاء مولانا الملك الصالح، لبنان، الطبعة الاولى، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م.

(٣٧)- ابن خطيب الناصرية (علاء الدين بن الحسن) : مخطوط الدر المنتخب في تكملة تاريخ مملكة حلب، صورة مصورة موجودة بمكتبة الدكتور سهيل زكار، جزئين، الاول ٦٧٦ ورقة، والثاني ٤٤٠ ورقة.

(٣٨)- ابن خلدون (عبد الرحمن) : مقدمة كتاب العبر، بيروت، دار العودة، ١٩٨١م.

(٣٩)- ـــــــــــــ العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الاكبر، دار الكتاب اللبناني سنة ١٩٥٦م.

(٤٠)- ـــــــــــــ التعريف بابن خلدون ورحلته شرقا وغربا، القاهرة، مطبعة لجنة التأليف ١٣٧٠هـ/١٩٥١م.

(٤١)- ابن خلكان (احمد بن محمد) : وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، مصر، مطبعة السعادة، الطبعة الأولى، ١٣٦٧هـ/١٩٤٨م.

(٤٢)- الخوارزمي (محمد بن احمد بن يوسف) : مفاتيح العلوم، مصر، مطبعة الشرق، ١٣٤٢هـ.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

(٤٣) - دمج (علاء الدين) : الرسالة القبرصية خطاب من شيخ الاسلام ابن تيمية الى سرجواس ملك قبرص، دار ابن حزم، بيروت، ١٤٠٨هـ /١٩٨٧م.

(٤٤) - الدمشقي (محمد بن رافع) : الوفيات ذيل على وفيات البرزالي، سورية، منشورات وزارة الثقافة، ١٩٨٥م.

(٤٥) - دهمان (أحمد محمد) : ولاة دمشق في عهد المماليك، دمشق، دار الفكر، الطبعة الثانية ١٤٠١هـ/١٩٨١م.

(٤٦) - ـ معجم الالفاظ التاريخية في العصر المملوكي، بيروت، دار الفكر المعاصر، الطبعة الاولى، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م.

(٤٧) - ابن ايبك الدواداري (سيف الدين ابوبكر) : الدر الفاخر في سيرة الملك الناصر، القاهرة، ١٣٧٩هـ/١٩٦٠م.

(٤٨) - الدوري (عبد العزيز) : مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي، بيروت، ١٩٦٨م.

(٤٩) - الذهبي (محمد بن احمد بن عثمان) : العبر في خبر من غبر، الكويت، مطبعة الحكومة، ١٣٨٦هـ/١٩٦٦م.

(٥٠) - ـ دول الاسلام، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٤م.

(٥١) - ـ ذيول العبر، الكويت، وزارة الاعلام، طبعة ثانية مصورة، ١٩٨٦م.

(٥٢) - الرمزي (م.م) : تلفيق الاخبار وتلقيح الآثار في وقائع قزان وبلغار وملوك التتار، المطبعة الكريمية ببلدة أدرنبورغ، ليس له تاريخ طبعة.

(٥٣) - رمضان (محمد) : العلاقات الاقتصادية الدولية، جامعة دمشق، ١٤٠٤-١٤٠٥هـ/١٩٨٤-١٩٨٥م.

(٥٤) - رنسيمان (ستيفن) : تاريخ الحروب الصليبية، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.

(٥٥) - زعرور (ابراهيم) : الحياة الاجتماعية في بلاد الشام في العصرين ايوبي والمملوكي، رسالة دكتوراة غير منشورة، جامعة دمشق، ١٤١١هـ/١٩٩٠م.

(٥٦) - زقلمة (أنور) : المماليك في مصر، القاهرة، مطبعة المجلة الجديدة، ليس له تاريخ طبعة.

(٥٧) - زكار (سهيل) : فلسطين في عهد المماليك من أواسط القرن السابع الهجري، الى مطالع القرن العاشر الميلادي، ليس له تاريخ طبعه.

(٥٨) ـ امارة حلب، دمشق، دار الكتاب العربي، ليس له تاريخ طبع.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

(٩١) ضومط (انطوان) : الدولة المملوكية التاريخ السياسي والاقتصادي والعسكري ، بيروت
الطبعة الأولى ، ١٩٨٠م.

(٩٢) - ابن الطباخ (محمد راغب) : أعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء ، حلب ، دار القلم ، ١٤٠٨/
١٩٨٨م.

(٩٣) - الطراونة (طه ثلجي) : مملكة صفد في عهد المماليك ، بيروت ، دار الآفاق ، الطبعة
الاولى ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م.

(٩٤) - ابن طولون (محمد بن علي) : اعلام الورى بمن ولي نائبا من الاتراك بدمشق الشام الكبرى ،
دار الفكر ، الطبعة الثانية ، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م.

(٩٥) - : القلائد الجوهرية في تاريخ الصالحية ، دمشق ، مكتبة الدراسات
الاسلامية ، ١٣٦٨هـ/١٩٤٩م.

(٩٦) - ابن شاهين الظاهري (غرس الدين خليل) : زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك
باريس ، المطبعة الجمهورية ، ١٨٩٤م.

(٩٧) - عاشور (فايد حماد) : العلاقات السياسية بين المماليك والمغول في الدولة المملوكية
الاولى ، مصر ، دار المعارف ، ١٩٧٩م.

(٩٨) - العبادي (احمد) : قيام دولة المماليك الاولى في مصر والشام ، بيروت ، دار النهضة ، ١٩٦٩م.

(٩٩) - مصر والشام في عهد الايوبيين ، بيروت ، دار النهضة ، ١٩٧٢م.

(١٠٠) - العبدري (محمد بن محمد) رحلة العبدري المسماة بالرحلة المغربية ، الرباط ،
جامعة محمد الخامس ، ١٩٦٨م.

(١٠١) - ابن عبد الظاهر (محي الدين) : الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر ، الرياض ،
الطبعة الاولى ، ١٣٩٦هـ/١٩٧٦م.

(١٠٢) - - الالطاف الخفية من السيرة الشريفة السلطانية الملكية الاشرفية ،
لايبزغ ، ١٩٠٢م.

(١٠٣) - - تشريف الايام والعصور في سيرة الملك المنصور ، مصر ، الشركة
المتحدة للطباعة ، الطبعة الأولى ، ١٩٦١م.

(١٠٤) - عبد السيد (حكيم أمين) : قيام دولة المماليك الثانية ، القاهرة ، دار الكتاب العربي ،
١٣٨٦هـ/١٩٦٧م.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

(١٠٥)- عبد اللطيف (محمد فهمي) : الفتوة الاسلامية، دار الزيني للطباعة والنشر.

(١٠٦)- ابن عبد الهادي (يوسف) : ثمار المقاصد في ذكر المساجد، دمشق، المعهد العلمي الفرنسي، ١٩٧٥م.

(١٠٧)- ـ رسائل دمشقية، دمشق: ابن كثير، الطبعة الاولى، ١٩٨٨م/١٤٠٨هـ

(١٠٨)- ابن العبرى (غريغوريوس) : تاريخ مختصر الدول، بيروت، المطبعة الكاثوليكية، ١٨٩٠م.

(١٠٩)- ابن عربشاه (احمد بن محمد الدمشقي) : عجائب المقدور في نوائب تيمور، بيروت، مؤسسة الرسالة، الطبعة الاولى ١٤٠٧هـ/١٩٨٦م.

(١١٠)- عدوان (احمد محمد) : المماليك وعلاقاتهم الخارجية، السعودية، دار الصحراء، الطبعة الاولى، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م.

(١١١)- ابن العديم (كمال الدين عمر بن احمد بن ابي طرده) : بغية الطلب في تاريخ حلب، دمشق، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.

(١١٣)- ابن العراقي (ولي الدين أبي زرعة احمد) : الذيل على العبر في خبر من غبر، بيروت، مؤسسة الرسالة، الطبعة الاولى، ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م.

(١١٣)- العريني (السيد الباز) : المماليك، بيروت، دار النهضة، ١٩٦٧م.

(١١٤)- : المغول، بيروت، دار النهضة، ١٩٨١م.

(١١٥)- العسقلاني (ابن حجر) : انباء الغمر بأنباء العمر، بيروت، وزارة المعارف، الطبعة الثانية، ١٩٨٦م.

(١١٦)- ـ الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، بيروت، دار الجيل، ليس له تاريخ.

(١١٧)- عطاالله (محمود علي) : نيابة غزة في العهد المملوكي، بيروت، دار الآفاق، الطبعة الاولى، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م.

(١١٨)- العلبي (اكرم حسن) : تيمورلنك وحكايته مع دمشق، دمشق، دار المأمون، الطبعة الرابعة ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.

(١١٩)- ـ دمشق بين عهد المماليك والعثمانيين، دمشق، الشركة المتحدة للطباعة، الطبعة الاولى، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

(١٢٠) - العليمي (مجيرالدين) : الانس الجليل بتاريخ القدس والخليل ، بيروت، دار الجيل ١٩٧٣م.

(١٢١) - العمري (شهاب الدين) : - التعريف بالمصطلح الشريف، مصر، مطبعة العاصمة، ١٣١٢هـ.

(١٢٢) - مسالك الأبصار في ممالك الامصار، ممالك مصر والشام والحجاز واليمن، القاهرة، المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية.

- مسالك الأبصار، قبائل العرب في القرنين السابع والثامن الهجريين، بيروت، المركز الاسلامي للبحوث، الطبعة الاولى، ١٩٨٥م.

(١٢٣) - ابن العميد (المكين بن جرجس) : أخبار الايوبيين، بورسعيد، الظاهر، مكتبة الثقافة الدينية.

(١٢٤) - عودات (احمد، بيضون (جميل) شحادة (الناطور) : تاريخ المغول والمماليك في القرن السابع الهجرى حتى القرن الثالث عشر الميلادى، اربد، دار الكندي ١٩٩٠م.

(١٢٥) - العيني (بدرالدين محمود) : عقد الجمان في تاريخ اهل الزمان، القاهرة، الهيئة العامة للكتاب، له طبعات متعددة، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م-١٩٨٨م، ١٩٨٩م، ١٩٩٢م.

(١٢٦) - الغامدى (عبد الله سعيد) : جهاد المماليك ضد المغول والصليبيين من النصف الثاني من القرن السابع الهجرى، السعودية، مركز البحوث العلمية، ١٤١٠هـ.

(١٢٧) - الغزالي (محمد بن محمد) : احياء علوم الدين، مصر، مطبعة عيسى البابي، ١٣٥٨هـ/ ١٩٣٩م.

(١٢٨) - غوانمة (يوسف درويش) : تاريخ نيابة بيت المقدس في العصر المملوكي، عمان، دار الحياة، ١٩٨٢م.

(١٢٩) - أبو الفداء (عماد الدين اسماعيل) : المختصر في اخبار البشر، المطبعة الحسينية المصرية، الطبعة الاولى، ١٣٢٥هـ.

(١٣٠) - تقويم البلدان، باريس، دار الطباعة السلطانية، ١٨٤٠م.

(١٣١) - ابن الفرات (ناصرالدين محمد) : تاريخ ابن الفرات، بيروت، جامعة بيروت، المطبعة الاميركانية، ١٩٤٢م.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

(١٤٩) - مبارك (زكي) : التصوف الاسلامي في الادب والاخلاق ، مصر ، مطابع دار الكتاب العربي الطبعة الثانية ، ١٣٧٣هـ/١٩٥٤م.

(١٥٠) - ابن متى (عمرو) : أخبار فطاركة كرسي المشرق ، روما ، ١٨٩٦م.

(١٥١) - المدور (مروان) : الارمن عبر التاريخ ، بيروت ، دار الحياة ، الطبعة الاولى ، ١٩٨٢م.

(١٥٢) - المقدسي (البشارى) : أحسن التقاسيم في معرفة الاقاليم ، ليدن ، مطبعة ابريل ، ١٩٠٤م.

(١٥٣) - المقريزى (تقي الدين احمد) - السلوك لمعرفة دول الملوك ، القاهرة ، مطبعة لجنة التأليف ، له عدة طبعات ، ١٩٥٧م ، ١٩٥٨م ، ١٩٧٠م ، ١٩٧١م.

(١٥٤) - المقفى الكبير ، بيروت ، دار الغرب الاسلامي ، الطبعة الاولى ، ١٤١١هـ/١٩٩١م.

(١٥٥) - اغاثة الامة بكشف الغمة ، القاهرة ، مطبعة لجنة التأليف والنشر ، ١٩٥٧م.

(١٥٦) - شذور العقود في ذكر النقود ، النجف ، المطبعة الحيدرية ، الطبعة الخامسة ، ١٣٨٧هـ/١٩٦٧م.

(١٥٧) - البيان والاعراب عما بأرض مصر من الاعراب ، تحقيق عبد المجيد عابدين ، الاسكندرية ، دار المعرفة ، ١٣٨٩هـ .

(١٥٨) - المنصورى (بيبرس) : التحفة الملوكية في الدولة التركية ، الدار المصرية اللبنانية ، الطبعة الاولى ، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.

(١٥٩) - منقريوس (رزق الله) : تاريخ دول الاسلام ، مصر ، مطبعة الهلال ، ١٣٢٥هـ/١٩٠٧م.

(١٦٠) - مولف مجهول (خزانة السلاح مع دراسة عن خزائن السلاح ومحتوياتها على عصر الايوبيين والمماليك ، مكتبة الانجلو المصرية ، ١٩٧٨م.

(١٦١) - النجيدى (حمود بن محمد بن علي) : النظام النقدى المملوكي ، الاسكندرية ، مؤسسة الثقافة الجامعية ، ١٩٩٣م / ١٤١٤هـ.

(١٦٢) - النعيمي (عبد القادر) : الدارس في تاريخ المدارس ، طبعتان ، مطبعة الترقي ١٩٤٨م ، مكتبة الثقافة الدينية ١٩٨٨م.

(١٦٣) - : دور القرآن في دمشق ، بيروت ، دار الكتاب الجديد ، ١٩٨٢م.

(١٦٤) - نوفل (نوفل) تراجم علماء طرابلس وأدبائها .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

(١٦٥) - النويري (شهاب الدين احمد) :نهاية الارب في فنون الادب ، تحقيق محمد عبد الهادي شعيرة ،له عدة طبقات، ١٣٥٠هـ/١٩٣١م، ١٩٦٠م، ١٩٩٢م.

(١٦٦) - نيلولسون (رينولد) : في التصوف الاسلامي وتاريخه ،القاهرة ،مطبعة لجنة التأليف ١٣٨٨هـ/١٩٦١م.

(١٦٧) - الهمذاني (رشيد الدين) :جامع التواريخ ،ترجمة محمد صادق نشأت وآخرون ، الجمهورية المتحدة ،وزارة الثقافة ، ١٩٦٠م.

(١٦٨) - هنتس(فالتر) : المكاييل والاوزان الاسلامية ،جوتنجن ، ١٩٥٥م.

(١٦٩) - والتر (فيشل) :لقاء ابن خلدون بتيمورلنك ،بيروت ،دار الحياة

(١٧٠) - ابن الوردي (زين الدين عمر) : تتمة المختصر في اخبار البشر المعروف بتاريخ ابن الوردي ،بيروت ،دار المعرفة ،الطبعة الاولى ، ١٣٨٩هـ/١٩٧٠م.

(١٧١) - اليافعي (عبد الله بن اسعد بن علي بن سليمان) :مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان ،بيروت ،موءسسة الاعلمي ،الطبعة الثانية ، ١٣٩٠هـ/١٩٧٠م.

(١٧٢) - ابن يحيى (صالح) :تاريخ بيروت ،بيروت ،دار المشرق ،المطبعة الكاثوليكية ، ١٩٨٦م

(١٧٣) - اليوسفي (موسى بن محمد) :نزهة الناظر في سيرة الملك الناصر ،بيروت ،عالم الكتب ، الطبعة الاولى ، ١٤٠٦هـ.

(١٧٤) - اليونيني (قطب الدين) :ذيل مرآة الزمان ،حيدر آباد الدكن ،مطبعة دائرة المعارف العثمانية ،الطبعة الاولى ، ١٣٨٠هـ/١٩٦٠م.

الدوريات:

١- شاكر (مصطفى) : مجلة كلية الآداب والتربية ،الكويت ،العدد الثالث والرابع ، ١٩٧٣م.

٢- عبد الستار عثمان (محمد) مجلة المعرفة ،الكويت ،آب، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.

٣- كاهن (كلود) : مجلة الاجتهاد ،بيروت ،دار الاجتهاد ،العدد السادس، ١٩٩٠م.

٤- النجار (محمد رجب) : حكايات الشطار والعيارين في التراث الشعبي ،الكويت ،ايلول ، ١٩٨١م.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

مصـــادر والمـراجـع الاجنبيـــة :

(1) (C A H E N C L A U D E) : p r e _ o tt o m a
T u r k e y - sig wick j A k s o n , L o n d o n, 1 9

(2) (MUIRCSIR WILLIAM) : The caliphate rise , Dcline and fall,
Beirut , 1963 ,

(3) (Praw Dinc Michael) : The Mongol Empire, London, 1939

(4) (Institutes political and military); ABU TAULIB AL HUSSEIN,
1342 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

خـــاتمــــــــــــة

كان سقوط الخلافة العباسية في بغداد على يد هولاكو ايذانا بانتقال مركز الحكم والادارة الى القاهرة بمصر. وتزامن قدوم الحملة العسكرية الأولى بقيادة هولاكو الى بلاد الشام مع سقوط الحكم الايوبي في بعض مدن الشام بعد فرار الناصر يوسف الايوبي من دمشق وتركها بلا حاكم يحكمها، ولم يكن أمام بلاد الشام الا الدخول في طاعة المماليك الذين تسلموا عرش السلطنة في مصر، واستقرالامر لهم بعد النصر المظفر الذي حققته القوات العربية الاسلامية في عين جالوت.(١)

بعد أمد من حملة هولاكو العسكرية قدم القائد المغولي غازان الى بلاد الشام بجيوش جرارة فاستطاع اخضاع الجزيرة الفراتية، ثم توجه بعد ذلك الى حلب ومنها الى مجمع المروج في حمص عابرا الى دمشق بعد أن أعطى أهلها الأمان، ورغم ذلك فقد ارتكب جيشه الفظائع عند دخوله المدينة، فجمع الاموال والغنائم وصادر كل شيء وجده في المدينة ورحل تاركا قواده الذين رحلوا أيضا بعد جمعهم الأموال الوفيرة، ثم عاد ثانية فهزم بشكل ساحق، وبعد هذا نعمت البلاد بشيء من الاستقرار النسبي حتى قدوم تيمورلنك الذي دمر أمامه كل شيء وارتكب من الفظائع ماتقشعر له الأبدان، وبعد انجاز مهمته رحل عن المنطقة.(٢)

دفعت الحملات العسكرية المغولية الى بلاد الشام المماليك للتخلص من الصليبيين، على الرغم من أن الصليبيين وقفوا في بداية الصراع المغولي المملوكي موقفا محايدا بسبب الروابط الاقتصادية التي ربطتهم بالمماليك من ناحية، وخوفهم من الخضوع للمغول من ناحية أخرى، وفي الوقت نفسه أدرك المماليك بحنكتهم السياسية والعسكرية أن الفرصة سانحة لانهاء الوجود الصليبي في بلاد الشام، لذا اتبعوا سياسة بارعة لتحقيق ذلك تجلت في انشاء علاقات طيبة مع اصدقاء الصليبيين لمنعهم من مساعدتهم عسكريا وسياسيا ثم بدؤا بتحرير المدن الاسلامية الواقعة تحت سيطرتهم بدءا من عهد الظاهر بيبرس، الى أن انتهت حروب التحرير بسقوط عكا آخر معاقل الصليبيين في عهد الأشرف خليل وبذلك أنهى المماليك الوجود الصليبي في بلاد الشام الذي استمر عدة قرون.(٣)

---

(١) - ينظر المدخل السياسي، فقرة عين جالوت.

(٢) - ينظر المدخل السياسي، فقرة موقعة الخازندار ووقعة شقحب.

(٣) - ينظر المدخل السياسي فقرة تصفية الوجود الصليبي.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وكانت مجموعة من العوامل السياسية والاجتماعية قد ساهمت من قبل في سلخ كيليكية عن بلاد الشام وتجمع الأرمن بها وأنشأوا دولة دعوها بأرمينية الصغرى .

دفعت مواقف الأرمن المتمثلة بمساعدتهم للمغول ، واعتدائهم على الارض العربية الاسلامية السلطة المملوكية لمهاجمة أراضيهم في محاولة استردادها لبلاد الشام ، فأرسلت الحملات العسكرية المتعددة لتحقيق عدة أهداف مرحلية بانتظار تحقيق الهدف المنشود منها وهو القضاء على دولة أرمينية سياسيا وتجاريا ، واعادة الأهمية التجارية لبعض مدن الشام والتي فقدتها بعد ازدهار ميناء اياس ، وقد ظلت السلطات المملوكية تكيل الهجمات لأرمينية حتى اجتاحها تيمورلنك سنة ٧٨٩هـ/١٣٨٧م ، وانتهت بعد ذلك بالخضوع لرحمة القبائل التركمانية سنة ٨٥٠هـ/١٤٠٢م بعد انتصار تيمورلنك على الدولة العثمانية .(١)

وأرغمت الظروف السياسية والعسكرية التي سادت المنطقة زمن الحملات العسكرية المغولية السلطات المملوكية على زيادة نياباتها في بلاد الشام من اثنتين هما حلب ودمشق الى ثمانية فسميت الكرك نيابة سنة ٦٦١هـ/١٣٦٢م ، وسميت صفد سنة ٦٦٥هـ/١٢٦٦م لمواجهة عكا الصليبية ، ثم اعتبرت غزة نيابة سنة ٧١١هـ/١٣١١م نتيجة للصراع بين حكام دمشق وسلاطين القاهرة ، واستخدمت مركزا لتجمع القوات الاسلامية المنطلقة والعائدة من الحروب . وسميت القدس نيابة سنة ٧٩٦هـ/١٣٩٣م نتيجة لضغط تيمورلنك على حدود بلاد الشام الشرقية ، ولتجريد نائب دمشق بعض ممتلكاته القريبة من مصر .

واضحت طرابلس نيابة سنة ٦٨٨هـ/١٢٨٩م بعد تحريرها من يد الصليبيين زمن حكم السلطان قلاوون ، واحتلت المرتبة الثالثة من حيث الأهمية بعد دمشق وحلب .

وأولى كل من الايوبيين والمماليك حماه عناية خاصة وكان لها تاريخ سياسي تميز عن بقية نيابات الشام وعاشت في ظل البيت التقي كمملكة ، لذلك كان الملك على رأس الجهاز الاداري ، واستمرت الملكية فيها في كل المراحل ماعدا فترة الانقطاع من سنة (٦٩٨-٧١٠هـ/١٢٩٨-١٣١٠م) وأضاف قلاوون للمظفر محمود سنة ٦٨٣هـ/١٢٨٤م لقبا آخر هو سلطان لذلك حمل ملوك حماه رتبة سلطان ، وعدت نيابة صغرى داخل السلطنة العظمى ، وتحولت الى نيابة مثل بقية

---

(١) - ينظر المدخل السياسي ، فقرة أثر الحملات المغولية على العلاقات المملوكية الأرمينية .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

النيابات ولم تشهد أحداثا متميزة الا بعد سقوط الحكم الأيوبي ، ويبدو أنها تراجعت حضاريا وفكريا بعد أن كانت موئلا للعلماء والمفكرين وخاصة في زمن أبي الفداء .

ويلاحظ من تاريخ نشوء هذه النيابات وتوضعها الجغرافي أن جلها أحدث بعد معركة عين جالوت ، وشكلت جبهات متعددة ضد المغول . (١)

وقد احدثت الغزوات المغولية اضطرابا في الاوضاع الداخلية لبلاد الشام أفقد السلطات المملوكية هيبتها ، مما دفع ببعض الأمراء لمحاولة تحقيق حلمهم بالاستقلال بنياباتهم ، وعالجت السلطات المملوكية هذا الأمر معالجة خاطئة ساهمت في لجوء بعض هؤلاء الى المغول وطلبهم حمايتهم طمعا في الوصول الى أعلى المراتب، فشهدت بلاد الشام ثلاث حركات تمرد هي حركة سنقر الأشقر ، وحركة قبجق وحركة قراسنقر المنصوري ، وقد أفاد هؤلاء المغول من المعلومات الهامة عن الجيش المملوكي وطريقة قتاله وتسليحه الأمر الذى استلزم تغيير الخطط الحربية للجيش المملوكي في معارك المقبلة مع المغول ، وسببت هذه الحركات انقسام الصف الداخلي في بلاد الشام في وقت كانت فيه أحوج ماتكون الى الوحدة . (٢)

وأحدثت الحملات المغولية لبلاد الشام تخلخلا في التوزع الديمغرافي للسكان نتيجة الهجرة من المدن الى مدن أخرى أكثر أمنا ، ونتيجة الهجرة الى مصر ، كما استقبلت بلاد الشام سلسلة من المهاجرين الذين وفدا اليها من العراق أو الجزيرة نتيجة الهجوم المغولي على أراضيهم ، وكانت بلاد الشام منطقة عبور للمهاجرين المغول الى مصر ، وقد وفد هؤلاء نتيجة عوامل متعددة منها انتشار الأوبئة والمجاعات في المناطق التي كانوا يقطنونها ، أو نتيجة الحروب الطاحنة بين مغول القفجاق ومغول فارس. وقد استقر قسم من هؤلاء الوافدين في بعض مدن بلاد الشام بأمر من السلطات المملوكية ومن الطبيعي أن يكون هؤلاء قد نقلوا كثيرا من العادات والتقاليد معهم الى المجتمع الجديد وبما أن هذه التقاليد كانت جديدة على المجتمع العربي الاسلامي فلابد أنها اجتذبت اهتمامهم ، ومن المرجح أنهم تأثروا ببعض هذه العادات. وقد أكرمتهم السلطات المملوكية ، وأقامت لهم مساكن خاصة وأمرت بعضهم بسلك الجيش .

---

(١) - ينظر المدخل السياسي ، فقرة الوضع الاداري .

(٢) - ينظر المدخل السياسي ، فقرة حركات التمرد والعصيان وارتباطها بالمغول وأثرها على الوضع السياسي .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ونجم عن الهجرات المتعددة في بلاد الشام الى ازدياد العاطلين عن العمل نتيجة النزوح من مناطقهم ولجوئهم الى الزوايا والأربطة التي تولت تقديم الطعام والشراب لهم ، فازدادت بذلك أعمال الشغب واللصوصية . وسببت هذه التحركات تفككا على الصعيد الأسري ، فقد توزعت الأسرة الواحدة في عدة أماكن ، فضعفت بذلك الروابط الأسرية .(١)

ونجح المغول أحيانا في اضعاف الوئام الديني ساد بلاد الشام ، فقد عزفوا على أوتار الطائفية ، وحاولوا تقريب أهل الذمة منهم ونجحوا في أثناء حملة هولاكو وخاصة في دمشق ، بينما لم نلحظ ذلك في أثناء حملة غازان وتيمورلنك . وعلى كل حال فقد انعكست هذه المواقف على أهل الذمة .(٢)

وساهم المغول في انتشار الأمراض الخلقية والاجتماعية كالرشوة والخمر والحشيشة واللواط وغيرها ، فقد استشرت الرشوة بشكل كبير وطالت جميع المناصب الادارية والدينية ، ومثالنا على ذلك تقلد ابن الزكي القضاء في مدينة دمشق بعد بذل الاموال لهولاكو وأعوانه المقربين ، واستشرت الرشوة بشكل واسع حتى أنشىء لها ديوان في منتصف القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي سمي بديوان البذل .(٣)

وشجع قدوم المغول انتشار تناول الخمر وبيعه والى زيادة تعاطي الحشيشة ، كل ذلك كان بسبب اضطراب الظروف السياسية وماتبعها من فوضى واضطرابات أمنية .

وساهم الوضع الاجتماعي الذي ساد المنطقة اثر قدوم الحملات العسكرية المغولية في زيادة انتشار الطرق الصوفية بشكل كبير ، نتيجة ازدياد الشعور الديني ، ونتيجة الأعمال العسكرية المغولية المنافية للشريعة الاسلامية ، مما أدى الى ازدياد بناء الزوايا والأربطة والمدارس الدينية والمساجد ، وقد شجع السلاطين المماليك الحكام والاداريين وعامة الشعب على زيادة بناء تلك المنشآت الدينية ليظهروا أنفسهم بمظهر الحامي والمدافع عن الدين ، وعلى الأرجح كان هدفهم اشغال العامة بالناحية الدينية وغض بصرها عن المفاسد الادارية الكثيرة للدولة . وقاد ازدياد تأثير الطرق الصوفية على الرعية الى نتائج متعددة تمثلت بازدياد البدع والاعتقاد بالغيبيات والكرامات .

ونجم عن الاعمال العسكرية المغولية في المدن الى تغير في الهيكل العمراني للمنشآت الاقتصادية والدينية ، وتغير في البنية الاجتماعية وانتشار الامراض الخلقية أيضا . الامر الذي ادى الى جر المجتمع نحو الهاوية .(٤)

---

(١) - ينظر الفصل الأول ، آثار الحملات العسكرية المغولية على المدن فقرة الهجرة .

(٢) - = = = = = = = المغولية = ، فقرة الأثر على المسلمين وأهل الذمة .

(٣) - ينظر الفصل الأول ، آثار الحملات العسكرية المغولية على المدن ، فقرة انعدام الاستقرار الاجتماعي .

(٤) - ينظر الفصل الأول ، آثار الحملات العسكرية المغولية على المدن ، فقرة الأثر على الناحية الدينية .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- أحباس ذرية وذلك منعا من مصادرتها ، الى جانب التلاعب في تلك الأوقاف. وشهدت حركة الأسعار ارتفاعا وانخفاضا ملحوظين نجم عن الحملات العسكرية المغولية ، فكلما اقترب العدو من البلاد زادت الاسعار ارتفاعا ، وانخفضت القيمة الشرائية النقدية ، والعكس صحيح ، مانجم عنه فيما بعد أزمات اقتصادية أدت الى التضخم.

وأحدث الهجوم المغولي على بلاد الشام دمارا شاملا للمنشآت الدينية والعمرانية ولتحصينات المدن مثل دمشق وحلب ، فقد أزيلت أحياء بكاملها لاعتبارات عسكرية مثلما فعل ارجواش نائب قلعة دمشق حين هدم العمائر الواقعة حولها لحرمان المغول من استغلالها في رمي القلعة بالمنجنيق وازيلت بعض الاحياء للاستفادة من حجارتها في اعمار ماهدمه المغول مثلما فعل كمشبغا الحموى سنة ٧٩٤هـ/ ١٣٨٩م لبناء سور حلب.

ورأت السلطات المملوكية والسكان أنه ليس باستطاعتها اعادة بناء احياء بكاملها كان قد هدمها المغول وذلك بسبب صعوبة الاعمار لعدم توفر النفقات اللازمة. (١)

واضطر قسم من السكان للسكن خارج أسوار المدن ، وقاموا بنقل حجارة مساكنهم من المدن نفسها مثلما حصل في غوطة دمشق حيث سكنها الناس بدءا من سنة ٨٠٤هـ/ ١٤٠١م وحتى سنة ٨١١هـ ١٤٠٨م حيث أجبر الناس على العودة للمدينة.

واختفت نهائيا بعض العمائر والمدارس نتيجة الحملات المغولية مثل المدرسة القطيبنية في حلب. كما سبب احراق المساجد والمدارس وهدمها من قبل المغول تغييرا في طبيعة العمائر نفسها ، كما تلفت النقوش ولوحات الفسيفساء الموجودة فيها ، وأزيل بعضها نهائيا ، ورغم أن قسما كبيرا من هذه المساجد قد رمم نتيجة الانفاق عليها من قبل بعض النواب أو الامراء أو العلماء الا أن الترميم لم يكن بنفس جودة الأصل لهذه النقوش واللوحات وبذلك خسرت العمارة الاسلامية بعض ميزاتها المهمة خلال تلك الفترة.

وأدى الهجوم المغولي على بلاد الشام الى فقدان الصناعة المحلية جودتها نتيجة فقدان الايدي العاملة الماهرة ، اما لنزوحها الى المناطق الاكثر أمنا ، أو الى مصر ، وامانتيجة لقتل الصناع أو نقلهم الى سمرقند عاصمة الدولة المغولية ، فقد قام تيمورلنك عند غزوه لدمشق بنقل قسري للعمال المهرة ، وبالتالي تراجعت بعض الصناعات التي اشتهرت بها بلاد الشام وفقد بعضها الآخر كصناعة الزجاج.

---

(١) - ينظر الفصل الرابع ، فترة نفقات الدولة على المعالم الحضارية التي خربها المغول.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ونجم عن اضطراب الاوضاع الامنية والسياسية هجرة روؤس الاموال الى الخارج مما يعني تجميد الاستثمارات الصناعية نتيجة لفقدان تلك الاموال وقد تضافرت كل هذه الأمور وأدت الى تدهور في المجال الصناعي .(١)

كما ألم الضعف بالتجارة الداخلية والخارجية ، فقد شهدت التجارة الداخلية ضعفا ملحوظا نتيجة لانعدام الامن على الطرق والمحطات التجارية الداخلية ، الى جانب انعدام أعمال الترميم والاصلاح ، والغارات التي كان يشنها البدو ، اضافة الى انقطاع وصول السلع الضرورية نتيجة تحكم المغول بطرق المواصلات التجارية المؤدية الى بلاد الشام ، وتعرض التجار والاسواق في داخل البلاد الى عمليات المصادرات والضرائب المتكررة ، ناهيك عن اغلاق الاسواق أثناء حصول الهجوم المغولي .

أما التجارة الخارجية فقد تدهورت نتيجة تحول الطرق التجارية باتجاه ميناء اياس في أرمينية الصغرى الذى أضحى الموئل التجارى للأوربيين والمسلمين .

وفقدت البلاد الرسوم التي كانت تتقاضاها نتيجة لمرور البضائع الاجنبية وهو مايسمى بتجارة الترانزيت - نتيجة لتحول الطرق التجارية عن بلاد الشام ، فقد استطاع المغول تحويل الطرق التجارية نحو بحر قزوين والبحر الاسود ، فأصبحت البضائع التجارية القادمة من الهند والصين تتجه لتلك المناطق بعد أن كانت تمر ببلاد الشام الى البحر الأبيض المتوسط ، وبالتالي الى خسارة البلاد لقسم من عائداتها التجارية .(٢)

---

(١) - ينظر الفصل الخامس: آثار الحملات العسكرية المغولية على الصناعة .

(٢) - ينظر الفصل الخامس: آثار الحملات العسكرية المغولية على التجارة الداخلية والخارجية .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

INTRODUCTION

There is a great wisdom in studying history. There is also a great wisdom in studying the news of the Mogol campaigns. The well-equipped armies were not the important factor in the victory of the Mogols and their invasion of the Islamic cities and capitals one after the other . The troubled political conditions of the Islamic countries were the important reasons for the victory of the Mogols.

The Mogols defeated the Arab Muslims, humiliated them when the Islamic nation was divided into groups and parties . In every city, there was a ruler who has complete control over it and tries to realize his ambitions and to strengthen his rule through conflict with his neighbours and rivals . He forgot his sacred duty to defend his land and to cooperate with his brethren in order to beat the danger which threatens them all .

The Mogols advanced in the direction of the Arab Islamic Orient after they had put an end to the remains of the Khawarismic State which had control over the neighbouring areas; they burned the centers of Islamic civilization, destroyed the centers of science and literature and killed thousands of innocent souls including the children and the elderly. They slaughtered scientists and religious scholars. All historical resources, Islamic or non-Islamic, talk about the crimes committed by the Mogols against the Islamic world. It would be difficult to believe the stories narrated by great and faithful historians who witnessed the crimes and saw victims with their own eyes. It would be difficult to believe the brutality which was practised by the Mogols against the inhabitants. After putting an end to the remains of the Khawarismic State, the Mogols intended to put an end to the Abbasyde Califate . They succeeded in doing that when they killed the Calif Almustasem Billah and the members of his own family . Thus, they put an end to the rule that lasted for more than five centuries. Although this rule became politically weak, it had a great influence before the Mogol invasion .

After conquering Iraq, they directed their forces to Asham Countries. They distributed destruction wherever they passed in addition to killing the inhabitants. This led to important social and economical results . These results were negatively reflected on the Islamic society .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

The Mogols intended to conquer Asham and pass through
: to Egypt to put an end to the Mamlouk State but they could
ɔt achieve their goals . They faced a strong unified army
ıder a brave and wise leadership, insisting to defend its
eligion, land and heritage. The Mogols were defeated by the
ıified Islamic force under the leadership of the Victorious Qutz at
in Gallout Battle . This battle formed an important point in
ıe Arab Islamic history . It stopped the Mogols' attack
emporarily and changed the high tide into a low tide. It
aught the enemies that steadfastedness, firmness and the
trong belief are stronger and more important than weapons and
arthly equipment .

The Islamic nation proved that it is always able to stand
irmly in the face of any danger that may threaten its entity
ad existence.

Any one who studies history may ask himself about the
otives that made the Mogols attack this area and also may ask
imself why they could not succeed . What are the obstacles that
indered their staying in this area for ever ? .

The reasons that made the Mogols attack the area are
umerous and the economical reasons come in the first place .
ney intend to have mastery over the Mediterranean se which
onnects the area with Europe . The Mogol leader Tumberlain
aptured the skilled craftsmen of all kinds and deported them
o special places to make use of their experiences.

After the Arab victory in Ein Gallout, the Arab Islamic
ociety witnessed many defeats by the Mogols. The reasons lie
a the inter-Arab differences. Conflicts emerged between the
amlouk princes and the Sultans in Egypt. The wrong Mamlouki
olicies represented by killing the princes or deporting them
o far away places, these wrong policies led to troubles and
ebels in Asham Countries . Some princes asked help from the
ogol enemy . The enemy welcome them and gave them large areas
f land to get from them some useful information, political
nd military, about the Mamlouki forces.

It is worth mentioning that the Mamlouki Sultans could not
orm a consistent social unity. They lived as an oppressive
lass . Their rule witnessed many conflicts between the Turk
amlouks, who ruled for a long period, and the Sharkas Mamlouks
ho took the place of the Turks in the days of Al-Zaher Barkouk.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

In the field of scientific research, it became clear that
ıe historians could not show yet the reflections of these
ɔgol campaigns against the Arab Islamic society in Iraq, Asham
ountries and Egypt. These campaigns had important economical
nd social reflections upon the society to which we belong in
ur values, habits and principles. The writers focused on the
olitical side . This approach does not suit the development
nich historical studies witness at present . These studies
im at the different social and economical branches of history .
nese branches are the most important and, because of the lack
or information resources, the most difficult .

These matters were the motive for studying the social
nd economical effects resulting from the Mogol campaigns against
sham Countries. I did my best to have a look at most of the
eferences which were written about this period , the period
hich preceded and the period that followed because the roots
nd the stretch of the subject make it difficult to confine
t in a small limited period . I was obliged, in many cases to
o back to preceding or following periods to make the picture
omplete and to cover all the sides of the subject .

I declare here that I faced many obstacles because of the
ack for historical materials that focus on social and economical
ontent. As a result, I was obliged to refer to some pure
conomical resources to explain some phenomena like inflation and
he rise and the fall of the monetary buying value and the causes
hat make the authorities impose heavy taxation.

I made use of what occurred in the historical resources
bout the Mogol Military campaigns. I used this information and
nduced and analysed the events socially and economically in
ccordance with the modern historical approaches; then I followed
t with the results of this analysis and raised some questions
bout every phenomena . I succeeded in finding answers to some
uestions but I failed to find the answers for the others .
nyhow, to raise the question is half the matter and others may
ind the answers later . I tried in most of the subjects in my
esearch paper to explain the social habits and traditions together
ith the economical laws prevailing in the society to be studied
n Asham countries . Then I tried to show the influence of these
ampaigns upon the laws and traditions . My approach through this
tudy is to follow a chronological order beginning with Hollako's
ampaign and ending with that of Tamburlaine's. My interest was
ot focused on the political history of the area because that was
overed by many modern studies . My concentration was placed on

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

the background of the events resulting from these campaigns . Moreover, I dived into the depths of these events to know some of the social and economical effects .

To sum up, we can say that the critical crises which fell upon the authorities were a result of social and economical deterioration . The Sultanate collapsed socially and economically before it did politically . For example, when we go back to Al-Migrizi book "Saving The Nation" , we find out that the author found the fault in monetary inflation and in the conditions of the soldiers....etc.

It is very difficult for any one who tries to study a subject for the first time, to make his way and walk in firm and correct steps . But with the help of my Supervisor , Dr. Suheil Zakkar, who gave me all possible help, put his personal library at my disposal, and facilitated all obstacles, I could fulfil my aim. It is because of his help that my study came to this successful form and became fit to present to you .

My thesis came in five main chapters with an introduction and epilogue. In the introduction , I studied the conditions of Asham Countries politically , administratively and militarily. I gave an idea about Ain Gallout Battle and its importance for stopping the Mogol's expansion towards Egypt. Instead of high tide, it changed the invasion into low tide. It was important because it was a suitable chance for examining the military abilities of the Mamlouks which showed its great abilities in fighting. I studied Homs Battle in A.H. 680 A.H/1280 A.D. and the causes of Muslim's Victory , and Al-Khazandar Battle in 699 A.H. / 1299 A.D. and the failure of Arab Muslims army to stand in the way of the Mogol invasion . This encouraged the Mogol to continue their way towards Homs and them Damascus . They committed great crimes and destruction in the city and in the villages around it . They killed and robbed many people and destroyed many establishments . Then we studied Shakhab Battle A.H. 702/ A.D. 1302 which had a great influence upon the morales of the Nuslim Army. As a result, the Mogol raids stopped for a long period . Then , we talked about the deterioration of the conditions of the Mamlouki Sultanate. This was followed by the arrival of Tamburlaine to Asham countries. Hist campaign caused a great destruction to all religious establishments . I concentrated my study on the liquidation of the Crusader's existence and how their interests were connected with the interests of the Mogols . I studied also the Mamlouki-Armenian

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

to Egypt. T' ... a great need for capitals because of the
taxes impo ... n about the effect of the invasion
in freez ... tments and the great losses caused
by inse ... ountry was influenced a great
deal t ... he skilled craftsmen and
trap ... far away . That caused
gr ... ass industry. The
l ... quality of the goods made.
... of the invasion when
the ma ... d to stopping trade,
internal a ... s stopped as a result of
the change in ... ecially to the far east
(India and China) . ... h became insecure, passed
through the areas conq ... gols like Iraq and Persia.
Aleppo lost its importance ... ield of trade because the ports
of Asia Minor flourished durin ... is period. Asham countries lost
the transit fees. To sum up, we may say that the trade in Asham
countries lost a lot because Attention was paid to the black sea
and Caspian sea and other areas. Many commercial stations lost
their importance because of the change in the roads between the
east and the west. Later , these cities could not restore their
importance because of the Ottoman occupation .

In the end , it is inevitable to say that the Mogol Campaigns
against the centres of Islamic civilization are considered as the
most important in history especially in the seventh and eighth
centuries after Hijra / the thirteenth and fourteenth centuries
A.D. . These Campaigns against Asham countries will remain a type
for the great events in history . It shows the greed of some
people to conquer and own the Arab Islamic land which had the
best human civilization and brought the great leaders, thinkers
and scientists . This truth should be known by all generations in
all conditions. It is a conflict to be or not to be whether the
time was long or short . It is a matter of existence .

At last, I hope that I have succeeded in my study which is the
result of many-year investigation. I have the confidence that I will
be forgiven for the deficiency in my research. God is the only One
who is perfect.

٤٨٠٧٧٢

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

I have the pleasure to present my thanks to my teacher Dr. Suheil ZAKKAR for his valuable recommendations and directions, which helped me a lot in finishing my study .

I also thank all the other teachers who gave a hand in my work .

Thank you, all .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit